



العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الحسن بن علي السلام

الإمامة المنسية

٢-١

تأليف

الأستاذ صالح الطائي

الفائز بالمركز الأول

بمسابقة مؤلف بحق الإمام الحسن عليه السلام الأولى لعام (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)

شعبة الدراسات والبحوث



العتبة العباسية المقدسة

مكتبة الدراسات والبحوث

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٢٢)

هاتف: ٢٢٢٦٠٠٠، داخلي: ١٦٣-١٧٥

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

الطائي، صالح علي، ١٩٥١-
الحسن بن علي عليه السلام : الإمامة المنسية / تأليف صالح الطائي ؛ مراجعة شعبة
الدراسات والنشر. - الطبعة الأولى. - كربلاء : قسم الشؤون الفكرية والثقافية في
العتبة العباسية المقدسة، ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥.
٢ جزء في ١ مجلد ؛ ٢٤ سم
المصادر.
١، الحسن بن علي المجتبى (ع) الإمام الثاني، ٥٠-٣ هـ. - حبيزة. ألف. العتبة العباسية
المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والنشر. ب. العنوان.
BP193.12.A3 T3 2015
الفهرسة والتصنيف في مكتبة العتبة العباسية المقدسة

الكتاب: الحسن بن علي عليه السلام الإمامة المنسية.

الكاتب: الاستاذ صالح الطائي.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشر.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، موفق هاشم عجيل.

الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي - محمد قاسم النصراوي.

رقم التسجيل في دار الكتب والوثائق في بغداد ٢٣١٨ لعام ٢٠١٣ م.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٢٠٠٠.

ربيع الثاني ١٤٣٦ - كانون الثاني ٢٠١٥

مقدمة الناشر

الحمد لله حمداً كثيراً على جميع نِعَمِهِ وله الشكر سبحانه وتعالى على ما فَضَّلَ به المؤمنين باتباعهم لرسوله الكريم وأهل بيته المعصومين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فكانوا هم الهادين وورثة المبعوث رحمة للعالمين، أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وجعلهم حجته على خلقه ومكمن علمه ومفتاح رحمته و﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد..

ما زال قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة يساهم في نشر التراث الإسلامي الخالد الذي يستسقيه من مناهل أهل بيت النبوة ﷺ، ليرتشف القارئ العزيز من هذا المعين الصافي، فمن هذا البيت النوراني شعت أنوار الهداية بفيض كريم أهل البيت الإمام الحسن بن علي المجتبي (صلوات الله وسلامه عليه)، ريحانة المصطفى ﷺ ورابع أهل الكساء، وسيد شباب أهل الجنة عليه من الله أفضل الصلاة والسلام.

فكان الشرف الأسمى لما أبدعته يراعات كتّاب وباحثين كتبوا عن تراث إمامنا المجتبي ﷺ من الذين فازوا بالمراتب الخمس الأولى في مهرجان ولادة الإمام الحسن المجتبي ﷺ لعام ١٤٣٤ للهجرة النبوية المباركة والموافق لعام ٢٠١٣م، التي حملت العناوين التالية:

١. الحسن بن علي ﷺ الإمامة المنسية .

للمؤلف صالح الطائي.

٢. دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن (عليه السلام) .

للمؤلف الاستاذ يوسف مدن.

٣. الإنسانية المثالية عند الحسن بن علي (عليه السلام) دراسة تحليلية في تراثه.

للمؤلف الدكتور رحيم كريم علي الشريفي

٤. تنزيه الإمام الحسن (عليه السلام) ومحكمة النصوص.

للمؤلف منذر كاظم آل هريبد

٥. صلح الحسن (عليه السلام) في فكر المستشرقين.

للمؤلف: كريم جهاد الحساني

وللمساهمة في نشر رسالة الإسلام المحمدي الخالد متمثلاً بتراث الإمام السبط المجتبي (عليه السلام) ، ومن بركات راعي الجود و الفضل قمر الهواشم العباس بن علي (عليه السلام) ، نقدم بين يدي القارئ العزيز هذه المساهمة لإحياء أمر أهل بيت الرحمة (عليهم السلام) كما أمرنا، روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) ، انه قال : «رحم الله عبداً أحيا أمرنا، فقليل له: فكيف يحيي أمركم؟» ، قال (عليه السلام) : يتعلم علومنا ويعلمها الناس فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا»^(١).

و نسأل الله تعالى ان يتقبل هذا العمل بقبول حسن ، أنه كريم مجيب .

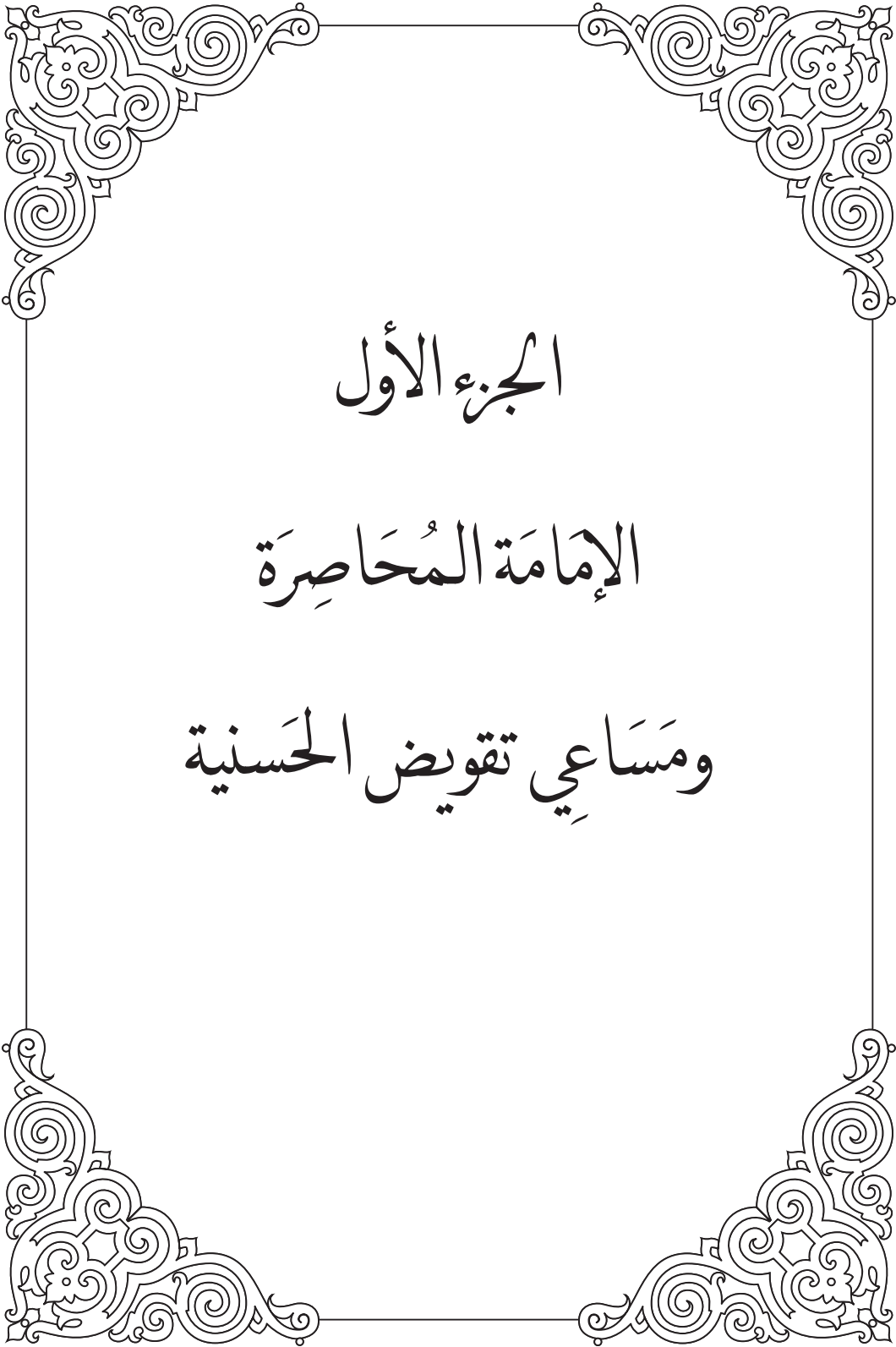
والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

الناشر

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

في العتبة العباسية المقدسة

(١) معاني الأخبار: الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي .



الجزء الأول

الإمامة المُحَاصِرَة

ومَسَاعِي تقويض الحسنية

المقدمة

المكتبات^(١) ولا سيما الإسلامية الشيعية منها مترعة بصنوف الكتب والمؤلفات والبحوث والمقالات بكل ما له علاقة بالإسلام والنبى ﷺ وأئمة أهل البيت ﷺ، فضلاً عن كتب الفقه والأحكام الفقهية الإسلامية والحلال والحرام، ولكنها تفتقر - وللأسف الشديد وبشكل كبير - إلى ما يكتب عن الإمام الحسن بن علي ﷺ، لذا وجدت موضوع الكتابة عن العصر الحسيني شائقاً وشائكاً، شائقاً من حيث كونه يمثل نوعاً من التلذذ العقدي والفكري بالحديث عن شخصية من أهم الشخصيات الإسلامية التي أسهمت في ترسيخ مبادئ الدين الحنيف بتضحيتها الكبيرة والعظيمة، وشائكاً من حيث كونه يستوجب مناقشة جوانب بالغة الحساسية من حياة إمام معصوم قام أو قعد بصراحة موضوعية مطلقة؛ بكل ما ينضوي عليه هذا العمل من استفزاز ممكن أن يخلق مخاطر يحدثها التفسير التلقائي أو التأويل المقصود والمتعمد، وهو تفسير وتأويل

(١) يقول الأستاذ المصري توفيق أبو علم: «وبعد فعندما بدأت الكتابة عن أهل البيت كانت مهمتي سهلة وصعبة، وتأتي السهولة عن بعض الشخصيات الكريمة من أهل البيت لكثرة مصادرها، وصعبة في الكتابة عن بعضها الآخر لقلّة ما كتب عنه وفي مقدمتهم سيدي أمير المؤمنين أبي محمد الحسن السبط ﷺ، وقد كنت أتهيب دراسة هذه الشخصية فالذين كتبوا عنه وهم قليل حاولوا أن يشوهوا وجه الحق ويفسدوا حرية البحث، فالمكتبة العربية ينقصها المراجع عن الإمام الحسن، وعلى العكس هي زاخرة بالمؤلفات عن الشهيد الإمام الحسين ﷺ، ولست ادري السبب الذي من أجله أحجم الكثير عن الكتابة عن هذه الشخصية الفذة، ففيها نواح كثيرة جديرة بالبحث والدراسة، فهو بلا شك رجل السلام الأول) ينظر: ص ٧٨ أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، مصر.

قد يكون دافعه طلب العلم أو ضيق الأفق الفكري أو التعصب أو الفهم الخاطيء، أو حتى العدااء الشخصي، بمعنى أنه مفتوح أمام كل الاحتمالات حسننها وقيبحها، وهو الموجود على أرض الواقع فعلاً، فقبالة ما يكتب طلباً لرحمة الله ورضوانه هناك ما يكتب طلباً لرضا الشيطان وتخريب سريرة الإنسان.

ولما كان هناك من يرى في كلا المنهجين الرحماني والشيطاني حراكاً فكرياً ينمي قدرات الإنسان الذهنية ويشحذ قدراته الفكرية، بات لزاماً علينا أن نستعد للمواجهة الفكرية بسلاح العقل ودعم المنطق بعيداً عن كل تشنج وخروج على قواعد الدين، وهو ما يحتاج منا أن نعيد ترتيب أولوياتنا، فنحن اليوم في عصر المعلومة المطلقة التي تنتقل عبر الأثير حول العالم بلمح البصر بل أسرع، وفي تنقلها تُنظَّم وتدمر وتُغير وتُثبت، وتفصح وتوضح وتدعم وتحفز وتدفع وتجذب وترفع وتخفض تبعاً لما يريدونه لها، وليس من المعقول أن لا نلحق بركب التغير فنبقى متوقعين في أماكننا وعالقين في موروثنا نعمل بنفس آلياتنا وعدتنا القديمة الهرمة؛ لأننا إذا بقينا على ما نحن عليه لن نلحق بالركب، وسنكون من سقط المتاع الرخيص الذي لا يبحث عنه أحد، فالتجديد واجب ظرفي تحكمنا به معطيات الحضارة المعاصرة وسيل الأفكار الغربية التي يتم تداولها في المجتمعات الإنسانية اليوم.

ومما يحتاج إلى التغير والتنوير موضوع الكتابة عن شخصيات التاريخ الخالدة التي تعرضت إلى عسف وجور وظلم الحكام السلطويين الدينيين، وتعرضت سيرتها إلى تخريب وتشويه ودس بعض المؤرخين والكتاب والباحثين، وفي سياق الاحتياج هناك ضرورة قصوى لإكثار وتنويع ما يكتب عن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فالكثافة عن الإمام الحسن عليه السلام من الندرة بشكل يدعو إلى الدهشة الكبيرة؛ لدرجة أنها

تبدو أحياناً مقصودة ومتعمدة، وهناك كتابات أخرى تبدو وكأنها تتنافس معها.

قبل سنوات انشغل صديقي البروفسور الأمريكي (أبونمر) بكتابة بحث عن (السلام في الإسلام) وهو الموضوع الذي شاءت الإرادة الدولية مدعومة بالحركة الصهيونية ومنظمة الماسونية العالمية والحركات الإسلامية المتطرفة وبعض تيارات الإسلام السياسي أن لا يظهر إلى النور لأنه يقلب الكثير من الموازين ويغير الكثير من القناعات؛ فلجأ إلى مكتبة الكونغرس وهي من أكبر المكتبات العالمية إذا لم تكن أكبرها على الإطلاق باحثاً عن مصادر ومراجع للموضوع الذي يريد الكتابة فيه، يقول: «فوجدت آلافاً مؤلفة من المواد السمعية والبصرية على شكل شرائح، سلايدات، أفلام، صور، محاضرات، كتب، مجلات، جرائد، بحوث ومقالات، ودراسات كلها تتحدث عن العنف في الإسلام، تتحدث عن الجهاد وقتل المخالف وتنظيم القاعدة الإرهابي وتفجيرات أيلول وخطف الطائرات والتفجير والتفخيخ والذبح والحرق والاغتصاب وزرع المخدرات والمتاجرة بها لتمويل العمليات الإرهابية وبيع الأعضاء البشرية وكل الأعمال القمئية القبيحة الأخرى التي ترتكب باسم الإسلام».

وقال أيضاً: «ولم أجد سوى بضعة مطبوعات بائسة تتحدث عن الموضوع الذي أبحث عنه!».

ولقد تذكرت مقولته تلك وأنا أبحث عن ما كتب عن الإمام الحسن عليه السلام لأتم بحثي هذا، وما قاسيته من عناء بهدف الحصول على مصادر للبحث.

إن وظيفة الكتابة عن الإمام الحسن عليه السلام لا تقل في أهميتها عن وظائف الكتابات العقائدية الأخرى سواء تلك التي تتناول سير الأئمة المعصومين عليهم السلام، أو كتب الفقه والأخلاق والمنطق والتربية، ويجب على من يكتب عنه أن يتجاوز المألوف وينحاز

عنه وإلى تاريخه ليعيد كتابة التاريخ الحقيقي بدلاً عن التاريخ المستباح الذي تلاعبت به الأفلام والعقول والأهواء والغفلة والسياسة؛ قال رولان بارت: «لم يكن هيبير يبدأ أي عدد من أعداد مجلة (الأب دوشين) مطلقاً دون أن يضع فيه بعض الكلمات البذيئة، ولم تكن هذه البذاءات دالة على شيء؛ ولكنها تشير إلى موقف ثوري كامل. هذه إذن مثال على الكتابة التي ليست وظيفتها الإيصال أو التعبير فحسب، بل فرض أمر يتجاوز اللغة، وهو التاريخ والانحياز إليه بأن واحد».^(١) وهذا يعني أن تقديم الجديد للناس حتى ولو كان خادشاً للحياء ممكن أن يشدهم إلى المعلومة التي تمرر من خلال الموضوع، وأنا أوردت القول على سبيل المثال لا أكثر جرياً على قاعدة (الأمثال تضرب ولا تقاس).

وهي ليست نبوءة تلك الجملة التي قالها رولان بارت: «والحال أن التاريخ يتصرف بكل وضوح حيثما يكون مرفوضاً».^(٢)

فنحن بحكم كون التاريخ ظلمنا أو ظلم معتقدنا بات عندنا أكثر وضوحاً مما هو عند غيرنا من المسلمين الآخرين، ولذا تجد تفكيكنا وتفسيرنا له يختلف عما هو عندهم، بل تجدنا نتابع مفرداته وجزئياته لا كما يتابعونها، وقد نفاجئهم أحياناً بما نصل إليه فيروه جديداً، وكأنه لم يمر عليهم من قبل، بل قد يعتقدونه من مختلقاتنا الحديثة لأن كتبهم لم تذكره أو أغفلته. ولذا أصبح لزاماً علينا أن نواصل منهجنا ونوصل رؤيتنا التاريخية إلى أهلنا وأقربائنا من المسلمين لنقوم بعض اعتقاداتهم الخاطئة الموروثة عن فكرنا وعقيدتنا، ولننبههم إلى مواطن الضعف التي إختلقها الحراك السياسي وجعلهم

(١) الكتابة في درجة الصفر، رولان بارت، ترجمه عن الفرنسية الدكتور محمد نديم خشفة، مركز

الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢، ص ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦.

يؤمنون بها. وفي طريقنا نكشف غموض المناطق الخفية والمسكوت عنها أو تلك التي لم يخض غمارها أحد من قبل، ونثبت للجميع أن التاريخ لا يملك القدسية التي يضيفها بعضهم عليه، حيث يتفق الباحثون على أن تاريخنا الإسلامي كان دراية أولاً ثم رواية ثانياً وبعدها كتابة ثالثاً، وهذا يعني بأنه لم ينجح بالحفاظ على اتزانه خلال التنقل عبر هذه المراحل الثلاث ولا سيما أنه تعرض خلالها إلى عسف وظلم كبيرين فتلون بغير لونه الحقيقي.

وليكن هذا المشروع جزءاً من أهدافنا المقصودة، ولا ننسى أن أحد أكبر الأخطاء القاتلة التي يمكن أن يرتكبها الباحث هو أن يكتب بدون هدف، فلا بد من تحديد هدف بعينه ورسم الطريق إليه بوضوح شديد وتأن وصبر وعلمية؛ فالعالم اليوم لم يعد مستعداً لسماع أو قراءة المزيد من الحماقات والتفاهات، العالم اليوم يبحث عن الجديد المدهش حتى ولو كان عن طريق إعادة تفكيك أسرار الموروث القديم.

إن مفهوم (الكتابة في درجة الصفر) الذي استنبطه رولان بارت أصبح اليوم أحد المفاهيم المعيارية التي فرضت حضورها في المصطلحات النقدية المعاصرة، ولا بأس أن نتعلم ما ينفعنا من الآخرين ما دام متوافقاً مع العقيدة؛ وهو ما قد يخدمنا في سعيينا لإحياء منظومة الإمام الحسن بن علي عليه السلام الجهادية التي هي امتداد طبيعي لمنظومة جده النبي محمد صلى الله عليه وآله وأبيه الإمام علي عليه السلام، ومع توظيف هذه المعطيات لا يعفى أحد من التقصير المتعمد بحق الإمام الحسن بن علي عليه السلام مهما قدم من أعذار، فالتقصير المتعمد الذي نحن عليه اليوم يؤكد أن الإمام الحسن عليه السلام مظلوم من أتباعه قبل أعدائه، ومن محبيه قبل مبغضيه.

فضلاً إنك لو تابعت البحث عن ما كتب من مؤلفات في الإمام الحسن عليه السلام سوف

تجد مع هذه القلة أن كتابات المدارس الإسلامية الأخرى عنه وعن سيرته يفوق ما كتب عنه في مدرسة أهل البيت عليه السلام أو يساويه، وسبب هذا التباين أن الآخرين -ولاسيما أحفاد السياسيين- أرادوا توهين المذهب من خلال القول بشرعية حكم الأمويين الذين تنازل لهم الإمام الحسن عليه السلام. وأن الشيعة لم يفهموا عظمة موقف وحرّاك وثورة وصلاح الإمام الحسن عليه السلام!.

وفوق هذا وذاك وجدت أن في الذاكرة الجمعية الشعبية انطباعاً سائداً بأن رجل الحرب والقائد الثائر مقدم على رجل السلم والثائر لإحلال السلام بالسلام ورفض الحرب، ولذا يبحث الناس عما كتب عن الثوار المقاتلين ويتابعونه أكثر مما يبحثون عن كتب أبطال السلم مثل الإمام الحسن عليه السلام. ولهذا السبب تولدت لدى أصحاب المكتبات صغيرها وكبيرها قناعة بأن ما يكتب عن الإمام الحسن عليه السلام يكسده في مكتباتهم ولا يسأل عنه إلا القلة من القراء والمتابعين والباحثين، ولقد جابهني بهذه الحقيقة أحد أصحاب مكتبات البيع بالجملة في الكاظمية المقدسة فدهشت من جرأتهم!.

ولذا عانيت كثيراً في بحثي عن ما يعينني في كتابة بحثي هذا؛ فأنا عادة حينما أبدأ بكتابة بحث ما أبدأ بجمع ما في مكتبتي العامة من مصادر ومراجع وأضعها بالقرب مني، ثم أدور على مكتبات ومعارض بيع الكتب لأشتري ما له علاقة بالبحث. وحينما نويت البدء بهذا الكتاب انتبعت للمرة الأولى على أن مكتبتي فقيرة فيما يخص الإمام الحسن عليه السلام، فقامت بزيارات متكررة لأغلب المكتبات بما فيها المكتبات العامة ومكتبات المؤسسات الدينية في محافظة واسط بحثاً عن كل ما يمكن أن يرفد البحث فوجدتها شبه خالية من ذكره، ثم زرت الكاظمية المقدسة وتجولت على المكاتب فلم أعثر إلا على ثلاثة عناوين قديمة؛ منها اثنان عن الصلح، فضلاً عن مجموعة كراسات لا تسمن ولا

تغني من جوع فكري. ولو عقدنا مقارنة بين ما كتب عن الإمام الحسن عليه السلام وما كتب عن أخيه الإمام الحسين عليه السلام سنجد بوناً شاسعاً وفرقاً كبيراً، ولا نجد وجه مقارنة مطلقاً مع أنها «إمامان قاما أو قعدا» وهذا مما زادني إصراراً على الكتابة عن الإمام الحسن عليه السلام.

نعم هناك بيننا من يرى أن امتداد حياة أي من الأئمة المعصومين عليهم السلام هو امتداد طبيعي لحياة سلفه، وأن ما يكتب عن الإمام الحسين عليه السلام يأتي كمحصلة للإمام الحسن عليه السلام، وأرى أن ذلك لا يعفينا من التقصير لأن لكل منهما ملامحه وخصوصياته التي لا يشترك بها مع الآخرين، ونحن لو كنا نؤمن حقاً على أرض الواقع بهذه الامتدادية ما كنا قد أوقفنا جهدنا على بعضهم وتجاوزنا البعض الآخر أو كدنا ننساه. وقد آن لنا أن نصلح منهجنا العتيق هذا لنعطي كل إمام من أئمتنا المعصومين عليهم السلام حقه علينا وعلى الأمة كاملاً غير منقوص من خلال البحث والتقصي والمتابعة في بطون كتب التراث والتاريخ والأدب وكل فنون الكتابة القديمة؛ فلا بد وأن نجد فيها ولو نُتِفَتْ تعيننا في بناء وجهات نظرنا التي متى ما جمعت خزيناً كافياً ممكن أن تطلق وهجاً وألقاً يعانق عنان السماء، ويجعل الناس يعيدون حساباتهم.

إن الكتابة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أمر صعب بالرغم من توافر الكثير من المصادر والمراجع والأحاديث والروايات والقصص الشفاهية الموروثة، وأصعب ما في هذا اللون من الكتابة هو التهيب الذي يشعر به الكاتب وهو يخوض غمار بحور لجية عاتية خفي أمرها عن أقرب المقرئين؛ فكيف بمن تفصل بينهم وبينه حقب وعصور وأزمنة ودهور وأيام صعبة مليئة بالمحاذير، وسياسات إقصائية امتازت بالعسف والجور. ولذا كتبت هذا البحث وأنا متهيب حذر، ألتمس مواطن النصرة وبواعث

التأييد عسى أن أبريء ذمتي أمام سيدي الثائر الكبير الإمام الحسن بن علي عليه السلام. وهمي الأول في هذا البحث أن أثبت بأن المجتمع العربي الجاهلي ثم المجتمع العربي الإسلامي الذي وقف قبالة المشاريع البنائية للإمامين علي بن أبي طالب والحسن بن علي عليهما السلام كانا مجتمعان يعرفان السياسة وفنونها ويحسنان التنظير السياسي بما يرقى إلى أساليب المدارس السياسية المعاصرة، ويتجاوزه أيضاً، وأن السياسيين من أبناء المجتمع الإسلامي الأول استخدموا براعتهم السياسية للوقوف بوجه الدين متمثلاً برجاله الأفاضل وقادته الحقيقيين للحد من قدراته؛ ومن ثم السيطرة عليه وترويضه لخدم ممالكهم وممالكهم؛ وبالمحصلة، الوقوف بوجه الممثلين الشرعيين للدين وهم الأئمة المعصومين عليهم السلام وتغيب فكرهم لكي لا يكون منافساً للأفكار التي يبغون الإتيان بها.

ولأن السياسة نجحت بهذا الشكل فلا بد وأنها حازت رضا بعض عامة الناس عن مشاريعها ورضا بعض الإفتائيين عن أحكامها، ثم أصبح هؤلاء وهؤلاء عوناً لها، فلما نجح السياسيون في الخلط بين الذروتين السياسية والدينية والتوفيق الفكري بينهما تحولت أفكارهم المستحدثة إلى دين، وتحول الدين إلى سياسة دنيوية، فضاعت الملامح الأصلية وولدت بدلاً منها ملامح هجينة جمعت الدين والسياسة ببوتقة واحدة، ولذا نجد كثير من المسلمين يربطون التاريخ الإسلامي بالدين ربطاً محكماً ويضفون عليه قدسية من قدسية الدين ولا يرضون لأحد أن يعيد تفكيكه وتركيبه وبناءه وصياغته، ويعدّون ذلك تطاولاً بل كفراً بالرغم من أن التاريخ شذ غالباً عن الدين، بل واتخذ مساراً مخالفاً للدين بعيداً عنه أو موازياً له، فإذا ما أقدم شخص ما على إزالة ما فيه من خلط يصوّبون عليه تهماً ويصوّبون إليه سهام النقد وقد يكفرونه ويحكمون عليه بالموت، فيدفعون من يُنقذ تهديدهم بسبب اضطراب فهمهم وتحجرهم وخوفهم من كشف بعض المستور والمسكوت عنه ولا سيما منه ما تم الحجر عليه في مساحات مقفلة لا يجب

الولوج إليها وخوض غمارها.

إن التهلك الفكري الذي أحدثته السياسة العربية بعد البعثة المشرفة ليس بدعاً من القول، بل هو وعد ما وعدنا الله به أنه سوف يقع يوم تتفكك الأمة إلى أمم والعقيدة إلى عقائد والقبيلة إلى قبائل والعائلة إلى عوائل، وقد أورد أيوب السخيتاني حديثاً قدسياً جاء فيه: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ بْنُ حَسَابٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنَعَانِيِّ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ الرَّحْبِيِّ، عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ، رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ زَوَى لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ مَلَكَ أُمَّتِي سَيَلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَإِنِّي أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةِ بَعَامَةٍ، وَلَا يَبْسُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا فَيُهْلِكُونَهُمْ بِعَامَةٍ، وَلَا يَلْبِسَهُمْ شَيْعًا وَلَا يُذِيقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، إِنِّي أُعْطِيتُ أَمْتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكُهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ، وَلَا أَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَاهُمْ فَيُهْلِكُونَهُمْ بِعَامَةٍ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَبَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِي بَعْضًا»^(١) وهكذا كتب على هذه الأمة أن «يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَبَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِي بَعْضًا» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢).

أما الكتابة عن الإمام الحسن عليه السلام فالحديث عنها يطول، وعليه أرفع أسمى آيات

(١) جزء فيه من أحاديث الإمام أيوب السخيتاني، القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهمضي (المتوفى: ٢٨٢هـ) المحقق: د. سليمان بن عبد العزيز العريني، مكتبة الرشد وشركة الرياض - السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩، حديث رقم ١٨.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٥٣.

الشكر والعرفان لذوي المقامات الباسقة من الرجال العقائدين المشرفين على القسم الفكري في العتبة العباسية المقدسة الذين تميزوا بالتفرد الإبداعي عن غيرهم على مبادرتهم الكريمة هذه متمثلة بالدعوة للكتابة عن الإمام الحسن عليه السلام؛ وعن فكره وتراثه ومسيرته الجهادية والعبادية. إذ لا بد وأنهم رصدوا هذا القصور وأرادوا معالجة هذا التقصير، فشكراً للمتوضئين بعبارات الإيثار؛ المخلصين لأجداد الأئمة؛ الواهبين حياتهم لإصلاح ما أفسده الدهر، شكراً لهم على دعوتهم الكريمة وجهدهم المشكور.

أما البحث فقد قسمته إلى جزئين، تناولت في الجزء الأول الحراك السياسي العربي قبل وبعد البعثة المشرفة وأثره على حركة الدين الإسلامي عامة ومسيرة أهل البيت عليهم السلام خاصة، وحقبة الإمام الحسن عليه السلام بشكل خاص، وتناولت فيه نماذج من أساليب التشكيك التي مارسها السياسيون لتسقيط الإمام الحسن عليه السلام تاريخياً بعد أن ظنوا أنهم نجحوا في تسقيطه دينياً وسياسياً. وقد قسمت هذا الجزء إلى ستة فصول، هي:

الفصل الأول: السياسة الدنيوية.

الفصل الثاني: الحياة السياسية قبل وبعد عصر البعثة.

الفصل الثالث: النزاع السياسي مع الخط العلوي.

الفصل الرابع: انموجات سياسية في تاريخ العرب.

الفصل الخامس: النزاع السياسي مع الخط الحسني.

الفصل السادس: السياسة الدينية.

وتناولت في الجزء الثاني تفكيك ومحكمة حركاتهم السياسية الكبيرة وصولاً إلى الصلح، لأثبت من خلال ذلك أنهم فشلوا في كل مساعيهم، وأن الحسن عليه السلام وبالرغم

من تنازله عن الخلافة انتصر عليهم ونجح في إيصال العقيدة إلى الأجيال. كما قسمت الجزء الثاني إلى ستة فصول أيضاً، وهي:

الفصل الأول: قصة زوجاته التسعة!.

الفصل الثاني: صدق الأئمة وكذب السياسيين.

الفصل الثالث: الصلح في الجزئية والكلية.

الفصل الرابع: الأغيلمة والشجرة الخبيثة والبغاة.

الفصل الخامس: المدارس الفقهية وموضوع الصلح.

الفصل السادس: الصلح والقواعد الفقهية.

وآخر ما أريد قوله: أنه لولا مواقف الإمام الحسن عليه السلام الجهادية الرائعة لكان الإسلام الحقيقي قد ضاع، ولكان الإسلام الأموي قد تسيد الساحة وتعبدت به الأمة إلى اليوم، فلا نجد ذكراً للتشيع أو ذكراً للمذاهب الإسلامية الأخرى، ولا تجد ذكراً للطيف الإسلامي المتنوع الموجود اليوم؛ والذي كان السبب في تنشيط الحركة الفكرية الإسلامية، وتلك وربي منقبة لا تدانيها المناقب، ومن خلال هذه المسيرة الصعبة سوف يتضح أننا مدينون للإمام الحسن عليه السلام بتمسكنا بإسلامنا، بحبنا لبنينا، بإخلاصنا لأمر المؤمنين، بحبنا للحسين، بفخرنا بمذهبنا، بتمسكنا بعترتنا نبينا الأئمة الأطهار، وبانتظارنا لقائم آل محمد عليهم السلام.



الفصل الأول

السياسة الدنيوية

السياسة الدنيوية

تقديم:

نوعان من السياسة أدارتا ميزان الصراع في العالم الإسلامي في مرحلة التأسيس منذ الأيام الأولى للبعثة المشرفة وحتى عام ٤١ هجرية، وكانتا السبب في وصول الإسلام إلى ما هو عليه اليوم، وهما: السياسة الدينية ممثلة بالأخلاق والنظم والقواعد التي جاءت بها الرسالة المحمدية السمحاء؛ والداعية إلى تكريم الإنسان ورفع شأنه وإنقاذه من سطوة نفسه وعسف الآخرين. والسياسة الدنيوية متمثلة بطلاب الدنيا ومتعها، الذين وجدوا في الدين الجديد تهديداً كبيراً لمصالحهم ومواقعهم ومكتسباتهم وقوتهم ونفوذهم وسطوتهم فحاربوه؛ ثم لما انهزموا التفوا حوله وجعلوه لمصلحتهم، وجردوه من ألقه وروعته وصبغوه بغير لونه.

ويبدو لمن لا يتعمق في استقراء النتائج ويتوثق من مسارات السنن أن السياسة الدنيوية انتصرت في هذه الحقبة؛ لأنها نجحت في مرحلة القيادة التي تلت مرحلة التأسيس في بناء إمبراطورية وُلدت من رحمها إمبراطورية ثانية، ومن زواج سفاح بينهما ولدت إمبراطوريات عديدة قيئة لا ترتبط بقراءة نسب مع من سبقها، وإنما تربطها معهم قرابة فكر وعقيدة؛ وهو الأمر الذي استمر وصولاً إلى عصر الإمبراطورية العثمانية التي سلبت العرب والعالم الإسلامي حقوقهم وكرامتهم وأمواهم، وأسهمت في تخلفهم وتردي منظومات حياتهم الدينية والأخلاقية.

إن الإيمان بهزيمة الدين وانتصار السياسة يبدو نظرة أحادية فيها الكثير من القصور، إذ يكفي أن السياسة الدينية - مع كل التزامها القيمي والأخلاقي والمجتمعي الذي وقفت به قبالة خبال وغدر وختل وجرم الدنيويين - نجحت في كلا المرحلتين في الحفاظ على بيضة الدين وروح العقيدة وأسس التعبد بالرغم من تتابع الهجمات وشدها ودمويتها وديمومتها، ولا سيما تلك التي وقعت بعد هذا التاريخ، والتي كان مقتل علي وسم الحسن ومقتل الإمام الحسين عليه السلام وأهله وصحبه من ثمارها، وهذا ما يحكم به المنطق السليم؛ وللمنطق حكمه وحكمته، فلطالما شغل المنطق حيزاً كبيراً من منظومة البشر الفكرية والعقدية لدرجة أنه أصبح في بعض العصور منهجاً تدار به الإمبراطوريات مع اتفاق الجميع بأنه «ثمة حدود للمنطق... ولا يمكن تفسير أكثر الأشياء أهمية بالمنطق وحده... ولكي يفعل المنطق فعله لا بد للمرء من نقطة انطلاق... لأن المنطق الخالص لا يستطيع أن يتعامل مع التعقيد»^(١).

لكن المنطق يعجز عن استيعاب ما حدث في عالمنا الإسلامي منذ الساعات الأولى لوفاة النبي صلى الله عليه وآله لأنه ليس شيئاً أقل عجباً من المستحيل في الأقل على مستوى التفكير الجمعي العام، لأن علماء الأمة كانوا مدركين للحراك السياسي والقبلي الدائر في المجتمع ولا سيما وأن بواده بانت في عصر البعثة كمشروع بديل لمشروع الحرب المباشرة الذي هزمته وقوضته قوة الإسلام بعد أن فككت قواعده الجماهيرية يوم باتت العقيدة تقاتل بمفاهيم السماء أصحاب المفاهيم الرجعية الشريكة المتخلفة. وليس هذا بشكل عام إلا الموقف السياسي الذي تحكم بالأحداث اللاحقة منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا الحاضر

(١) بتصرف من الحضارات في السياسة العالمية، وجهات نظر جمعية وتعددية، بيجري كاتزنشتاين، ترجمة فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٣٨٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص ٢١٠-٢١١.

وإلى عصر الظهور المقدس.

السياسة العرب

تسهم دراسة وتفكيك الجزئيات الصغيرة عادة بفهم وفضح ومعرفة خفايا كليات كبيرة كان يراد لها أن تبقى في عالم الغيب وحصون السر الخفي، ربما لأنها من الصغر، بحيث لا تجلب الانتباه ولا تثير تساؤلاً. وواحدة من هذه الجزئيات الصغيرة بحجمها العظيمة بدلايتها تتألف من قسمين وقصتين يستشف منهما حقيقة المنهج الذي سار عليه كل من الخططين المتوازيين: خط الدينين وخط السياسيين؛ القسم الأول: قصة قصر معاوية ومسجد علي عليه السلام، والقسم الثاني: قصة الماء والحكم الشرعي الإسلامي، والقسمان ينضويان تحت حدث واحد ويشغلان مساحة جغرافية واحدة؛ حيث يتأكد من هاتين القصتين أن السياسيين الدنيويين الذين كان يمثلهم معاوية الذي استخدم كل ما تعلمه من تلون وغدر سياسي للإيقاع بغريمه؛ لا ينسون دنياهم في أي وقت سلماً كان أم حرباً، وتبقى دنياهم ومتعتها هي المقصد والغاية.

عن قصة الماء، قال دحية الكلبي في أحاديث صفين: «وكان أهل الشام قد سبقوا إلى المشرعة من سائر الجهات، ولم يكن ثمة مشرعة سواها للواردين والواردات، فمنعت علياً عليه السلام إياها وحمتها عنه تلك الأكمات»^(١).

وقال المسعودي: «وسار معاوية من الشام، وقد تنوزع في مقدار من كان معه، والمتفق عليه من قول الجميع خمسة وثمانون ألفاً، فسبق علياً إلى صفين، وعسكر في موضع سهل أفيح اختاره قبل قدوم علي، على شريعة لم يكن على الفرات في ذلك الموضع

(١) أعلام النصر الممين في المفاضلة بين أهلي صفين، أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي (٦٣٣هـ / ١٢٣٥ م) دراسة وتحقيق الدكتور محمد أمزون، تقديم الدكتور سامي الصفار، مراجعة الدكتور محمود محمد الطناحي، دار الغرب الإسلامي، المغرب، ١٩٩٨، ص ٥٤.

أسهل منها للوارد إلى الماء، وما عداها أخراق عالية، ومواضع إلى الماء وعرة، ووكل أبا الأعور السلمي بالشرية من أربعين ألفاً، وكان على مقدمته، وبات علي وجيشه في البر عطشا قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء»^(١).

ولقد استغل الإمام علي عليه السلام هذه المناسبة ليذكرهم بواجبهم الشرعي قبل أن يجبرهم جنده على الفرار، فما أطاعوا، فأهل الدين لا يتركون مناسبة تمر دون أن يُذكروا الناس بقواعد الشريعة وترى كيف أن الإمام الحسن عليه السلام أتبع المنهج الإرشادي نفسه مع معارضيه من السياسيين مثل مروان بن الحكم.

وأما عن قصة المسجد والقصر فقد قال دحية الكلبي متحدثاً عن معاوية: أنه بنى في أرض معركة صفين قصراً ليوفر الراحة لنفسه في دنياه التي يقاتل من أجلها (وذكر ابن ديزيل بسنده أن معاوية لما بلغه مسير علي إليه سار حتى ورد صفين في النصف من المحرم، فسبق إلى سهولة المنزل وسعة المناخ وقرب الماء من الفرات، وبنى قصر بيت ماله، وفيه شعر وكلام طويل كرهت إirاده مع أن طول المدة التي أقاموا فيها تقتضي بجواز هذه النقول)^(٢).

وعلى الجانب الآخر نجد أتباع السياسة الدينية ممثلين بعلي بن أبي طالب عليه السلام يتعاملون مع موضوع الماء بأسلوب آخر، فهم بعد أن أزاحوا السياسيين عن الفرات الذي منع ماءه حينما كان الدنيويون مسيطرين عليه، نجد قائدهم الإمام يكتفي بما يسد رمق جنده ثم يبيع الماء لأهل الشام حينما يسيطر عليه جنده البواسل ولا يمنع عدوه الشرب.

(١) مروج الذهب، المسعودي، ج ٢، ص ٣٩٢-٣٩٣

(٢) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية

الكلبي، ص ٥٣.

ونجدهم يتعاملون مع موضوع القصر بأسلوب نابع من عمق قيم دينهم؛ فالبنا الذي شيده عليؑ قبالة ذلك القصر المنيف الفخم المهيّب الذي شيده معاوية؛ ليس أكثر من بناء بسيط جداً عبارة مسجد طيني كان يقيم فيه صلاته التي يقاتل من أجلها، قال دحية الكلبي: (ثم بنى مسجداً على تل بأعلى الفرات ليقوم فيه مدة مقامه فرائض الصلوات لفضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة)^(١).

لقد أراد السياسيون تحويل النزاعات البينية إلى مدرسة تعلم كلّ ما هو مخالف لسليقة الإنسان، وتُخرج دفعات همها الأوحدرغباتها ومتعها ودنياها. أما الدينون فإنهم كانوا يللمون تلك الفضائح ويحوّلون تلك المناسبات إلى صفوف لتدريس العقيدة وتثبيت الإيمان، وكانوا يعملون بموجب بنود العقيدة والشرعة؛ خلافاً لما يصدر عن السياسيين، فمقابل إصرار الشاميين على منع علي وجنده من ماء الفرات وقف عليؑ قبالتهم: (فذكرهم بالمواعظ الحسنة والآيات وحذرهم بقول النبي ﷺ: «فمن منع فضل ماء بفلاة» فردوا قوله وأجابوه بأسنة الطيبي^(٢) إلى أن قاتلهم بالقواضب^(٣) والسمهريات^(٤)) فلما غلبهم عليها أباحها للشاربين والشاربات^(٥).

وقال المسعودي: «وورد عليؑ فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية فقال معاوية لعمر بن العاص: يا أبا عبد الله، ما ظنك بالرجل أترأه يمنعنا الماء لمنعنا إياه؟ وقد كان انحاز بأهل الشام إلى ناحية في البرانية عن الماء، فقال له عمرو: لا، إن الرجل جاء لغير

(١) أعلام النصر الميين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص ٥٤.

(٢) في الأصل الطباء، والطبي جمع طبة، وطبة السيف: هي طرفه وحده. ينظر لسان العرب

لابن منظور، الجزء ٢، ص ٦٤١.

(٣) القواضب: السيوف الدقيقة: ج ٣، ص ١٠٨.

(٤) السمهريات: الرماح الصليبية العود، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٠.

(٥) ينظر: أعلام النصر الميين، ص ٥٤.

هذا»^(١).

لقد خطا الإمام الحسن عليه السلام الخطوة نفسها مع عدوه السياسي مروان عندما لم يلتفت إلى الخصومة التي كانت بينهما وإنما انتبه على مخالفة غريمه لقواعد وتعاليم الدين، فقام بتنبيهه وتذكيره بواجبه الشرعي الذي أغفله، قال محمد بن سعد: «حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا مسافر الجصاص، عن رزيق بن سوار قال: كان بين الحسن عليه السلام وبين مروان خصومة، فجعل مروان يغلظ للحسن، وحسن ساكت، فامتخط مروان بيمينه، فقال له الحسن عليه السلام: ويحك! أما علمت أن اليمنى للوجه والشمال للفرج؟ أف لك. فسكت مروان»^(٢).

وفي السياق نفسه، أورد الصلابي عن سير أعلام النبلاء وتهذيب الكمال وفتح الباري، أنه: «كان بين الحسن بن علي ومروان بن الحكم كلام، فأقبل عليه مروان فجعل يغلظ له والحسن عليه السلام ساكت، فامتخط مروان بيمينه، فقال الحسن عليه السلام: ويحك أما علمت أن اليمين للوجه والشمال للفرج، أف لك، فسكت مروان»^(٣).

لفت الانتباه إلى أنني أشم في هذه الرواية رائحة التحريف وأثر السياسيين، فهم يريدون من خلال قولهم: (فجعل يغلظ له والحسن عليه السلام ساكت) أن الحسن عليه السلام كان مسالماً يكره النزاع بكل أشكاله، وهو ما أرادوا حث الناس للتصديق به، كما سيتضح من البحث. وهذه الرواية مشابهة لرواية تصب في نفس المعنى، أخرجها السيوطي في تاريخه عن ابن سعد عن عمير بن إسحاق قال: كان مروان أميراً علينا، فكان يسب علينا كل جمعة على المنبر، وحسن عليه السلام يسمع فلا يرد شيئاً، ثم أرسل إليه رجلاً يقول له: بعلي

(١) مروج الذهب، المسعودي، ج ٢، ص ٣٩٤ ت ٣٩٥.

(٢) ينظر: البداية والنهاية، ج ١٣، ص: ١٩٩.

(٣) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، ص ١٩٧.

وبعلي وبغلي وبك وبك، وما وجدت مثلك إلا مثل البغلة يقال لها: من أبوك؟ فتقول: أمي الفرس، فقال له الحسن عليه السلام: «ارجع إليه فقل له: إني والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلت بأن أسبك، ولكن مواعيدي وموعديك الله، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك، وإن كنت كاذباً فالله أشد نقمة»^(١).

لكنهم حينما تحدثوا عن الحسين عليه السلام أظهروا في سلوكه نوعاً من العدوانية التي اعتقدوا أنها تتناسب مع روحه الثورية، فقالوا أنه عند موت الحسن قَدَّم الحسين سعيد بن العاص وهو يضرب في رقبة، وفي رواية أخرى يطعن في قفاه، كما في حديث أبي حازم، قال: إني لشاهد يوم مات الحسن بن علي عليه السلام قال: فرأيت الحسين بن علي يقول لسعيد بن العاص؛ وكان أمير المدينة، وهو يضرب في عنقه: «تقدم فوالله لولا أنها سنة ما قدمتك»، وتقول الرواية أن سبب ضرب الحسين في رقبة سعيد أنه «كان بينهم شيء يعني كان في نفس الحسين شيء من سعيد بن العاص»، فهم هنا يظهرون الحسين مستفزاً ثائراً عصبياً ليس مثل الحسن عليه السلام الهاديء المسالم وهدف ذلك أنهم أرادوا القول: إن الحسن عليه السلام سالم لأنه بطبعه مسالم وليس حفظاً للدين، والحسين ثار ليس دفاعاً عن الدين وإنما لأنه كان عصبياً في كل مواقفه!.

أما الدكتور الصلابي فقال عن هذه الحادثة: «إن الحسين قدم سعيد بن العاص للصلاة على الحسن عليه السلام لأن سعيداً كان والياً على المدينة حينها، ولأنه اعتزل الفتنة ولم يقاتل مع معاوية»^(٢)، بينما يقول ابن الأثير: «وصلى عليه سعيد بن العاص، فقال له الحسين: «لولا أنه (هكذا في الأصل والصحيح: أنها) سنة لما تركتك تصلي عليه»^(٣).

(١) تاريخ السيوطي، ص ١٩٠.

(٢) ينظر: سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، ص ٣٦٣.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٠٢.

وقد جاءت في الكافي: ١/ ٣٠٢ رواية تثبت أن سعيداً صلى على الحسن بعد صلاة الحسين عليه وليس قبل ذلك، مما يعني أن تلك الروايات مدسوسة وقد جيء بها لأغراض سياسية بحتة: «فلما قبض الحسن عليه السلام وُضع على سريره فانطلقوا به إلى مصلى رسول الله ﷺ الذي كان يصلي فيه على الجناز فصلى عليه الحسين عليه السلام فلما أن صلى عليه حمل فأدخل المسجد». فتكون صلاة والي المدينة سعيد بن العاص في البقيع بعد صلاة الحسين عليه السلام^(١).

المهم أن الغرض من إيراد هذه الرواية هو لتوضيح أن الأمة شخّصت وجود المنهج الإصلاحية في الفكر الإمامي، وشخّصت إصرارهم على إشاعة الإرشاد والتعليم في كل المناسبات والظروف. وأنا في حديثي عن الجزئيات وفق رؤى العصر المتحضر الذي أعيش فيه أردت أن أثبت أن السياسيين العرب الأوائل وبالرغم من اختلاف عصرهم عن عصرنا كانوا أيضاً مدرّكين أهمية الحديث عن الجزئيات ومدى أثره، ولذا اهتموا بالجزئيات بنفس درجة اهتمامهم بالكلّيات.

الصراع الديني السياسي

من الجزئيات أدخل للحديث عن الصراع الديني السياسي في المجتمع الإسلامي الأول، والرد على من يستغرب من حديثنا عن وجود فكر سياسي ناهض لدى العرب والمسلمين في تلك المرحلة المتقدمة من عمر الإسلام ودولته؛ وقولنا: إن هذا الفكر المتطور هو الذي تولى محاربة أئمة أهل البيت عليه السلام وإزاحتهم عن مواقعهم في قيادة الأمة سياسياً؛ لأقول: قد تكون السياسة -سلوكاً وتطبيقاً- أحد أقدم العلوم التي استنبطها الإنسان القديم بعد تحوله من حياة الصيد إلى حياة التجمع وبناء القرى

(١) ينظر موقع الشيخ الكوراني. <http://www.alameli.net/books/index.php?id=2829>.

وامتهان الزراعة وتربية الحيوان وإقامة التجمعات السكانية الكبيرة، بعد أن توجب عليه مداراة أموره وتقنين علاقاته مع الآخرين.

ومع تقدم الإنسان تقدم وتطور مصطلح ومفهوم السياسة ليشمل قضايا أخر لم يلتفت إليها أجداده بعدما تعقدت سبل الحياة، وكبرت المجتمعات، وتعددت المصالح والاتجاهات، وتنوعت طبقات المجتمع، وكثرت المهن والصناعات. فالسياسة هي التي أسهمت في تطور الإنسان وتقدمه بعد أن نجح في تبديل صيغ تعامله مع الواقع من شكلها الفطري الاعباطي إلى شكل منظم ومقنن ومحسوب النتائج والمحصلات. ومن يقرأ كتب التاريخ القديم يلمس عن يقين اهتمام تلك المجتمعات بالسياسة وعنايتهم بها بعد النجاحات التي أحرزوها، فأصبح الحراك السياسي قريناً بالحراكات المهمة الأخر لا يتخلف عنها ولا تتركه وراءها، وهكذا عاش الإنسان. أما بالنسبة لعرب الجاهلية فقد وجدت أن العصبية - التي كانوا عليها في جاهليتهم حاربها الإسلام ثم عادوا إليها بعد موت النبي ﷺ - كانت من أهم مغذيات منظومتهم السياسية وبقيت تتماشى مع خطهم السياسي تُنظر له ويُنظر لها ويدعم أحدهما الآخر.

وأنا حينما أتكلم عن النشاط السياسي للعرب في هذه الحقبة لا أقصد أنهم كانوا يعملون في مجال السياسة الإسلامية (الشرعية) بتعريفها الإسلامي المحصور في حدود الشريعة، والمباح شرعاً، والذي كانت عليه الأغلبية؛ باعتبار أن الإمام هو القائد الفعلي للأمة ومنظر سياستها، وعنه يأخذ الناس ما يهمهم وبمنهج يسوسون حياتهم، بل أقصد العمل في السياسة بتعريفها الغربي المعاصر؛ أي (فن الممكن) أو (فن الحكم) أو (علم الدولة) أو البحث في الشؤون العامة والخاصة للدولة وعلاقاتها الداخلية والخارجية التي هي علاقة مبنية وقائمة على النفاق والدجل والقسوة وتفضيل المصلحة

الخاصة والشخصية على مصلحة الجماعة، ومصلحة الجماعة على مصلحة المجموع، فهذه السياسة لا تلتفت إلى مسألة العقيدة الدينية، بل وتتقاطع معها في أحيان كثيرة.

في حين نجد في الفقه الإسلامي تعريفاً آخر للسياسة بمفهومها الإسلامي حيث يرى الشرع المقدس أنها: (الولاية على الرعية وتدبير شؤونها بما يصلحها) ^(١) وهي التي وصفها ابن عقيل بقوله: «السياسة ما كان فعالاً يكون معه الناس أقرب إلى الإصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به الوحي» ^(٢)، ومن هذه المناهج التعريفية أخذ المتأخرون تعريفاتهم، ومنهم عبد الوهاب خلاف الذي يرى: إن علم السياسة الشرعية يبحث فيه عما تدبر به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الإسلام وإن لم يقم على كل تدبير دليل خاص ^(٣).

ولذا قال الشيخ باقر شريف القرشي: «وفي الحديث: «كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياءهم، أي: يتولى أمرهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه» ^(٤).

في عصر الرسالة كان الخط السياسي الديني موجوداً وممثلاً بشخص الرسول الأكرم ﷺ ورسالة الله سبحانه وتعالى، وكان خط السياسة الدنيوية موجوداً ممثلاً بالنخبة التي سلبها الإسلام مركزها الاجتماعي، فحاولت امتطاء ظهر الإسلام للوصول إلى أهدافها، في وقت رفض ويرفض فيه الإسلام بإباء وامتناع أن يكون مطية لأحد، ومن هنا جاء الخلاف بين الاثنين، حتى بعد أن حمل الدنيويون هوية الإسلام

(١) نظام الإسلام السياسي، ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٤) المصدر نفسه، القرشي، ص ٤٣.

وأصبحوا مسلمين، فالخلاف الأول بين المسلمين من الفئتين وإن كان ظاهره دينياً إلا أنه كان سياسي الأصل والدافع والمحرك في الأقل بنظر أحد جانبي الصراع، وكان الدين ضحية له وقرباناً، وأما العصبية فكانت سلاح الدنيويين، وكان سلاح السياسيين المسلمين المنهج الرباني.

العصبية

قد يكونون لشدة تعلقهم بالعصبية أنهم استنبطوا أحاديث تدعم رؤاهم، وقد أراد الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ أن يبين لهم أنهم لن يتشافوا ولن يتعافوا من مواريتهم القديمة الموروثة، ومنها العصبية، إلا بالإيمان المطلق، وليس بمجرد دخول الإسلام كما دخل الطلقاء، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»^(١).

ومن رحم المجتمع الجاهلي الذي كان يحمل هوية البداوة وُلِدَت العصبية التي حملت جينات ذلك المجتمع، ومن رحم العصبية الجاهلية التي تحكمت بالمسلمين ومازت بينهم طبقاً ولدت السياسة الدنيوية التي لم تأبه بالدين ؛ لأن البداوة عاشت حياتها في خضم اللاتدين، أو التدين الساذج الفطري. ومن رحم الزواج بين العصبية والسياسة الدنيوية جاءت الدولة الأولى، لأنه لا يمكن لدولة ما أن تولد وفق المفهوم المعروف للدولة إلا بوجود نظام سياسي، وهذا ما يؤكد عليه المختصون بعلم السياسة، ولهم في ذلك أقوال، منها قول الدكتور حميد حموم خالد: «إن القول بتطور مفهوم الدولة يعني بالضرورة تطور مفهوم النظام السياسي فيها، لأنه أي النظام السياسي ركن من

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٤٢، رقم ٢٢٩٥٤.

أركان الدولة فلا يتصور قيامها دون وجوده ولا يتوقع استمرارها عند انعدامه، فالنظام السياسي هو واجهة الدولة أمام الأفراد في الداخل وأمام الدول الأخرى في الخارج»^(١).

أقف هنا قليلاً لأبين أن النظام السياسي الإسلامي كان يسعى لبناء دولة العدل الإلهي تماماً كما كان السياسيون الدنيويون يعملون لبناء دولة الظلم والجور، ولو قيض للمسلمين بناء تلك الدولة ما بعد مرحلة البعثة وخلافة علي عليه السلام، كما لو قيض لهذه الدولة أن تستمر، لتحولت حياة البشر إلى نعيم دائم، ولكن الصراع المرير بين الخطين حال دون تحقيق هذه الأمنية الكبيرة. وما دمنا في طور الحديث عن السياسة الدنيوية ودورها في تقويض المشروع الحسيني لا بأس من أن نتحدث عن دور الإمام الحسن عليه السلام في هذا المشروع.

فكما هو معروف لم يكن الحسن بن علي عليه السلام يسعى إلى بناء دولة مدنية أو دولة قريبة الشبه بالإمبراطوريات القائمة آنذاك كما هو سعي الآخرين من معاصريه ولا سيما المزاحمين له؛ ففلسفة الدولة في الفكر الديني تختلف عما هي عليه في الفكر الاجتماعي. الدولة في الفكر الديني أكبر من كل تصور وأعظم من كل تخيل، وفلسفتها تختلف عن فلسفة الدولة المدنية^(٢) وتتفوق عليها في المزايا والحقوق.

(١) الأنظمة السياسية، الدكتور حميد حنون خالد، ص ٥.

(٢) الدولة المدنية هي دولة تحافظ وتحمي كل أعضاء المجتمع بغض النظر عن القومية والدين والفكر. هناك عدة مبادئ ينبغي توافرها في الدولة المدنية والتي إن نقص أحدها فلا تتحقق شروط تلك الدولة أهمها أن تقوم تلك الدولة على السلام والتسامح وقبول الآخر والمساواة في الحقوق والواجبات، بحيث أنها تضمن حقوق جميع المواطنين، ومن أهم مبادئ الدولة المدنية ألا يخضع أي فرد فيها لانتهاك حقوقه من قبل فرد آخر أو طرف آخر. فهناك دوماً سلطة عليا هي سلطة الدولة والتي يلجأ إليها الأفراد عندما يتم انتهاك حقوقهم أو تهديد بالانتهاك. فالدولة هي التي تطبق القانون وتمنع الأطراف من أن يطبقوا أشكال العقاب بأنفسهم. وتعرف الدولة المدنية على أنها: اتحاد من أفراد

الإمام الحسن (عليه السلام) كان يسعى إلى بناء أنموذج خاص للدولة المدنية، وأنا لا أقصد الدولة المدنية وفق المفهوم المعاصر؛ فذلك لم يكن في بال الإمام الحسن (عليه السلام) ولا في بال المزمحين للإمام الحسن (عليه السلام)، ولم يكن معمولاً به حتى في الإمبراطوريات المجاورة له؛ وإنما أقصد أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان يسعى إلى بناء الدولة المدنية التي يحكمها المنهج الرباني بكل أبعاده بما يمكن أن نطلق عليها اسم (الدولة المدنية الرسالية)، وهو أنموذج لم يتحقق إلا في زمن البعثة المشرفة في طورها المدني، وحقبة من زمن خلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ولن يتحقق مرة أخرى إلا في زمن الظهور المقدس. وربما لهذا السبب قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد»^(١).

وإذا ما كانت فلسفة الدولة، أي دولة تتمحور حول أدائها لوظيفة إدارة الشعب أو الشعوب المنصوية تحت لوائها فإن فلسفة الدولة المدنية الرسالية تتمحور حول أسس الرسالة الدينية التي تستقي منها مقومات منهجها القيادي، وهي بالتالي «ليست مفصولة عن منتج الوحي ومعطياته، وهذا المنتج بدوره ليس مفصلاً عن الأسس المعرفية وأيضاً عن الأسس الكلامية التي تبدأ من وجود الخالق إلى غايات الخلق إلى فلسفة النبوة»^(٢).

يعيشون في مجتمع يخضع لنظام من القوانين، مع وجود قضاء يطبق هذه القوانين بإرساء مبادئ العدل. فمن الشروط الأساسية في قيام الدولة المدنية ألا يخضع أي فرد فيها لانتهاك حقوقه من قبل فرد آخر أو طرف آخر. فثمة دائماً سلطة عليا هي سلطة الدولة يلجأ إليها الأفراد عندما تنتهك حقوقهم أو تهدد بالانتهاك.

(١) ينظر: مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق الدكتور محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٢.

(٢) فلسفة الدولة في الفكر السياسي الإسلامي، ولاية الفقيه نمودجا، أطروحة حائزة على شهادة الدكتوراه من الجامعة اللبنانية، الدكتور الشيخ محمد شقير، ص ٦٥.

معنى هذا أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان يعمل لبناء مشروع نهضوي تواصل يمتد مع امتداد الإسلام، وهو في مثل هذه الحال وضعنا أمام أنموذج مشروع فريد لو قيض له أن ينجح لكان قد أسس منذ ذلك العصر المتقدم فكرة الدولة المدنية بأبعاد تختلف حتى عن الأبعاد التي وضعها المنظرون لمبادئ الدولة المدنية المعاصرة، وكان الإسلام قد حقق نصراً علمياً جديداً تسعى الأمم إلى تطبيقه والإفادة منه، ثم الدفاع عنه، ولكن منع الإمام الحسن (عليه السلام) من إتمام مشروعه جعل الناس تنسى تلك التجربة الفريدة التي طبقها النبي (صلى الله عليه وآله) بعد أن تقادم عليها الزمن ولم تتكرر، فسبب للإنسانية كل تلك الآلام التي تسببت بها الدول العدوانية والشمولية والدكتاتورية وحتى الاشتراكية والرأسمالية، ولو أتعب المنظرون المعاصرون أنفسهم ورجعوا إلى مفهوم الدولة في فكر الرسالة الإسلامية نظرياً، وإلى تجربة الحكومة النبوية العلوية والمحاولة الحسنية عملياً لخلقوا نظاماً متكاملأً أسمى من أنموذج جمهورية أفلاطون أو مدينة طيبة.

ومنه ندرك عن يقين أن السياسيين الذين اعترضوا المشروع الحسني لم يؤذوا الحسن (عليه السلام) وحده؛ بل تسببوا بالأذى للإنسانية كلها عبر التاريخ وإلى يومنا الحاضر، فعليهم وزر كل صرخة ألم صدرت من قلب موجوع بسبب ظلم الحكام وطغيانهم. وفي ذات الوقت ندرك أن العصبية الموروثة هي التي كانت تقف قبالة المشروع الديني. كل ذلك بسبب العصبية التي أحيوها والتعصب الذي نشره.

قالت الدكتورة آمال كاشف الغطاء عن التعصب أنه لغة: «الاندفاع اللاعقلاني إلى الطرف الذي ينتمي إليه المرء واستبعاد المنطق والشرعية عند التضامن مع قومه أو من يشاركه في الدم ضد جماعة أخرى مناوئة» ونقلت عن معجم علم الاجتماع لدنكن ميشيل الذي ترجمه الدكتور العراقي إحسان محمد الحسن تعريفه للتعصب بأنه:

«مجموعة مواقف سلبية أو إيجابية موجهة نحو جماعة من الجماعات، وغالباً ما تتحول هذه المواقف إلى ردود فعل إيجابية أو سلبية ترمي إلى المساعدة أو الانتقام من إحدى الجماعات التي يتكون منها المجتمع»^(١).

والتعصب أو العصبية عند العرب نوعان: «عصبية دم تعتمد على أساس القرابة في البيت الواحد. وعصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه»^(٢)، فمن المعارف عليه أن مجتمع شبه الجزيرة العربية الجاهلي لم يكن يقيم وزناً لفردية الفرد بجانب القبيلة التي ينتسب إليها، «فالقبيلة هي الوحدة التي يبدأ منها التنظيم الاجتماعي بناءً... ولم يكن التضامن القبلي داخل القبيلة تعبيراً عن رقي في سلم التضامن والترابط بين الفرد والباقي بقدر ما كان تعبيراً عن تخلف التنظيم الاجتماعي على الاعتراف لهذا الفرد بأية ذاتية مستقلة بجانب ذاتية القبيلة وشخصيتها»^(٣).

وعليه لم يطلق العربي اسم (الحكومة) على القيادة التي تسوسه في الحرب والسلم بل أطلقه على (المال) الذي كان محور حياته، مع أن العرب لم يعرفوا في جاهليتهم قيادة تقودهم كما هي الحكومات اليوم باستثناء شيخ العشيرة وكبيرها؛ لكنك مع ذلك تجدهم يسمون الأموال التي يخصصونها لأهلهم (الحكومة) وهي الأموال التي كانت عند الحارث بن قيس السهمي عند ظهور الإسلام^(٤)، ولذا وقف بعضهم بوجه

(١) دور العصبية القبلية وآثارها على المجتمع العربي، الدكتورة آمال آل كاشف الغطاء، مكتبة الصدر، قم، إيران، (د.ت)، ص ١١.

(٢) ينظر: التأريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، د. السيد عبد العزيز، ص ١٠.

(٣) الإسلام والثورة، محمد عمارة، ط ٣، ص ٤١.

(٤) ينظر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، د. خالد العسلي،

إعداد د. عبد السلام رؤوف، الجزء ٢، ص ٢١.

الإسلام الذي أراد توحيدهم بظل حكومة واحدة موقفاً عدائياً شرساً؛ لأنهم رأوا في ذلك تفكيكاً لوحدة القبيلة وتماسكها وأنه سوف يؤدي إلى إعادة تشكيل للقيم الموروثة التي تحملها كل قبيلة منهم، وربما لهذا السبب بالذات نجدهم بعد حين يعيدون تشكيل قيم السماء التي جاء بها الإسلام ويعيدون صياغتها لتلائم قيمهم ومفاهيمهم القبلية.

ومع أن التعصب والعصبية وكل موارثها كانت من سمات تلك العصور لدرجة أنهم جاؤوا بأحاديث تكاد تبين أن النبي ﷺ انساق خلف عصبيتهم فحدثهم عن وجوب نصره الأقرباء تعصباً، كما في حديث: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» وهو الحديث الذي قالوا بشأنه: «هذا حديث صحيح، شرحه النبي ﷺ، قال: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وهذه كلمة تقولها العرب، وكان العرب عندهم تعصب ينصرون أصحابهم وإن ظلموا وصار عندهم هذا الشعار -انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً-، فلما قاله النبي ﷺ، قالوا: يا رسول الله كيف أنصره ظالماً؟ قال: «تحتجزه عن الظلم، فذلك نصرك إياه»، فنصر المظلوم واضح، ولكن نصر الظالم معناه منعه من الظلم وحجزه عن الظلم، هذا نصره، فإذا أراد أن يظلم أحد تقول: لا، قف. تمسكه، إذا أراد يأخذ مال أحد تمسكه، هذا نصره، إذا كان لك استطاعة تمنعه من ذلك، هذا نصر الظالم تعينه على نفسه وعلى شيطانه، تنصره على شيطانه، وعلى هواه الباطل»^(١).

وعن هذا الحديث جاء في مركز الفتوى السعودي قولهم: «فالحديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه وغيرهم، ولفظه في البخاري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»،

(١) الموقع الرسمي للشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز، الرابط،

فقال رجل: يا رسول أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟! قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره. والله أعلم.^(١)

وفي وقتنا الراهن خضع مصطلح العصبية إلى مشارط العلماء والمفكرين والباحثين تشريحاً وتفكيكاً لمعرفة دواخله ودوافعه، يقول الدكتور قاسم حسين صالح في تفسيره لمعنى مصطلح (تعصب): (فيما ينظر علماء النفس الاجتماعي للتعصب على أنه اتجاه سلبي غير مبرر نحو الفرد، قائم على أساس انتمائه إلى جماعة معينة لها دين أو طائفة أو عرق مختلف، أو اتجاه عدائي نحو جماعة معينة قائم على أساس الانتماء إليها). ويعني أيضاً: (النظرة المتدنية لجماعة أو خفض قيمتها أو قدراتها أو سلوكها أو صفاتها ليس لها أساس منطقي). كما يعني أيضاً: «إصدار حكم غير موضوعي بشأن جماعة معينة. بهذه المعاني فإن التعصب اتجاه مؤذٍ لصاحبه والآخرين قائم على تعميمات غير دقيقة بخصوص جماعة على أساس لونها أو عرقها أو دينها أو جنسها».

ووفق نظرية التصنيف الاجتماعي فإن الناس ينزعون إلى تصنيف عالمهم الاجتماعي إلى صنفين (نحن) (أو الجماعة الخاصة بالفرد) و(هم) (أو الجماعة الأخرى). وإنهم يتحيزون لجماعتهم وبيالغون ويعظمون إيجابياتها ويغضون أعينهم عن سلبياتها، فيما يعمدون إلى تضخيم سلبيات الجماعة الأخرى وغض الطرف عن إيجابياتها.^(٢)

ويرى الدكتور قاسم أن: «ثمة معلومة مهمة، هي أن العداء بين الجماعات يمكن

(١) مركز الفتوى السعودي، رقم الفتوى ١٧٢٤٦، الرابط،

<http://www.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=Fatwaid&Id=17246>

(٢) مقال بعنوان: إشكالية في الدين والسلطة، الدين والتعصب والإسلام السياسي، د. قاسم

حسين صالح، نشر في موقع النور يوم ١٩/٩/٢٠١٢، الرابط

<http://www.alnoor.se/article.asp?id=169899>

أن يظهر حتى في غياب تضارب المصالح، فمجرد الانتماء إلى جماعة معينة يمكن أن يكون سبباً كافياً لظهور التعصب ضد جماعة أخرى^(١)، بمعنى أن التعصب ممكن أن يكون دافعاً للنزاعات حتى مع عدم وجود عداوات مسبقة بين الطرفين. فكيف إذا ما كانت للعداء أصول تمتد على مدى تاريخ طويل من العلاقات القلقة المضطربة كما هي الحال بين هاشم وأمية؟

إن مجرد وقوع أحد طرفي النزاع تحت تأثير هذا المفهوم يجعله حذراً من الجانب الآخر ومشككاً به وبما يطرحه حتى ولو كان وحياً من السماء، ولذا لا أجد غرابة في موقف الأمويين من الإسلام منذ الأيام الأولى للبعثة فصاعداً، فالغرابة في أن لا يتخذوا مثل هذا الموقف ويستمروا به حتى بعد دخولهم إلى الإسلام، بالرغم من أن الإسلام تصدى بعنف لمثل هذه القيم العدوانية المتحيزة. وأنا هنا وبكل موضوعية لا أبرئ بني هاشم من مؤثرات العصبية فهم أبناء المجتمع ذاته وما يصح على غيرهم يصح عليهم غالباً، ولكن للحقيقة والتاريخ نجاح بنو هاشم في تجاوز سطوة العصبية بقوة الإسلام وتفاعلهم معه فحلت قيم التسامح الديني عوضاً عن العصبية الجاهلية في تعاملاتهم منذ أن أسلموا فصاعداً ولم نجد من يؤشر وجود توجه عصبي في كل سلوكياتهم.

أما المكونات الباقية ولا سيما الأمويين فإنهم لما استولى السياسيون منهم على مقاليد الحكم بالخداع والقوة أعادوا لهذا النظام المتخلف هيئته وأحيوا مواته فأصبح متحكماً؛ ولكن ضمن مفاهيم جديدة حيث تحولت القبائل الجاهلية إلى قبيلة دولة؛ تجتمع على رئيس واحد وتدين له بالولاء. فبعد أن كانت القبيلة في العصر الجاهلي هي الوحدة

(١) مقال بعنوان: إشكالية في الدين والسلطة، الدين والتعصب والإسلام السياسي، د. قاسم حسين صالح، نشر في موقع النور يوم ١٩/٩/٢٠١٢، الرابط

التي تنتهي عند حدود نسبها روابط الولاء، وهو الرابط الذي تحول بعد نزول الوحي إلى رابط ولاء الإسلام وعقيدته، عاد إلى حدود روابطه الجاهلية، ولذا نجد المسلمين الأعاجم الذين تعربوا بالولاء للإسلام تُسلب منهم هذه الميزة بعد إحياء العصبية ليعودوا إلى جذورهم دون اهتمام للإسلام الذي رفع شأنهم، وبعد أن كانوا قادة في المجتمع الإسلامي العربي مثل سلمان الفارسي وبلال وصهيب الرومي وغيرهم، فقد أنزلت رتب الغالبية منهم وعادوا إلى العبودية التي حررهم الإسلام منها، وإلى الذل الذي أنقذهم الإسلام منه، تجاوزاً على القاعدة التي وضعها النبي ﷺ بقوله: «ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»^(١).

ومع أن العصبية كانت وثيقة الارتباط بالسلوك الجاهلي إلا أنها في مراحل متقدمة ولاسيما بعد عصر البعثة وجدت حواضن ساعدتها بوحى من عقلها الباطن الذي كان يخترن مبادئها على النمو والتوسع والانتشار وإن كان ذلك بدون قصد، وكان الحاضن الأول رغبة الخليفة عمر بن الخطاب بالحفاظ على العنصر العربي من الاختلاط بالأعاجم، وهو ما يقول عنه الخربوطلي: «ساعد عمر بن الخطاب بغير قصد على ظهور روح العصبية فقد كان نظام عطاء الجند الذي سنه دافعاً هاماً لظهور العصبية القبليّة... وقد كانت سياسة عمر القاضية بعدم اختلاط العرب بالشعوب الأخرى المتحضرة عاملاً على احتفاظهم بالتقاليد البدوية بما فيها من تعصب»^(٢)، وقد جاء هذا مع يقيننا أن الصحابة ولاسيما من تولى منهم الحكم لم يكونوا يجهلون قول رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب

(١) أخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة برقم (٩٢٥) وقال عنه: ضعيف

جدا، وقال عنه ابن عساکر في تاريخ بغداد: هذا حديث مرسل، ج ٨، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) الحضارة العربية الإسلامية، الخربوطلي، ص ٨٥.

وأم وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي»^(١).

أما الحاضن الثاني فكان قصدياً بدأ مع تولي عثمان بن عفان الخلافة وتقريبه بني أمية واعتماده عليهم في إدارة شؤون دولة الإسلام حيث عادت العصبية الجاهلية إلى المجتمع بحيث عجز التاريخ عن أن يخفي تأثيرها السلبي على المجتمع، ولذا ذكر تناميها وتطورها غالبية المؤرخين، وإلى ذلك أشار أحمد أمين بقوله: «ولما ولي عثمان تبرم علي وأنصاره وزادهم تبرما أن عثمان وهو أموي استعان بالأمويين فكان أكثر عماله منهم وكان كاتبه وأمين سره مروان بن الحكم، والأموي ومروان هذا وشيعته هدموا كل ما بناه الإسلام من قبل ودعّمه أبو بكر وعمر من محاربة العصبية القبلية وبث الشعور بأن العرب وحدة، وحكموا كأمويين لا كعرب، فحرك ذلك ما كان كامناً من العداوة القديمة الجاهلية»^(٢).

وكان الحاضن الثالث متمثلاً في سعي السياسيين الدنيويين للسيطرة على الحكم عن طريق العصبية والولاء القبلي والعشائري، وقد اعترف أحمد أمين بدور الأمويين في إذكاء روح العصبية؛ فقال: «ولما ولي الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حالها كما كانت في الجاهلية»^(٣) فالعصبية هي التي تحفز المتعصبين للدفاع عما يؤمنون به قباله أي تهديد مادي أو معنوي يلوح في الأفق، ولذا كان التنافر فاشياً بين العصبية ولاسيما وأن هناك من كان يدفع أحد الطرفين ليكون الباديء وتقع المشاكل، وفي هذا الصدد قال أحمد أمين: «واستغلّها -أي العصبية- خلفاء بني أمية ومن بعدهم فكانوا يضربون

(١) العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حياتهم، الدكتور محمود عرفة

محمود، ص ١٣.

(٢) فجر الإسلام، أحمد أمين، ط ٣، ج ١، ص ٣١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

بعضاً ببعض»^(١)

إن ثقافة العصبية الموروثة هي التي سلبت الموالي المسلمين حقوقهم وأنزلتهم درجات في سلم الطبقات المجتمعي بعد أن رفعهم الإسلام مكاناً علياً، وكان الأمويون بسبب انغماسهم في التعصب ينظرون إلى الموالي نظرة فيها الكثير من الازدراء؛ ومن هنا جاءت زيادة أعداد المحرومين في المجتمع، وهؤلاء هم الذين كانوا يثيرون أو كان الثوار يستعينون بهم متى ما سنحت الفرصة، يقول الدكتور فاروق عمر: «إن الثورات التي حاولت أن تستعين بالموالي... لم تنظر إليهم كفرس أو أعاجم بل كفتنة يقع قسم منها ضمن القطاع المحروم من المجتمع، ذلك القطاع الذي يضم الكثير من العرب كذلك»^(٢)

وهي عادة ثورات كانت تبحث عن التصحيح؛ يعرف محمد عمارة الثورة بأنها: «العلم الذي يوضع في الممارسة والتطبيق من أجل تغيير المجتمع تغييراً جذرياً وشاملاً والانتقال به من مرحلة تطويرية معينة إلى أخرى أكثر تقدماً الأمر الذي يتيح للقوى الاجتماعية المتقدمة في هذا المجتمع أن تأخذ بيدها مقاليد الأمور فتصنع الحياة الأكثر ملائمة وتمكنا لسعادة الإنسان ورفاهيته، محققة بذلك خطوة على درب التقدم الإنساني نحو مثله العليا التي ستظل دائماً وأبداً خطوة على درب التقدم الإنساني نحو مثله العليا التي ستظل دائماً وأبداً زاخرة بالجديد الذي يغري بالتقدم ويستعصب على النفاذ والتحقيق»^(٣)

(١) فجر الإسلام ص ١١١.

(٢) التأريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين دراسة نقدية في تفسير التأريخ، الدكتور فاروق عمر، ص ٤٧.

(٣) الإسلام والثورة، محمد عمارة، ص ١٠.

بمعنى أنّ تنمية روح العصبيّة كان عملاً مقصوداً وبدوافع سياسيّة بحثة، وأنا لا أستبعد ذلك مطلقاً، لأنّ بثّ العصبيّة في المجتمع في أثناء مدة حكم عثمان بن عفان مثلاً جعل من السهل على الحكام والولاة ضرب قبيلة بأخرى لإضعافهما واتقاء شرّهما، وهو النهج الذي بقي سارياً طيلة أيام حكم الأمويّين ليس في دولتهم فقط بل وحتى قبل ذلك، وفي أيام خلافة عثمان تحديداً يوم كانوا مسيطرين على مقاليد السياسة، فقد عادت العصبيّة في زمن عثمان إلى الحياة بنوعيتها وبدأت تظهر بوضوح بعد أن تغلب العنصر الأمويّ القرشيّ على مقاليد الأمور السياسيّة والاقتصاديّة والإداريّة. ويعزو الخربوطلي سبب ذلك إلى الحسد، لأنّ القبائل العربيّة الأخرى كانت ترى نفسها مثل قريش في الإسلام والهجرة والجهد الحربي والفتوح، فلم تُفضل عشيرة الأمويّين عليهم؟ وأرى في هذا الرأي الكثير من التمويه على حراك العرب السياسي وهو ما سيتكرر منهم ومن أتباعهم في مواقف أخرى لتبرئة السياسيين من جرائمهم التي ارتكبوها. لكننا لا نعدم فرصة التعرف إلى تأثير ما حدث أيام عثمان على المجتمع العربي المسلم من خلال المباحثات التي ظهرت في زمن خلافة عليّ عليه السلام، إذ كان شعور العربي المسلم قبل خلافة علي بسبب مؤثرات العصبيّة أنّه أفضل من باقي المسلمين، وقد انتقل هذا الشعور معهم إلى حقبة حكم علي عليه السلام بالرغم من مواقفه الكثيرة في التصدي له، وفي الروايات المعروفة، «حدثنا محمد قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا إبراهيم قال: وأخبرني شيخ لنا عن إبراهيم بن أبي يحيى المدني عن عبد الله بن أبي سليم عن أبي إسحاق الهمداني: أن امرأتين أتتا علياً عليه السلام عند القسمة إحداهما من العرب والأخرى من الموالي فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهماً وكرراً من الطعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب، وهذه امرأة من العجم! فقال علي عليه السلام: إني لا أجد لبني إسماعيل في هذا

الفيء فضلا على بني إسحاق^(١)

وجاء في رواية أخرى للثقفى: «حدثنا محمد قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا إبراهيم قال: حدثني محمد بن عبد الله بن عثمان قال: حدثني علي بن أبي سيف عن أبي حباب عن ربيعة وعمارة أن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن تخاف خلافه من الناس وفراره؟ قال: وإنما قالوا له ذلك للذي كان معاوية يصنع بمن أتاه فقال لهم علي عليه السلام: أتاؤروني أن أطلب النصر بالجور، والله لا أفعل ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟ قال: ثم أزم طويلاً ساكتاً ثم قال: من كان له مال فيأياه والفساد فإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو ذكر لصاحبه في الناس، ويضعه عند الله، ولم يضع رجل ماله في غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن بقي معهم من يودهم ويظهر لهم الشكر فإنما هو ملق وكذب، وإنما يقرب أن ينال من صاحبه مثل الذي كان يأتي إليه من قبل فإن زلت بصاحبه النعل فاحتاج إلى معونته ومكافأته فشر خليل وألم خدين ومن صنع المعروف فيما آتاه الله فليصل به القرابة وليحسن فيه الضيافة وليفك به العاني وليعن به الغارم وابن السبيل والفقراء والمهاجرين وليصبر نفسه على النوائب والخطوب فإن الفوز بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة^(٢).

وفي حادثة أخرى خاطبهم قائلاً: «ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى أن الفضل له على سواه لصحبته فإن الفضل النير غدا

(١) الغارات، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى المتوفى سنة ٢٨٣ هـ، ج ١ ص ٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١ ص ٧٥-٧٦.

عند الله، ثوابه وأجره على الله. وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصَدَّقَ مَلَّتْنَا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلا حضر إذا كان مسلماً حراً»^(١).

ودعا ﷺ كاتبه عبيد الله بن أبي رافع يوماً، وقال له: «ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثنَّ بالأنصار، فافعل معهم مثل ذلك، ومن حضر من الناس كلهم، الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك، فقام سهل بن حنيف فقال: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم، فقال ﷺ: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير»^(٢).

إن تشخيص الإمام علي ﷺ لتأثر المسلمين بروح العصبية التي فشت أيام خلافة عثمان دفعه للتحدث بصراحة كبيرة عن التغير السلبي في المجتمع المسلم، وقد نقل أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني قوله ﷺ: «إن رسول الله مات وترك الناس على نهر مورود، فولي بعده رجلا لم يختصا نفسيهما وأهليهما منه شيء، وولي الثالث فكري منه ساقية، ولم يزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابسا لا قطرة فيه» وفي قول آخر: «مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، اتَّخَذَ بَطَانَةَ أَهْلِ غِشٍّ، لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا قَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَاجَهَا وَيَسْتَذِلُّ أَهْلَهَا»^(٣) وفي قول آخر: «إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيلة ومعتلفة وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته»^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي ج ٧ ص ٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ٧ ص ٣٧ ٣٨.

(٣) تاريخ الطبري، ص ٧٩٥، ج ١، ثم دخلت سنة خمس وثلاثين.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٣ المعروفة بالشفقة.

وقد استعار الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يوم وليّ الخلافة قول الإمام علي بعد أن بدأ برفع مظالم الناس التي أحدثها الخلفاء الذين سبقوه، قال ابن كثير: «ثم تنابح الناس في رفع المظالم إليه فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها... فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس، فلم يفدهم ذلك شيئاً، فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان - وكانت عمته - فشكوا إليها ما لقوا من عمر، وأنه قد أخذ أموالهم، ويستنقصون عنده، وأنه لا يرفع بهم رأساً، وكانت هذه المرأة لا تحجب عن الخلفاء، ولا ترد لها حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة، وقامت فركبت إليه فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها لأنها أخت أبيه، وألقى لها وسادة وشرع يحادثها فرآها غضبى وهي على غير العادة، فقال لها عمر: يا عمة مالك؟ فقالت: بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم، ويسبون عندك فلا تنكر؟ فضحك عمر وعلم أنها متحملة، وأن عقلها قد كبر، ثم شرع يحادثها والغضب لا يتحيز عنها، فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد؛ فقال: يا عمة. اعلمي أن النبي مات وترك الناس على نهر مورود، فولي ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات، ثم ولي ذلك النهر رجل آخر فكري منه ساقية، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه، وأيم الله لئن أبقاني الله لأردنه إلى مجراه الأول، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(١)

إن العصبية التي حاربها الدينون وأحياها السياسيون خلقت نوعاً من الاستعلاء الأجوف الذي طغى على احترام المقدس وتوهمته فلم يعد التناول على الرسول ﷺ مستهجنًا ولا قتال خليفة المسلمين علي عليه السلام عجباً وقتل الإمام الحسن عليه السلام جالباً للدهشة

(١) البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٣٩، خلافة عمر بن عبد العزيز.

ولا حرق بيت الله جريمة كبرى^(١) ولا إباحة المدينة جريمة يؤاخذ عليها القانون^(٢) ولا قتل الحسين وصحبه عملاً غريباً، فهناك في عقولهم وقلوبهم غراس العصبية الذي طغى وتطفل على كل الموجودات الأخرى بما فيها العقيدة. ولذا نجد الكثير من الباحثين يعتقدون أن فهم دور العصبية القبلية على حقيقته ممكن أن يسهم في فهم الأحداث التاريخية وتداعياتها، ولهذا الرأي ذهب أحمد أمين بقوله: «وأصبحت العصبية مفتاحاً نصل به إلى معرفة كثير من أسباب الحوادث التاريخية»^(٣)

من قليل ما قدمناه يتضح بأن من أطلق على الحكم الأموي اسم (نظام الحكم العربي) كان محقاً جداً وبامتياز، فبالرغم من بُعد التسمية عما كانت تصبو إليه الجماعات السياسية المسلمة التي كانت تناضل بقوة لتبدو مثلة للدين وقيمة عليه لأنها كانت تخشى الاتهام بكثير من التهم الجاهزة إذا ابتعدت عن الدين أو بدت وكأنها بعيدة عنه، جاءت التسمية متطابقة مع نوع الحراك الذي استخدمه الأمويون للسيطرة على مقاليد الحكم بإحياء النعرة العصبية والعمل بهديها، وهو حراك نابع بالأساس من تقاليد عربية موروثة وعادات قديمة تعود إلى العصور الجاهلية السحيقة^(٤)، فهؤلاء كانوا على يقين من أن العصبية هي التي تمنحهم الرئاسة والتسلط؛ وهو ما قال عنه ابن خلدون في مقدمته: «وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب؛ والغلب إنما يكون بالعصبية، فلا بد في الرئاسة على العموم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة»^(٥) من هنا

(١) ضرب الحجاج بيت الله الحرام بالمنجنيق والنار فأحرقه؛ لأن ابن الزبير تحصن فيه.

(٢) وهي واقعة الحرة حيث أباح الأمويون المدينة واغتصبوا نساءها وقتلوا صحابة رسول الله.

(٣) فجر الإسلام، أحمد أمين، ج ١، ص ١٠.

(٤) الفاشي بين الناس أن هناك عصراً جاهلياً واحداً ولكن المتخصصين يقسمون هذا العصر إلى

عصور عدة آخرها يعود إلى مائة وخمسين عاماً قبل البعثة وهو العصر الجاهلي المعروف.

(٥) المقدمة، ابن خلدون، ص ١٣٢.

ووفق موروث الأمويين القبلي جاء إحياء العصبية لتعيد إلى أذهان العامة سلطة شيخ القبيلة التي انتزعها الإسلام وأحل بدلها سلطة الولاء الديني.

نعم كان الأمويون أكثر العرب تعصباً لعروبتهم وأصولهم البدوية؛ وهم حتى بعد أن هجروا الصحراء وقضت أجيال طويلة منهم حياتها في أجواء مكة التي كانت أكثر تطوراً من كثير من مناطق الصحراء الأخرى لم ينجحوا بمغادرة موروثهم البدوي، ولذا تراهم يتمسكون بعقائدهم الوثنية، ويحاربون أبناء جلدتهم الذين اعتنقوا الإسلام، ولا يكفون إلا بعد أن أحسوا بأن الكفة ليست في صالحهم، ثم حتى بعد إسلامهم بقيت روح البداوة فيهم مفعمة بالحماس والتحدي لدرجة أنهم مع تأخرهم بالدخول إلى الإسلام طالبوا بمراكز سيادية في المجتمع بأنفة نابعة من طبائع ابن الصحراء، وربما لهذا السبب يرى (رفائيل باتاي): «إن البدو كانوا ولا يزالون يمثلون مجتمع السلطة الأبوية والزعامة القبلية والذي يعتمد على رابطة النسب والقرباة»^(١) وخلص إلى نتيجة مفادها: «إن واجبات الانتقام بالقتل والتوسط، ملامح تميز روح الجماعة البدوية والتي انتقلت دون تغيير تقريباً إلى حياة القرية، وحافظت على البقاء في مجتمع المدينة العربية»^(٢)

فالأمويون لم يأتوا بجديد حينما وظفوا العصبية بحجة الثأر لمقتل الخليفة عثمان ليقاتلوا تحت هذا الشعار الجاهلي علياً وحسناً وحسيناً عليه السلام، بل يأتي هذا التوظيف لتأكيد قوة ولائهم لموروثهم الجاهلي وتعلقهم به، وبالتالي لا نستغرب قيامهم بمحاربة علي لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاً بالإسلام لما حاربوا الخليفة الشرعي الذي تمثل محاربته مخالفة لروح الشريعة التي يؤمنون بها، ولا نستغرب حربهم للخليفة الشرعي الحسن بن علي عليه السلام للسبب نفسه، ولا نستغرب إباحتهم للمدينة المنورة وهتك أعراض نساءها،

(١) العقل العربي، رفائيل باتاي، ترجمة وليد خالد أحمد حسن، ص ١٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٢.

ولا ضربهم بيت الله بالمنجنيق وحرقت الكعبة، ولا قتل الحسين عليه السلام وصحبه ولا قتل زيد وابنه يحيى ولا قتل الطالبين، فكل جريمة من هذه الجرائم تعيد الإنسان من الإيمان إلى الكفر وعليه يتخرج المؤمنون من الإتيان بها، أما من هو غير مؤمن فلا فرق عنده بين العمل الحسن والعمل الخبيث فكلاهما في ميزانه سواء.

إن التواشج بين العصبية والسياسة الدنيوية خلق منظومة فكرية تمكنت من تغيير طباع الناس بعد أن ربتهم وأنشأتهم على موازين متنوعة يصل التعارض بينها أحيانا إلى حد القطيعة الشاملة. وتتعاون السياسة مع العصبية تحول السياسيون من أبناء المجتمع العربي المسلم إلى رعاة يقودون قطيعاً مسلوب الإرادة، خانعاً يتحرك تبعاً لأوامرهم ويفعل ما يريدونه منه بدون اعتراض أو تذمر، ولذا تراهم يقودون مائة ألف أو أكثر ليحاربوا خليفة شرعياً تنهى عقيدتهم قبل غيرها عن اعتراضه باللسان المجرد حتى ولو أوجع الظهر وسلب المال، فهل من دليل أكبر من هذا الدليل!



الفصل الثاني

الحياة السياسية
قبل وبعد عصر البعث

الحياة السياسية قبل وبعد عصر البعثة

إن للأمة العربية ولعاً بالسياسة ما زالت آثاره باقية فيهم إلى اليوم، وهم اليوم إن كانوا قد درسوا علوم السياسة وتعلموها وطبقوها؛ فإنهم بالأمس لم تتح لهم فرصة التعلم، ولذا لجأوا إلى موروثهم القبلي واستقوا منه منهجهم السياسي الذي جاء متطابقاً مع الموروث، بعيداً عن التجديد بمعناه الفكري العقدي لا التطوري الحياتي، فكانت سياستهم قبل البعثة المشرفة تختلف عنها في عصر البعثة وتختلف عنها بعد العصرين.

سياسة العرب قبل عصر البعثة

إن أمة كأمة العرب امتدت جذورها إلى أعماق التاريخ الإنساني يستحيل أن تكون جاهلة بالسياسة وفنونها؛ كيف، وهي تعد من أقدم الأجناس السامية، وقد قامت على أرضها ممالك ودويلات كثيرة مثل مملكة الحيرة في شمال شرق جزيرة العرب ومملكة الغساسنة في شمالها الغربي وكندة في شمالها، وفي الجنوب كانت قتيان وحضر موت ومعين وسبأ، وإن كانت ممالك الجنوب أقل أثراً من الأخر، فضلاً عن وجود قبائل كبيرة كانت كل منها تمثل نظاماً سياسياً قائماً بذاته، بل كانت القبيلة وحدة النظام السياسي في الفكر العربي الذي كان على مستوى من النبوغ لدرجة أن بعض أهلها رفضوا عبادة الأوثان والأصنام ولم تستهزمهم الديانة اليهودية ولا النصرانية، فاتخذوا الحنيفية التي جاء بها النبي إبراهيم ﷺ لأنهم وجدوها أقرب إلى فكرهم وعاداتهم وسلوكهم وطبيعتهم الإنسانية. ويقول الدكتور محمود عرفة: «كانت القبيلة هي وحدة النظام السياسي الذي

يُنْتَمي إليها ويقدها العربي قبل الإسلام»^(١)

كما أن تقديس العربي للنظام العشائري لا يأتي من باب العصبية العليا فحسب، بل ينزل إلى أدق خصوصياتها لأن العشيرة كانت المسؤولة عن تدبير وتسيير حياته وحياة عائلته ومصلحه وارتباطاته مع الآخرين وتوفير الحماية والأمن له. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في مقدمته: «اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبية أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشيرة واحدة أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد»^(٢)

فضلا عن ذلك نرى أن الحالة المضطربة التي عاشها العرب في تلك الحقبة تحت شعار الغلبة للقوة والأقوى دفعت القبائل ولاسيما الضعيفة والذليلة منها إلى التوحد بأحلاف تجمعها بقبائل قوية تؤمن لها الحماية، وهذا الاتفاق لا يمكن أن يوصف بغير صفة (سياسي) وهو بحد ذاته يدل على أن التوفيق بين القبائل المنضوية للحلف يحتاج إلى إدارة سياسية متمكنة لها قدرة تقريب الرؤى وامتصاص الاحتكاكات الخشنة، ولاسيما وأن بعض الأحلاف كانت تضم عدداً كبيراً من القبائل المتقاربة من حيث القوة والرجال والمال في بعض الأحيان، والمتباعدة في الرؤى والنشأة وطرائق التفكير؛ مثل حلف (الرباب) بين قبائل ضبة وثور وعكل وتميم وعدي^(٣) وحلف (الأحلاف) الذي ضم بني عبد الدار وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي وبني عدي بن

(١) العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حياتهم، الدكتور محمود عرفة محمود، ص ٤٩.

(٢) المقدمة، ابن خلدون، ص ١٣١.

(٣) ينظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ج ٥، ص ١٤١.

كعب^(١) وقد أطلق ابن خلدون على هذه الاتفاقيات صفة (العصبة الكبيرة) بقوله: «كانت الأحلاف تمثل العصبة الكبيرة التي تشمل القبائل والعشائر المتحالفة بالنسب والجوار^(٢) وأطلق عليها العالم العراقي المرحوم جواد علي اسم (المجتمع القبلي الكبير) بقوله: «وهي المجتمع القبلي الكبير الذي تنصهر فيه القبائل من أجل المؤازرة والحماية والدفاع المشترك»^(٣)

بل قادهم وعيهم السياسي المتطور في بعض الأحيان إلى الخروج من طور الأحلاف القبلية المحلية إلى التحالف مع دول قوية وليس مجرد قبائل مثلهم، حيث قامت بعض القبائل بالدخول تحت رعاية تلك الدول لتحصل منها على الحماية والعون، وتقدم لها بالمقابل المساعدة متى لزم الأمر، وقد دخل ملوك الحيرة بحماية الفرس، وتحالف الغساسنة مع الروم؛ باتفاقيات تشبه اتفاقيات الدفاع المشترك المعروفة في زماننا الراهن، وهي دلالات أكيدة على وجود وعي سياسي في المجتمع العربي؛ ولذا يقول محمد عمارة بعد أن تحدث عن حلف الفضول وغيره من الحركات المجتمعية: «فلقد كانت إذن للعرب جهود استهدفت تغيير الواقع وبعض هذه الجهود كان سلمياً، بينما استعان بعضها الآخر بالسيف والعنف لانجاز ما أراد من تغيير، فكانت هذه الجهود جميعاً علامات على طريق الإنسان العربي نحو ثورته الكبرى»^(٤) وهذا من عيوب بعض المفكرين العرب الذين تجدهم حتى في حديثهم عن سياسة العرب الأقدمين يموهون ولا يدخلون صراحة إلى صلب الموضوع وصميم القضية

(١) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ج ١ ص ١٣٧ ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٢٨

(٢) المقدمة، ص ١٢٩.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج ٣، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٤) الإسلام والثورة، محمد عمارة، ص ٢١.

وفيا بعد أنجب الوعي السياسي العربي مجموعة دول كانت متطورة تبعاً للمقاييس القديمة مثل دولة معين (١٣٠٠ ٦٥٠ ق. م) في اليمن التي كان نظام الحكم فيها لا مركزياً (فكان يمثل الملك في كل مقاطعة نائب له بلقب (كبير) يتبعه مجلس نيابي يعرف باسم (سور) يجتمع فيه الأشراف للحكم بين الناس) وكانت لها علاقات تجارية مع مصر الفرعونية واليونان^(١) ودولة حضرموت (١٠٢٠ ق. م ٢٩٠ م) التي قامت في جنوب بلاد العرب إلى الشرق من اليمن، وكانت لها علاقات جيدة مع مملكة سبأ، وعلاقات تجارية واسعة وجيش وحصون وقلاع وإدارة^(٢) ولا ننسى دولة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وهي مملكة متحضرة ليس بمقاييس ذلك الزمان بل وبمقاييس العصور اللاحقة أيضاً.

بل حتى مكة المكرمة إنما أخذت مكانتها الأولى بفضل السياسة؛ فعندما ولي عمرو بن لحي زعيم خزاعة أمر مكة اجتذب الحجاج فأقام موائد الطعام في موسم الحج، ويسر جلب الماء من الآبار المحيطة بها، وقام بجلب الأصنام من أنحاء الجزيرة العربية وأقامها حول الكعبة، فنشط الحج ونشطت التجارة؛ فأزدادت مواردهم المالية لأنه كان يأخذ العشور^(٣)

(١) العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حياتهم، الدكتور محمود عرفة محمود، ص ١١٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٣) العشور: نظام مالي أشبه ما يكون بقوانين الجمارك والضرائب التي تجبى من التجار في عصرنا. كانت معروفة في العصور القديمة فألغاهما الإسلام، وهناك من يرى أن العمل بها أعيد أثناء الفتوحات العربية في عهد عمر بن الخطاب حيث كتب أبو موسى الأشعري إلى الخليفة عمر يخبره أن السلطات الرومانية في الشام كانت تأخذ من التجار العشور قبل الفتح العربي، وكانوا يأخذون من التجار المسلمين نفس القدر، فكتب له الخليفة بأن يأخذ منهم كما كانوا يأخذون من تجار المسلمين، وأن يأخذ من تجار أهل الذمة نصف العشور ومن المسلمين ٢٥ ٪ وجعل حد الإعفاء ٢٠٠ درهم. وعلى هذا درجت الحكومات الإسلامية من عهد عمر فأقيم (العاشر) أو الذي يأخذ ضريبة العشور

من جميع القوافل التجارية المارة بمكة^(١) وهذا العمل وإن كان ظاهره اقتصادياً إلا أنه سياسي الهدف والدوافع بالتأكيد.

ومن مجمل هذه الإلماحات والممارسات تكوّن وتجمّع عند بعض العرب خزائن سياسي معرفي كبير حضت به نخبة المجتمع والقبائل الأكثر شهرة مثل بني هاشم والأخرى الأكثر عدوانية مثل بني أمية، فتركته الأولى بعد أن شذب الإسلام سلوكها وتحكم بتصرفاتها، وأصرت عليه الثانية ووظفته في كافة تحركاتها لأنها رأت الطريق الأوحده للعز بعد أن نزع الإسلام عنها عزها القديم الجاهلي الذي اكتسبته بالجنور والطغيان.

إن أمة تقوم بها قبائل وممالك عظيمة مثل عاد وثمود ومدين وطسم وجديس وعييل والعماليق لا يمكن أن تكون جاهلة لمعنى السياسة والعمل السياسي، وهم في جاهليتهم كانوا يملكون قدراً لا بأس به من المعارف العامة بما فيها علم السياسة بأبسط هيئاته؛ ولكن سياستهم كانت مقرونة بسلوكهم الفردي والجمعي تتأثر به وتؤثر فيه؛ ولذا لم تتضح مقاصدها إلا من خلال القصص والروايات والحكايات التي كانوا يتناقلونها شفاهاً فوصلتنا. ولكن ذلك لا يعني أنهم كانوا يجهلون مبادئ علم السياسة ولو بشكله الساذج، فموروثهم السياسي هو الذي تحكم بجانب كبير من الصراع الذي نشب بينهم وبين النبي ﷺ ورسالته وأصحابه.

عند ممر التجار يجبي هذه الضريبة من الصادرات والواردات فيأخذ من التاجر المسلم ربع العشر ومن التاجر الذمي نصف العشر، ومن الأجنبي العشر أو كما يعامل قومه التجار المسلمين، فإن كانوا يأخذون منهم العشر أخذوا منه نفس المقدار، وهكذا.

(١) ينظر: العرب قبل الإسلام.

السياسة في عصر البعثة

يمكن تقسيم نشاطات السياسيين العرب في عصر البعثة إلى مرحلتين زمنيّتين، الأولى: مرحلة النشاط المكّي، والنشاط قبل الهجرة، والثانية: مرحلة النشاط المدني، والنشاط بعد الهجرة. وكان نشاطهم في بداية عصر البعثة يتسم بالفطرية والبداية والسذاجة وتطغى عليه روح العصبية، يمكن أختراله بفكرة المعارضة للتغيير والخوف من التجديد، وهي سمة عامة يشترك بها البشر بكل جنسياتهم وأصولهم، ولكن هذا الجهد المعارض للرسالة الإسلامية في بداية نزولها وإن كان في ظاهره فطرياً اعتبارياً عصبياً ساذجاً بعيداً عن التخطيط والترتيب والتنظيم؛ وبدا وكأنه دفاع عن عقيدة الأوثان التي يؤمنون بها؛ غير انه لا يوحى بأنهم كانوا يجهلون العمل السياسي، وإنما جاء حراكهم السياسي في حدود الإمكانيات المتوفرة لديهم؛ ومع ذلك كان أفضل حراك سياسي ممكن الحصول عليه في تلك الحقبة من التاريخ، والدليل إن صحيفة المقاطعة التي جاءت متأخرة ست سنوات عن باقي الحركات الاعتراضية الأخر من تعذيب وسجن ومطاردة لكل من يُسلم تعد إحدى الصيغ الأكثر قوة وتأثيراً في العالم في يومنا الحاضر وتستخدمها الأمم القوية لتركيع الأمم الضعيفة؛ وقد لمسنا أثرها في العراق؛ فالحصار الذي فرض على العراق بعد غزو الكويت في تسعينات القرن الماضي لم يُصب العراقيين بالجوع فقط، وإنما حطم معنوياتهم، وبالتالي كان أمضى من أي سلاح آخر استخدمه العدو لأنه عبّد طريق التخريب ويسّر أمر الانحراف فقضى على البناء الروحي لكثير من العراقيين؛ وهو ما كان مأمولاً بالحصار القرشي أن يوقعه بالمسلمين يومذاك؛ بمعنى أن صحيفة المقاطعة القرشية كانت واحدة من المراحل السياسية المتقدمة التي نفذها السياسيون القرشيون ضد النبي ورسالته بعد أن فشل مشروعهم الأول في ترويع ضعفاء المسلمين وتعذيبهم. ويكفي أن نعرف أن أكثر من ثمانين وجهاً من وجوه

المجتمع القرشي اشتركوا بالتوقيع على الصحيفة ووضع أختامهم عليها لتنص على: «ألا يبايعوا أحداً من بني هاشم، ولا يناكحوهم، ولا يعاملوهم»^(١) إن جمع هذا العدد الكبير من الوجوه والوجهاء للاتفاق على أمر واحد يحتاج إلى عقل سياسي كبير يملك قوة الإقناع ومهارات التفاوض ونوعاً من القوة والشجاعة أيضاً، لكي يسوق الجميع إلى هدف واحد بالرغم من تنافرهم وتباينهم على أرض الواقع. وقد استمر العمل ببند هذه الصحيفة الظالمة ثلاث سنوات من سنة ست إلى سنة تسع للبعثة، بل يرى الدكتور السيد عبد العزيز: إن الحصار رفع سنة عشر من البعثة مستنداً في ذلك إلى ما نقله عن ابن سعد في طبقاته^(٢).

وبعد أن بدأ عصر الهجرة المباركة وهاجر المسلمون من مكة إلى المدينة المنورة، لم يقف القرشيون والسياسيون وأعداء الرسالة مكتوفي الأيدي، وإنما طوروا جهدهم السياسي تبعاً لمستجدات المرحلة فشنوا حروباً عاتية تهددت الإسلام الضعيف بالخطر، وربما تكون غزوة الخندق من أهمها وأخطرها وأكثرها قوة ليس على المسلمين وحدهم بل وعلى السياسيين القرشيين أيضاً، لأن خسارة أي طرف لهذه المعركة كان ينذر بتحطيم جهدهم الحربي كلياً وكسر شأفتهم وشوكتهم ونزع هيبتهم وزرع الرهبة والخوف في قلوب ونفوس جنودهم وأتباعهم. وهكذا كان حينما خسرتها قريش وأعوأها؛ ولكنهم لما خسروها لم يركنوا إلى العقل وإنما طوروا تحركاً جديداً اعتقدوا أنه ممكن أن يوقف مسيرة الدين فدخل بعضهم في الدين الجديد؛ ولكن ليس بالوجه الذي دخل به الآخرون؛ كما دلت على ذلك الأحداث الكثيرة اللاحقة، وإنما ليكيده من الداخل. ويرى الدكتور قاسم حسين أن للتدين وجوهاً بعضها يتعارض مع أصل

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣١.

(٢) ينظر: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، السيد عبد العزيز، ج ١، ص ٣٢٠.

العقيدة، والمُح إلى: «أن الناس يكونون متدينين لأسباب متعددة وليس لسبب واحد. ويمكن تصنيفهم على النحو الآتي:

١. التدين الغرضي: ويعني التوجه نحو الدين بوصفه وسيلة للحصول على أشياء أخرى ذات قيمة.... كما أن هذا النوع من التدين قد يحقق لصاحبه مكانة اجتماعية أو اعتبارية أو وظيفية. وبهذا يكون الدافع هنا تحقيق منفعة تهدف إلى خدمة المحافظة على احترام الذات، ويكون الوجدان الديني فيه غير ناضج. وإلى هذا الصنف ينتمي المتدينون السياسيون الذين هم الأكثر تعصباً بين الناس، ليس فقط لأنهم يستخدمون الدين وسيلة لتحقيق أهداف أخرى، بل لأن التنافس السياسي وصراع المصالح يضطرهم إلى أن يكونوا متعصبين. فالغايات هنا سياسية وليست اجتماعية من قبيل تكوين صداقات، بل السعي إلى تحقيق زعامات تشبع الحاجة إلى السلطة والسيطرة ومصالح اقتصادية ترفع صاحبها درجات في سلم المكانات في الهرم الاقتصادي للمجتمع.

٢. التدين الباحث عن الحقيقة: ويعني التوجه نحو الدين بوصفه سफراً دائماً من أجل فهم القضايا الأخلاقية والروحية المعقدة، والمصحوب عادة بمعتقد أن الإجابات السريعة والبسيطة، خاطئة تماماً.

٣. التدين الحقيقي: ويعني التوجه نحو الدين الذي يحاول الناس عن طريقه أن يعيشوا دينهم ويستدخلوا تعاليمه^(١)

ومن يبحث عن نوع التدين الذي آمن به المسلمون ولاسيما آل البيت الكرام والتدين الذي آمن به السياسيون الدنيويون يجد بكل تأكيد وبدون أي معارضة أو

(١) مقال بعنوان: إشكالية في الدين والسلطة، الدين والتعصب والإسلام السياسي) نشر في

موقع النور يوم ١٩/٩/٢٠١٢، الرابط <http://www.alnoor.se/article.asp?id=169899>

اعتراض بأن آل البيت ونخبة من المسلمين كانوا عن حق وجدارة أسياد القسم الثالث من هذا التقسيم، وأما من حاربهم وقتلهم ونازعهم وسفك الدم باسم الدين للحصول على السلطة؛ فهم من الصنف الأول بامتياز.

ولفهم الاختلاف بين الصنفين ممكن أن نستأنس برأي الدكتور الاختصاصي قاسم حسين صالح الذي أوضح في جوابه عن سؤال مفاده: مَنْ مِنْ هذه التوجهات الثلاثة، هو المتعصب أو الأكثر تعصباً؟ قائلاً: «إن التوجه الثالث (التدين الحقيقي) الذي يؤمن أصحابه بأن الدين ليس وسيلة لتحقيق غاية، ولا هو البحث عن حقيقة الروح والأخلاق والحقيقة، إنما هو الغاية النهائية للإنسان. وبما أن معظم الأديان تدعو إلى التسامح، والإفراد في هذا النوع من التدين -الحقيقي- يسعون ويتمنون أن يحققوا نوعاً من التكامل بين معتقداتهم الدينية وهوياتهم وسلوكهم. وعليه، فأنا نتوقع من هذا الصنف أن يكونوا الأقل تعصباً بين المتدينين. وتشير الدراسات إلى أن هذا الصنف من المتدينين ليسوا أكثر تعصباً حتى من أولئك الذين يصفون أنفسهم بأنهم غير متدينين. وما يميزهم أن الوجدان الديني عندهم يكون ناضجاً، يثير لديهم الشعور بالمتعة ويحول مشاكل الحياة من سياقها الروتيني إلى منظور أكثر شمولية وأعمق معنى.. فيكون ثقلها أخف عليهم مقارنة حتى بغير المتدينين. أما الصنف الأول من المتدينين، الذين يتخذون من الدين واسطة للحصول على أشياء أُخر من قبيل الصداقة والمكانة والإسناد في الأوقات الصعبة، فإن هؤلاء يميلون إلى أن يكونوا الأكثر تعصباً، والأقل نضجاً في الوجدان الديني»^(١) وهؤلاء هم الذين تأمروا ضد الإسلام ونبه الأكرم ولاسيما بعدما خسروا آخر معاركهم الحربية الكبيرة.

(١) مقال بعنوان: إشكالية في الدين والسلطة، الدين والتعصب والإسلام السياسي، قاسم

التخطيط السياسي لقتل النبي ﷺ

من رحم المرحلة الثانية ولدت المؤامرات الأخر التي كانت أكثر واقعية وتخطيطاً من سابقتها، ومع أنه من المتفق عليه تأريخياً أن الجهد العسكري القرشي فقد زخه الكبير بعد معركة الخندق المصيرية التي كان لعناية السماء وبطولة الإمام علي عليه السلام الأثر العظيم في تهشيمها، فبعد هزيمة الأحزاب في هذه الغزوة لم تعد مسألة القتال والحرب تشغل بال القرشيين وأعوانهم كما هي سابقاً؛ لأنهم أدركوا يقيناً ولاسيما السياسيين منهم بأن الإسلام أصبح أقوى مما يتمكنون من الوقوف بوجهه، وعندها غيروا أنماط سلوكهم السياسي، وبدأ التفكير الجدي في الخطط البديلة، وكانت فكرة الاستعاضة عن الحرب بالكيد والخداع هي المنهج الذي استقروا عليه واعتمدوه ونجحوا في التعامل معه وبه بشكل كامل. وقد أوكلوا هذا الأمر لمن دخل منهم إلى الإسلام. هنا أنقل أقوالاً لرسول الله ﷺ تخص هذا التبدل الغريب، تحدث فيها النبي ﷺ عن مستقبل منظور بالنسبة إليه ومجهول للعالم كله بما فيهم السياسيون أنفسهم حيث وقف النبي ﷺ بعد هزيمة الأحزاب ليهنئ المسلمين بالبشرى العظيمة التي كانوا ينتظرونها: «الآن، نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»^(١) وفي مكان آخر «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم. فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة»^(٢).

السياسيون من جانبهم أدركوا بعد هزيمتهم المرة وجوب تغيير الخطط وتبديل الآليات؛ وكان قتل النبي محمد ﷺ أحد أهم مشاريعهم السياسية في هذه المرحلة، فاشتهرت لهم أكثر من محاولة؛ تكاد محاولتهم يوم (تبوك) أن تكون الأخطر بينها، بالرغم

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤١١٠ ص ٧٢٨.

(٢) تهذيب السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٣ / ص ٢٣٠.

من كونهم أخفوا دورهم فيها كلياً ولا سيما بعد فشلهم الكبير. ولكن فشلهم في هذه المحاولة لا يعني فشلاً سياسياً بالمرّة لأنهم عصبوه فيما بعد برأس المنافقين ليبرئوا أنفسهم منه، فحولوا الفشل إلى نجاح معنوي. والمعروف أن المنافقين كانوا ناشطين في تلك الحقبة، فضاع أثر الجريمة وخفيت معالمها في الأقل على صفحات تاريخنا بالرغم من أن المسلمين وتاريخهم المكتوب وكتب السيرة النبوية كلها تجمع على عدم مشاركة المنافقين في تلك الغزوة التي حدثت فيها مؤامرة السياسيين الدنيئة لقتل رسول الله ﷺ^(١) لأنّ شيخ المنافقين (عبد الله بن أبي بن سلول) وجموع المنافقين تخلفوا عن النبي ﷺ في الموضع المعروف بـ(الجرف) وفي روايات كتب السيرة عن ابن سلول المنافق أن جيشه الذي تخلف فيه «ليس بأقلّ العسكريين»^(٢) أي: إنّ عدد أفراد جيش المنافقين كان مقارباً لعدد جيش المسلمين! وجاء هذا التخلف للإيقاع بالنبي ووضع في ورطة لا يحسد عليها بعد أن استقوي بكثرة جيشه كما كانوا يعتقدون، وهذا العمل بحد ذاته يدل على مقدرة سياسية فذة ومتطورة.

كما وتخلف غيرهم من جموع المنافقين في أماكن أخرى، وحتى الأفراد الآخرون من المنافقين تخلفوا واحداً تلو الآخر عن آخرهم، وأخرج الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل؛ فيقولون يا رسول الله تخلف؛ فلان! فيقول: دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»^(٣)

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٥.

(٣) المستدرك، الحاكم، ج ٣، ص ٥٢، حديث رقم ٤٣٧٣ / ٧٧.

بل وتحلف مع المنافقين عدد كبير من المسلمين أنفسهم يكاد يفوق أعدادهم في كل الغزوات الأخر؛ قال ابن هشام في حديثه عن عودة النبي من هذه الغزوة: «... وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً...»^(١)

أما النبي الأكرم فلم يكن أقل منهم إماماً بالسياسة؛ فهذه الأعداد الغفيرة من المنافقين والمتخلفين تدعو حقاً إلى التخوف والريبة والشك فارتأى أن يخلف علياً - بالرغم من حاجته إليه - في المدينة ليحافظ عليها، وهو ما قال عنه ابن هشام: «حتى إن النبي تخوّف من تخلفهم، فخلف علياً على المدينة ولم يخلفه قبلها»^(٢)

السياسيون من جانبهم شهروا سيف السياسة لاستخدامه مع هذه الحالة لكي يحدثوا حسب اعتقادهم شرحاً في علاقة علي عليه السلام بمحمد ﷺ «فأرجف به المنافقون وقالوا: إن خلفه إلا استثقلاً له وتخففاً منه»، وهذا الاعتراف يعني ضمناً كذلك أن المنافقين كانوا يريدون دفع علي عنوة لمغادرة المدينة، لكي ينفذوا مخططهم الذي تخوف منه النبي. وقد قال ابن هشام: «أخذ علي بن أبي طالب سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف (أحد جبال المدينة) فقال له: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلقتني أنك استثقلتني، وتخففت مني، فقال: كذبوا، ولكني خلقتك لما تركت ورائي فارجع، فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله على

(١) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٨.

(٢) ينظر: السيرة النبوية، سامي البدر، ص ١٩١ عن ميزان الاعتدال ١ / ٥٦١.

سفره»^(١)

هنا أود القول أن حركة الإمام علي عليه السلام لم تكن بدافع الجهل السياسي كما قد يتصور بعضهم؛ وإنما جاءت لتؤكد للسياسيين عمق العلاقة التي تربطه بالنبي لكي لا يتحركوا في داخل المدينة للعبث فيها.

فإذا كان المنافقون قد تخلفوا عن الغزوة بكاملهم، فمن كان المسؤول عن محاولة قتل النبي ﷺ بعد أن برأ المنافقون تخلفهم؟ وهل كان الصحابي والوجه المعروف (أبو موسى الأشعري) بطل التحكيم في صفين من المنافقين؛ وهو الذي اتهم بأنه كان ممن تأمروا على النبي في العقبة؟ إن أغلب الروايات حصرت عددهم باثني عشر منافقاً^(٢) أما الواقدي فقد أبان: إنهم ثلاثة عشر شخصاً^(٣)، وكان أبو موسى الأشعري واحداً منهم^(٤)

ومن روايات كتب التاريخ والسيرة عن هذه الغزوة يتبين أن المنافقين أجمعهم كانوا قد تخلفوا في منطقة الجرف وأماكن أخرى كما قلنا، وحتى باقي المنافقين تخلفوا فرادى في الطريق، ولم يذهب أيُّ منهم إلى الحرب مع النبي ﷺ، بل هناك عدد لا بأس به من المسلمين أنفسهم تخلفوا عنه؛ ومع ذلك تحدّثت الروايات عن مؤامرة حيكت بعناية للتخلص من النبي ﷺ في طريق العودة، قالت عنها النقول: إن النبي في طريق العودة من الغزوة وعند وصوله إلى (العقبة) أخبره الوحي بخبر المتأمرين الموجودين في جيشه

(١) السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل عن ابن اسحاق. ينظر: التقيّة، نزيه محي الدين، كتاب الكتروني، شبكة الفكر ص ٣٠٤.

(٣) مغازي الواقدي، ص ١٠٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٤٣ ومسند أحمد ٥ / ٣٩٠-٣٩١.

ونيتهم الغدر به وقتله، فلما بلغ العقبة أرادوا أن يسلكوا معه، فقال للناس: اسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع، وسلك هو العقبة بعد أن أمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه، ولكن المتأمرين لم ييأسوا من افتراقهم عنه، فبينما رسول الله ﷺ في العقبة؛ «إذ سمع حسّ القوم قد غشوه فأمر حذيفة بردهم»^(١)

(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ٣ / ٣٢٧ وسنن البيهقي الكبرى ٩ / ٣٣

وأنساب الأشراف للبلاذري، ص ٢٣٦

نشاط السياسيين في عصر البعثة

أثبتت تلك المراحل المتقدمة من العمل السياسي أن هناك مناهج سياسية مختلفة عن سابقتها تولد من رحم المرحلة التاريخية لتتوائم معها؛ فخلال مرحلة البعثة المشرفة بطورها المكّي والمدني كانت للسياسيين قواعد عمل يسيرون وفق منهجيتها، وكانت مشاريعهم تتحرك بشتى الاتجاهات وبآليات مختلفة؛ ولكنها تجتمع على هدف واحد وهو القضاء على الرسالة وقتل الرسول، وكان مشروعاتهم السياسي في هذه الحقبة مقسماً إلى مراحل:

المرحلة الأولى:

إضعاف الوهج النبوي وتقليل شأن شخصية النبي في الحياة العامة عن طريق إظهاره بمظهر الإنسان البسيط الساذج الذي لا يعرف أبسط قواعد الحياة مثل جهله بأن النخيل يحتاج إلى التلقيح لكي يثمر ويعطي رطباً، ولهم في ذلك أحاديث وأحداث كثيرة وجدت طريقها إلى كتب الصحاح والموروث الفكري بعد أن كتبوا تاريخ الأمة وكتب صحاحها؛ وهم مازالوا إلى الآن يعملون بها لمجرد أنها وردت في الصحاح لا أكثر، مع يقيني أنهم يرفضونها في دواخلهم، وقد جاء في سؤال وجهه أحدهم إلى مركز الفتوى السعودي ومفاده: «أني قرأت من حديث طويل في أحد الكتب للرسول ﷺ قوله: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» ولم أجد سنده.. فإذا كان هذا الحديث صحيحاً فما هو مقصده الشرعي وهل يجوز لنا أن نعممه على سائر الأمور الدنيوية لنا أو بعبارة أخرى هل يمكن شرعاً للناس الاجتهاد الفردي بناء على العقل في أمور تنفعهم في دنياهم؟».

فكان ردهم عليه: «أما بعد: فإن ما ذكرته هو جزء من حديث صحيح، فقد أخرج مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ مر بقوم يلحقون النخل فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصاً «تراً رديئاً» فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا.. قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم. كما ذكره ابن خزيمة في صحيحه، وابن حبان في صحيحه وغيرهم بروايات مختلفة.

وقد بوب له النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال: باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره عليه السلام ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي. فذلك هو المقصد الشرعي وهو عام في سائر الأمور الدنيوية، فيمكن لكل فرد أن يجتهد في أموره الدنيوية الخاصة بما يناسبه وينفعه، فله أن يبني داره - مثلاً - إلى أي جهة تناسبه، ويزرع مزرعته بما يفيد. فلا دخل للشارع في ذلك؛ اللهم إلا من ناحية تقنينه للمسائل، مثل تحريمه للإسراف أو التقدير أو الإضرار بالافراد ونحو ذلك من الأمور العامة التي تجري في كل المسائل تقريباً^(١) ولكننا نلاحظ قبالة هذه الفتوى الشاملة وجود جماعة أخرى من نفس هذه الفئة تفتي ببطالان هذه الرواية، فقد أبطلها (ملتقى أهل الحديث)^(٢) ولا أدري

(١) مركز الفتوى، الفتوى رقم: ٥٧٧٤٢. الرابط

<http://www.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=Fatwaid&Id=61047>

(٢) بقولهم: يورد مسلم في صحيحه عدة روايات في الموضوع أو الباب الواحد تكون الرواية الأولى هي التي على شرط الصحة، أما ما يأتي به بعدها في نفس الباب فلمجرد الزيادة والاستشهاد مع أنها بأسانيد ضعيفة أحياناً

كما أنه كان يرتب روايات الاستشهاد ترتيباً نازلاً فيجعل أضعفها في آخر الباب. فإذا كانت الروايات الآتية بعد الرواية الأولى موافقة للرواية الأولى في بعض الجمل أو العبارات كانت هذه العبارات هي محل الاستشهاد، وأما ما كان فيها من عبارات ليست في الرواية الأولى فليست محلاً للاستشهاد ولا يحتاج بها لأنها ضعيفة أحياناً. بل تكون أحياناً موضوعة يُجزم بنفي نسبتها إلى النبي

أيهما على خطأ!!

وفي أكثر من مناسبة قللت السياسة الدنيوية من قيمة النبي ﷺ وآله ولاسيما يوم وضعتهم في كفة موازية للكفة التي وضعت فيها السياسيين القادة وربما نافت كفة السياسيين عليهم؛ لكن الله سبحانه يأبى للشر أن يتتصر ويأبى للحقيقة أن تبقى مغيبة فأوكل أمر إمطة اللثام عن المستور للمؤمنين من المسلمين والعقلاء من غيرهم وها هو أحد العقلاء من غير المسلمين يفند منهج السياسة الدنيوية المتحيز ويكشف مستورها وهو عالم الفلك والرياضيات والمؤرخ (مايكل هارت) الذي قام بالبحث في التاريخ عن الرجال الأكثر تأثيراً على البشرية وأحصى منهم آزوس - أرسطو - بوذا - كونفوشيوس - هتلر - أفلاطون - زرادشت - وأدرجهم بكتاب أطلق عليه اسم (الخالدون مائة) أو (القمم مائة) وقام بترتيب تفوقهم من حيث تقييم درجة التأثير وقيمتهم فوضع نبينا الكريم الرسول محمد ﷺ بالمرتبة الأولى، والنبي عيسى في المرتبة

ويجزم بأنها إنما نسبت إليه من قبل بعض الرواة كذباً أو خطأً. فعند الرجوع إلى هذا الموضوع في صحيح مسلم، نجده يروي بسنده حديث النبي ﷺ في الرواية الأولى الصحيحة، وليست فيها هذه العبارة (أنتم أعلم بأمر دنياكم) ولا حتى في الرواية التي بعدها ولم ترد هذه العبارة إلا في آخر وأضعف رواية في الباب وهي رواية ضعيفة الإسناد لا يحتج بها جاء فيها من عبارات زائدة. وحتى إذا افترضنا أن إسنادها يظهر عليه الصحة فإنها تكون حين إذ رواية شاذة والرواية الشاذة مردودة عند علماء السنة. إذن، هي رواية معلولة المتن من جانب وشاذة أو منكورة من جانب آخر.

الرواية الأولى صحيحة الإسناد فهي بعد ذكر مسلم لإسناده كالتالي: « عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله ﷺ يقوم على رؤوس النخل فقال « ما يصنع هؤلاء » فقالوا يلحقونه يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال رسول الله ﷺ « ما أظن يغني ذلك شيئاً ». قال فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإنني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني لن أكذب على الله عز وجل » ينظر:

أهل الحديث، الرابط: <http://www.ahlalhdeth.com/vb/showthread.php?t=15846>

الثالثة والنبى موسى ﷺ في المرتبة الأربعين، وعلل سبب تفضيله النبى محمداً على غيره من الأنبياء والمفكرين العظام: بأن محمداً ﷺ لعب دوراً في ازدهار الإسلام يفوق في أهميته كثيراً ما قام به السيد المسيح ﷺ في ازدهار المسيحية لأن ازدهار الأخيرة يعود إلى القديس بولس الذي يعتبر المطور الأصلي للاهوت المسيحي والناشر الرئيس للمسيحية ومؤلف قسم كبير من العهد الجديد. بينما يعتبر محمد ﷺ المسؤول عن العقيدة الإسلامية بجانب خلقه الأساسي ومبادئه الأخلاقية. فضلاً عن أنه لعب الدور الرئيس في الدعوة للدين الجديد، وفي تأسيس التطبيق الديني للإسلام؛ أما شرف تأسيس المسيحية فيجب تقسيمه بين المسيح ﷺ والقديس بولس. بل ويعتقد (هارت) أن بولس هو المؤسس الحقيقي للمسيحية.

المرحلة الثانية :

إبراز وتعظيم شخصيات محسوبة على السياسيين لتقف قبالة الشخصيات العظيمة التي رفعها الإيمان إلى الدرجات العلى؛ من خلال الإدعاء بأن خيار المجتمع الجاهلي القديم هم خيار المجتمع الإسلامي الحديث استناداً إلى حديث موضوع يقول: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» والحديث رواه ابن حبان مرفوعاً: «أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْحَلِيلِ بْنِسَاءَ، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ سَعِيدِ الْمُقْبِرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ نَسْأَلُونَنِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَهُوا^(١) وأخرجه القاري عن أبي هريرة^(٢)»

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البستي أبو حاتم، حديث رقم ٨٥.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، ج ٧، ص: ٣٠٦٨ باب

المرحلة الثالثة :

اعتراضهم للمشروع الرسالي الهادف إلى وضع ضوابط العمل والإدارة أثناء وبعد موت النبي وبعمالين كبيرين لا يمكن أن يصدرا من عقل لا يجيد فن السياسة إجابة تامة؛ وهذان العمالان هما:

١. إبطال العمل بالسنة النبوية ومقولة: «حسبنا كتاب الله» في القصة التي أوردتها الشهرستاني في الملل^(١) وأوردتها مئات المصادر التاريخية والحديثية الأخرى بما فيها صحيح البخاري وصحيح مسلم، وهي قصة طلب النبي ﷺ ورقة وقلماً ليكتب لهم ما لن يضلوا بعده أبداً، وكيف أن مسلمة طلب الأدوات للكتابة التي تكرر وقوعها من قبل مئات المرات حتى بلغ عدد الكتب التي كتبوها له ونجت من الضياع والتلف ووصلت إلينا أزيد من ٣١٦ كتاباً، وما ضاع منها ولم يصل إلينا أكثر من ذلك بكثير، وكان كُتَّابُه الذين ينوف عددهم على الأربعين^(٢) يستجيون لها فوراً، كيف أن هذه المسلمة وجدت في ظرف تاريخي حاسم وحساس من يعرقها ويمنع النبي من الكتابة؛ فلا ينبري من كُتَّابِه على كثرتهم من يستجيب لطلبه، ليكتب له ما كان يريد توضيحه، ولا يسأله أحد عما كان يريد أن يكتب!

٢. نجاحهم بمنع بعث أسامة من التحرك وتعطيل سيره إلى أن توفي النبي، ومن ثم وبعد حسم مسألة الخلافة التي بسببها أراد النبي تسير البعث؛ أسرعوا بدفعه بالقوة للخروج من المدينة لكي لا يخرج من بين جنده من يعترض على ما حدث. فقصة جيش

المفاخرة والعصية، حديث رقم ٤٨٩٣.

(١) الملل والنحل، الشهرستاني، ج ١، ص ١٣-١٤.

(٢) قال الحلبي في السيرة: فقد ذكر بعضهم أن كُتَّابَه ﷺ كانوا ستة وعشرين كاتباً.. وفي السيرة

للعراقي: أنهم كانوا اثنين وأربعين، ينظر: مكاتيب الرسول، علي بن حسين، ج ١، ص ٢٢.

أسامة الذي أوعب فيه النبي ﷺ وباعتراف أعم المؤرخين وجوه الصحابة وكبارهم من المهاجرين والأنصار بما فيهم أبو بكر وعمر وابن عوف وطلحة والزبير، وألح النبي ﷺ على تسييره برغم شدة وجعه، بل ولعن من تخلف عنه^(١) هي مسلمة أخرى سبق أن تكرر وقوعها منذ معركة بدر الكبرى؛ وقبلها وبعدها عشرات المرات، كيف تمت عرقلة تنفيذها وأرجئ تسيير الجيش إلى ما بعد موته، ولحين انتخاب خليفة جديد لينوب عنه في قيادة الأمة!

المرحلة الرابعة :

المواجهة: وهي بداية المواجهة الفعلية التاريخية بين الخطين والمنهجين يوم تفرغ الخط الأول لتجهيز النبي وتغسيله وتكفينه وتهيئته للدفن؛ وهُرع الخط الثاني إلى سقيفة بني ساعدة لاستباق الحدث والهيمنة بالقوة على مقاليد الأمور.

المرحلة الخامسة :

الإعداد المرحلي لتولي السلطة عن طريق تهيئة الأجواء واستغلال الفرص لبناء قواعد الانطلاق بكل ما أوتي المشتغلون بالسياسة من صبر وجلد ومطاولة. ومع بدء هذه المرحلة تغير المنهج السياسي وبدأ التخطيط الجدي للحسم.

(١) ينظر: النظم الإسلامية، الدكتور صبحي صالح، ص ٧٩.

السياسة والدولة

هنا قد يقول قائل: إذا كان العرب بهذا المستوى الرفيع من الإدراك السياسي، فلم لم ينجحوا لا في الجاهليّة ولا في صدر الإسلام في تأسيس نظام سياسيّ عربيّ له قدرة بناء دولة موحدة، كما هو الحال في زمن الأمويّين مثلاً؟

وأقول جواباً: لأنّ النظام القبليّ الذي كان أبناء القبيلة يرون فيه ضماناً أكثر من ضمان النظم الأخرى هو الذي خلف حالة التفكك السياسي الذي حال بدوره دون تجمعهم لإنشاء نظام دولة. فضلاً عن ذلك يتبين بوضوح أنّ النزعة القومية لم تكن واضحة الملامح في ذلك المجتمع، بل كانت النزعة العصبية القبلية هي الأقوى، ومع ذلك (نجد النظام القبليّ ينبري ليكون دعامة الحياة السياسية في الممالك العربيّة والإمارات التي قامت في جنوب جزيرة العرب وفي حواضر الحجاز والإمارات العربيّة في تخوم الشام والعراق)^(١) فبدا جهدهم فطرياً بعيداً عن العلمية وفي منتهى البساطة، فأوهم الكثير من الباحثين الذين وصفوا الحراك السياسي بما يدل على فطريته: (إنّ هذه الصور من النزاع لم تكن إلا نماذج لبعض المنازع الفطريّة البشريّة)^(٢) مع أنّ الحراك على بساطته يؤكد بما لا يقبل الشكّ أنّ العمل السياسي العربيّ يمتلك جذوراً علميّة وعمليّة تحولت إلى موروث ثقافيّ وخبرة متراكمة انتقلت إلى الأبناء والأحفاد، بل تجد الأوائل أنفسهم بعد أن اعتنقوا الإسلام وعملوا في صفوف الدولة الإسلاميّة ينجحون من

(١) ينظر: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربيّة، السيد عبد العزيز سالم، ص ١١.

(٢) النظم الإسلاميّة، مصدر سابق، ص ٨٤.

خلال العمل السياسي في إحداث تغيير لا يقدر على التخطيط له وتنفيذه إلا العقل السياسي الجبار المتمرس.

وفضلاً عن ذلك خذ مثلاً، تمكنهم من تعيين ثلاثة من الخلفاء الأربعة وقتل الأربعة واحداً تلو الآخر، وهو ما قال عنه إبراهيم بيضون في حديثه عن قتل الخليفة عمر: «إنَّ الفئة المتهمة بأنها حاكت مؤامرة الاغتيال من المفترض أيضاً أنها نسجت بإتقان مشابه شخصية البديل بما يتوافق والحوافز المحركة لهذه الفئة التي جمع بينها الموقف المشترك من الخليفة، دون أن تكون بجميع عناصرها منتمية إلى اتجاه سياسي واحد»^(١)

وهذا الرأي ليس يتيماً بالتأكيد؛ إذ تهاهى معه الدكتور صبحي الصالح في حديثه عن الخليفة عثمان بقوله: «فإنَّ عثمان لم ينتخب بإجماع ولا شبه إجماع، ولم ينتخبه الخليفة، ولم يكن ليبرز على الناس أو يظهر بعلمه كعليٍّ أو حزمه كعمر أو سياسته كأبي بكر، وإنما أعانه على تولي الخلافة أمويته وقرشيته»^(٢)

ومع أني أتخفظ في قسم من هذا الرأي إلا أنه من حيث المضمون يؤكد وجود قوى متعددة مسيطرة متسلطة متحكممة كانت تتحكم بمسير الأحداث وتوجهها إلى الجهة التي تريدها؛ أما تحفظي فهو وليد الواقع القديم، فالمعروف أن هناك قوى آخر لم تكن بأقل من هذين العاملين ولكنها لم تنجح في دفع رجالها إلى سدة الحكم كما فعل السياسيون وهم الذين وصفهم النص بالأمويين القرشيين.

إن في موروث العرب المسلمين الأوائل الكثير من الإلماعات السياسية الناهضة والمتطورة، منها على سبيل المثال لا الحصر أن الحرب الإعلامية المضادة فنٍّ لم يعرف

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، الدكتور إبراهيم بيضون، ص ٩٦.

(٢) النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، الدكتور صبحي الصالح، ص ٩٠.

ولم يوظف في الحروب بشكل علمي إلا في أربعينات القرن الماضي وتحديدًا في الحرب الكونيّة الثانية، وبعد أن تطورت وسائل الاتصال وطرائق نقل المعلومة لمسافات كان الوصول إليها مستحيلًا، بما فيها المواقع خلف خطوط العدو، حيث أُستخدم الراديو ذلك الاختراع الجديد المدهش، والطائرات تلك الآلات المحلقة ذات القدرات الكبيرة لبث الأخبار الكاذبة وتوزيع المنشورات المحرّضة والمثبّطة للعزائم. لكننا نجد الفكر السياسي العربيّ القديم فنّا مبدعًا ومبتكرًا في توظيف هذا الفنّ بأرقى صورته برغم ضعف الإمكانيات المتاحة، ونجد لهم فيه وقائع كثيرة تدل على عبقرية نادرة، من أمثلتها ما نقله اليعقوبي عن استخدام الخليفة الأمويّ معاوية بن أبي سفيان لهذا الفنّ في حربه مع الإمام الحسن عليه السلام، فقال: «وكان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن عليه السلام من يتحدّث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار إليه! ويوجهه إلى عسكر قيس من يتحدّث أن الحسن عليه السلام قد صالح معاوية وأجابه»^(١)

وضمن التوجه الإعلاميّ المضادّ نفسه وجّه معاوية وفدًا إلى الحسن بن علي عليه السلام يتكوّن من المغيرة بن شعبه وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أم الحكم، وأتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من عنده وهم يقولون ليُسمِعوا الناس ويوهموهم: إن الله حقن بآبن رسول الله الدماء، وسكن به الفتنة، وأجاب إلى الصلح! فانخدع الناس واضطرب العسكر ولم يشكّ الناس بصدق هؤلاء الكذابين؛ لأنّ الحسن عليه السلام لم يكن قد وافق على الصلح في حينه، فانتهبوا مضاربه وما فيها.^(٢)

وخذ مثلاً اعتراف أبي سفيان بأنه ومن معه كانوا يسعون منذ زمن طويل للاستيلاء على السلطة، هذا الاعتراف الخطير الذي نقله المسعودي، بقوله: «وقد بلغ عمّار حين

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٤.

(٢) ينظر: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٥.

بويع عثمان قول أبي سفيان في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان وقد دخل داره ومعه بنو أمية، قال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم؟ وقد كان عمي. قالوا: لا. فقال: يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثه.

ونما هذا القول بين المهاجرين والأنصار، فقام عمار في المسجد [خطيباً] فقال: يا معشر قريش، أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم، ههنا مرة، وههنا مرة فما أنا بآمن من أن ينتزعه الله منكم فيضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله»^(١)

ومن هذا الاعتراف الخطير تدرك مقدار وسعة إطلاعهم السياسي وتنوع طروحاتهم ورؤاهم، فأبو سفيان نفسه الذي استشف من تداعي الأحداث بعد تعيين أبي بكر خليفة في مؤتمر السقيفة أن المعارضة الأنصارية هزمت، وهُزم السياسيون معها، ويتوجب البحث عن قوة معارضة شديدة لتتولى التغيير أو مجرد الاعتراض لكي تنشب الفتنة أظفارها في المجتمع؛ هو من ذهب إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وقال له: ابسط إلي يدك حتى أباعك!! فردّ عليه الإمام عليه السلام بشدة؛ وقال: «إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك»^(٢)

بالمناسبة هناك العديد من المكائد التي أطلقها أبو سفيان، ومنها انه لما سمعت هوازن بفتح مكة المكرمة جمعها مالك بن عوف مع ثقيف كلها، ونصر، وجشم كلها، وسعد بن بكر، وبني هلال، لحرب الإسلام. وكان النبي صلّى الله عليه وآله حينها في مكة بعد أن

(١) المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥١.

(٢) ينظر: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٢٦.

افتتحها؛ فلما سمع بهم النبي خرج بعشرة آلاف من المسلمين وألفين من أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح، وحينما دخل الجيش وادي حنين انقض عليهم الأعداء الكامنين فانهزم المسلمون ورسول الله يناديهم: «هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله». ولم يبق معه إلا أهله ونفر من المهاجرين، وهنا أظهر أبو سفيان بن حرب ما به من ضغن^(١) للإسلام مع أنه كان مسلماً فقال شامتاً ومستهنئاً: لا تنتهي هزيمة المسلمين دون البحر، وإن الأزلام لمعي في كنانتي^(٢)، بمعنى انه اعترف بالكفر، فالعقل يقول أنه كان كافراً، والقرآن كذلك لأن مجرد احتفازه بالأزلام في كنانته وهي رجس كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يعني أنه يرفض اجتنابها لأنه يؤمن بها.

التنقل عبر الخطوط

فضلاً عن ذلك تجد السياسيين خلال تلك الحقب يتنقلون من جهة إلى أخرى ومن اتجاه إلى آخر بشكل يدعو إلى التعجب، لأن الذين شخصوا هذه الحالة لم يكن لديهم تصور عن حجم هذا الحراك السياسي والغاية منه؛ مع أنه يدل على ذكاء سياسي متقد واندكاك في دنيا السياسة بلا حدود. خذ مثلاً: الصحابييين طلحة والزبير اللذين ذهبا إلى علي لبياعه خليفة؛ ثم تجدهم بعد أيام معدودات يخرجون لقتاله في حرب الجمل. وخذ مثلاً يعلى بن أمية والي عثمان الذي سرق بيت مال المسلمين بعد مبايعة علي ثم تبرع بقسم كبير منه إلى جيش الجمل؛ تجده بعد حين في صفوف جيش عليٍّ مقاتلاً في صفين ضد معاوية وأهل الشام المعادين لعليٍّ، بل وتجده قتيلاً فيها أيضاً^(٣) حيث تقول الرواية

(١) الضغن: العداوة والكراهة.

(٢) السيرة ٧٧ / ٤.

(٣) ينظر: الكامل لابن الأثير ج ١٣، ص ٣٠١.

إن: يعلى بن منية^(١) عامل عثمان على صنعاء تحرك في أحد اتجاهات التآمر فيبادر إلى سرقة أموال بيت المال في اليمن بعد مبايعة الإمام عليّ مباشرة واللجوء إلى مكة والتحصن فيها، فلما التقى بطلحة والزبير بعد قدومهم إليها أعانها بأربعمائة ألف، وحمل سبعين رجلاً، واشترى لعائشة جملاً بثمانين ديناراً^(٢) وفي رواية ابن الأثير في الكامل: «وجهزهم يعلى بن منية بستمئة بعير وستمئة ألف درهم»^(٣) وفي رواية اليعقوبي: «وقدم يعلى بن منية بهال من اليمن قيل إن مبلغه أربعمائة ألف دينار فأخذه منه طلحة»^(٤)

كلّ ذلك لكي يشجعهم على المضيّ في مشروعاتهم لإضعاف حكومة عليّ من جانب والتخلص منهم، بوصفهم منافسين محتملين، من جانب آخر. لكن الغريب جداً والمحير للفكر، بل ما يشلّ التفكير كلياً ويعطل الحواسّ هو أن تسمع بوجود يعلى بن منية بعد هذا التاريخ في صفوف جيش عليّ مقاتلاً في صفين ضد معاوية وأهل الشام المعادين لعليّ، بل وتجده قتيلاً فيها أيضاً^(٥) فكيف تحول من الغرب إلى الشرق؟ ولماذا؟ وتحت أيّ دافع؟ أليست هذه الواقعة وهذا الحضور من الأسرار التاريخية المحيرة الكبرى؟

هل كان يعلى بن منية مع جيش الخليفة عليّ ﷺ لتنفيذ بعض صفحات المؤامرة مثلاً، أم أنه أحسّ بخطئه فتاب وطلب الغفران من خلال المشاركة مع جيش الخلافة الشرعية، وقاتل أعدائه؟ وإذا كان عيناً للمتآمرين ضمن صفوف جيش عليّ وما أكثرهم كما يروي لنا التاريخ وتبين لنا الشواهد، فلمَ قتلوه؟ هل قتل بطريق الخطأ، أم لتصفية

(١) يعلى بن منية: كان يسمى باسم أمه منية أما أسم أبيه فهو أمية ولذا يرد في بعض الأحيان تحت اسم يعلى بن أمية.

(٢) ينظر: الجفر والفتن، ص ٣٠.

(٣) الكامل، ابن الأثير، المجلد ٣، ص ١٧٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨١.

(٥) الكامل لابن الأثير ص ٣٠١.

الحساب؟ أي: للتخلص منه بوصفه تاجرًا صاحب حقّ تبرع لهم بهاله، ويجب أن يحصل مقابل ذلك على حقه وأرباحه ومردود تجارته، فجاء قتله لمنعه من إثارة المشاكل للمتأمرين في المستقبل!

وبعد أن أسهم الزبير بن العوام في قتل جمع غفير من مسلمي أهل البصرة الذين كان يعتقد أنهم اشتركوا في قتل عثمان، لم ينجح في قتل (حرقوص بن زهير السعدي) أحد رؤوس التآمر؛ الذي التجأ إلى عشيرته بني سعد فمنعوه، وحرقوص يظهر في هذه اللقطة أحد الثوّار الذي اشتركوا في قتل عثمان، ولكنك تجده في سنة سبع وثلاثين في الكوفة قرب عليّ عليه السلام، واحدًا من أتباعه، ثم تجده بعد التحكيم يخرج مع زرعة بن البرج الطائي ليكفر عليًّا وليقول له: (لا حكم إلّا لله) ويقول له: «تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك» ثمّ تجده بعد ذلك مقتولاً في النهروان مع الخوارج الذين قاتلوا عليًّا! ^(١)

أبو موسى الأشعريّ كان واليًا لعثمان على الكوفة حتى تولية الإمام عليّ الخلافة وإلى تاريخ وقوع معركة الجمل وهو في منصبه دون تغيير، فأرسل الإمام إليه كتابًا مع محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، فلما أمسوا دخل الناس على أبي موسى؛ فسألوه عن الخروج لمقاتلة جيش الجمل؛ فثبّط عزائمهم ومنعهم من الخروج؛ وقال: «إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة، والخروج سبيل الدنيا فاختاروا» ^(٢)

وفي رواية أخرى ذكرها اليعقوبي: «ووجه (الإمام عليّ) الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر فاستنفرا أهل الكوفة، وعامله يومئذ على الكوفة أبو موسى الأشعريّ، فخذل الناس عنه» ^(٣) ومع ذلك نجد الأشعري بعد حين ضمن صفوف جيش الإمام عليّ عليه السلام

(١) ينظر: الكامل في التاريخ، المجلد ٣ ص ٢٨٦.

(٢) الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ١٩٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨١.

في صفين، فهل كان وجوده مخططاً له من لدن السياسيين المتآمرين؟ هل كان وجوده هناك من ضمن المخطط السياسي الكبير الذي أعدّه بطل السياسة العربية الداهية عمرو بن العاص الذي كان صاحب فكرة التحكيم في صفين، لكي يكون ممثلهم الخفي في مباحثات التحكيم؟^(١) وأرى أن الجواب بنعم على هذه الأسئلة لا يجافي الحقيقة، فأبو موسى كان من الطامحين للسلطة، والباحثين عن الملك، ومعاوية نفسه شخص فيه هذه الصفة، كما في الخبر الذي أورده الثقفى في الغارات قال: «لما قدم معاوية النخيلة أتاه أبو موسى (الأشعري) وعليه جبة سوداء وبرنس أسود»^(٢) ومعه عصا سوداء. وعن محمد بن عبد الله بن قارب قال: إني عند معاوية لجالس إذ جاء أبو موسى، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: وعليك السلام. فلما تولى، قال: والله لا يلي هذا على اثنين حتى يموت»^(٣)

وفي كل هذا التلون دلالة على التمكين والتطوير لا تجدها إلا عند كبار السياسيين، وفي ذلك دلالة على عبقرية السياسيين العرب، ولكن هل يستحق ذلك كله الفخر والزهو والتباهي بالمنجز الكبير بعد أن حقق انتصارات كبيرة، أم التستر والكتمان والختل، ولماذا فضلوا الكتمان؟

التكتّم على دور العرب السياسي

فضلاً عن التنقل بين الخطوط تجد هناك التكتّم الشديد على الدور السياسي، الذي لا يقل عجباً عن صاحبه حيث نجد أن التكتّم الذي مورس تاريخياً على دور العرب المسلمين السياسي أثر كثيراً في قرارات واستنتاجات من جاء بعدهم، ولا سيما منهم

(١) تأريخ يعقوبي، ص ٣١٦.

(٢) البرنس: قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها ذلك الزمن.

(٣) ينظر: الغارات، ص ٤٥١.

الكتاب والمؤرخين، فاحتاروا بين أن تكون هناك برامج سياسية عربية ناهضة، وبين أن يكون العرب من الأمم التي كانت تجهل العمل السياسي، وما تأكدي من خلال البحث والمتابعة أن المجتمع الإسلامي الأول عرف السياسة بكل ألوانها وصيغها وألاعيبها ودنائها وخياناتها ومؤامراتها، وأنه مارس العمل السياسي فعلاً وقولاً، وأجاد الصنعة وأحسن الفن بحيث نجح في تمرير طبخات عظيمة دون أن يشعر بها المخالف أو يفصح أمره، وأنه نجح في تغطية هذه المؤامرات وعصبتها برأس من لا ناقة لهم فيها ولا جمل لكي يبرئ نفسه منها، ويظهر بمظهر الحريص على الدين والحاكم الشرعي بأمره، ومن هذه الطبخات؛ مقتل الخلفاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؛ وهو ثمن غالٍ جداً دفعته الأمة المسلمة، ودفعته العقيدة مقابل سعي هؤلاء السياسيين إلى نيل المناصب التي كانوا يناضلون للحصول عليها. وإذا ما كان النبي الأكرم ﷺ قد عمل بجهد للقضاء على الشحناء والأحقاد السياسية التي شخص وجودها في المجتمع الأول، ونجح في كبتها وتحجيمها، فإن ما حدث بعد موته مباشرة يثبت أن مجاملة بعض أهل المدينة لعصر البعثة وجيل الصحابة لم يجوهر إيمانهم الحقيقي بالعقيدة بقدر ما جوهر تطلعاتهم السياسية، ولذا نرى (أن جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي قد كبتها بنفوذه الأدبي لم تلبث أن ذرت قرنهما)^(١)

الأنساق السياسية

فضلاً عن ذلك كانت هناك أنساق ومناهج سياسية متباينة بعضها محلي موروث، والآخر وافد مكتسب اجتمعت سوياً، لتؤسس بادرة الثقافة السياسية الإسلامية التي قادت الأمة. ومن خلال ما تحدث به المؤرخون عن النظام الإداري العربي الإسلامي يتبين اكتساب العرب المسلمين للنظم الإدارية من الحضارات السابقة

(١) تأريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ج ١، ص ٩٨.

(الفرس والروم)^(١) ويتبين أنهم ورثوا عنهم أيضاً فكرهم السياسي بعد أن شذّبوه من خصوصيته وأسبغوا عليه روحاً عربيّة جعلته أقرب إلى أنماط حياة العرب القاسية التي لا تزال روح البداوة سابطة فيها منه إلى أصوله التي وفد منها، ومن أمثلة إرثهم لمبادئ النظم الإداريّة غير العربيّة، تقسيم الخليفة عمر بن الخطاب الدولة الإسلاميّة إلى ثمانى ولايات، فهذا التقسيم الإداري ليس من موروث الفكر العربيّ، ولا من بنات أفكار الخليفة، بل هو مأخوذ من النظم الإداريّة السياسية للحضارات الأخرى، كذلك يرى علي حسني الخربوطي في مسألة تشكيل القوة البحريّة العربيّة أوّل مرّة في التأريخ العربيّ أن: (العرب كانوا في الأصل مدينين للبيزنطيين في هذه الناحية من الفنون الحربيّة)^(٢)، وهذا لا يعني أن المنظومة السياسية العربيّة كانت قاصرة عن تحقيق غاياتها؛ فالعرب كانوا على قدر كبير من الفهم والتقدم الفكري الذي جعلهم قادرين على تطويع واحد من أصعب العلوم المعاصرة لخدمة قضايهم، وتوظيفه للوصول إلى سدة الحكم، ومنافسة من هم أكثر استحقاقاً، وأجدى نفعا للدين والأمة، ألا وهو علم السياسة.

ولو كان الإداريون المسلمون قد اهتموا بشأن المنهج السياسي العربيّ كما هو اهتمامهم بشأن الجانب الماليّ مثلاً لكان لدينا اليوم خزيناً ثرياً وتصوراً واضحاً عن كلّ تلك الحركات السياسية؛ ولكنهم أغفلوا الإشارة إلى هذا الجانب بمعناه الحقيقيّ، وأشاروا إليه من خلال إلماعات تهتم بمسألة الدهاء والخداع وغيرها من الطباع من دون أن يربطوا هذه الصفات بالسياسة، بالرغم من كونها من أوضح صفات السياسيين، ثمّ إنهم أسموا تلك الحركات بـ(الفتنة)؛ وأنا أرى أنّ مصطلح الفتنة مأخوذ من الفلسفة السياسية التي لم تكن قد أصبحت علماً قائماً بذاته في ذلك التأريخ؛ فاستعاضوا عن كلمة

(١) ينظر: الحضارة العربيّة الإسلاميّة، علي حسني الخربوطي، ص ١٨

(٢) الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ص ٦٣.

(سياسة) بكلمة مرادفة هي (فتنة) التي قصدوا بها الحركات التي وقعت في زمن عثمان تحديدًا، وما تلاه من العصور الإسلامية القريبة منه بدوافع سياسية بحتة وأغفلوا ما وقع قبل هذا التاريخ.

وللدكتور صبحي الصالح رأيٌ ناضج؛ يقول فيه: «وأمهات الكتب القديمة في (النظم الإسلامية) التي حملت اسم (الأحكام السلطانية) لم يفتها الفصل بين تينك الزمرتين من النظم، ولكن ما اكتنف عباراتها من الغموض في (أحكام) الفقيهن الماوردي (الشافعي) وأبي يعلى (الحنبلي) لم يتح لنا ولا للباحثين قبلنا الوقوف على الأطوار التاريخية والأنماط الحضارية والظروف البيئية والجغرافية التي مرّ بها كلّ نظام على حدة من قبل أن يأخذ صيغته النهائية (الرسمية) في تعاليم الإسلام»^(١)

وأرى أن هذا الرأي على قدر كبير من الصحة، ولكنه بالتأكيد لا يغطي كلّ جوانب الحقيقة، وإنما يغطي جزءًا منها، وجزءًا صغيرًا فقط؛ لأنّ التغيب المتعمد لأثر النظام السياسي، والذي كان جزءًا من العمل السياسي المنظم، هو المتسبب الأكبر في هذا الغموض، وإلا فإنّ النظام السياسي بمفهومه المعاصر كان حاضرًا وفاعلًا ومتحكمًا في مسار الأحداث والتاريخ، وهو الذي شكل الخارطة السياسية الإسلامية بشكلها المعروف حاليًا.

وكلما توغلنا في الحديث عن تعامل العرب المسلمين مع متطلبات المرحلة التي عاشوها بحسناتها وسيئاتها سوف يتضح لنا دور السياسة في ترتيب البيت العربيّ الإسلاميّ وفق هواها، وفي مراحل ساخنة من هذا الحراك قادهم الهوى السياسي بعيدًا عن هوى الدين ومسؤولياته.

(١) النظم الإسلامية، د. صبحي الصالح، ص ٨.

فضلاً عن ذلك يرى الدكتور عبد الرحمن العزاوي: «أنّ بدايات التدوين التاريخي عند العرب مرّت بمراحل عبر القرون الثلاثة الهجرية الأولى، لكنها نالت في القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ تطوُّراً في المنهج والطريقة»^(١) ويتبنّى من قول آخر للباحث أنّ هذا التأخير كان من أسباب وقوع المؤرّخ المسلم في مصيدة الخلط التاريخي؛ حيث قال: «فإنّ هذا الموضوع لا يمكن أن يدرك بالنسبة للقرون الثلاثة الأولى للهجرة ولا سيما القرن الأول والثاني، وأنه لا يمكن التمييز بين التأريخ الصرف والموادّ التي كانت تروى وتقصّ على أنها مادّة صالحة من موادّ التأريخ... وليس هذا بدعاً جاءت به العقلية العربية؛ لأنّ الارتباك والصعوبة بين الموادّ التاريخية الأصلية والأساطير قد مرّ على كلّ الأمم المثقفة التي شعرت بحاجتها إلى تدوين سيرها فلمّا شعرت هذه الأمم بالحاجة للتدوين صدمتها هذه العقبة»^(٢)

والذي أراه أنّ الدكتور العزاوي حاول التغافل عن حقيقة الخلط التاريخي الذي وقع في تأريخنا عند تأكيده الفارق الزمنيّ بين ساعة وقوع الحدث وتاريخ تدوينه وحده، ناسياً أو متناسياً أنّ هناك حقائق أخر أكثر منه أهميّة أسهمت في تشويه صورة تأريخنا، وكان بعض التشويه والإخفاء متعمّداً ومقصوداً أسهم في وضعه المؤرخون والخلفاء ووعاظ السلاطين بأمر من السياسيين أنفسهم، لكي لا يعرف القادمون حقيقة ما وقع كما وقع، ويكتفون بما يجدونه في روايات كتب التأريخ. وبالتالي تنوعت الروايات ومضامينها. وعلى العموم كان رأي الدولة وسلطانها هو النافذ وحجبت كل الآراء الأخر، فلم تجد لها مكاناً في كتب التاريخ، ولكنها لم تمت وتلاشى، وإنما بقيت في عقول وصدور وقلوب فئة من الناس حافظوا عليها وتداولوها شفاهاً إلى أن حانت الفرصة

(١) المنهجية التاريخية في العراق، د. عبد الرحمن العزاوي، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩.

المؤاتية فدونت وانتشرت، وحينها بدت للآخرين وكأنها غريبة لأنهم لم يألّفوها من قبل، وهم الذين بنوا قناعاتهم وأحكامهم على ما تم تداوله وتدوينه من قبل، ولذا ليس غريباً أن تجد بينهم من ينكر وجود فكر سياسي عربي أو إسلامي، أو ينكر حدوث ما في المدونات الجديدة!

فمن السذاجة بمكان أن نعتقد خلو المجتمع الإسلامي الأول من العمل والفكر السياسي، فمن يبحث في المصادر التي تناولت العصر الجاهلي لا بد أن يجد إلماحات إلى دور السياسة في ذلك المجتمع الذي سبق الإسلام، يجد ذلك حتى في كتب الشعر والأدب، وقد نقل الدكتور محمد البهي عن كتاب الشعر الجاهلي قول المؤلف عن عرب الجاهلية: «وإذا كانوا أصحاب علم ودين، وأصحاب ثروة وقوة وبأس، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة، متأثرة بها ومؤثرة فيها، فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة واعية، لا أمة جاهلة همجية، وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر في أمة جاهلة؟»^(١) كما ويجده في تحرك سياسي بلباس اقتصادي لم يلتفت إليه المتخصصون، ولم يعطوه الأهمية التي يستحقها؛ ففي التاريخ أن هاشم جد النبي ﷺ ذهب إلى الشام وأتصل بحاكمها البيزنطي «وسأله أن يعطي تجار مكة كتاباً يؤمن فيه تجارتهم وأنفسهم فاستجاب له الحاكم... ويظهر أن هاشماً أوعز لأخوته بأن يقوموا مع الدول المجاورة بالدور نفسه الذي لعبه في الشام، فذهب المطلب بن عبد مناف إلى اليمن... وذهب عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة... وكذلك حصل نوفل على ترخيص من الملك الساساني كسرى، وبذلك طورت قريش بعد ذلك تجارتها وزادت

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الدكتور محمد البهي، ط ٤، ص ٢١٣،

عن كتاب الشعر الجاهلي، ص ١٩٥.

ثروتها»^(١)

بل وتجد للمستشار محمد سعيد العشماوي في حديثه عن مؤلفه قولاً يؤكد بما لا يقبل الشك وجود السياسة في المجتمع العربي الجاهلي، جاء فيه: «وإذا كان الكتاب يهدف إلى بيان أصول الخلافة وطبيعتها وحقيقتها فإنه يعرض إلى الأحداث التي انتهت به إلى أنها نظام سياسي، وليست نظاماً دينياً وأنها تحتوي كل ألعيب السياسة وكل دناياها وكل أخطائها وكل مساوئها وان وصفها بأنها (إسلامية) لم يكن وصفاً حقيقياً يفيد أنها انبنت على قيم الإسلام الأخلاقية»^(٢)

لكن كيف تسنى للسياسيين إخفاء هذه الحقائق عن الناس، كيف نجحوا في نزع جلدتهم السياسي ولبس جلود دينية أبعدت عنهم الشك؟ وهل يعني ذلك ان مقدرتهم السياسية هي التي مكنتهم من تبرئة أنفسهم من كل تلك المصائب بحجة انهم كانوا يريدون تصحيح الدين، أم ماذا؟

(١) ينظر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهد الإسلامي المبكر، د. خالد العسلي،

إعداد د. عبد السلام رؤوف، ص ٢٤-٢٥.

(٢) الخلافة الإسلامية، محمد سعيد العشماوي، ط ٢، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٢.

الذين كتبوا التاريخ أخفوا حقائقه

أذكر مرة أخرى بأن المدونات الإسلامية والعربية القديمة لم تكتب بأقلام محايدة، بل كتبت بأقلام السياسيين والموظفين الحكوميين ووعاظ السلاطين، بل حتى الأحاديث النبوية جرحت وعدلت وفق نفس المنهجية، ولذا تم تغييب الكثير من الحوادث والأحداث، بل والنصوص الصريحة، وتم تحريف القسم الآخر، فوصلنا ما اختاروه هم لا ما كان موجوداً، وما أرادنا النبي ﷺ أن نعرفه، وهؤلاء الذين تلاعبوا بسنة رسول الله وبالتاريخ كانوا من الموظفين عند السلطان والسائرين على نهجه، والمؤيدين لخطه، والمنفذين لأوامره وخططه، وبالتالي كانوا يختارون ما يعجبه ويرضيه، ويخفون أو يحرفون ما لا يرضيه، وكان أحياناً يملئ عليهم ما يكتبوه! ومن هؤلاء الذين تلاعبوا بتاريخنا أسماء بارزة كان لها كبير الأثر في تحريف الحقائق وصبغ تاريخنا باللون الذي أرادته السياسيون، بعيداً عن لونه الطبيعي، ونجد في ما ذكره صاحب (تهذيب الكمال)^(١) عن أحد الرواي الحديث وهو (حريز بن عثمان) الذي كان يشتم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام علناً، عوضاً عن ذكر الله، وممن اعترف بهذه الحقيقة المرة الإمام أحمد بن حنبل الذي قال عن حريز: «إنه كان يحمل على علي» ولكن ابن حنبل لم يلتفت لهذه الخصلة المعيبة في تقييمه لهذا الراوية؛ فقال عنه: «ثقة، ثقة، ثقة»، حريز الذي كان يتناول على أول القوم إسلاماً يعدّه ابن حنبل ثقة بالثلاث، فما نوع الأحاديث التي سيوردها هذا الثقة؟ وأين ستوظف رواياته؟ وماذا ستثمر؟

(١) تهذيب الكمال، الجزء الخامس، ترجمة «حريز بن عثمان» الحديث المرقم ١١٧٥.

وهناك (الجوزجاني) وهو من أئمة الجرح والتعديل المسؤولين عن توثيق أو تصديق أو تسقيط أو تضعيف الأحاديث النبوية؛ هو الآخر كان يجاهر ببغضه لعلّي وأهل البيت عامة، فإذا مر عليه حديث حريز وثقه حتى ولو كان مخالفاً لمنهج الرسالة.

وقد حكم الذهبي وآخرون على أن ابن إسحاق أحد أشهر كتّاب السيرة النبوية كان مدلساً، وكان يدفع المال والقصص للشعراء ليضعوا فيها أبياتاً ينسبها إلى المشاركين في الحدث الذي يريد الحديث عنه، وهناك من قال: إنه كان يأخذ من بعض اليهود. ومع ذلك جاء المتأخرون وأخذوا بما في سيرته من مضمون اعتماداً على ما أورده! ^(١)

في جانب آخر نجد للدكتور الدوري قولاً جاء فيه: «فالطبري مثلاً من مصادرنا الجليّة، ولكن نظرة إلى ما كتبه عن صدر الإسلام تكشف لنا أننا أمام مجموعة من المؤرخين وغير المؤرخين استند إليهم الطبري، مثل أبي مخنف، وسيف بن عمر، وابن الكلبي، وعوانة بن الحكم، ونصر بن مزاحم، والمدائني، وعروة بن الزبير، والزهرري، وابن إسحاق، والواقدي، ووهب بن منبه، وكعب الأخبار.. إلخ.. وهم يتباينون في الدقة والاتجاه والأسلوب، وفي طريقة الرواية، وكل منهم يحتاج إلى دراسة تأريخية خاصة» ^(٢)

هكذا نشأ علم التأريخ العربي المدون بالتناقل الجمعي، وقد قال الدوري عن هذه الحالة: (ولنلاحظ هنا أننا إذا أردنا أن نتفهم تطور الكتابة التاريخية يلزمنا أن نلاحظ أن الدراسات حتى في المغازي كانت أعمالاً جماعية، وأن فعاليات الأفراد تكون جزءاً من مدرسة، فكان كل واحد من حملة العلم يضيف دراساته وبحوثه إلى دراسات أساتذته الخصوص.)

(١) يراجع كتابنا (جزئيات في السيرة النبوية، عرض وتحليل) للاطلاع على آراء العلماء في هذا

(٢) نشأة علم التاريخ عند العرب، الدكتور عبد العزيز الدوري، ص ٩.

وبذلك يحفظ علم المدرسة التي ينتمي إليها^(١)

ولكي نعرف نتيجة هذا التكديس المعلوماتي التناقلي يجب أن نعرف بداية نتفا عن سير بعض الرجال الذين كتبوا السيرة والحديث والتفسير والمغازي والتاريخ، نعرف توجههم، تفكيرهم، علاقتهم بأهل البيت؛ لنعرف دوافعهم في الكتابة، ومن هؤلاء فضلاً عن حريز والجوزجاني هناك:

١. عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ - ٧١٢ م) كانت بعض كتاباته التاريخية أجوبة مكتوبة عن أسئلة وجهت إليه من البلاط الأموي.... أخذ عن عائشة ومن آل الزبير أسرته وكتب في الحديث والسيرة وعصر الخلفاء الراشدين وما سمي بحروب الردة ومعركتي القادسية واليرموك^(٢) علماً بأن الزبيريين كانوا منحرفين عن أهل البيت، ومن المؤكد أنهم لا يرغبون بذكرهم ولا بذكر كراماتهم.

٢. شراحيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ - ٧٤٠ م) مولى الأنصار ويكنى أبا سعد وكان شيخاً قديماً أخذ عن زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعويم بن ساعدة الأنصاري وزيد بن ثابت، واختلط واحتاج حاجة شديدة، وله أحاديث وليس يحتاج به^(٣) قال عنه أئمة الجرح والتعديل الكثير وجلهم ضعفوه واتهموه بالخلط: قال أبو أحمد بن عدي الجرجاني: هو إلى الضعف أقرب، ومرة: وفي عامة ما يرويه نكارة. وقال أبو حاتم الرازي: ضعيف الحديث. وقال أبو زرعة الرازي: فيه لين. وقال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: تابعي مدني غير متهم. وقال أحمد بن شعيب النسائي: ضعيف. وقال ابن أبي حاتم الرازي: عالم بالمغازي. وقال ابن حجر

(١) نشأة علم التاريخ، الدوري، ص ٢١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، الدوري، ص ٢٠.

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٥، ص ١١٨٦٥.

العسقلاني: صدوق اختلط بآخرة. وقال الدارقطني: ضعيف يعتبر به. وقال سفيان بن عيينة: لم يكن بالمدينة أحد أعلم بالبدرين منه وأصابته حاجة، فكانوا يخافون إذا جاء إلى الرجل يطلب منه الشيء فلم يعطه أن يقول لم يشهد أبوه بدرًا. وقال عنه مالك بن أنس: ليس بثقة. ومحمد بن إسحاق المطلبي: تعجب ممن يحدث عنه، وقال: نحن لا نروى عنه شيئاً. وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي: بقي حتى اختلط، واحتاج حاجة شديدة وليس محتج به. وقال محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب: متهم. وقال محمد بن عبد الله بن البرقي: يضعف. وقال عنه مصنفو تحرير تقريب التهذيب: ضعيف، وما علمنا أحداً وثقه سوى ابن حبان. وقال عنه يحيى بن معين: ليس بشيء ضعيف، وقال مرة: ضعيف يكتب حديثه.

٣. الزهري (ت ١٢٤ هـ ٧٤١ م) لم يقتصر على رواية مغازي عروة بن الزبير «وقد أخذ الزهري جل مواده عن السيرة من الحديث ولا تجد إلا أثراً بسيطاً للقصص... تناول بالدرس عصر البعثة والخلفاء الراشدين وانتقال السلطة إلى الأمويين»^(١) والزهري من المنحرفين عن علي، وأخذ عن منحرف عن علي، فكيف يكتب ولا سيما أن الروايات تذكر أنه أجبر من قبل الأمويين على الكتابة كما يؤكد الدكتور الدوري^(٢)

فضلا عن ذلك نجد الشيخ الدكتور حارث الضاري^(٣) بعد أن عدد أسماء الفرق في عصر الأمويين تكلم كذلك عن موقف الزهري منها فقال: «إن كل فرقة من هذه الفرق كانت متلبسة بأكثر من ضلالة، إذ ذهبت الشيعة كما رأينا إلى الحكم بتضليل جمهور

(١) نشأة علم التاريخ، الدوري، ص ٢٢-٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٣) رئيس هيئة علماء المسلمين السنة في العراق التي تأسست بعد الاحتلال الأمريكي في

الصحابة... ومنهم من كفرهم جميعاً... ولما كانت هذه الفرق في جملتها مخالفة لما عليه جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة الذين يتولون جميع المؤمنين ولا يتكلمون فيهم إلا بعلم وعدل، وكان الإمام الزهري واحداً من أعلام الجمهور ومتكلميهم، كان حرياً به وقد عاصر هذه الفرق واطلع على كثير من بدعها وضلالاتها أن يتصدى لها ويندد بها ويفند آراءها، وهذا هو ما كان منه حيث وقف أمامها وندد بها... ومن مواقفه أمام فرق الضلال موقفه من الرافضة الذين ندبهم وشبههم بالنصارى، فقد روي عنه أنه قال ضمن كلام: ولا رأيت قوما أشبه بالنصارى من السبائية، قال أحمد بن يونس: يعني الرافضة»^(١)

وقد اعترف الضاري صراحة بالنهج السياسي للزهري وارتباطه بالخلفاء الأمويين تحت عنوان (الإمام الزهري والسياسة)، فقال: «بعد أن استقر الإمام الزهري في دمشق حوال سنة مائة من الهجرة وما بعدها شاع ذكره فيها، ونشأت له علاقات مودة وتقدير مع بعض الخلفاء الأمويين... وكان أول من حظي بتقديره منهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز... كما أن يزيد بن عبد الملك كان قد استقضاه مدة من الزمن... ولما انتقلت الخلافة لهشام بن عبد الملك أمر كاتبين يكتبان عنه السنن، كما اسند إليه مهمة تأديب أولاده وتعليمهم وتوجيههم، ولعل أهم دور سياسي قام به الإمام الزهري هو ما أشار به على هشام بن عبد الملك من خلع ولي عهده الوليد بن يزيد»^(٢)

هؤلاء الثلاثة: شراحيل بن سعد، والجرجاني، والزهري هم نماذج تم اختيارهم عشوائياً، وهناك المئات غيرهم ممن ساروا على نهجهم أو اشتركوا معهم، وهؤلاء الثلاثة كانوا يتعاونون ويضيف كل منهم ما يكتبه إلى ما كتبه من سبقه وجلهم اعتمدوا

(١) ينظر: الإمام الزهري وأثره في السنة، حارث سليمان الضاري، ص ٧٠-٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

على القصص التي رواها كعب الأحبار ووهب بن منبه فضلاً عن روايات السياسيين ليحولوها إلى تاريخ. والقصص كما هو معروف فن أدخله اليهود إلى دولة الإسلام في عهد الخليفة عمر ثم تحول إلى موروث شعبي وأدخل في السيرة والتاريخ، يقول الدكتور الدوري عنه: «وكان وهب بن منبه اليماني (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م) شيخ القصاصين، ألف وهب المغازي، أسلوبه نموذج من أسلوب القصاص فيه تصوير حاذق وفيه التمجيد وفيه المادة الأسطورية... لقد اعتنى وهب بالإسرائيليات وهي قصص وأساطير العهد القديم... وقد جمع وهب القصص ما كان متداولاً وبخاصة قصص كعب الأحبار (ت ٣٢-٣٤هـ / ٦٥٢-٦٥٤م) ولم يكن وهب دقيقاً بل لم يترفع عن الإدعاء بالكذب»^(١)

هؤلاء الثلاثة بعض من كتب الجزء الأهم من تاريخنا بستته وحديثه وسيرته وتاريخه وهم جميعاً إما منحرفون عن الخط العلوي أو سياسيون أو أبناء لسياسيين كبار، وبالتالي من غير المعقول أن يوردوا ما يسيء إلى تاريخهم الشخصي والعائلي. وحينما جاء ابن إسحاق (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م) ليكتب السيرة أخذ عنهم فضلاً عن مخترعاته الشخصية الخاصة، ولذا قال عنه الدكتور الدوري: «ويتنقد ابن إسحاق^(٢) لاعتماده على أهل الكتاب في الرواية وإيراده كثيراً من الشعر الموضوع ولأخطائه في الأنساب ولأنه لا يمحص مصادره ولأنه ينقل من كتب الآخرين مباشرة، أي دون سماعها عن أصحابها»^(٣) وفي مثل هذه الحال لا يستبعد التلاعب حسب الرغبة والاتجاه والتأثير السياسي والعصبي، ولذا قلبت المعادلة، واستمرت مقلوبة إلى يومنا الحاضر، وبات

(١) نشأة علم التاريخ، الدوري، ص ٢٣-٢٤

(٢) يراجع كتابنا «جزئيات في السيرة النبوية» فقد أوردنا أقوال أهل الجرح والتعديل في ابن

إسحاق وقصصاً عن تلاعبه

(٣) المصدر نفسه، الدوري، ص ٢٦

بحاجة ماسة على من يعدّها ويعيدها على طبيعتها الأولى.

لا يفوتني أن أذكر أن هناك جانب مهم يجب الانتباه عليه وهو أن لمباني فكر السلطة الحاكمة تأثيره على بنية الأمة كلها «فالمسألة لا تقف عند حدود التواءات الرؤية وأساليب النظر، بل تتجاوزها لترتبط بمبنى آخر هو مبنى السلطة الحاكمة فعجز الرؤية وقصورها، وبالتالي فساد السياسات التي رسمت على ضوء هذه الرؤية هو التعبير المباشر عن خللٍ أساسي في بنية السلطة الحاكمة وفي طبيعة القوى التي تتولى مقاليد أمور الأمة»^(١) بمعنى أن امتزاج فكر السلطة مع الفكر الديني أفسد السياسة والدين كلاهما، لأن ما كانت تبغيه السلطة يتعارض مع ما يبغيه الدين.

قلب المعادلة

ثم أرى أن مجرد نجاح السياسيين المتآمرين في قلب المعادلة لمصلحتهم وإبعاد التهمة عن أنفسهم ولصقها بغيرهم وتثبيت ذلك في كتب التاريخ، ثم نجاحهم أكثر من مرة في هذه المسألة بالذات، بل واستمرار العمل بها إلى الآن؛ يدلّ على وجود عقول سياسيّة متمكنة في ذلك المجتمع وفي ذلك التأريخ، وهذا العقل صمم مشروعه بدقة متناهية خدعت عقول المتقدمين والمتأخرين؛ فصدّقوا خدعة الجريمة الفارسيّة في قصة مقتل الخليفة عمر مثلاً، وتبنتها كتب التأريخ في الوقت نفسه الذي غيب التأريخ أسماء المتآمرين الحقيقيّين وصورهم وجنسياتهم وأصولهم لأسباب معروفة وواضحة. وصدّقوا كذبة أن الإمام علي عليه السلام كافر منافق لا يصلي، وأن معاوية حاربه لهذه الأسباب وليس لغيرها. ونسوا أن معاوية وكل حاشيته هم إما من الطلقاء أو المنافقين أو من اتباع الديانات الأخر. وصدّقوا أن الإمام الحسن عليه السلام كان مشغولاً بالزواج والطلاق وتبذير

(١) في الاجتماع الإسلامي السياسي، الدكتور حسن الضيقة، ص ٤٥.

الأموال عن متابعة رعيته، وأن معاوية حاربه وقتله بالسم لكي يريح الأمة منه، وينقذ النساء البريئات من سطوته! وصدّقوا بأن من اجتهد وأخطأ، حتى ولو تسبب خطؤه بمقتل آلاف الصحابة الكرام، يعطيه الله حسنة واحدة. مقابل ذلك غيبوا الأثر الحسي للإمام الحسن عليه السلام وأظهروه بمظهر الضعيف المهزوم المشغول بمتعته الشخصية وحب المال وكثرة الزوجات. وفي هذا وغيره دلالة على أنهم كانوا في منتهى الدقة من حيث الإعداد، والتخطيط، والتنفيذ، والمتابعة، والوصول إلى النتائج المتوقعة.

إن هناك الكثير من المؤشرات على أن النبي الأكرم والإمام علي شخصاً وجود السياسيين في المجتمع، كذلك شخص الخلفاء وجودهم، فقد ذكر الباحث (لامنس) أن الخليفة عمر كان على إطلاع تام بأن بعض وجوه المجتمع الإسلامي كانوا يسعون إلى الخلافة، ويحاولون التسلط، ونجح بذلك في إفشال مخططاتهم، وقد نقل (هنري ماسيه) رأي لامنس الذي قال فيه: «إن ميزته (أي: الخليفة عمر) الرئيسية التي لا تنكر هي منع الانفصاليين من التسلط»^(١)

ومن قبله كان أبو بكر قد شخص وجود سياسيين متآمرين يسعون إلى السلطة، وعرف أن هناك في صفوف المجتمع العربي الإسلامي من ينظر إلى الخلافة بطمع كبير، ولو بشكل محدود له علاقة بترشيح عمر للخلافة؛ حيث نقل لنا الطبري «عن صالح ابن كيسان عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أنه دخل على أبي بكر الصديق في مرضه الذي توفي فيه، فأصابه مهتماً؛ فقال له عبد الرحمن مجاملاً: أصبحت والحمد لله بارئاً، فقال أبو بكر: أترأه، قال: نعم، قال: إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم (ورم أنفه) من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت»^(٢) ونقل

(١) الإسلام، هنري ماسيه، ص ٥٩.

(٢) الطبري، ج ٢، ص ٥٩١.

اليعقوبي في تاريخه: «واعتلّ أبو بكر في جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية... ودخل عليه عبد الرحمن بن عوف في مرضه الذي توفي فيه، فقال: كيف أصبحت يا خليفة رسول الله؟ فقال: أصبحت مولياً، وقد زدتموني على ما بي أن رأيتموني استعملت رجلاً منكم، فكلكم قد أصبح «ورم أنفه» وكلّ يطلبها لنفسه»^(١)

أمّا تجاوز هذا التشخيص، ومن ثمّ تغييب ذكر السياسيين ومؤامراتهم في تاريخنا منذ بداية تدوينه وإلى الآن فقد كان جزءاً مهماً من الحراك السياسي برمته. أمّا لماذا استمرّ هذا التصور المتحيز إلى الآن خلافاً لكلّ التوقعات، وأقصد تصور البعض بأن ما وقع بين الخطين الديني والسياسي كان صراعاً دينياً بحتاً، ولم تكن للسياسة علاقة به لا من قريب ولا من بعيد، ولم يكن هناك سياسيون حقيقيون في المجتمع، فذاك ما يجب عنه الدكتور صالح جواد الكاظم في مقدمة ترجمته لكتاب (الرواية التاريخية) لـ (جورج لوكاش) بقوله: «مع ازدياد الوعي بالحاضر يزداد الاهتمام بالتاريخ بوصفه خلفية الحاضر» ولما كان جزء كبير من التاريخ الإسلاميّ خلفية الحاضر الإسلاميّ المعاش وعلى المستويات كافة، وليد علاقة غير شرعية بين رجل الدين السياسي ورجل الدولة السياسي حيث «منذ فجر الخلافة جلس الفقيه في معية السلطان يصوغان لنا إسلامنا، إسلام يؤسلم ويكفر بحسب مدى التزام المواطن بالمذهب السيّد الذي هو مذهب السدنة والسلطان وأولي الأمر، وطاعتهم أمر ربّانيّ وفرض سماويّ. ومنذ خرجت جيوش أبي بكر تحارب تاركين الزكاة تحت اسم الدين والصواب الدينيّ، أصبح معنى أن تخرج جيوش المسلمين لتحارب الكفار «غير حروب الفتوحات». إنها خارجة للقضاء على المعارضين أو المخالفين في الرأي السياسي الذي تتمّ إحالته إلى الدين، حتى

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٣٧.

يتم الذبح والحرق والسبي باسم الدين، وليس لخلاف سياسي^(١)

في كل هذا التاريخ كانت هناك نزاعات ومعارك وظلم وقهر وعسف تسبب به السياسيون، وكانت هناك مواقف جهادية للعقائديين من الأمة هي التي تصدت لهذا التخريب وتحملت ما تحملت من أجل وقفه عند حده، وهو ما قال عنه حسن عبد الله: «حرص الأمويون على أن يثيروها فتنة فطفقوا يذكون نارها كلما أوشكت أن تتمد... وحرص الهاشميون على أن يجعلوها أمناً وطمأنينة فشمروا للحجة يريدون أن يقنعوا الناس. وما بين الفتنة والإقناع بالحجة ولدت المؤامرة»^(٢) ومن هذا النزاع كانت الأدوار السياسية تتغذى حتى في عصر البعثة.

(١) مقال بعنوان (لكي لا يخذعنا بعضهم: هل كان تأريخنا ماضياً سعيداً؟) للكاتب المصري سيد القمني نشر في صحيفة المثقف (العدد: ١٤٠٩ الخميس ٢٠/٥/٢٠١٠).

(٢) الاغتيالات في الإسلام، حسن عبد الله، ص ٦٦

السياسة بعد عصر البعثة

مع انتهاء عصر البعثة تحقق للسياسيين العرب الذين أسلموا طوعاً أو كرهاً بعض ما كانوا يصبون إليه؛ فتغيرت خططهم ومشاريعهم بعد أن سيطروا على ساحة الإسلام بشكل شبه كامل، ولم يعودوا بحاجة إلا إلى بعض الترتيب، وهذا الترتيب فرضه وجود علي بن أبي طالب بينهم، فهم لم يغفلوا وجوده، بل كانوا يعدونه العقبة الوحيدة التي تقف بطريقهم وتعترض مسيرهم؛ وكانوا على يقين بأن مشاريعهم لا تتحقق إلا بزواله وعزله وقتله، لأنه الامتداد الطبيعي لنبي الإسلام ولعصر الرسالة، فوضعوا لهذه المرحلة مشروعاً جديداً تطلب منهم صبراً طويلاً وجهداً كبيراً وتضحيات جمّة وسفك دماء بريئة، وكان مشروعهم السياسي في هذه الحقبة مقسماً إلى ثلاث مراحل متسلسلة مترابطة فضلاً عن رغبتهم ببناء قواعد دولة موازية لدولة الإسلام تأخذ على عاتقها جمعهم إذا فشلت مخططاتهم الأخرى؛ فكانت دولة الشام الموازية لدولة المدينة المنورة.

ترشيح وتنصيب ودعم وقتل الخلفاء

من مناهج هذه المرحلة كان منهج تطويع من ينوب عن النبي في قيادة الأمة، لأن السياسيين لم يكونوا حينها مؤهلين لذلك؛ ففي هذه المرحلة الخطيرة نجد بأن مبايعة كل واحد من الخلفاء الثلاثة جاءت لتهيئة الأجواء للمرشح الذي يليه حتى من دون علم الخلفاء أنفسهم، لكي يعمل كل منهم على أداء دوره المرسوم له قبل الرحيل الذين يؤقتونه حسب متطلباتهم السياسية، فهم الذين مهدوا الطريق للخلفاء، وهم الذين أراحوهم من طريقهم. يقول إبراهيم بيضون عن عثمان: «جاء إلى الخلافة وهو لا يعرف

الكثير عن دور القوى الخفية التي مهّدت له الطريق»^(١)

ونحن لا نتكلم رجماً بالغيب حينما ندّعي قتلهم للخلفاء؛ فالسياسيون العرب هم المسؤولون عن مقتل الخلفاء الأربعة جميعهم، مثلما كانوا مسؤولين عن تعيين ثلاثة منهم. ومجرد الإيمان بهذه الحقيقة يدلّك على كبر المؤامرة السياسية التي كانت تتحكم بالحياة العامة في دولة الإسلام، ومقدار الوعي السياسي العربي، فهم بالتأكيد من:

• قتلوا الخليفة الأول بالسم وعصبوا الأمر برأس اليهود:

أورد الحاكم في مستدركه عن داود بن يزيد الأودي قال: «سمعت الشعبي يقول: والله لقد سُم رسول الله وسُم أبو بكر الصديق»^(٢) وجاء في حيثيات قصة السمّ هذه في حديث أخرجه الحاكم أيضاً عن ابن شهاب: «أن رجلاً أهدى يوماً لأبي بكر صحفة من خزيرة وعنده رجل يقال له الحارث بن كلدة، وعنده علم، فلما أكلا منها قال ابن كلدة: فيها سمّ سنة! فوالذي نفسي بيده لم يمرّ الحول حتى ماتا في يوم واحد رأس السنة»^(٣) ولم نعرف من هو الرجل الذي قدم لهما السم، فقد غيب اسمه وكل ما يتصل به. فقط المسعودي في مروجه أشار إلى اليهود واتهمهم بالقتل بقوله: «وكان أبو بكر قد سمّته اليهود في شيء من الطعام، وأكل معه الحارث بن كلدة فعمي»^(٤) ومنه أخذ الآخرون هذا القول ونشروه، وربما يكون السياسيون أنفسهم من يقف وراء تلفيق مثل هذا الخبر الغريب. أما الذين شككوا بصحة الخبر، ومنهم حسن عبد الله فقد عصبوا الجريمة برأس المرتدين والمنافقين إما جهلاً، أو لغايات دفاعية لها علاقة بالدوافع القديمة التي

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص ١٠٣ .

(٢) المستدرک، الحاكم، ج ٣، ص ٥٩، الحديث رقم ٤٣٩٥ / ٩٩ .

(٣) المستدرک الحاكم، ص ٦٦، الحديث ٤٤١١ / ٩ .

(٤) مروج الذهب، المسعودي، ٢ / ٣١٧ .

تكلّمنا عنها، حيث قال حسن عبد الله: «هذا الخبر لا يمكن أن نطمئن إليه لأنه لم يكن لليهود علاقات أو وجود مؤثر مع المسلمين في عهد الصديق فقد أجلي الرسول ﷺ معظم اليهود من المدينة... لكن الأمر له علاقة بالمرتدين والمنافقين الذين كانوا يخالطون المسلمين ويؤاكلونهم»^(١) إن تبرئة اليهود قد تكون حقيقة لا لبس فيها، ولكن ماذا عن المتهمين بالقتل من المرتدين والمنافقين؟ أليسوا هم السياسيون انفسهم الذين موه عنهم المؤرخون بهذه التسميات لكي يخفوا دورهم؟ ثم كيف كان الزهري واثقاً بأن الذي قدم للخليفة وصاحبه الطعام المسموم كان رجلاً، لماذا لم يكن امرأة مثلاً لو لم يكونوا على ثقة من قولهم، لكن أسأل: لماذا لم يحاسب القاتل، ولماذا أخفي اسمه، ومن المسؤول عن ذلك؟

• قتلوا الخليفة الثاني غيلة وعصبوا الأمر برأس الفرس:

وهم بعد أن هياؤا الخليفة الثاني للعمل وأعانوه وعاونوه لينفذ لهم مآربهم وخططهم بالتناوب والتعاقب حتى من دون علمه خططوا لقتله ونفذوا خططهم وتخلصوا منه وعصبوا الأمر برأس الفرس.

وفي جريمة قتل عمر هناك إشارات واضحة تدل على أن عمر كان متنبهاً للحراك السياسي، وكانت الأخبار قد وصلته عن وجود مؤامرة لقتله بالاشتراك مع أعاجم، وربما لهذا السبب بادر إلى منع دخول الأعاجم إلى المدينة بعد أن أخرج غالبية الموجودين فيها، وينقل ابن سعد في الطبقات الكبرى قول عمر: «لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً جرت عليه المواشي» وقد استمر هذا المنع زمناً، قال عنه السيوطي في تاريخه: «قال الزهري: كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن

(١) الاغتيالات في الإسلام، حسن عبد الله، ص ٢٥-٢٦.

شعبة» ولكن السياسيين تمكنوا من خرق هذا المنع وإدخال أداة القتل إلى المدينة بموافقة عمر نفسه، كما أشار المسعودي في مروجه إلى ذلك بقوله: «وكان عمر لا يترك أحدًا من العجم يدخل المدينة، فكتب إليه المغيرة بن شعبة: إن عندي غلامًا نقاشًا نجارًا حدادًا فيه منافع لأهل المدينة، فإن رأيت أن تأذن لي في الإرسال به فعلت، فأذن له»^(١)

ولذا نرى عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤة يأسف على تهاونه بهذا الشأن ويقول مقولته المشهورة: «ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحدًا، فغلبتموني» عمر الذي وصف بالشدة والغلظة يخاطب السياسيين ويقول لهم: «فغلبتموني» فكم كانوا أقوياء وأشداء لدرجة إنهم حصروا الموضوع في إطار ضيق جداً تداوله وروج له المؤرخون الأوائل؟ ولقد انتبه المؤرخون المتأخرون إلى حقيقة هذا الحراك بعد أن نجح السياسيون في تحجيمه داخل دائرة ضيقة بهدف تبرئة أنفسهم من جريمة القتل وعصبتها برأس قوم كانوا يكونون لهم العداوة والبغضاء بسبب اختيارهم المذهبي لا أكثر، فقال إبراهيم بيضون: «إن إقدام مولى كأي لؤلؤة من تلقاء نفسه على اغتيال الخليفة، وأقوى شخصيات الدولة في حينه، ربما كان خارجًا على القواعد المألوفة، وفي هذه الحالة لا تكون ثمة دوافع وجيهة وراء المتهم لاقتحام هذه المؤامرة الجريئة، في وقت لا يستطيع أحد ربط هذه القضية بعوامل خارجية»^(٢)

وقال حسن عبد الله الذي اتهم في بادئ الأمر الفرس بتدبير مؤامرة قتل الخليفة عمر: «وفيق الناس من هول الصدمة فإذا هم يتساءلون: من قتل عمر؟ أيقنله أبو لؤلؤة، لأنه لم يرفع عنه بعض ما فرضه عليه صاحبه المغيرة بن شعبة من ضريبة؟ يصلح

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١/ ص ٢٩٩.

(٢) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، ص ٩٨.

هذا سبباً؟»^(١)

ولهذا السبب قال إبراهيم بيضون: «فإنّ الاتهام لابدّ أن يتجه إلى الفئة المستفيدة من اغتيال عمر.... فقد لا يكون بعيداً عن الاحتمال وجود (مؤامرة) محبوكة الخيوط استهدفت الخليفة القوي»^(٢) ثم أردف قائلاً: «إنّ الفئة المتهمة بأنها حاكت مؤامرة الاغتيال (اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب) من المفترض أيضاً أنها نسجت ياتقان مشابه شخصية البديل بما يتوافق والخوافز المحركة لهذه الفئة التي جمع بينها الموقف المشترك من الخليفة، دون أن تكون بجميع عناصرها منتمة إلى اتجاه سياسي واحد»^(٣)

ولذا ما إن نضج مشروعهم حتى أدخل المغيرة بن شعبة أبا لؤلؤة وأمره بقتل الخليفة، وخرجوا على الناس بقصة شورى الستة التي أحسنوا لعبها وأجادوا تمريرها فعينوا من يريدونه خليفة جديداً، والدليل أن الخليفة عثمان بن عفان ليس أفضل الباقين ولم يتولى حكم الأمة بإجماع الأمة، أو كما يقول الدكتور صبحي الصالح: «فإنّ عثمان لم ينتخب بإجماع ولا شبه إجماع، ولم ينتخبه الخليفة، ولم يكن ليبرز على الناس أو يظهر بعلمه كعليّ أو حزمه كعمر أو سياسته كأبي بكر، وإنما أعانه على تولي الخلافة أمويّته وقرشيّته»^(٤) ولقد تحكموا بقرارات الخليفة وتحكموا به على هواهم، فيقول اليعقوبي في تأريخه: «وكان الغالب عليه (أي على عثمان) مروان بن الحكم بن أبي العاص وأبو سفيان بن حرب»^(٥)

(١) الاغتيالات في الإسلام، ص ٤٥ .

(٢) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، بيضون، ص ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٦، ويراجع كتابنا المعنون (نظرية فارسية التشيع بين الخديعة والخلط

التاريخي والمؤامرة).

(٤) النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح، ص ٩٠ .

(٥) ينظر: تأريخ اليعقوبي، جزء ٢، ص ١٧٣ .

وبالتأكيد حقق تولى عثمان للسياسيين فصلاً مما كانوا يخططون له ويسعون إليه كما في قول شيخهم أبي سفيان بعد مبايعة عثمان للخلافة الذي عدّه إيذاناً بحلول عصر الدولة الأموية المرتقب، والذي نقله المسعودي في مروجه وأوردناه من قبل.

• وقتلوا الخليفة الثالث ختلاً وعصبوا الأمر برأس الغوغاء:

فبعدما جاءت حركة الشورى وما رافقها من أحداث وتحركات مشبوهة بعثمان إلى سدة الحكم، دخل السياسيون والأقرباء من الطلقاء وأتباعهم تحت عباءته وسلبوه مكانته، فسلمهم الحكم والدولة بكل مفاصلها على طبق من ذهب، فجازوه بالقتل على يد من حرص الغوغاء لقتله والتخلص منه.

لقد رأى السياسيون أن ما حصلوا عليه في حقبة خلافة عثمان يؤهلهم للاستيلاء على السلطة قبل أن يموت الخليفة من تلقاء نفسه؛ فيستجد ما لا يريدون أن يحدث؛ أو ما يعرفل مشروعههم الكبير، وكما هو ديدنهم استبقوا الأحداث وخططوا لقتله بدقة وإحكام لكي يظهرها خارج الصورة؛ فإذا حدث ما ليس بحسبانهم - يهبون للمطالبة بدمه. والحديث عن مقتل عثمان يثبت حقيقة الحراك السياسي بشكل كبير، ولذا سوف نتوسع بالحديث عنه.

قتل الخليفة عثمان

حديثان أتمنى أن أكررها في كل صفحات البحث، الأول: حديث أحمد بن شهاب الزهري الذي يقول فيه: «ولي عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وأنه لأحبّ لقريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديداً عليهم»^(١) فهذا القول يؤكد سعة اطلاع السياسيين وحسن تخطيطهم لأنهم أرادوا

(١) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ص ١٥٧.

من الأمة أن تنسى خشونة عمر؛ فتحب الخليفة الأموي وتنسى الحديث عما يقوم به ولا تهتم بالتفاصيل. ولقد عشنا في العراق مثل هذه التجربة مع السياسيين الدنيويين فحزب البعث بعد أن تجاوز مرحلة التأسيس للنظام الذي يريده وتجاوز مراحل الكشف والإعسار المالي توجه إلى المواطن الفقير، فأباح له ما كان ممنوعاً عليه بسبب التقدير الحكومي ذاته، فعاش أغلب الناس لا ينقمون على البعث بالرغم من جرائمه، ثم لما وصل إلى مرحلة ظن معها أن لا أحد يقدر على زحزحته من مكانه عادت الشدة بكل أنواعها!

السياسيون القدماء كانوا بعد أن تحقق لهم ما أرادوا وكسبوا في السنوات الست الأولى من خلافة عثمان ما كانوا يبحثون عنه؛ بدأوا صفحة التخريب في الستة الثانية للسعي نحو النجومية والسلطة بتأليب الناس عليه ورفضه حتى يعلنوا اسم مرشحهم بدون اعتراض.

أما النقل الثاني فهو قول إبراهيم بيضون عن عثمان: «جاء إلى الخلافة وهو لا يعرف الكثير عن دور القوى الخفية التي مهّدت له الطريق»^(١) وهذا القول يؤكد أن السياسيين هم الذين مهدوا الطريق لعثمان لكي يستظلون بظله وينفذون مشروعاتهم أو الحلقات الأخيرة منه. وقد تمثلت الحلقات الأخيرة ببسط نفوذهم الكلي على مقدرات الأمة، وسلب كل مواردها، وحرمان الناس من مصادر رزقهم، وهم بذكائهم السياسي وقدرتهم التخطيطية وحسن استخدامهم للإعلام والدعاية نشروا بين الناس أن عثمان هو المسؤول عن جوعهم وعريهم وظلمهم وإفقارهم.

ببيع عثمان في الثالث من المحرم سنة ٢٤ هجرية، وقيل في آخر ذي الحجة سنة ٢٣

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص ١٠٣ .

هجرية وقتل آخر سنة ٣٥ هجرية. أما الطريقة التي تم بها انتخاب عثمان فتؤكد مقدار الدهاء الذي يحمله السياسيون العرب وقوتهم التي مكنتهم من التحكم بالأحداث لدرجة قتل وتنصيب الخلفاء، بما يؤكد سطوة السياسيين وحسن تخطيطهم. وهم كما فعلوا في كل مرة كانوا في هذه المرة قد برأوا أنفسهم من جريمة القتل وعصبوها برأس غيرهم

فمن حيث تأليبهم عليه وتخطيطهم لقتله قال ابن الأثير في تاريخه: «كَتَبَ جَمْعٌ من أهل المدينة من الصحابة إلى من في الآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فلهموا إليه فإن دين محمد ﷺ قد أفسده خليفتمكم»^(١) أما من هؤلاء الصحابة الذين أشار إليهم ابن الأثير فلا يكاد يعرفهم أحد، ولم يكلف أحد نفسه عناء البحث أو مجرد السؤال عن أسمائهم وسبب غضبهم على الخليفة وتأليب الناس عليه، وهذا شيء غريب جداً! وقد يكون الطبري أكثر تحديداً من غيره لا بحديثه عن أسمائهم ولكن في بحثه عن سبب غضبهم، ولذا قال في تاريخه: «وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويقسمون لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله»^(٢)

وكاد ابن عبد ربة الأندلسي أن يشير بوضوح وصراحة إلى أم المؤمنين عائشة على أنها أحد المتآمرين على عثمان في نقله لقولها مروان بن الحكم لما طلب منها إصلاح أمر عثمان مع الصحابة وعدم مغادرة المدينة: «ولعلك تظنّ أنّي في شكّ من صاحبك؟ أما والله لوددت أنه مقطّع في غرارة من غرائري، وإني أطيق حمله فأطرحه في البحر»^(٣) وأنا استغرب ممن يعتقد أن مروان السياسي المتآمر كان يريد إصلاح الأمر بين الصحابة

(١) تاريخ ابن الأثير، مجلد ٣، ص ٦٥.

(٢) تاريخ الطبري، مجلد ٥، ص ١١٦.

(٣) تاريخ يعقوبي، جزء ٢، ص ١٧٥-١٧٦.

والخليفة وهو الذي كان مصرّاً على قتله والتخلص منه.

الطبري في مكان آخر من تاريخه نقل سؤالاً لعمرو بن العاص الذي كان حينها يسكن فلسطين، بعد أن خرج من المدينة بعد دخول الغوغاء وجهه لأعرابيٍّ مرّ بقربه استفسر فيه عن أخبار الخليفة عثمان، فأخبره الأعرابيُّ أنه قتل، فقال عند سماعه الخبر شامتاً ومفتخراً: «أنا أبو عبد الله، إذا حككت قرحة أنكأتها، إني كنت لأحرّض عليه حتى الراعي في غنمه في رأس الجبل»^(١)

ابن الأثير في مكان آخر من تأريخه أشار إلى معلومة مهمة جداً يتضح من خلالها أن الخليفة نفسه كان يتّهم بعض الصحابة بالتآمر عليه، حيث جاء في قول أورده عن الخليفة عثمان في طلحة بن عبيد الله مفاده: «اللهم اكفني طلحة فإنه حمل عليّ هؤلاء القوم وألبهم، وإني لأرجو أن يكون منها (أي: الخلافة) صفراً»^(٢)

ولم يكتفي اليعقوبي باسم طلحة وحده وإنما أضاف إليه اسمين آخرين هما الزبير وعائشة كما في قوله: «وكان أكثر من يؤلّب عليه طلحة والزبير وعائشة»^(٣) وأورد خبراً يفيد أن الزبير بن العوام كان يحرّض الغوغاء الذين حاصروا الخليفة في بيته على الإسراع في قتله، بقوله لهم: «اقتلوه! فقالوا له: إنّ ابنك يحامي عنه بالباب! فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بُدئ بابني!»^(٤)

هذه المواقف العدائية دفعت الخليفة عثمان إلى طلب النصرة من ابن عمه معاوية وكما يقول الطبري: «فكتب عثمان إلى معاوية أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا واخلفوا

(١) الاغتيالات في الإسلام، ص ١٠٧

(٢) الاغتيالات في الإسلام، ص ١٠٨

(٣) تأريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٥

(٤) المصدر نفسه، تأريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٥

الطاعة ونكثوا البيعة فأبعث إليّ من قبلك من مقاتلة الشام، فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ وقد علم اجتماعهم»^(١)

والغريب أن الطبري أنبرى للدفاع عن السياسيين المتآمرين بحجة إجماع الصحابة لتبرئتهم من الجريمة؛ وربما لهذا السبب تجد هناك أكثر من مؤرخ وباحث يدعي أن الخوارج هم الذين قتلوا عثمان، مع أن هذه الجماعة وهذا الاسم لم يعرف إلا في أواخر خلافة علي عليه السلام بعد أن خرجوا عليه في صفين وقاتلهم في النهروان، ومثل هذه الإدعاءات تأتي لتأكيد براءة السياسيين من الجريمة لا أكثر بالرغم من تهافتها، ولا سيما بعد أن تعتمد السياسيون نشر مثل هذه الأقوال بين الناس.

إن كتب التاريخ الإسلامي أفاضت في الحديث عن تحركات أعداء الخليفة من المتآمرين في العاصمة والأقاليم لتثوير الشارع الإسلامي عليه، بل أن الأخبار والروايات تؤكد أن أهل المدينة هم الذين أمروا أهل الأقاليم بالمسير إليهم للتشكي عند الخليفة من ظلم ولاته وتعسف أمرائه وخيانة مسؤوليه، وكان المتآمرون عازمين على شحذ همم هؤلاء ودفعهم إلى قتل الخليفة عند قدومهم إلى العاصمة. ويكاد المؤرخون يجمعون على هذه الحقيقة، ولكن السياسيين بشطارتهم ووعيمهم انكروا التهمة وألصقوها بمن هو بريء منها وبعيد عنها.

اتهام علي بالتآمر والتواطؤ مع المتآمرين

ومن شدة ذكاء وبراعة وخبت السياسيين أنهم وبعد أن نجحوا في نفي تهمة التآمر عن أنفسهم، وضعوا روايات فيها اتهام صريح لأناس آخرين لا علاقة لهم بالتآمر بالمرة، بل ثبت اعتراضهم على المتآمرين. فصدقهم أتباعهم ومؤيدوهم؛ فالقاضي أبو

(١) تاريخ الطبري، مجلد ٥، ص ١١٥.

بكر بن العربي أبي إلا أن يُظهر الصحابي علي بن أبي طالب عليه السلام من المتعاونين مع الثوّار، وأنه كان ممن راسلوا الغوغاء واستقدموهم إلى المدينة، مع أن علياً بريء من ذلك كلياً، فقال في مجمل حديثه عن محاصرة الخليفة: «وخرج طلحة يبكي ويورع الناس، وأرسل عليٌّ ولديه، وقال الناس (يقصد الثوّار) لهم: إنكم أرسلتم إلينا (اقبلوا إلى من غير سنة الله) فلما جئنا قعد هذا في بيته، وخرجت أنت تُفيض عينيك»^(١)

وقد بحثت طويلاً عن سند لهذه الرواية الغريبة التي أوردها ابن العربي أو ما يؤيدها فما وجدت شيئاً، بل لم أجد في أيّ نقل ما يشير إلى تواصل عليّ مع الثوّار، أو مراسلته لهم، وإنما وجدت ما يثبت أن علياً يكاد يكون أوحدهم المصالحاة في دفاعه عن الخليفة، على خلاف باقي وجوه الصحابة والسياسيين الذين كانت لهم مصلحة في إزالة عثمان، وكما تبين من النصوص السابقة، والنصّ اللاحق الذي هو خلاصة روايات كثيرة تحدّثت عن تواصل بعض وجوه أهل المدينة مع أهل الأمصار الثائرين، ومنها رواية أوردتها الشيخ المفيد عن فتوح البلدان للبلاذري وطبقات ابن سعد وتأريخ المدينة المنورة وأنساب الأشراف للبلاذري وتأريخ الطبري والعقد الفريد وتجارب الأمم والبداية والنهاية؛ مجتمعة من خبر أبي حذيفة إسحاق بن بشر القرشيّ أثبتته في كتابه الذي صنّفه في مقتل عثمان، وكان أبو حذيفة صاحب الخبر من وجوه أصحاب الحديث المنتسبين إلى السنة والمباينين للشيعة ولا يهتم فيما يرويه لمفارقة خصومة، ولا يظنّ به تخرص فيما يجتنبه من جميع الأخبار، فقال: حدّثني محمد بن إسحاق عن الزهريّ؛ قال: «قدم أهل مصر في ستمئة راكب عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي فنزلوا ذا خشب، وفيهم كنانة بن بشر الكندي وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعيّ وأبو عروة الليثي، واجتمع إليهم حكيم بن جبلة العبدي في طائفة من أهل البصرة، وكميل بن

(١) العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي، ص ٥٩-٦٠.

زياد ومالك الأشتر وصعصعة بن صوحان وحجر بن عدي في جماعة من قرّاء أهل الكوفة الذين كانوا سيّروهم عثمان؛ منها إلى الشام حين شكوا أحداثه التي أنكرها عليه المهاجرون والأنصار، فاجتمع القوم على عيب عثمان، وجهروا بذكر إحدائه، فمرّ بهم عمرو بن عبد الله الأصمّ وزباد بن النضر، فقالا لهم: إن شئتم بلغنا عنكم أزواج النبي ﷺ فإن أمرتكم أن تقدموا فأقدموا. فقالوا لهما: افعلنا، واقصدا عليّ آخر الناس. فانطلق الرجلان فبدءا بعائشة وأزواج النبي بعدها، ثم أنبأ أصحابه وأخبراهم الخبر، فأمرهم أن يقدموا المدينة، وصاروا إلى أمير المؤمنين ﷺ فأخبراه واستأذناه للقوم في دخول المدينة؛ فقال لهما: «أتيما أحدا قبلي؟» قالا: نعم أتينا عائشة وأزواج النبي ﷺ بعدها وأصحابه من المهاجرين والأنصار فأمرهم أن يقدموا، فقال ﷺ: «لكني لا أمرهم بذلك، يستعقبونه ممّن قرب، فإن أعتبهم فهو خير لهم، وإن أبى فهم أعلم». فرجع الرجلان إليهم جميعاً. وتسرع إليهم جماعة من المدينة، فاجتمعوا مع أهل الحسب وذوي المروّات.

فلما بلغ عثمان اجتماعهم أرسل إلى عليّ ﷺ؛ فقال له: اخرج يا أبا الحسن إلى هؤلاء القوم وردّهم عمّا جاؤوا إليه، فخرج إليهم فلما رأوه رحبوا به وقالوا له: قد علمت يا أبا الحسن ما أحدثه هذا الرجل من الأعمال الخبيثة وما يلقاه المسلمون منه ومن عمّاله، وكنا لقيناه واستعتبناه؛ فلم يعتبنا وكلمناه فلم يصغ إلى كلامنا وأغراه ذلك بنا، وقد جئنا نطالبه بالاعتزال عن إمرة المسلمين واستأذنّا في ذلك الأنصار والمهاجرين وأزواج النبي ﷺ وأمّهات المؤمنين فأذنوا لنا في ورود المدينة ونحن على ذلك!

فقال لهم: «يا هؤلاء تريثوا لا تسرعوا إلى شيء لا تعرف عاقبته؛ فإنّا كنا قد عتبناه على هذا في شيء وإنه قد رجع عنه فارجعوا». فقالوا: هيهات يا أبا الحسن، ما نقنع

منه إلا بالاعتزال عن هذا الأمر ليقوم به من يوثق بأمانته، فرجع أمير المؤمنين ﷺ إلى عثمان وأخبره بمقالتهم»^(١)

وهناك في كتب التاريخ عشرات الإشارات إلى اشتراك الأشخاص الذين طالبوا بدم الخليفة والثأر له أنفسهم في قتله أو عدم نصرته. ففي بداية الحصار طلب الخليفة نجدة معاوية برسالة شكوى وجهها إليه تدمي القلب، ذكر مضمونها وخبرها البلاذري في أنساب الأشراف، والطبري في تاريخه، واليعقوبي في تاريخه، جاء فيها: «أما بعد فإني كتبت إليك كتابي هذا ووالله ما أحسبه يبلغك وأنا حي... فإن بلغك كتابي هذا فابعث لي جيشاً سريعاً برجل معه من أهل ثقتك في نفسك واجعله حبيب بن مسلمة، ثم مره فليجعل اليومين يوماً، والليلتين ليلة، والمنزلين منزلاً، وإن استطعت أن تفاجئني مفاجأة، فقد ألقيت العصا، ولم يبق إلا خذ وآت»^(٢)

إن مسألة تأخر معاوية عن نصرته ابن عمه الخليفة المحاصر تنضوي على قدر كبير من الاستهانة بالعقيدة كلها، وتبين بما لا يقبل الشك أن المؤامرة العربية هي التي كانت تحرك الأحداث وأن السياسيين كانوا يرصدون نتائج حراكهم وقيمونها ويستخلصون منها المحصلات، فاليعقوبي لا يتحدث عن رسالة خليفة المسلمين عثمان إلى والي الشام معاوية فقط وإنما يتحدث أيضاً عن قدوم معاوية من الشام إلى المدينة لتقييم الوضع ووضع الخطط اللاحقة للمرحلة القادمة، ويتحدث عن رأي الخليفة في موقف معاوية منه، وكيف أنه كان واثقاً بأن معاوية يتحين قتله ليعلن المطالبة بدمه طريقاً نحو القمة والخلافة بما يعرفه عنه من طمع بها وشوق إليها، حيث يقول اليعقوبي عن عثمان: «فكتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجه إليه في اثني عشر ألفاً ثم قال:

(١) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٣٧-١٣٩.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ١٩٥.

كونوا مكانكم في أوائل الشام حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره، فأتى عثمان، فسأله (عثمان) عن المدد؟ فقال: قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم! قال (عثمان): لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول: أنا وليُّ الثَّار، ارجع، فجئني بالناس!!! فرجع [معاوية] فلم يعد إليه حتى قتل!!»^(١)

ومن أسرار هذه الجلسة الساخنة أن معاوية بن أبي سفيان طلب من الخليفة عثمان أن يترك المدينة ويرافقه إلى الشام ليكون تحت حمايته، وقد تناول الدكتور السيد عبد العزيز هذه القضية وأدلى فيها برأي يصب في مصلحة السياسيين، فقال: «إنَّ عثمان لما أحسَّ بخطر أهل الأمصار استقدم ولاته على الأمصار ومنهم معاوية والي الشام، ودار بينهم ما دار فلما خرجوا من عنده بقي معاوية؛ فعرض على عثمان أن يصحبه معه إلى الشام خوفاً من أن يتركه وحيداً في المدينة!»^(٢) ولا أدري لم لم يرسل له قوة تحميه لو كان حريصاً ومتخوفاً عليه بالشكل الذي تظهره الروايات!

ثم عاد وقال: «لما صمَّ أهل الأمصار على خلع عثمان كتب إلى معاوية بن أبي سفيان، وابن عامر، وأمراء الأجناد يستنجدهم ويأمرهم بالمبادرة بإرسال الجنود إليه، وكتب إلى معاوية: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إليَّ من قبلك من مقاتلة الشام على كلِّ صعب وذلول» فلما وصل الكتاب إلى معاوية لم يبادر إلى نجدة.. ولعله كان يهدف من وراء ذلك أن يترك عثمان دون نصره فيقتله الثَّوار، وعندئذ يتولى المطالبة بدمه مستنداً في ذلك إلى أهل الشام، ويتخذ من المطالبة مبرراً لمحاربة من يتولى الخلافة من بعده من أجل أن تؤول

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٧٥.

(٢) ينظر: التاريخ السياسي، ص ٣٠٢.

الخلافة إليه^(١)

هذا هو موقف السياسي الداهية معاوية من الخليفة عثمان.

أما السياسي الثاني مروان بن الحكم وهو ابن عم الخليفة أيضا؛ فقد أخذ على عاتقه استفزاز الثوار للإسراع في قتل عثمان بعد أن كلفه الخليفة بالتحدث معهم عسى أن يقنعهم بالرجوع. والمفروض بمن ينوء بمثل هذه المهمة الكبيرة التي تحتاج إلى مفاوض من الطراز الأول أن يداهن القلوب ويحاملها ويستميلها، ويُطِيب الخواطر، ويعتذر من الثائرين، ويشيهم عن مهاجمة الخليفة، ويُذكرهم بحقه عليهم، ولكن مروان استغل هذه الفرصة لحثهم على قتل الخليفة، حيث قال لهم مخاطبًا ومهددًا ومتوعدًا: «شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بإذن صاحبه، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من بين أيدينا! اخرجوا عنها، وارجعوا إلى منازلكم، فإننا غير مغلوبين على أمرنا!»^(٢)

سؤال: إذا ما كان مروان مستفيدا من وضعه مع عثمان فلماذا يتأمر عليه؟

هنا يجب أن نعرف بأن السياسيين لا يقنعون بالقليل، وهم متى ما حققوا الانتصار يبدأون بالتقاتل فيما بينهم على المناصب، وقد عشنا هذه الحالة بعد التغيير في العراق في عام ٢٠٠٣ حيث امتدت المعارك البينية إلى البيت الواحد والمكون الواحد والحزب الواحد. ومروان رجل سياسي طماع مثل غيره ويتوق لما هو أكبر من منصب سكرتير للخليفة، ولذا تأمر لقتل الخليفة، وما ورد في الكتاب الذي وجهه مروان إلى والي مصر عبد الله بن أبي سرح على لسان الخليفة عثمان ما يدل على حقيقة وجود المؤامرة وعلى

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) ينظر: النظم الإسلامية، د. صبحي الصالح، ص ٩٢.

حراك المتآمرين الدائب والمستمرّ، ولو وقع هذا الكتاب بيد ابن أبي سرح^(١) لكان كافياً لقتل جميع من اشترك من أهل مصر في الثورة على الخليفة عثمان في ساعة وصولهم إلى مصر وحتى قبل أن يدخلوا إلى بيوتهم، مما يدفع قبائلهم وعشائهم للثورة العارمة على النظام كله وتقويضه مع وضعه في الحسبان أن الثوار إذا القوا القبض على الرسول ممكن أن يعودوا ويقتلوا الخليفة ويهيئون الأجواء لاستيلاء السياسيين على السلطة.

أسأل سؤالاً واحداً: أكثر من واحد من المؤرخين أفاد أن حصار الغوغاء للخليفة عثمان في بيته استمرّ زمناً طويلاً، قال عنه المسعودي: «وكانت مدّة ما حوَصر عثمان

(١) عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ابن خالة عثمان بن عفان، كان كاتباً لرسول الله ﷺ فظهرت خيائته في الكتابة فعزله رسول الله ﷺ فأرتد عن الإسلام ولحق بأهل مكة فكان رسول الله ﷺ أباح دمه يوم الفتح وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان عبد الله بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ فلحق بالكفار فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله ﷺ. الحديث ٤٣٦١/٦٥ صفحة ٤٧ المستدرك للحاكم. وعن مصعب بن سعد عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن أبي سرح عند عثمان بن عفان حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله بايع عبد الله؟ فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت يدي عن بيعته فقتله؟ الحديث ٤٣٦٠/٦٤ المستدرك. هذا وقال الحاكم في تعليقه على هذه الروايات: قد صحت الرواية في الكتابين أن رسول الله ﷺ أمر قبل دخوله مكة بقتل عبد الله بن سعد وعبد الله بن خطل، فمن نظر في مقتل عثمان بن عفان وجنات عبد الله بن سعد عليه بمصر إلى أن كان أمره ما كان علم أن النبي ﷺ كان أعرف به. الصفحة ٤٨ من المستدرك ومع ذلك ولاه عثمان مصر رغم أنه كان من المتآمرين على قتل عثمان كما يتبين من تعلق الحاكم الأنف. ومن ولاية عثمان أيضاً الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي رفض النبي ﷺ أن يمسح على رأسه لتبريكه يوم الفتح وهو أخو عثمان لأمه. قال عنه الإمام أحمد: فقدّره رسول الله ﷺ فلم يمسسه ولم يدع له.. لسابق علم الله تعالى والله أعلم. ومع ذلك استخدمه عثمان واليا على رقاب المسلمين في الكوفة، ولما عزله وولاها سعيد بن العاص رفض أن يصعد المنبر وقال: أغسلوا المنبر لأصعد عليه أو يظهر. فغسل المنبر حتى صعد سعيد بن العاص كما روى ذلك الحاكم، صفحة ١٠٨ وتوفي ابن سرح عام سبعة وثلاثين في عسقلان.

في داره تسعاً وأربعين يوماً وقيل: أكثر من ذلك».^(١) شهران وخليفة المسلمين محاصر في بيته في عاصمة الحكومة الإسلامية وبين ظهراي الصحابة وليس بين المحاصرين للخليفة من هو فارسي، أو رومي أو حبشي، وكانت تحيط بالخليفة عشيرته الكبيرة، فضلاً عن وجوه الصحابة والتابعين، ومع ذلك لا يجد من ينصره ويخلصه من بين أيدي الثوار الغاضبين!! فأين ذهبت تلك الجيوش الجرّارة التي جابت أنحاء الجزيرة العربيّة ودخلت العراق لمقاتلة (المرتدين) و(مانعي الزكاة) و(المتنبئين الكذابين) والمعارضين الذين لم يعترفوا ببيعة أبي بكر أو اعترضوا عليها؟ أين ذهبت تلك الجيوش الجرّارة التي قوّضت حكم الإمبراطورية الفارسيّة وحرّرت الأرض العربيّة من الاستعمار الروماني؟ أين ذهب الصحابة الكرام والتابعون الذين كانوا يحبّون الموت كما يحبّ غيرهم الحياة؟ أين ذهب الجيل المثالي الذي يقولون عنه إنه «المعصوم عن الخطأ بمجموعه» جيل الصحابة الكرام؟ ولم لم تأخذ الغيرة والمروءة أيّاً منهم ليحمل سيفه ويدافع عن الخليفة، ويُقتلّ دونه؟ أين ذهب الأمويّون الذين أغدق عليهم الخليفة الأموال والمناصب والمكاسب وجعلهم أسياداً للمجتمع وقيّمين عليه؟ وأين ذهب جيش الشام الجرّار، المنظم، المجهز لخوض الحروب الشديدة؟ ولم تجمّدت عقولهم في هذه المدّة، وصدّأت سيوفهم، فأحجموا عن فعل شيء؟ ثمّ لما بُويع لعلّي بالخلافة، لم تراهم يركبون جملهم وينطلقون إلى البصرة لتحريرها من قوّة عليّ رضي الله عنه كما يدّعون؟ ثمّ لما قُتل الخليفة عثمان تأتي من الشام جيوش جرّارة لمطالبة الخليفة المنتخب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بدم الخليفة المغدور الذي كان بأمسّ الحاجة لنصرتهم في حياته فلم ينصروه؟! أليس في جواب هذه الأسئلة تكمن حقيقة وجود المؤامرة الكبيرة، ومن خلال جوابها تتكشف جذورها العميقة؟



الفصل الثالث

النزاع السياسي مع الخط العلوي

النزاع السياسي مع الخط العلوي

إن تسارع الأحداث بعد مقتل عثمان ولاسيما بعد انتخاب الأمة علياً ﷺ خليفة للمسلمين بقدر كونه أربك السياسيين وأصابهم بالإحباط؛ إلا أنه اثبت مرة أخرى أنهم كانوا على مستوى عالٍ جداً من المهارات السياسية الفريدة التي يصعب تخيل وجودها في تلك الحقبة، وجدارتهم الفائقة هذه دفعتهم إلى تغيير منهجهم القديم والاستعانة عنه بمنهج جديد يمكنهم من الوقوف بوجه المد العلوي الجبار. فماذا حدث بعد أن وجد السياسيون أنفسهم وجها لوجه مع علي بن أبي طالب ﷺ بكل ما تعنيه هذه المواجهة؟ لقد كان السياسيون على يقين تام بأن علياً ﷺ هو الامتداد الطبيعي للرسول الأكرم ﷺ وأنه التحدي الأكبر الذي يواجههم، وطالما أنه بعيد عن السلطة كان أمر تجاوزه صعباً وغير مقدور عليه، فما العمل وقد تسلم السلطة، وكيف يتصرفون؟

هنا أوحى لهم فكرهم السياسي الناضج أن يعدوا له منهجاً وخططاً تكاد تتشابه مع الخطط التي أعدوها للنبي ﷺ ولكن بشكل أوسع وأكثر نضجاً، مع مجال أكبر للحركة، وآليات أحدث وأكثر تأثيراً، وكان جل همهم وعظيم جهدهم منذ اللحظة الأولى لوفاة النبي ﷺ أن يدفعوه عن الخلافة ويقصوه من الحياة العامة؛ ولذا تجد لمخططهم الذي امتد منذ عصر البعثة وإلى تاريخ خلافته ﷺ أكثر من شكل ووجه وطريقة، وبشكل عام يمكن إيجازه بثلاث مراحل هي على التوالي:

- مرحلة التأمر الأولى: المواجهة الناعمة. من خلال العمل على إبعاد الإمام

علي عليه السلام عن الخلافة لكي لا يؤسس لمشروع الدولة الإسلامية والقيادة المعصومة.

- مرحلة التآمر الثانية: المواجهة الخشنة. وامتازت باختيارهم طريق الحرب، ثم شنهـم ثلاثة حروب مدمرة انتهت بأغتيال الإمام علي عليه السلام.
- مرحلة التآمر الثالثة: تكميم الأفواه وتغيير الموروث. وامتازت بالعنف الشعبي والمطاردة وسب الإمام علي عليه السلام؛ كرها له وإذلالا لأتباعه ومحبيه.

المرحلة الأولى: المواجهة الناعمة

وهي الأخرى كانت على مراحل تتصاعد تدريجياً لتبلغ الذروة حسب مسار مشروعاتهم والنتائج التي يحققونها والمكاسب التي يحصلون عليها من كل مرحلة فرعية؛ وهي:

• أولاً: إتمام مشروعاتهم الذي بدأ في زمن البعثة وكانت غايته زرع الفرقة بين

النبي ﷺ وبين علي عليه السلام.

وكانت من فقرات هذا البرنامج ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل من حديث: «حدثنا ابن نمير حدثني أجليح الكندي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثين إلى اليمن على أحدهما علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى الآخر خالد بن الوليد فقال: إذا التقيتم فعلي على الناس وإن افرقتما فكل واحد منكما على جنده قال فلقينا بني زيد من أهل اليمن فاقتلنا فظهر المسلمون على المشركين فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية فاصطفى علي امرأة من السبي لنفسه قال بريدة فكتب معي خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك فلما أتيت النبي ﷺ دفعت الكتاب؛ فقرأ عليه فرأيت الغضب في وجه رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا مكان العائذ بعثني مع رجل وأمرتني أن أطيعه ففعلت ما أرسلت به، فقال رسول الله ﷺ: لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي»^(١).

(١) مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، دار إحياء التراث العربي،

حديث رقم ٢٢٥٠٣

ولأهمية هذه الواقعة أرى أن إيراد بعض طرق حديثها تثبت لمن يدعي أن علياً عليه السلام كان يعيش حياة رغيدة مع باقي الصحابة يملؤها الود والمحبة لم يكن صادقا في قوله.

عن سعيد بن عمير عن أبي بريدة على أبيه قال: «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله واستعمل علينا عليا فلما رجعنا سألنا: كيف رأيتم صحبة صاحبكم؟ فيما شكوته أنا وإما شكاه غيري فرفعت رأسي وكنت رجلا من مكة، وإذا وجه رسول الله صلى الله عليه وآله قد إحمَر فقال: من كنت وليه فعلي وليه»^(١)

وبنفس السند: «فرايت منه جفوة، فقدمت على النبي صلى الله عليه وآله فذكرت عليا فتنقصته، فجعل رسول الله يتغير وجهه، فقال: يا بريدة ألت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢).

وعن عمران بن حصين قال: «جهز رسول الله صلى الله عليه وآله جيشا واستعمل عليهم علي بن أبي طالب؛ فمضى في السرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه وتعاهد أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا بعثنا إلى رسول الله أخبرناه ما صنع، وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدأوا برسول الله فسلموا عليه، فانصرفوا إلى رحالهم، فلما قدمت السرية فسلموا على النبي فقام أحد الاربعة فقال: يا رسول الله ألم تر أن عليا بن أبي طالب صنع كذا وكذا، فأعرض عنه رسول الله، ثم قام الثاني وقال مثل ذلك، ثم الثالث فقال مقالته ثم قام الرابع فقال مثلما قالوا فأقبل إليهم رسول الله والغضب يُبصرُ في وجهه فقال: ما تريدون من علي؟ إن عليا مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي»^(٣).

(١) تهذيب خصائص الإمام علي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي، ص ٧٣،

حديث رقم ٧٥

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٤-٧٥ حديث رقم ٧٧

(٣) النسائي، ص ٧٨، حديث رقم ٨٤

وكان الصحابي خالد بن الوليد هو من يحثهم على الانتقاص من علي عليه السلام أمام النبي صلى الله عليه وآله: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن مع خالد بن الوليد وبعث عليا عليه السلام على جيش آخر وقال: إن التقيتما فعلي (كرم الله وجهه) على الناس، وإن تفرقتما فكل واحد منكما على جنده، فلقينا بني زبيد من أهل اليمن وظفر المسلمون على المشركين؛ فقاتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، فاصطفى علي جارية لنفسه من السبي، وكتب بذلك خالد بن الوليد إلى النبي صلى الله عليه وآله وأمرني أن أنال منه، قال: فدفعت الكتاب إليه ونلت من علي عليه السلام فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: لا تبغضن يا بريدة عليا، فإن عليا مني وأنا منه وهو وليكم بعدي»^(١)

وقد تحدث بريدة صراحة عن بغضه لعلي عليه السلام وكيف انتبه من غفلته على يد النبي صلى الله عليه وآله كما في الحديث الذي رواه ابنه عبد الله وقال حالفًا: «والله ما في الحديث بيني وبين رسول الله غير أبي» قال: حدثنا عبد الله بن بريدة، قال: حدثني أبي، قال: «لم أجد من الناس أبغض من علي بن أبي طالب حتى أحببت رجلا من قريش»^(٢) ولا أحبه إلا على بغض علي فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته، وما صحبته إلا على بغض علي... فكتب وبعث معنا مصدقا للكتابة إلى النبي، فجعلت أقرأ عليه ويقول: صدقا؟ وأقول: صدق فأمسك بيدي رسول الله فقال: يا بريدة أتبغض عليا؟ قلت: نعم فقال: لا تبغضه وإن كنت تحبه فأزدد له حبا... فما كان أحد من الناس بعد رسول الله أحب إلي من علي»^(٣).

(١) المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩، حديث ٨٥

(٢) الرجل هو خالد بن الوليد، وفي هذا دلالة على أن السياسيين كلهم كانوا يبغضون عليا عليه السلام.

(٣) تهذيب خصائص الإمام علي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي، ص ٨٤.

• ثانياً: استباق الأحداث وانتهاز الفرص ختلاً.

ففي أثناء انشغال علي (عليه السلام) بتجهيز النبي ﷺ عقدوا مؤتمر السقيفة الذي أرى أن من دعا إليه ليس الأنصار كما تفيد كتب التاريخ وإنما دعا إليه السياسيون أنفسهم وفق عمل دقيق التخطيط أقتضى غيابهم عن الصورة في المرحلة الأولى؛ ثم الحضور بقوة في المرحلة الثانية. وهم لما تم الأمر لأبي بكر وأفلسوا أرادوا إشعالها فتنة طائفية لا تبقي ولا تذر حيث تحرّك أبو سفيان لإشعال الفتنة بين الخليفة الذي تمت بيعته في السقيفة (أبو بكر) والخليفة الشرعي (عليّ) (عليه السلام)، فبعد أن تمت بيعة أبي بكر (المفاجئة) أو كما سمّاها عمر (الفلتة) في السقيفة والتي جرت حتى قبل أن يُؤاَرى النبي ﷺ في قبره وجاءت مخالفة لتوقعاتهم وخيبة لآمالهم، عرف السياسيون المتآمرون أنّ الفرصة واتتهم وأنهم قد يخسرون هذه الجولة إذا لم يثيروا الفتنة عارمة، فثار كبيرهم أبو سفيان معترضاً على أبي بكر بقوله: «ما لنا ولأبي بكر؟ إنّما هي لبني عبد مناف!» وذهب إلى عليّ بن أبي طالب وقال له: ابسط إليّ يدك حتى أباعك!! فردّه الإمام (عليه السلام) بشدّة؛ وقال له: «إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك!»^(١)

فقط انظروا إلى إدعائه (إنّما هي لبني عبد مناف) وليس لبني أمية ثم أربطوا هذا القول بقوله لما بويع عثمان: «يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فولذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثّة». وهو القول الذي أورده المسعودي؛ وذكرناه عند حديثنا عن مقتل عمر، وستعرف خبثهم، بل وعيهم السياسي! وقد جاءت في كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية بن أبي سفيان إشارة إلى هذه الواقعة نصّها: «...و قد كان أبوك أتانني حين ولى الناس أبا بكر فقال: أنت أحق

(١) ينظر: تاريخ يعقوبي، جزء ٢، ص ١٢٦.

بعد محمد صلى الله عليه وآله بهذا الأمر، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف عليك، أبسط يدك أبايعك، فلم أفعل. وأنت تعلم أن أباك قد كان قال ذلك وأرادته حتى كنت أنا الذي أبييت، لقرب عهد الناس بالكفر، مخافة الفرقة بين أهل الإسلام، فأبوك كان أعرف بحقي منك، فإن تعرف من حقي ما كان يعرف أبوك تصب رشداً، وإن لم تفعل فسيغني الله عنك والسلام»^(١).

• ثالثاً: إنكار حقه في الخلافة وأهليته للخلافة والعمل على تنحيته عنها مرتين.

المرة الأولى: جاءت بعد الإنكار الأول الكبير في السقيفة، ومن ميزاتها محاولتهم اتهامه بما ليس فيه، كما هو اتهامهم له بأن فيه (دعابة) ذكر الماوردي عن ابن عباس قوله: «وجدت عمر ذات يوم مكروبا، فقال: ما أدري ما أصنع في هذا الأمر، أقوم عليه وأقعد؟ فقلت: هل لك في علي؟ فقال: إنه لها لأهل ولكنه رجل فيه دعابة! وإني لأراه لو ولي أمركم لحملككم على طريقة من الحق تعرفونها. قلت: فأين أنت عن عثمان؟ فقال: لو فعلت لحمل أبناء أبي معيط على رقاب الناس، ثم لم يلتفت إليه العرب حتى تضرب عنقه!»^(٢)

المرة الثانية: جعله سادس ستة يقودهم الصحابي الملياردير عبد الرحمن بن عوف الذي ابتدع ما عُرفَ في حينه باسم (سنة الشيخين) وما أدراك ما هذا الابتداع المحير، وكيف أنه كان قبلة الموسم السياسية التي لا يتفتق عنها إلا الذهن السياسي الجبار

(١) ينظر: وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٩١، أنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ٢٨١، العقد الفريد ج ٤ ص ٣٣٦، مناقب الخوارزمي ص ٢٥٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد مجلد ٣، ج ١٥ ص ٧٨، بحار الأنوار ج ٢٩ ص ٦٣٢ الرقم ٤٧
(٢) الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ١٢.

المشيع بالحيل وخفة الحركة بل وبالسحر أيضا.

علي وسنة الشيخين

إن بدعة (سنة الشيخين) إحدى المحطات السياسية العربية الإسلامية المهمة التي وضعها السياسيون واوكلوا امرها إلى الصحابي عبد الرحمن بن عوف تُعتبر حداً فاصلاً بين المرغوب توليه الأمر، والواجب إبعاده عنه، فهي من الروعة وجمال الصنع وقدرة الأثر لدرجة أنها خلقت مخايرة بين قطبين أعلى وأدنى؛ فرجحت الأدنى وأخرت الأعلى، وهذا منتهى النجاح.

أسأل: ماذا حلّ بقانون سنة الشيخين، ولم تجاوزته الأمة بعد حين بشكل ثوري عنيف، لو لم يكن قد وُضِعَ بفعل التآمر السياسي العربي؟

إن بدعة (سنة الشيخين) بأثرها وتأثيرها أثبتت عمق مدلول الفكر السياسي العربي الذي نجح بتطويع المصطلح الديني وتسخيره ليعخدم السياسة الدنيوية، فالسنة مصطلح ديني جاءت إضافة كلمة (الشيخين) إليه لتعطيه بُعداً فكرياً ذا ملامح دينية فئوية خاصة، ووضع ذلك كله أمام شخص كان الشيخان يسألانه رأيه ويستمعان لحكمه وينهلان من حكمته؛ ثم طُلب منه أن يتنازل عن هذه الميزة ويصبح تبعاً لهما إذا أراد الحصول على الخلافة! أليس هذا هو العمل السياسي بعينه؟

إن الحديث عن هذه المحطة يبدو في أحيان كثيرة وكأنه يريد الإفصاح عن سر مفاده: إن علياً عليه السلام كان جهولاً بالسياسة لا يجيدها مثل غيره بدليل أنه كان يمكن أن يوافق على المقترح ثم لما يستلم الخلافة يعمل برأيه ولا يطبق هذا الاتفاق المجحف. وفعلاً كان هناك من روج لهذا الوهم لدرجة أنك تجد المعاصرين يرددونه بنفس صيغته القديمة؛ مما يعني أن النهج السياسي القديم لا يزال مستمراً!

أما واقعا فإن الإمام عليّ عليه السلام شَخَّص بدعة (سنة الشيخين) وسبب إيجادها واستخدامها من لدن صانعيها ميزاناً معيارياً ومعادلاً موضوعياً بين المرشحين والخلافة، ولذا تراه ينظر إلى مروجها ومطلقها عبد الرحمن بن عوف لما طرحها عليه بصيغة خيار بين اللا والنعم وبصيغة: «إن وليت هذا الأمر أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر» ثم يجيبه: «إن كتاب الله وسنة نبيه لا يحتاج معهما إلى أجيري أحد، أنت مجتهد أن تزوي هذا الأمر عني!»^(١)

وأسأل: هل التزم عثمان بسنة الشيخين في حقبة خلافته؟

إن ما تكلم عنه علي بن أبي طالب لم يكن خافياً على عثمان نفسه؛ فعثمان كان يعرف أسرار الصفقة التي أوصلته إلى سدة الحكم؛ عن طريق هذا لشعار حيث روى اليعقوبي: إنَّ عثمان في خلافته اعتلَّ علة اشتدَّت به، فدعا حمran بن أبان وكتب عهداً لمن بعده، وترك موضع الاسم فارغاً. ثم أخذ الكتاب من حمran وكتب الاسم في الفراغ سرّاً دون معرفة حمran، وكان الاسم الذي كتبه هو (عبد الرحمن بن عوف) الذي بايعه بالأمس خليفة رداً للجميل، ثم ربط الكتاب وبعث به إلى أمّ حبيبة، ففتحه حمran في الطريق وقرأه، فأتى عبد الرحمن فأخبره بالخبر. فغضب عبد الرحمن بن عوف غضباً شديداً وقال: «أستعمله علانية ويستعملني سرّاً؟، ووجّه عبد الرحمن ابنه إلى عثمان فقال: قل له: والله لقد بايعتك وإنَّ في ثلاث خصال أفضلك بهنّ: أي حضرت بدرّاً ولم تحضرها، وحضرت بيعة الرضوان ولم تحضرها، وثبتُّ يوم أحد وانهمزمت أنت»^(٢)

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٢

(٢) ينظر: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٩، وهذا القول يعيدنا إلى حديث عبد الله بن عمر (كنا نفاضل بين الصحابة) لأن قول عبد الرحمن بن عوف يثبت أن هناك الكثير من مجتمع المدينة الذي خصه ابن عمر في حديثه آنف الذكر لم يكونوا يؤمنون بما قاله وأرسله!

وأسأل مرة أخرى: إذا ما كانت نظرية سنة الشيخين من صميم الفقه الإسلامي، لماذا إذن لم يعترض أحد من فقهاء الصحابة وكبارهم على مخالفة الناس لها، وانثياهم لمبايعة أشهر؛ بل أوجد المعروفين برفضها ومخالفتها والمُصرّ على عدم الاعتراف بشرعيتها وهو الإمام علي (عليه السلام)؟

وقبل ذلك، إذا كانت سنة الشيخين قد نجحت وأوصلت عثمان إلى سدة الحكم باعتبار أنه تعهد بالالتزام بها والسير على هديها وعدم مخالفة نهجها، فلماذا لم تنزله عن كرسيه بعد أن خالف سيرتهما، وبعد أن وضحت هذه المخالفة لكل الناس بكلّ جلاء ووضوح، مما أدى إلى مقتله على يد مجموعة من الثوار؟

لقد اعترف كل من كتب في تأريخ الخلفاء وسيرهم أنّ الخليفة عثمان ابتعد كثيراً عن سيرة الخلفاء الذين سبقوه، بل وخالفها في أكثر من موضع وموضوع، وهناك بين الباحثين من أكد هذه الحقيقة وقال: «لم يقتد عثمان بالشيخين في سياستها».^(١) فلم لم يبادر من وضع هذه القاعدة ليقول للخليفة: إنك خالفت سنتهما؛ ولذا يجب أن تُعزل؟ ولم لم تبادر الأمة لذلك؟ لم انتظرت قدوم غوغاء أهل الأمصار كما يصفونهم لإبلاغ الخليفة أنه خالف سنة الشيخين؟ لم؟

إن مصطلح سنة الشيخين بدعة لم تكن له علاقة بأهل السنة والجماعة الحقيقيين الذين يرفضون سبّ علي (عليه السلام) خليفة المسلمين على المنابر، ويرفضون أن يسبّه أحد، بل تنحصر علاقته تحديداً بمن اغتصب الخلافة واغتصب معها الإسلام وقنن شريعته لتخدم خطه وتسند عرشه، لأنّ علياً (عليه السلام) لو كان يستحقّ اللعن حقاً لكان الصحابة أولى من غيرهم بذلك، وهم أقرب للإسلام وتعاليمه وسننه من غيرهم، ولما لم يصدر مثل

(١) التاريخ السياسي، د. السيد عبد العزيز، مصدر سابق، ص ٢٩٧

هذا الأمر منهم؛ فذلك يدلّ على أنّ المصطلح الذي أوجده السياسيون بعد مقتل عليّ (عليه السلام) وُسِّمَ الإمام الحسن (عليه السلام) هم الذين استنبطوا من شريعة السياسة نظماً ومصطلحات غريبة وجعلوها سنناً يتعبّد بها أتباعهم من المسلمين، أي: أنّ (السلف الصالح) بريء من هذه التهمة التي يريد أن يلصقها به عبد العزيز الأثري وغيره كما سيتبيّن لنا بعد قليل!

الملحوظ أنّ هذا المصطلح مركب من جزأين (السنة) و (الجماعة) وكلا الجزئين وضع وعرف في زمن الأمويّين تحديداً، ولم يكن مستخدماً بصيغته المتداولة في عصر النبوة أو عصر الخلافة الراشدة وبذا يكون بدعة مستحدثة مخالفة لقول رسول الله: «من ابتدع في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وحديثه الآخر: «كل بدعة ضلالة والضلالة في النار». نعم كان هناك حديث عن السنة ويقصدون به السنة النبويّة التي تلقاها المسلمون من الرسول الأكرم (عليه السلام)، وحديث عن الجماعة ويقصد به جماعة أتباع النبي (عليه السلام). أمّا في العصر الأمويّ؛ فتحول المصطلح بجزءيه للدلالة على أتباع معاوية وأنصار الدولة الأمويّة، ومن يخالفهم؛ لا يدخل ضمن هذا المفهوم.

ومعروف أنّ (عام الجماعة) هي الفرية التي ابتدعها معاوية وروج لها وعاظ السلاطين الموظفون لدى الحكومة الأمويّة وأطلقوها على العام الذي تسلم فيه معاوية الملك، بعد أن تخلص من الإمام الحسن (عليه السلام) بالسّم الذي دسّه له بواسطة زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، «فقالوا: عام الجماعة». (١)

أمّا قول بعض المعنّين بأنّ المقصود به: «متابعة إجماع الصحابة وإجماع السلف»؛ فلا يمتّ إلى الحقيقة بصلّة؛ لأنّه يخالف ما أوردته كلّ كتب التاريخ التي تحدّثت عن تأريخ الإسلام الأوّل أو تأريخ الدولة الأمويّة، والتي أوردت سبب التسمية وموجباته،

(١) أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، محمّد بن عبد الهادي المصري، ص ٦٠.

أما من يعتقد أنّ إجماع الأمة على نهج الإسلام النبويّ / الراشديّ قد تحقق على يدي معاوية، فنعطيه الحقّ بالتمسك بهذه التسمية؛ لأنها تعنيه وحده ولا تعني المسلمين الآخرين.

أما (السنة) فقد وُلدت مصطلحاً مشتقاً عن مصطلح (الجماعة) في عهد الأمويين كذلك، وقد جيء به للتدليل على المؤيدين للدولة الأموية وحكومتها، لتفريقهم وتمييزهم عن (أهل البدع)؛ أي: لتمييزهم عن الجهات التي تخالف النهج الأمويّ ولا تعترف بشرعيّته، فهو من حيث سبب الوجود وغايته مشابه لمصطلح (الجماعة) كلياً.

أمّا دمج المصطلحين بمصطلح واحد فلم يتمّ إلّا في زمن الخلافة العباسية، وتحديدًا في أجواء الصراع العنيف حول مباني الإمامة، والخلافة، والتفاضل بين كبار الصحابة، والموقف ممّا شجر بينهم من نزاع وحروب، والخلاف حول الصفات، والقول بالتجسيم، وقضية القول بقدوم القرآن أم إنّّه حادث مخلوق.

في هذه الأجواء القلقة دعت الضرورة إلى دمج المصطلحين معاً للإشارة من خلاهما إلى فئة إسلامية محدّدة دون سواها من الفئات الأخرى من خلال التعاون بين الإمام أحمد بن حنبل ممثلاً للجانب الدينيّ القريب من الحكومة، والخليفة المتوكلّ العباسيّ ممثلاً للجانب السياسيّ فيها! وبالمناسبة يقول المستشرق (تسيهر) عن العباسيين: «وبعد أن ظفر العباسيون بثمرة الدعاية الشيعية، اضطروا أن يكونوا على جانب كبير من الحصافة وبعد النظر لمقاومة الدسائس والمؤامرات التي لم ين الشيعية عن تدبيرها»^(١)

وهل قتل حجر بن عدي من السنة أم من الجماعة؟

في هذا التاريخ عدّ هذا المفهوم السياسيّ البحث (أهل السنة والجماعة) قانوناً

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، أجناس جولد تسيهر، ص ١٧٧.

إسلامياً فقهياً ملزماً حينما احتاج إليه الحكام والولاة لإيقاع عقوبة الموت من خلاله بمن يخالفهم أو لا يتفق معهم في الرأي أو يعترض على جلوسهم فوق منبر النبوة، ولما كان المعارضون غالباً هم الشيعة بدلالة أنّ معاوية الذي كان أول من استخدم هذا النصّ لإباحة دم المسلمين أخذ بقول زياد بن أبيه والي الكوفة لما رأى أنّ حजर بن عدي وجماعته يمتنعون عن سب الإمام عليّ عليه السلام^(١) أسوة بجماعته (أهل السنة والجماعة) في المسجد بعد الصلاة، وقال اليعقوبي: «وكان حजर بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق الخزاعي وأصحابهما من شيعة عليّ إذا سمعوا المغيرة وغيره من أصحاب معاوية وهم يلعنون عليّاً على المنبر، يقومون فيردّون اللعن عليهم... وأخذ زياد بن أبيه حجراً وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه فأشخصهم إلى معاوية فكتب فيهم: إنهم خالفوا الجماعة في لعن أبي تراب وزوروا بذلك على الولاة فخرجوا من الطاعة»^(٢) فأخذ الخليفة بهذه التهمة وأمر بقتلهم، لأنه كما نقل عنه قال: «إنّي رأيت قتلهم صلاحاً للأمة وإنّ بقاءهم فساد للأمة».

وتأريخ (سنة) لعن عليّ عليه السلام يعود إلى سنة إحدى وأربعين للهجرة يوم استعمل معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة؛ فلما أمره عليها دعاه، وقال له: «وقد أردت أيضاً إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب لأصحاب عليّ والإقصاء لهم والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم... فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة لا يدع شتم عليّ والوقوع فيه، فإذا سمع ذلك حजर بن عدي قال: بل إياكم ذم الله

(١) لم يكن الشيعة وحدهم من استهجن وأعرض على وامتنع عن سب علي بن أبي طالب فالتأريخ يحدثننا أن كل الصحابة الكرام وتابعيهم ممن أخذ عنهم مبادئ دينه وتعبده رفضوا أن يشتركوا مع أتباع السياسيين ومعاوية في سبه وهناك شواهد وأقوال في كتب التأريخ يطول ذكرها.

(٢) تأريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٠.

ولعن... ثم لما توفي المغيرة ولى معاوية زياد بن أبيه على الكوفة فسار على نهج المغيرة^(١) واستمر حجر على نهجه السابق فاتهمه زياد بأنه يريد تفريق الأمة ومفارقة الجماعة والامتناع عن أداء سنة لعن علي بن أبي طالب عليه السلام وأحضر بعضاً من رجالهم المقرّين ومن خاصّتهم ليشهدوا بذلك، وتضمّ قائمة الشهود بعضاً من أقرب الأسماء للسلطة الحاكمة ولا تجد فيها ذكراً لأحد من الصحابة الأجلاء الفضلاء، بل كانوا كلّهم ممّن وترهم عليّ وحارب آباءهم، وهم كلّ من: إسحاق بن طلحة بن عبيد الله، موسى بن طلحة بن عبيد الله، المنذر بن الزبير بن العوام، عمارة بن عقبة بن أبي معيط، عمرو بن سعد بن أبي وقاص. والدليل على ذلك أنّ زياداً كان قد أدرج تدليساً اسم شريح بن هانئ القاضي مع أسماء الشهود دون علمه، فلمّا علم شريح بذلك غضب غضباً شديداً واعترض وكتب رسالة إلى معاوية في الشام قال فيها: «بلغني أنّ زياداً كتب شهادتي، وأنّ شهادتي على حجر أنه ممّن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويديم الحجّ والعمرة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حرام الدم حرام المال»^(٢) ولم يأخذ معاوية بهذه الشهادة العادلة أو يدقق في فحواها وإنما أهملها وتركها!

وتأكيداً لهذا الافتراء، وتماهيا معه، وإخلاصاً للنهج السياسي القديم، قال فاروق عمر: «بعد حوالي عشر سنوات من تسلم الأمويين الخلافة تحرّك حجر بن عدي الكنديّ في الكوفة سنة ٥١ هجرية/ ٦١٨ ميلادية وكانت حركته سياسيّة خالية من المحتوى الدينيّ أو العقائديّ»^(٣)

فهل من المعقول أن يثور حجر على الدولة الأمويّة القويّة بعشرة أشخاص فقط،

(١) ينظر: الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٤١٣-٤١٤.

(٢) ينظر: الكامل، ٣/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٣) الدكتور فاروق عمر، مصدر سابق، ص ٣٦.

وأى ثورة بائسة تلك؟، ولماذا غضبت أم المؤمنين عائشة على معاوية لما قتله لو كان دافعه سياسياً؟ بل لماذا ندم معاوية على قتله لو كان حجر مجرد سياسيٍ ثار على نظام الحكم؟ ولماذا يقول عمر بن بشير الهمداني: «قلت لأبي إسحاق: متى ذُلَّ الناس؟ قال: حين مات الحسن (يقصد الإمام الحسن بن علي) وأدّعي زياد، وقُتِل حجر بن عدي»^(١)

إنَّ الحديث عن الحقيقة كما هي يفصح حقائق الكثير من الأمور المسكوت عنها والمستورة التي لا يراد لها الذيوع، ولذا لجأ هؤلاء إلى التدليس والخلط عسى أن يعينهم في دفن تلك الحقائق فجعلوا من حجر بن عديٍّ مجرماً خارجاً على إجماع الأمة وعلى القانون، ومحارباً لدولة الإسلام، واثراً عليها بعشرة أشخاص فقط، ثم جعلوا بالمقابل من زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف حُرّاً للعبادة! فأحمد المختار ما كان ليجرؤ على مدح الرجال الذين ولغوا بدماء الأبرياء لو أرفق بحديثه حقائق الوقائع، أمّا وقد أخفاها هو ومن هم على شاكلته؛ فمن حقه أن يدّعي أنَّ في الأمة العربيّة (حرّاس) وقفوا في وجه المدّ الفارسيّ في البصرة والكوفة، ليقول: «ومن هؤلاء العرب زياد بن أبيه الذي وُلِّيَّ شؤون البصرة سنة ٤٥ هجرية / ٦٦٥ ميلادية»^(٢)

ومن حقه أن يقول عن الدموي السفاح الحجاج بن يوسف الثقفي: «وتابع سياسة حراسة إقليم العراق حارس آخر لا يقلّ غيره على الأمة العربيّة عن زياد بن أبيه وهو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي خلّد له التأريخ العربيّ أروع الصفحات في تلك السبل وقدم هذا الحارس الجديد إلى بلاد العراق سنة ٧٥ هجرية / ٦٩٥ ميلادية بعد ثورة اندلعت فيها ضدّ الأمويين»^(٣).

(١) مقاتل الطالبيين أبي الفرج الأصفهاني، ص ٨٣.

(٢) أحمد المختار، مصدر سابق، ص ٢١.

(٣) أحمد المختار، مصدر سابق، ص ٢٢-٢٣ هنا اود الإشارة إلى الخلط الذي أورده المختار

ومن حقنا أن نسأل: أيهما أكثر عدالة عمر بن عبد العزيز أم أحمد المختار؟ بالتأكيد لا يختلف اثنان أن عمر بن عبد العزيز أكثر عدالة من أحمد المختار وغيره ممن يؤمنون بمثل هذه الآراء، ومع ذلك يختلف رأي عمر عن رأي هذا الكاتب؛ فقد قال خالد محمد خالد عن عمر بن عبد العزيز: «قال عنه الإمام العادل عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخطاياها وجئنا نحن (أي: بنو أمية) بالحجاج وحده لرجحناهم جميعاً!»^(١) وفي طبقات ابن سعد والبداية والنهاية لابن كثير روايات عديدة في الحجاج وظلمه وفسقه وفجوره ودمويته، وكفى به ظلماً أنه ذبح أكثر من مائة وثلاثين ألف مسلم صبراً بعد فشل ثورة ابن الأشعث.

المهم أن حجرًا لو كان ثائرًا على الدولة الأموية وبيغي إسقاط دولتها لما كان أصحاب معاوية حينما عرضوه وجماعته على القتل قد قالوا لهم: «إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم! فقالوا: لسنا فاعلي ذلك، فأمروا بقتلهم»^(٢) فهل كانوا ليركوهم بهذه البساطة لو كانوا من المتأمرين على الدولة والمخالفين لنهج الشريعة؟ ثم أليس في قول أتباع معاوية تأكيد جلي أنهم كانوا يريدون منهم سب علي عليه السلام لا أكثر، وكأن سب علي عليه السلام هو الميزان المعياري للمواطنة في دولة السياسيين!

ولو كان حجرٌ معاديًا للدولة وثارًا عليها وساعيًا خلف السلطة ما كان التابعي

فالحجاج عين واليا على العراق بعد موت واليها ٠ بشر بن مروان) سنة ٧٥ هجرية، اما الثورة على الأمويين فنشبت عام ٨١ هجرية بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن قيس بن الأشعث الكندي بعد أن أرسله الحجاج إلى حرب رُبَيْل في سجستان، فعاد إلى العراق وخلع بيعة عبد الملك وأعلن الثورة.

(١) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ص ٥٦٥.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ٤٢٤.

الكبير الحسن البصري؛ ليقول فيه وفي جماعته من الرجال الذين استشهدوا معه: «حجّوا وربّ الكعبة»^(١) ولما كان ليقول في مناسبة أخرى: «أربع خصال في معاوية لو لم تكن له إلا واحدة لكانت موبقة: انتزأؤه على هذه الأمة بالسيف.. واستخلافه ابنه سكّيراً خميّاً يلبس الحرير ويضرب بالطناير.. وادّعاؤه زياداً.. وقتله حجرّاً وأصحاب حجر»^(٢)

ولما كان معاوية نفسه قد أسف على قتل حجر لدرجة أن ابن سيرين التابعي المعروف قال: «بلغنا أن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول: يومي منك يا حجر طويل»^(٣)

أقول للحقيقة والتاريخ إنّ أمّ المؤمنين عائشة قالت لمعاوية حين حجّ، ودخل عليها: «يا معاوية، أقتلت حجرّاً وأصحابه..؟ أما إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات! قال: لم يحضرني رجل رشيد!»^(٤)

وروي في كتب التاريخ أن معاوية كان يقول: «ما أعدّ نفسي حليماً بعد قتلي حجرّاً وأصحاب حجر»^(٥)

فلو كان حجر وجماعته من المتأمرين على الدولة، هل كان رسول الله ﷺ ليذكر ذلك الحديث للمسلمين إلا إذا كان يريد التأكيد أن حجرّاً وجماعته سيثورون على سلطان غاصب للخلافة جاء بموبقة سبّ الإمام عليّ عليه السلام، تفرح ملائكة السماوات بشهادة من يعترض على جور حكمه؟ وهل كانت أمّ المؤمنين عائشة لتذكر ذلك الحديث بوجه

(١) الكامل في التاريخ، ص ٤٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

(٣) الكامل في التاريخ، المجلد ٣، ص ٤٢٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي، جزء ٣، ص ٢٣١.

(٥) المصدر نفسه،

معاوية؟ وهل كان معاوية ليعدّ نفسه ليس حليماً لأنه قتل حجرًا وجماعته؟

لم يكن مقتل حجر بن عدي بالأمر الهين ولذا علق الربيع بن زياد على قتله بقوله: «لا تزال العرب تُقتلُ صبرا بعده، ولو نفرت عند مقتله لم يُقتل رجل منهم صبرا، ولكنها أقرت فذلّت».

المهم أنّ مصطلح (أهل السنّة والجماعة)؛ هذا المصطلح السياسي البحت لم يختفِ بزوال حكم واضعيه ومستخدميه وإنما تطوّر وتوسّع ليخصّ ويختصّ بفئة واحدة من المسلمين دون سواهم من الفرق الإسلامية الأخرى وهم (السلفيّة) حيث قال عبد الله الأثريّ في تعريفه للفرقة التي تؤمن كلياً بهذا المصطلح: «إنها الفرقة التي وعدّها الله بالنجاة من بين الفرق... وبهذا لا يخرج تعريف أهل السنة والجماعة عن تعريف (السلف).... وهذا هو المعنى الأخص لأهل السنة والجماعة، فيخرج من هذا المعنى كل الطوائف المبتدعة وأهل الأهواء كالخوارج والجهميّة والقدريّة والمعتزلة والمرجئة والرافضة»^(١)

وكأنّ الرجل يريد أن يدّعي أنّ تسمية مجموعة من المذاهب باسم أهل السنّة والجماعة قد جاءت لهذا السبب تحديداً، ولكن هناك من قال الحقيقة ولم يعترف بصحة هذا الادّعاء كما في قول (إياد إبراهيم القطان) مدير المركز الثقافيّ الملكيّ الأردنيّ الذي جاء في نشرة معروفة ومهمّة جدّاً اسمها (المتنّدي) تصدر في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، ويشرف عليها وعلى المتنّدي الذي يصدرها الأمير (الحسن بن طلال) وليّ العهد السابق: «إنّ كلمة (سنّي) في تعبير (الفقه السنّي) تشير إلى سنّة السلف الصالح في اختيار الخلفاء

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح، عبد الله بن عبد الحميد الأثري، ص ٤٥

الراشدين، ولا تشير إلى (السنة المحمّديّة) كما أصبح شائعاً بين العامة فيما بعد»^(١)

وبناءً عليه وضمن حدود التعريف الإقصائي الشاذّ للأستاذ الأثريّ عرّف معنى (العقيدة الإسلاميّة) وخصّص؛ فهي بحسب مفهومه: «إذا أطلقت فهي عقيدة أهل السنة والجماعة لأنّها هي الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضلة»^(٢) لكنّها واقعاً ليست شاملة لأهل السنة والجماعة من الحنفيّة والمالكيّة والشافعيّة، وإنّما مخصوصة بالسلفيّة الحنابلة وحدهم دون سواهم طبعاً؛ فهو لاء بحسب التعريف مشمولون بالإقصاء حال الفرق التي ذكرها الأثريّ!

هنا لا يفوتني القول: أنّ مفهوم (أهل السنة والجماعة) لم يكن نهجاً فاعلاً مؤثراً باستمرار؛ إذ كان يتوهج ثمّ يخبو تبعاً للمستجدات السياسية الطارئة؛ ولذا تراه بأعلى مراحل بريقه الوهاج مع اشتداد التنافر والنزاع بين مكّونات المجتمع الإسلاميّ، الذي بلغ أشده تزامناً مع تحوّل بعض الأمم لاعتناق التشيع، وذلك بهدف توحيد المذاهب في خندق واحد مقابل خندق التشيع، أي: إنّ عاد إلى التخندق الأوّل الذي أشار إليه النوبختي وذكرناه من قبل في مطاوي البحث.

بقيت مسألة مهمّة أريد ذكرها؛ وهي أنّ عليّاً عليه السلام كان قد تحدّث للمسلمين عن هذه الحركات حتى قبل ولادتها؛ فقال كما ينقل المتقي الهندي: إنّ عليّاً سئل عن أهل الجماعة وأهل الفرقة فقال: «فأما أهل الجماعة فأنا ومن اتبعني وإن قلّوا وذلك الحقّ عن أمر الله وأمر رسوله... وأما أهل الفرقة فالمخالفون لي ومن اتبعني وإن كثروا»^(٣)

(١) نشرة المنتدى - منتدى الفكر العربي برئاسة الأمير الحسن بن طلال ولي العهد، العدد ٧٠ المجلد ٦ تموز ١٩٩١.

(٢) الوحيز في عقيدة السلف، ص ٣٠.

(٣) كنز العمال، المتقي الهندي، جزء ١٦، ص ١٨٤، حديث ٤٤٢١٦.

وهو ما أشار إليه الأصفهاني بقوله: عن عبد الله بن مسعود: «إنَّ جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة، والجماعة ما وافق الحقَّ وإن كنت وحدك»^(١).

فالسياسيون هم الذين أوجدوا كل المصطلحات الإقصائية بدءاً من مصطلح (سنة الشيخين) مروراً بمصطلح (أهل السنة) وصولاً إلى مصطلح (أهل السنة والجماعة) فهذه المصطلحات الطائفية السياسية لم تكن وليدة فكر الحكام، وإنما جاء بها الإفتائيون بعد أن أمر السياسيون المتآمرون بنشرها بين المسلمين، ومن نكاية الزمان أن تنتشر هذه المصطلحات فرحاً بمقتل الإمام الحسن عليه السلام وكأنه كان يقف مانعاً دون تكتل المسلمين في جماعة..!

• رابعا: التخلف عن بيعته

ثم لما بايعت الأمة علياً عليه السلام خليفة واجتمع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا علياً فقالوا له: لا بدّ للناس من إمام؟ قال: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به! فقالوا: ما نختار غيرك، وترددوا إليه مراراً، وقالوا له في آخر ذلك: إنا لا نعلم أحداً أحقّ به منك، ولا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله. فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً^(٢) وبعدها انهالوا عليه زرافات ووحدانا فاختروه خليفة، لم يتخلف عن بيعته إلا من كان شائناً له أو سياسياً محترفاً صاحب مشروع يبغي الترويج له؛ وكان عبد الله بن عمر على رأس المتخلفين بالرغم من أنه بايع كل من جاء بعد الإمام من الملوك وأولهم معاوية وابنه يزيد من بعده، قال ابن سعد: «أخبرنا يزيد بن هارون عن محمد بن مطرف عن زيد بن أسلم: إن ابن عمر كان في زمان الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله»

(١) النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، محمد بن عقيل، ص ٢١٩.

(٢) الكامل في التاريخ ١٧٧ / ٧.

ولاسيَّما إذا ما كان هذا الأمير قد غلب منافسه وقضى عليه، يقول ابن سعد: أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال حدَّثنا حميد بن مهران الكنديّ؛ قال أخبرنا سيف المازنيّ؛ قال: «كان ابن عمر يقول لا أقاتل في الفتنة، وأصليّ وراء مَنْ غلب» وقال ابن سعد أيضا: أخبرنا أحمد بن يونس؛ قال حدَّثنا أبو شهاب عن يونس عن نافع؛ قال: «قيل لابن عمر زمن ابن الزبير والخوارج والخشيّة: أتصليّ مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضا قال: فقال: من قال حيّ على الصلاة أجبته، ومن قال حيّ على الفلاح أجبته، ومن قال حيّ على قتل أخيك وأخذ ماله قلت: لا».

وقال ابن سعد: «أخبرنا عارم بن الفضل قال حدَّثنا حمّاد بن زيد عن أيوب عن نافع: إنّ معاوية بعث إلى ابن عمر بمائة ألف، فلمّا أراد أن يبايع ليزيد بن معاوية قال: أرى ذاك أراد هذا، إنّ ديني عندي إذا لرخيص»

بل إنه كان يبادر بالكتابة إليهم حتى قبل أن يطالبوه بالبيعة؛ يقول ابن سعد: «كتب ابن عمر إلى عبد الملك بن مروان فبدأ باسمه فكتب إليه: أمّا بعد فالله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، إلى آخر الآية، وقد بلغني أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيما دخل فيه المسلمون والسلام».

وكان يجبر أبناءه على البيعة؛ قال ابن سعد: «لما أجمع الناس على عبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر: أمّا بعد فإني قد بايعت لعبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت وإن بني قد أقروا بذلك»^(١)

ولكنه حينما قرب أجله ندم على ما قدم، وقال قولته المشهورة: قال ابن سعد: «أخبرنا الفضل بن دكين قال: حدَّثنا عبد العزيز بن سياه قال: حدَّثني حبيب بن أبي

(١) ينظر الطبقات الكبرى، ترجمة عبد الله بن عمر، والخقبة من سنة ٥٠ وحتى ١١٨ هجرية.

ثابت قال: بلغني عن ابن عمر في مرضه الذي مات فيه، قال: ما أجديني آسٍ على شيء من أمر الدنيا، إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية» كما قال خالد محمد خالد: «روي عنه أنه قال في أخريات أيامه: ما أجديني آسٍ على شيءٍ فاتني من الدنيا، إلا أني لم أقاتل (مع علي) الفئة الباغية»^(١)

وقال ابن الأثير: «وكان ممن امتنع عن بيعته لما بايعت الناس المغيرة بن شعبة»^(٢) كما كان مروان بن الحكم واحدًا من أشهر ثلاثة رؤوس امتنعت عن بيعة عليؓ، منهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وسعيد بن العاص، وقد ادّعى هؤلاء الممتنعون الثلاثة أنهم لن يبايعوا لأنّ عليًّاؓ وترهم وقتل آبائهم، حيث تكلم الوليد بن عقبة أمام عليٍّ بلسان جماعته الآخرين فقال: «يا هذا إنك قد وترتنا جميعًا، أما أنا فقتلت أبي صبرًا يوم بدر، وأما سعيد بن العاص فقتلت أباه يوم بدر، وأما مروان فشتت أباه وعبت على عثمان حين ضمّه إليه»^(٣) وكان من المتخلفين عن البيعة: عبد الله بن عامر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير^(٤).

كذلك امتنع عمرو بن العاص الذي غادر المدينة إلى فلسطين في حصار عثمان؛ فلم يعد إليها ولم يبايع عليًّاؓ، وإنما استجاب لطلب معاوية وذهب إلى الشام ليفاوض معاوية على التعاون معه مقابل منحه مصر بخراجها وخيراتها^(٥) وحينما نجحت المفاوضات بينهما نسي عمرو تلك الدمّة التي تباهى أنه أنكأها، ويقصد تحريض الناس

(١) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ص ١٠٧.

(٢) ينظر: الكامل، مجلد ٣، ص ١٦٤.

(٣) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٧٨.

(٤) ينظر تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٥٣-١٥٥-١٥٦.

(٥) ينظر: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٩٣.

على عثمان، وصار من أكبر المطالبين بدمه والثأر له.

الجدير بالذكر أن المسلمين كانوا يرون في التخلف عن البيعة أمراً معيياً وكانوا يبيحون لأنفسهم سب من يتخلف عن البيعة والتطاول عليه علناً سواء كانت البيعة شرعية صحيحة أم مخالفة للشرع؛ فبعد بيعة أبي بكر اعتزلته الأنصار (فغضبت قريش وأحفظها ذلك فتكلم خطبائها، وقدم عمرو بن العاص فقالت له قريش: قم فتكلم بكلام تنال فيه من الأنصار؟ ففعل ذلك... فخرج عليٌّ مغضباً حتى دخل المسجد فذكر الأنصار بخير).^(١)

إن الاختلاف بين منهجي علي عليه السلام وابن العاص يؤكد قرب أحد المنهجين لروح الدين وبعد المنهج الثاني كلياً عن الدين في الأصول والفرعيات ومنها حب الأنصار الذين كان الرسول يحبهم، وفي الحديث: «حدثنا محفوظ بن أبي توبة، ثنا يزيد بن موهب، عن عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الشعبي، عن خفاف بن عرابة، عن عثمان بن عفان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأنصار أصحابي في الدنيا وشيعتي في الآخرة، وأول من يدخل الجنة من أمتي». ^(٢)

لقد أزعج انتخاب الإمام علي عليه السلام خليفة للمسلمين كل الطامعين بالإمرة والساعين إليها والداعمين لهم، ومن يفضلهم على غيرهم، ولذا تجد التأثير قد وصل إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم نفسه إذ جاء عن أم المؤمنين عائشة قولها بعد مقتل عثمان، وبعد إن علمت أن الأمة بايعت علياً عليه السلام خليفة للمسلمين: «والله ما أبالي أن تقع هذه على هذه». ^(٣)

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٢٨.

(٢) الأوائل، أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني أبو بكر بن أبي عاصم، كتاب الكتروني، ص ٢٢.

(٣) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٨٠.

• خامسا: إفشال خططه وجهده عليه السلام بالدس والتدليس والغش.

بعد انتخاب علي للخلافة رغما لأنوف السياسيين، أصبح الهم الأكبر إفشال خططه والاعتراض على مشروعه البنائي وإسقاطه؛ وكانت لهم محاولات عديدة منها:

١. ما فعله المغيرة بن شعبة يوم زار علياً عليه السلام (لينصحه) بضرورة إبقاء ولاية عثمان الفاسدين في مواقعهم بما فيهم معاوية. وهي محاولة بارعة من السياسيين العرب كان هدفهم منها الحصول على فرصة لتنظيم أمورهم واستكمال استعداد جيشهم، لأن بيعه علياً عليه السلام للخلافة بغتتهم، وهو الموضوع الذي تحدّث عنه المسعودي بقوله: «ووجدت في وجه آخر من الروايات أن ابن عباس قال: قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليالٍ، فجئت علياً أدخل عليه، فقبل لي: عنده المغيرة بن شعبة، فجلست بالباب ساعة، فخرج المغيرة وسلم عليّ، وقال: متى قدمت؟ قلت: الساعة، ودخلت على عليّ وسلمت عليه فقال: أين لقيت الزبير وطلحة؟ قلت: بالنواصب، قال: ومن معهما؟ قلت: أبو سعيد بن الحارث بن هشام في فتية من قريش، فقال عليّ: «أما إنهم لم يكن لهم بعد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان، والله يعلم أنهم قتلة عثمان»، فقلت: أخبرني عن شأن المغيرة، ولم خلا بك؟ قال: «جاءني بعد مقتل عثمان بيومين فقال: أخلصني ففعلت، فقال: إن النصّح رخيص وأنت بقيّة الناس، وأنا لك ناصح، وأنا أشير عليك أن تردّ عمّال عثمان عامك هذا فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم»^(١).

إن المغيرة الذي لبس ثوب الناصحين ممثلاً ومندوباً للسياسيين العرب وموفداً منهم إلى الإمام والخليفة كان قد جازف قبل هذا التاريخ مع عمر بن الخطاب أيضاً

(١) مروج الذهب، المسعودي، ٢ / ٣٧٢ والكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ١٦٨ واليعقوبي في

بنفس الأسلوب ولنفس الغاية والسبب، وبأمر من السياسيين العرب، فقد أخرج الطبري عن النخعي والرواية أوردها السيوطي في تاريخه: «إن رجلاً (المعروف أن هذا الرجل الذي لم يذكره النخعي هو المغيرة بن شعبة مولى أبي لؤلؤة وثاني أكبر متآمر) قال لعمر: ألا تستخلف عبد الله بن عمر؟ فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، أستخلف رجلاً لم يحسن أن يطلق امرأته؟»^(١)

يكفي أن نعلم بأن المغيرة بن شعبة اعترف صراحة بأنه حاول غش الإمام علي عليه السلام بتلك النصيحة الغريبة^(٢) وقد أشار اليعقوبي إلى هذا الاعتراف الخطير جداً في تاريخه^(٣) ولكنه لا هو ولا من قرأ أو سمع الاعتراف فهموا الدافع السياسي الذي كان يقف وراء هذه الحركات.

٢. ومنها قيامهم بمطاردة ولاته بالترصد لهم خارج حدود المدينة وعلى أطراف المدن؛ ومنعهم من الالتحاق بأعمالهم. إذ روى ابن الأثير في حوادث سنة ست وثلاثين: «إن في هذه السنة فرق علي عماله على الأمصار: خرج سهيل حتى كان بتبوك فلقيته خيل فأرجعوه إلى المدينة! وخرج قيس بن سعد فلما انتهى إلى أبله لقيته خيل! وخرج عمارة بن شهاب فلما بلغ (زباله) لقيه طلحة بن خويلد فقال له: ارجع فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدلاً، فإن أبيت ضربت عنقك»^(٤) وهذا عمل منظم؛ لا اعتباطية ولا ارتجال فيه، ويدل على مستوى سياسي عال جداً، ورفيع كفاية لإسقاط مشروع قيد التنفيذ، وقد شهدنا مثل هذا التنسيق في تنفيذ العمليات الإرهابية في العراق بما يدل على ارتباط

(١) تاريخ السيوطي، ص ١٤٥.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ١٦٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي، جزء ٢، ص ١٨٠.

(٤) ينظر: الكامل لابن الأثير، المجلد ٣ ص ١٧٢-١٧٣.

المنفذين بقيادة واحدة!

● سادسا : تخريب اقتصاد دولته.

بدأ التخريب الاقتصادي مبكراً جداً، وتحديداً مع بداية انتخاب أبي بكر يوم قاموا بمصادرة فذك منه ومن زوجه فاطمة عليها السلام؛ ثم أخذ شكلاً آخر في النصف الثاني من خلافة عمر بن الخطاب وبشكل ظاهره عفوي وباطنه كيدي تأمرى بغية خلق طبقتين غنية متحكمة قائدة مسيطرة، وفقيرة مسحوقة مسلوقة الإرادة محكومة. وكان هدفهم من ذلك إرباك الأوضاع السياسية للخليفة ودولته وشعبه.

إن مسألة التمييز في توزيع الأموال التي سنّها عمر إنما كانت بحث من السياسيين أنفسهم، وجاءت لتجريد الأطراف المعارضة لهم من أموالهم وإضعافهم اقتصادياً، وأنا أربط هنا بين قول من يرى أن الخليفة الأول صادر فذك من فاطمة عليها السلام ليضعف عليها عليها السلام اقتصادياً، وبين أمر الخليفة الثاني بالتفريق بين المسلمين في العطاء ربطاً مباشراً، وهنا نلاحظ أن المستفيد الأكبر من هذا القرار هم السياسيون، والمتضرر الأكبر منه هم المعارضون، ومن أسلم من الموالي الذين كانوا يحسبون على المعارضة بسبب حرمانهم وبحثهم عمن ينصفهم.

أقرت هذه السياسة وفق المرسوم العمري: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه»^(١) وفي حديثه عن سنة ١٥ هجرية قال الطبري عن هذا القانون العمري: «وفي هذه السنة فرض عمر للمسلمين الفروض ودوّن الدواوين وأعطى العطايا على السابقة»^(٢).

(١) الخراج، محمد بن عبد الله الأزدي البصري، ص ٤٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٦١.

وعندما طعن عمر عرف الغاية من الضغط عليه بشدة لإصدار مرسوم المفاضلة، فقال قولته المشهورة: «لئن عشت إلى هذه الليلة وبقيت إلى الحول، لأحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلاً واحداً.. حتى يكونوا في العطاء سواء».^(١)

أما في خلافة عثمان فقد أخذت سياسة التمييز في العطاء والتوزيع طابعاً جديداً ومكشوفاً حيث تجمعت الأموال بيد الأمويين، وأفتقر المسلمون من عرب وموالي من غير الأمويين.

ومع تولي الإمام علي عليه السلام الخلافة ضج السياسيون وتآمروا على إفقاره وتجويع شعبه من خلال سرقة ما كان موجوداً في بيوت مال المسلمين لكي يضعفوه ويصرفوا الناس عنه؛ وعليه تجد (يعلى بن منية)^(٢) عامل عثمان على صنعاء يتحرك في أحد اتجاهات التآمر فيبادر إلى سرقة أموال بيت المال في اليمن بعد مبايعة الإمام علي عليه السلام مباشرة واللجوء إلى مكة والتحصن فيها، فلما التقى بطلحة والزبير بعد قدومهم إليها أعانها بأربعمئة ألف، وحمل سبعين رجلاً، واشترى لعائشة جملاً بثمانين ديناراً^(٣) وفي رواية ابن الأثير في الكامل: «وجهزهم يعلى بن منية بستمئة بعير وستمئة ألف درهم»^(٤) وفي رواية اليعقوبي: «وقدم يعلى بن منية بهال من اليمن قيل إن مبلغه أربعمئة ألف دينار فأخذه منه طلحة»^(٥)

(١) ينظر الطبري، ج٢، ص ٥٦٥.

(٢) كان يسمى باسم أمه (منية) أما اسم أبيه فهو (أمية) ولذا يرد اسمه في بعض الأحيان باسم أمه وفي بعضها باسم أبيه.

(٣) ينظر: الجفر والفتن، ص ٣٠.

(٤) الكامل، ابن الأثير، المجلد ٣، ص ١٧٨.

(٥) تاريخ اليعقوبي، جزء ٢، ص ١٨١.

بمعنى أن التباين والتمكن المالي الذي أحدثته سياسة عمر في توزيع العطاء وسياسة عثمان في فتح بيوت مال المسلمين للأمويين لم يكن فاشياً فشواً طبيعياً بين عموم السابقين من المسلمين، أو عند غالبيتهم، ولا في المجتمع الإسلامي كله، بل ولا حتى في نصفه أو ربعه، مما يؤكد أن هناك خلافاً مقصوداً دبره السياسيون أنفسهم أحدث تبايناً في توزيع الأموال والثروات لم يفتن له الخلفاء ومنهم عمر، إذ لو كان التوزيع طبيعياً ونتاجاً عن ظروف التقدم الاقتصادي لعاصمة المسلمين نتيجة مغنم الفتوح لكان قد شمل المجتمع كله، بينما نجد مقابل جبال الذهب التي تكدست عند البعض من الأقلية قحطاً مدقعا عند الغالبية، وفي صحيح الأخبار أن جميع تركة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن طعنه أشقاها المجرم ابن ملجم في بيت الله، لم تتجاوز السبعمئة درهم فقط!!!

محاولات الإصلاح الاقتصادي العلوية

وحينما وُيِّ الإمام علي عليه السلام الخلافة حاول إصلاح ما أفسدوه بغيهم وعمل على إعادة الأمور إلى نصابها بعيداً عن أي تحيز سياسي أو مفاضلة عصبية، وقد حاول عليه السلام في أوائل أيام خلافته تصحيح الاغوجاج المدمر، والمؤثر في مسيرة الإسلام وعقيدته، بل والموهن لقدرات الإسلام بإعادة الأمور إلى نصابها، وتقسيم المال بين الناس بالتساوي، وأول عمل قام به أنه (انتزع أملاًكاً كان عثمان أقطعها جماعة من المسلمين، وقسم ما في بيت المال على الناس، ولم يفضل أحداً على أحد).^(١)

إن السلوك المتحيز والنظرة التسقيطية الاحتكارية الضيقة إلى مال المسلمين يبدو أن أكثر قرباً إلى نظرية (الحق الإلهي)^(٢) التي انفرد بها الاتجاه القرشي الأمويّ تساوقاً مع ما كان شائعاً في بلاد فارس منه إلى تعاليم الإسلام، ومع ذلك قد يأتي من يعترض على فكرة وجود مؤامرة سياسية، أو يعترض على قولنا أن هذه المؤامرة هي التي كانت تحرك إلى هذا الاتجاه، ويقول: صحيح أن هذا السلوك سواء من حيث التعامل مع المال أم التعامل مع المعارضين على السلوك المخطئ يبدو أن مخالفين للنظرية الإسلامية، ولكن أين موقع المؤامرة منه، وما هي المؤشرات على وجودها؟

والجواب عليه يمكن تلخيصه بالآتي: يبدو من خلال طريقة اعتراض من لم يرضهم هذا العمل أنها تمثل الاتجاه الإسلاميّ البحث وهو اتجاه عُرِفَ بإتباعه الطرائق السلمية

(١) مروج الذهب، المسعودي، ج ٢، ص ٣٧٠

(٢) سوف نتوسع إن شاء الله بشرح نظرية الحق الإلهي لاحقاً

من خلال المعارضة الإيجابية النابعة من تشريع وقاعدة (الدين النصيحة) وشعار «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته» وكان القائمون على هذا النهج مجموعة من وجوه الصحابة المعروفين ومنهم عليّ بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وأبو ذرّ الغفاريّ، وعبد الله بن مسعود، ومالك بن الحارث الأشتر رضي الله عنه، وهم جميعًا كانوا يحترمون الخلافة احترامًا للإسلام، ولكنهم بعد اعتراضهم المنطقيّ على مخالقات بعض الخلفاء قبلوا بشدة وبعنف وقسوة، وهي قسوة لم يرد في القانون الإسلاميّ تخريج أو إباحة لها، بما ينيك أن القساة الذين تعاملوا مع المعارضة بالشكل المهيّن لم يكونوا مهتمين بمسألة تطبيق مبادئ الشريعة بقدر اهتمامهم بحماية مصالحهم، وهم لم يلتفتوا إلى أهميّة معاقبة المعارضين بهذا الأسلوب إلا لأنها تصبّ في صالح مشروعهم، فهم كانوا يدركون أن ذلك العمل سوف يزيد غليان الشارع الإسلاميّ بوجه الحكومة، وحينئذ يسرّع في وصولهم إلى الحكم.

المرحلة الثانية : المواجهة الخشنة

ولكي يشغلوا عليا عليه السلام بالحروب ويُنفِروا بسطاء الناس وطلاب الدنيا عنه ويجردوه من قاعدته الجماهيرية ويُفْشِلُوا مشروعه الكبير شنوا ثلاثة حروب متعاقبة مدمرة في جغرافيات متباعدة وأزمنة متقاربة. ولذا أجد أن محطات الحروب الدموية الثلاث التي فرضوها عليه تستحق الوقوف والتأمل فهي فضلا عن كونها وعدا ربانيا أخبره النبي صلى الله عليه وآله به يوم قال له: «ستقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين» فإنها تؤكد أيضا قدرة السياسيين العرب على المناورة والتحرك والتأثير على الجماهير وتسخيرهم عن طريق الإغراءات الدنيوية.

ونظرا لأهمية الوعد النبوي بمقاتلة الإمام لهذه الفئات الثلاث، ولعلاقة ذلك بالحديث عن السياسة الدينية وما سيرد في الجزء الثاني من الكتاب، سأضطر إلى التوسع قليلا بإيراد أحاديث الوعد ^(١) ولا سيما أن هناك مناهج سياسية دينية لا تزال إلى يومنا الحاضر تصر على كذب هذا الخبر، وتعمل المستحيل لإسقاطه من المنظومة الحديثة؛ بالتشكيك مرة بسنده، وأخرى بمضمونه، وثالثة بحقيقته.

قتال الناكثين والقاسطين والمارقين

روى الحاكم في المستدرک بسنده «عن عقاب بن ثعلبة قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري في خلافة عمر بن الخطاب قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله، علي بن أبي طالب بقتال

(١) للاستزادة والتوسع ينظر: كتاب الإمامة وأهل البيت، محمد بيومي مهران، ج ٢، ص ١٧٧.

الناكثين، والقاسطين والمارقين»^(١) ورواه الهيثمي عن عبد الله بن مسعود وقال: رواه الطبراني^(٢) وعن الإصبع بن نباتة عن أبي أيوب الأنصاري قال: «سمعت النبي ﷺ، يقول لعلي بن أبي طالب: تقاتل الناكثين والقاسطين بالطرقات والنهروانات، وبالسعفات، قال أبو أيوب: قلت يا رسول الله: مع من نقاتل هؤلاء الأقوام، قال: مع علي بن أبي طالب»^(٣).

ورواه الخطيب البغدادي بسنده عن خلود العصري قال: «سمعت أمير المؤمنين عليا يقول يوم النهروان: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين»^(٤) وعن علقمة والأسود، قالوا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفين فقلنا له: يا أبا أيوب إن الله أكرمك بنزول محمد ﷺ وبمجيء ناقته، تفضلا من الله وإكراما لك حتى أناخت ببابك دون الناس ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله؟ فقال: يا هذان، إن الرائد لا يكذب أهله، وإن رسول الله أمرنا بقتال ثلاثة مع علي: بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأما الناكثون فقد قاتلناهم أهل الجمل، طلحة والزبير، وأما القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم (يعني معاوية وعمرو) وأما المارقون فهم أهل الطرقات وأهل السعيفات وأهل النخيلات وأهل النهروانات. والله ما أدري أين هم ولكن لا بد من قتالهم إن شاء الله. قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وأنت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر إن رأيت عليا قد سلك واديا؛ وسلك الناس واديا غيره، فاسلك مع علي، فإنه لن يدليك في ردى ولن

(١) المستدرک للحاکم، ج ٣، ص ١٣٩.

(٢) مجمع الزوائد، ج ٧، ص ٢٣٨ وقال: رواه الطبراني في الأوسط.

(٣) المستدرک للحاکم ٣ / ١٣٩.

(٤) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج ٨، ص ٣٤٠، وج ٢ - ص ١٧٨.

يخرجك من هدى. يا عمار من تقلد سيفاً أعان به علياً على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحين من در، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي عليه، قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار. قلنا: يا هذا حسبك رحمك الله، حسبك رحمك الله.^(١)

ورواه ابن الأثير عن أبي صادق عن مخيف بن سليم قال: «أتينا أبا أيوب الأنصاري فقلنا: قاتلت بسيفك المشركين مع رسول الله ﷺ، ثم جئت تقاتل المسلمين؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٢) وعن سعيد بن عبيد عن علي بن ربيعة قال: «سمعت علياً على منبركم هذا يقول: عهد إلي رسول الله ﷺ، أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٣) وعن أبي سعيد الخدري قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلنا: يا رسول الله ﷺ أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟ قال: مع علي بن أبي طالب، معه يُقتل عمار بن ياسر»^(٤)

ورواه المتقي الهندي في كنز العمال عن الإمام زيد بن الإمام علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين». قال أخرجه ابن عساكر^(٥) وعن علي بن ربيعة قال: سمعت علياً عليه السلام على المنبر، وأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما لي أراك تستحل الناس استحلال الرجل إبله، أبعهد من رسول الله ﷺ، أو شيئاً رأيته؟ قال: «والله ما كذبت، ولا كذبت، ولا ضللت، ولا ضل بي، بل عهد من رسول الله ﷺ، أن أقاتل الناكثين

(١) تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ١٨٦.

(٢) أسد الغابة ٤ / ١١٥.

(٣) المصدر نفسه، أسد الغابة، ج ٤، ص ١١٥.

(٤) أسد الغابة، ج ٤، ص ١١٤.

(٥) كنز العمال، ج ٦، ص ٣٩٢.

والقاسطين والمارقين». قال أخرجه البزار وأبو يعلى^(١) وعن الثوري ومعمّر عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن أبي صادق قال: «قدم علينا أبو أيوب الأنصاري العراق، فقلت له: يا أبا أيوب، قد كرمك الله بصحبة نبيه ﷺ، وبنزوله عليك، فما لي أراك تستقبل الناس تقاتلهم، تستقبل هؤلاء مرة، وهؤلاء مرة، فقال: إن رسول الله ﷺ، عهد إلينا أن نقاتل مع علي الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين، فهذا وجهنا إليهم - يعني معاوية وأصحابه - وعهد إلينا نقاتل مع علي المارقين، فلم أرهم بعد - قال أخرجه ابن عساكر^(٢) وعن ابن مسعود قال: «خرج ﷺ، فأتى منزل أم سلمة، فجاء علي، فقال رسول الله ﷺ: يا أم سلمة، هذا والله قاتل القاسطين والناكثين والمارقين من بعدي - أخرجه الحاكم في الأربعين وابن عساكر^(٣). ورواه المحب الطبري عن ابن مسعود^(٤).

وأخرج السيوطي في تفسيره (الدر المنثور في التفسير بالماثور) في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾^(٥) قال: «أخرج ابن مردويه من طرق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي^(٦)»

(١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣١٩.

(٤) الرياض النضرة ٢ / ٣٢٠

(٥) سورة الزخرف: آية ٤١

(٦) فضائل الخمسة من الصحاح الستة، السيد مرتضى الحسيني الفيروزآبادي، ج ٢، ص ٣٥٨

فضلا عن ذلك ورد الحديث بصيغته المختلفة في كتب أخرى منها مسند أبي يعلى ومجمع الزوائد عن علي بن ربيعة قال: «سمعت عليا عليه السلام على المنبر وأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما لي أراك تستحيل الناس استحالة الرجل أبله؟ أبعهد من رسول الله صلى الله عليه وآله أو شيئا رأيته؟ قال عليه السلام: «والله ما كذبت ولا ضللت ولا ضل بي، بل عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله عهده إلي، وقد خاب من افترى»^(١)

ومن خطبة للإمام علي عليه السلام خطبها بالبصرة بعد افتتاحها... فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة، هل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال عليه السلام: «نعم، إنه لما نزلت هذه الآية، من قول الله عز وجل: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله حي بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي، إن أمتي سيُفْتَنُونَ من بعدي. قلت: يا رسول الله، أليس قد قلت لي يوم أحدٍ حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحزنت على الشهادة فشق ذلك علي، فقلت لي: أبشر يا صديق، فإن الشهادة من ورائك؟ فقال لي: فإن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذه؟ وأهوى بيده إلى لحيتي ورأسي. فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله ليس ذلك من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشري والشكر. فقال لي: أجل، ثم قال: يا علي، انك باق بعدي، ومُبْتَلَى بأمتي، ومخاصم يوم القيامة بين يدي الله تعالى فأعدد جوابا. فقلت: بأبي أنت وأمي، بين لي ما هذه الفتنة التي يُبْتَلَوْنَ بها؟ وعلام أجاهدهم بعدك؟ فقال: إنك ستقاتل بعدي الناكثة والقاسطة والمارقة. وجلاهم وسماهم رجلا رجلا.

(١) مسند أبي يعلى الموصلي ج ١ ص ٢٦٨ الرقم ٥١٤، وص ٢٦٩ الرقم ٥١٥، مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣٥، وج ٧ ص ٢٣٨ وتاريخ دمشق ج ٣ ص ٢٠١ الرقم ١٢٠٨، البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٠٥، اللآلي المصنوعة ج ١ ص ٤١١، احقاق الحق ج ٦ ص ٧٠.

ثم قال لي: وتجاهد أمتي على كل من خالف القرآن ممن يعمل في الدين بالرأي، ولا رأي في الدين إنما هو أمر من الرب ونهيه»^(١).

وقد يكون الحديث الذي أخرجه النسائي في الخصال من أروع مصاديق هذه الرواية العظيمة، وهو الحديث رقم ١٥٠ وفيه: «حدثنا أحمد بن شعيب، قال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم ومحمد بن قدامة (واللفظ له) وعن حرب عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوسا ننظر رسول الله فخرج إلينا قد انقطع شسع نعله فرمى به إلى علي عليه السلام، فقال: إن منكم رجلا يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، قال أبو بكر: أنا؟ قال: لا، قال عمر: أنا؟ قال: لا. ولكن خاصف النعل»^(٢) وقال المحقق في الحاشية: إسناده صحيح، أخرجه ابن حبان (٢٢٠٧) من طريق الأعمش به. وتابعه فطر بن خليفة عن إسماعيل بن جابر به. أخرجه أحمد (٣١، ٣٣، ٨٢) والحاكم (٣/ ١٢٢، ١٢٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٤٢) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وفي رواية: قال الحسن عليه السلام لأبيه يوم النهروان: «يا أمير المؤمنين، أكان رسول الله تقدم إليك في أمر هؤلاء بشيء؟ فأجابه: إن رسول الله أمرني بكل حق، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٣).

(١) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد بن حنبل ج ٦ ص ٣١٩، المعجم الكبير ج ٣ ص ١٤٥، الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ٤٦٣ الرقم ١٠٧.

(٢) خصال النسائي، مصدر سابق، حديث رقم ١٥٠، ص ١١٨-١١٩.

(٣) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص ٤٦.

الحرب هي الحل

ولما فشلت مساعيهم في عرقلة إتمام البيعة تحركوا في اتجاه الحسم العسكري؛ حركةً استباقيةً للاستيلاء على السلطة وتسقيط المشروع العلوي، ليس للقضاء على هذا المنافس الخطير الجديد فحسب، بل وللقضاء على مجاميع الصحابة الذين لا تتوافق رؤاهم ومواقفهم مع المشروع السياسي التأمري، وذلك لكي تخلو لهم الساحة بالكامل، وعليه كانوا يُغرون الصحابة ويخدعونهم ويورطونهم في المشاكل، فكانت الجمل... وكانت صفين... وكانت النهروان... وكان النجاح المنتظر قد تحقق أخيراً (بعد عناء طويل ودماء بريئة أكثر) بقيام الدولة الأموية في الشام، حيث نسي العالم الإسلامي شعار (سنة الشيخين) ونسي كل ما قالوه من أحكام وسنن فعلاً، ونسوا الدماء التي كان المتآمرون يطالبون بالتأثر لها من قبل.

إنَّ الجمل وصفين والنهروان لم ترتكب لكي تنهي حكم الإمام عليٍّ ﷺ فقط، بل سعرت نارها لتنهى وجود كلِّ الوجوه المعارضة الأخرى التي كانت مستعدة للاعتراض على مشروع المتآمرين التخريبي، لأنَّ وجود هذه الوجوه ذات الثقل المجتمعي الكبير ما كان يسمح للمؤامرة أن تمرَّ ببسر، ولذا تجد المتآمرين يعملون باتجاهين:

- الأول: تسقيط المشروع العلوي للسيطرة على الحكم، تارةً بالتشيع وأخرى بحث الناس على عدم البيعة، وثالثة بإثارة الفتن، ورابعة بمهاجمة ثغور الدولة العلوية وقوافل الحجاج.

- الثاني: زجَّ الصحابة ولاسيما الرموز الكبيرة منهم في الفتن المختلقة من خلال الوقوف في وجه قوات الدولة للتخلص من منافستهم أو اعتراضهم.

إن هذه الوقائع العظيمة الثلاث (الجمل وصفين والنهروان) هي محطات أُريدَ منها

أن تصفو الأجواء للمتآمرين عن طريق التخلص من كل المنافسين المحتملين، أو الذين سيرفضون المشروع التآمري، وعليه قدمت صفين إلى الموت في أثناء ستة أشهر ونصف الشهر من القتال الدموي أكثر من سبعين ألف مسلم موحد منهم خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، وتجذب هذه الوجوه التي مُرِغَتْ بالتراب بقسوة ووحشية قلّ نظيرها؛ وقدمت أجسادها للطيور الجارحة ووحوش البيداء طعاماً، العشرات من وجوه الصحابة الكرام عليهم السلام منهم من كانت اللجنة تشاق إليه كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الصحابي الكبير عمار بن ياسر الذي استشهد وهو شيخ عجوز يبلغ الثالثة والسبعين من العمر، ليصدق قول النبي صلى الله عليه وآله: «ويح عمار أو ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية».^(١)

إن مشاركة ذلك الثقل الكبير من الصحابة الكرام في جيش الإمام عليّ في حرب صفين يأتي ليؤكد حقيقة تلك الخطوط ويؤكد وجودها إلى جانب الحق واستعدادها لنصرة العقيدة، ويؤكد من جانب آخر كبر المؤامرة التي تنفذ ضد الإسلام ورجاله العظام صحابة رسول الله الكرام عليهم السلام حيث يقول المسعودي: «وكان ممن شهد صفين مع عليّ أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً: منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تسعمائة وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة»^(٢) وأخرج الحاكم عن الحكم قال: «شهد مع عليّ في صفين ثمانون بدرياً، وخمسون ومئتان ممن بايع تحت الشجرة»^(٣) وهذا يعني أنه لو كُتِبَ لصفين

(١) ينظر مروج الذهب للمسعودي، ٢ / ٣٦٩

(٢) مروج الذهب، المسعودي، ٢ / ٣٦٩.

(٣) المستدرک، الجزء الثالث، صفحة ١١٤، حديث رقم ٤٥٥٩ / ١٥٧.

أن تستمرّ مدة أطول لكانت قد أكلت جيل الصحابة بأكمله، وأفرغت الأرض منهم ومن بركاتهم وحرمت الأجيال من علومهم وسنن النبي الأكرم ﷺ التي كانوا يحملونها بكلّ ما يمثله ذلك من خطر على الفكر والعقيدة والمشروع الإسلاميّ برمّته.

وأنت هذه الجريمة النكراء بعد أن اختطف يد المنون من الرعيل الإسلاميّ الأول، جيل الصحابة المثاليّ، كوكبة كريمة من حاملي لواء الدعوة البواسل ورجال الإسلام الأوائل في واقعة الجمل التي قُتل فيها من أهل البصرة ومن غيرهم ثلاثة عشر ألفاً وقتل من أصحاب عليّ خمسة آلاف في يوم واحد فقط ^(١) وكان بين القتلى عدد كبير من الصحابة الكرام في الجيشين الإسلاميّين المتقابلين.

إنّ هذه المجازر الوحشيّة بحق المسلمين من الصحابة والتابعين، من الجيل المثالي والجيل الذي يليه، جيل التابعين الذي لا يقل روعة عن جيل الصحابة، لم تأت من فراغ، ولم تكن وليدة حقد مفاجئ، وإنما جاءت لكون هؤلاء وافقوا على بيعه عليّ ﷺ للخلافة فأصبحوا من المعادين لمشروع الانقلاب، باعتبار أنهم لو لم يكونوا من المعارضين على المؤامرة ما كانوا قد خرجوا للقتال بين يديه، وأنهم لو كانوا قد اعتزلوا ولم يبايعوا عليّاً ﷺ ما كانت يد الموت لتطاهم.

إنها صفحة من صفحات تلك المؤامرة التي يرفض التأريخ التحدث عنها صراحة، وإذا ما تحدث عنها يتحدّث بالهمس والإيحاء، أو بأسلوب ابن العربي في العواصم من القواصم، كان هدف هذه الصفحة الغادرة إفشال المشروع العلوي، والقضاء على وجوه المعارضة المحتملة، وتخنيع الناس، ووضعهم أمام محصلات الأعمال، دون أن يكون لهم رأي فيما يحدث، ولا سيما بعد أن رأوا بأنّ أعينهم جرائم مقتل خلفائهم الواحد تلو

(١) ينظر: مروج الذهب، جزء ٢، ص ٣٦٨.

الآخر. وتأتي بعد أن عجزت الفتوح الوهميّة التي كانت غايتها إبعادهم عن العاصمة في تطويعهم وإسكاتهم أو القضاء عليهم.

وأرى أنه لو لم يكن لهذه الحروب التي افتعلها المتآمرون وزجّوا فيها وجهاء الصحابة بعد أن خدعوههم إلا تشيت رأي الأمة، لكان ذلك كافياً لتأكيد عمق أثرها في الإسلام، وفي المسلمين الذين اختلفت آراؤهم في أهل الجمل اختلافاً يدعو إلى الدهشة والعجب، لأنه يبين عمق التخريب الذي أصاب الرأي الإسلامي الموحد، حيث نجد المسلمين ينقسمون فرقاً لكلٍّ منها رأيٌ خاصٌّ بأحد طرفي نزاع الجمل، لا تدري علام استندوا في استنباطه. وفي إحصاء بسيط لهذه الآراء المتباينة تجد هناك:

فرقة قالت بتخطئة جميع أهل الجمل، عليّ وعائشة وطلحة والزبير.

فرقة قالت: لا ينبغي لأحد أن يخوض في ذكر الصحابة وما جرى بينهم.

فرقة قالت: إنّ الطرفين كانا على صواب.

فرقة قالت: إنّ عليّاً كان محقّاً ومصيباً في حربه لهم؟

فرقة قالت إنّ أحد الفريقين ضالّ في البصرة فاسق خارج من الإيمان والإسلام، والفريق الآخر هادٍ مهديّ مصيب مستحقّ للثواب والخلود في الجنات، غير أنهم زعموا أنه لا دليل على تعيين الفريق الضالّ.

فرقة الخوارج قالت: إنّ عليّاً عليه السلام كان مصيباً ومحقّاً في قتال أهل البصرة، وإنهم كانوا بقتاله ضلّالاً كفاراً.

فرقة الشيعة وقالت: بكفر كلّ من حارب عليّاً عليه السلام، ولكنهم لم يخرجوهم بذلك

عن حكم الإسلام؛ لأنّ كفرهم كان كفر ملة، ولم يكن كفر ردّة عن الشرع.^(١)

ولك أن ترى مقدار الضرر الذي أحدثه الفعل السياسي التأمري على الإسلام لدرجة أنّ المسلمين بدو عاجزين عن معرفة المخطئ من المصيب في هذه الواقعة التاريخية الكبيرة والمهمة، ومن حقهم أن يعجزوا بالتأكيد، لأنهم ظاهراً كانوا مهتمين بشؤونهم الحياتية الخاصة أكثر من اهتمامهم بالعقيدة. إن اثر الحراك السياسي في الحروب التي شنوها على علي عليه السلام وجيشه يدفعنا عنوة للتوسع في الحديث عنها لكي نثبت الدور السياسي الذي كان يتحكم في الأحداث والذي أمتد تأثيره إلى حقبة خلافة الإمام الحسن عليه السلام. وكانت بداية هذا المشروع السياسي الاعتراضي التخريبي الكبير واقعة يوم الجمل.

الجمل، الحرب الفادرة الأولى

بعد كل تلك المعركة والممانعة؛ بدأ الصراع الدموي بين الخطين، وكانت حرب الجمل أولى الوقعات. وقد جاء في العقد الفريد عن حرب الجمل: «عن حصين عن الأحنف بن قيس قال: قدمنا المدينة نريد الحج فانطلقت فأتيت طلحة والزبير فقلت لهما: إني لأرى هذا مقتولا (يعني عثمان) فمن تأمراني به كما ترضيانه لي؟ قالوا: نأمرك بعلي بن أبي طالب. قلت: تأمراني به وترضيانه لي؟ قالوا: نعم. قال: ثم انطلقت حتى أتيت مكة، فبينما نحن فيها إذ أتانا قتل عثمان فانطلقت إلى عائشة في مكة؛ فقلت: من تأمريني أن أباع؟ قالت: علي بن أبي طالب. قلت: أتأمريني به وترضيه لي؟ قالت: نعم. فمررت على علي بالمدينة فبايعته ثم رجعت إلى البصرة فما راعنا إلا وقدوم عائشة وطلحة والزبير قد نزلوا جناب الخريبة».^(٢)

(١) ينظر: الجمل للشيخ المفيد، ص ٥٣ إلى ص ٧٠.

(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، مجلد ٣، ص ٩٨.

سؤال: لماذا نحكم ونجزم بأن جيش الجمل وقادته كانوا مدفوعين من قبل السياسيين وواقعين تحت تأثيرهم، ولماذا لا يكون ذلك اجتهدا منهم؟

الواقع أنهم أنفسهم في مسيرهم إلى البصرة بدرت منهم أقوال فضحت وجود المؤثر والدافع السياسي وراء هذا الحراك؛ ومن يفكك هذه الأقوال يصل إلى حقيقة لا تقبل أي تأويل آخر تقول بأن قادة الجمل وزعماء الحملة أنفسهم كانوا مدفوعين لحرب علي عليه السلام رغما عنهم، ولم يكونوا أصحاب قرار ولا مجتهدين.

كانت عائشة أول المنتبهين للمؤامرة فهي بعد أن وصلت إلى (الحواب) حيث جاء في كتب التاريخ أنها في الطريق إلى البصرة، وبعد وصول الجيش إلى منطقة اسمها الحوَاب نبحتها الكلاب؛ فسألت عن المنطقة؛ فقالوا لها: إنها الحوَاب فقالت: «ما أظنني إلا راجعة، سمعت رسول الله يقول: كيف بإحداكنّ إذا نبحتها كلاب الحوَاب» ويقول (عكاشة عبد المنان) في هامش الصفحة التي أخرج بها هذه الرواية: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن قيس؛ قال: «لما بلغت عائشة ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب».^(١)

وفي رواية أخرى عن (العربي) الذي اشتروا منه الجمل المدعو عسكر لتركبه عائشة، وشغلوه دليلاً لديهم، أخرجها ابن الأثير، أنه قال: «حتى طرقتنا الحوَاب وهو ماء فنبحتنا كلابه؛ فقالوا: أيّ ماء هذا؟ فقلت: هذا ماء الحوَاب، فصرخت عائشة بأعلى صوتها: إنا لله وإنا إليه راجعون، إني لهي، سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيتكن تنبها كلاب الحوَاب. وقالت: ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوَاب، فأناخوا حولها يوماً وليلة، فقال لها عبد الله بن الزبير: إنه كذب ولم يزل بها؛ وهي تمتنع،

(١) ينظر: الجفر والفتن، عكاشة عبد المنان، ص ٣٠.

فقال لها: النجاء، النجاء قد أدرككم عليّ بن أبي طالب! فارتحلوا»^(١) وأنت تلاحظ هنا وكأن في المسألة توريطاً متبادلاً، حيث ورّط السياسيون قادة الجمل، ومنهم طلحة وابن الزبير وعائشة وقادة الجمل الآخرين في المسير إلى الحرب، فلما كشفت عائشة الخدعة بادرها القادة المخدوعون بالكذب والتخويف وورطوها لتنصاع إليهم ولا تتركهم.

لقد جاء امتناع عائشة عن المسير؛ لأنه سبق لها أن سمعت تحذيراً نبوياً بهذا الخصوص، وأوردت أغلب الكتب الحديثية قصّة التحذير والكتب التي تناولت موقعة الجمل. وفضلاً عن الروايات المذكورة آنفاً، أورده الحاكم في مستدركه عن أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: «ذكر النبي صلّى الله عليه وآله خروج بعض أمّهات المؤمنين؛ فضحكت عائشة فقال: انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت. ثم التفت إلى عليّ فقال: إن وُلِّيتُ من أمرها شيئاً فأرفق بها»^(٢)

إنّ ما يوضح لنا أنّ عائشة كانت مخدوعة وكانت واقعة تحت تأثير (السياسيين الذين ورّطوها بهذا العمل من دون أن يلتفتوا إلى حرمتها ومكانتها من رسول الله صلّى الله عليه وآله)، إنّها بعد الواقعة أسفت وتندّمت وبكت كثيراً وقد ورد عن (هشام بن قيس) أنها قالت: «وددت أني كنت ثكلت عشرة مثل الحارث بن هشام وأني لم أسر سيري مع ابن الزبير»^(٣)

وفي المسعودي أنها بعد أن أعادها الإمام عليه السلام إلى ديارها وأرسل معها النساء اللواتي لبسن أزياء الرجال يحرسنها: «فلما أتت المدينة قيل لها: كيف رأيت مسيرك؟ قالت: كنت بخير والله، لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالاً أنكرتهم، فعرفها النسوة أمرهن، فسجدت وقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرماً،

(١) الكامل لابن الأثير، المجلد الثالث، ص ١٨٠.

(٢) المستدرک، الجزء الثالث، صفحة ١٢٩ الحديث رقم ٤٦١٠/٢٠٨

(٣) المصدر نفسه، المستدرک للحاکم، حديث رقم ٤٦٠٩/٢٠٧ صفحة ١٢٨

وودت أفي لم أخرج... وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان»^(١) ومن خلال هذا النقل تتضح الخدعة الكبرى ويتضح التوريط المتبادل، بدلالة قولها: «وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس» فمن قال لها أخرجي للإصلاح؟ لماذا لم تعلن اسمه؟ لماذا قالت بصيغة المبني للمجهول؟ ألا يستحق الفضيحة بعد أن ورطها هذه الورطة الكبيرة؟ فلماذا تسكت؟!

فإذا ما كان الزبير وطلحة وكما سيمر علينا بعد قليل لا يملكان امرهما؛ وهناك من قال لهما: أخرجنا عنوة، أو مكرا وخداعا؛ وكانت عائشة قد قيل لها أخرجي؛ فمن القائل الأمر؟ ولماذا لم تشر إليه الروايات؛ هذا إلا إذا ما كان هو نفسه الذي كتب تاريخ الأمة فحذف هذه المعلومة، أو أن هناك مصلحة متبادلة استوجبت إبقاء اسمه في طي النسيان!

الزبير هو الآخر كان مخدوعا؛ واعترف بذلك صراحة. فهو بعد أن فرغ من قتل أنصار علي عليه السلام في البصرة بحجة أنهم اشتركوا في قتل عثمان، وقف خطيبا وقال: «ألا ألف فارس أسير بهم إلى عليٍّ أقتله قبل أن يصل إلينا، فلم يجبه أحد. فقال: إن هذه للفتنة التي كنا نتحدث عنها. فقال له مولاه: أتسميها فتنة؛ وتقاتل فيها؟ قال: ويلك، إنا نبصر ولا تبصر، ما كان أمر قطُّ إلا وأنا أعلم موضع قدمي فيه، غير هذا الأمر، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر»^(٢).

ويعني هذا الاعتراف الصريح (غير هذا الأمر، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر) بأنه كان مدفوعا قسرا لحرب علي عليه السلام. ويؤكد صحة رأينا أنه بعد أن نبهه الإمام علي عليه السلام

(١) مروج المسعودي، جزء ٢، ص ٣٨٨

(٢) الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ١٨٨

من غفلته تلك؛ ترك ساحة الحرب وقفل راجعاً إلى المدينة لا يلوي على شيء، فلما وصل إلى (وادي السباع) جلس يؤدّي الصلاة، فلحقه واحد من جند السياسيين المتآمرين أو عمّالهم ومساعدتهم ممن أوكلت لهم المهمات القذرة؛ اسمه (عمرو بن جرموز) مع صاحبين له الأوّل اسمه (نفيح) والثاني اسمه (فضالة) فقتلوه واحتزوا رأسه وحملوه معهم.

وطلحة هو الآخر اعترف صراحة بأنه مدفوع إليها؛ وليس صاحب قرار فيها، فهو حتى قبل أن يُقتل الزبير كان يجلس وحيدا معتزلاً الناس مفكراً بالحال التي وصل إليها، بما فيها الخروج على إمام الزمان، وقد قال (علقمة بن وقاص الليثي) بعد أن رآه مختلياً معزولاً عن الناس مطرّقاً مفكراً، وقد وضع رأسه في صدره، كمن يحمل هموم الدنيا كلّها: «يا أبا محمد أرى أحبّ المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب بلحيتك على صدرك، إن كرهت شيئاً فاجلس! قال: فقال لي: يا علقمة، بينا نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً»^(١).

ولذا تراه مثل الزبير يتهاوى لمجرد سماعه كلمة الإمام حينما رآه واقفاً قرب هودج عائشة وهو زوج أختها، فغضب الإمام عليّ عليه السلام حينما رآه في ذلك الموقف وكأنه يستعرض عرض رسول الله ﷺ في ساحة الحرب، وخاطبه قائلاً ومعنّفاً: «يا طلحة أجبني بعرض رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت؟

فاستحيا طلحة واعتزل القتال، فتسلل شيخ المتآمرين مروان بن الحكم من خلفه واغتاله بسهم أصاب رقبته وخرج من فمه، وبعد انتهاء المعركة مر الإمام على جثمان طلحة ملقى في بعض الأودية فنزل فمسح التراب عن وجهه، ثم قال: عزيز عليّ

(١) الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ١٨٨.

أبا محمد أن أراك مجندلاً في الأودية، ثم رفع يديه وقال: إلى الله أشكو عجري وبُجري»^(١).

وعن مقتل طلحة قال اليعقوبي: «فقتل طلحة بن عبيد الله في المعركة، رماه مروان بن الحكم بسهم فصرعه» وقال: «لا أطلب والله بعد اليوم بثأر عثمان، وأنا قتلته».

فقال طلحة لما سقط: «تا الله ما رأيت كالיום شيخاً من قريش أضيع مني، إني والله ما وقفت موقفاً قط إلا عرفت موضع قدمي إلا هذا الموقف!»^(٢) وقال خالد محمد خالد: «أما طلحة فقد رماه مروان بن الحكم بسهم أودى بحياته»^(٣).

وكان الإمام ﷺ أول المنوّهين بهذه القوة الجبارة التي أجبرت ثلاثة من كبار الصحابة للتأمر عليه، حيث قال: «ومن العجب انقيادهما (أي طلحة والزبير) لأبي بكر وعمر؛ وخلافهما عليّ، والله إنهما ليعلمان أنني لست بدون رجل ممّا تقدّم»^(٤).

فالجمل كانت بفعل السياسيين الكبار المتخفين الذين دفعوا غيرهم للقيام بالأعمال القدرة نيابة عنهم، ولكن ذلك لا يعني الطرف الذي قاتل الخليفة المنتخب من تحمل المسؤولية كاملة على خلاف ما يراه ابن العربي في قوله الذي نقله عنه القرطبي في تفسيره للآية (٩) من سورة الحجرات: «وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى»^(٥) فهو قول لا يعتد به؛ يراد به تعميم التصويب على وقائع كبيرة أخرى مثل واقعة صفين التخريبية الشرسة. وسنلاحظ هذا الجهد التخريبي يزداد قوة أيام خلافة الحسن ﷺ،

(١) ينظر: الاغتيالات في الإسلام، ص ٩٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي، جزء ٢، ص ١٨٢.

(٣) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ص ٣٥٧.

(٤) الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ١٩٣.

(٥) تفسير القرطبي للآية ٩ من سورة الحجرات.

وينجح في توريط الأمة كلها بما فيهم أقرب الناس من الإمام الحسن عليه السلام مثل عبيد الله بن عباس!.

صفين، معركة الخداع والمكر السياسي

بعد صفحة الجمل الدموية جاءت صفحة الغدر في صفين، تلك الجريمة النكراء التي أوهت أركان الإسلام، وحرّفت مسار الدين، وكانت بدايتها أن «بعثت أمّ حبيبة بنت أبي سفيان إلى أخيها معاوية بقميص عثمان مخضباً بدمائه مع الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري»^(١).

وبالرغم من بشاعة صفين إلا أنها كانت على مستوى كبير من التخطيط السياسي لأنها شنت لغيتين، إحداهما أكبر من الأخرى، تماماً كما هي حرب الجمل التي سبقتها:

- الأولى: قتل علي وهزيم فكره وعقيدته لتفرغ الساحة للمتآمرين وفكرهم.

- الثانية: القضاء على أكبر عدد من الصحابة المخلصين لكي لا يبقى من يعترض على قراراتهم المجحفة والمخالفة للعقيدة التي سيتخذونها إذا حكموا، لأنهم أدركوا أن القسم الأكبر من خيرة وكبار الصحابة سوف يلتحقون بجيش الإمام، وفعلاً «كان ممن شهد صفين مع عليّ أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً: منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تسعمائة وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة»^(٢) وأخرج الحاكم عن الحكم قال: «شهد مع

(١) مروج الذهب، المسعودي، ج ٢، ص ٣٧٠

(٢) المصدر نفسه، ٢ / ٣٦٩

عليّ صفين ثمانون بدريةً وخمسون ومئتان ممن بايع تحت الشجرة»^(١).

جمر الصحابة بالفتوح للتخلص منهم

وفق نظرية سياسية وضعها معاوية تحت مسمى (أخفى وأغفى) تم تطبيق مشروع جمر الصحابة والمعارضين في الفتوح، وقد كانت بدايات فكرة قتل الصحابة والتخلص منهم قد بوشرت عن طريق إشراكهم في الفتوح، بعد أن تغيرت دواعي الفتوح نفسها، وبدأ العمل بهذه المنهجية في خلافة عثمان بن عفان، حيث أورد المسعودي مقترحا لسعيد بن العاص صاحب وزميل معاوية في مشاريعه في المؤتمر الذي عقده الخليفة عثمان لأمرائه على الأمصار والذي ضم فضلا عن ابن العاص كل من ابن عامر ومعاوية؛ بعد أن كثرت شكاوى أهل الأقاليم منهم، من خلال رأيه الذي اقترحه على الخليفة ليكون بديلاً عن موافقة الخليفة على مطالب أهل الأقاليم، قائلاً: «إنك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون، وقد صاروا حلقة في المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض، فجهزهم في البعث، حتى يكون هم أحدهم أن يموت على ظهر دابته»^(٢) وهي نظرية سياسية تمارسها الدول العظمى اليوم بأساليب جديدة مبتكرة بعد أن أدركت قيمتها مؤخراً، في وقت عرفها السياسيون المسلمون في وقت مبكر جداً!

لكن أليس من المستغرب والمدهش أن الخليفة أحجم عن استشارة عليّة القوم وكبار الصحابة واكتفى بأمرائه على الأقاليم؟ ألا يعد هذا الفعل نمطا من السياسة يتوافق مع حدة الرؤية والرأي التي تجمع بين الخليفة وأمرائه، وتنافر وتباعد رأيه مع آراء المحيطين به؟ وماذا يمكن أن نشم من هذا الخبر؟ ألا يعني ذلك أن الولاة كانوا من

(١) المستدرک، الجزء الثالث، صفحة ١١٤، حديث رقم ٤٥٥٩ / ١٥٧

(٢) مستدرک الحاكم، ٢ / ٣٥٥، وقد روي هذا الخبر بصيغ كثيرة جاء في بعضها قول سعيد: (حتى لا يكون هم أحدهم إلا قمل فروته وفساء أو وقراد دابته!).

حزبه الخاص الذي يعول عليه لأن مصالحهم مترابطة، وهذا يعني نشاطا سياسيا صائبا لا مثلية فيه في مقاييس السياسة؟

رأي سعيد بجمهرهم بالفتوح ألا يُعْتَبَر رأيا سياسيا ناهضا ولا سيما وأن الإنسان المسلم يرفض أن يكون مع المخلفين بعد التهديد والوعيد الذي تقدم به القرآن والمقاطعة التي فرضها النبي ﷺ على من تأخر وتحلف من قبل من المسلمين عن الغزوات؟

لقد أصبح جمر المعارضين بالفتوح سياسة معروفة اشتهر بها الأمويون وكثر الحديث عنها في الأقل هناك كما لا بأس به من الروايات التي تخص معاوية وحده، ومنها رواية تقول أن مهاترة حدثت بين معاوية ورجل من باهلة سمع معاوية يقول: والله لقد هممت أن أملأ سفينة من باهلة فأبعث بها إلى اليم، فإذا توسطوا غرقتهم! فأجابه الباهلي: إذن ما رضينا بعددهم من بني أمية. فشتمه معاوية قائلاً: أسكت أيها الغراب الأبقع. فرد عليه الباهلي: إن الغراب ربما مشى إلى الرحمة حتى ينقر عينها. وعندما سمع يزيد أبنه بهذه المهاترة قال له: هلا قتلته؟ فسكت معاوية. ثم مضت مدة أتاحت له أن يجند الباهلي ويرسله إلى إحدى جبهات الفتح فُقُتِلَ هناك؛ فلما سمع معاوية بمقتله قال ليزيد: «هذا أخفى وأعفى».

وهنا قد نجد من يرى أن سعيداً بن العاص كان يحاول للممة الغضب وإطفاء نار الفتنة عندما اقترح على الخليفة هذا المقترح، ولا يوجد تأكيد أن هذا الرأي يدل على وجود مؤامرة في الأفق، وأقول لأصحاب هذا الرأي: لكن تكلمة الخبر الذي أورده المسعودي وغيره تؤكد أن هنالك مؤامرة كبيرة، ومتأمرين كانوا يؤججون نار الفتنة ويشجعون الناس على التمرد ويدعمون حراكهم بالمال، حيث ورد في الخبر نفسه أن عمرو بن العاص الذي كان حاضراً في المؤتمر خرج إلى المسجد بعد أن سمع مقترح

سعيد «إذا طلحة والزبير جالسان في ناحية منه. فقالا له: تعال إلينا، فصار إليهما، فقالا: ما وراءك؟

قال: الشرّ، ما ترك شيئاً من المنكر إلا أتى به وأمر به،

وجاء الأشر فقالا له: إن عاملكم الذي قمتم فيه خطباء قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث وبكذا وبكذا.

فقال الأشر: والله لقد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا فيه خطباء، فكيف وقد قمنا؟ وأيم الله على ذلك لولا أني أنفدت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها.

فقالا له: فعندنا حاجتك التي تقوم بك في سفرك!

قال: فأسلفاني إذا مائة ألف درهم.

قال: فأسلفه كلّ واحد منهما خمسين ألف درهم فقسمها بين أصحابه وخرج إلى الكوفة فسبق سعيداً وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد، ثم قال: أما بعد فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم فبايعوني على أن لا يدخلها فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة»^(١).

بل هناك من المؤرخين من أكد بأن الخليفة عثمان بن عفان كان هو صاحب فكرة جمر المعارضين والصحابة الخيرين في الحروب، ويتبين من حديث البلاذري وكأن الخليفة عثمان هو من كان يصرّ على إشراك هؤلاء في الفتوح^(٢) ويعتقد المستشرق (هنري

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٥٥.

(٢) ينظر: فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٢٨.

ماسيه) بصحة هذا الرأي؛ ويقول: «ويمكن أيضًا أن يكون للخلفاء مصلحة في قذف رعاياهم في الغزوات ليبعدوهم عن العاصمة، ويربطوهم بالإسلام بواسطة الفتوحات والغنائم»^(١). ولكن من يعرف عثمان على حقيقته لا يمكن أن يتوقع صدور مثل ذلك الرأي السياسي عنه، ولذا أجد كل المؤشرات تشير نحو معاوية، حيث روى اليعقوبي أن معاوية بن أبي سفيان «كان إذا بلغه عن رجل ما يكره، قطع لسانه بالعطاء، وربما احتال عليه فبعث به في الحروب»^(٢).

ثمّ إنها لم تكن المرة الأولى التي يرسل الكبار والحكام فيها معارضيتهم إلى الحروب للتخلص منهم، فلقد عملوا بجِدٍّ للتخلص من كلّ المنافسين المحتملين بزجهم في الفتوح، ولاسيما أولاد رموز الصحابة وكبارهم الذين كانوا يرونهم أكثر رغبة من آبائهم للعمل في المجال السياسي، مما يعني أنهم يشكلون خطرًا كبيرًا محتملاً على مشروع التآمر يجب التخلص منه بنحو لا يثير الريبة والشك، وليس هناك أسهل من طريق الغزوات العقائدية لهذا الغرض، وقد أشركوا فعلاً عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وغيرهم في الفتوح، ويتبيّن من حديث البلاذري وكأنّ الخليفة عثمان هو من كان يصرّ على إشراك هؤلاء في الفتوح^(٣) ولذا نجد هناك من يرى أن مقترح سعيد بن العاص جاء متناغمًا مع سياسة الخليفة وليس ابتداءً!

إن مسألة جمر المعارضين في الغزوات والحروب للتخلص منهم سمة معروفة

(١) الإسلام، هنري ماسيه، ص ٨٧.

(٢) تأريخ اليعقوبي، جزء ٢، ص ٢٣٨.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٢٨ لاحظ هنا أن البلاذري لم يذكر اسم الحسن بن علي من ضمن من ذكرهم وهذا يؤكد عدم اشتراك الحسن عليه السلام في حروب الفتح، وهو ما سنناقشه في القسم الثاني من الكتاب.

ونهجاً متبعاً طوال سنوات الفتح تقريباً باستثناء عصر الفتوح الأولى؛ ولذا يعتقد المستشرق (هنري ماسيه) أنه: «يمكن أيضاً أن يكون للخلفاء مصلحة في قذف رعاياهم في الغزوات ليبعدوهم عن العاصمة، ويربطوهم بالإسلام بواسطة الفتوحات والغنائم»^(١) وأقول: حتى لو كان في جرمهم مصلحة للخلفاء فإن ذلك لا يعني أن الخلفاء أنفسهم هم الذين ابتدعوا هذه النظرية، في الأقل فيما يخص عثمان بأعتبار أن صاحب النظرية الأصلي معاوية ابتدعها يوم كان والياً على الشام قبل أن يسرق الخلافة من الإمام الحسن عليه السلام

وربما لهذا السبب وبسبب هذه السياسات ترى الباحثين يختلفون في دوافع الفتوح ولا يرجعونها إلى سبب محدد بعينه، وعليه قال الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية بمصر: «فبعضهم يرجع ظاهرة الفتوحات إلى أسباب اقتصادية، وجمهور آخر يرى أنها بدافع الجهاد، وفريق ثالث يرجح العامل القومي»^(٢).

إن قوة سياسية تملك كل هذه المؤثرات والقواعد العلمية للعمل السياسي المؤثر، ولها قدرة التحكم بقرارات الخلفاء، هل ممكن أن تعجز عن مجابهة شعب وجيش مثل شعب وجيش الإمام الحسن عليه السلام وهي التي تمرست بعملها فأجادته؟

فصول صفين

ولأنهم كانوا بمستوى عال من الفهم الماكر والتخطيط السياسي فقد وضعوا منهجاً للتخلص من علي عليه السلام ومن الخط العلوي نهائياً فرسموا أجواء معركة (هرمجدون)

(١) الإسلام، هنري ماسيه، ص ٨٧.

(٢) التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، الدكتور السيد عبد العزيز، ص ١٩٧.

الإسلامية لتكون المعركة الحاسمة والأخيرة بينهم وبين قواعد الإسلام الحقّة، ووضعوا مناهج متعددة لكل حركة من حركاتهم فيها. فكرة التحكيم مثلاً كانت فصلاً من فصول مؤامرة صفين، أعدت سلفاً للتطبيق عند الضرورة وكان من شروط نجاحها زرع بعض الشخصيات المهمة والمؤثرة وبمواصفات خاصة في جيش الخلافة ليوكل إليهم تنفيذ صفحات فصل التحكيم.

إن وجود وجوه المعارضة السياسية المؤيدة للخط الأموي أو التي تلتقي مصالحها مع مصالحه في جيش علي رضي الله عنه فصلاً آخر من فصولها. وفضلاً عن وجود يعلى بن منية وأبي موسى الأشعري في جيش علي رضي الله عنه، كان هناك جماعة القراء، وكان هناك الأشعث بن قيس الكندي، ولكل من هؤلاء واجب محدد ومرسوم بعناية، حسب فصول المؤامرة.

أمّا الأشعث بن قيس^(١) والبيانّة جماعته الذين هم طوع أمره لا يعصونه؛ فقد وضع أمرهم في اللحظة التي أراد الإمام علي رضي الله عنه من جيشه أن لا ينخدع بمؤامرة رفع المصاحف التي هي من مقدمات فصل مؤامرة التحكيم، فقال لهم: «إنها مكيدة، وليسوا بأصحاب قرآن»^(٢) فاعترض الأشعث بن قيس عليه وقال: «والله لئن لم تجبهم أنصرف عنك»^(٣)، ولم يكن قول الأشعث تهديداً فارغاً لعلي رضي الله عنه بقدر ما كان إشارة لأصحابه الذين يعلمون سلفاً بمتطلبات مثل هذا القول، لأن انسحابه وتركه للميدان يعني فشل المؤامرة وهو ما لم يكن مأموراً به، ولذا ترى البيانّة وجماعات أخرى ما إن سمعوا هذا

(١) قدم الأشعث بن قيس في وفد كندة وكانوا في ثمانين راكباً إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم في أواخر سنة تسع للهجرة وذلك بعد أن أسلم الأعم الأغلب من قبائل العرب فيما عُرِفَ بعام الوفود. ينظر: سيرة ابن هشام ٤ / ١٩٩ ثم تراه هنا يتحكم بمصير أمة الإسلام ويجبر أول القوم إسلاماً على القبول بالتحكيم، وهذه من مهازل الدهر العظيمة.

(٢) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٨٨.

(٣) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٨٩.

القول حتى مالوا مع الأشعث وضموا أصواتهم إلى صوته وقوتهم إلى قوته. وبعد أن قوي جانب الأشعث وأدرك أن جماعته أدّوا أدوارهم الموكولة إليهم أداءً سليماً وجه إلى الخليفة تهديده الحقيقي الذي يختلف مضمونه عن التهديد الأول كثيراً، فقال مهدداً ومتوعداً: «والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه، أو لندفعنك إليهم برمّتك!»^(١)

ولم يقتصر دور الأشعث على هذه الحركة فحسب، بل إنه أصبح بعد هذه المقولة الأمر والمحرك الفعلي للشخوص وللأحداث، وتحول من مجرد ممثل شبه مغمور إلى بطل يمارس دور المخرج المحترف، والمتحكم بالأحداث. وهنا أدرك الأشرع ﷺ خطورة المؤامرة؛ فأراد من الآخرين معرفة ذلك من خلال المشاجرة التي افتعلها مع الأشعث، وقال للأشعث من خلالها: «والله يا أعور (وكان الأشعث أعور فعلاً مثل المغيرة) لهممت أن أملأ سيفي منك.... وإني أعلم أنك ما تحاول إلا فتنة، وما تدور إلا على الدنيا وإيثارها على الآخرة»^(٢)

ونجد أن قول ورأي مالك الأشرع بالأشعث هو عين قول ورأي الخليفة أبي بكر في هذا السياسي غريب الأطوار. فرأي الأشرع جاء متساوفاً مع رأي الخليفة أبي بكر في الأشعث حيث روى يعقوب أن أبا بكر قال لعبد الرحمن بن عوف الذي عاده في مرضه: «ما آسى إلا على ثلاث خصال صنعتها لم أكن صنعتها، وثلاث لم أصنعها ليتني كنت صنعتها» ومن تلك التي ندم أنه لم يصنعها قوله: «ليتني قدمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه، فإنه يُحِيلُ إليّ أنه لا يرى شيئاً من الشرِّ إلا أعان عليه!»^(٣)

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٨٩.

(٣) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٣٧.

النهروان، معركة المغفلين المخدوعين

وأثناء صفحة صفين أعلنت صفحة النهروان كفصل آخر من فصول المؤامرة السياسية؛ فجاعة القراء وهم جميعاً من جيل التابعين، لا صحابي بينهم بالمرّة تبعاً لقول ابن عباس: (أتيتكم من عند أصحاب النبي ﷺ وليس فيكم أحد منهم) الذي ورد في النقل الذي أخرجه النسائي في التهذيب أن ابن عباس حينما أرسله الإمام علي عليه السلام ليكلّمهم ويحتج عليهم، قال لهم: «أتيتكم من عند أصحاب النبي ﷺ وصهره وعليهم نزل القرآن وهم اعلم بتأويله، وليس فيكم أحد منهم، لأبلغكم ما يقولون، وتخبرون بما تقولون»^(١)

والخوارج هم المارقون الذين أخبر رسول الله ﷺ المسلمين بخروجهم؛ وحديث تمرق مارقة من الناس يلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق أخرجه النسائي برقم ١٦٠ عن داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري وبرقم ١٦١ عن أبي عوانة عن قتادة عن أبي سعيد الخدري وبرقم ١٦٢ عن قتادة عن أبي نضرة عن الخدري وبرقم ١٦٣ عن عمرو بن علي عن يحيى عن أبي نضرة عن الخدري وبرقم ١٦٤ عن بهز بن القاسم عن أبي نضرة عن الخدري وبرقم ١٦٥ عن المعتمر عن أبيه عن أبي نضرة عن الخدري وبرقم ١٦٦ عن الأجلح عن حبيب أنه سمع الضحّاك المشرقي حديثهم ومعه سعيد بن جبير وميمون بن شعيب وأبو البحري والوضاح الهمداني والحسن العرفي أنه سمع الخدري يرويه عن رسول الله. ^(٢)

وأذكر هنا بشدة وعنف السياسيين في محاربة من كان يقول الحقيقة أو كان يعترض

(١) تهذيب خصائص النسائي، حديث ١٨٢ ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) تهذيب خصائص الإمام علي؛ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، الصفحات ١٢٣-١٢٥.

على ما يأتون به من خرافة القصص وينسبونها إلى رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، من خلال تعاملهم مع النسائي حينما زار دمشق فاجتمعوا وانهلوا عليه بالضرب المبرح إلى أن مات لأنه حدثهم بفضائل علي عليه السلام؛ والقصة معروفة وصحيحة، وكما في فتوى مركز الإفتاء السعودي:

رقم الفتوى: ٩٩٥٠٠

التصنيف: تراجم وشخصيات

السؤال: ما قصة قتل الإمام العلم أبو (هكذا في الأصل والصحيح: أبي) عبد الرحمن النسائي (رحمته الله) أريد الراجح من أقوال أهل العلم. جزاكم الله خير؟.

الإجابة

«أما بعد: فقصة قتل الإمام أحمد بن شعيب النسائي رواها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية حيث قال بعد الثناء الكثير: وقد قيل عنه إنه كان يُنسَبُ إليه شيء من التشيع قالوا ودخل إلى دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية فقال: أما يكفي معاوية أن يذهب رأساً برأس حتى يروى له فضائل، فقاموا إليه فجعلوا يطعنون في خصيته حتى أُخرجَ من المسجد الجامع فسار من عندهم إلى مكة فمات بها في هذه السنة وقبره بها هكذا حكاه الحاكم عن محمد بن إسحاق الأصبهاني عن مشايخه. وقال الدارقطني: كان أفاقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح من السقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ حسدوه فخرج إلى الرملة فسُئِلَ عن فضائل معاوية فأمسك عنه فضربوه في الجامع فقال: أخرجوني إلى مكة فأخرجوه وهو عليل فتوفي بمكة مقتولا شهيدا مع ما رُزِقَ من الفضائل رُزِقَ الشهادة في آخر عمره مات في مكة سنة ثلاث وثلاثمائة. قال الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن نقطة في

تقييده ومن خطه نقلت ومن خط أبي عامر محمد بن سعدون العبدري الحافظ: مات أبو عبد الرحمن النسائي بالرملة مدينة فلسطين يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة، ودفنَ ببيت المقدس وحكى ابن خلكان أنه توفي في شعبان من هذه السنة وأنه إنما صنف الخصائص في فضل علي وأهل البيت لأنه رأى أهل دمشق حين قدمها في سنة اثنتين وثلاثمائة عندهم نفرة من علي عليه السلام وسأله عن معاوية فقال ما قال فدققوه في خصيئته فمات، وهكذا ذكر ابن يونس وأبو جعفر الطحاوي أنه توفي بفلسطين في سفر من هذه السنة، وكان مولده في سنة خمس عشرة أو أربع عشرة ومائتين تقريباً عن قوله فكان عمره ثمانين سنة. انتهى»^(١).

وقد أعجبني بأستخفاف تعليق الشيخ السلفي عثمان الخميس على هذه الفتوى فهو تعليق مستقى من ثقافة ابن العربي في العواصم من القواصم وفيه يستخدم التعليل والتأويل رجماً بالغيب ويدلس خلاف الواقع، وما ذاك إلا بسبب تأثير السياسة الأولى على عقولهم وطرائق تفكيرهم. وقد جاء في تعليق الشيخ السلفي عثمان الخميس قوله: «عَلِمَ عن النسائي - رحمته الله - وغيره من أهل العلم أنهم كانوا يحرصون على مخالفة أهل البدع فيما يذهبون إليه، فكانوا إذا دخلوا الكوفة حيث التشيع ذكروا فضائل عثمان وإذا دخلوا الشام حيث النصب ذكروا فضائل علي وذلك للرد على أهل البدع، وكان هذا ما وقع على الإمام النسائي لما دخل الشام حيث النواصب هناك كُثِرَ فألف كتابه خصائص علي للرد على قولهم الباطل، واجتمع إليه بعضهم وطلبوا منه فقالوا له: أسمعنا فضائل معاوية كما أسمعنا فضائل علي فأراد أن يبين لهم أن معاوية لا ينبغي أن يقارن بعلي فقال لهم تلك الكلمة ألا يرضي معاوية أن يكون رأساً برأس حتى تكون له فضائل؟ وذلك

(١) ملتقى السنة، الرابط،

ليخفف غلوهم في معاوية ونصبهم لعلي فما كان منه لجهلهم وتعصبهم وقلة دينهم إلا أن قاموا إليه وضربوه رحمته ولم يكن النسائي رحمته في يوم من الأيام رافضياً (هكذا في الأصل والصحيح: رافضيا) ولا قريبا من ذلك، وهذا ظاهرٌ في كتابه فضائل الصحابة. الشيخ عثمان الخميس».

أي أن الخميس يدعي أن النسائي قام بتأليف كتابه الخصائص وهو مقيم في الشام ثم نشره بينهم لأنه بزعم الشيخ الخميس: (أهل العلم أنهم كانوا يحرصون على مخالفة أهل البدع فيما يذهبون إليه) فأغضبهم ذلك وثاروا عليه وقتلوه!

وأرى أن عثمان الخميس جانب الحقيقة وأبتعد عن المضمون وأغفل ذكر الأسباب الحقيقية التي دفعت الشاميين إلى قتل النسائي، فالشاميون كانوا أوفياء للأمويين لأن الخلفاء الأمويين دللهم وأسعدوهم وأنفقوا عليهم وفضلوهم في العطاء على كل المسلمين الآخرين؛ يقول الدكتور العسلي: «وكانت وفاة هشام مفاجأة سارة للوليد بعد ضيق وانتظار شهدت الرصافة على أثرها حركة نشيطة غصت بالوافدين وببيع الوليد بالخلافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة في اليوم الذي توفي فيه هشام. بدا الوليد الخلافة بالإحسان إلى الناس وبالغ في إحسانه إلى أهل الشام خاصة فأجرى النفقة على مرضاهم وعميانهم وكساهم وأمر لكل إنسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم من هشام، وزاد الناس جميعا في العطاء عشرة دنائير ثم زاد أهل الشام عشرة دنائير زيادة عما زاد الناس، وخص من وفد عليه من أهل بيته جوائز مضاعفة»^(١) وكان هذا العطاء الجزيل لأهل الشام خاصة ديدن الخلفاء الأمويين، فأين هذا من فعل علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كوى يد

(١) دراسات في تاريخ العرب، الدكتور خالد العسلي، ج ٢، ص ٢٢٥.

أخيه لأن الحاجة دفعته ليطلب منه بعض المال يسد به خلته!

فضلا عن ذلك كان الخوارج هم أيضا فصلا آخرًا من فصول مؤامرة صفين، وقد أوكل لهم السياسيون المتآمرون دورًا مختلفًا، ولكنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمسألة التحكيم، وتوقيت ظهورهم الذي بدا وكأنه مفاجئ ومن دون مقدمات، وهو أمر لا يتقبله العقل ولا يمكن تصديقه.

ويكشف صدق رأينا تصرف غريب بدر من واحد منهم، أظنه أخطأ في التوقيت، ولم يحسن لعب دوره المؤكل إليه، وهو (عروة بن أدية التميمي) الذي صاح قبل أن يجتمع الحكمان في صفين: (لا حكم إلا لله) ظنًا منه أن ذاك وقتها^(١) في حين المعروف أنهم وقتوا لإطلاق هذا الشعار السياسي الكبير في مرحلة ما بعد التحكيم تحديدًا، وليس قبله، وبعد أن يُجبر الإمام علي عليه السلام على قبول شروط التحكيم المجحفة رفضًا لهذا القبول المنتظر، وإثارة للفتنة في صفوف جيش علي عليه السلام!

هنا قد يقول قائل: لو كان هذا صحيحًا، فلم لم ينصرهم السياسيون يوم رأوا أنهم أحيط بهم وسوف يقتلون بسيف علي عليه السلام وسيوف جيشه في النهروان عن آخرهم، فتركوهم يواجهون مصيرهم الأسود دون عون ومساعدة؟

وأقول جوابًا: إن جميع القراء ضمن هذا التنظيم وحشرهم مع جيش علي عليه السلام لم يكن عملاً اعتباطيًا، وإنما كان عملاً سياسيًا فريدًا اعتمد على تجميع نماذج من المسلمين الأكثر التصاقًا بحرفية العقيدة، السادرين في فهم العقيدة فهمًا نمطيًا محاكياتيًا بعيدا عن التجديد، من الذين يربطهم مع بعضهم كرههم الخضوع للسلطان والحكم المركزي

(١) ينظر تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٩٠

بسبب تجلي النزعة القبليّة في مبادئهم السياسية^(١)، وكرههم لتسلط قريش دون غيرها عليهم، وكانوا يناضلون للتخلص من الحكم القرشي. والظاهر أنّ العقل السياسي العربيّ رصد فيهم هذه النزعة ونجح في توظيفها، لتقديمهم إلى المحرقة في الوقت المناسب بعد أن يزجّ بهم لأداء أحد الأدوار القذرة في المؤامرة، بما يضعهم بمواجهة قوات الخلافة لإضعافها، ثمّ التخلص منهم ومن المشاكل التي قد يثيرونها مستقبلاً؛ فالسياسيون لم يكن في نيتهم الاهتمام بالجوانب الدينيّة التي قد يدقق بشأنها مثل هؤلاء المترمتين.

طبيعة هؤلاء القراء النمطيين التقليديين المتمسكين بالقشور دون اللب؛ فضلاً عن كونها تدل على سذاجتهم وسهولة انقيادهم لمن يخدعهم، فهي تشبه شبهاً كبيراً طبيعة المسلمين المتطرفين المعاصرين، بل قد يكون هؤلاء حملة فكر من سبقهم من القراء، فأولئك بعد الحوار الذي أجراه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام معهم قبل أن يحاربهم وبعد أن ذكّرهم بالقرآن والسنة وحدودهما الصحيحة، أدركوا خطأهم (ورجع إليه منهم ألفان، وأقام أربعة آلاف لم يقنعوا برأيه)^(٢)، أما المعاصرون منهم بكلّ تشكيلاتهم (الجهاديّة والحديثيّة)؛ فلا يمكن إقناعهم أبداً!

أما مسألة تركهم ليموتوا بذلك الشكل المهين برغم كبر دورهم؛ فلا تقلّ أهميّة في نظر المتأمرين، ولا اختلافاً عن مسألة تقديم الخليفين عمر وعثمان إلى الموت، ولا تقلّ عن مسألة تقديم يعلى بن منيّة والأشعري إلى الموت، بل لا تقلّ عن زجّ الصحابين طلحة والزبير وعائشة في حرب خاسرة قبالة جيش الخلافة الذي يقوده عليّ بن أبي

طالب عليه السلام!

(١) ينظر: مقدمة في تأريخ صدر الإسلام، عبد العزيز الدوري، ص ٧٠.

(٢) مقدمة في تأريخ صدر الإسلام، الدوري، ص ١٩٣.

غريب أن تجد الدول العظمى التي ترعى الإرهاب اليوم تدعم الإرهابيين وتقوِّمهم لا لتغيير أنماط الحياة الإسلامية كما يظهر للعيان وإنما لتدميرها؛ سواء نجح الإرهابيون بذلك أم لم ينجحوا، فهي كما تقول في وصفها لجموع الإرهابيين: (خُلِقَ ليفنى) أي: خُلِقَ لأداء دور ما ينسب إليه، ولا فرق بين موته وحياته بعد ذلك، بل إن موته أفضل من بقاءه! ويتضح مما تقدم أن السياسيين كانوا قد أضمرُوا نية قتل كل من اعترض طريقهم، أو من جندوه لأداء واحدة من مهامهم كما قتلوا الزبير وطلحة وعشرات غيرهم. ولأن الإمام الحسن (عليه السلام) وقف بوجه مشرعوهم بقوة وصلابة حكموا عليه بالموت فحاصروه وهاجموه وضيقوا عليه، ثم قدموا له السم.

المرحلة الثالثة : تكميم الأفواه وتغيير الموروث

في هذه المرحلة المتقدمة بدأ التفكير الجدي والعمل الحقيقي لقطع كل ما يتصل بعقب النبوة مع الحياة العامة؛ بدأ من التآمر لقتل علي عليه السلام غيلة وختلا، وهو ما تحقق لهم على يد صنيعتهم وخادمهم ابن ملجم، وصولاً إلى تغييب فضائل الإمام عليه السلام ونسبة ما ليس فيه إليه لتشويه صورته أمام الناس، وختماً بسبه على المنابر في مساجد الإسلام^(١)

سب الإمام علي

السياسة التي اتبعها الأمويون أدت إلى قتل الإمام علي عليه السلام، وما تلاها من طرائق معاملة الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان للمتشيّعين وعسفه بهم ولاسيما بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام تحديداً واحدة من المثالب الكبيرة التي تؤخذ على السياسيين، وقد أسهب الطبري في الحديث عن نقض معاوية لبنود الصلح مع الحسن عليه السلام وكيف تسبب هذا النقض في إيذاء أهل البيت عليهم السلام والمتشيّعين لهم ومعاقتهم؛ ومما قاله: «ولم يكتفِ

(١) عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الله الجدي، قال: دخلت على أم سلمة، فقالت: أيسب رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم؟ قلت: سبحان الله أو معاذ الله قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من سب علياً فقد سبني) ولأهمية هذا الحديث لا بأس بإيراد أقوال علماء الجرح والتعديل التي أوردها المحقق في هامش الصفحة عنه؛ قال: أبو عبد الله الجدي وثقه أحمد وابن معين وغيرهما. والحديث أخرجه أحمد (٣٢٣/٦) والحاكم (١٢١/٣) من طريق يحيى بن أبي بكير بإسناده سواء. قال الحاكم: إسناده صحيح ووافقه الذهبي. أخرجه الطبراني في الصغير (٢/٢١) من طريق عيسى بن عبد الرحمن السلمي عن السدي. ينظر: تهذيب خصائص الإمام علي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي، ص

معاوية بهذا وإنما نقض الشرط الآخر وهو أن لا يسيء إلى أصحاب الحسن عليه السلام. فأمر معاوية عماله: أن لا يجيزوا لأحد من شيعة عليٍّ وأهل بيته شهادة، وأمر بحرمان كلٍّ من عرف منه موالاة عليٍّ من العطاء وإسقاطه من الديوان والتكليف به وهدم داره^(١) كما وذكر المؤرخان الطبري واليعقوبي والنَّصَّ لليعقوبي أن معاوية أمر بلعن عليٍّ عليه السلام على المنابر^(٢).

ولم يكن السب سرياً أو مقتصرًا على الخاصة بل صار من وجوبيات أداء السنن التعبدية، وقد روى ابن أبي الحديد المعتزلي أن منادٍ معاوية نادى، وكتب إلى عماله: «ألا برئت الذمة ممن روى حديثاً في مناقب عليٍّ وأهل بيته وقامت الخطباء في كلِّ كورة ومكان على المنابر بلعن عليٍّ بن أبي طالب والبراءة منه»^(٣) حتى تحول سب أول الناس إسلاماً وأصدقهم إيماناً إلى شعار سياسي، حيث روى اليعقوبي أن شعار الأمويين كان (لا صلاة إلا بلعن أبي تراب)^(٤) وقد تعرض أتباع عليٍّ عليه السلام تحت هذا الشعار إلى أنواع الاضطهاد والتكليف. وأجد أن استساغة التطاول على القمة العلوية الباسقة يحتاج إلى جرأة كبيرة وثقافة من نوع خاص غير مألوفة في ذلك المجتمع، وقد يسأل البعض عن مصادر الثقافة السياسية للدينويين التي أباحت لهم ارتكاب هذه الموبقة وهذا التطاول، فأقول جواباً:

لقد أفاد السياسيون من المناصب التي حصلوا عليها في حكومة الخليفة عثمان بن عفان كثيراً حتى أنها إفادتهم في تنمية فكرهم السياسي وطورته وأضافت إليه خبرات

(١) ينظر: تأريخ الطبري، أيام معاوية بن أبي سفيان، ص ٢١٦ فصاعداً.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، ج ٣ ص ١٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٥.

عملية مكتسبة عن طريق التجريب والتجديد ساعدتهم بعد حين في دعم موقفهم عندما وظفوها في صراعهم مع علي والحسن عليهما السلام، فضلا عن طول المدة التي قضوها في الشام مجاورين للروم ودولتهم وحضارتهم، ومن المعروف أنه وفق مفهوم التناقل الثقافي أو المناقلة الثقافية حدث وأن انتقلت بعض عادات وقيم وثقافات الروم إلى المناطق الأخرى التي حكموها مثل الرقعة الجغرافية الشامية التي كانت تحت سيطرتهم، فضلا عن المناطق الأخرى المجاورة لهم مثل المناطق التي قامت عليها الشام التي وُلِّيَ عليها يزيد بن أبي سفيان وتلاه معاوية.

ثم إن التناقل لم يحدث على مستوى المجتمعات فحسب ويقتصر عليها، بل حدث أيضا على مستوى الأفراد والفئات المتنفذة في ذلك المجتمع ولاسيما وأن المتنفذين كانوا على اتصال دائم بأباطرة الروم كما في القصة التي نتحدث عن محاورة أبي سفيان للإمبراطور الروماني وحديثهم عن النبي الجديد، والرواية أخرجها الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس تحت عنوان (حديث هرقل ملك الروم مع أبي سفيان بن حرب)^(١) فمن المتعارف عليه: «إن الحضارات تفتقر إلى تخوم محددة بدقة؛ وهي تعبر الحدود السياسية وتتمدد فوق فضاءات يكاد يتعذر تحديدها بسهولة، تشكل الحضارات نوعا من البنية الاجتماعية التي تحتضن عددا من الأمم والأقوام المختلفة»^(٢)

والسياسيون بحكم هذه الخبرة المتراكمة وهذا الوعي السياسي المتطور تحولوا إلى حيتان سياسية لا تدانيها حيتان الوقت الراهن في الخبث والدناءة والغدر والخداع، ولذا تجدهم ينتصرون ويحكمون ويظلمون، وتجد قصصهم تملأ كتب التاريخ والسيرة،

(١) المعجم الكبير، الطبراني، ج ٢٤، ص ٢٣٤-٢٣٧.

(٢) الحضارات في السياسة العالمية، بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٣٨٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٢، ص ٣٢.

ولاسيما وأنهم لم يكونوا يأبهون لحدود الشريعة وأوامر الرسالة وأخلاق الدين، وهي المحاور التي أكد عليها الدينيون وتمسكوا بها في صراعهم مع السياسيين. وكما تطرد العملة السيئة العملة النظيفة؛ كذلك طردت السياسة الرديئة سياسة الحق وزوتها بركن ضيق. ومن هنا كان صراعهم مع الدينيين غير متكافئ لأن إحدى كفتيه تأنف عن كل ما يسىء إلى إنسانية الإنسان، والكفة الأخرى مملوءة بأنواع الدناءة والقدارة والخبث لدرجة أنها لا تلتفت إلى الإنسان إلا حينما تريد أن تحوله إلى حطب تشعله لتستنير بضوءه في حفلاتها الوحشية. فهل كانت للإمام الحسن عليه السلام قدرة المغامرة بالإسلام والمذهب وكل ما تحقق لحد تلك الساعة بخوض نزال مع هذه المجموعة الشرسة التي تحد الأمة كلها وجعلت من سب الإمام علي عليه السلام شعارا لها وسنة في عباداتها؟

وبعد الحديث المسهب عن أنماط السياسة العربية الإسلامية ورؤاها وحركاتها والنتائج التي حققتها في مسيرتها الطويلة ينبغي التحدث عن أنموذجات من السياسيين الذين كانوا أبرز من غيرهم في هذا المضمار، وقد اخترت هذه الشخصيات من بين كم كبير جدا من السياسيين الذين كان زعيقهم يملأ ساحة الإسلام بالضوضاء.

الفصل الرابع

أنموذجات سياسية في تاريخ العرب

أنموذجات سياسية في تاريخ العرب

حفل المجتمع الإسلامي الأول بأنموذجات سياسية قديرة ومتمكنة ولكنها لم تُحَصَّ بفرصة دراسة هذا الجانب فيها بعد أن انطوت شخصياتهم على أنماط مختلفة من السلوكيات كالمخادعة والتلون وغير ذلك، فضلا عن التمظهر بمظهر المتدينين الذي طغى على المظاهر الأخرى. ومن هؤلاء السياسيين المقتدرين: معاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص وقد دُرست سيرهم ونشاطاتهم بكثرة، ولذا لن أطيل الحديث عنهم لأتفرغ للكلام عن البعض الآخر ممن لم يُحَصَّ بفرصة للانتشار الكبير كما حصل للنخبة، ومن هؤلاء السياسيين الثانويين:

المغيرة بن شعبة

سياسي على قدر كبير من الذكاء مهد وخطط لقتل الخليفة عمر بن الخطاب وخاض الحراك السياسي إلى آخر يوم من عمره، كان هو ومروان من أكثر المتآمرين علانية وظهورا وإسهاما في الأحداث، وفي معركة الجمل حاول مروان زرع عدم الثقة بين رؤوس جيش الجمل كما سيرد في الحديث عنه، وقام المغيرة بنفس الدور ولكن بشكل آخر حيث أمر ثقيفا قومه بالرجوع والتخلي عن أهل الجمل ليس حبا بعلي عليه السلام ولا خشية من الله سبحانه، بل لإضعاف قوتهم التي رأى فيها تهديدا للمشروع السياسي التأمري الكبير، وقال لهم: «من كان ههنا من ثقيف فليرجع، فرجع»^(١) ظنا منه أنه بعمله ذاك يخذل أهل الجمل ويورطهم. وقبل ذلك أوكل إليه السياسيون الكبار مهمة

(١) ينظر: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١٧٩.

قتل الخليفة عمر؛ وهي المهمة التي نجح فيها نجاحا باهرا أذهل الجميع.

وقد أورد ابن هلال الثقفي في الغارات: «عن علي بن النعمان، قال: قال علي عليه السلام: لئن ملكت لأرمينه بأحجاره يعني المغيرة، وكان ينتقص عليا»^(١)

وعن جندب بن عبد الله قال: ذُكِرَ المغيرة بن شعبة عند علي عليه السلام وجدّه مع معاوية فقال: «وما المغيرة إنما كان إسلامه لفجرة وغدرة لمطمئنين إليه وركبها منهم فأتى النبي صلّى الله عليه وآله كالعائد بالإسلام، والله ما رأى أحد عليه منذ ادعى الإسلام خضوعا ولا خشوعا»^(٢) ومن جرائم المغيرة بن شعبة الكبيرة والمفضوحة التي تم التستر عليها بفعل السياسيين أنفسهم كانت جريمة قتل الخليفة عمر بن الخطاب.

قتل الخليفة عمر

إنّ عملية إدخال أبي لؤلؤة فيروز إلى المدينة كانت أولى خطوات تنفيذ مؤامرة مبيتة! فالمعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد منع دخول الأعاجم إلى عاصمة الإسلام بعد توليه الخلافة، وهناك روايات كثيرة تقول: إنه كان كثير التشدد بشأن دخول الأعاجم إلى المدينة؛ كما نقل الدكتور أحمد صبحي داود عن ابن سعد: «ويقول ابن سعد: إنّ عمر كان لا يأذن للسبي من الأسرى من الرجال بدخول المدينة، واستأذن المغيرة بن شعبة حتى سمح عمر بأن يأتي للمدينة أبو لؤلؤة فيروز المجوسي، وكان من سبي نهاوند، وفي النهاية قتل عمر انتقاماً»^(٣).

وكان عمر قد أصدر مرسوما بهذا المنع جاء فيه: «لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً

(١) الغارات، أبو إسحاق بن محمد بن سعيد بن هلال المعروف بابن هلال الثقفي، ص ٣٥٣

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

(٣) المسكوت عنه في سيرة عمر بن الخطاب في الفكر السني، أحمد صبحي منصور، ص ٥.

جرت عليه المواسي»^(١) وهو الخبر الذي قال عنه السيوطي في تاريخه: «قال الزهري: كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة»^(٢) ولكن المغيرة السياسي النافذ بما معروف عنه من مكر ودهاء نجح باستحصال موافقة عمر بعد أن أغراه بالخبرات التي يمتلكها أبو لؤلؤة. وقد أشار المسعودي في موجه إلى هذا المكر بقوله: «وكان عمر لا يترك أحدًا من العجم يدخل المدينة، فكتب إليه المغيرة بن شعبة: إن عندي غلامًا نقاشًا نجارًا حدادًا فيه منافع لأهل المدينة، فإن رأيت أن تأذن لي في الإرسال به فعلت، فأذن له»^(٣)

ولكن لا عمر ولا أي من المحيطين به انتبهوا إلى مخاطر استثناء أبي لؤلؤة من أمر المنع والأسباب الكامنة وراء طلب المغيرة بإدخاله إلى المدينة إلا بعد فوات الأوان، ولذا نرى عمرا بعد أن طعنه أبو لؤلؤة يأسف على تهاونه بهذا الشأن ويقول مقولته المشهورة: «ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحدًا، فغلبتموني»^(٤).

إن ربط مقتل عمر بدوافع سياسية عربية أمر لا يمكن نكرانه أو تجاهله ولذا تجد على مر التاريخ من يشكك في الأقوال التي تحدثت عن الدوافع التافهة الأخرى التي قالوا أنها جعلت أبا لؤلؤة يقتل عمر؛ ومن هؤلاء حسن عبد الله الذي قال: «ويفيق الناس من هول الصدمة فإذا هم يتساءلون: من قتل عمر؟ أيقته أبو لؤلؤة، لأنه لم يرفع عنه بعض ما فرضه عليه صاحبه المغيرة بن شعبة من ضريبة؟ أيسلح هذا سببًا؟»^(٥)

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ص ١٣٣.

(٣) مروج الذهب، المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٤) طبقات ابن سعد، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٥) الاغتيالات في الإسلام، ص ٤٥.

كذلك لم يقتنع إبراهيم بيضون بالأسباب التي اعتبروها دافعا لقتل الخليفة وقال: «في حال انتفاء الدافع الشخصي الساذج، ومعه الدافع القومي الأكثر سذاجة، يبقى الافتراض الواقعي هو أن تكون للقضية خلفيّة سياسيّة فقد لا يكون بعيداً عن الاحتمال وجود مؤامرة محبوكة الخيوط».^(١)

إن اقتراح المغيرة على عمر أن يولي ابنه عبد الله بدلا منه؛ بل الإلحاح والترغيب بضرورة تولية عبد الله على بساطته وقلة علمه وسهولة خداعه وتسييره من قبل السياسيين؛ يكشف أن المغيرة الذي أدخل القاتل إلى المدينة كان واحداً من المتآمرين، وأنه كان يروم الاستعجال بحسم الأمر بأسرع وقت وبشكل قانوني؛ لكي لا يثير الشبهات؛ فلما أفشل عمر مخططهم لجأوا إلى القتل وأعدوا شخصا آخر ليتولى القيادة لا يختلف كثيرا عن ابن عمر.

إن المغيرة بن شعبة شخصية مركبة فيها الكثير من المفاجآت، ولما تقدم به العمر دون أن يحظى بمنصب رسمي رفيع يبيح له التمتع بالحياة استغل مقتل الإمام عليّ وصلاح الإمام الحسن عليه السلام والفوضى التي نشبت في أثناء هذه المرحلة لينصب نفسه أميراً للحجّ من دون أمر رسمي كما كان متبعاً، فقد روى ابن الأثير عن حوادث السنة الأربعين للهجرة: «حجّ بالناس هذه السنة المغيرة بن شعبة واقتعل (أي: زيف) كتاباً على لسان معاوية، فيقال: إنه عرف (أي: وقف في شعيرة عرفة) يوم التروية، ونحر يوم عرفة خوفاً أن يُفطن لفعله، لأنه بلغه أن عتبة بن أبي سفيان مصبّحه والياً على الموسم، فعبّل الحجّ من أجل ذلك»^(٢) هذا العمل بحدّ ذاته يدلّ على أمرين مهمين:

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، مصدر سابق، ص ٩٨.

(٢) ينظر: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥١.

الأول: أن الرجل كان يعدّ نفسه حتى تلك الساعة من المشاركين الفعلين بالمؤامرة، وانه كغيره من أولئك السياسيين الجامحين كان مستعداً للتضحية بموسم الحج وتخريب شعائره من أجل الإمرة والسلطة.

الثاني: أن كل السياسيين كانوا يتهاونون بشأن الدين ولا يعيرونه أهمية تُذكر.

وقبل هذه المجازفة الفاشلة كان المغيرة قد استغل تعيين عمر والياً جديداً على الكوفة ليكذب حتى يحصل عليها بدلاً منه، وتقول القصة: «ولى عمر جبير بن مطعم على الكوفة، فمكر به المغيرة وحمل خبراً إلى عمر وقال له: «ولني يا أمير المؤمنين مكانه؟ قال: أنت رجل فاسق! قال: وما عليك مني؟ كفايتي ورجلتي لك، وفسقي على نفسي، فولاه الكوفة»^(١).

كان المغيرة والسياسيون الآخرون يتدخلون حتى في صفائر الأمور للحصول على المعلومة التي تخدمهم، حتى أنهم يوم الشورى وبعد أن جمع المقداد أهل الشورى وأمر طلحة أن يحجبهم؛ جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما؛ أي: طردهما.^(٢)

ثم لما أعطاهما عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان وحرفها عن علي رضي الله عنه نجد المغيرة يأتي مسرعاً لتهنئة عبد الرحمن بن عوف على اختيار عثمان، وترك علي: «وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمد قد أصبت أن بايعت عثمان، وقال لعثمان: ولو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا! فقال عبد الرحمن: كذبت يا أعور (المغيرة كان فعلاً أعوراً) لو

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ١٥٥.

(٢) ينظر: الكامل، مجلد ٣، ص ٥٦.

بايعت غيره لبايعته، ولقلت هذه المقالة»^(١).

وبعد موت عتبة بن غزوان عيّنه عمر والياً على البصرة فأنشأ علاقات دينية وعشرة مربية مع مجموعة من نساء المجتمع البصري، منهن واحدة تكشفت علاقته معها للناس، قال عنها المسعودي: «وكان يختلف إلى امرأة من بني هلال يقال لها أم جميل زوجة الحجاج بن عتيك الثقفي... فعزله عمر وبعث أبا موسى الأشعريّ عاملاً مكانه»^(٢).

هذا المغيرة لم يتهاون في الدين فقط بل تهاون في أمور المسلمين أيضاً، فهو حينما ولاه معاوية الكوفة سنة ٤٢ هجرية لم يحسن العمل فأراد معاوية عزله، فلما سمع الخبر أسرع بالذهاب إلى الشام، فأغضب قدومه معاوية أكثر من قبل، وقال له: ما أقدمك يا مغيرة، تركت العمل، وأخللت بالمصر، وأهل العراق هم أسرع شيء إلى الفتن؟ فاعتذر وأراد تفادي غضب معاوية فقال: إني جئتكم بأمر يخصكم فأنا أخبرت الكوفيين أنك بايعت لابنك يزيد ففرحوا واستحسنوا العمل، فأعجب ذلك معاوية، وأقره والياً على الكوفة، ولم يعزله. ولما خرج المغيرة من عنده قال لكاثبه الذي كان قد فارقه؛ لأنه عرف أنه سيُعزل، ثم عاد إليه بعد أن سمع بإعادته إلى الوظيفة: «ارجع بنا إلى الكوفة، فوالله لقد وضعت رجل معاوية في غرز لا يخرجها منه إلا سفك الدماء»^(٣).

وقد استغل منصبه هذا للولوغ في دماء المسلمين وزرع الفرقة بينهم؛ يقول (كارل بروكلمان): «فلما وُلِّي الكوفة جعل همه أن يفسد بدهاء بارع بين الخوارج، وأتباع عليٍّ من

(١) الكامل في التاريخ، ص ٥٩.

(٢) مروج الذهب، ص ١٤٦.

(٣) ينظر: تأريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٠.

الشيعية، وبذلك استطاع أن يشغل الكوفيين عن معارضة معاوية»^(١).

وقد كان للمغيرة دورٌ تحريبيٌّ كبيرٌ في النزاع بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، كان إلى جنب معاوية خادما مخلصا، وكان شديدا على الإمام الحسن عليه السلام وأصحابه، وقد وُظِّفَ كل خبراته لكي يفشل المشروع الحسني. وفي سنة خمسين للهجرة كان المغيرة في الكوفة التي ضربها مرض الطاعون فهرب منها، وحينما زال الخطر عاد إليها، وكان الموت له بالمرصاد، فطعنَ فمات^(٢).

مروان بن الحكم

السياسي الذي مهد وخطط لقتل ابن عمه الخليفة عثمان بن عفان بدم بارد ومكر كبير. وكانت لهذا السياسي النشيط مواقف كبيرة خدمت الخط السياسي ثم أوصلته إلى كرسي الحكم.

إن قتل مروان بن الحكم لطلحة في معركة الجمل يبدو من اكبر المؤشرات على أنه احد أهم السياسيين المعارضين لنهج الإسلام، أما قيامه بزرع الفرقة بين قادة جيش الجمل فأكبر دليل على تأمره. كانت غاية مروان من عمله ذاك دفع أقطاب قيادة معسكر الجمل إلى التقاتل فيما بينهم في سبيل كرسي الحكم؛ إذا ما كُتِبَ لهم الانتصار في هذه المنازلة، فبعد خروج جيش الجمل جاءهم مروان حتى وقف على طلحة والزبير وأبنائهم محمد وعبد الله، فسأل بخبث ودهاء ومكر سياسي: على أيكما أسلم بالإمرة، وأؤذن بالصلاة؟

فقال عبد الله بن الزبير: طبعًا على أبي الزبير، وهو يرى أباه أحقَّ بها من غيره!

(١) تأريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص ١٤٦.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، ٣/ ٤٠٣.

وقال محمد بن طلحة: على والدي طلحة، وهو يرى أباه هو من يستحقها!
فأرسلت عائشة إلى مروان وكانت قد انتبعت إلى لعبته الدنيئة، فقالت له زاجرة:
أتريد أن تفرق أمرنا؟

والظاهر أن بذور هذه المكيدة السياسية المحكمة والجادة، وجدت أرضاً خصبة
نمت فيها فأينعت أوراقها وأثمرت أشجارها، إذ يروي اليعقوبي أن قادة جيش الحمل
بعدما خدعوا عامل عليّ (عليه السلام) على البصرة عثمان بن حنيف^(١)؛ فبغته بعد التفاوض معه
والاتفاق على انتظار قدوم عليّ (عليه السلام) إليهم، فألقوا القبض عليه ومنتفوا شعر رأسه ولحيته،
وأرسلوه إلى عليّ (عليه السلام)، واستولوا على ما في بيت مال البصرة وانتهبوه وقتلوا من قتلوا من
أهل البصرة، دبّ الخلاف بينهم عند حلول وقت الصلاة بوحي من ذلك المكر المرواني:
«فلما حضرت الصلاة تنازع طلحة والزبير وجذب كل واحد منهما صاحبه حتى فات
وقت الصلاة، وصاح الناس: الصلاة، الصلاة يا أصحاب محمد! فقالت عائشة: يصلي
محمد بن طلحة يوماً وعبد الله بن الزبير يوماً»^(٢).

كان المتآمرون يستغلون أيّ فرصة متاحة لخلق مشكلة قد تقود المسلمين أو
المتنازعين إلى القتال فيما بينهم، حتى أن الروايات تتحدث عن أحداث تأريخ متأخر
عن تلك الحقب، تعود إلى أيام الإمام الحسن (عليه السلام) حدثت فيه مشادة مختلفة، اختلقها بطل
التآمر مروان بن الحكم ليجرّ المسلمين إلى قتال يفضي بعد حين إلى استيلاء الأمويين
بشكل كامل على الدين بعد أن استولوا على السلطة، وهي قضية دفن الإمام الحسن (عليه السلام)

(١) عثمان بن حنيف الأوسي الأنصاري كان عاملاً لعمر بن الخطاب على العراق، وكان عاملاً
لعلي على البصرة وهو أخو سهل بن حنيف، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد مع النبي (صلى الله عليه وآله) وله رواية=
عنه.

(٢) (٢) تأريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٠.

التي سنناقشها لاحقاً.

كان مروان يقتنص الفرص ليؤكد للأمويين صدق إخلاصه ونزعتة وعصبية من خلال إظهار نفسه محباً للخليفة المغدور عثمان بن عفان الذي أصبح مقتله شعاراً يرفع لتأكيد الولاء المطلق للنزعة الأموية، ولذا تراه يعيد تمثيل هذه المسرحية حتى وهو والٍ على المدينة للتذكير بأنه ما زال مخلصاً للخليفة ومعادياً لأعدائه، و متمسكاً بروح ثورية أموية مناصرة للخط الأموي، حتى ولو كان في ذلك السلوك ما يخالف سنة النبي ﷺ، إذ أخرج ابن شيبه النميري عن شيخ من بني مخزوم يدعى عمر، قال: «كان عثمان بن مظعون ﷺ من أول من مات من المهاجرين فقالوا: يا رسول الله أين ندفنه؟ قال: بالبقيع، قال: فلحد له النبي ﷺ، وفضل حجر من حجارة لحدّه، فحمّله النبي فوضعه عند رجله، فلما وُلِّي مروان بن الحكم المدينة مرّ على ذلك الحجر، فأمر به فُرْمِيَ به وقال: والله لا يكون على قبر عثمان بن مظعون حجر يُعرَف به، فأنته بنو أمية فقالوا: بئس ما صنعت؟ أعمدت إلى حجر وضعه النبي ﷺ فرميت به؟ بئس ما عملت به؛ فأمر به فليُرَد! قال: أما والله إذ رميت به؛ فلا يُرد^(١)»

كان مروان بن الحكم وأبوه طريدي رسول الله ﷺ، حيث أسلم أبوه بعد الفتح، ونفاه الرسول من المدينة لسوء خلقه، ومع ذلك عدّه ابن حجر من الصحابة، صحيح أنه قال: «فلم يثبت له أزيد من الرؤية»^(٢)، ولكنه لا ينفي عنه الصحبة المزعومة!!

وكان مروان يرى نفسه مقدّمًا على غيره ويسعى إلى أن يشرك نفسه في كلّ حادثة وحديث لكي يثبت صحة هذا الاعتقاد لغيره أيضًا، يُروى أن معاوية لما طلب عمرو بن

(١) معاوية، عبد الباقي قرنه الجزائري، ص ٥٩ عن تاريخ المدينة لابن شيبه النميري ١ / ١٠١.

(٢) الاصابة، ابن حجر، المجلد ٣، ص ١٨٠٨، رقم ٧٩١٦، وص ١٩٠٨، رقم ٨٣٢١.

العاص إليه بعد وقعة الجمل وتشاور معه وطلب منه التعاون، وبعد التفاوض أعطاه مصر طعمة مقابل الرضوخ لأمره، غضب مروان غضباً شديداً؛ لأنّ معاوية قدمه عليه وقال: «مالي لا أُستشار؟ فقال معاوية: اسكت؛ فإنها يُستشار بك»^(١)

وما أريد قوله بصدد تأمر مروان بن الحكم المستمر: أنه كان حتى في أحلامه ومناماته يفكر بالسلطة التي يسعى إلى الحصول عليها ونيلها، وأن ابنه عبد الملك كان متيماً بهذا النهج حتى قيّض له النزول على منبر رسول الله ﷺ، ثم لما آلت إليه بدأ يفكر ويتأمر لعزل الأمويين كلّهم وتنصيب أولاده الأربعة؛ ليقودوا رقاب المسلمين، ومناماته لم تكن مثل منامات من رأى في عالم الرؤيا أنّ شمساً كذا وكذا بل كانت عن طريق التبول في المحراب الذي يؤدّى فيه الصلوات؛ ومن ذلك ما ذكره السيوطي «عن مصعب الزبيري قال: رأى عبد الملك بن مروان أنه بال في المحراب أربع مرّات، فسأل سعيد بن المسيب؟ فقال: يملك من ولده لصلبه أربعة»^(٢).

وُلِدَ مروان في السنة الثانية للهجرة وقيل في السنة الثالثة وقيل في الرابعة، ونفاه رسول الله ﷺ يوم نفى والده الحكم الذي كان يختلج في مشيته مقلداً رسول الله ﷺ استهزاءً فدعا عليه النبي ﷺ بقوله: «كن كذلك فما زال كذلك حتى مات». وكان عثمان بن عفان قد توسط عند أبي بكر بعد موت النبي ﷺ؛ ليسمح للحكم وولده مروان بالعودة إلى المدينة، فرفض، ثم في عهد عمر توسط في ذلك؛ فرفض عمر الموافقة. وقد رُوِيَ أخبار كثيرة في لعنه ولعن من في صلبه، أي: أولاده وعلى رأسهم مروان!

كان المسلمون يلقبون مروان وأبناءه من بعده بـ (بني الزرقاء) ذمّاً لهم، يقصدون

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٨٦.

(٢) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٢٤٧.

(الزرقاء بنت موهب) جدّة مروان لأبيه وكانت من ذوات الرايات الحمر (البغايا) التي يستدلّ بها على ثبوت البغاء^(١)، ثمّ شاءت الصدفة أن يحكم أبناؤها وأحفادها العالم الإسلاميّ بعد أن مهد لهم مروان والمغيرة الطريق!! وقد تكون هذه صفة لازمة لخلفاء بني أمية؛ إذ هناك أكثر من رواية تؤكد أن حمّامة جدّة معاوية، وأمه هند كانتا من ذوات الرايات الحمر؛ ويحكى أن عقيلاً دخل على معاوية وعنده جماعة من أصحابه فكلّموه، فطعن في نسب كل منهم، فقال له معاوية: قل فيّ شيئاً لأساوي أصحابي فقال: أعفني، فقال معاوية: لا بد من ذلك، فقال: خل عني يا معاوية، فقال: ليس إلى ذلك من سبيل حتى أساوي أصحابي، فقال عقيل: أتعرف حمّامة؟ قال: ومن حمّامة، قال: قد قلت لك، فاطلب من يخبرك عنها، وخرج من عندهم، فطلب معاوية عجوزاً كانت قد أدركت الجاهلية وسألها عن حمّامة فقالت: لي الأمان إن أخبرتك؟ قال: لك الأمان، قالت: إن حمّامة أهدى جداتك وكانت من ذوات الرايات في الجاهلية وكانت الناس تهتدي برايتها، فالتفت معاوية إلى أصحابه، وقال: أبشروا فقد ساويتكم. وقد أورد المؤرخون عن أخبار هند بنت عتبة أم معاوية الشيء الكثير، وتجذ في كتاب التميمي المغربي قصصاً كثيرة.^(٢)

ويبدو أن مروان بن الحكم كان في كلّ المراحل الحاسمة من أبرز وجوه التأمّر وأكثرها حراكاً، وعليه أجد أنّ أفضل وصف وُصِفَ به شيخ المتأمّرين مروان بن الحكم ثلاثة أقوال لكتاب معاصرين من مدرسة الخلفاء:

الأول: قول حسن عبد الله: «كان مروان بن الحكم أمويّاً قد أنسته أمويّته كلّ شيء

(١) ينظر: الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٦٢٢-٦٢٣.

(٢) المناقب والمثالب، القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت ٣٦٣هـ) تحقيق

ماجد بن احمد العطية، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٢٤٣.

حتى دينه»^(١).

الثاني: قول الدكتور خالد العسلي: «إنّ بروز مروان في معركة الجمل بالذات ورميه طلحة بن عبيد الله بسهم سبب وفاته ينبئ بما في نفسه من طموح للخلافة وتطلع للوصول إلى الحكم»^(٢).

الثالث: قول أحمد أمين: «وكان كاتبه (أي: كاتب عثمان) وأمين سرّه مروان بن الحكم الأمويّ، ومروان هذا وشيعته هدموا كلّ ما بناه الإسلام من قبل ودعّمه أبو بكر وعمر من محاربة العصبيّة القبليّة»^(٣).

في أثناء كلّ تلك التواريخ كان مروان موعلاً في التآمر ولا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحقيقة ولاسيّما أنه كان في زمن معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد يرى نفسه سيّداً وشيخاً لأُمّية كلّها، حتى أنّه لما أخرج أهل المدينة عثمان بن محمّد بن أبي سفيان والي يزيد منها اجتمع بنو أمّية ومواليهم ومن يرى رأيهم ونزلوا في داره^(٤) أما هو فأخذ نساءه وأودعهنّ عند عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وكان معاوية السياسي الداهية قد تطلع مروان للإمرة والخلافة، وكان يريد إرضاء بها يسكته، أو يدفعه إلى عدم إثارة المشاكل؛ فعمد إلى توليته البحرين، ثمّ عزله عنها، وولاه المدينة أكثر من مرّة؛ ومع إن (إسناد إمارة المدينة لأُمويّ تفرضه ظروف معاوية، ولكن لخوف معاوية من تقوية مروان كان يلجأ إلى إبداله بأُمويّ آخر)^(٥).

(١) الاغتيالات في الإسلام، ص ١٠٥.

(٢) دراسات في تاريخ العربي، الدكتور خالد العسلي، ص ١٩٢.

(٣) فجر الإسلام، أحمد أمين، ج ١، ص ٣١١.

(٤) الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ٥٥٦.

(٥) دراسات في تاريخ العرب، خالد العسلي، ص ١٩٢.

ومن المعروف والمؤكد عن مروان بن الحكم أنه خلال عمره كله كان يكره أهل البيت ولا سيما عليا والحسين (عليه السلام)، وهناك عشرات بل مئات النقول التي تثبت بغضه وكرهه لهما؛ بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث كان يعيب على من يحب عليا والحسين (عليه السلام)، ويعتبر حبه منقصة، ومنها أنه كان يعيب على أبي هريرة حبه للحسين (عليه السلام) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في معجمه وابن عساكر في تاريخه عن إسحاق بن أبي حبيبة: «أن مروان بن الحكم أتى أبا هريرة في مرضه الذي مات فيه، فقال مروان لأبي هريرة: ما وجدت عليك^(١) في شيء منذ اصطحبنا؛ إلا في حبك الحسن والحسين». (٢)

ومن المعلوم والمتعارف عليه بين المسلمين أيضا أن بغض الحسين (عليه السلام) كفر بواح، ومن يبغضهما يدخل النار رغم أنفه، ولكن مروان استهان بكل التحذيرات التي أطلقها النبي ﷺ بوجه من يفكر مجرد تفكير أن يكرههما، وفيما أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر والحاكم في المستدرک على شرط البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبته ومن أحبته أحبه الله ومن أحبه الله أدخله جنات النعيم ومن أبغضهما أو بغى عليهما أبغضته ومن أبغضته أبغضه الله ومن أبغضه الله أدخله نار جهنم وله عذاب مقيم» (٣)

فضلا عن ذلك كان مروان عدوا مبغضا لعلي (عليه السلام)، والشواهد على ذلك كثيرة، وبغضه لعلي يقوده إلى ما لا تُحمد عقباه بلا جدال، حيث أخرج الطبراني في معجمه

(١) وجدت عليك: أي دخل في قلبي حقد أو وجد أو زعل أو غضب عليك.

(٢) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت،

١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م ص ٢٣.

(٣) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ٢٥.

والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن التي غرسها ربي فليوال عليا من بعدي وليوال وليه وليقتد بأهل بيتي من بعدي فإنهم عترتي خلقوا من طيتي ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي»^(١)

ومن ضمن نشاطاته السياسية أنه كان قد اعترض على بيعة يزيد بن معاوية، ثم نزل مدعناً، فهو لما بايع يزيد بن معاوية ولده معاوية الثاني للخلافة ثارت ثائرتة من جديد وهو يرى أمنيته تتلاشى وعمره يتقدم ويتبعده عن نيلها، فقرر التخلص من الخليفة الجديد، ومع أن سبب تنحي معاوية الثاني عن السلطة وانزوائه في بيته وموته في ريعان الشباب لم يَتمّ اللثام عنه بسبب تضارب الروايات في شأنه، وهناك من يدّعي أن مرضه أو زهده هو الذي دفعه إلى النزول عن العرش والانزواء، إلا أن تضارب الروايات بذاته يشير إلى وجود مؤامرة سياسية مدبرة كانت السبب في تنحيته، وأنه نُحّي قسراً وإكراهاً، وليس زهداً وتعبداً، بعد أن قُتل أو سُم على اختلاف الروايات؛ ومنها رواية المسعودي: «مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أنه طعن، ومنهم من رأى أنه سُقي السم وهو بعمر اثنين وعشرين»^(٢) ورواية الطبري في تأريخه: «إنه بويع سنة أربع وستين، فلم يمكث إلا أربعين يوماً حتى مات، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً» ثم قال في مكان آخر: «فلم يلبث إلا ثلاثة أشهر» وقال عوانة: «فلم يمكث إلا أربعين يوماً» وعن عمر بن علي بن محمد: «وبويع بدمشق، هلك بها بعد أربعين يوماً، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً»^(٣) وأكد الطبري الأقوال التي تناقلت خبر

(١) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ط ٢، ص ٥٩-٥٠.

(٢) مروج الذهب، المسعودي، ج ٢، ص ٥٧.

(٣) ينظر: تأريخ الطبري، ج ٣، ص ١٠٧١.

سمّه أو طعنه وقتله بحسب اختلاف الروايات.^(١)

هنا قد يقول قائل: إذا كان مروان يحمل كلّ هذا الشوق والتطلع للخلافة والإمرة فلم رفضها عندما جاءه (الحصين بن نمير) من حرب ابن الزبير في مكة وأخبره بخبر بيعة ابن الزبير، وطلب منه أن يتولاها، لكنه كان من رأيه أن ير حل إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة كما تقول الروايات؟

وهو سؤال مثير وممتع ومهم، ولكن يمكن أن تنظلي مثل هذه الأقوال على من لا يعرف مروان حق المعرفة، أما الذين يعرفونه فبالأكيد يعرفون سبب قوله هذا، ولا يستغربون منه، فالخبر أورده الطبري في تأريخه^(٢)، ولكن بما هو مشهور عن مروان من مواقف تدعو إلى ملك بني أمية عامة ورغبته في تولي الملك خاصة ما يتنافى وهذا الرأي؛ فمروان في موقفه من الثوار الذين حاصروا الخليفة عثمان تحدث عن ملك بني أمية وتوعد من يريد سلب هذا الملك منهم، والخبر سبق أن مرّ عليكم، كما دلت الآراء والروايات التي ذكرناها آنفاً على تلهفه للخلافة، وهذا الخبر حتى لو كان صحيحاً فإنه يدلّ على أن مروان إنما أراد من خلاله جسّ نبض الأمويين الذين كانوا يتنازعون الخلافة بينهم؛ قبل أن يقدّم على ترشيح نفسه، وكان يريد أن يوضح لهم أنهم يقفون على مفترق طريقين لا ثالث لهما، فإما أن يكون خليفتهم فيحتفظون بمراكزهم ومكاسبهم، وإما أن يتسلط عليهم عبد الله بن الزبير فيخلعهم من مناصبهم ومراكزهم ويوليها غيرهم.

ثم إن الأمصار كانت حينها قد بايعت ابن الزبير حيث بايعه أهل المدينة ومصر،

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٨٢.

(٢) تأريخ الطبري، ج ٣، ص ١٠٨٢.

وبايع (زفر بن الحارث الكلابي) بقنسرين في الشام، والنعمان بن بشير بحمص، و(ناتل بن قيس بن زنباع) في فلسطين، والضحاك بن قيس أصبح زبيري الهوى، ويدعو لابن الزبير بالخلافة في الشام نفسها، هؤلاء جميعاً كانوا من القوادر العسكريين المهمين الذين حاربوا في جيش معاوية، وأغاروا على ثغور الدولة العلوية وباقي أمصار الإسلام من قبل، ثم إن الكوفة كانت تحت إمرة مصعب بن الزبير^(١)، فرأى مروان أنه إذا فرض نفسه بالقوة وتولى الخلافة دون موافقة البيت الأموي؛ فإنه قد يخسر حربه مع أنصار ابن الزبير في الشام وفلسطين ومصر قبل أن يخسرها في لقاءه مع جيش ابن الزبير، ومن خلال طرحه لهذا الرأي السياسي الناهض كسب ودهم وأشركهم في مهمة الدفاع عن كرسيه دون أن يشعروا.

وبمكره وخبثه تمكن فعلاً من كسب ولائهم، وكان (روح بن زنباع الجذامي) أول المؤيدين لمروان، وهو الذي ردّ على من دعا لاستخلاف عبد الله بن عمر أو من دعا لاستخلاف ابن الزبير بالقول: «ولكن ابن عمر ضعيف وليس بصاحب أمة محمد الضعيف، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير... ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتي يزيد وابنه معاوية وسفك الدم وشق عصا المسلمين وليس صاحب أمة محمد المنافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدع إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل عليّ بن أبي طالب يوم الجمل، فأجمع رأي الناس على البيعة لمروان»^(٢) وهكذا تولاها مروان لكن بشروط ملزمة منها:

• أن يخلفه على العرش خالد بن يزيد بن معاوية، ويولي خالد عليها عمرو بن

(١) ينظر: تاريخ الطبري، ص ١٠٨٢-١٠٨٣.

(٢) ينظر: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٠٨٤.

سعيد بن العاص.

- على أن تكون إمارة دمشق في خلافته لعمر، وإمارة حمص لخالد.^(١)

ولكنه لم يلتزم بهذه الشروط وتخلّى عنها بعد أيام معدودات ليأخذ البيعة لولديه عبد الملك، ثمّ عبد العزيز بدلاً من خالد وعمر^(٢)، وكلّ ذلك يؤكد حبّه بل عشقه وهيامه بالخلافة التي انتظرها طويلاً.

في سنة أربع وستين للهجرة بويع له بالخلافة، ثمّ ما لبث في سنة خمس وستين أن أخذ البيعة لولديه عبد الملك وعبد العزيز^(٣)، ثمّ بعدها بقليل قُتل في العام نفسه بيد زوجته أمّ خالد بن يزيد بوسادة وضعتها على وجهه حتى قتلت^(٤)، وقيل إنه حكم مدة تسعة أشهر وقيل عشرة أشهر إلا ثلاث ليال^(٥)، وهي مدة لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تستحقّ كلّ ذلك العناء الكبير، وتلك المخالفات والعداوات التي أثارها، والدماء الغزيرة التي أسهم في سفكها!

وهو حتى في قضية موته بالطريقة التي تحدثت عنها الروايات التاريخية كان مثيراً للجدل والحيرة والشكّ الكبير، فأكثر من واحد من المؤرخين نسب موته إلى سفاهته وتسرع واستهتاره من جهة، وإلى مكر النساء وشدة حقدهنّ من جهة أخرى، وكما نقرأ في أكثر من مكان من كتب التاريخ التي تناولت حقبة حكم الأمويين أو التاريخ الإسلاميّ الأول. و كان الطبري ممّن تحدث عن موت مروان خنقاً بيد زوجته، فقال:

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ١٠٨٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١١١٣.

(٣) الكامل في التاريخ، مجلد ٣ ص ٦١٩.

(٤) الكامل في التاريخ، المجلد ٣، ص ٦٢١.

(٥) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١١١٣.

«لما حضرت معاوية بن يزيد الوفاة أبى أن يستخلف أحداً وكان حسان بن مالك بن بحدل يريد أن يجعل الأمر بعد معاوية لأخيه يزيد بن معاوية وكان صغيراً وهو (أي: حسان بن مالك) خال أبيه يزيد بن معاوية؛ فبايع مروان وهو يريد أن يجعل الأمر بعده لخالد... فلما بايع مروان وبايعه معه أهل الشام قيل لمروان: تزوج أم خالد.. حتى تصغر شأنه؛ فلا يطلب الخلافة فتزوّجها، فدخل خالد يوماً على مروان وعنده جماعة كثيرة وهو يمشي بين الصفيين؛ فقال: إنه والله ما علمت لأحمق، تعال يا ابن الرطبة الاست، يقصر به ليستقطه من أعين أهل الشام، فرجع إلى أمّه فأخبرها فقالت له أمّه: لا يُعرفنّ ذلك منك واسكت، فدخل عليها مروان فقال لها: هل قال لك خالد فيّ شيئاً؟ فقالت: وخالد يقول فيك شيئاً؟! خالد أشدّ لك إعظاماً من أن يقول فيك شيئاً. فصدقها، ثم مكثت أياماً. ثم أن مروان نام عندها فغطته بالوسادة حتى قتلتها»^(١)

وقد اعتمد أكثر الرواة على مضمون هذه الرواية الكاريكتيرية المضحكة، والتي تدلّ على استهانة بعض المؤرخين بحقائق تأريخنا الإسلاميّ الأول، واعتمدوها لرواية موت مروان، وإلا قل لي بربك إذا كان مروان خليفة وسلطاناً وملكاً ووالدًا لملوك أكبر إمبراطوريّة في العالم، فلم يقلل زواجه من أمّ خالد من شأنها؛ فيمنع ذلك خالد عن المطالبة بالخلافة التي هي استحقاقه بموجب الاتفاق بينهما؟ هذا في وقت يعتقد فيه العقلاء أنّ هذا الزواج بحدّ ذاته يتحول إلى عنصر دفع وتقوية لخالد ليطالب بالإمرة ويصبح أكثر استحقاقاً لها من غيره ولاسيما أنه موعود بتوليها، وهناك من يعاضده ويسانده لنيلها. أما الاعتقاد السائد والمرشح أكثر من غيره للقبول؛ فهو أنّ المتآمرين الجدد الذين هم أبناء المتآمرين الأوائل هم الذين قتلوا مروان!!

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١١٤١٣.

وأرى أنه ليس من المعقول أن تنتهي حياة مروان المليئة بالمؤامرات والشبق للإمرة بهذا الشكل المضحك دون أن يذكر أحد ماذا حلّ بأمّ خالد وكيف تصرف أولاد مروان معها بعد أن فتحت لهم الباب ليتسلطوا على رقاب الأمة؟

وقد أفرد الدكتور خالد العسلي قسمًا خاصًا في كتابه (دراسات في تاريخ العرب) للحديث عن مخططات مروان التي كان يسعى من خلالها إلى نيل الخلافة منها ما نقله عن الإمتاع للتوحيدى، وفيه: «وكان مروان إذا جرى بينه وبين معاوية كلام قال لمعاوية: والله إني لأبو عشرة، أخو عشرة، وعمّ عشرة، وما بقي إلا عشرة حتى يكون الأمر لي»^(١) يذكره برواية مستقبلية من أحاديث النبي ﷺ عن العدد الذي يصل إليه الأمويون فيستولون بعده على الحكم. وقد كانت هذه المعلومة من مدارات النزاع مع الإمام الحسن عليه السلام، فالإمام كان يعرف أنهم موعودون بالكرسي والإمرة، وهم كانوا يعرفون أنهم سيلون أمر الأمة وبين هذه وتلك كان مطلوبًا من الإمام الحسن عليه السلام أن يوازن ويرضي أمة اعتادت أن تضع أمام عينيها هدفًا واحدًا وتوقف نظرها عليه متجاهلة كل ما حوله.!

الأشعث بن قيس

وجه آخر من وجوه المتآمرين الكبار والسياسيين الصغار، نكرة دخل الإسلام متأخرًا بغدرة غدرها، وانخرط في العمل السياسي لتقويض الدين وتحريف الشريعة، له أكثر من جريمة تشترك كلها بدرجة الخبث الكبير؛ لدرجة أن الخليفة أبا بكر وصفه بأنه: «لا يرى شيئًا من الشرِّ إلا أعان عليه» روى يعقوبي: أن الخليفة أبا بكر قال لعبد الرحمن بن عوف الذي عاداه في مرضه: «ما آسى إلا على ثلاث خصال صنعتها لم أكن

(١) دراسات في تاريخ العرب، د. خالد العسلي، ج ٢، ص ١٩٩.

صنعتها، وثلاث لم أصنعها ليتني كنت صنعتها» ومن تلك التي ندم أنه لم يصنعها قوله: «ليتني قدمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه، فإنه يُجَيِّلُ إليَّ أنه لا يرى شيئاً من الشرِّ إلا أعان عليه!»^(١) وقد كان الأشعث مشهوراً بهذه الخصال حيث وصفه مالك الأثر يوم صفين بنفس هذه الصفة.

كان الأشعث بطل التحكيم يوم هدد بتسليم الإمام علي عليه السلام إلى معاوية إذا لم يوافق على التحكيم، وكانت ابنته الأداة التي استخدمها معاوية لقتل الإمام الحسن عليه السلام!

أبو سفيان ومشايخ قريش

بعد غزوة تبوك، وفي سنة ١٣ هجرية وقعت معركة (اليرموك) مع الروم وكان المتآمرون هذه المرة يأملون انكسار المسلمين وخسارة الحرب؛ لكي تسنح لهم فرصة تولي الحكم وكانوا يتظاهرون أمام الناس علناً معلنين عن موقفهم دونما خوف لثقتهم بقرب هزيمة المسلمين، حيث يروي الطبري عن ابن حميد أنه قال: «حدثنا سلمة بن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير؛ قال: كنت مع أبي الزبير عام اليرموك فلما تعبى المسلمون للقتال لبس الزبير لأُمته، ثم جلس على فرسه، ثم قال لموليين له احبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل؛ فإنه غلام صغير؛ قال: ثم توجه فدخل في الناس، فلما اقتتل الناس والروم نظرت إلى ناس وقوف على تل لا يقاتلون مع الناس، قال: فأخذت فرساً للزبير كان خلفه في الرحل فركبته؛ ثم ذهبت إلى أولئك الناس فوقفت معهم فقلت: أنظر ما يصنع الناس، فإذا أبو سفيان بن حرب في مشيخة من قريش من مهاجرة الفتح وقوفاً لا يقاتلون فلما رأوني رأوا غلاماً حدثاً؛ فلم يتقوني، قال: فجعلوا والله إذا مال المسلمون وركبتهم الحرب، للروم يقولون: إيه بالأصفر! فإذا مالت الروم

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٣٧.

وركبهم المسلمون قالوا: يا ويح بلأصفر فجعلت أعجب من قوههم، فلما هزم الله الروم ورجع الزبير جعلت أحدثه خبرهم؛ قال: فجعل يضحك ويقول: قاتلهم الله أبوا إلا ضغنًا^(١)

من هذه المقدمات يتضح أن كل ما وقع في المجتمع الإسلامي الأول كان من نتاج الفكر السياسي التأمري العربي الذي استغل سيطرته على الحكم لتثقيف الناس بالمفاهيم المبتدعة حتى رسخت في أذهانهم ونسوا أو تناسوا الحقيقة المرة، حقيقة أن رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده وصولاً إلى الإمام الحسن (عليه السلام) قُتلوا بيد السياسيين العرب!

إن عمل بعض رجال المجتمع المسلم من الصحابة والتابعين في المجال السياسي وتآمر البعض منهم وليس كلهم طبعاً بعضهم ضد البعض الآخر، أو من أجل نصره مذهب سياسي بعينه من دون الالتفات للمخاطر التي تهدد الإسلام من جراء هذا العمل وكما تبين مما سبق، إذا لم تكن واضحة الملامح بالأمس ورغم وضوح أثرها في الحياة العامة حتى في مجال تأدية العبادات، أو أنها غُيِّبَت لأغراض خاصة، فإنها أصبحت اليوم مثار نقاشات لا يخلو بعضها من التطاول؛ بل والجرأة المفرطة، وهي سواء انضوت على حقائق تاريخية لا يمكن السكوت عنها، أم أنها فسرت الحقائق بعكس مقاصدها الأولى، فإنها تخضع اليوم إلى الدرس والتمحيص والبحث الجريء، البحث الذي سيوصلنا إلى نتائج قد تبدو غريبة على الكثير منا.

ولقد تأكد لي أن الإمام علياً (عليه السلام) كان سبباً في تشخيص السياسيين المتأمرين وكان متخوفاً من الاصطفافات القرابية بينهم، ولذا تراه يقول في أيام الشورى لسعد الذي لاقاه في الطريق: «أسألك برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ وبرحم عمي حمزة منك

أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليّ^(١).

ثمّ لما تمّ الأمر لعثمان صرّح الإمام عليه السلام برأيه علناً من خلال قوله لعبد الرحمن: «ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا.. والله ما وليت عثمان إلا ليردّ الأمر إليك» وبعدها خاطب الأمة بقوله: «إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر بينها فتقول: إن وُلِّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم تتداولونها بينكم»^(٢) وهاتان الغيبتان تحققتا بالفعل، حيث مرت عليكم قصة عثمان يوم أوصى لعبد الرحمن حينما أصابه المرض. أما النبوءة الثانية؛ فقد تحققت بالفعل وتداولها الأمويون والعباسيون وغيرهم، وحُرِّمَ منها عليٌّ وأبناؤه عليهم السلام على مدى التاريخ، وإلى ما يشاء الله سبحانه.

إنّ الإمام علياً عليه السلام لم يقل هذا القول إلا بعد أن أدرك أن الخلافة ستحول عنه إلى غيره لأسباب كثيرة؛ منها أن عبد الرحمن بن عوف هو زوج كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أخت عثمان لأمّه! أما ما حدث بعد ذلك فيدعو إلى الدهشة والاستغراب، وهو ما يتضح من قراءة القضايا الثلاث الآتية:

- الأولى: إن زمام الأمور كان فعلاً بيد عبد الرحمن بن عوف صهر عثمان بن عفان. وهو بالرغم مما قاله له الخليفة أبو بكر في حديثه عن (ورم الأنف) الذي مرّ سابقاً، ورغبته الحقيقيّة بتولي الأمر؛ نجده ينزل عن حقّ الترشيح بشرط أن يعطى مهمة حق اختيار المرشح، أي: أن تكون له كلمة الفصل العليا، ربما لأنه رأى أن الوقت غير مؤات ليعلن ترشيح نفسه، فحاول من

(١) الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٥٧.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٥٧ و ٥٨.

خلال هذا العمل تهيئة الأجواء لنفسه وهو ما سيتبين لاحقاً، وهو ما أكده الإمام عليّ عليه السلام في قوله السابق، وأكدته الرسالة التي أرسلها عبد الرحمن إلى عثمان بيد ابنه وقد مرّ ذكرها!

• الثانية: كان نزول سعد بن أبي وقاص عن حقه بالترشيح بشرط أن يحسب صوته إلى جانب صوت ابن عوف مبادرة سياسية بارعة لا تقلّ أهميتها عن مبادرة ابن عوف، وهذا ليس غريباً؛ لأنّ سعداً هو ابن عمّ عبد الرحمن بن عوف، ونزوله هذا قوى جانب ابن عوف كثيراً ليمنحه سلطة ترشيح عثمان بما يفتح الباب أمام أحدهما أو كلاهما لتولي الأمر من بعده!

• الثالثة: وهي نقطة لا تقلّ أهميتها عن سابقتها، أنّ طلحة بن عبيد الله وهو أحد المرشحين الأقوياء للخلافة كان غائباً عن المدينة، ولم يشارك في المباحثات من أصله، ولم يعد إلى العاصمة (المدينة المنورة) إلا بعد أن تمتّ بيعة عثمان بن عفان بالطريقة المعروفة، فبايعه مع الناس.^(١)

فلما قوي جانب ابن عوف وأصبح المتحكم بقرار الترشيح أراد تحشيد الشارع الإسلامي للقبول بحكمه فهو كما يقول ابن قتيبة^(٢) «خرج يلقي الناس في المدينة متلثماً لا يعرفه أحد فما ترك أحدًا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الرأي ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم، أما أهل الرأي فأتاهم مستشيرًا بسؤال واضح وصريح: (من ترى الخليفة بعد عمر؟) ثمّ بعد ليلة طويلة من النقاش الحادّ الذي استمرّ إلى صلاة الصبح، صلى ثمّ جمع الناس في المسجد وفتح معهم نقاشاً عن المرشح المحتمل، فاحتمد

(١) ينظر: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٨.

(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ص ٢٩.

الصراع، وكاد يتحوّل إلى فتنة وفضيحة، فنصحه سعد الذي كان لما يزل إلى جانبه يدعمه بأن يبادر ويعجل بإعلان اسم المرشح، فأعلن اسم عثمان^(١).

هنا أوّد القول أنّ عليّاً عليه السلام كان ومنذ زمن طويل يتابع نشاط المتآمرين، وأنه حتى قبل هذا التأريخ؛ بل وفي خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وحتى في عصر البعثة، كان يتابع تحركاتهم ويرصدها، ولذا كان على علم بكثير من خفاياهم، ومعرفته هذه هي التي استنتج من خلالها بعد هذا التأريخ أنّ الخوارج غررت بهم جهات سرّية ليخرجوا عن طوعه؛ فقال بعد أن مرّ عليهم صرعى بعد انتهاء معركة النهروان: «بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم»^(٢).

إنّ ما رشح اليوم من أفكار متحررة تجاوز التشخيص والتحديد الذي أتينا به على خوف من أن يفهمه بعض ضيقي الأفق على أنه تطاول على الصحابة الكرام بالرغم من اعتمادنا على مصادر المدارس الإسلامية وكتب التاريخ والدراسات الفقهية للمدرستين. وقد رشحت هذه الأفكار التي أراها متحررة ويرأها غيري متطرفة من خلال دراسات مطولة غاية في الغرابة بدأت تنتشر اليوم على صفحات الجرائد ومواقع الانترنت، ومن أمثلة هذه الدراسات الموضوع الذي تكلم عليه (موقع العربية نت)^(٣).

ونظراً للأهميّة القصوى لهذا الموضوع الشائك الحساس؛ سأورده كاملاً من دون قطع، أو اختزال، أو تبديل؛ لأنه يؤكد في بعض جوانبه حقيقة وجود الحراك السياسي في المجتمع الإسلامي الأول، ذلك الحراك الذي يرفض بعضهم أن يشير إليه مجرد إشارة عابرة، بل ويتهم كلّ من يتحدّث عنه إما بالتشيع أو بالأعجميّة. ولأنه يعني ثانياً أنّ

(١) ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج ٣، ص ٧١.

(٢) الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٢٩٨.

(٣) موقع العربية نت من القاهرة.

الجرأة ستدفع الكثير من الناس إلى التحدث بصوت أعلى مما اعتادوا عليه من قبل، وأن حديثهم سوف ينضوي على كشف للأسرار الخفية، وفضح لما كان مسكوتاً عنه من قبل.

يقول التقرير بالحرف الواحد: «أثار ملحق من أربع صفحات أصدرته جريدة (الغد) المصريّة عن أسوأ شخصيات في الإسلام جدلاً حاداً وانتقادات واسعة بسبب تصديره لأهم المؤمنين السيدة عائشة وعثمان بن عفان قائمة هذه الشخصيات. وتصدر هذه الجريدة عن حزب الغد الليبرالي الذي يتزعمه د. أيمن نور المغيّب في السجن حالياً تنفيذاً لحكم قضائي بشأن اتهامه بتزوير توكيلات الحزب عند تأسيسه، ولا تزال ترويسة الجريدة تحمل اسمه كرئيس للتحريض، وإن كان لا يتمكن من إدارتها بسبب حبسه، ويرأس تحريرها فعلياً الصحفي أحمد فكري الذي أُخْتِيرَ قبل أسبوعين فقط، وهذا العدد المثير للجدل هو العدد الثاني له».

قال أيمن بركات عضو الهيئة العليا للحزب بأن سيتم عقد اجتماع لبحث ما حدث قائلاً: لا أعرف مقدماً ما يمكن أن ينتج عن الاجتماع، لكنني أتوقع شخصياً ألا يمرّ هذا الموضوع بسهولة، فكلنا نقدر هؤلاء الصحابة ونحترمهم ولا يمكن المسّ بأشخاصهم. وتوقع أن يتم فتح تحقيق مع المشرفين على التحرير، ونشر بيان اعتذار في العدد القادم، خصوصاً أن العنوان جاء مخالفاً للمضمون الذي يتناول مواقف هؤلاء الصحابة دون الإساءة إلى أشخاصهم.

ونفى ما تردّد بأن ثمة اختراقاً أميناً حدث في الصحيفة كان من نتيجته إصدار هذا الملحق للإساءة إلى الحزب وصورة د. أيمن نور في أوساط الرأي العام، مشيراً إلى أن ما حدث لا يزيد عن كونه خطأ مهنيّاً في اختيار العنوان لا ينطبق على المضمون نافيّاً أيضاً

أن يكون هناك اختراق إيراني أو شيعي ممول من الخارج، قائلاً إن هذه الأمور مستبعدة تماماً في مصر، ناهيك عن أنها غير موجودة في الصحيفة، ولا توجد خلفيات طائفية من أي نوع وراء هذا الملحق.

عنوان صادم يتناقض مع المضمون

وأكد أيمن بركات أن العنوان كان مستفزاً وصادماً، وأنه أحدث ردود فعل غاضبة حتى من أعضاء الحزب، وأن الاتصالات لم تنقطع عن مقرّ الحزب.. وقال إن الملحق مكون من أربع صفحات بحجم صفحات الجريدة المعتاد تتحول إلى ثماني صفحات (تابلويد) عند طيها كملحق منفصل.

وأوضح بركات: اقتصرت الصفحة الأولى على عنوان شامل للملف يقول: «من عائشة أم المؤمنين وعثمان الخليفة الراشد وحتى الأب الرئيس والابن الوريث.. أسوأ عشر شخصيات في الإسلام».

وقال: العنوان لا ينطبق على المضمون، فالكلام عن عائشة يوجه المديح لها، و يصفها بأنها ظلت تبكي حتى وفاتها على موقعها في موقعة الجمل وعلى الذين قُتلوا في تلك الموقعة. «من المقبول الحديث عن موقف سيئ للشخص، لكن وصفه هو ذاته بأنه من أسوأ الشخصيات فهذا ما لا يمكن قبوله بالنسبة لأم المؤمنين وكبار الصحابة المبشرين بالجنة»^(١).

ويضيف: المضمون يبدأ من الصفحة الثانية من الملحق و تقول مقدمته: نحن نحبههم جداً ونقدرهم جداً ولكننا نرى من حقنا أن نختلف معهم أحياناً. وبدأ بعثمان بن عفان حيث تكلم على إطلاق يد الأقارب في الحكم، ثم الزبير بن العوام باعتبار أنه

(١) لاحظ هنا أن هذا الرأي يخالف أقوالهم في النهي عن الحديث عما شجر بين الصحابة

تورط في موقعة الجمل، بعد ذلك أم المؤمنين السيدة عائشة وكتب عنها: ظلت طوال عمرها تبكي عشرين ألف قتيل مسلم ماتوا بسببها في موقعة الجمل، وبعد ذلك عمرو بن العاص عن واقعة التحكيم، وطلحة بن عبيد الله عن موقفه بشأن مقتل عثمان ثم المطالبة بالثأر له، والمغيرة بن شعبة فيما يخص الإيراث من معاوية بن معاوية، ومعاوية عن (اغتصاب) الخلافة، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفي. وأشار أيمن بركات إلى أن هذا الملحق لا يحمل اسمًا أو أسماء وراء اختبار هذه الشخصيات، أو الطريقة التي اعتمد عليها، إنما مجرد انطباعات لمن كتبه.

أما رئيس تحرير (الغد) أحمد فكري فقال لـ (العربية.نت) إنه هو الذي كتب الملف واختار هذه الشخصيات بناءً على تأثيرها وخطرها على الحياة الإسلامية، فهي التي أجهضت الحلم الديمقراطي في الحياة الإسلامية أو توقف عندها حكم الخلفاء الراشدين، والذين يمكن اعتبارهم مجموعة الشركاء في حادث الفتنة الكبرى. لا اختراق شيعيًا ولا نحن تشيعنا

وأضاف: الملف يقول إن هؤلاء العشرة هم الأسوأ سياسيًا لأنهم كانوا الأكثر تأثيرًا وخطرًا على الشورى والخلافة وحولوها من حكم ديمقراطي يتم انتقال السلطة فيه بإرادة الناس إلى حكم وراثي عضوض، حيث بدأت فيما بعد الدولة الأموية ثم العباسية.

ويوضح أحمد فكري أن بعضهم عدّ أن هذا هو كلام الشيعة ونوعا من التشيع والتعرض لصحابة رسول الله ﷺ، نافيًا ما قيل عن ثمة اختراق شيعي؛ قائلاً «هذا كلام غير صحيح أو معقول إطلاقًا، وحقيقة القضية هو الجدل السائد في مصر حاليًا عن

توريث السلطة، والناس كلّها ضد ذلك التوريث، ومن ثمّ نحن قلنا إنّ مفهوم توريث السلطة ابتدأ في الإسلام من هؤلاء العشرة، ومع كل تقديرنا لهم كأشخاص ومبشرين بالجنة ولهم قيمتهم في حياتنا، إلا أنهم كانوا شركاء أساسيين ورؤوس الممارسة السياسية في حادث الفتنة الذي راح ضحيته عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وآل البيت وأكثر من ١٥ ألف مسلم في موقعة الجمل وفي المواقع الأخرى.

من هو الأب الرئيس والابن الوريث؟

وأوضح أن المقصود بالأب الرئيس والابن الوريث في العنوان، معاوية بن أبي سفيان وابنه، وأن الملف غير مسلسل ويخص العدد الذي صدر فقط ولا يمتد لأشخاص في العصر الحديث كما قيل، مشيرًا إلى أن «ملحق العدد الذي قبله كان عن (النبي الليبرالي).. حيث أننا نصدر كلّ أسبوع ملحقًا ذا موضوع مختلف».

وأكد أحمد فكري رئيس تحرير (الغد) أن الموضوع يتكلم فقط على السلوك السياسي الذي حول حكم الدولة الإسلامية وامبراطوريتها العظيمة من دولة ديمقراطية تسود فيها حالة المكاشفة الواضحة من أي شخص عادي لحاكم الدولة، إلى دولة وراثية.

واستطرد: «لا أحد يستطيع أن ينكر دور عمرو بن العاص في توطيد حكم الأمويين، وأن عثمان بن عفان نفسه وهو الخليفة الراشد المبشر بالجنة وذو النورين تزوج ابنتين من بنات الرسول اختلف حوله الصحابة حتى أنهم قتلوه ولم يدفنوه. هذا حدث تأريخي لا يمكن إنكاره، وكان ضمن القتلة محمد بن أبي بكر».

وأضاف فكري: «نحن نناقش مواقف سياسية لأشخاص وبشر، وفي الإسلام ليست هناك أية قداسة للبشر»^(١) والمشكلة ليست في عنوان الملحق، وإنما في أشخاص

(١) وهذا الرأي يتناقض مع نظرية عدالة الصحابة التي يرى بعض المسلمين المتعصبين أن

لديهم حس المؤامرة، ويتصورون أنَّ الشيعة وراء ذلك ^(١) ولديهم تصورات خاطئة وغريبة عن كَيْفِيَّة تفكير الإنسان. الحقيقة أنَّ البعض يفكر بمنطق المؤامرة ونحن نفكر بأهميَّة التعلم من تأريخنا» ^(٢)

مخالفتها تؤدي إلى الكفر البواح المخرج من الملة!.

(١) وهذا ما نخوفنا منه عند البدء بكتابة هذا البحث، لأنَّ هناك من يرى في الخوض فيما شجر بين الصحابة كفرا بواحا يختص به الشيعة دون غيرهم من الفرق. وكان النسائي احد شهداء هذه السياسة.

(٢) موقع العربية نت.

المؤرخون والسياسة

أعود وأقول: إذا كانت السياسة العربيّة بكلّ هذه القوّة والتأثير، فلم لم يُشر إلى وجودها أحد من المؤرخين الأقدمين، ولماذا قللوا من أهميتها بهذا الشكل؟

واقعا أرى أنه لو كان الإداريون المسلمون قد اهتموا بشأن المنهج السياسي العربيّ كما هو اهتمامهم بشأن الجانب الماليّ مثلاً لكان لدينا اليوم خزين ثرّ وتصور واضح عن كلّ تلك الحركات السياسية؛ ولكنهم أغفلوا الإشارة إلى هذا الجانب بمعناه الحقيقيّ وأشاروا إليه من خلال إلماعات تهتم بمسألة الدهاء والخداع والمكر وغيرها من الطباع من دون أن يربطوا هذه الصفات بالسياسة، بالرغم من كونها من أوضح صفات السياسيين، وترجمة حقيقية لمعنى السياسة، ثمّ إنهم أسموا تلك الحركات بـ(الفتنة)؛ وأنا أرى أنّ مصطلح الفتنة مأخوذ من الفلسفة السياسية التي لم تكن قد أصبحت علماً قائماً بذاته في ذاك التاريخ؛ فاستعاضوا عن كلمة (سياسة) بكلمة (فتنة) ويقصدون بها غالباً الأحداث التي وقعت في زمن عثمان، وما تلاه من العصور الإسلاميّة القريبة منه.

وللدكتور صبحي الصالح رأيّ ناضج؛ يقول فيه: «وأمهات الكتب القديمة في النظم الإسلاميّة التي حملت اسم (الأحكام السلطانيّة) لم يفتها الفصل بين تينك الزمرتين من النظم ولكن ما اكتنف عباراتها من الغموض في أحكام الفقيهين الماوردي (الشافعي) وأبي يعلى (الحنبلي) لم يتح لنا ولا للباحثين قبلنا الوقوف على الأطوار التاريخيّة والأنماط الحضاريّة والظروف البيئيّة والجغرافيّة التي مرّ بها كلّ نظام على حدة

من قبل أن يأخذ صيغته النهائية (الرسمية) في تعاليم الإسلام».^(١)

وأرى أن هذا الرأي على قدر كبير من الصحة، ولكنه بالتأكيد لا يغطي كل جوانب الحقيقة وإنما يغطي جزءاً منها، وجزءاً صغيراً فقط؛ لأنّ التغيب المتعمد لأثر النظام السياسي العربي في الحياة العامة، والذي كان جزءاً من العمل السياسي المنظم الكبير، هو المتسبب الأكبر في هذا الغموض وإلا فإن النظام السياسي بمفهومه المعاصر كان حاضراً وفاعلاً ومتحكماً في مسار الأحداث والتأريخ، وهو الذي شكل الخارطة السياسية الإسلامية الإسلامية بشكلها المعروف حالياً.

وكلما استطرّدنا في الحديث عن تعامل العرب المسلمين مع متطلبات المرحلة التي عاشوها بحسناتها وسيئاتها سوف يتضح لنا دور السياسة في ترتيب البيت العربي الإسلامي وفق هواها، ويتبين لنا أنهم في مراحل ساخنة من هذا الحراك قادهم الهوى السياسي بعيداً عن هوى الدين ومسؤولياته.

ثم يجب أن لا نغفل جانباً مهماً آخر لا يقل أهمية عن تلك الجوانب؛ وهو أن العرب والمسلمين لم يهتموا بتدوين تأريخهم إلا بعد زمن طويل من بدء البعثة؛ يقول الدكتور عبد الرحمن العزاوي: «إنّ بدايات التدوين التأريخي عند العرب مرّت بمراحل عبر القرون الثلاثة الهجرية الأولى، لكنها نالت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلاديّ تطوّراً في المنهج والطريقة».^(٢)

ويتبين من قول آخر للباحث أنّ هذا التأخير كان من أسباب وقوع المؤرخ المسلم في مصيدة الخلط التأريخي؛ حيث قال: «فإنّ هذا الموضوع لا يمكن أن يدرك بالنسبة

(١) النظم الإسلامية، د. صبحي الصالح، ص ٨.

(٢) المنهجية التأريخية في العراق، د. عبد الرحمن العزاوي، ص ٨.

للقرون الثلاثة الأولى للهجرة ولا سيما القرن الأول والثاني، وأنه لا يمكن التمييز بين التاريخ الصرف والمواد التي كانت تروى وتقصّ على أنها مادة صالحة من موادّ التاريخ... وليس هذا بدعاً جاءت به العقلية العربية؛ لأنّ الارتباك والصعوبة بين الموادّ التاريخية الأصلية والأساطير قد مرّ على كلّ الأمم المثقفة التي شعرت بحاجتها إلى تدوين سيرها فلمّا شعرت هذه الأمم بالحاجة للتدوين صدمتها هذه العقبة»^(١).

والذي أراه أنّ الدكتور العزاوي حاول تغافل حقيقة الخلط التاريخي الذي وقع في تأريخنا عند تأكيده الفارق الزمنيّ بين ساعة وقوع الحدث وتأريخ تدوينه وحده، ناسياً أو متناسياً أنّ هناك حقائق أخرى أكثر من هذا أهميّة أسهمت في تشويه صورة تأريخنا، وكان بعض التشويه والإخفاء متعمّداً ومقصوداً أسهم في وضعه المؤرخون والخلفاء ووعاظ السلاطين، لكي لا يعرف القادمون حقيقة ما وقع كما هو، ويكتفون بما يجدونه في روايات كتب التاريخ، وبالتالي تنوعت الروايات ومضامينها. وعلى العموم كان رأي الدولة وسلطانها هو النافذ وحجت كل الآراء الأخرى فلم تجد لها مكاناً في كتب التاريخ، ولكنها لم تمت وتنتلش وإنما بقيت في عقول وصدور وقلوب فئة من الناس حافظوا عليها وتداولوها شفاهاً إلى أن حانت الفرصة المؤاتية فدونت وانتشرت، وحينها بدت للآخرين وكأنها غريبة لأنهم لم يألّفوها من قبل، وهم الذين أسسوا قناعاتهم وأحكامهم على ما تم تداوله وتدوينه من قبل، ولذا ليس غريباً أن تجد بينهم من ينكر وجود فكر سياسي عربي أو إسلامي؛ أو ينكر حدوث ما في المدونات الجديدة! أو ينكر أن الأحداث التي نوردتها ذات أصل تاريخي.

فضلاً عن ذلك نتفق بأن المدونات القديمة لم تكتب بأقلام محايدة وإنما كتبت بأقلام

(١) المنهجية التاريخية في العراق، د. عبد الرحمن العزاوي، ص ٩.

الموظفين الحكوميين ووعاظ السلاطين؛ بل حتى الأحاديث النبوية جرحت وعدلت وفق نفس المنهجية ولذا تم تغيب الكثير من الحوادث والأحداث بل والنصوص الصريحة، وتم تحريف القسم الآخر، فوصلنا ما اختاروه هم لا ما كان موجودا. وهؤلاء الذين تلاعبوا بسنة رسول الله ﷺ كانوا من الموظفين عند السلطان والسائرين على نهجه والمؤيدين لخطه والمنفذين لأوامره وبالتالي كانوا يختارون ما يعجبه ويرضيه ويخفون أو يحرفون ما لا يرضيه.

من هؤلاء ما ذكره صاحب (تهذيب الكمال) ^(١) عن أحد رواة الحديث وهو (حريز بن عثمان) الذي كان يشتم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عوضاً عن ذكر الله، ومَن اعترف بهذه الحقيقة المُرّة الإمام أحمد بن حنبل الذي قال عن حريز: إنه كان يحمل على عليّ. ولكن ابن حنبل لم يلتفت لهذه الخصلة في تقييمه لحريز؛ فقال عنه: ثقة، ثقة، ثقة! حريز الذي كان يتناول على أوّل القوم إسلاماً يعدّه ابن حنبل ثقة بالثلاث، فما نوع الأحاديث التي سيوردها هذا الثقة؟

وكان (الجوزجاني) وهو من أئمة الجرح والتعديل يجاهر ببغضه لعليّ وأهل البيت عليهم السلام عامة، فإذا مر عليه حديث حريز وثقه حتى ولو كان مخالفاً لمنهج الرسالة. وقد حكم الذهبي وآخرون على أن ابن إسحاق أحد أشهر كتّاب السيرة النبوية كان مدلساً، وكان يدفع المال والقصص للشعراء ليضعوا فيها أبياتاً ينسبها إلى المشاركين في الحدث الذي يريد الحديث عنه، وهناك من قال: إنه كان يأخذ من بعض اليهود. ومع ذلك جاء المتأخرون وأخذوا بما فيها من مضمون اعتماداً على ما أورده ابن إسحاق! ^(٢)

(١) تهذيب الكمال، الجزء الخامس، ترجمة «حريز بن عثمان» الحديث المرقم ١١٧٥.

(٢) يراجع كتابنا (جزئيات في السيرة النبوية، عرض وتحليل) للاطلاع على آراء العلماء في هذا

هؤلاء بإجماعهم واجتماعهم أوجدوا كل المصطلحات الإقصائية بدءاً من مصطلح (سنة الشيخين) مروراً بمصطلح (أهل السنة) وصولاً إلى مصطلح (أهل السنة والجماعة). فهذه المصطلحات الطائفية السياسية لم تكن وليدة فكر الحكام والسياسيين فقط بل أسهم الإفتائيون بنشرها بعد أن قام السياسيون بتنضيرها ووضع قواعدها ونشرها بين المسلمين.

والغريب أن هناك جبهة عريضة ترفض اتهام التاريخ بالزيف وترفض أن يقول أحد ما: إن تاريخنا مزيف، وأرى أن ذلك امتداد للموقف الإسقاطي القديم، وربما لهذا السبب يقول المستشار العشماوي: «فدعوى تزيف التأريخ دعوى حديثة لم يقل بها أحد من القدماء الثقات المشهود لهم بكتابة التأريخ مثل الطبري والسيوطي وابن الأثير وغيرهم وهي ترفع في الآونة الأخيرة من جانب تيار الإسلام السياسي ومن يلوح به أو ينتفع منه أو يسعى إليه بقصد إسقاط الحجج المقابلة الدامغة التي من واقع التاريخ ومن صميم الأحداث بطلان دعاوى هذا التيار»^(١).

ومن يدقق ويحقق بقول العشماوي يتأكد أن نهجه التعليلي نابع من نفس الخط السياسي القديم، فكم في تاريخنا من أكاذيب وأباطيل ودس وتدليس وتلاعب وتخوير وتزوير متعمد مقصود؛ تفضح ذلك التباينات الكبيرة بين ما جاء به المؤرخون أنفسهم باستثناء أولئك الذين نقل بعضهم عن البعض الآخر دونما تمحيص أو تدقيق.

الآن، وبعد أن أتضح لنا الدور الذي لعبه السياسيون العرب في الحياة العامة، فمن الممكن أن نجيب من يشكك بوجود السياسة العربية ودورها بنعم كبيرة لا تقبل النقاش، ولكن ربما نصطدم بمن يسألنا عن الدليل؟ ومن حق المعارض أن يسأل،

(١) الخلافة الإسلامية، محمد سعيد العشماوي، ص ٢٧.

فليطمئن السائل بأن هناك مئات الأدلة على وجود نظام سياسي بكل معنى الكلمة؛ وأن هذا النظام هو الذي أعاد تشكيل الإسلام؛ وفكك الفكر الإسلامي وأعاد صياغته حسب ما يشتهي ويرغب، وأنه هو الذي تحكم بالأحداث والوقائع ووجهها إلى الوجهة التي أرادها، وهو الذي قتل الإمام علي وقتل الإمام الحسن وقتل الإمام الحسين (عليه السلام) وقتل قبل ذلك الخلفاء الثلاثة، وتسبب بمقتل المئات من كبار الصحابة ونخبهم؛ وأنه هو الذي تسبب بتشطي الإسلام وتكوين المذاهب؛ وهو الذي أنتج منظومات التكفير والتنفير.

لقد البس السياسيون العرب منهجهم السياسي ثوبا دينيا حتى بدا وكأنه هو الدين ذاته مع أنه كان أشد ضررا على الدين من أعدائه الحقيقيين، وذلك لأن سياستهم كانت دنيوية الأهداف والقواعد والفكر وهي أمور تتعارض غالبا مع العقيدة الدينية وقواعدها وفكرها. ولذا يرى الأستاذ عزيز الخزرجي إن: «فقدان الأمة للقيادة الربانية الصالحة التي حملت هم تطبيق النظرية الإسلامية في عالمنا الذي امتلأ بالظلم والجور والفساد والطبقية هو: بسبب السياسيين الذين لا يُراعون حرمة وكرامة الإنسان ويفرقون في الفيء لتشوّه القواعد والمنطلقات الصحيحة في رؤاهم ومُتبنياتهم العقائدية المختلطة مع القوانين الوضعية عادةً وبالتالي اختلاط الفهم عند الإسلاميين منهم.. للنصوص الشرعية بشكل صحيح، تلك النصوص التي تُشخص وتُحدد معالم القيادة الربانية التي على الجماعة الإسلامية الانقياد والطاعة لها في كل عمل يُراد منه التقرب لله تعالى»^(١).

وحين يفقد المجتمع الحرية، بسبب سياسة القهر والفساد والاستبداد من قبل

(١) ينظر: كتاب السياسة والأخلاق؛ مَنْ يَحْكُمُ مَنْ؟، عزيز الخزرجي، كتاب الكتروني،

موسوعة نينوى.

المُتسلّطين تتعرض المنظومة الأخلاقية بشكلٍ طبيعي إلى التبدد والتغير ويتوقف الإبداع والإنتاج ويموت الوعي، لأنّ جل هم المواطن ينحصر في الحصول على لقمة العيش والحاجات الطبيعية بكل وسيلة ممكنة، كالسكن والإمكانات الأخرى، ومن الطبيعي أن تتعرض كرامته للإهانة على يد الذين عادة ما يحتكرون السلطة والمال والإمكانات لتجرّدهم عن القيم الأخلاقية والمثل والتواضع والمحبة التي يأمر بها الدين وحده، وقد تصل الأمور مع ذاك الوضع إلى حد يصعب معه الحصول على لقمة الخبز إلا ببيع المواطن لكرامته، ولاسيما في بلادنا وحتىّ الدول الغربية التي يميل فيها القانون عادةً لمصلحة الأغنياء وأصحاب البنوك والشركات التي لها الحق في وضع القوانين الخاصة باتجاه مصالحهم من دون مراعاة حقوق العاملين لتتعرض المنظومة الأخلاقية كلها للتغير.^(١)

لقد تعرّضت المنظومة الأخلاقية والأدبية في الأمة الإسلامية بسبب سياسة وجشع المتصدين فيها إلى تغييرات جذريّة منذ القدم ومروراً بالسّقيفة وإلى يومنا هذا... بل إنّ المفاهيم الإسلامية التي تحوي أمثل المنظومات الأخلاقية انقلبت إلى الضّد من التعاليم الإسلامية الواضحة في مجال التربية وحقوق الإنسان وكرامة المواطن العربي والمسلم والعلاقات الاجتماعية، بمعنى صار الكذب حلالاً والصدق نشازاً والحلال حراماً والحرام حلالاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتّى صارت مَعْلَمًا من معالم السّياسي الشط في هذا العصر.

وقد لا أجنب الحقيقة لو قلت: إنّ السّياسيين العرب تجاوزوا نظريّات (ميكافلي) الايطالي الذي تعتمد نظريّاته بالأساس على قوانين النظرية السّياسية الواقعية المعروفة

(١) ينظر: المصدر نفسه، مَنْ يُحْكُمُ مَنْ؟، عزيز الخزرجي.

بأنها تنهج الأساليب الخادعة للوصول إلى السلطة والحفاظ على المنصب بكل الوسائل الممكنة، لأنَّ الغاية حسب شريعتهم تبرر الوسيلة، والمطلع على ما كتب ميكافيلي يرى أنَّه شرَّع نظريَّاته التي في النهاية تضرُّ بمجموعات وشرائح كبيرة من المجتمع، لكنها بالمقابل تصبُّ في مصلحة شريحة أخرى عادةً ما تكون مؤتلفة في القرار والحكم والأولويات!^(١)

هذه هي أسس السياسة العربية التي كُتِبَ لها أن توضع قبالة السياسة الدينية التي يمثلها الإمام الحسن عليه السلام، كانت ناشطة فاعلة مقتدرة قوية متكاملة مؤيدة من بسطاء الناس وعامتهم ومن اكتفى بالإسلام ولم يؤمن بروحه وجوهره. كانت تستسيغ كل الوسائل حتى الدنيئة منها لتحقيق أهدافها قبالة نخبة عقديَّة كانت تتحرج من أبسط الأمور ولا تقدم على عمل إلا بعد أن تعرف كل أوجهه ومقدار قربه أو بعده عن روح الدين، ثم ما يمكن أن يحققه من نفع وفائدة للناس.

(١) ينظر: المصدر نفسه، الخزرجي.

الفصل الخامس

النزاع السياسي مع الخط الحسني

النزاع السياسي مع الخط الحسن

سياسة التشكيك

قبل الحديث عن المنهج السياسي للإمام الحسن عليه السلام الذي هو المنهج الإسلامي دون تحريف؛ لا بأس من الحديث عن تعامل السياسيين مع سيرته العطرة وبإيجاز شديد مع ضرورة التوسع في بعض الجوانب المهمة التي لها علاقة وثيقة بمجمل البحث، فلقد وجدتهم مهتمين بحياته عليه السلام ربما أكثر من كل الأئمة الآخرين، ولذا لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة في سيرته إلا ودسوا فيها وحولها أخبارا وروايات وقصصا وأكاذيب، فساروا في تشويههم مع سيرته الزكية بمنهج تحريفي بدأوه منذ ولادته ولم ينتهوا منه حتى بعد هدم قبره الشريف وتسويته بالأرض، أملا بالوصول إلى هدم كل أفكاره والقضاء الكلي على من يعتقد به ويحبه ويتبع منهجه ويؤمن بإمامته، أي أنهم أعادوا كتابة سيرته وفق رؤيتهم السياسية وأرادوا الناس أن يأخذوا بها، وأرادوا قسر الناس على التعبد بفكرهم المنحرف وحده بعيدا عن أي تلون أو تنوع.

وقد ينظر بعضهم إلى هذه الجزئيات البسيطة على أنها ليست من الأهمية بمكان لكي تترك أثرا في تاريخ الإمام الحسن عليه السلام باعتبار أنه ماذا سيحدث إن شككوا بتاريخ مولده، وماذا لو أنكروا أن النبي صلى الله عليه وآله علق عنه وحلق رأسه بيده الشريفة، وماذا... وماذا؟ ومن يؤمن بهذا التقييم وينظر إلى عمل السياسيين العرب بهذه البساطة أراه غير مدرك

لدرجة وعيهم؛ ويجهل تقييم قدراتهم، لأنه لم يدرك ما أدركه السياسيون من كبير الأثر لمثل هذا التعارض الشديد في جوهر كل مفردة من مفردات حياة إنسان ما لدرجة أنه يستحيل مع كثرة الأقوال معرفة الحقيقة التي ضاعت بين أكداً من الأقوال المختلفة المتباينة، وبدا يثبت السياسيون أنهم وصلوا في عصر الإمام الحسن عليه السلام إلى درجة عالية من التنظيم والتنظير، ووظفوا كل مهاراتهم المكتسبة والموروثة لمحاربته من خلال خطين تم اختيارهما بعناية فائقة:

- الخط الأول: أخذ على عاتقه شن الهجمات العسكرية وتسيير جيش يزيد تعداده على المائة ألف مقاتل لكي يقتله ويتخلص من وجوده.
- الخط الثاني: أخذ على عاتقه تشويه سيرته من خلال التشكيك والخلط والفوضى، والملاحظ على هذا الخط أنه تناول مجمل سيرة الإمام الحسن عليه السلام وكل ما له علاقة به؛ فأضاف إليه وحذف منه، وغير فيه وطمر بعضه وأخفى الآخر، وشوه ما لم يقدر على تذويبه، والملاحظ على هذا الخط كذلك أنه استمر عاملاً فاعلاً ناشطاً منذ عصر الإمام الحسن عليه السلام ولغاية هذه الساعة لم يمل ولم يكل، تراه مستعداً لمهاجمة أي بارقة تبدر عن حياته الشريفة فيتصدى لها بنفس الاندفاع القديم وربما أكثر.

وسنبداً بتفكيك ودراسة الخط الثاني أولاً بإعتبار أنه تحصيل حاصل للخط الأول، ولأن دراسة الخط الأول تحتاج إلى تعمق أكثر وشرح أكبر. بدأ هذا الخط عمله مع تاريخ ولادة الإمام الحسن عليه السلام ووصل إلى هدم قبره الشريف، ويعمل اليوم على تفجير وتهجير وذبح أتباعه ومحبيه. وكان التشكيك هو سلاح السياسيين في هذه المرحلة الطويلة؛ نظراً لما يوقعه التشكيك في النفس من حيرة وتخبُّط، فهو على رأي رجل الدين المسيحي البابا

(شنودة الثالث) عمل من وحي الشيطان: "إن الشيطان يزرع الشكوك في كل مجال من مجالات الحياة. لأن الإنسان في حالة الشك يكون ضعيفاً يمكن للشيطان أن ينتصر عليه"^(١) وبناءً عليه نجد رحلتهم التشكيكية تبدأ من لحظة ولادة الإمام الحسن عليه السلام، فهي المحطة الأولى التي يبدأ التأسيس من خلالها للمحطات التشكيكية الأخرى.

تشكيكهم بتاريخ مولده

الحسن بن علي وفاطمة عليهما السلام هو أول حفيد وُلِدَ لرسول الله ﷺ وهو حدث فريد بكل المقاييس، ومن الأهمية بمكان لدرجة أنه لا يمكن لمن يحب النبي ﷺ أن يغفل هذا التأريخ المهم، كيف والولادة تعني امتداداً لحياة النبي ﷺ وتكذيباً لمن وصفه بأنه (الأبتر) ولكن مع ذلك تضاربت الأخبار في تأريخ ولادته عليه السلام وبشكل يدعو إلى الاستغراب:

فمنهم من قال: إنه ولد في السنة الثانية للهجرة.

ومنهم من قال: ولد في السنة الثالثة، ذهب إلى ذلك كثير من المؤرخين والباحثين منهم السيوطي في تأريخ الخلفاء.^(٢) والمعتزلي في نقله عن الزبير بن بكار في أنساب قريش، وقوله: «وُلِدَ الحسن بن علي عليه السلام للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة»^(٣) واعتقد أن الشيخ أحمد محمد إسماعيل أخذ عن هؤلاء فقال: «ولد الإمام عليه السلام في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك في السنة الثالثة للهجرة»^(٤) وقال ابن حجر في فتح الباري: «وكان مولد الحسن في رمضان سنة ثلاث من الهجرة عند الأكثر، وقيل

(١) كتاب حروب الشياطين، البابا شنودة الثالث، مكتبة الكتب المسيحية، كتاب الكتروني،

فصل ٢٨ التشكيك.

(٢) ينظر: تأريخ الخلفاء، السيوطي، ص ١٨٨، وغيره.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٤.

(٤) صلح الحسن غدير عز ولغز جهاد، الشيخ أحمد محمد إسماعيل، ص ١٥٤.

بعد ذلك، ومات بالمدينة مسموما سنة خمسين، ويقال قبلها ويقال بعدها»^(١)

وهناك من قال: إنه وُلِدَ في أواسط السنة الرابعة، كما في قول الدولابي: «تزوج علي فاطمة عليها السلام فولدت له حسنا بعد أحد بستين وكان، بين وقعة أحد وبين مقدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة ستان وستة أشهر ونصف، فولادته لأربع سنين وستة أشهر ونصف من التاريخ وبين أحد وبدر سنة ونصف». ^(٢) وقال الحاكم في المستدرك: «عن قتادة قال: ولدت فاطمة عليها السلام حسنا بعد أحد بستين ونصف، فولدت الحسن لأربع سنين وستة أشهر من التاريخ»^(٣)

وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك فقال أنه وُلِدَ في السنة الخامسة للهجرة، قال ابن حجر في الإصابة: «وُلِدَ في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، قال ابن سعد وابن البرقي وغير واحد، وقيل في شعبان منها، وقيل ولد سنة أربع وقيل سنة خمس، والأول أثبت»^(٤)

وقد أورد الأصبهاني في المقاتل أن مولد فاطمة الزهراء عليها السلام كان قبل النبوة وقرش تبني الكعبة وكان تزويج علي بن أبي طالب إياها في صفر بعد مقدم رسول الله المدينة وبنى بها بعد رجوعه من غزوة بدر ولها يومئذ ثمان عشرة سنة^(٥) أي أن الحسن عليه السلام وُلِدَ بعد غزوة بدر بسنة في أقل تقدير.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دارالريان للتراث، ص ١٢٠، حديث ٣٥٣٦.

(٢) الذرية الطاهرة النبوية، لأبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي، ص ٦٨ حديث رقم

١٠٠.

(٣) مستدرك الحاكم، حديث ٤٧٨٩/٣٨٧، ص ١٨٥، ج ٣.

(٤) الإصابة، ابن حجر، ج ١، ص ٣٧٤.

(٥) مقاتل الطالبين، ص ٥٩.

أذكر هنا بأن الروايات أجمعت على أن بناء الكعبة تم سنة خمس قبل النبوة^(١)، وأن النبي الكريم ﷺ صاحب الخمسة وثلاثين عاماً أسهم في البناء، وحمل الحجارة من الوادي مشاركاً قومه في مثل هذا الحدث العظيم ويعني هذا أنها ﷺ ولدت قبل البعثة بخمس سنين فيما إذا كانت قد ولدت في وقت بناء الكعبة، باعتبار أن النبي ﷺ بُعِثَ في الأربعين من عمره الشريف وبذا يكون عمرها ثمانية عشر عاماً حين تزوجها الإمام ﷺ وهو عمر كبير نسبياً نسبة إلى ما عرف عن العرب والمسلمين من تزويج بناتهم في الصغر حتى ادعوا بأن النبي ﷺ تزوج عائشة وعمرها ست سنوات بالرغم من أن هناك من قال أن ولادة الزهراء وعائشة كانت متقاربة! وإذا ما كان تزويج فاطمة قد تأخر إلى ما بعد الهجرة فمن المؤكد أنه تم بعدها مباشرة، وكانت ولادة الحسن ﷺ بعد الزواج بسنة في أكثر الاحتمالات، فما الذي أخر ولادة الحسن ﷺ إلى سنة ثلاث أو أربع أو خمس هجرية إذا لم تكن هناك نية مبيتة لاستخدام هذا الإيهام لأغراض سياسية؟

ولذا أرى أن الروايات التي تذهب إلى هذا المذهب إنما هدفها الانتقاص من حكمة الإمام الحسن ﷺ باعتبار أنه كان غصاً غريراً حينما وُيِّ الخِلافة. وأنه ليس أهلاً للصدام مع دهاء معاوية الحكيم! وللتشكيك بصدق صحبته للنبي ﷺ والرواية عنه باعتبار أنه كان أصغر من أن يُعد من الصحابة! ولهذا السبب امتنع البخاري ومسلم عن إيراد أحاديثه، وتوقفوا عنده، ولم يخرجوا له حتى ولو حديثاً واحداً، وهو ما ستوسع في بحثه مستقبلاً نظراً لأن البخاري أخرج أحاديث لمن هو أصغر منه عمراً.

وهنا أقتبس من ابن شهر آشوب تواريخه التي جاء بها، ومنها قوله: «قُبِضَ رسول الله ﷺ وله (أي الإمام الحسن) (٧) سنين وأشهر، وقيل: (٨) سنين».. وقام بالأمر بعد

(١) ينظر على سبيل المثال كتاب الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري.

أبيه ﷺ وله (٣٧) سنة.. وأقام في خلافته (ستة أشهر وثلاثة أيام) ووقع الصلح بينه وبين معاوية سنة إحدى وأربعين.^(١)

وبعيدا عن نظرية المؤامرة أقول: إن السياسيين وأعداء الخط العلوي هم من بث أغلب تلك الروايات في تأريخنا للتقليل من أهمية الإمام الحسن ﷺ؛ لأنهم قباله ذلك أكدوا بشكل كبير على ضبط تواريخ ولادات ووفيات رجالهم. وبعد هذا التلاعب الكبير بتاريخ مولده انتقلوا إلى اسمه الشريف.

تشكيكهم في أصل تسميته

وتضاربت الروايات بفعل وحث السياسيين أيضا في وقت تسمية الإمام الحسن وأصل اسمه ﷺ حيث جاء في الروايات أن أمه فاطمة عليها السلام جاءت به إلى رسول الله ﷺ يوم السابع من مولده فسمّاه حسنا، وعق عنه كبشاً.^(٢)

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ هو الذي قدم إلى بيت علي ﷺ في يوم الولادة ليهنئته بالمولود، وسمّى الوليد (الحسن) من قبل الله لم يكن أحد من قبله يحمل هذا الاسم. وقد أذن في إذنه اليمنى، وأقام في اليسرى.

وفي رواية أخرى يتضح أن النبي ﷺ كان حاضرا في بيت علي ﷺ ينتظر ولادة حفيده الأول، عن جابر بن عبد الله، قال: «لما ولدت فاطمة الحسن عليه السلام قالت: لعلي ﷺ سمّه؟ فقال: ما كنت لأسبق باسمه رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: ما كنت لأسبق باسمه ربي عز وجل، فأوحى الله جلّ جلاله إلى جبرئيل ﷺ: أنه قد وُلِدَ لمحمد ابن فاهبط إليه وهنّته وقل له: إنّ عليّاً منك بمنزلة هارون من موسى، فسمّه باسم ابن

(١) انظر: مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٢٨-٢٩.

(٢) إرشاد المفيد، ج ٢، ص ٥، مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٢٨.

هارون. فهبط جبرئيل ﷺ فهنّاه من الله تعالى جلّ جلاله، ثمّ قال: إنّ الله تعالى يأمرك أن تسمّيه باسم ابن هارون. قال: وما كان اسمه؟ قال: شبر. قال: لساني عربيّ. قال: سمّه الحسن، فسمّاه الحسن»^(١)

ولم تعجب هذه التراتبية الإلهية السياسيين الذين اعتبروها مكرومة تتعارض مع مصالحهم الدنيوية فأكثروا الحديث عن تسمية الإمام الحسن ﷺ ولكن سعيهم خاب، وثبت في الأرض ما ينفع الناس، وذهب زبدهم جفاءً.

وأنا أرى واقعا أن أول ظلم لحق بالإمام الحسن ﷺ بعد موضوع ولادته كان موضوع تسميته ﷺ، فيما أوردت كتب الصحاح أن الاسم الذي اختاره له أبوه هو (حرب) قال الدواليبي: «حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانيء بن هانيء عن علي، قال: لما وُلِدَ الحسن سمّيته حربا فجاء رسول الله فقال: أروني ابني ما سمّيتموه؟ قلنا: حربا، قال: بل هو حسن. فلما وُلِدَ حسين سمّيته حربا فجاء النبي فقال: أروني ابني ما سمّيتموه؟ قلنا: حربا، قال بل هو حسين، فلما وُلِدَ الثالث سمّيته حربا. فجاء النبي فقال: أروني ابني ما سمّيتموه؟ قلنا: حربا، قال بل هو محسن»^(٢).

هنا أرجو ملاحظة أمورٍ مهمة منها:

- تأكيدهم على إصرار الإمام ﷺ علي على اسم (حرب) بالرغم من عدم رضا النبي ﷺ عن هذا الاسم وكرهه له ونهيه عنه، وهم من وراء هذا الإصرار غير المبرر والحاد لدرجة أن يتكرر ثلاث مرات ويحابه بالرفض ثلاث مرات أرادوا الطعن بالإمام، وعد ذلك مثلبة من مثالبه التي تفتق الذهن المريض عن صنعها، ولكنها لم

(١) علل الشرائع، ص ١٣٧، حديث ٥، ونحوه في ذخائر العقبى، ص ١٢.

(٢) الذرية الطاهرة النبوية، الدولابي، مصدر سابق، حديث ٩٨، ص ٦٧.

تثبت بالوقوف بوجه النقد العلمي والعقلي.

• حديثهم عن مولود ثالث اسمه محسن بالرغم من اتفاق علماء مدرستنا أن محسنا سقط ميتا في حادث الباب يوم تحريق بيت فاطمة عليها السلام. وهدفهم من ذلك الإيغال في الدس وضرب أكثر من عصفور بحجر واحد. فضلا عن ذلك هناك روايات أوردها الدولابي لم يذكر فيها محسنا؛ تقول الأولى: «عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علي انه سمى الحسن بعمة حمزة وسمى الحسين بعمة جعفر، قال: فدعاني رسول الله فسمى الأكبر بحسن بعد حمزة وسمى الأصغر بحسين بعد جعفر»^(١) وتقول الثانية وهي أصح الروايات وأقربها إلى فكر أهل البيت عليهم السلام وإلى منزلة الإمام علي عليه السلام: «عن عمران بن سليمان قال: الحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنة».^(٢)

أما أقرب الروايات إلى العقل والمنطق فهي التي تذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وآله ذهب إلى بيت علي وفاطمة عليهما السلام قبل ساعة الولادة، لأنه يحبهما ويحب ذريتهما وكان ينتظر ولادة أول مولود من صلبه؛ وقد أخبره الله سبحانه أن ذريتهما أولاده الذين حُرِّمَ منهم من زوجاته على كثرتهم، ولأنه يعرف أن ذريتهما سوف يحملون أعباء الرسالة من بعده وينقلونها إلى الأجيال عبر التاريخ، وأن آخرهم هو المهدي المنتظر عليه السلام المنتقد الذي سوف يصلح الكون كله. وحينما وُلِدَ الوليد قالت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بصفته والد الصبي: «سمّه»، فقال لها بما معروف عنه من احترام للنبي وأمره وقوله: «ما كنت لأسبق باسمه رسول الله صلى الله عليه وآله. النبي صلى الله عليه وآله من جانبه لم يكن يريد مصادرة حق الوالد بتسمية ولده ولكنه كان يريد أن يصدر أمر التسمية من عند الله سبحانه وتعالى، فسأل عليا: «هل سمّيته؟» فأجابته: «ما كنت لأسبقك باسمه؟» فقال عليه السلام: «ما كنت لأسبق

(١) ينظر: الدولابي، مصدر سابق، حديث ٩٧، ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، حديث ٩٩ ص ٦٨.

باسمه ربّي ﷺ»، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى جبرائيل «أنّه قد وُلِدَ لمحمّد ابن؛ فاهبط وأقرأه السلام وهنّئه، وقل له: إنّ عليّاً منك بمنزلة هارون من موسى، فسّمه باسم ابن هارون»، فهبط جبرائيل ﷺ فهنّاه من الله عز وجل، ثم قال: «إن الله عز وجل يأمرك أن تسميه باسم ابن هارون»، قال: «وما كان اسمه؟ قال: «شبر»، قال: «لساني عربي»، قال: «سمه الحسن»، فسماه الحسن^(١) بدلالة أن الروايات اتفقت على أنه لم يكن يُعرف هذا الاسم (الحسن) عند العرب منذ عصر الجاهلية ولحين ولادة الإمام الحسن ﷺ.

وهذه الرواية مقاربة نوعاً ما لرواية المجلسي في البحار، وفيها أن النبي ﷺ جاء إلى بيت علي وفاطمة ﷺ وكانت الزهراء ﷺ قد ولدت الحسن ﷺ، فأُخرج إليه الوليد، فقال: «اللهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم، ثم أذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى»^(٢) إلا أنه يتبين من هذه الرواية أن الرسول ﷺ جاء بعد الولادة مباشرة.

المهم أن السياسيين أحدثوا في أمر التسمية وحضور النبي ابنته ساعة ولادتها أموراً يندى لها الجبين، وانهم كانوا يرفعون الروايات والأحاديث إلى أهل البيت ﷺ عسى أن يمر تدليسهم ولا يتنبه إليه أحد، وقد قالوا: «رُوي مرفوعاً إلى علي بن أبي طالب ﷺ: لما حضرت ولادة فاطمة ﷺ قال رسول الله ﷺ لأسماء بنت عميس وأم سلمة ﷺ: أحضرا فاطمة، فإذا وقع ولدها واستهل صارخاً فأذنا في أذنه اليمنى وأقيما في أذنه اليسرى.. ولا تحدثا شيئاً حتى آتيكما»^(٣)

ولا أدري لماذا لم يأمرهما النبي ﷺ بأن تخبرا أمه ﷺ لتؤذن وتقيم في أذنيه وهي

(١) ينظر: أمالي الصدوق، ص ١٩٨.

(٢) ينظر: البحار، المجلسي، ج ٤٣، ص ٢٥٧.

(٣) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ٦٢.

أكرم منهما، أو أن تجربا والده الإمام علي عليه السلام ليقوم بذلك؟ لماذا يطلب النبي ﷺ من آخرين التأذين والإقامة لابنه البكر؟ وما دور وصيته: «ولا تحدثا شيئا حتى آتيكما»؟ كما لا أدري ما مدى مطابقة هذه الرواية مع رواية أخرى أخرجها الشيخ نفسه وفيها: إن النبي ﷺ كان يروح ويغدو على بيت فاطمة عليها السلام منتظرا ساعة ولادتها، وإن بعض نساء المدينة كن عندها ساعة طلقها، ومنهن سودة بنت سرج، وإن النبي ﷺ أمرهم بأن لا يحدثوا شيئا، لا آذان ولا إقامة ولا أي أمر آخر لحين دخوله على ابنته؛ بعد أن تضع وترتاح من آلام الوضع، وتقول الرواية: «أخرج الحافظ عن سودة بنت سرج قالت: كنت ممن حضر فاطمة حين ضربها المخاض فأتانا رسول الله فقال: كيف هي؟ كيف هي؟ ابنتي فديتها! قلنا: إنها لتجهد، قال: فإذا وضعت فلا تحدثي شيئا حتى تبلغيني»^(١) علما أن الشيخ وبعد أن ذكر هذه الروايات التي نفى من خلالها أن يكون النبي ﷺ قد أذن في أذن ولده؛ عاد وأخرج رواية أخرى تؤكد بأن النبي ﷺ بشخصه هو من أذن وأقام في أذني ولده الحسن وتقول الرواية: «وأذن في أذنه، وسماه الحسن، ﷺ، وعق عنه بكبش»^(٢)

تشكيكهم أن النبي ﷺ عق عنه

لم يترك السياسيون التلاعب حتى مع أبسط شعيرة تخص حياة الحسن عليه السلام، وأبوا إلا أن يسيئوا لها ويكثروا الحديث بشأنها لكي لا يتركوها بنقائها جريا على عادتهم اللئيمة الحقود، ولذا تجد لهم أقوالا مختلفة بشأن أمر بسيط كالعقيقة يدعوك إلى الدهشة من مقدرتهم على التلاعب بعقول أتباعهم إلى هذا الحد، والنزول إلى أدق الشعيرات والخوض فيها، كما في حديثهم عن العقيقة.

(١) ينظر: حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ٦٣.

(٢) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ٦٢.

في حديثها عن أهم نقاط اهتمام الإسلام بالطفل، عدت الدكتورة مريم إبراهيم هندي من جامعة القاهرة العقيقة كواحدة من أهم هذه النقاط، كما في قولها: «إن من عظمة الإسلام أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا بيّنها، واهتم بها، ونَبّه عليها، وخاصة ما يتعلق بالإنسان، حيث اهتم الإسلام به قبل أن يخلق فقد حثّ الزوج على اختيار أمه على أساس الدين كما حثّ الولي أيضاً على اختيار الزوج على أساس الدين، واهتم به وهو جنين حيث شرع له عدة أحكام من حيث ميراثه وتحريم الجناية عليه وغير ذلك، واهتم به بعد أن يُولّد حيث حثّ على العقيقة عنه، واختيار الاسم الحسن له، وغير ذلك»^(١)

بل إن الدكتورة المصرية أوضحت سبب اختيارها للكتابة عن موضوع العقيقة قائلة: «إن كثيراً من هذه السنن قد اندثر، وانبهر المسلمون بالعادات الغربية من عمل السبوع، وإشعال الشموع وغيرها، فاخترت هذا الموضوع محاولة مني لتعريف الناس بهذه السنن ليلمسوها»^(٢)

إن مدرسة أهل البيت عليهم السلام تؤمن أن كون الإمام الحسن عليه السلام هو الابن البكر للنبي صلى الله عليه وآله من فاطمة وعلي عليهما السلام؛ بعد أن فقد أبناءه من قبل بأمر الله تعالى يدفعه حتماً إلى متابعة هذا الحدث الفريد بهمة عالية وشوق كبير وترقب وبحث عن تطبيق الشريعة بحذافيرها فيما يخص المولود الجديد ليتعلم الناس منه ما خفي عليهم أو لم يفهموه من قبل؛ ولكي يحصن الوليد ويربطه بالعقيدة ربطاً محكماً لا ينفذ منه شيطان أو إنسان، فقام بكل ما تستوجبه الولادة الجديدة من مهام وأولها التسمية الحسنة والأذان والإقامة في

(١) بحث بعنوان (أحكام العقيقة في الفقه الإسلامي) للدكتورة مريم إبراهيم هندي، مجلة كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، العدد (٢٨) سنة ٢٠٠١ م.

(٢) المصدر نفسه.

أذنيه، وهي أولى مراحل الإعداد النفسي للطفل لتركها سحر كلمات: (الله أكبر.. الله أكبر) التي تنساب كسيل عذب رفرق من بين شفطي النبي ﷺ لتتوغل في أعماق الوليد وتستقر في فكره وذكرته. ثم تلا ذلك حلاقة شعر رأس الوليد وذبح العقيقة عنه.

وأما العقيقة فنجد عنها في البحار: «وعقّ عنه، قال: بسم الله عقيقة عن الحسن عليه السلام»، وقال: اللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللهم اجعلها وقاءً لمحمد وآله. وحلق رأسه، وأمر أن يتصدق بزنة شعره فضة». (١) وفي رواية أخرى: «عق عنه بكبشين أملحين وأعطى القابلة فخذاً وديناراً». بل جاء في إحدى الروايات أن النبي ﷺ عق عن الحسن عليه السلام بيده الشريفة كما حلق شعره بيده الشريفة أيضاً، أي أنه ذبح العقيقة بيده الشريفة ولم يدع أحداً آخر يذبحها، وحلق له بيده الشريفة ولم يدع شخصاً آخر يحلق له: عن الصادق عليه السلام قال: «عق رسول الله عن الحسن بيده وقال: بسم الله عقيقة عن الحسن، وقال: اللهم عظمها بعظمه ولحمها بلحمه ودمها بدمه وشعرها بشعره، اللهم اجعلها وقاءً لمحمد وآله»، وهو ما لم يفعله مولود من مواليد المسلمين قط سوى الحسن والحسين عليهما السلام.

وتجد في البحوث الشرعية للمدارس الإسلامية عامة اهتماماً بالغاً بموضوع العقيقة تنضوي تحته تفرعات كثيرة تناولت حكم العقيقة بالشرح المفصل بدءاً من: تعريفها لغة، فتعريفها اصطلاحاً، فحكم تسميتها، ومن ثم حكمها، ومن يرى أنها سنة وأدلتها، أو واجبة وأدلتها، أو مستحبة وأدلتها، ثم فضلها وفوائدها، ومن يعق عن المولود، ومن يعق عنه؟ وهل يعق عن الكبير؟ وهل يجزي التصدق بثمانها؟ وهل يعق الإنسان عن نفسه إذا بلغ ولم يعق عنه؟ وهل يعق عن المولود لو مات قبل السابع؟ وهل يعق عن الذكر والأنثى أم عن الذكر فقط؟ الحيوان الذي يذبح في العقيقة، وشروطه، العدد

(١) ينظر: البحار، ج ٤٣، ص ٢٥٧.

الذي يذبح في العقيدة عن الذكر والأنثى، وقت الذبح، هل يجوز ذبح حيوان واحد عن أكثر من طفل؟ ما الحكم لو اجتمعت العقيدة والأضحية في يوم واحد؟ حكم كسر عظمها وطبخها والأكل منها والإهداء والتصدق، ولطخ جسم المولود بدمها، وبيع جلدها وسواقطها.

وفيها أيضاً أجوبة شافية لهذه المسائل؛ منها على سبيل المثال لا الحصر والتخصيص قول السيد محمود الهاشمي: (يستحب أن يُعَقَّ عن الذكر بذكر وعن الأنثى بأنثى سمينة سالمة من العيوب.. ويكره أن يأكل الأب منها أو أحد عيال الأب والأحوط للأُم الترك.. ويستحب أن تقطع جداول وقيل يكره أن تكسر العظام ويستحب أن تعطى القابلة منها الربع ويُقَسَّم الباقي على المؤمنين... ومن بلغ ولم يُعَقَّ عنه استحَب له أن يعق عن نفسه.. ولا يجزي عن العقيدة التصديق بثنائها ومن ضحي عنه أجزأته الأضحية عن العقيدة^(١))

ولم يكن التشيع وحده من أهتم بها فالمدارس الإسلامية كلها تقريباً تشترك في وجوب أهميتها كما تشترك في الكثير من أحكامها ولكن هناك من يحاول التعتيم على رأي التشيع بالعقيدة تماماً كما عتم السياسيون القدماء على عقيدة الإمام الحسن (عليه السلام)، حيث تقول الدكتورة مريم إبراهيم هندي من جامعة القاهرة أنها ومن خلال البحث تبين لها أن المذهب الحنفي وحده من يعتبر العقيدة بدعة، والمذهب الشيعي لم يتكلم عنها في كتب فقهِه^(٢) وكما في قولها: «وقد رجعت في هذا البحث إلى ستة مذاهب، وهى

(١) منهاج الصالحين المعاملات، فتاوى ساحة آية الله العظمى السيد محمود الهاشمي، ص

٣٩٧-٣٩٨، الجزء ٢.

(٢) لا تختلف هذه الدكتورة كثيراً عن سلفها أحمد أمين صاحب المنار الذي تطاول في حينه على الشيعة وأتهمهم بأنواع التهم ثم لما حضر إلى العراق ضمن وفد كان في منهاج زيارته زيارة النجف

المالكي، والشافعي، والحنبلي، والظاهري، والزيدي، والإباضي، وهى المذاهب التي وجدت لأصحابها كلاماً حول العقيدة، أما المذهب الحنفي فلم أجد لها ذكراً في كتبهم وذلك لأنهم يرون أنها بدعة كما هو مذكور عنهم في كتب الفقه المقارن، وأما الشيعة الإمامية فلم أجد للعقيدة ذكراً في كتاب شرائع الإسلام للحلي، ولا في تهذيب الأحكام للطوسي، ولا أدري السبب في عدم تناولهم لأحكامها^(١)، وأرى أن من المعيب أن يتوكأ بعض الباحثين على عصي واهية لتوهين معتقد الآخرين، والأكثر عيباً أن يكون الباحث من حملة الدرجات العلمية، وإلا فمن غير المعقول أن ترجع الدكتوراة إلى بحث أو اثنين لتثبت من خلالها حكماً شرعياً أو تنفيه.

إن الاهتمام الزائد بهذه المسألة البسيطة بالذات يعني أنها مهمة وأن المسلمين الأوائل عملوا بها بعد أن علمهم النبي ﷺ حكمها نظرياً من خلال المحاضرات وعملها من خلال عقده عن ذريته من علي وفاطمة وأولهم الحسن عليه السلام، والروايات التي نقلت حادثة العق عن الحسن عليه السلام كثيرة منها فضلاً عن روايات مدرستها:

وكرباء، فأهتم به علماءنا وناظروه بأقواله وأفحموه فأدعى أنه كتب ما كتب من غير أن يعرف فكان عذره أحق من فعله. وهذه الدكتوراة تشبهه في الحمق تماماً فهي لو اتعبت نفسها قليلاً لكانت وجدت مئات النقول الشيعية التي تتحدث عن وجوب العقيدة وأحكامها، ونحن لو لم نكن مهتمين بها لما أفردنا لها مبحثاً في كتابنا هذا. ومن خلال أحد هوامش بحثها ثبت لي أنها تعمدت ذلك، أي تعمدت عدم ذكر رأي التشيع لأنها تعد التشيع من الفرق الضالة كما في قولها في أحد الهوامش: (ومن المعلوم أن الإباضية والزيدية والإمامية من الفرق الضالة عن الصراط المستقيم وأهله. الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: أهل السنة والجماعة، وأنه لا يُعتد بكلامهم على الإطلاق، ولا عبرة بخلافهم، لا في العقائد والأصول، ولا في الأحكام والفروع غير أن بعض الكليات الشرعية ببلاد الإسلام (ومنها مصر) تشترط ذكر هذه المذاهب الثلاثة بالإضافة إلى الأربعة والظاهرية فالمذاهب المعتمدة زعموا:- ثمانية)

(١) بحث بعنوان (أحكام العقيدة في الفقه الإسلامي) للدكتوراة مريم إبراهيم هندي، مجلة كلية

دار العلوم - جامعة القاهرة، العدد (٢٨) سنة ٢٠٠١ م.

أخرج الدولابي عن محمد بن عمر: «لما ولد الحسن بن علي عق عنه رسول الله بكبش وحلق شعره وأمر أن يتصدق بوزنه فضة»^(١) وعن ابن عباس: «أن رسول الله عق عن الحسن كبشا وعن الحسين كبشا»^(٢) وفي سنن أبي داود: «عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ عق عن الحسن والحسين كبشا كبشا»^(٣) وفي سنن النسائي: في رواية أخرى عق عنهما: «كباشين كبشين»^(٤) وفي سنن الترمذي، عن الإمام علي عليه السلام: «عق رسول الله عن الحسن بشاة» وقال: «يا فاطمة أحلقي شعر رأسه وتصدقي بزنة شعره فضة»^(٥) وفي سنن البيهقي عن جابر: «أن النبي عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام»^(٦)

ومع أنه من غير المعقول بل من المستحيل أن يولد للنبي ﷺ مولود هو سيد شباب أهل الجنة فلا يعق عنه؛ إلا أن السياسيين وبغية التهويش والتشويش والتأثير على عقول الناس نوعوا الروايات التي تتحدث عن الإمام الحسن عليه السلام ليس عن زمن المجابهة معه فحسب، وإنما ابتداء من التسمية وحتى في طقوس الولادة الأخرى مثل حديثهم عن العقيقة، فادعوا بأن النبي ﷺ لم يعق عن الحسن عليه السلام؛ بل ومنع فاطمة عليها السلام من ذلك، لأنهم زعموا أن العقيقة من الموروث الجاهلي الذي أبطله الإسلام كما في رواية الدولابي: «عن أبي سلمه بن عبد الرحمن قال: سألت عن عقائق الولدان فقال: إنها كانت من عمل الجاهلية ولم أعق عن ولد لي قط. قال فسألت علي بن حسين فقال: اخبرني أبو رافع مولى رسول الله أن حسن ابن علي الأكبر أرادت أمه فاطمة أن تعق عليه بكبش عظيم فقال

(١) الذرية الطاهرة النبوية، الدولابي، مصدر سابق، حديث ١٠٣، ص ٦٩.

(٢) الذرية الطاهرة النبوية، الدولابي، مصدر سابق، حديث ١٠٥، ص ٧٠.

(٣) سنن أبي داود، في الأصاحي، حديث رقم ٢٨٤١.

(٤) سنن النسائي، باب كم يعق عن الجارية، ج ٧، ص ١٦٦.

(٥) سنن الترمذي، حديث رقم ١٥١٩.

(٦) سنن البيهقي، ج ٨، ص ٣٢٤.

رسول الله ﷺ: لا تعقي عنه بشيء ولكن احلقي رأسه وتصدقي بوزنه من الورق في سبيل الله»^(١)

ولقد وجدت الرواية في مسند أحمد تختلف قليلا، أوردها عن أبي رافع، قال: «إن حسن بن علي لما وُلِدَ أرادت أمه أن تعق عنه بكشين، فقال رسول الله ﷺ: لا تعقي عنه، ولكن أحلقي شعر رأسه فتصدقي بوزنه من الورق، ثم وُلِدَ الحسين فصنعت مثل ذلك»^(٢) فقط أرجو الانتباه إلى حديثهم عن إصرار فاطمة عليها السلام في هذا الأمر الذي يشبه حديثهم عن إصرار علي عليه السلام على اسم (حرب) الذي قالوا أن النبي غيره ثلاث مرات، وأسألوا أنفسهم: ماذا يراد من مثل هذه الأقوال؟ ولماذا علي وفاطمة عليها السلام فقط؟ وهل معنى ذلك أن عليا وفاطمة عليها السلام لو رزقا عشرة أولاد ذكور كان علي عليه السلام سيبقى مصرا على اسم حرب وكانت فاطمة ستبقى مصرة على أن تعق عن كل واحد منهم بكشين فيمنعها النبي ﷺ؟ ولماذا ذكروا قصصا تخص الحسن والحسين عليها السلام فقط، لماذا لم يذكروا قصصا عن بنات فاطمة عليها السلام والشرع يوجب العقيقة للذكر والأنثى، أم أنها لم تعق عن البنات، أم لأن دور البنات المجتمعي أقل انتشارا من دور الأبناء، أم ماذا؟

بفعل هذه الأحاديث الساقطة بقيت هذه العقيدة فاشية عند بعض الناس الذين كانوا ولا زالوا يعتقدون بأن النبي ﷺ لم يعق عن الحسنين عليها السلام، ومنع فاطمة عليها السلام من ذلك، بالرغم من قيامهم بذبح العقيقة عما يولد لهم من مواليد حتى بدا الأمر جالبا للشك والريبة والشبهة، فانبرى المتأخرون منهم للبحث عن تأويل لهذا الخطأ الكبير والخطأ الفاحش ومن هؤلاء الكاتب الليبي المتعصب الدكتور علي محمد الصلابي الذي بقي إلى أن وافته المنية وهو يعتقد أن الخلفاء العثمانيين المستعمرين هم الامتداد للخلافة

(١) الذرية الطاهرة النبوية، الدولابي، مصدر سابق، ص ٦٩-٧٠، حديث ١٠٤ .

(٢) مسند أحمد ج ٦، ص ٣٩٢.

الإسلامية الشرعية! فأراد تلطيف التعارض فادعى: «وإنما صرفها ﷺ عن العقيدة لتحمله عنها ذلك؛ لا تركا بالأصالة»^(١) وأقول له: وماذا عن الحديث الذي أخرجه الدولابي وجاء فيه: «إنها كانت من عمل الجاهلية، ولم أعق عن ولد لي قط» وكيف يستقيم قولك مع قوله؟ وبماذا تعلق ذلك القول؟!

أرجو هنا ملاحظة أنه بالرغم من كون الدولابي شافعي المذهب قبل أن يتحول إلى المذهب الحنبلي^(٢) وبالرغم من أن المذهب الشافعي أفتى بأن ذبح العقيدة للمولود سنة مؤكدة استنادا إلى خبر قيام النبي ﷺ في ذبح عقيدة عن الإمام الحسن ﷺ، حيث يرى الشافعية أن الإمام الشافعي احتج في كون العقيدة سنة عن المولود بالحديث الذي جاء فيه أن النبي عق عن الحسن ﷺ وحلق شعر رأسه^(٣) إلا أن تحوله المذهبي إلى المذهب الحنبلي المتشدد هو الذي أوقعه بذلك الخلط الكبير.

إن اختلاف رأي مذاهب مدرسة الخلفاء بحكم العقيدة بين الوجوب والإباحة

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ط٨، علي محمد الصلابي، ص

(٢) وترجمه ابن العماد الحنبلي (ت / ١٠٨٩ هـ) قائلا: (عني بالحديث بعد أن برع في الفقه وتحول من مذهب الشافعي إلى مذهب الحنابلة - ونقل عن ابن رجب قوله: كان والده شابا تركيا محدثا فاضلا من أصحاب أبي بكر الخطيب الحافظ... وخالط ابن ناصر الحنابلة ومال إليهم وانتقل إلى مذهبهم لمنام رأى فيه النبي ﷺ).

ويظهر أن عوامل الغربة واليتم لكونه تركي الأصل وأنه حُرِمَ رعاية والده شابا جعلته يتصل بحنابلة بغداد - وأصحاب الشوكة آنذاك - وأن يركز في حياته على العلم ويرتوي من نمير الأدب والفقه والحديث على الأعلام البارزين في هذه الفنون حتى لقب بمحدث بغداد بلا منازع. شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ١٥٦.

(٣) ينظر: مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن القرشي

والكراهة والحرمة جاء بالتأكيد من تلك الروايات الموضوعية؛ بما يعني أن السياسيين وحراكهم العدواني ضد أئمة أهل البيت عليهم السلام ألحق الضرر حتى بباقي المذاهب وأوقعها بمشاكل عمقت الخلاف بينها.

والدكتورة المصرية بعد أن قالت عن العقيدة إن: «فيها معنى القربان، والصدقة والشكر لله تعالى وأنها فدية يفدى بها المولود من المصائب، وفيها إظهار الفرح والسرور بإقامة شرائع الإسلام، وإرفاء موارد التكامل الاجتماعي بين الناس». أدلت برأيها بشأن حكم العقيدة فقالت: «يرجح القول باستحبابها على القول بوجوبها، على القول بكراهتها، وأنها بدعة»^(١) بمعنى أنها أفتت باستحباب العقيدة ومع ذلك جاءت بمجموعة أقوال فقهية بعضها سنن والآخر شرط والثالث يجوز ولا يجوز والرابع إجماع والخامس اختلاف لكي تبين الحكم الشرعي للعقيدة التي ادعوا بأن النبي صلى الله عليه وآله لم يذبحها لولده الحسن عليه السلام، فكيف يستقيم ما جاءت به مع ما جاء به الأقدمون؟

ونظرا لأهمية ما توصلت إليه الدكتورة من أحكام، ولكي أبين التناقض الكبير في هذه الأحكام سأوردها لكم مختصرة من أقوالها، حيث خلصت بالقول إلى أن: ذبح العقيدة أفضل من التصديق بثمنها. يستحسن أن يقوم بها الأب. وإن قام بها غيره فجائز. يسن أن يُعَقَّ عن الكبير، وأن يُعَقَّ الإنسان عن نفسه بعد البلوغ؛ لأنها مشروعة عنه، وهو مرتين بها، ومحتاج لحفظ الله ورعايته طيلة حياته. إن مات الطفل قبل السابع اختلف العلماء في العقيدة عنه حيث يرى البعض أنها تسقط، وقيل: يسقط استحبابها، وقيل: لا تسقط. يعق عن الذكر والأنثى لقوة أدلة من يرى ذلك وترجيحها على أدلة من يرى أنه لا يعق عن الأنثى. لا يجوز في العقيدة إلا الأزواج الثمانية، ذكورهم وإناثهم.

(١) بحث بعنوان (أحكام العقيدة في الفقه الإسلامي) للدكتورة مريم إبراهيم هندي، مجلة كلية

يشترط في الحيوان: أن يكون جَذَعٌ ضَانٌ وثْنِي سواه، ولا يجوزُ الجذع من الماعز، وأن تكون سليمة من العيوب على اختلاف بين المذاهب في بعض العيوب واتفاقهم على بعضها. أجمع العلماء على استحباب استحسان لون حيوان الأضحية، والأبيض أفضل من خلافه، والأقرن أفضل من الأجم، والذكر أفضل من الأنثى، والفحل أفضل من الخصي؛ إلا أن يكون الخصي أسمن. اختلف العلماء في تسمينها لكن الراجح جواز ذلك. أجمع العلماء على أنه يذبح عن الأنثى شاة واحدة، واختلفوا في العدد الذي يذبح على الذكر: حيث ذهب الجمهور إلى أنه يذبح عنه شاتان، وذهب البعض الآخر إلى أنه يذبح عنه شاة واحدة. اختلف العلماء في وقت ذبح العقيقة حيث يرى البعض أن السنة أن تذبح يوم السابع، وإن ذبحت قبله يجوز، وإن ذبحت بعده تجزئ، ويرى البعض الآخر أنها لا تجزئ قبل يوم السابع، وإن ذبحت بعده أجزأت. لا يجوز ذبح حيوان واحد عن أكثر من طفل. إذا اجتمعت العقيقة والأضحية في يوم واحد أجزأت إحداهما عن الأخرى. اختلف العلماء في كسر عظام العقيقة حيث يرى البعض أنه لا تكسر عظامها، ويرى البعض الآخر جواز كسرها. السنة طبخ العقيقة وأن توزع عليهم في بيوتهم، وإن طبخها ودعا الناس إليها فحسن، وأنه يجوز الإطعام منها نيئاً. السنة أن توزع أثلاثاً كالأضحية. ثلثاً للفقراء، وثلثاً هدية، وثلثاً لأهل بيته. يجوز بيع جلد ورأس وسواقط العقيقة ويتصدق بثمنه، وهي بذلك تخالف الأضحية حيث لا يجوز في الأضحية بيع هذه الأشياء. لا يجوز لطخ رأس وجسم المولود بدم العقيقة وهو رأى الجمهور، لأن دليل من يجوز ذلك فيه وهم من راويه، وقيل: إنه منسوخ، وقيل: إن هذا كان من أعمال الجاهلية.^(١)

المهم أن هذه التفرعات الصغيرة وبالرغم من عدم أهميتها تجدها تحولت إلى مادة

(١) ينظر: أحكام العقيقة في الفقه الإسلامي، الدكتورة مريم إبراهيم هندي، مصدر سابق

دسمة بيد السياسيين، وتراهم يلتفتون إليها ويعتنون بها ويدخلونها في مشروعاتهم التخريبي، ولقد ثبت أن النظريات السياسية المعاصرة والعمليات المخبرانية الحديثة تهتم كثيرا بمثل تلك الجزئيات لتستخدمها في تحليل الشخصية التي تريد دراستها ومعرفة أسرارها، أو تريد محاربتها وتسقيطها. وبذا تتبين درجة الوعي السياسي العربي الذي حارب خط الإمامة المعصومة، ويتبين مقدار الجهد الذي بذلوه في محاربة المشروع الإلهي، وتبين عظمة الإمام الحسن عليه السلام الذي نجح بالتصدي لمشاريعهم التخريبية.

تشكيكهم في صحبته

أمضى الإمام الحسن عليه السلام مع جده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ما يناهز الثمان سنوات من عمره، وكان النبي يحبه حباً جماً، وكثيراً ما كان يحمله على كتفيه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه» وهو بموجب تعريفهم للصحبة يعد من الصحابة بل من ساداتهم، وبما أُلزموا به أنفسهم نلزمهم.

فضلا عن ذلك كان الإمام الحسن عليه السلام من حيث العمر مقاربا لأعمار مجموعة من الأولاد الذين ولدوا بعد الهجرة من الذين أخرج لهم البخاري ومسلم عددا لا يستهان به من الأحاديث التي بُنيت عليها أحكام شرعية يتعبد بها الناس مثل المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وغيرهم، بينما أغفل البخاري ومسلم^(١) رواية الحسن عليه السلام بالرغم من منزلته وقربه من جده النبي ومن أبيه علي وأمه فاطمة عليهما السلام.

(١) لم يخرج مسلم أو البخاري أحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: الإمام الحسن والإمام موسى بن جعفر والإمام الرضا، والإمام الجواد والإمام الهادي، والإمام العسكري عليهم السلام بالرغم من أن البخاري كان معاصرا للإمام العسكري مثلاً. ينظر: أضواء على الصحيحين دراسة وتحليل لصحيح البخاري ومسلم، تعريب يحيى كمالى البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، ١٤١٩، ص ١١٣.

وهما أحب الناس وأقربهم إلى رسول الله ﷺ. ويعني هذا أن السياسيين العرب نجحوا في التأثير على الرواة والمؤرخين والمدونين لكي يطمسوا فضائل الإمام الحسن (ع)؛ ويستنهضوا همم من سار على نهج العداء لهم، وقد نجحوا في ذلك مع أن الله سبحانه أبى أن تتجاوز الأيام والشهور الإمام الحسن (ع) ولا تحمل من ضوع عطره؛ فزرع محبته في قلوب الطيبين الذين نقلوا حديثه إلى الناس عبر التاريخ.

إسهامه في الفتوح

من المؤكد أن الإمام الحسن (ع) اشترك في جميع حروب والده الإمام علي (ع) في البصرة وصفين والنهروان، ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد اشترك في الفتوح قبل هذا التاريخ. ومع أنهم لم ينجحوا بتاتا في إثبات اشتراكه في الفتوح التي تمت في خلافة عمر بالرغم من كونه كان يومذاك شابا يافعا تجاوز العشرين من عمره الشريف، إلا أن هناك من يدعي كذبا وتدليسا أنه (ع) شارك في فتح شمال أفريقيا وطبرستان. وقالوا أنه في خلافة عثمان بعد أن بلغ عمره نيف وعشرين عاما «انضم إلى المجاهدين حيث اتجهت ألويتهم إلى احتلال أفريقيا»^(١) فلماذا لم يشارك الإمام الحسن (ع) في فتوح عصر عمر وشارك في فتوح عصر عثمان بالرغم من سيطرة الأمويين على مقاليد الأمور وتحكمهم بمن يشارك في تلك الفتوح ومن يعفى من المشاركة فيها؟ علما أن المؤرخين أجمعوا تقريبا على أن الفتوح في عصر عثمان كانت سياسية أكثر منها عقائدية، وأن الأمويين كانوا يمجرون أعداءهم فيها لكي يتخلصوا من خطرهم، وهم من المستحيل أن يجبروا الحسن (ع) كما أجبروا الآخرين للاشتراك عنوة في تلك الفتوح المسيسة.

ولذا تجد هناك جمعا كبيرا أنا من ضمنهم يشككون بل يرفضون التصديق باشتراك

(١) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ص ٦١.

الحسن عليه السلام في تلك الفتوح لأن رواياتهم عن اشتراكه فيها كانت غير دقيقة وبدليل قاطع، والشيخ الزين رد على الكاتب المصري الذي ادعى أن خالد بن الوليد والحسن بن علي الذي كان يصحبه في الفتح الإسلامي أقاما الصلاة في جامع (قزوين) بقوله: «والحال أن خالد توفي سنة ٢١ هجرية قبل فتح قزوين بسنة ونصف، على ذلك أبو الفداء ج ١ صفحة ١٦٤ من تأريخه ونص ابن الأثير أيضا وابن عساكر وأثبتوا أن الذي فتح قزوين هو البراء، وإن همدان فتحها حذيفة بن اليمان وافتتح الري؛ ولم تكونا فتحتا من قبل، انظر مجلد ٤ صفحة ٢٠٠ من تأريخ ابن عساكر، وإنا لم ندر على كثرة البحث في هذه المسألة إلى أي مصدر استند الرحالة في دعوى وصول خالد إلى قزوين المفتوحة بعد موته؟ ومن دعوى صحبة الحسن بن علي عليه السلام خالد في فتوحه»^(١)

وأرى أنه ما كان للإمام علي عليه السلام أن يتأخر هو أو يؤخر إشراك بعض أو كل أولاده في تلك الفتوح قادة أو منقادين لو كانت مشابهة للفتوح التي أشترك فيها مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عصر البعثة؛ ولكنه عليه السلام كان ينظر إليها بخلاف ما يراها الآخرون؛ ويعرف غاياتها وأهدافها؛ ولذا امتنع ومنع أولاده عن الإسهام فيها تطبيقاً لمباني عقيدته، وبالتالي من غير المحتمل أن يسمح لأولاده بالاشتراك بها لا يشترك فيه أو يشكك بصحته وشرعيته. ومن الطبيعي أن لا يشترك الجميع في هذا الرأي، فالشيخ محمد اليعقوبي يرى أن الحسن والحسين عليهما السلام شاركوا في الفتوح بوصفها جزءاً من عطائهما للأمة^(٢) وفي هذا القول نظر.

(١) الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزين، هامش ص ٩٦.

(٢) ينظر: دور الأئمة في الحياة السياسية، الشيخ محمد اليعقوبي، ص ٣٣٧.

الخلط بين مهام إمامته وخلافته

تعتقد مدرستنا أن إمامة الإمام المعصوم تبدتدئ مع بدء حياته، كما هو النبي المرسل تبدأ نبوته مع بدء حياته حتى مع وجود رسول أو رسل آخرين، وتبدأ إمامته حتى مع وجود إمام أو أئمة آخرين ولكن (النبي والإمام) لا يصرح ما لم يُؤمر بذلك تماما كما يعلن النبي بدء دعوته المأمور بتبليغها، وعليه بدأت إمامة الحسن عليه السلام المصريح والمأمور بإعلانها بعد موت أبيه مباشرة بالمنصبين (الإمامة والخلافة) حيث أقام في خلافته عدة أشهر على اختلاف الأقوال، وأقام في إمامته إلى أن انتهت بمقتله مسموما على يد أعدائه السياسيين في سنة خمسين من الهجرة على اختلاف الأقوال أيضا مما ادخل السرور إلى قلوبهم والحزن والكمند إلى قلوب المؤمنين. ولكن هناك من يرى أن الحسن عليه السلام بتنازله عن الخلافة لمعاوية تنازل عن الإمامتين الدينية والدنيوية ولم يعد إماما إلا بنظر أهله وبعض المقرين منه، وهذا خلط أريد منه تشويه الحقائق وحرف مسار التاريخ وشرعنه سيطرتهم على دولة الإسلام.

ولا خلاف لدينا نحن الشيعة على استخلاف الإمام الحسن بنص من أبيه عليه السلام وبوصية من جده النبي الأكرم عليه السلام؛ ونقولنا في ذلك لا حصر لها ولا يرقى إليها شك، ففي أصول الكافي باب تحت عنوان (الإشارة والنص على الحسن بن علي عليه السلام) ضم سبعة أحاديث منها ما فيه نص صريح، ومنها ما فيه إشارة إلى التنصيب. ومما جاء في النص على إمامته من أحاديث:

١. عن سليم بن قيس قال: «شهدت وصية أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه

الحسن عليه السلام وأشهد على وصيته الحسين عليه السلام ومحمدا وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال لأبنة الحسن عليه السلام: يا بني: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك وأن ادفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليّ رسول الله ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن أمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين عليه السلام...»^(١)

٢. عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام لما حضره قال لأبنة الحسن: أذن مني حتى أسرك ما أسر رسول الله صلى الله عليه وآله إليّ وأئتمنك على ما أئتمني عليه، ففعل»^(٢)

أما ما جاء إشارة إلى إمامته، فمنه:

١. عن أبي بكر الحضرمي قال: «حدثني الأجلح وسلمة بن كهيل وداود بن أبي يزيد وزيد اليمامي قالوا: حدثنا شهر بن حوشب: إن عليا عليه السلام حين سار إلى الكوفة استودع أم سلمة كتبه والوصية، فلما رجع الحسن عليه السلام دفعها إليه»^(٣)

٢. عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن عليا حين سار إلى الكوفة استودع أم سلمة كتبه والوصية، فلما رجع الحسن عليه السلام دفعها إليه»^(٤)

ومن مجمل هذه الروايات نستخلص وجود اتفاق بين رجال مدرستنا بأن الإمام علي عليه السلام أوصى بالخلافة لأبنة الحسن عليه السلام وهو على فراش الموت، ورواياتنا في ذلك لا تحصى ولا تعد، ولكن أبناء الفصيل السياسي شككوا بهذه الروايات وجاءوا بروايات

(١) أصول الكافي، ص ٢١٧-٢١٨ حديث رقم ١.

(٢) أصول الكافي ج ١، ص ٢١٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٨.

أخرى يدعي بعضها أن قسما وليس كل رجال الأمة انتخبوا الحسن عليه السلام خليفة، ولا يوجد نص من علي عليه السلام على توليه الخلافة. وأبقى القسم الآخر الأمر سرا فلم يشر إلى الطريقة التي أستخلف بها الحسن عليه السلام، كما حاول الصلابي أن يوحى بنقله عن مجمع الزوائد ومسند أحمد: «عن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليا يقول: لتخضبن هذه من هذا، فما ينتظر بي الأشقي. قالوا: يا أمير المؤمنين فاخبرنا به نبير عترته، قال: إذن تالله تقتلون بي غير قاتلي. قالوا: فاستخلف علينا؟ قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله! قالوا: فما تقول لربك إذا أتيت؟ قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم»^(١).

وبنقله عن عقيدة أهل السنة في الصحابة: «روى البيهقي بإسناده إلى شقيق بن سلمه، قال: قيل لعلي بن أبي طالب: ألا تستخلف علينا؟ فقال: ما استخلف رسول الله فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيرا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم»^(٢).

وهي نقول تفوح منها رائحة التحيز الكبير، جيء بها لتدعم نظرية الخلافة المخالفة والمعارضة لنظرية الاستخلاف والوصية في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ومن خلال تلك النقول المحرفة والكاذبة حاول الصلابي تفنيد مزاعم النص على خلافة الحسن عليه السلام فقال: «عند حديثنا عن بيعة الحسن تبرز أمامنا قضية يروج لها الشيعة الإمامية بقوة، ألا وهي قضية النص على خلافة الحسن عليه السلام من قبل والده علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا الأمر يعد من المفتريات على أمير المؤمنين علي حيث لم يصح النقل عنه بذلك»^(٣).

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، علي محمد الصلابي، ص ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٣) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، الصلابي، ص ١٥٧.

وقال أيضا: «هذه النصوص القطعية يتضح بجلاء أن لا أصل للوصية المزعومة وأن ما أعتمد عليه الإمامية هو من وضع عبد الله بن سبأ الذي هو أول من أحدث الوصية»^(١)

لقد طعن أحفاد الفصيل السياسي في شرعية خلافة الحسن عليه السلام لأنهم كانوا يبحثون عما يطعنون من خلاله بالتشيع فلم يجدوا أمامهم طودا سوى الحسن عليه السلام لكي يبان أثر طعتهم للجميع، طعنوه لأنه ركن الإمامة المعصومة لكي يبطلوا قضية النص التي تؤمن بها بدلالة أن الصلابي نفسه اعترف بهذا الجهد وأقره من خلال قوله: «إن من أخطر الأمور التي ابتدعتها الشيعة: الوصية، وهي أن رسول الله أوصى بالخلافة بعد وفاته مباشرة إلى علي... ولكن بالاستقراء التأريخي لتأريخ الخلفاء الراشدين لا نجد للوصية ذكرا»^(٢)

وخرج الرجل بنتيجة مفادها: «إن مسألة النص لا تثبت بأي وجه من الوجوه، ومسألة حصر الأئمة بعدد معين مردودة بالكتاب والسنة، كما لا يقبلها العقل ومنطق الواقع»^(٣). واجد أن الرد عليه سوف يدخلنا في متاهات لا حصر لها لأننا ومنذ فجر تأريخ الإسلام نكتب ويكتبون في هذا العنوان بالذات فلم نفلح في إقناعهم بأقوالنا وعجزوا عن مجرد إثارة إعجابنا البسيط بأقوالهم. ولكني لا أرغب بمغادرة هذا المبحث قبل أن أذكر الصلابي بالحديث المتواتر الذي أخرجه جميع الذين عنوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله والذي يذكر عدد الخلفاء الاثني عشر من قريش لأقول له: ألا يخالف ما ادعيته تلك النقول التي حصرت عددهم؟ إن رفض الصلابي فكرة النص على الإمام الحسن عليه السلام

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٠

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٣

يأتي مكملًا للجهد القديم من أجل تقويض فكرة الإمامة من أصولها، وكانت فكرة تكذيب النص على إمامة وخلافة الحسن عليه السلام المنفذ الذي نفذ منه!

قد يكون موضوع الخلافة واحداً من مواضع ظلم الإمام الحسن عليه السلام وما تعرض له، فمع أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام أوردت أحاديث كثيرة عن بيعة الحسن عليه السلام للخلافة الدنيوية فضلاً عن بيعته للإمامة الشرعية، وهذا ما أكدت عليه مدرستنا دائماً، وأكدت أن الإمام علي عليه السلام حينما طعن سلمه سلاحه وسائر تراث الأنبياء الموجود لديه. أما مدرسة الخلفاء فكانت ولا زالت ترى أن الحسن عليه السلام كان خليفة للمسلمين، ثم انتهى دوره بعد تنازله لمعاوية وأصبح فرداً من سائر الناس، بل وترى أن الحسن عليه السلام استغل بنوته للإمام علي عليه السلام ففرض نفسه على الخلافة فرضاً، ويروون في ذلك حديثاً قالوا فيه: «إن المسلمين سألوا علياً عن خليفته فقالوا: من ستخلف علينا؟ فقال: ما أستخلف رسول الله فأستخلف ولكن إن يرد الله للناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خير» وها أنت تشم في هذا الحديث رائحة (عام السنة والجماعة) للتدليل على أن الله أراد بالمسلمين خيراً يوم جمعهم على معاوية بشهادة علي!

ويروون حديثاً آخرًا قالوا فيه: إنه سُئِلَ هل يستخلف الحسن عليه السلام؟ فقال: «لا آمركم ولا أنهاركم».

إن هذه الروايات المتحيزة وضعت وقيلت لكي تنتصر لمؤتمر السقيفة وما جاد به من نظم استخلافية امتدت على مدى أكثر من ثلاثين عاماً من عمر الإسلام، ولكنها بدت في منتهى الوهن وهي تصطدم بحقيقة بيعة الإمام الحسن عليه السلام للخلافة في وقت رأى فيه مروجوها أن هناك في المجتمع الإسلامي من هم أكثر استحقاقاً من الإمام الحسن عليه السلام، إذن لابد وأن تكون هناك بيعة شرعية عثم عليها السياسيون هي التي

جاءت بالحسن عليه السلام إلى السلطة متجاوزاً من كانوا يرونهم أهلاً لها.

أما الروايات التي تتحدث عن بيعة بدت كرد فعل على مقتل الإمام علي عليه السلام فهي لا تقل وهنا عن سابقاتها، حيث تنقل الروايات التاريخية أن المسلمين فزعوا بعد موت الإمام علي عليه السلام وأجمعوا أمرهم على مبايعة الحسن عليه السلام، فاجتمعوا في جامع الكوفة سنة (٤٠) من الهجرة في صباح (٢١) رمضان، وقدم قيس بن سعد وعبد الله بن عباس الإمام للخلافة وبايعاه. أو كما يقول اليعقوبي: «واجتمع الناس فبايعوا الحسن بن علي»^(١) وكان ابن قتيبة الدينوري أكثر وضوحاً حتى أنه وصف مبايعة الإمام الحسن وكأنها من سنخ بيعة أبيه يوم ثار الناس إلى مبايعته فيقول: «وذكروا أنه لما قُتِلَ علي بن أبي طالب ثار الناس إلى الحسن بن علي بالبيعة»^(٢).

أما باقي المؤرخين فإما أنهم أوردوا الخبر مموهاً كما في قول ابن الأثير في الكامل في حديثه عن سنة أربعين: «وفي هذه السنة، أعني سنة أربعين، بويع الحسن بن علي بعد مقتل أبيه»^(٣) وقول الطبري في حديثه عن سنة أربعين هجرية: «وفي هذه السنة، أعني سنة أربعين بويع للحسن بن علي عليه السلام بالخلافة»^(٤) ثم في رواية أخرى حصر بيعة الحسن عليه السلام بأهل العراق وحدهم دون غيرهم من المسلمين، فقال: «واستخلف أهل العراق الحسن بن علي عليه السلام على الخلافة»^(٥) وكأنه يريد أن يوحي بأن أهل العراق وحدهم اختاروا الحسن عليه السلام خليفة؛ وبالتالي من حق الشام أن تختار معاوية خليفة،

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢، ص ١٤٩.

(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج ١، ص ١٨٣.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٥٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٤١.

(٥) المصدر نفسه.

ومكة أن تختار ابن الزبير خليفة! ناسيا أن العراق كانت عاصمة الخلافة وما يحدث فيها يمثل جميع الأمصار إلى أن تتضح مواقفها.

إن هذا التنوع ليس بريئا بالمرة، ولا يمكن اعتباره من الحديث المسترسل لأنه كان قد أنتقي بدقة ليعبر عن منهج سياسي يمثل رسالة فكرية يجب تمريرها إلى الأجيال اللاحقة. وهو من سنخ مسعاهم الكبير للتضليل على واحد من أشهر أحاديث النبي الأكرم ﷺ المستقبلية التي قالها محذرا الأمة، ولكن السياسيين امتصوا وهج الحديث، ثم نقلوه بعد حين وكأنه مجرد حديث خرافة، مع أن كتب الحديث المشهورة نقلته وشرحته في أكثر من مكان ولأكثر من سبب واستنبطوا منه إحكاما شرعية يتعبدون بها. فقد ثبت في الصحيحين من رواية عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ: «يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».

وهو الحديث الذي رواه أبو داود من طريق آخر «عن جابر بن سمرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون. وفي رواية: لا تزال هذه الأمة مستقيماً أمرها ظاهرة على عدوها حتى يمضي منهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش، قالوا: ثم يكون ماذا؟ قال: ثم تكون الفرج فهؤلاء المبشر بهم في الحديثين ليسوا الاثني عشر الذين زعم فيهم الروافض ما يزعمون من الكذب والبهتان وأنهم معصومون، لأن أكثر أولئك لم يل أحد منهم شيئاً من أعمال هذه الأمة في خلافة، بل ولا في قطر من الأقطار ولا بلد من البلدان، وإنما ولي منهم علي وابنه الحسن بن علي (ع)». (١)

ولذا تجد ابن كثير يقول تحت عنوان (ليس المقصود بالخلفاء القرشيين الاثني عشر أولئك الذين تتابعوا بعد الرسول ﷺ) سرداً: «وليس المراد من هؤلاء الاثني عشر الذين

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، ص ٨.

تتابعت ولايتهم سرّاً إلى أثناء دولة بني أمية لأن حديث سفينة: (الخلافة بعدي ثلاثون سنة) يمنع من هذا الملك، وإن كان البيهقي قد رجحه وقد بحثنا معه في كتاب دلائل النبوة في كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته والله الحمد، ولكن هؤلاء الأئمة الاثني عشر وجد منهم الأئمة الأربعة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وابنه الحسن بن علي أيضاً، ومنهم عمر بن عبد العزيز كما هو عند كثير من الأئمة وجمهور الأمة والله الحمد، وكذلك وجد منهم طائفة من بني العباس وسيوجد بقيتهم فيما يستقبل من الزمان حتى يكون منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة فيه كما سيأتي بيانها وبالله المستعان وعليه التكلان، وقد نص على هذا الذي بيناه غير واحد كما قررنا ذلك^(١). وهكذا تتضح الأسباب الحقيقية التي تعللوا بها للإعلان عن تنازل الحسن عليه السلام عن الإمامة الدينية كتحصيل حاصل لتنازله عن الإمامة الدنيوية، وهذا خلط كبير غير مستساغ، ولكن السياسة تستسيغ عادة ما لا يستسيغه الدين.

(١) المصدر نفسه، ابن كثير.

التلاعب بتاريخ وفاته

وكما كثرت الأقوال في تأريخ مولده الشريف؛ كثرت كذلك في يوم وشهر وسنة وفاته، وفي مدة عمره الشريف؛ ليس من قبل المؤرخين وحدهم بل حتى من مشاهير وأعاضم العلماء مثل الكليني والمفيد والطبرسي وغيرهم، وهذا التخطئ مصدره تلك الروايات التي وضعها السياسيون وثبتها المؤرخون الموالون لهم في كتب التاريخ؛ فاختلط الأمر على من جاء بعدهم، وباتت معرفة الحقيقة أشبه بالمستحيل.

فعن يوم الوفاة قالوا: قُبِضَ مسموماً على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بتخطيط من معاوية وذلك في السابع من صفر. وقالوا: في يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر. وقالوا: لخمس خلون من ربيع الأول. وقالوا: لخمس بقين من ربيع الأول.

وعن شهر الوفاة قالوا: قبض في ربيع الأول لخمس بقين منه. وقيل: في صفر لليلتين بقيتا منه. وقيل: في السابع منه. وقيل: في العاشر من المحرم يوم الأحد.

وعن سنة وفاته قالوا: توفي سنة أربعين. توفي سنة أربع وأربعين. توفي سنة خمس وأربعين. توفي سنة ست وأربعين. توفي سنة سبع وأربعين. توفي سنة ثمان وأربعين. توفي سنة تسع وأربعين، كما في قول ابن الأثير وابن حجر في تهذيب التهذيب وأبو الحسن المدائني كما نقل عنه المعتزلي في شرح النهج، والمسعودي في التنبيه والإشراف. توفي سنة خمسين كما في قول الزبير بن بكار الذي نقله المعتزلي.^(١) توفي سنة إحدى وخمسين،

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٤.

وذهب إلى ذلك الخطيب البغدادي في تأريخه وابن قتيبة في الإمامة والسياسة. وآخرها قولهم: إنه توفي سنة ثمان وخمسين من الهجرة.

معنى هذا أن هناك عشرة تواريخ محتملة لسنة وفاته عليه السلام، ويأتي هذا التناقض مع أهمية وفاة الحسن عليه السلام بوصفها واقعة بالنسبة إلى محبيه وشيعته من جانب، وإلى مبغضيه وأعدائه من جانب آخر بما يبدو وكأن هذا التناقض الصارخ ليس من اعتبارية المؤرخين وعدم دقة الرواة، وإنما هو عمل محكم الصنع من تخطيط السياسيين الذين اعتقدوا أن الفوضى الخلاقة التي أوقعوها في مجمل سيرة الإمام الحسن عليه السلام سوف تصنع حجاباً سميكاً بينه وبين تأريخ الأمة فلا يذكره التأريخ إلا بقصص مملوءة بالشك القائم على مبدأ (قالوا) و (قيل) و (يقال) من دون أن يُعرف من يقف وراء هذه الأقوال الخفية. وتبعاً لذلك خلقوا الاختلاف في تأريخ استشهادهم وفي مدة عمره الشريف عند موته، فقالوا: مات وله من العمر سبع وأربعون سنة، أو ست وأربعون وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وقيل غير ذلك.

ومن الغريب والمدهش أن تجد هذه التناقضات في عمدة كتب تأريخ الإسلام بما يدعو إلى الدهشة والاستغراب، صحيح أن مثل هذا التناقض ليس غريباً على تأريخنا الذي يمكن وصفه بأنه تأريخ التناقضات؛ ولكنه من حيث حجم التناقض لم يكن بالشكل الذي مر في سيرة الإمام الحسن عليه السلام وهذا يؤكد دور السياسيين العرب في صنع هذا الإرباك المتعمد، وفي أدناه مقتطفات من أقوال المؤرخين الكبار عن هذا التناقض:

ففي حديثه عن سنة تسع وأربعين هجرية قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة توفي الحسن بن علي سمته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي»^(١)

وقال الأصفهاني: «واختلف في مبلغ سن الحسن وقت وفاته... عن هشام بن سالم وجميل بن دراج، عن جعفر بن محمد: أنه توفي وهو ابن ثمان وأربعين سنة... عن عبد الله بن مشكان عن أبي بصير عن جعفر بن محمد: أن الحسن توفي وهو ابن ست وأربعين»^(١)

وقال المسعودي: «وتوفي بالمدينة مسموما فيما ذكر في شهر ربيع الأول سنة ٤٩، وله ست واربعون سنة»^(٢).

وقال السيوطي: «وكانت وفاته سنة تسع وأربعين، وقيل في خامس ربيع الأول سنة خمسين وقيل: سنة إحدى وخمسين»^(٣).

وفي الجزء الأول من كتابه فجر الإسلام أورد أحمد أمين جدولا بأهم الأحداث في ذلك العصر؛ مبتدأ بسنة (١٢) هجرية التي مات فيها رسول الله ﷺ، وحينما وصل إلى سنة (٤٩) هجرية أشار إلى أن موت الإمام الحسن وقع فيها»^(٤).

وفي تأريخه قال اليعقوبي: «وتوفي الحسن بن علي في شهر ربيع الأول سنة ٤٩»^(٥).

وفي مقاتل الطالبين قال الأصفهاني: «عن أبي بكر بن حفص، قال: توفي الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص في أيام بعدما مضى من إمارة معاوية عشر سنين، وكانوا يرون أنه سقاها سماً»^(٦) أي أنها ماتت سنة خمسين للهجرة.

وفي البداية والنهاية قال ابن كثير: «وقال شعبة، عن أبي بكر بن حفص قال: توفي

(١) مقاتل الطالبين، الأصفهاني، ص ٨٣.

(٢) التنبيه والإشراف، المسعودي، ص ٢٦٠.

(٣) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ١٩٢.

(٤) ينظر: فجر الإسلام، أحمد أمين، جزء ١، ص ٣٧٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٦.

(٦) مقاتل الطالبين، مصدر سابق، ص ٨٠-٨١.

سعد والحسن بن علي في أيام بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين. وقال ابن عليه عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: توفي الحسن وهو ابن سبع وأربعين. وكذا قال غير واحد، وهو أصح. والمشهور أنه مات سنة تسع وأربعين كما ذكرنا، وقال آخرون: مات سنة خمسين. وقيل: سنة إحدى وخمسين أو ثمان وخمسين^(١).

وفي الإصابة قال ابن حجر العسقلاني: «قال الواقدي: مات سنة تسع وأربعين، وقال المدائني: مات سنة خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقال الهيثم بن عدي: سنة أربع وأربعين، وقال ابن مندة: مات سنة تسع وأربعين، وقيل: خمسين، وقيل: سنة ثمان وخمسين»^(٢).

وفي المستدرک قال الحاكم: «أخبرني إسماعيل بن محمد بن الفضل الشعراي، حدثنا جدي، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني أبو واقد قال: توفي أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب في ربيع الأول سنة تسع وأربعين»^(٣).

بالمناسبة وجدت هذا التباين فاشيا في مدرستنا كذلك ربما نتيجة الصخب الذي أحدثه السياسيون في رواياتهم الغريبة؛ حيث يرى الشيخ محمد اليعقوبي أن الإمام الحسن «استشهد في السابع من صفر سنة ٥٠ للهجرة... وكان عمره (٤٧) عاما ومدة إمامته عشر سنوات»^(٤) ويرى الشيخ أحمد محمد إسماعيل أنه: «استشهد في الثامن والعشرين من شهر صفر في السنة الخمسين للهجرة النبوية الشريفة»^(٥).

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ج ٨، ص ٢١٣.

(٢) الإصابة، ترجمة الحسن بن علي، ج ١، ص ٣٧٧.

(٣) المستدرک، الحاكم، ج ٣، ص ٣٨٨، حديث ٤٧٩٠.

(٤) دور الأئمة في الحياة الإسلامية، ص ٣٣٨.

(٥) صلح الحسن غدير عز ولغز جهاد، الشيخ أحمد محمد إسماعيل، ص ١٥.

إن التشكيك بعمر الإمام الحسن (عليه السلام) كان مشروعاً سياسياً بحثاً ربما لم يلتفت إليه الكثير من الباحثين. ومحاولة السياسيين خلط الأوراق والتشويش على ذهنية المتلقي هو الذي دفعهم إلى استحداث تواريخ عديدة لتضيع معها الحقيقة فيهن أمر الإمام الحسن (عليه السلام) على الناس، ودليلي في ذلك قصة يرويها ابن قتيبة في تأريخه تقول أن معاوية كان يتابع تدهور حالة الإمام الحسن (عليه السلام) الصحية بعد أن سقاه السم، وأنه كان يتلقى تقريراً إخبارياً يومياً يعثه إليه عامله على المدينة الذي أرسل له يشره بموت الحسن (عليه السلام): «فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك ابن عباس وكان بالشام يومئذ فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية: يا ابن عباس هلك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم هلك ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته. أما والله ما سد جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جده رسول الله ﷺ.... قال معاوية: كم أتى له من العمر؟ فقال ابن عباس: أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده»^(١).

فإذا كان عمر الحسن (عليه السلام) أعظم من أن يُجهل؛ فلماذا هذا الاختلاف؟ ألا يعني قول ابن عباس أن المسلمين الأوائل كانوا يعرفون تواريخ ولادة وموت الحسن (عليه السلام) لأنه من الشهرة بحيث لا يمكن تجاهله أو عدم العلم به، فلماذا تختلف الأمة فيما بعد بهذا الشكل الغريب لو لم تكن هناك مصلحة سياسية؟ وأن السياسيين هم الذين أرادوا طمس التاريخ الحقيقي من خلال تعارض التواريخ التي وضعوها بأنفسهم؟

كما أن الأحداث التي رافقت الوفاة والدفن كانت من الأهمية بمكان لدرجة

(١) الإمامة والسياسة، مصدر سابق، ص ١٩٦-١٩٧.

أنه يستحيل نسيانها بسهولة ويسر وقد حدث هذا في زمن كان الناس يؤرخون تبعاً للأحداث فإذا أرادوا الحديث عن تاريخ واقعة أو أمر مهم قالوا: حدث يوم كذا يشيرون إلى الواقعة المهمة؛ لتفهم الناس تاريخ الحدث، فضلاً عن ذلك كانت الكتابة منتشرة، وكان التاريخ الهجري معمولاً به. وفي كتب الحديث وكتب التاريخ والسيرة عشرات بل مئات الروايات التي تقول: إن نساء بني هاشم ما بطلن النوح على الإمام الحسن عليه السلام لأكثر من شهر، وهناك رواية تقول أن مطلقاته لزمّن الحداد عليه لمدة عام كامل، وعامة الناس ظلوا ييكون عليه زمناً طويلاً، والأسواق معطلة، وذلك كله موثق ومكتوب، ففي المستدرک عن حداد الهاشميات: «عن أم بكر بنت المسور قالت: كان الحسن بن علي عليه السلام سَمَّ مراراً كل ذلك يفلت حتى كانت المرة الأخيرة التي مات فيها فإنه كان يختلف كبده فلما مات أقام نساء بني هاشم النوح عليه شهراً»^(١).

وفيه عن بكاء الناس وتعطل الأسواق: «قال ابن عمر: وثنا جعفر بن عمر عن أبي جعفر قال: مكث الناس ييكون على الحسن بن علي وما تقوم الأسواق»^(٢).

وفي الروايات: «فقد بعث الهاشميون إلى العوالي والقرى المحيطة بيثرب من يعلمهم بموت الإمام، فنزحوا جميعاً إلى يثرب ليفوزوا بتشييع الجثمان العظيم»^(٣).

وهرع أبو هريرة وهو باكي العين مذهول اللب إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس! مات اليوم حب رسول الله صلى الله عليه وآله فابكوا»^(٤).

وقالوا: وهرع من في يثرب. وقد حدث ثعلبة ابن مالك عن كثرة المشيعين فقال:

(١) المستدرک، الحاكم، حديث ٤٨٠٤/٤٠٢، ص ١٨٩، ج ٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاريخ ابن عساکر، ج ٨، ص ٢٢٨.

(٤) تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٣٠١، وتاريخ ابن عساکر، ج ٤، ص ٢٢٧.

«شهدت الحسن يوم مات، ودفن في البقيع، ولو طرح في إبرة لما وقعت إلا على رأس إنسان»^(١) وقالوا: إن البقيع يومها ما كان يسع أحداً من كثرة الناس.

هذه المظاهرة، وهذا الحشد الكبير، وهذا التجمع الغريب لا يمكن أن يضيع وقته وساعته ويومه وشهره وستته فتختفي أخباره عن الناس إلا إذا ما كان هنالك من تعمد تضييعه لأسباب خاصة. فضلاً عن ذلك هناك جزئيات أخرى لها علاقة وثيقة بالحدث تزيد أشتهاره وانتشاره ومنها الحديث عن حداد نساء الإمام الحسن عليه السلام المزعومات، وعن حداد نساء عليه: قال ابن عمر: «وحدثنا عبيدة بن نائل عن عائشة بنت سعد، قالت: حد نساء الحسن بن علي سنة»^(٢).

لاحظ هنا أن الحديث الذي أورده على لسان ابن عمر يتحدث عن حداد نساء الحسن خاصة ويغفل الحديث عن حداد نساء بني هاشم؛ وهو امر لا يمكن متابعتها وحصره ميدانياً حتى من قبل القوات الأمنية المعاصرة المدربة، ولا يمكن التصديق به عقلياً ولا سيما وأن تلك النسوة لابد وإن يكن قد تزوجن بعد طلاقهن منه هذا إذا سائرناهم جدلاً على قدر عقولهم بموضوع الزواج والطلاق الكبيرين بما يبدو وكأن حديثهم هنا مكمل لحديثهم عن خروج نساءه وراء جنازته حافيات حاسرات، وهذه من نوع الأحاديث التي صنعوها للتدليل على كثرة زواجه، أما الأحاديث الصحيحة فتذهب للحديث عن نساء بني هاشم اللواتي طال حدادهن على إمامهن وقائدهن الحسن عليه السلام.

كما أعتقد أن توافد الناس إلى البقيع هال وأرعب السياسيين ودفعهم للتفكير في أمرٍ

(١) الإصابة، ج ١، ص ٣٣٠.

(٢) المستدرک، ص ١٨٩، ج ٣.

يُهوّن كثرة الجمع؛ فادعوا أن شدة الزحام يوم تشييع الإمام الحسن عليه السلام نشأت من كون مطلقاته البالغ عددهم أكثر من ثلاثمائة أو تسعمائة مطلقة «خرجن كلهن خلف جنازته لتوديعه وتشيعه؛ وهن حافيات حاسرات، يرددن بصوت مرتفع: نحن أزواج الإمام الحسن»^(١).

إن السياسيين هم الذين أخفوا مظاهر حزن النساء الهاشميات على سيدهن الإمام الحسن عليه السلام؛ واستعاضوا عنه بالحديث عن مظاهرة مطلقات الإمام لأغراض سياسية تشويهية بحتة، ومع كل ذلك عبرت بعض الأخبار الصحيحة حاجز المنع ودخلت عنوة إلى بطون كتب التاريخ لتعلن أن نساء ورجال المدينة عامة هم الذين خرجوا في تشييع الإمام عليه السلام، قال ابن كثير: «وقد اجتمع الناس لجنازته، حتى ما كان البقيع يسع أحدا من الزحام، وقد بكاه الرجال والنساء سبعا، واستمر نساء بني هاشم ينحن عليه شهرا، وحدث نساء بني هاشم عليه سنة»^(٢) وفي رواية أخرى وقال الواقدي: «حدثنا عبدة بنت نابل، عن عائشة قالت: حد نساء بني هاشم على الحسن بن علي سنة»^(٣).

وهذا يؤكد أنه بعد أن استجاب الإمام الحسن عليه السلام إلى نداء الله سبحانه وتعالى ليصطفيه إلى جانبه فودع الدنيا غير آسف عليها، استراحوا من هم عظيم، ولكنهم استمروا في عداوتهم للإمام عليه السلام وأظهروا كل حقدهم لكي يرتكبوا واحدة من أكبر جرائم التاريخ ضد هذا الإنسان العظيم ليودعوه بها وهو محمول إلى قبره الشريف.

بمعنى أنهم ارتعبوا من كثرة المشيعين فأرادوا تشويه هذه المناسبة بالإدعاء بأن الازدحام تولد من تواجد مطلقات الإمام الحسن عليه السلام اللواتي كن يصرخن: (نحن

(١) ينظر: أبو طالب المالكي (ت ٣٨٠هـ) في قوت القلوب.

(٢) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ج ٨، ص ٢١٢.

(٣) المصدر نفسه، ابن كثير، ج ٨، ص ٢٠٨.

مطلقاته) ولا أدري ما المقصود بذلك، وهذا يؤكد أنهم ارادوا ضرب عدة عصافير بحجر واحد، الأول: التهوين من حجم المشيعين. الثاني: تأكيد خرافة كثرة الزوجات.

تشكيكهم بطريقة موته

أشارت أهم وأغلب كتب التاريخ إلى أن الإمام الحسن (عليه السلام) مات مسموماً، وهو أمر يفضح كيد السياسيين ومكرهم وخداعهم، ويبين أنهم لا يأمنون من يختلفون معه إلا إذا أرسلوه إلى القبر، ومن أكّداس كتب التاريخ التي أوردت قصة السم، اخترت بعضها لأن التطرق إليها جميعاً يحتاج إلى مجلد كبير. واخترت منها مستدرك الحاكم، وطبقات ابن سعد وتاريخ السيوطي والكامل لابن الأثير ومقاتل الطالبين للأصفهاني فقط.

ففي مستدرك الحاكم: «عن أم بكر بنت المسور قالت: كان الحسن بن علي سُمَّ مراراً كل ذلك يفلت حتى كانت المرة الأخيرة التي مات فيها فإنه كان يختلف كبده»^(١) وفيه رواية أخرى: «عن قتادة بن دعامة السدوسي قال: سَمَّت ابنة الأشعث بن قيس الحسن بن علي، وكانت تحته، ورُشِيَتْ على ذلك مالا»^(٢)

ورواية أخرى عن عمير بن إسحاق أن الحسن بن علي قال: «لقد بليت طائفة من كبدي ولقد سُقِيْتُ السم مرارا فما سقيت مثل هذا»^(٣)

وأخرج ابن سعد في طبقاته بإسناده: «إن الحسن دخل كنيفاً له، ثم خرج فقال: والله لقد لفظت الساعة طائفة من كبدي قبل، قلبتها بعود كان معي، وإني سُقِيْتُ السم

(١) المستدرك، الحاكم، ج ٣، ص ١٨٩، حديث ٤٨٠٤/٤٠٢ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٣، حديث ٤٨١٥/١٣ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٣، حديث ٤٨١٦/٤١٤ .

مراراً فلم أُسَقَ مثل هذا»^(١) وفي رواية ثانية: «إن الحسن عليه السلام، قال: إني قد سقيت السم غير مرة، وإني لم أُسَقَ مثل هذه، إني لأضع كبدي»^(٢)، وفي رواية ثالثة، قال: «كان الحسن بن علي سقي السم مراراً، كل ذلك يفلت منه، حتى كان المرة الأخيرة التي مات فيها، فإنه كان يختلف كبده»^(٣).

وقال المسعودي: «وتوفي بالمدينة مسموماً»^(٤).

وقال السيوطي في تاريخه: «توفي الحسن عليه السلام بالمدينة مسموماً، سمته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، دس إليها يزيد بن معاوية أن تسمه فيتزوجها»^(٥).

وقال ابن الأثير في الكامل، في حديثه عن سنة تسع وأربعين: «في هذه السنة توفي الحسن بن علي، سمته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي»^(٦).

وفي مقاتل الطالبين، قال الأصفهاني: «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدس إليها سماً فمات منه»^(٧) وفي رواية ثانية: «عن مغيرة قال: أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث إني مزوجك بيزيد ابني علي أن تسمي الحسن بن علي وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن»^(٨) وفي رواية أخرى: «عن عمير بن إسحاق، قال: كنت مع الحسن والحسين في الدار، فدخل

(١) طبقات ابن سعد، القسم المفقود، تحقيق الدكتور محمد بن صامل، ج ١، ص ٣٣٦

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٩.

(٤) التبيه والإشراف، المسعودي، ص ٢٦٠.

(٥) تاريخ السيوطي، ص ١٩٢.

(٦) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٢.

(٧) مقاتل الطالبين، ص ٨٠.

(٨) مقاتل الطالبين، ص ٨١.

الحسن المخرج ثم خرج فقال: لقد سقيت السم مرارا ما سقيته مثل هذه المرة، ولقد لفظت قطعة من كبدي فجعلت اقلبها بعود معي، فقال له الحسين: من سقاكه؟ فقال: وما تريد منه، أتريد أن تقتله؟^(١)

كل هذه الروايات ومئات غيرها لم نذكرها دفعا للإطالة أجمعت على أن الإمام الحسن عليه السلام مات مسموما، سمه معاوية بأمر منه وبتنفيذ ابنه يزيد بالتعاون مع جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام عليه السلام، ولأنه من الصعب إنكار هذا الكم الكبير من الوثائق الدامغة؛ ولكون ما فيها يمثل صفة قوية للسياسيين وأتباعهم التاريخيين، ويمثل تشكيكا بصدق منهجيتهم التي أرادوا للناس أن يؤمنوا بها. ولأن الكثير من هذه الروايات تسلت إلى بطون التاريخ بغفلة، أو أنهم اعتمدوها بداية لإرهاب الناس وتخويفهم مثلما تفاخروا يوم قتلوا مالك الأشتر رضي الله عنه بالطريقة نفسها، بقولهم: «إن الله جنودا من عسل» فإنها لما تحولت إلى انتقاص لهم جاهدوا وجاهد من جاء بعدهم من ذريتهم لتفنيدها لكنهم عجزوا عن رفعها ومحوها وإخفاء أثرها، فضلا عن محاولات القدمات هناك الكثير من المعاصرين جاهدوا بقوة لطمس آثار هذه الروايات، ومن هؤلاء شخص معاصر هو المدعو (فيصل نور) أخذ على عاتقه مهمة التفنيد بالتأويل والتعليل البائسين البعيدين عن ضوابط المنطق والعقل والعلم، ومما قاله في محاولته البائسة: «هذا الادعاء باطل وذلك لأسباب وهي:

أ. أنه لم يثبت ولا دليل صحيح عليه وإن كان عند صاحبنا نقل ثابت عن عدل فليرشدنا إليه لا أن يتهم صحابيا دون أن يأتي ببينة على ادعائه.

ب. كان الناس في تلك المرحلة في حالة فتنة تتصارعهم الأهواء وكل فرقة تنسب

للأخرى ما يذمها وإذا نقل لنا ذلك فيجب ألا نقبله إلا إذا نقل بعدل ثقة ضابط.

ج. لقد نُقِلَ أن الذي سَمَّ الحسن غير معاوية فقيلاً هي زوجته وقيل أن أباهما الأشعث بن قيس هو الذي أمرها بذلك وقيل معاوية وقيل ابنه يزيد وهذا التضارب بالذي سَمَّ الحسن يضعف هذه النقول لأنه يعوزها النقل الثابت بذلك.

د. هذه الحجة تستسيغها العقول في حالة رفض الحسن الصلح مع معاوية ومقاتلته على الخلافة ولكن الحق أن الحسن صالح معاوية وسلّم له بالخلافة وبايعه، فعلى أي شيء يسَمَّ معاوية الحسن؟^(١)

والظاهر أن الرجل أدرك أن ما جاء به من كلام فارغ لا يقنع الناس ولا يرضيهم فلجأ إلى كتب التاريخ التي طعن بها في النقطة (أ) وشكك بكل رواياتها ونقولها؛ ليقبس منها أقوالاً قد تعينه، وأوردها تحت عنوان (رد آخر على زعمهم أنه سَمَّ الحسن بن علي) ومما جاء تحت هذا العنوان قوله: «لم يرد في خبر وفاة الحسن بن علي عليه السلام خبر صحيح»^(٢) أو رواية ذات أسانيد صحيحة، وفي ما يلي أقوال أهل العلم في هذه المسألة:-

- قال ابن العربي^(٣) في العواصم ص ٢٢٠-٢٢١: فإن قيل: دس أي معاوية - على الحسن من سمه، قلنا: هذا محال من وجهين:-

أحدهما: أنه ما كان ليتقي من الحسن بأساً وقد سلّم الأمر. وقوله هذا مخالف لما

(١) موقع فيصل نور، الرابط <http://www.fnoor.com/fn0522.htm>

(٢) هذا الأسلوب الإقصائي ليس جديداً عليهم فابن خلدون قال في تاريخه عن الأحاديث المهدوية: لم يصح منها شيء، والغريب أن اتباعهم يأخذون بهذه الأقوال البائسة المخالفة للعقل وينسون كل تلك النقول المشهورة التي نقلت قصص سم الحسن عليه السلام والأحاديث المهدوية!

(٣) ابن العربي هذا هو صاحب مقولة: إن الحسين قُتِلَ بسيف جده!

أتفقت عليه الكتب التاريخية بأن معاوية كان يخاف مثلاً من بأس الحسين وابن الزبير حينما أراد أن يعقد البيعة لولده يزيد، كذلك ما جاء في الكامل في التاريخ «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص» وقد مر الحديث عليكم قبل قليل.

الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بينة على أحد من خلقه، في زمن متباعد، لم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه مالا ينبغي، فلا يقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم.

• قال ابن تيمية في منهاج السنة (٤ / ٤٦٩): وأما قوله: إن معاوية سم الحسن، فهذا مما ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية أو إقرار معتبر ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم.

• قال الذهبي في تاريخ الإسلام (عهد معاوية) (ص ٤٠): قلت: هذا شيء لا يصح فمن الذي اطلع عليه.

• قال ابن كثير في البداية والنهاية (٨ / ٤٣): وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سمي الحسن وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأخرى.

• قال ابن خلدون في تاريخه (٢ / ٦٤٩): وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، وحاشا

لمعاوية من ذلك..

- وقد علق الدكتور جميل المصري على هذه القضية في كتابه (أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري) (ص ٤٨٢)^(١) بقوله: ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد، ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعاً آنذاك؛ لأننا لا نلمس لها أثراً في قضية قيام الحسين، أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية.

وفي منهجه البائس البعيد عن العلمية وشرائط البحث العلمي حاول حفيد الفصيل السياسي استخدام أساليب جديدة للدفاع عن أولياء نعمته، أو في الأقل تطويع أساليب قديمة وتجديدها من خلال التعلل مرة برباعد الزمن، وأخرى بالإدعاء ان جريمة السم أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، وثالثة بطلب بينة شرعية أو إقرار خطي معتبر^(٢)، ورابعة بطلب شهود على الجريمة (هذا لا يصح فمن الذي اطلع عليه) وخامسة بتنصيب نفسه قاضياً (وعندي أن هذا ليس بصحيح) وسادسة بالإدعاء ان كل الروايات التاريخية (من أحاديث الشيعة) وسابعة بتنزيه معاوية عن عالم الجريمة الذي أشتهر به (وحاشا لمعاوية من ذلك) وثامنة عصب الجريمة برأس أهل الكتاب (أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية) وأجد أن هذا الاندفاع الكبير لا يخدم قضية السياسيين بقدر ما يفضحهم ويفضح أسلافهم المجرمين.

بعدها جاهد فيصل نور لينفي التهمة عن جعدة زوج الحسن عليه السلام التي سمته وبرئ ساحتها من جريمة القتل، فقال مستخدماً أسلوب التعليل والتأويل والاحتمال

(١) هذا الكتاب صدر عن مكتبة الدار بالمدينة المنورة وهو بالأصل رسالة جامعية.

(٢) وهذا ما قاله من قبل المدعو محمود الملاح في كتابه مجموع السنة النبوية، فقد قال: لا توجد

وثيقة رسمية صادرة من محكمة تثبت أن معاوية سم الحسن!

الموروث من ابن العربي وابن تيمية:

• هل معاوية أو ولده يزيد بهذه السذاجة ليأمر امرأة الحسن عليه السلام بهذا الأمر الخطير، الذي فيه وضع حد لحياة الحسن بن علي عليه السلام غيلة، وما هو موقف معاوية أو ولده أمام المسلمين لو أن جعدة كشفت أمرهما؟!

• هل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالي تكون زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرفاً ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة وجده الرسول صلى الله عليه وسلم وكفى به فخراً، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذاً ما هو الشيء الذي تسعى إليه جعدة وستحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير؟!

وفي طريقه تذكر سيده معاوية الذي يترضى عليه كلما مر ذكره ولا يترضى على علي والحسن عليهما السلام؛ فقرر الدفاع عنه كذلك تأكيداً في النفي، ومما قاله:

• لقد وردت الروايات التي تفيد أن الحسن قال: «لقد سقيت السم مرتين»، وفي رواية ثلاث مرات، وفي رواية «سقيت السم مراراً»، هل بإمكان الحسن أن يفلت من السم مراراً إذا كان مدبر العملية هو معاوية أو يزيد؟! نعم إن عناية الله وقدرته فوق كل شيء، ولكن كان باستطاعة معاوية أن يركز السم في المرة الأولى ولا داعي لهذا التسامح مع الحسن المرة تلو المرة!!

• وإذا كان معاوية يريد أن يصفى الساحة من المعارضين حتى يتمكن من مبايعة يزيد بدون معارضة، فإنه سيضطر إلى تصفية الكثير من أبناء الصحابة، ولن

تقتصر التصفية على الحسن فقط.

- وإن بقاء الحسن من صالح معاوية في بيعة يزيد، فإن الحسن كان كارهاً للنزاع وفرقة المسلمين، فربما ضمن معاوية رضاه، وبالتالي يكون له الأثر الأكبر في موافقة بقية أبناء الصحابة.

- ثم إن هناك الكثير من أعداء الحسن بن علي (عليه السلام)، قبل أن يكون معاوية هو المتهم الأول، فهناك السبئية الذين وجه لهم الحسن صفقة قوية عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية وجعل حداً لصراع المسلمين، وهناك الخوارج الذين قاتلهم أبوه علي بن أبي طالب (عليه السلام) في النهراوان وهم الذين طعنوه في فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم في النهروان وغيرها.

وألحظ في هذه التعليقات الأربعة البائسة أن الرجل نسي ما كان عليه ذلك المجتمع فظن جهلاً أن نفس الآلات والمعدات والمختبرات الموجودة اليوم كان موجوداً مثلها عند القدمين، وأن لهم قدرة التحكم بدرجة التركيز ودرجة السمية في المادة كما هو عليه اليوم فقال في الفقرة الأولى: (كان باستطاعة معاوية أن يركز السم في المرة الأولى ولا داعي لهذا التسامح مع الحسن (عليه السلام) المرة تلو المرة) وهو هنا يفصح جهله وشدة تعصبه وانحيازه الكبير وعدم عدالته. فلقد أثبتت النقول أنهم سموا الحسن مرات ومرات وأن معاوية ويزيد جربوا قتله بأنواع السموم فلم تفلح كلها، وفلحت الأخيرة بقتله فاشتهرت وعرفت، إن الإمام الحسن (عليه السلام) اعترف بنفسه أن معاوية دس له السم أكثر من مرة، ومنها ثلاث مرات ممتالية، كما في قوله لأخيه الحسين: «يا أخي إن هذه آخر ثلاث مرار سُقيت فيها السم، ولم أُسقه مثل مرتي هذه»^(١).

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٥٦.

وأثبتت نقول أخرى أن السياسيين وبالرغم من تأخرهم العلمي لم يعدموا وسيلة الحصول على سم قوي، وهم فعلا كانوا يبحثون عن مواد شديدة السمية تؤثر في الحسن عليه السلام وتقتله بعد أن فشلت المرات السابقة؛ وباعتراف الإمام الحسن عليه السلام للرجل الذي سأله: أفلا تتداوى؟ قال: «قد سقاني مرتين، وهذه الثالثة لا أجد لها دواءً. ولقد رقى إلي أنه كتب إلى ملك الروم يسأله أن يوجه إليه من السم القتال شربة، فكتب إليه ملك الروم: إنه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا! فكتب إليه معاوية: إن هذا ابن الرجل الذي خرج بأرض تهامة وقد خرج يطلب ملك أبيه وأنا أريد أن أدس إليه من يسقيه ذلك فأريح العباد والبلاد منه»^(١).

وقوله في الفقرة الثانية «فإنه سيضطر إلى تصفية الكثير من أبناء الصحابة» دفاع فاشل واستغفال للعقل المسلم وإلا فالقاصي والداني يعرف الجرائم الوحشية الكبيرة التي ارتكبتها معاوية بحق الصحابة وأبنائهم وكل من عارضه وأعترض عليه، فلماذا هذا التعتيم والكذب؟

وقوله: إن بقاء الحسن عليه السلام يصب في صالح رغبة معاوية تعيين ابنه يزيد خليفة باعتبار أن موافقة الحسن عليه السلام على بيعه يزيد يشجع باقي أبناء الصحابة للموافقة أو كما قال: «فربما ضمن معاوية رضاه، وبالتالي يكون له الأثر الأكبر في موافقة بقية أبناء الصحابة» فذلك تدليس كبير جدا لأنه قبل غيره يعرف أن من شروط الإمام الحسن عليه السلام في الصلح أن تكون البيعة له أو للحسين، فكيف يوافق على بيعه يزيد؟

أما اتهامه للسبئية والخوارج بجريمة سم الحسن عليه السلام وقوله: «فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم في النهروان» فهو اعتراف كامل بجريمة السم التي يريد نفيها، فكيف ينكر

(١) الاحتجاج، الطبرسي، ج ٢، ص ٧٢.

الجريمة ثم يعصبها برأس هؤلاء حتى لو فرضنا جدلاً وجودهم؟ علماً أنه اعترف من قبل بوقوع الجريمة كما في قوله الذي مر علينا قبل قليل: «لقد نقل أن الذي سمّ الحسن غير معاوية فليل هي زوجته وقيل أن أباهما الأشعث بن قيس هو الذي أمرها بذلك وقيل معاوية وقيل ابنه يزيد وهذا التضارب بالذي سمّ الحسن يضعف هذه النقل».

المهم أن الرجل لم يكتف بكل ما قدم فلجأ إلى مناقشة الجانب الطبي في روايات السم استناداً إلى رأي الطب الحديث بالرغم من اعتقاده أن ما جاء به من احتمالات وفرضيات قد برأ معاوية من جريمة القتل، ولإتمام اللعبة لجأ إلى طيب من أعوانهم من جماعة هجرة العمالة الوافدة يعمل في السعودية ويتقاضى مرتبه من خزيتها التي لا تمنح نقودها إلا لمن يسير على نهجها؛ عسى أن يأتي بما يدعم تلك الأقوال الشاذة، فقال: «هذا؛ وبعرض النصوص المتعلقة بالجانب الطبي في هذه المسألة على أ.د. كمال الدين حسين الطاهر أستاذ علم الأدوية كلية الصيدلة جامعة الملك سعود بالرياض (يستعين به لإتمام اللعبة)، فقال: بعدما تبينت براءة معاوية وابنه يزيد من تهمة سم الحسن بن علي (عليه السلام)، فيما سبق من أقوال العلماء، وما سردناه من تحليلات، نأخذ رأي الطب» وفعلاً كان الدكتور على قدر كبير من (الأمانة) يتناسب مع كبر خوفه على مرتبه ومورده المالي الكبير، فقال في جوابه المضحك المبكي: «لم يشتك المريض أي الحسن بن علي (عليه السلام) من أي نزف دموي سائل، مما يرجح عدم إعطائه أي مادة كيميائية أو سم ذات قدرة على إحداث تثبيط لعوامل تخثر الدم، فمن المعروف أن بعض الكيمياءات والسموم، تؤدي إلى النزف الدموي؛ وذلك لقدرتها على تثبيط التصنيع الكبدي لبعض العوامل المساعدة على تخثر الدم، أو لمضادات تأثيراتها في عملية التخثر؛ ولذلك فإن تعاطي هذه المواد سيؤدي إلى ظهور نزف دموي في مناطق متعددة من أعضاء الجسم مثل العين والأنف والفم والجهاز المعدي - المعوي - وعند حدوث النزف الدموي في الجهاز المعدي -

المعوي - يخرج الدم بشكل نزف دبري سائل، منفرداً أو مخلوطاً مع البراز، ولا يظهر في شكل جمادات أو قطع دموية صلبة كانت أو إسفنجية، أو في شكل (قطع من الكبد)، ولذلك يستبعد إعطاء ذلك المريض أحد المواد الكيميائية، أو السموم ذات القدرة على إحداث نزف دموي».

وعن طبيعة قطع الدم المتجمدة التي أشارت الروايات إلى أنها قطع من الكبد، يقول أ.د. كمال الدين حسين الطاهر: «هناك بعض أنواع سرطانات أو أورام الجهاز المعدي - المعوي - الثابتة أو المتنقلة عبر الأمعاء، أو بعض السرطانات المخاطية التي تؤدي إلى النزف الدموي المتجمد، المخلوط مع الخلايا، وبطانات الجهاز المعدي - المعوي - وقد تخرج بشكل جمادات (قطع من الكبد كما في الروايات)، ولذلك فإني أرجح أن ذلك المريض قد يكون مصاباً بأحد سرطانات، أو أورام الأمعاء». راجع كتاب: مرويّات خلافة معاوية في تاريخ الطبري للدكتور خالد الغيث ص ٣٩٥ - ٣٩٧»

ولا أدري لم رفض الرجل الأخذ بكل الروايات عن جريمة السم وأختار الروايات التي تتحدث عن قطعة الكبد بالرغم من أن المقصود ليس الغدة الكبدية نفسها وإنما يقصد قطع الدم المتخثر بتأثير السم، وما دام يريد إقناعنا بأقوال الأطباء أنصحهم ليسألهم عن تأثير السم في تخثر الدم لكي لا يقع في مثل هذا الوهم كل مرة.

ثم لما عجز حتى عن إقناع نفسه بعد كل ما جاء به من غث وخلط وتدليس ومن استعان به من الأطباء والمنجمين والسحرة؛ قال متملصاً من المسؤولية وبنفس أسلوب ابن العربي في العواصم من القواصم: «وإن ثبت موت الحسن عليه السلام بالسم فهذه شهادة له وكرامة في حقه كما قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٤ / ٤٢»^(١).

ويذكرني هذا القول بما جاء في منشور أصدرته إحدى التنظيمات الإرهابية في العراق وأسمها (جيش محمد) بعد ٢٠٠٣ تحدث فيه عن المقابر الجماعية التي تم اكتشافها في أنحاء متعددة من العراق؛ وادعت أن أهل الضحايا الذين عُثِرَ عليهم في المقابر الجماعية يجب أن يفرحوا لأن أبناءهم إذا كانوا مؤمنين سوف يذهبون إلى الجنة! هكذا بكل وقاحة يترجم المعاصرون ما أقترفه الأقدمون من أعمال منافية للأخلاق والدين ويطرحونها للتعامل والتداول مع كل ما تسببه من انحرافات نفسية وأخلاقية على الفرد والمجتمع.

ومن هؤلاء الذين تلاعبوا بجرائم السياسيين أيضا وأنا هنا لا أريد إحصاءهم وإنما أورد نفا من أقوالهم كان الدكتور علي محمد الصلابي الذي كتب تحت عنوان (هل يصح اتهام معاوية بسم الحسن بن علي عليه السلام) حيث قال عن رواية ابن سعد في الطبقات عن حادثة السم: «ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن علي توفي متأثرا بالسم الذي وُضِعَ له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت قيس أمير كندة، فهذه أم موسى سرية علي تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة.... وهذه الرواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة».^(١)

وقال أيضا عن الرواية الموجودة في تهذيب الكمال: «وحاول بعض من الأخباريين والرواة أن يوجدوا علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سمي حسنا فإني سأ تزوجك.... وفي سندها يزيد بن عياض، ابن جعدية، كذبه مالك وغيره»^(٢)

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، علي محمد الصلابي، ص ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

وقال عن الرواية التي أخرجها الأصفهاني في مقاتل الطالبين: «بإسناده عن أحمد بن عبد الله بن عمار، وهو من رؤوس الشيعة، وفي أسانيده أيضا عيسى بن مهران رافضي كذاب، قال عنه الخطيب: من شياطين الرافضة»^(١).

ثم لما اعترضته الروايات التي أوردتها كتب مدرستهم قال: «وقد وردت هذه الروايات في كتب السنة بدون تمحيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات ضعيفة. وأما كتب الشيعة الإمامية في اتهام معاوية في مقتل الحسن عليه السلام بالسلم فحدث ولا حرج، وليس لهم روايات صحيحة يُعتمدُ عليها، والقوم متخصصون في الكذب والبهتان وإلصاق التهم الباطلة والروايات الظالمة في الطعن في الصحابة وخصوصا معاوية»^(٢).

والصلاحي لا يختلف كثيرا عن فيصل نور في التدليس والكذب فالمدرسة التي تخرجوا منها واحدة^(٣)، حيث لجأ بعد أن أظناه اللهاث خلف السراب الكاذب مثل صاحبه إلى نفس أقوال المنحرفين من الطائفتين الحاقدين على المنهج الإمامي مثل ابن العربي وابن تيمية والذهبي وابن خلدون وغيرهم فأوردها مثل صاحبه، فنقل عن ابن العربي قوله: «فإن قيل: دس على الحسن عليه السلام من سمه قلنا: هذا محال من وجهين: أنه ما كان ليتقي من الحسن عليه السلام بأسا وقد سلمه الأمر. الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله فكيف تحملونه بغير بينة على أحد من خلقه في زمن متباعد».

ونقل عن ابن تيمية قوله: «وأما قوله: معاوية سم الحسن، فهذا مما ذكره بعض

(١) المصدر نفسه.

(٢) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، علي محمد الصلابي، ص ٣٥٤.

(٣) لم يتمكن من تحديد من سرق من من، لم يتمكن من تحديد إذا ما كان فيصل نور قد سرق موضوع الصلابي أو أن الصلابي هو الذي سرق من فيصل، ولكن مجرد إثبات جريمة السرقة يؤكد بأن هناك من لا يرعوي عن فعل أي شيء في سبيل نصرته ما يؤمن به حتى ولو كان مجرد تفاهات.

الناس، ولم يثبت ذلك بينة شرعية أو إقرار معتبر... وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم».

ونُقِلَ عن الذهبي قوله: «هذا لا يصح، فمن الذي أطلع عليه»

وقال عن رواية ابن الكثير في النهاية ٨/ ٤٣: «وعندي أن هذا ليس بصحيح»

ونُقِلَ عن ابن خلدون قوله: «وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، وحاشا لمعاوية من ذلك»

ونقل عن الدكتور جميل المصري قوله: «ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعا آنذاك لأننا لا نلمس لها أثرا في قضية قيام الحسن أو حتى عتابا من الحسين لمعاوية»^(١)

وأجد أن الدفوعات الباطلة التي أعتمدها الرجل تدينه وتدين عقيدته، وتؤكد واقعة السم؛ لأنها جميعها مبنية على الظن والشك والضحك على الذقون. فهو يقول عن رواية ابن سعد: (وهذه الرواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة) ويقول عن رواية تهذيب الكمال: (وفي سندها يزيد بن عياض، ابن جعدة، كذبه مالك وغيره) ويقول عن روايات الأصفهاني في المقاتل: أن في سندها شيعة رافضة؛ وكأنه يحتكم إلى علم الجرح والتعديل للتدليل على عدالته، ولكنه لا يلبث أن ينكر وجود هذا العلم وفاعليته حينما يجد الروايات نفسها تتكرر في كتب يعجز عن تكذيبها، ولذا يقول: (وقد وردت هذه الروايات في كتب السنة بدون تحييص) هكذا، بدون تحييص، فكيف تجاوزت رجال الجرح والتعديل لتدخل إلى التاريخ وكتبه بدون تحييص؟

ثم تراه يطعن بهذا العلم حينما يقول عن رواية ابن كثير: (وعندي أن هذا ليس

(١) المصدر نفسه، ص ٣٥٣-٣٥٥.

بصحيح) وكأنه هو الحكم العدل من دون خلق الله أجمعين، ولا أدري لماذا لم يستخدم علم الجرح والتعديل هنا أيضاً؟.

أما الأقوال التي نقلها عن مشايخه فهي تُجمعُ على رأي مفاده: «أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله فكيف تحملونه بغير بينة على أحد من خلقه في زمن متباعد» وتتفق على أن هذا (مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم) وتتوافق على أن: (هذا لا يصح، فمن الذي أطلع عليه) فبنى من خلاصة هذه الأقوال السقيمة الغريبة قاعدة فقهية أراد من الناس أن يتعبدون بها، ولو طبقنا هذه القاعدة على كل تاريخنا وكل قصصه ورواياته، بل لو طبقناها على السنة وعلى التفسير وعلى كل الأخبار التي بين أيدينا سنجد انطباقها عليها بنفس المقاييس التي طبقوها على قضية السم، وهذا معناه أن التشكيك في صحة سم الإمام الحسن (عليه السلام) وفق هذه القاعدة الفقهية الغريبة العجيبة ممكن أن ينطبق على جميع الروايات الأخرى وبدون استثناء سواء أكانت قرآناً أم حديثاً أم سيرة أم تاريخاً أم أدباً وشعراً، أو أي نص تاريخي آخر!

ومن المدهش كيف أن أقوال الصلابي تطابقت كلياً مع أقوال فيصل نور ولكننا لا نجد إشارة إلى أن أحدهما أقتبس من الآخر، ومصادر الصلابي هي نفسها مصادر فيصل نور، وهذا يعني أن أحدهما سرق من الآخر ونقل عنه بعيداً عن الأمانة العلمية، وتلك وري خلة لا يُؤتمن صاحبها على الحكم بين نعتين لا بين فرقتين عظيمتين. ولا أدري كيف يستسيغ مدعي العلم أن يسرق موضوعاً بهذا المستوى إن كان هو الذي سرق من فيصل، كما لا أدري كيف يسمح صاحب موقع الكتروني وداعية أن يسرق مثل هذا الموضوع من دكتور باحث، إن كان هو الذي سرق الموضوع!

ومما تقدم يتضح أن التماحك بمجمله يؤكد واقعة السم ويشير صراحة إلى المجرم

الذي ارتكبتها لأنه لو لم يكن هو الفاعل دون غيره لما اتعبوا وأجهدوا انفسهم في الدفاع عنه بهذا الشكل الغريب!

إن سم الحسن عليه السلام ولا سيما بعد أن عقد الصلح وترك الكوفة وتوجه إلى المدينة المنورة للعيش فيها بسلام يبدو لكل منصف شريف كوصمة عار في جبين السياسيين؛ تدل على مكرهم وغدرهم واستهتارهم وخداعهم وعدم الوثوق بهم، ولذا أراد أتباع السياسيين محو هذا العار بالتشكيك بصحة واقعة السم مرة، وبتكذيب الروايات التي جاءت فيها واقعة السم مرة أخرى، ولكون واقعة السم موثقة في أصح المصادر الإسلامية والتاريخية فإن محوها من الذاكرة الجمعية لا يمكن أن يتحقق بأية حال، فوجدوا أن خير وسيلة لمحاربتها تأتي من خلال التشكيك، والتشكيك وحده، وذلك بخلق قصص وروايات توحى بأن هناك احتمالات أخرى لموت الحسن عليه السلام من غير السم.

والظاهر أن بعض الإسلاميين وبعض المستشرقين تعاونوا سوياً على ترسيخ فكرة أن الحسن عليه السلام لم يمت بالسم الذي دسه له السياسيون وإنما مات بسبب المرض الذي ألم به؛ وقد مر عليكم ما خاض به أحفاد السياسيين (الصلابي وفيصل) لإثبات بطلان واقعة السم، لكن الظاهر أيضاً أن المستشرق (لامنس) الذي حطب في قصة السم كحاطب ليل لم يكن ضحية الروايات الموضوعية لتشويه صورة الإمام الحسن عليه السلام فحسب، وإنما كان واحداً من المروجين لتلك الروايات الكاذبة، وكان هوامع السياسيين ضد الحسينين، فأخذ بروايات السياسيين وأضاف لها ما يراه مناسباً لدعم رأيه الذي لا أصل له بالرغم من أن ما جاء به مجرد احتمال؛ ومقابل ذلك أعتمد توهين آراء أخرى لها أصول في كثير من مراجع التاريخ ولم يلتفت إليها، ولذا تراه يرفض الحقيقة التي روتها كتب التاريخ

حول نهاية الإمام الحسن عليه السلام بالسم على يد زوجته بعد أن غرّر بها معاوية، وجاء برأي سقيم مبني على الظن لا أكثر يبدو فيه وكأنه من أتباع السياسيين المخلصين، وعليه قال في آخر ما كتبه في ترجمة الحسن عليه السلام: «وتوفي الحسن في المدينة بذات الرئة... وقد بُذلت محاولة للإلقاء تبعة موته على رأس معاوية، وكان الغرض من هذا الاتهام وصم الأمويين بهذا العار ولم يجرؤ على القول بهذا الاتهام الشنيع جهرة سوى المؤلفين من الشيعة أو أولئك الذين كان هواهم مع العلوية بنوع خاص. وقد أعطى هذا الاتهام في الوقت نفسه فرصة للإيقاع بأسرة الأشعث بن قيس المبعضة من الشيعة، لما كان لها من شأن في الانقلاب الذي حدث يوم صفين، وما كان معاوية بالرجل الذي يقترب إثماً لا مبرر له. كما إن الحسن عليه السلام كان قد أصبح مسالماً منذ أمد طويل وكانت حياته عبثاً على بيت المال الذي أبهضه مطالبه المتكررة، ومن اليسير أن نعلل ارتياح معاوية وتنفسه الصعداء عند ما سمع بمرض الحسن»^(١).

ومن يدقق في هذا القول ويفككه يجد بينه وبين الأقوال السقيمة الأخرى تواصلاً غريباً، وبما أنه أقدم تاريخاً من الصلابي ويفصل نور يتبين أن الصلابي سرق منه ما جاء به دون أن يشير إلى المصدر ليبدو وكأنه جاء بهذا (الفتح المبين) ثم جاء في فصل نور فسرق من الصلابي لنفس الأسباب، مع احتمال أن يكون في فصل هو السارق الأول، أما الطبيب الذي أعتمدوه حكماً علمياً فقد ثبت أنه سرق رأي (لامنس) وأدعاه لنفسه، فما ظنك بمجموعة سراق يريدون الدفاع عن الباطل؟!

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ج/ ٤٠١ ٤٠٢. تم إصدارها على طبعين، الأولى بين ١٩١٣ و ١٩٣٨، والثانية ما بين ١٩٥٤ و ٢٠٠٥، ويتم إصدارها من قبل شركة بريل الهولندية. وقد ظهرت هذه الموسوعة بأكثر من لغة، أما بالنسبة للعربية فقد تم تعريب بعض أجزائها وتنقيحها وصدرت في مصر في الستينات وأعيد طبعها بالشارقة عام ١٩٩٨.

اعتراضهم على دفنه مع جده

كان السياسيون منذ الأيام الأولى للبعثة وفي عصر الخلفاء الأربعة يستغلون الفرص المتاحة لخلق مشاكل وخلق أزمات تقود المسلمين إلى التقاتل فيما بينهم حتى إن الروايات تحدّثت عن أحداث في تأريخ متأخر عن تلك الحقب، ويعود إلى أيام الإمام الحسن عليه السلام حدثت فيه مشادة مختلفة، اختلقها السياسي مروان بن الحكم ممثل السياسيين العرب في المدينة ليجرّ المسلمين إلى قتال بيني يفضي إلى إضعاف البيت الهاشمي وقتل الإمام الحسين عليه السلام الذي يعتقدون بأنه يمثل امتدادا للخطر الذي يمثله علي والحسن عليهما السلام، وخلاصة هذه القضية أنّ الإمام الحسن عليه السلام بعد أن دسّ له معاوية السمّ واقترب أجله، أوصى أن يُدفنَ مع جده النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله حسب بعض الروايات وجاء في الوصية التي أوردها الشيخ الطوسي في أماليه عن ابن عباس: «هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنه يعبد حقه عبادته، لا شريك له في الملك، ولا ولي له من الدن، وأنه خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأنه أولى من عبْدٍ وأحق من حُمِدَ، من أطاعه رشد ومن عصاه غوى، ومن تاب إليه اهتدى، فإني أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلي وولدي وأهل بيتك أن تصفح عن مسيئهم وتقبل من محسنهم، وتكون لهم خلفا ووالدا، وأن تدفني مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فإني أحق به وبيته. فإن أبوا عليك فأشذك الله بالقرابة التي قرب الله عز وجل منك والرحم الماسة من رسول الله صلّى الله عليه وآله أن لا تهريق في أمري محجمة من دم حتى نلقى

رسول الله ﷺ فنختصم إليه ونخبره بما كان من الناس إلينا»^(١)

نستشف من الوصية أمورا مهمة جدا، منها:

- الأول: إن الإمام الحسن (عليه السلام) كان يرغب كليا بأن يدفن مع جده النبي ﷺ وهو الأمر ذاته الذي يدفع الشيعة إلى الرغبة الأكيدة بأن يدفنوا عند ضريح الإمام علي وأولاده المعصومين (عليهم السلام)، لعدم تمكنهم من الحصول على مكان للدفن قرب الرسول.

- الثاني: إنه كان يعرف بحسب ما أخبره به أبوه من الأمور المستقبلية بأن السياسيين سوف يمنعون دفنه مع جده حتى ولو بالقوة وسفك الدماء.

- الثالث: إنه أراد توضيح منهجه السلمي في حياته وبعد موته ليكون درسا للعالمين.

إن قصص منع الأمويين دفن الإمام الحسن (عليه السلام) مع جده أوردتها أغلب كتب التاريخ الإسلامي وكتب المدرستين، وقد تلاعبت بها الأقلام السياسية كما تلاعبت في كل ما له علاقة بالحسن (عليه السلام)، ولذا تجد هناك من يثبت بالنقل الصحيح الموثوق أن أم المؤمنين عائشة ركبت بغلة وسارت للتصدي للمشيعين؛ جنبا إلى جنب مع الأمويين الذين أثار حقدهم موضوع الدفن بشكل كبير جدا دفعهم إلى حمل السلاح والتهديد بإشعال فتنة كبيرة إذا أصر الهاشميون على الدفن. وهناك أيضا من يدعي بأنها وافقت على الدفن ولم تعترض كما تقول روايات أخرى ومنها رواية الأصفهاني الذي نقل عنها قولها: «نعم، ما كان بقي إلا موضع قبر واحد»^(٢)

(١) أمالي الشيخ الطوسي.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٨٢.

قال ابن الأثير عن هذه قصة واقعة الدفن: «في السنة التاسعة والأربعين للهجرة توفي الحسن بن عليّ سمّته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكنديّ؛ وأوصى أن يُدفنَ عند النبيّ ﷺ؛ فاستأذن الحسين عائشة فأذنت له، فقام مروان بن الحكم وجمع بني أميّة وشيعتهم ومنع من ذلك»^(١).

وقال ابن كثير: «قال الواقدي: حدثنا إبراهيم بن الفضل، عن أبي عتيق قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: شهدنا حسن بن علي يوم مات، فكادت الفتنة تقع بين الحسين بن علي ومروان بن الحكم، وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يُدفنَ مع رسول الله ﷺ، فإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شر فليدفن بالبقيع. فأبى مروان أن يدعه، ومروان يومئذ معزول يريد أن يرضي معاوية بذلك، فلم يزل مروان عدوا لبني هاشم حتى مات. قال جابر: فكلمت يومئذ حسين بن علي فقلت: يا أبا عبد الله، اتق الله؛ فإن أخاك كان لا يحب ما ترى، فادفنه بالبقيع مع أمه. ففعل».

ثم روى الواقدي: «حدثني عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر قال: حضرت موت الحسن بن علي، فقلت للحسين: اتق الله، ولا تثر فتنة، ولا تسفك الدماء، وادفن أخاك إلى جنب أمه؛ فإن أخاك قد عهد بذلك إليك. قال: ففعل الحسين. وقد روى الواقدي عن أبي هريرة نحوه من هذا»^(٢).

وفي رواية «أن الحسن بعث يستأذن عائشة في ذلك، فأذنت له، فلما مات لبس الحسين السلاح وتسليح بنو أمية، وقالوا: لا ندعه يُدفنَ مع رسول الله ﷺ، أيدفن عثمان بالبقيع، ويُدفنُ الحسن بن علي في الحجرة؟ فلما خاف الناس وقوع الفتنة؛ أشار سعد

(١) الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٤٠٢.

(٢) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ج ٨، ص ٢١١.

بن أبي وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر على الحسين أن لا يقاتل؛ فامتثل ودفن أخاه قريبا من قبر أمه بالبيقع»^(١). وتبدو الصورة هنا وكأن الأمويين هم من تبني مسألة معارضة دفن الإمام الحسن مع جده، ولكنها ليست الصورة الوحيدة في مشهد الدفن بكل تأكيد.

ففضلا عن ذلك هناك من يقول أن أم المؤمنين عائشة هي التي حرّضت الأمويين على الخروج لنصرتها لكي تمنع دفن الحسن عليه السلام مع جده عليه السلام؛ وهي التي اعترضت على مكان الدفن؛ ولكن من المؤكد في حال صحة هذه الروايات أن مروان هو الذي أوغر قلبها وحضها على الرفض لكي تقع الفتنة من جانب ولا ينال الحسن عليه السلام مقاما بدفنه إلى جانب جده: «فلما مضى لسبيله وغسله الحسين عليه السلام وكفّنه وحمله على سريره لم يشك مروان وبنو أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فتجمعوا ولبسوا السلاح، فلما توجه به الحسين عليه السلام إلى قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ليجدّد به عهداً أقبلوا في جمعهم؛ ولحقّتهم عائشة على بغل وهي تقول: نحوا ابنكم عن بيتي، فإنّه لا يدفن فيه ويهتك عليه حجاب»^(٢).

ولكن الأصهباني يعترض على هذا الرأي ويورد رواية تقول: إن عائشة هي التي كانت مصرة على المنع؛ وهي التي حرّضت الأمويين لنصرتها، ولم يوغر قلبها على الحسن عليه السلام أحد منهم، بل هي التي أثارت قلوب الأمويين واستنفرتهم: «قال يحيى بن الحسن: وسمعت علي بن طاهر بن زيد يقول: لما أرادوا دفنه؛ ركبت عائشة بغلا

(١) البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢١١.

(٢) إرشاد المفيد، ج ٢، ص ١٧، كشف الغمة، ج ١، ص ٥٨٥، ونحوه في: مقاتل الطالبين، ص

٧٤، ودلائل الإمامة، ص ٦١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، م ٤، ج ١٦، ص ٤٩.

واستنفرت بني أمية مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمتهم^(١)

وبعد ذلك ثار قناص فرص الفتنة السياسي الكبير مروان بن الحكم وجماعته من السياسيين لتحقيق ما أرادته وما يريدونه هم أيضا، يقول الأصبهاني: «فمنع مروان بن الحكم من ذلك، وركبت بنو أمية في السلاح، وجعل مروان يقول: يا رب هيجاً هي خير من دعة، أيدفن عثمان في أقصى البقيع ويدفن الحسن في بيت رسول الله؟ والله لا يكون ذلك أبداً؛ وأنا أحمل السيف، فكادت الفتنة أن تقع»^(٢).

وفي رواية اليعقوبي: «فركب مروان بن الحكم وسعيد بن العاص فمنعنا من ذلك حتى كادت تقع فتنة»^(٣)

ونجد في المستدرک رواية: «عن سالم بن أبي حفصة قال: سمعت أبا حازم يقول: إني لشاهد يوم مات الحسن بن علي؛ فرأيت الحسين يقول لسعيد بن العاص ويطعن في عنقه: تقدم فلولا أنها سنة ما قدمتك وكان بينهم شيء فقال أبو هريرة: أتفسون على ابن نبيكم ﷺ بترية تدفونه فيها وقد سمعت رسول الله يقول: من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»^(٤) وهذا حديث صريح يشير إلى اعتراض السياسيين على ما اعتقدوا أنه دفن قرب الرسول ﷺ، وفيه يعاتبهم أبو هريرة بما حدث وكأنه يقول لهم: يا من تبغضون الله ورسوله عار عليكم أن تثيروها فتنة بالظن والشك؛ وكان الأولى بكم أن تطلبوا من الحسين دفن الحسن مع جده حتى ولو لم يوص بذلك، لا أن تمنعوه! وسواء صحت هذه الرواية أو تلك، فقد نجح السياسيون في منع دفن الإمام

(١) مقاتل الطالبين، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢) مقاتل الطالبين، أبي الفرج الأصفهاني، ص ٨١.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٤) المستدرک، الحاكم، ج ٣، ص ١٨٧-١٨٨، حديث ٤٧٩٩ / ٣٩٧.

الحسن عليه السلام مع جده النبي صلى الله عليه وآله بعد أن أثاروها فتنة لو قبض لها أن تتحول إلى نزاع لكانت أحرقت الأخضر واليابس ولم تبق للإسلام من أثر يذكر، وكان معاوية قد أسرع بإرسال جنوده لحرق المدينة ومن فيها من الهاشميين والصحابه وكل من يعترض عليه، ليقرأ على الإسلام السلام.

أما ما أراه واعتقده فهو أنه يستحيل أن يطلب الإمام الحسن الدفن مع رسول الله وهو يعلم تمام العلم أن هناك جيوشا تعترض على هذا الأمر ولديها استعداد لحرق المدينة والقبر وكل ما فيه، فالحسن عليه السلام الذي تنازل في حياته عن الخلافة وكل بهرجها لمجرد أنه كان حريصا على الإسلام من الضياع مع ما كان لديه من جند وأصحاب ومعدات، لا يمكن أن يأمر بإشعال فتنة تحرق الأخضر واليابس في مماته؛ ومن بقي من الهاشميين لم يكونوا سوى قلة قليلة، لا قدرة لهم على مواجهة السيل الأموي المدمر.

أو ربما أنه أراد مرة أخرى أن يثبت للعالم أبتعاد السياسيين عن الحق والعدل والإيمان، ويظهر للناس كره السياسيين لأهل البيت عليهم السلام الذين أوصى النبي صلى الله عليه وآله بحبهم وتبجيلهم، فطلب أن يبدو الحسين عليه السلام وكأنه يريد دفن أخيه مع جدهم؛ تماما كما فعل يوم الصلح، فالصلح وفكرة الدفن وجهان لعملة واحدة هدفها فضح أعداء الدين، وقد نجح الإمام الحسن عليه السلام في الوقعتين، نجح حيا وميتا، وفشل السياسيون وبان غباؤهم وكفرهم وحقدهم للناس. وقبالة هذين الرأيين أرى أن الإمام الحسن عليه السلام كان يرغب بأن يطوفوا به على قبر جده عليه السلام ليثبت آخر العهد به، ثم يدفنونه في البقيع مع من دُفِنَ فيها سرا بجانب أمه فاطمة الزهراء عليها السلام وفي حضنها الدافئ، أو بجانب جدته فاطمة بنت أسد عليها السلام. وأن الأمويين اعتقدوا بأن الحسين عليه السلام يريد دفن الحسن عليه السلام مع جده فثارت ثائرتهم.

أما تلك الزوابع التي تحدثت عن تحبط كبير وقع يوم الدفن، فهي من صنع السياسيين، وجاءت مكملة لباقي فقرات مشروعاتهم التخريبي، وللأسف صدق بها كثير من الناس. ولقد وجدت ما يؤيد رأيي بمجموعة نقول جاء منها:

• أولاً: «عن عبد الله بن إبراهيم، عن زياد المحاربي، قال: لما حضرت الحسن عليه السلام الوفاة استدعى الحسين عليه السلام، وقال له: يا أخي إنني مفارقك ولاحق برّبي، وقد سُقيتُ السمّ ورميت بكبدي في الطست، وإنّي لعارف بمن سقاني ومن أين دهيت، وأنا أخاصمه إلى الله عزّ وجلّ، فبحقّي عليك إن تكلمت في ذلك بشيء، وانتظر ما يحدث الله تبارك وتعالى فيّ، فإذا قضيت فغسلني وكفّني واحملني على سريري إلى قبر جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله لأجدد به عهداً، ثمّ ردّني إلى قبر جدّتي فاطمة فادفني هناك، وستعلم يا ابن أمّ أنّ القوم يظنون أنّكم تريدون دفني عند رسول الله صلّى الله عليه وآله فيجلبون في منعكم من ذلك، وبالله أقسم عليكم أن لا تهريق في أمري محجمة من دم. ثمّ وصّى إليه بأهله وولده وتركاته وما كان وصّى أمير المؤمنين عليه السلام حين استخلفه»^(١).

• ثانياً: «روي عن زياد المخارقي قال: لما حضرت الحسن عليه السلام الوفاة، استدعى الحسين بن علي عليهما السلام فقال: يا أخي إنني مفارقك، ولاحق برّبي عزّ وجلّ، وقد سُقيتُ السمّ، ورميت بكبدي في الطست، وإنّي لعارف بمن سقاني السمّ، ومن أين دُهِيتُ، وأنا أخاصمه إلى الله تعالى، فبحقّي عليك إن تكلمت في ذلك بشيء، وانتظر ما يحدث الله عزّ ذكره فيّ، فإذا قضيت نحبي فغمّضني، وغسلني وكفّني، واحملني على سريري إلى قبر جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله لأجدد به عهداً، ثمّ ردّني إلى قبر جدّتي فاطمة بنت أسد عليها السلام فادفني هناك. وستعلم يا ابن أمّ، أنّ القوم يظنون أنّكم تريدون دفني

(١) موسوعة الأسئلة العقائدية، مركز الأبحاث العقائدية، ج٢، ص ١٦٣. <http://www.aqaed.com/book/567/saqd2-06.html>

عند رسول الله ﷺ فيجلبون في منعكم عن ذلك، وبالله أقسم عليك أن لا تهريق في أمري محجمة دم. ثم وصى ﷺ إليه بأهله وولده وتركاته، وما كان وصى به إليه أمير المؤمنين ﷺ حين استخلفه وأهله لمقامه، ودل شيعته على استخلافه، ونصبه لهم علماً من بعده^(١).

• ثالثاً: قال الشيخ المفيد: لما مضى لسبيله غسله الحسين ﷺ وكفنه وحمله على سريره، ولم يشك مروان ومن معه من بني أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله ﷺ فتجمعوا لذلك؛ ولبسوا السلاح، فلما توجه به الحسين ﷺ إلى قبر جده رسول الله ﷺ ليجدد به عهداً؛ أقبلوا إليهم في جمعهم ولحقتهم عائشة على بغل وهي تقول: مالي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب! وجعل مروان يقول: يا رب هيجأ هي خير من دعة. أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبي، لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف، وكادت الفتنة أن تقع بين بني هاشم وبني أمية. فبادر ابن عباس إلى مروان فقال له: ارجع يا مروان من حيث جئت، ما نريد دفن صاحبنا عند رسول الله ﷺ لكننا نريد أن نجدد به عهداً بزيارته ثم نرده إلى جدته فاطمة بنت أسد فندفنه عندها بوصيته بذلك، وقال الحسين ﷺ: والله لو لا عهد الحسن بحقن الدماء وأن لا أهريق في أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا. ومضوا بالحسن فدفنوه بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف».

ولهذا السبب ترى الميت من أتباع مدرسة أهل البيت ﷺ يطاف به على قبور ومراقد الأئمة المعصومين ﷺ لكي يجدد العهد بهم قبل دفنه.

أما السياسيون ولكي يغطوا على خيبتهم وفشلهم في إثارة الفتنة عمدوا إلى وضع روايات كثيرة تصل أحيانا إلى درجة التعارض فيما بينها، لكي لا يفهم الناس ما دار في يوم الدفن، فلا يصلوا إلى الحقيقة. ومن هذه الروايات قولهم: إن الإمام الحسن عليه السلام أراد أن يدفنه مع جده عليه السلام، فأخذ الواقدي قولهم، وأخذ عنه ابن سعد، وجاء سبط ابن الجوزي فأخذ عن ابن سعد، وهكذا استمر تداول المعلومة حتى ملأت بطون الكتب وبات من الصعب عدم التصديق بها.

قال سبط ابن الجوزي: «قال ابن سعد عن الواقدي: لما احتضر الحسن قال: أدفنوني عند أبي يعني رسول الله عليه السلام فأراد الحسين عليه السلام أن يدفنه في حجرة رسول الله عليه السلام فقامت بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكان واليا على المدينة فمنعوه وقامت بنو هاشم لتقاتلهم، فقال أبو هريرة أرايتم لو مات ابن موسى، أما كان يدفن مع أبيه؟ قال ابن سعد: ومنهم أيضا عائشة وقالت لا يُدفنُ مع رسول الله عليه السلام أحد»^(١).

إن المشكلة التي أثاروها يوم دفن الإمام الحسن عليه السلام تؤكد خبث المخططات السياسية التي كانت تحارب الخط العلوي من جانب، وتؤكد من جانب آخر أن السياسيين ومن لف لفهم لم يحبوا أهل البيت عليهم السلام قط، وخالفوا وصايا الرسول الأكرم عليه السلام، وتؤكد ثالثا أن مخططاتهم الشريرة هي التي أودت بالإمام الحسن عليه السلام، وأخيرا أن هذه المؤامرات لن تقف عند هذا الحد وإنما ستستمر إلى تحقيق كامل الأهداف المرسومة.

والظاهر أن الأهداف بمجملها لم تتحقق إلى الآن، ولذا نجد أحفادهم يستخدمون الأساليب ذاتها مع أتباع أهل البيت عليهم السلام بما يعني أنها ستبقى قلقة فاعلة إلى يوم ظهور الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

(١) تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة، الحافظ ابو الفرج سبط ابن الجوزي، قدم له: السيد محمد صادق بحر العلوم، مكتبة نينوى.

هدم القبر الشريف

وبعد كل تلك الجرائم والجرائر العظيمة التي ارتكبوها بحق الإمام الحسن (عليه السلام)، وكل ذلك التحريف التاريخي الذي اعتمدوه منهجا منذ النصف الأول من القرن الهجري الأول فصاعدا عز عليهم أن يروا له قبرا على سطح الأرض حتى ولو كان شاهدا بسيطا لا تكلف فيه ولا بهرجة؛ فعمدوا إلى هدمه وتغييب ملامحه في الثامن من شوال سنة ١٣٤٦ هجرية الموافق ٣٠-٣-١٩٢٨ ميلادية، مع قبور الأئمة الآخرين: الإمام زين العابدين علي بن الحسين، وابنه الإمام محمد الباقر، وابنه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

ومن يحلل هذا العمل المشين يجده جينيا ووراثيا موصولا بالحرak السياسي الأول ونابعا من جوهره وراضعا من ثديه؛ وكأن السياسة تأبى أن ترى المسلمين متحدنين على أمرٍ ما مهما كان بسيطا، فيلجأ أساطينها وكهانها إلى سحرهم القديم وطيشهم الأقدم لتطغى القباحة على كل جميل في الكون.

إن ما تقدم ذكره يؤكد أن بعض المسلمين لم ولن يحترموا قيم مجتمعهم وتاريخ أهلهم في أي وقت من الأوقات، وهم بسبب أنانيتهم وحبهم للدنيا وجشعهم وطمعهم كانوا ولا زالوا على استعداد لتخريب الكون من أجل أن يعمرُوا ملكياتهم الخاصة؛ وإلا هل يُعقل أن تقوم أمة تحترم نفسها وتحترم نبيها وأهلها بكل تلك الأعمال القبيحة، وكل ذلك التحريف والدس والكذب ضد واحد من أعز أبنائه وشبيهه وحامل مفتاح رسالته؟

وإذا كان الجهل والطيش القديم هو من دفع الأوائل إلى ارتكاب كل تلك الحماقات؛ فما الذي يدفع أبناءهم في عصر التقدم والذرة والإنسان الأخير ليرتكبوا الحماقات نفسها؟! وإذا ما كان التجهيل المقصود قد لوث عقول أتباعهم المعاصرين، فما لوث أفكارهم وهم قرييون من عصر البعثة ويعرفون من هو الحسن بن علي عليه السلام في ميزان النبوة والدين والعقيدة والرحم؟ متوالية في منتهى العجب لا تنقضي ولا تقف عند حد مهما تنوع التعامل معها.!

الإمام الحسن في ميزان النبوة

هكذا أراد السياسيون تشويه سيرة الإمام الحسن عليه السلام غير ملتفتين إلى هذا العلم العالي والطود الشامخ، هذا الإمام المعصوم والخليفة المنصوص على إمامته وخلافته، الذي وردت بحقه جملة عظيمة من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة التي اتفقت المدارس الإسلامية على صحتها وتواترها، وهي أحاديث بمضمونها ومجملها تجعل من الإمام الحسن عليه السلام شخصاً فريداً بكل المقاييس الإنسانية والدينية والأخلاقية، ولو أن المسلمين كانوا ملتزمين حقاً بمنهج الرسالة لكانوا صلوا على تراب أقدام الإمام الحسن عليه السلام بدلاً من أن يقاتلوه ويغتصبوا حقه ويقتلوه بالسّم ويهدموا قبره الشريف.

ولكي تتضح صورة الفعل الشنيع الذي جابهوا به الإمام الحسن عليه السلام وعظيم ما اقترفوه بحقه وبحق الرسالة المحمدية؛ سأورد بعضاً من الكم الكبير من الأحاديث معتمداً على كتب المدارس الإسلامية، ومتجاوزاً ما جاء في كتب مدرستنا لكي لا تُتهم بالتحيز، ولكي اثبت أن غيرنا يعرف كما نعرف مركز الإمام الحسن عليه السلام وقيّمته الفكرية والعقدية والأخلاقية، ولكن شتان بين التطبيق والتلفيق، وشتان بين من عادى أعداءه وبين من ساوى بينه وبين أعدائه وترضى عليها سوية! وأنقل مما في حاشية السندي على ابن ماجه بعض الروايات:

- الأولى: «عن عبد الله بن بريدة، عن ابن عباس قال: انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وآله فنأدى على باب فاطمة ثلاثاً فلم يجبه أحدٌ، فمال إلى حائط فقعد فيه وقعدت إلى جانبه،

فبينما هو كذلك إذ خرج الحسن بن عليّ قد غسل وجهه وعلقت عليه سبحة، قال: فبسط النبي ﷺ يده ومدّها ثم ضمّ الحسن إلى صدره وقبله، وقال: إنّ ابني هذا سيّد، ولعلّ الله عزّ وجلّ يصلح به بين فئتين من المسلمين». وقال: ورد ذيله في مسند الطيالسي: ١١٨ | ٨٧٤، مصنف عبد الرزاق ١١: ٤٥٢، وصحيح البخاري ٥: ٣٢، ومسند أحمد ٥: ٣٧ و٥١، والمعجم الكبير للطبراني ٣: ٢٢ | ٢٥٩١، وحلية الأولياء ٣٥: ٢، والاستيعاب ١: ٣٧٠، ومجمع الزوائد ٩: ١٧٥.

- الثانية: «من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»
- الثالثة: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»
- الرابعة: «ابناني هذان إمامان، قاما أو قعدا»^(١)

وقال السندي، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب (عليه السلام): «حدثنا أحمد بن عبدة، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن نافع بن جبير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال للحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه قال وضمه إلى صدره»^(٢) وقال السندي: فضلا عن ذلك ورد الحديث في صحيح مسلم ج ٥ ص ٣٦ صحيح البخاري ج ٢ كتاب فضائل الصحابة ص ١٢٨١ جامع الأصول ج ٩ ح ٦٥٥٢ ص ٢٧ مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٧٦ تاريخ ابن عساكر ج ١٣ ص ١٨٦ ذخائر العقبى ص ١٢٢ أسد الغابة ج ٢ ص ١٢ الصواعق المحرقة الباب العاشر ص ١٣٧ مطالب السؤول ص ٢٢٧ المعجم الكبير ج ٣ ح ٢٥٨٢ ص ٣١ إسعاف

(١) حاشية السندي على ابن ماجه، أبو الحسن الحنفي الشهير بالسندي، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

(٢) المصدر نفسه، حاشية السندي، حديث رقم ١٤٢.

الراغبين ص ١٩٣.

وفي فتح الباري، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام قال نافع بن جبير: «عن أبي هريرة: عانق النبي ﷺ الحسن»^(١)

وفي البحر الزخار وتحت عنوان (الحسن سفينة نجاة) جاء «عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر، حدثنا عمرو بن علي، والجراح بن مخلد، ومحمد بن معمر، واللفظ لعمرو، قالوا: حدثنا مسلم بن إبراهيم، قال: حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق، ومن قاتلنا في آخر الزمان كان كمن قاتل مع الدجال» وقال: وهذا الكلام لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا عن أبي ذر من هذا الوجه، ولا نعلم تابع الحسن بن أبي جعفر على هذا الحديث أحد».^(٢)

وفي مستدرك الحاكم، من مناقب الحسن والحسين ابني بنت رسول الله ﷺ «عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله: لكل نبي أم عصبة يتمتعون إليهم إلا ابني فاطمة فأنا وليهما وعصبتهم. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».^(٣)

وفيه أيضا عن أبي ظبيان، عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبني ومن أحبني أحبه الله ومن أحبه الله أدخله الجنة،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مناقب الحسن والحسين.

(٢) البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار، حديث رقم ٣٩٠٠.

(٣) المستدرك للحاكم، ج ٣، ص ١٧٩ حديث ٤٧٧٠ / ٣٦٨.

ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله ومن أبغضه الله دخل النار.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١).

وعن مصنف ابن أبي شيبة في الجزء السابع، ما جاء في الحسن والحسين عليهما السلام

١. حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر قال: «كان الحسن والحسين يثبان على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلي، فجعل الناس ينحونهما فقال النبي: دعوهما بأبيهما وأمي، من أحبني فليحب هذين».

٢. حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الجحاف عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: «قال يعني النبي صلى الله عليه وآله: اللهم إني أحبهما فأحبهما يعني حسنا وحسنا»^(٢).

٣. حدثنا وكيع عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن ابن أبي نعم عن أبي سعيد قال: «قال يعني النبي صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

٤. حدثنا زيد بن حباب عن إسرائيل عن مسرة النهدي عن النعمان بن عمرو عن زر بن حبیش عن حذيفة قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وآله فصليت معه المغرب ثم قام يصلي حتى صلى العشاء ثم خرج فاتبعته فقال: ملك عرض لي استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

٥. حدثنا حسين بن علي عن أبي موسى عن الحسن قال: «رفع النبي صلى الله عليه وآله الحسن بن علي معه على المنبر فقال: إن ابني هذا سيد، ولعل الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين».

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨١، حديث ٤٧٧٦ / ٣٧٤.

(٢) المصنف، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، ج ٧،

٦. حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن علي قال: «قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

٧. حدثنا عفان قال حدثنا وهيب قال حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن يعلى العامري أنه جاء حسن وحسين يسعيان إلى رسول الله ﷺ فضمهما إليه وقال: «إن الولد مبخلة مجبنة».

٨. حدثنا مالك بن إسماعيل عن أسباط بن نصر عن السدي عن صبيح مولى أم سلمة عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال لفاطمة وحسن وحسين: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم».

٩. حدثنا خالد بن مخلد قال ثنا موسى بن يعقوب الزمعي عن عبد الله بن أبي بكر بن زيد بن المهاجر قال أخبرني مسلم بن أبي سهل النبال قال: أخبرني حسن بن أسامة بن زيد قال أخبرني أبو أسامة قال: «طرقت رسول الله ﷺ ذات ليلة لبعض الحاجة، قال: فخرج إلي وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه، فكشف فإذا حسن وحسين على وركيه فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إنك تعلم أنني أحبهما فأحبهما»^(١)

١٠. حدثنا هوذة بن خليفة عن التيمي عن أبي عثمان عن أسامة بن زيد قال: «كان رسول الله ﷺ يأخذني والحسن فيقول: اللهم إني أحبهما فأحبهما».

١١. حدثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي قال: «لما أراد رسول الله ﷺ أن يلاعن أهل نجران أخذ بيد الحسن والحسين وكانت فاطمة تمشي خلفه».

١٢. حدثنا وكيع عن الأعمش عن سالم قال: «قال رسول الله ﷺ: إني سميت ابني هذين باسم ابني هارون شبر وشبير».

١٣. حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: «إن النبي ﷺ سمع بكاء الحسن أو الحسين فقام فزعا فقال: إن الولد لفتنة، لقد قمت إليه وما أعقل».

١٤. حدثنا هوزة بن خليفة عن التيمي عن أبي عثمان عن أسامة قال: «كان رسول الله ﷺ يأخذني والحسن فيقول: اللهم إني أحبهما فأحبهما».

١٥. حدثنا غندر عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقرم قال: «بينما الحسن بن علي يخطب إذ قام رجل من الأزد طوال فقال: رأيت رسول الله ﷺ واضعه في حقويه يقول: من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب».

١٦. حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني حسين بن واقد قال حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطبنا فأقبل حسن وحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ فأخذهما فوضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله ورسوله: إنما أموالكم وأولادكم فتنة، رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته».

١٧. حدثنا أسود بن عامر قال: حدثني مهدي بن ميمون عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن ابن أبي نعم قال: «كنت جالسا عند ابن عمر فأتاه رجل من أهل العراق فقال ابن عمر: ها انظروا هذا يسألني عن دم البعوض وهم قتلوا ابن رسول الله ﷺ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: هما ريحائتي من الدنيا»^(١)

(١) المصنف، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ج ٧، ص ٥١٤

١٨. حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرني جرير بن حازم عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: «دُعِيَ رسول الله ﷺ لصلاة، فخرج وهو حامل حسنا أو حسينا فوضعه إلى جنبه فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطل فيها، قال أبي: فرفعت رأسي من بين الناس فإذا الغلام على ظهر رسول الله فأعدت رأسي فسجدت، فلما سلم رسول الله قال له القوم: يا رسول الله لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها، أفكان يوحى إليك؟، قال: لا ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

١٩. حدثنا شبابة قال ثنا شعبة عن عدي بن ثابت عن البراء قال: «رأيت النبي ﷺ حمل الحسن بن علي على عاتقه وقال: اللهم إني أحبه فأحبه».

٢٠. حدثنا جعفر بن عون قال أخبرنا معاوية بن أبي مزراد المدني عن أبيه عن أبي هريرة قال: «بصر عيناى هاتان وسمع أذناى النبى ﷺ وهو آخذ بيد حسن أو حسين وهو يقول: ترق عين بقية قال: فيضع الغلام قدمه على قدم النبى ثم يرفعه فيضعه على صدره ثم يقول: افتح فاك قال: ثم يقبله ثم يقول: اللهم إني أحبه فأحبه».

٢١. حدثنا مطلب بن زياد عن جابر عن أبي جعفر قال: «اصطرع الحسن والحسين فقال رسول الله ﷺ: هو حسين فقالت فاطمة: كأنه أحب إليك، قال: لا ولكن جبريل يقول: هو حسين».

٢٢. حدثنا مطلب بن زياد عن جابر عن أبي جعفر قال: «مر رسول الله ﷺ بالحسن والحسين وهو حاملهما على مجلس من مجالس الأنصار فقالوا: يا رسول الله نعمت المطية قال: ونعم الراكبان».

٢٣. حدثنا عفان قال ثنا وهيب عن عبد الله بن عثمان عن سعيد بن أبي راشد

عن يعلى العامري أنه «خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دُعُوا له، فإذا حسين يلعب مع الغلمان في الطريق فاستقبل أمام القوم ثم بسط يده وطفق الصبي يفر هاهنا مرة وهاهنا، وجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه رسول الله ﷺ فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه ثم أقنع رأسه رسول الله ﷺ فوضع فاه على فيه فقبله فقال: حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(١).

وفي شرح النووي على صحيح مسلم

٢٤٢٢ حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عدي وهو ابن ثابت حدثنا البراء بن عازب قال: «رأيت الحسن بن علي على عاتق النبي ﷺ وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»

٢٤٢٢ حدثنا محمد بن بشار وأبو بكر بن نافع قال ابن نافع حدثنا غندر حدثنا شعبة عن عدي وهو ابن ثابت عن البراء قال: «رأيت رسول الله ﷺ واضعاً الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»^(٢).

وفي صحيح مسلم: حدثني أحمد بن حنبل حدثنا سفيان بن عيينة حدثني عبيد الله بن أبي يزيد عن نافع بن جبير عن أبي هريرة «عن النبي ﷺ أنه قال لحسن: اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»^(٣).

وفي حلية الأولياء

(١) المصنف، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ج ٧، ص: ٥١٥.

(٢) شرح النووي على مسلم، يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، حديث ٢٤٢٢.

(٣) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء الكتب العربية، سنة النشر: بلا، خمسة أجزاء، باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما، حديث ٢٤٢١.

١. حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يوسف بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت، قال: سمعت البراء يقول: «رأيت النبي ﷺ واضعا الحسن على عاتقه، فقال: من أحبني فليحبه. رواه أشعث بن سوار وفضيل بن مرزوق عن عدي مثله».

٢. حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا هشام بن سعد، حدثني نعيم، قال: قال لي أبو هريرة: «ما رأيت الحسن قط إلا فاضت عيناى دموعا، وذلك أنه أتى يوما يشد حتى قعد في حجر رسول الله ﷺ فجعل يقول بيديه هكذا في حية رسول الله ورسول الله ﷺ يفتح فمه ثم يدخل فمه في فمه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه، يقولها ثلاث مرات»^(١)

ولو أردنا المواصلة والمتابعة وجمع الأحاديث الدالة على مكانة ومنزلة الحسن بن علي عليه السلام من كتب مدرسة الخلفاء وحدها لما وسعتنا المجلدات الطوال، ولكني اكتفي بما تقدم فهو خير دليل على أن السياسيين لم يأبهوا بكل هذه الأحاديث، ولم يلتزموا بها، وإنما حاربوا وقتلوا الإمام الحسن عليه السلام وجاء من بعدهم أبناءهم واحفادهم فدافعوا عن كرهه وقاتلوا الإمام الحسن عليه السلام، ومن فرح بموته وجهل منزلته وفق ازدواجية مقبلة لا يستقيم معها العدل والإنصاف بله الإيمان والتصديق.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الإمام الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، ص ٣٥، حديث

فرح السياسيين بموته

إن شخصا يمثل مواصفات الإمام الحسن عليه السلام المقدسة ومنزلته الفريدة ما كان للأمة أن تفرط به لو كانت حقا مدركة لمعنى الرسالة وقيم السماء؛ فالإمام الحسن عليه السلام أنموذج مائز للإنسان الفريد المنتقى بعناية الرب سبحانه لم تجد الأيام بمثله إلا في نادر الندرة ثم عقت؛ ولن تتكرر نسخته إلى أبد الأبدين، ولكن السياسيين وأعوانهم من المتزلفين، فضلا عن خدمهم من وعاظ السلاطين اجتمعوا سوية وخلخلوا وخلطوا صافي منظومة فكر الإنسان المسلم البسيط الساذج الأول؛ وهي لما نزل طرية يانعة لم تنضج بعد، تتصارع مع قيم البداوة وسنن الجاهلية وعنت العرف العشائري وما اكتسبته من قسوة الطبيعة وشظف العيش وهي العوامل المانعة المضادة التي كانت لا تزال تعشش في أركان كيانه، فخدعوه وحرفوا مساره وأوقفوا مسيرته نحو المعرفة السامية التي جاءت بها الرسالة المحمدية؛ ليضخوا في كيانه معرفة من نوع آخر محت جوهر البراءة من روحه وحولته إلى نصف آدمي ونصف شيطان؛ فما عاد يحسب للنبوة وفروعها حسابا سواء ظلمت أمام عينيه أو أسهم هو أيضا في ظلمها، وهي الساعة التي تحكمت الازدواجية فيها بفكر الأمة وأوصلتها إلى مرحلة السجود شكرا لله لموت الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام سيد شباب أهل الجنة الذي جعله الله للناس إماما وأمنا!!

ولذا ترى التاريخ ينقل عن معاوية أنه حينما جاءه خبر موت الحسن عليه السلام سجد وكبر وأعلن الفرح والسرور؛ وروت أغلب المصادر ارتفاع صوت الفرحة من قصر

معاوية بقتل الإمام الحسن عليه السلام! ففي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٦٦: «ولما كتب مروان إلى معاوية بشكاته كتب إليه: أن أقبل المطي إلي بخبر الحسن، ولما بلغه موته سمع تكبيراً من القصر، فكبر أهل الشام لذلك التكبير! فقالت فاختة زوجة معاوية: أقر الله عينك يا أمير المؤمنين ما الذي كبرت له؟ قال: مات الحسن. قالت: أعلى موت ابن فاطمة تكبر؟»^(١)

وفي أخبار الدولة العباسية/ ٤٢: «عن معمر عن إدريس ومحمد بن إسحاق قال: ثم إن مروان بن الحكم كتب إلى معاوية يخبره بمرض الحسن بن علي عليه السلام وأنه رأى أن به السل! فكتب إليه معاوية: لا تغيبني خبره يوماً فكان يأتي خبره معاوية كل يوم! فقال رجل من قريش: إني لفي الباب في اليوم الذي جاء فيه نعي الحسن بن علي عليه السلام إذ مرَّ يزيد بن معاوية داخلاً على أبيه فأدخلني فما مر بباب إلا قالوا: مرحباً بابن أمير المؤمنين حتى انتهى إلى البيت الذي فيه معاوية، وإذا امرأته بنت قرظة تعطره وتسرح لحيته، فلما رأتنا امرأته قالت: واسوأاته أتدخل علينا الرجال؟ فقال لها: أسكتي وإلا عزمت على أمير المؤمنين أن يتزوج أربع قرشيات كلهن يأتين بغلام يبيع له بالخلافة! فقال لها معاوية: أسكتي فلو عزم عليّ يزيد لم أجد بداً من إنفاذ عزمته! فقامت فلم تقدر على النهوض حتى وضعت يدها على الأرض ثم ارتفعت، فلما ولت قال معاوية: ما كنا لنُغيرها. قال يزيد: وما كنت لأعزم عليك، إنما قلت ما قلت لأذعرها! فإنا كذلك؛ إذ دخل شيخ طوال كان على الصائفة فسأله معاوية عن أمر الناس والجند، فبينما نحن كذلك إذ دخل غلام معاوية فقال: يا أمير المؤمنين بشراي! قال: وما ذلك؟ قال: في هذه الصحيفة ما تحب. قال: لك بشراك، فدفعها إليه ولما قرأها خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه،

(١) فرح معاوية بقتله للإمام الحسن عليه السلام، موقع سماحة الشيخ علي الكوراني،

<http://www.alameli.net/books/index.php?id=2842>

فعرفنا السرور في وجهه فنُعِي الحسن بن علي، فبكى الشيخ وانتحب ووضع يده على (فمه) ينتحب فقال له الغلام: أسكت أيها الشيخ فقد شققت على أمير المؤمنين! هل الحسن إلا أحد رجلين: إما منافق أراح الله منه، وإما برٌّ فما عند الله خير للأبرار! ثم إن معاوية قال لحاجبه: إئذن للناس وأخر إذن ابن عباس..^(١)

وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/ ١٥٠: «فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً، حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس وكان بالشام يومئذ فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية: يا بن عباس هلك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم هلك، إنا لله وإنا إليه راجعون، ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لو فاته! أما والله ما سد جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جده رسول الله ﷺ. فجبر الله مصيبتَه وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة. ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر المجلس». ونحوه تاريخ دمشق: ١٣/ ٢٩٥، ومروج الذهب ٦٦١^(٢)

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

عدم احترام منزلته

من المفروض بالآمة تبعا لما وصلها من الأحاديث الصحيحة والحسان والمتواترة أن لا تفرح بموت الحسن عليه السلام، وإنما كان يجب أن تكون للإمام منزلة في الأقل عند معاصريه لا يرقى إليها الراقون، ولا يبلغها المتسلقون؛ طالما أنهم سمعوا أخبارها من فم النبي صلى الله عليه وآله أو من فم من سمعها عنه. كما يتوجب على الأمة التي تحب رسولها أن تحترم تلك الأوامر وتعمل بها وتطبقها حرفيا مثل أي تعليم أو أمر آخر صادر عنه صلى الله عليه وآله ولكنهم ضربوا بها عرض الحائط ولم يكتفوا بمحاربة الحسن عليه السلام وقتله ومنع تجديده العهد مع جده صلى الله عليه وآله ثم عمدوا إلى هدم قبره وإنما شوهوا سيرته العطرة وأساءوا له وللإسلام ولنبي الإسلام. إن كرههم لآل البيت يتنافى مع كل تلك الروايات ويتنافى مع ما جاء في خصائص النسائي: «أخبرنا القاسم بن دينار قال: حدثنا خالد بن مخلد قال: حدثنا موسى (وهو ابن يعقوب الزمعي) عن عبد الله بن أبي بكر بن زيد بن المهاجر قال: أخبرني مسلم بن أبي سهل النبال قال: أخبرني الحسن بن أسامة بن زيد بن الحارثة قال: أخبرني أسامة بن زيد قال: طرقت رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة لبعض الحاجة فخرج وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشفه، فإذا هو الحسن والحسين على وركيه فقال: هذان ابناي وابنا بنتي، اللهم إنك تعلم أنني أحبهما فأحبهما»^(١) نعم لم يشفع له ذلك كله، ولم يشفع له شبهه بالنبي صلى الله عليه وآله.

(١) تهذيب خصائص الإمام علي؛ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، باب (ذكر ما خص به علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من الحسن والحسين ابني رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته من الدنيا وسيدي شباب أهل الجنة إلا عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام)، ص ١٠٩-١١٠، حديث ١٣٤.

لم يشفع له شبهه بالنبي ﷺ

من المعروف بين العامة والخاصة أن (ألف عين لأجل عين تكرم) وللعرب والمسلمين في ذلك قصص وروايات ومواقف وحكايات، وكانوا يحبون الديار والمناطق إكراما لعيون من يحبونه، قال شاعرهم:

وما حب الديار شغلن قلبي ولكن حب من سكن الديار
بل إنهم إكراما لمن يحبونه كانوا يسمون أبناءهم باسمه ويكنوهم بكنيته، ويحبون ويحترمون من يشبه واحدا من آبائهم أو أجدادهم؛ والمفروض أن تكون هذه السجية عامة شاملة في كل الحالات، ولكنك للأسف تجد الانتقائية والتمييز واضحا وبشكل كبير بسبب الخلاف السياسي والعداء العقيدي، فالمعروف أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان أشبه الناس برسول الله ﷺ وإكراما للرسول كان يجب أن يُكرّم بشبهه، ولكنهم لم يحترموا الشبه لأنهم أساسا لم يكونوا يحترمون الأصل، مع أنهم لم يختلفوا بشأن الشبه ولم يعترضوا عليه، بل لهم أحاديث كثيرة جدا تتناول موضوع شبه الحسن (عليه السلام) بجده النبي ﷺ، منها:

«عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مشيت مع أبي جحيفة إلى الجمعة قال: رأيت رسول الله وكان الحسن بن علي يشبهه»^(١).

«عن الزهري قال أخبرني أنس بن مالك قال: كان أشبههم برسول الله يعني أهل

(١) الدولابي، مصدر سابق، ص ٧٠، حديث رقم ١٠٦ .

البيت الحسن بن علي»^(١).

«عن أبي إسحاق عن هانيء بن هانيء عن علي، قال: أشبه الحسن رسول الله ما بين الصدر إلى الرأس....»^(٢)

«وروى إبراهيم بن عليّ الرافعي عن أبيه، عن جدّته زينب بنت أبي رافع قالت: أتت فاطمة عليها السلام بابنيها الحسن والحسين عليهما السلام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله في شكواه التي توفي فيها فقالت: يا رسول الله، هذان ابنك فوزّتهما شيئاً. فقال: أما الحسن فإنّ له هيبتي وسؤدي، وأما الحسين فإنّ له جودي وشجاعتي».

ويصدّق هذا الخبر ما رواه محمد بن إسحاق قال: «ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله ما بلغ الحسن بن عليّ، كان ييسط له على باب داره، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق فما مرّ أحد من خلق الله إجلالاً له، فإذا علم قام ودخل بيته فمرّ الناس، ولقد رأيته في طريق مكّة نزل عن راحلته فمشى فما من خلق الله أحد إلا نزل ومشى، حتّى رأيت سعد ابن أبي وقاص قد نزل ومشى إلى جنبه»^(٣).

وروي عن أنس بن مالك قال: «لم يكن أحد أشبه برسول الله صلّى الله عليه وآله من الحسن بن عليّ عليهما السلام»^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٧٠، حديث ١٠٧.

وقال في الهامش: والحديث أيضاً صحيح فقد رواه عبد الرزاق (٢٠٩٨٤) ومن طريقه أحمد في المسند (١٦٤/٣) وفي الفضائل (١٣٦٩) ورواه أيضاً أحمد (١٩٩/٣) والبخاري (٩٥ / ٧) والترمذي (٣٧٧٦) والحاكم (١٦٨/٣) كلهم من طريق معمر.

(٢) الدولابي، حديث ١٠٨ ص ٧١.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٧. ينظر: إعلام الوری بأعلام الهدى، للشيخ الطبرسي، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

(٤) ارشاد المفيد ٢: ٥، صحيح البخاري ٥: ٣٣، سنن الترمذي ٥: ٦٥٩ | ٣٧٧٦، تاريخ ابن

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنَّ الحسن ابني أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين (عليه السلام) أسفل من ذلك»^(١)

وأسأل هنا: كم من رجال الأمة ونسائها تذكروا هذه الأحاديث وهم يرون معاوية يقود مائة ألف أو أكثر من أهل الشام ليهاجم عاصمة الخلافة الإسلامية التي يسوس الناس فيها وفي باقي أقاليمها الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، أشبه الناس برسول الله ﷺ وهل طرأت على بالهم أو تذكروها، أم أن ذلك لم يحدث؟ وما أسباب غفلتهم يا ترى، هل هو كم الأحاديث المضادة الذي ضخوه ونشروه بين الناس، ام ماذا؟

واقعا نجد قبالة الكم الكبير من الأحاديث الصحيحة المتفق عليها والتي أوردتها كتب المدرستين هناك من كذب على رسول الله غير ملتفت إلى تحذيراته، فسخر ملكته الشيطانية في وضع أحاديث عن فضائل عدو الحسن (عليه السلام) سعيًا منه إلى معادلة الكفة بين الحسن (عليه السلام) ذلك الطود الشامخ والجبل الأشم وبين معاوية تلك الحفرة التي يطمرها وشل السيول وما تحمله مما مرت عليه في طريقها! وهي أحاديث الافتراء على حبيب رسول الله ﷺ الإمام المعصوم الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وكانت سياسة الحجب التي اتبعها السياسيون قد قادت من جاء بعدهم ولاسيما بعد أن أستنبطوا مصطلح (الخلافة الراشدة) بعد عصر الخلافة بزمان إلى أن يشككوا في احتساب مدة خلافة الحسن (عليه السلام) من ضمن الخلافة الراشدة بالرغم من كونها لم تتجاوز الستة أشهر إلا بقليل

عساكر- ترجمة الإمام الحسن ٢٨/ ٤٨. ينظر: إعلام الوري بأعلام الهدى، للشيخ الطبرسي.
(١) صحيح الترمذي ٥: ٦٦٠ | ٣٧٧٩، مورد الضمآن بزوائد ابن حبان: ٥٥٣ | رقم ٢٢٣٥، تاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام الحسن ٣٣ | ٦٠. ينظر: إعلام الوري بأعلام الهدى، للشيخ الطبرسي.

حجبه الراشدية عنه

بالرغم من موقف الشيعة من الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ؛ وموقفهم حتى من تسميتها باسم الخلافة الراشدة، وحديثهم عن أصول الإمامة والاستخلاف التي يعتقدون بشرعيتها وصحتها دون سواها؛ بما يجعلهم غير متحمسين لغيرها، ولا متباهين بمنزلة ما هو دونها، إلا أن السياسيين إغالا منهم بالكره والعداء للحسن (عليه السلام) أنكروا أن يكون خامس الخلفاء الراشدين، ثم تجاوزوا عددا لا يستهان به من الخلفاء الأمويين^(١) حتى وصلوا إلى عمر بن عبد العزيز الذي حكم في السنوات ٩٩-١٠١ هجرية ليجعلوه خامس الخلفاء الراشدين خلافا لما أوردوه في صحاحهم بأن الرسول الأكرم ﷺ حدد مدة الخلافة من بعده بثلاثين عاماً وإشارته إلى أنها ستتحوّل بعد ذلك إلى ملك عضوض، كما في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي، وحسنه من طريق سعيد بن جهمان عن سفينة أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً»، «وقد اشتملت هذه الثلاثون سنة على خلافة أبي بكر الصديق، وعمر

(١) تجاوزوا حسناً، ثم تجاوزوا كلا من: معاوية بن أبي سفيان الذي حكم تسع عشرة سنة وثمانية أشهر توفي في رجب سنة ٦٠ هـ عن ٧٨ عاماً.. ويزيد بن معاوية: حكم ثلاث سنين وثمانية أشهر توفي في ربيع الأول سنة ٦٤ هـ عن ٣٨ عاماً.. ومعاوية بن يزيد: حكم أربعين يوماً توفي في سنة ٦٤ هـ عن ٢٣ عاماً.. ومروان بن الحكم: حكم عشرة أشهر توفي في رمضان سنة ٦٥ هـ عن ٧١ عاماً.. وعبد الملك بن مروان: حكم إحدى وعشرين سنة توفي في شوال سنة ٨٦ هـ عن ٦٠ عاماً.. والوليد بن عبد الملك: حكم تسع سنين وثمانية أشهر توفي في جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ عن ٤٨ عاماً.. وسليمان بن عبد الملك: حكم ستان وثمانية أشهر توفي في صفر سنة ٩٩ هـ عن ٤٥ عاماً.. ووصلوا إلى عمر بن عبد العزيز بن مروان: ومدة حكمه ستين وخمسة أشهر وتوفي في رجب سنة ١٠١ هـ عن ٤٠ عاماً، فجعلوه خامس الخلفاء الراشدين. ولهم في ذلك مغامرة أخرى عند حديثهم عن حديث رسول الله (الخلفاء بعدي اثنا عشر كلهم من قريش) حيث استخدموا نفس سياسة القفز والتجاوز ولم يفلحوا لحد الآن في إحصائهم.

الفاروق وعثمان الشهيد، وعلي بن أبي طالب الشهيد أيضاً، وكان ختامها وتمامها بستة أشهر وليها الحسن بن علي بعد أبيه، وعند تمام الثلاثين نزل عن الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة أربعين وأصفت البيعة لمعاوية بن أبي سفيان وسُميَ ذلك عام الجماعة»^(١)

ولذا ترى بعضهم يجعل الحسن عليه السلام خامس الخلفاء الراشدين ويؤلف الكتب لإثبات ذلك مثل (حسن محمد كامل المطاوي) الذي ألف كتاب (خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن علي) والدكتور (علي محمد الصلابي) الذي ألف كتاب (سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب)

وترى بعضهم الآخر يجعله مجرد ثائر خسر حربه، فركبته الديون، فطمع بكرم عدوه، فكاتبه وعقد معه الصلح على أن يسدد ديونه التي تراكمت عليه بسبب تبذيره على الزواج والطلاق والهدايا، ولذا لا يمكن عده مع الراشدين!

ولتبيان التناقض الكبير أورد من مركز الفتوى في السعودية ما ورد في الفتوى المرقمة: ٩٧٤١١ جواباً على سؤال: (من هو خامس خلفاء الراشدين حيث إن المشهور أنه عمر بن عبد العزيز، ولكنني قرأت مؤخراً أنه الحسن بن علي بن أبي طالب ومن خلفه معاوية فمتى تولى عمر بن عبد العزيز الحكم؟)

الفتوى:

«أما بعد: فالخليفة الراشد الخامس هو الحسن بن علي عليه السلام، ولا شك أن معاوية وعمر بن عبد العزيز كانا عادلين راشدين»^(٢)

ثم أردفوا قائلين: «أما خلافة الحسن فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: الخلافة في

(١) ينظر النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، ص ٤.

(٢) مركز الإفتاء السعودي.

أمّتي ثلاثون سنة، ثم يكون بعد ذلك الملك... رواه أحمد والترمذي. قال الحافظ في الفتح: والمراد به خلافة النبوة. وقال القاضي: المراد بها الخلافة التي لا يشوبها ملك بعده. وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: كانت خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر، وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين. وقال ابن كثير في البداية والنهاية:... وتكمل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحواً من ستة أشهر حتى نزل عنها معاوية عام أربعين. انتهى.

فأما معاوية فهو خير ملوك المسلمين كما مر معنا في كلام أبي العز، حتى قال الأعمش: لو رأيتم معاوية لقلتم إنه المهدي. وقد ذكر عند الأعمش عمر بن عبد العزيز فقال: كيف لو أدركتم معاوية؟! قالوا: في حلمه؟ قال: لا والله؛ بل في عدله. ومع ذلك فإن حكمه لا يعتبر خلافة نبوية لأنه شابهه ملك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى عن خلافة معاوية: وخلافة معاوية قد شابهها الملك، وليس هذا قادحاً في خلافته، كما أن ملك سليمان لم يقدح في نبوته... وهذا يقتضي أن ثوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا، وأن ذلك لا ينافي العدل؛ وإن كانت الخلافة المحضة أفضل.

وأما عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) فقد تولى الحكم سنة ٩٩ هـ. وقد كان عادلاً عالماً ورعاً زاهداً، وقد سمّاه كثير من العلماء الخليفة الخامس لأنه جاء في زمن ابتعد الولاية فيه عن المهدي النبوي في الحكم وعن سيرة الخلفاء الراشدين فجدد مسيرتهم، أو لعله لقلّة فترة خلافة الحسن (رضي الله عنه)، ولاضطراب أمر المسلمين في هذه الفترة^(١).

(١) مركز الفتوى السعودي، الرابط،

والذي أراه أن هذا التدليس لا يحتاج إلى شرح وتوضيح، فهو واضح والدس فيه مفضوح والخلط المتعمد لا يمكن أن يمر حتى على بسطاء الناس.

ولكنهم حتى مع كل تلك المحاولات للالتفاف على الحقيقة تجدهم في أحاديثهم العامة يتجاوزون الحسن وينسون خلافته الراشدة بالرغم من أنه لم يكن بحاجة إليها؛ ليثبتوا بأن عمر بن عبد العزيز هو خامس الخلفاء الراشدين ولا أحد غيره! كما في قول الكركيت عن عمر بن عبد العزيز: «هو خامس الخلفاء الراشدين، وعلى الرغم من أنه لم يتول الخلافة بعد سيدنا عليؓ، إلا أنه يعتبر خامس الخلفاء الراشدين، حيث لم تشهد الدولة الإسلامية بعد عليؓ إلا نهاية للخلافة الراشدة، وانتقال الدولة الإسلامية إلى دولة تتنازعها الأهواء، وتبعد بها عن الطريق الحق. وجاءت تولية عمر بن عبد العزيز، وإعزاز الإسلام به، وتقدم الدولة الإسلامية في عهده، والمآثر التي حدثت على يديه، فجعلت منه بحق خامس الخلفاء الراشدين»^(١).

أما من لم يتجاوز الحسن ﷺ وجعله في كفة واحدة مع عمر بن عبد العزيز فقد تأول ليوسع مكانا لمعاوية أيضا، فما الضير في أن يكون معاوية معهم في الكفة نفسها حتى ولو أصبحوا أكثر من خمسة؟ ما الضير أن يكون معاوية خامس أو سادس الخلفاء الراشدين؟ ألم يجعله شاعرهم (أعشى بني ربيعة) رابعا بعد أن أسقط خلافة علي بن أبي طالب ﷺ كما في قصيدته التي أوردتها الجاحظ في البيان والتبيين، والتي قال فيها:

«وكان الخلائفُ بعد الرسو	لِ اللَّهِ كُلُّهُمْ خَاشِعَا
شَهِيدَيْنِ مِنْ بَعْدِ صِدِّيقِهِمْ	وكان ابنُ صخر هو الرَّابِعا
وكان ابنُهُ بَعْدَهُ خَامِسا	مُطِيعَا مَنْ قَبْلَهُ سَامِعَا

(١) موقع طارق الكركيت، الرابط:

<http://alkarket.maktoobblog.com>

وَمَرَوَانُ سَادِسُ مَنْ قَدْ مَضَى وَكَانَ ابْنُهُ بَعْدَهُ سَابِعَا
وَبَشَرٌ يُدَافِعُ عَبْدَ الْعَزِيزِ مَضَى ثَامِنًا ذَا وَذَا تَاسِعَا
وَأَيُّهُمْ مَا يَكُنْ سَائِسًا لَهَا لَمْ يَكُنْ أَمْرُهَا ضَائِعَا
فَإِمَّا تَرَيْنِي حَلِيفَ الْعَصَا فَمَا كُنْتَ مِنْ رَثِيَّةٍ خَامِعَا
فَسَاوَمَنِي الدَّهْرُ حَتَّى اشْتَرَى شَبَابِي وَكُنْتُ لَهُ مَانِعَا^(١)

إنهم هكذا يفكرون، وهكذا يستهينون بالعقل المسلم، وهكذا يريدون الناس أن تفكر، أو في الأقل هكذا يريدون أن يفكروا نيابة عن الناس ثم يجبرونهم على الإيمان بما توصلوا إليه؛ فيصادرون فكرهم وحقهم، ولهذا، ووفق منطق الجدل الأفلاطوني وبعيدا عن هيمان الشعراء في الوديان سعى بعضهم حقا وحقيقة لجعل من معاوية خامساً للخلفاء الراشدين، كما في قول الدكتور علي محمد الصلابي بعد أن تحدث عن امتداد مرحلة الخلفاء الاثني عشر من قريش الذين عناهم الحديث النبوي، وقال أنها غير محددة بزمن وتمتد إلى آخر الزمان، وبناء عليه قال: «وقد ذكر ابن كثير أن من خلفاء هذه المرحلة عمر بن عبد العزيز. ولما كان معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز، فهذا يعني دخول معاوية في خلفاء هذه المرحلة»^(٢)

هكذا بكل بساطة، وبهذا المنطق الفج يُدخل الناس إلى سلة الخلافة الراشدة ويُخرجوا منها دونما عناء، وما ذاك سوى إستهانة بالعقل المسلم وبالعقيدة والتاريخ والقيم كلها، والغريب أن البحث في شبكة الانترنت يقودك إلى مئات الدراسات والمقالات التي تتفق مع هذه الآراء الفارغة بما يؤكد أن هناك من يزن بميزانين.

وتأتي هذه المماحكة بالرغم من وجود الكثير من الباحثين الذي استندوا إلى

(١) هذه الأبيات تنسب لكثير عزة أيضاً، ولكن نسبتها للأعشى اصح والجاحظ ثقة.

(٢) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، علي محمد الصلابي، ص ٣٤٣

أحاديث في صحاحهم تتحدث عن وجود خلافة راشدة تمتد من تاريخ وفاة النبي ﷺ ولمدة ثلاثين عاما، ثم لما حسبوا المدة وجدوها تغطي حكم أبا بكر وعمر وعثمان، وعد بعضهم حقبة حكم الإمام علي عليه السلام من ضمنها، وعدها آخرون خارجة عنها، وأخيرا مدة الأشهر الستة التي حكم فيها الإمام الحسن قبل أن يتصالح مع معاوية، وقد قال الصلابي بعد أن نصب نفسه حكما يثبت وينفي كيفما يشاء: «وأثبتُ بأن خلافته كانت راشدة حقة لأن مدته في الحكم كانت تنتمى لمدة الخلافة الراشدة التي أخبر النبي ﷺ أن مدتها ثلاثون سنة ثم تصير ملكا».^(١)

هنا أريد التنويه إلى أن الدفاع عن راشدية الحسن عليه السلام لم يأت حبا به وتبجيلا لمقامه؛ وإنما جاء لكي تمرر مثل هذه الطبقات، ولكي يمرر محتوى حديث الخلفاء من بعدي ومضمونه وفق معاييرهم وحسب فهمهم، وهو محتوى ومضمون تختلف معه مدرستنا وتعتبره تجاوزا على حقوق شرعية الإمامة والاستخلاف الشرعيين، ويؤكد لك هذا التلون في تمرير المشاريع درجة الوعي السياسي عند السياسيين العرب المسلمين عن طريق خلط الأوراق.

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، الدكتور علي محمد الصلابي،

وتمكنك السياسة من خلط الأوراق بشأن خلق الإمام

روج أحفاد الفصيل السياسي في كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم بأن الإمام الحسن عليه السلام كان رجلاً مسلماً، ولا باع له في الحرب والقتال حقاً أو باطلاً، وقد خلطوا في هذا الأمر كثيراً، فمن ناحية يروون بأنه شارك في حروب الفتح، وهي الفرية التي فندناها من قبل. ومن ناحية أخرى يروون أمثلة عن حب الإمام عليه السلام للسلم ونبذته للفتنة والخصام والنزاع، يقول السيوطي: «أخرج ابن سعد عن عمير بن اسحاق قال: ما تكلم عندي أحد كان أحب إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة فإنه كان بين الحسن وعمرو بن عثمان خصومة في أرض فعرض الحسن أمراً لم يرضه عمرو، فقال الحسن: فليس له عندنا إلا ما رغب أنفه، قال: فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه».^(١)

وقال السيوطي أيضاً: «وأخرج ابن سعد عن عمير بن اسحاق قال: كان مروان أميراً علينا فكان يسب علياً كل جمعة على المنبر وحسن يسمع فلا يرد شيئاً ثم أرسل إليه رجلاً يقول له: بعليّ وبعليّ وبك وبك، وما وجدت مثلك إلا مثل بغلة يقال لها: من أبوك؟ فتقول: أمي الفرس. فقال له الحسن: ارجع إليه فقل له: إني والله لا أمجحو عنك شيئاً مما قلت بأن أسبك، ولكن موعدني وموعدك الله، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك، وإن كنت كاذباً فالله أشد نقمة».^(٢)

(١) تاريخ السيوطي ص ١٩٠.

(٢) تاريخ السيوطي، ص ١٩٠.

وهم في إدعائهم هذا لا يريدون مدح الحسن بقدر كونهم يسعون إلى الإيغال في تشويه مدائحه، وإلا بماذا نفسر قول الطبري: «وكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة»؟^(١) هكذا، وكأن الحسن عليه السلام بنظرهم مجرد نصّاب يبحث عن المنافع الدنيوية ويستغل الفرص لتحقيق الأرباح المادية، فهل يتساق حديثهم هذا مع كل تلك الأحاديث عن منزلة الإمام الحسن عليه السلام وعلو شأنه؟

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٤١.

الفصل السادس
السياسة الدينية

السياسة الدينية

بعد الحديث الطويل عن سياسة الإسلاميين العرب يجب أن نتحدث عن الجبهة الأخرى جبهة وسياسة العقائديين المسلمين العرب ورجال سياسة الإسلام الذين كان همهم نشر الدين وإعلاء شأنه لأنهم الجبهة التي تقصدها جبهة السياسيين الدينيين وحاربتها ونالت منها وعملت على تقويضها بكل ما أُتيح لها أملا منها في إطفاء أنوار الإمامة التي كانت تشع على الأمة وتلهمها الإيمان؛ وقد تكون فكرة محاولة إطفاء أنوار الإمامة المعصومة من أشهر ما يعتقدوه أهلنا نظرا للمحاولات الجادة والخطيرة التي مورست من أجل تحقيق هذا الهدف عبر التاريخ مع كل أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام، ويكفي أن نعرف أن هذا العمل مورس حتى مع الأئمة المتأخرين وصولا إلى الإمامين علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري عليهما السلام، وقد جاء في أصول الكافي عن محمد بن يحيى عن صالح بن سعيد قال: «دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقلت له: جعلت فداك في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك....»^(١)

ولأن كتابنا هذا قد تم وضعه للحديث عن الإمام الحسن عليه السلام بوجه خاص لذا لن أتطرق إلى تعامل النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام مع السياسيين وردهم عليهم فما أوردته في القسم الأول من الكتاب يكفي لتوضيح المقاصد، وسأوقف هذا القسم للحديث عن تعامل الإمام الحسن عليه السلام بسياسته الدينية مع تلك السياسة وموقف السياسة منه ومن الإسلام والمسلمين.

(١) أصول الكافي، باب مولد أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام، ص ٣٨١، ج ١، حديث رقم ٢.

وقبل الحديث عن مراحل حياة الإمام الحسن عليه السلام أود أن أبين أنه من المسلم بشأنه في مدرستنا أن أئمة أهل البيت عليهم السلام تميزوا عن باقي المسلمين بأنهم من (المُخْلِصِينَ) الذين نزههم الله سبحانه وتعالى عن الدنس والقذر والرجس بنص القرآن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهم كانوا يعرفون أنفسهم حق معرفتها ويعرفون منزلتهم عند الله وعند الناس. وكانوا يدعون أتباعهم لكي يعرفوا أنفسهم أيضاً ويمتحنوا ذواتهم، لأن الأئمة موقنون بأن المعرفة مقدمة على ما سواها، والمعرفة هي التي تؤدي إلى معرفة الذات كما في قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه» وقوله الآخر: «معرفة النفس انفع المعارف» فمعرفة الذات هي التي تؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به، فالذات أو النفس هي القيمة العليا التي جعلها الله آية ﴿سَتُرِيهِمْ عَيْنَتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ^(١) جعلها آية لتدل عليه وتهدي إلى الإيمان به، كما في قول رسول الله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وهو ما ترجمه الإمام علي عليه السلام بقوله: «الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة نفسه» فالجهل بالنفس يحول بين المرء والإيمان ولذا ثبت عن علي عليه السلام، قوله: «عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه».

وما من إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام إلا وتجد له عشرات الأقوال التي تحث على معرفة النفس والبحث عنها وكأنها ضالة كأي ضالة عزيزة أخرى هديا بقول أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها»

يقول الشيخ موسى: «ومعرفة النفس عمل جليل إلى أبعد الحدود، فإذا وفق الله الإنسان كان لا بد وأن يتخذ لنفسه هدفاً يتناسب مع جلالة قدره وعلو منزلته فلا يقلد

الحيوانات في إشباع الملذات واحتراف الشهوات... وأقرب طريق إلى تحديد الهدف هو أن ينظر الإنسان إلى واقعه ويرسم الخطة على أساس سليم ويتعرف على حاجات من حوله ويوفق بين واقعه ومطالبه حتى لا يصدم في أول الطريق أو في منتصفه فإذا كان ساذجاً أو قاصر النظر فسوف يُغلب على أمره بل ربما يقف مقهوراً ولا يكمل طريقه، وهذا أمر خطير لا يوصل إلى غاية، وربما يُلقى بصاحبه إلى مواطن الزلل ويطرحة في مطارح لا يتوقعها»^(١)

إن حياة التي تبنى وفق هذه المواصفات لا يمكن إلا أن تكون في منتهى الرفعة والسمو والعظمة، وعملياً وعلمياً يمكن تقسيم حياة الإمام الحسن (عليه السلام) إلى ثلاث مراحل متداخلة، وهي:

- مرحلة المعصومية التي امتدت على طول عمره الشريف منذ ولادته ولحين استشهاده.
- مرحلة المعصومية القيادية التي امتدت على مدى تسع سنين وأشهر منذ اليوم الأول لاستشهاد الإمام علي (عليه السلام) وتوليه الإمامة نيابة عن أبيه، ولحين استشهاده بالسم.
- مرحلة الخلافة والإمامة القائدة المتممة لخلافة علي (عليه السلام)، وامتدت على مدى ستة أشهر وأيام انتهت بالصلح مع معاوية.

هذه المراحل بمجموعها امتدت على مدى سبع أو تسع وأربعين عاماً من الجهاد المتواصل المرير، وهي مجمل حياة الإمام الحسن (عليه السلام)، ومن المؤكد أن في كل ساعة بل في

(١) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت،

كل دقيقة من هذا العمر الزاخر بالعطاء كانت هناك مواقف جهادية وعبادية وتعليمية وإرشادية وتفقيهة وتثقيفية، لكن كم واحد منا يعرف عنها ولو نزراً يسيراً؟ كم واحد منا يعرف دور الإمام الحسن في حياة جده النبي ﷺ، وفي حياة أبيه الإمام علي عليه السلام، وفي مرحلة جهاده للبيعة، وفي السنين التسع التي قضاها في المدينة المنورة بعد الصلح؟

ودونا عن كل تلك المراحل المفعمّة بالحراك، كانت مرحلة ما بعد الصلح من أكثرها حاجة للدرس والبحث، ولكننا وللأسف الشديد طوينا دونها كشحاً؛ وأشحنا بوجهنا عنها، ولا نكاد نذكرها إلا في حال الاضطرار، هذا إذا كنا نملك عنها شيئاً نتحدث عنه، فتحولت إلى مساحة سوداء معتمة، الرؤيا فيها معدومة، وأخبارها مجهولة، والحديث عنها سر من أسرار الغيب.

وعلى خلاف ذلك وجهنا بعضاً يسيراً من اهتمامنا إلى مرحلة الخلافة والصلح التي كانت بمجموعها أقل من حمل امرأة، فأوليناها بعضاً من جهدنا، وقسماً صغيراً من نشاطنا، واليسير من اهتمامنا، فطغت أحداثها على أحداث كل حياته الشريفة، وغطت رواياتنا على كل مراحل جهاده، والأشد نكايّة أن هناك بيننا من نظر إلى هذه المرحلة نظرة سلبية باردة حولت العلاقة بينه وبين الإمام عليه السلام إلى علاقة باردة سالبة؛ وهذا أمر خطير يجب تداركه، لأن أئمة أهل البيت عليهم السلام المعصومين وحدة واحدة متكاملة متناقلة تتناقل الأدوار فيما بينهم لتتأهّل مع المرحلة التي يعيش فيها كل منهم.

إن شخصيات الأئمة المعصومين عليهم السلام ليست شخصيات انفرادية تخصصية، بل هي شخصيات متواصلة مع الرسالة ومحيطها ومع حياة المجتمع وليس فيهم من له حياته الخاصة بمفهومها العام، وإلا ففي المفهوم الخاص لهم حياتهم الخاصة؛ فتزوجوا وخلفوا وأكلوا وعاشوا وماتوا، أما حياتهم العامة فكانت في تبادل ادوار مستمر مع

من سبقهم من المعصومين مع خصوصية تُجَايِلُ المرحلة وتهتم بفراستها ودرجة الوعي الجمعي للأمة.

وفي مجمل هذه الحياة القصيرة المفعمة بالأحداث الساخنة كانت السياسة الدنيوية هي المسبب لكل النكبات التي وقعت في حياة الحسن (عليه السلام)، بالرغم من أنهم وجدوا من يتصدى لهم من قبل، حيث تصدى لهم النبي الأكرم (عليه السلام) منذ الأيام الأولى للبعثة ولغاية انتقاله إلى الرفيق الأعلى وبشكل مستمر أمتد إلى أخريات حياته، بل ولساعات قليلة قبل موته؛ فلما مات قام بدوره الإمام علي (عليه السلام) الذي تصدى لهم، وكانت له معهم وقائع فكرية وجدالية حوارية ودموية، فلما استشهد جاء دور الإمام الحسن (عليه السلام) ليتصدى لكشف السياسة والسياسيين الدنيويين، وكان لهذا التصدي منهجه الذي يختلف كثيرا عن منهجي النبي (عليه السلام) والوصي (عليه السلام) نظراً لكون السياسيون كانوا في هذه المرحلة الحساسة أكثر قوة وخبرة مما كانوا عليه من قبل، وكان الدعم الذي حصل عليه من تصدى لهم أقل من الدعم الذي حصل عليه من سبقوه، فضلاً عن تغير الظروف والآليات التي استخدمها السياسيون، وثبات الآليات التي انتهجها الدينيون، ليس لأنهم لا يجيدون فن السياسة وإنما لكونهم ملزمين ومأمورين بأداء ما حُمِّلوه؛ مع علمهم بنتائج ما يدور حتى قبل أن تقع وقائعه، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى، قد يكون علم المستقبلية من أهمها.

المستقبلية

وكما بدأنا كتابنا بالحديث عن العصبية ودورها في دعم السياسيين بوصفها واحدة من آليات عملهم المهمة جداً، سنبدأ خواتيمه بهذا المبحث الخاص بالمستقبلية والغيبيات التي امتاز رسول الله وأئمة أهل البيت عليهم السلام بالحديث عنها والتعامل معها، بكل ما تمثله من تقيد بالتعاليم والتزام بالمنهج وسير وفق الخطة التي رسمها الله للكون باعتبار أن علوم المستقبلية تقف قبالة نعمة العصبية المفتحة على كل ما يمكن أن يحقق الغلبة؛ والتي رفعت السياسيين إلى كراسي الحكم. فما المستقبلية؟

واقعا لا يوجد بلد متطور معاصر إلا وتجد فيه مراكز حكومية ^(١) وأهلية لدراسة القضايا الإستراتيجية المتصلة عادة بالمتغيرات العالمية وانعكاساتها المحلية والإقليمية والدولية، نظراً لترابط المصالح واشتراك المصير.

إن حالة عدم الاستقرار التي يعيشها العالم اليوم لا تفتح مجالاً رحباً أمام الباحثين عن الأمن والسلم والذين يأملون عيش حياة رغيدة للبحث عن حلمهم، وبالتأكيد كان الإنسان السابق يعيش نفس الإرهاصات ويشعر بنفس الخوف من المستقبل؛ ولذا كان الإنسان ولا يزال يتمنى لو كان يعلم شيئاً عن غيب المستقبل الذي يتظره لكي يرتب أولويات حياته تبعاً لذلك، وربما لهذا السبب كثرت حالات ظهور المتنبيين بالمستقبل والفلكيين عبر التاريخ؛ لأن هناك دائماً من يرغب وبشدة بمعرفة الأسرار التي يمكن أن

(١) تجدها تحت مسميات مختلفة، منها: وحدات الدراسات المستقبلية، المراكز الدولية للدراسات المستقبلية والإستراتيجية، وغيرها .

يجليها المتنبئون له، بسبب حالة القلق والغموض التي يمثلها المستقبل.

ولذا نلاحظ أنه خلال حقبة الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي تطور علم دراسات المستقبل (الباراسيكولوجي)، ليشمل مواضيع محددة المحتوى وجدولاً زمنياً للعمل ومنهجاً علمياً تجتمع سوية لتتحدث مع عالم اليوم، الذي يتسم بتغيير متسارع بات المستقبل معه أقرب مما يتصورون.

إن علم المستقبل يشير عادة إلى أن القادم ممكن تصوره من خلال مثال يوضح العلاقات والتشابكات لثلاثية خالدة تتكون أضلاعها من: الماضي والحاضر والمستقبل، ويبحث كذلك عن العلاقة بين أضلاع هذه الثلاثية، فالمستقبل يرسمه الحاضر والحاضر نفسه كان مستقبل الماضي، ومعنى هذا أن علم المستقبليات أو الدراسات المستقبلية هو علم يختص بالاحتمال والممكن من المستقبل، من خلال السيناريو الذي يقترحه المتخصصون بهذا العلم، وبجانب الأشياء التي هي قليلة الاحتمال ولكنها ذات تأثير كبير، فإنه دائماً ما تتواجد احتمالية كبيرة يجب عدم الاستهانة بها.

ويرى المتخصصون في الدراسات المستقبلية أن من أهم نتائج العلم الحديث هو السيناريو المستقبلي الذي يقوم أساساً على دراسة الجدوى، وهذا يعني السيطرة على الخطأ، إمكانية استمراريتها، الوفاء بالتزاماتها المادية، توفير القيادة التقنية والتغلب على العقبات الخارجية التي قد توقف السيناريو في إحدى مراحلها، وفي نهاية المطاف فوائد السيناريو، وإذا ما كان من المجدي أن يتم إيقافه أو استمرار العمل به، رفع مستوى التطور العلمي في المجال قيد الدراسة. ومعنى هذا أن السيناريو يعتمد على منظومة البيانات المبرمجة والمخزنة والتي يتم تحديثها باستمرار وفقاً للتغيرات في جميع الميادين.

وفي عالم اليوم جاءت الخطط الخمسية الوطنية التي توضع لرسم ملامح السنوات

الخمس القادمة للبلد، مع رصد الاحتياجات المالية المتوقعة والبنية التي يراد إنشاؤها كمؤشر على نجاح هذا العلم في مسعاه.

ولقد حدد الدكتور محسن عبد الحميد الهدف من المستقبلية الإسلامية التي مارسها النبي ﷺ بقوله: «وفي سبيل ألا يضل الإنسان في عوالم الغيب وضع الله تعالى في كتابه الكريم الحقائق النهائية التي يحتاجها، كي لا يتعب نفسه وفكره في هذا المجال، دون جني أية ثمرة، ليتفرغ إلى التفاعل مع الأرض والاستفادة من الزمن، لإنجاح عملية الخلافة الإلهية.... وانطلاقاً من هذا المبدأ، فإن على الإنسان في إطار الحقائق الإلهية التي وضعت أمامه أن يسلم بالتفصيلات الغيبية. فهو طالما آمن بإله خيالاته المادية في محاولة تصور ماهية الإله وصفاته. ولذلك فلقد دعاه الخالق سبحانه وتعالى إلى الإيمان بالغيب وجعل ذلك من أمارات صدق يقينه في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١) ثم بين له أن أي تحرك خيالي للعقل في غير ما كلف به لا يكون مجدياً أبداً ولن يوصل إلى المراد»^(٢)

ولقد تأكد أن آباءنا وأجدادنا وأهلنا القدماء لم يكونوا أقل منا حرصاً ورغبة في معرفة المستقبل وما تخفيه الأيام، فلقد رافق المتنبيون الحكام في قصورهم وقادة الجيوش في حروبهم، وكان الأغنياء والمترفون يدفعون المبالغ العظيمة لهم أملاً في الحصول عن معلومة ولو بسيطة عن المستقبل.

قد تكون لهذا الاهتمام أسبابه الدينية أيضاً، فالعقائد السماوية قائمة على الاستشراف للمستقبلي والوعود المستقبلية وفق معادلات الثواب والعقاب، وفيما يخص الإسلام

(١) سورة البقرة، الآية ٣.

(٢) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، الطبعة ٤، مطابع وزارة التربية العراقية، تقديم

الدكتور عمر عبيد حسنة.

كدين متحضر متطور نجد القرآن يتحدث عن المستقبلية بشكل واضح جداً في أكثر من مكان، كما في قصة العبد الصالح وموسى عليه السلام، حيث قتل العبد الصالح طفلاً فاعترض عليه نبي الله موسى عليه السلام الذي لم يكن يعرف غيب هذه القضية بقوله تعالى: ﴿فَانْظَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾^(١) فأخبره العبد الصالح أن هذا الطفل شرير وسيؤذي أبواه ويرهقهما: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٢) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا^(٣)

ولقد استشرَف رسول الله صلى الله عليه وآله المستقبل للأمة لكي يؤكد لمن في قلبه مرض صدق ما جاءت به الرسالة، ولكي يزداد المؤمن إيماناً، ولكي يتحوطوا لأنفسهم فلا يقعوا في مساوئ الفتن، جاء في فتن ابن حماد: «عن حذيفة بن اليمان قال: هذه فتن قد أظلت كجباه البقر يهلك فيها أكثر الناس إلا من كان يعرفها قبل ذلك»^(٣) فمن يعرفها يحتاط منها ولا يقع في شركها.

وبالتأكيد كان الاستشراف النبوي مختلفاً عما يجيء به المتنّبون، لأنه كان يتم بواسطة وحي من السماء ولم يكن اعتقاداً شخصياً ظنياً مبنياً على التخمين والشك، قابلاً للصح والخطأ.

وكان الحديث النبوي عن المستقبل يقع كلما اقتضت الضرورة، ومع أنه صلى الله عليه وآله كان كثير التحدث عن المستقبلية، نظراً لما يعرفه عن مستقبل الأمة، إلا أنه نقل لهم في بعض المناسبات وقائع مهمة نقلاً حياً ومباشراً لم يحدث أن مارسه خلال عشرات الحروب

(١) سورة الكهف، الآية ٧٤.

(٢) سورة الكهف، الآيات ٨٠ و٨١.

(٣) الفتن، نعيم بن حماد، ص ٢٦.

والسرايا التي جابهت الجزيرة في عصر البعثة، ولأول مرة حدد النبي ﷺ في معركة مؤتة مقدماً أسماء القادة الذين سيتعاقبون على قيادة الجيش كل بعد استشهاد صاحبه حتى قبل أن يتحركوا، حيث قال لهم: «إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن أبي رواحه على الناس، فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم»^(١) وكان على يقين سير الأحداث ونتائجها... بل ورد في السيرة أنه ﷺ كان ينقل وقائع المعركة للمسلمين أولاً بأول فيقول: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً؛ ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قتل شهيداً»^(٢)

ومعنى هذا أن العلم المستقبلي كان الحاكم لحراك النبي وأهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) ولا سيما وأنهم كانوا يعرفون مقدماً نتائج ما يبغون عمله في السلم والحرب. وإذا ما كانت المدارس الإسلامية الأخر قد آمنت بشكل محدود بعلاقة النبي ﷺ بالمستقبلية فإن حديثنا عن تعامل الأئمة المعصومين من أهل البيت ﷺ مع المستقبليات أثار حفيظة بعض الناس وتهكمهم؛ فأسبغوا علينا وعلى عقلنا الذي يؤمن بذلك ويتقبله برحابة أنواعا مختلفة من الأقوال والتهم وصل بعضها إلى حد التطاول المشين واتهامنا بالشرك والردة عن الإسلام.

وأنوه هنا إلى أن أتباع المدارس الإسلامية الأخر الذين يتهموننا بالشرك أوردوا في باب الكرامات والفضائل في كتبهم قصصاً عن الغيبات والمستقبلات ترقى إلى مستوى الخرافة؛ هذا إذا لم تكن مجرد خرافة صدقوها؛ ولم يعترض عليهم أحد، بينما تجد حتى من داخل البيت الشيعي من يعترض على حديثنا عن كرامات وفضائل جاء بها أئمة أهل البيت وأوردتها أوثق الكتب والمصادر. ومن الباحثين الذين تناولوا هذا

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ج ٤، ص ٩.

(٢) السيرة النبوية، مصدر سابق، ج ٤، ص ١٦.

الجانب بالنقد، أورد موضوعه على سبيل التوضيح باحث شيعي مغترب اسمه (غالب الشابندر) نشر يوم ٢٦ / ٧ / ٢٠١٠ بحثاً بعنوان (نقد أخبار الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب) ابتدأه بقوله: «تورد المصادر الشيعية التقليدية الكثير من صور المحاجة بين الإمام الحسن بن علي عليه السلام ومعوية بن أبي سفيان، وبعض من الأمويين، ومن الطيعي أن تنتهي هذه المحاججات بانتصار بيان الحسن وخطابه ودليله وبرهانه، لأن الحسن في العرف العقدي الشيعي معصوم، وربما يعلم كل ما في هذا الوجود، بل ما كان وما هو كائن وما سيكون على بعض الروايات بل على بعض الاعتقادات السائدة والتي ربما يتحمل ثقلها علماء كبار في فن علم الكلام والعقائد والنحل والملل»^(١)

ويدعي الباحث أن دليل تشكيكه بعلم الإمام الحسن عليه السلام بالمستقبلات فضلاً عن تبحره في البحث العلمي جاء اعتماداً على ما قاله الشيخ الرجالي الكبير (محسن آصف) عن روايات الجزء (٤٤) من كتاب بحار الأنوار، باب (٢٠) باعتبار أن المجلسي رحمه الله جمع هذه الروايات في هذا الجزء من بحار الأنوار، ونص ما قاله الشيخ محسن عن هذا الجزء من البحار: «فيه مطالب كثيرة محرقة لقلوب المؤمنين، وهي مشتهرة بين الشيعة في الجملة، بتأثير هذا الكتاب في نفوسهم، لكن ليس فيها أسانيد معتبرة، فالله تعالى العالم بصحتها من موضوعها»^(٢)

حقيقة الأمر أن مدرستنا تؤمن يقيناً بأن من فضل الله تعالى على الأنبياء والأئمة أن أمدهم ببعض علوم الغيب، وأطلعهم على بعض أسرار المستقبل لكي تكون سلاحاً

(١) موقع إيلاف،

<http://www.elaph.com/Web/opinion/2010/7/579703.html>

(٢) موقع إيلاف،

<http://www.elaph.com/Web/opinion/2010/7/579703.html>

بأيديهم كأحد اساليب الترغيب في الدين، وهكذا أعلم جبرائيل النبي محمدًا ﷺ بكثير مما يخص مستقبل البشرية، فأخبر رسول الله ﷺ علياً ﷺ بما عنده، وأخبر علي أولاده الحسن والحسين وعنهم أخذ الباقر ﷺ. كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝﴾^(١) ومن يتابع كتب تفسير المدرستين يجدها متطابقة في تفسير معنى الآيتين، ولكن هناك من لا يؤمن بموضوع تعليم النبي ﷺ الإمام علي ﷺ ألف باب من العلم، وهو التعليم الذي نستند إليه عند حديثنا عن غيبات أئمة أهل البيت ﷺ؛ ولذا يعيبون علينا تكلمنا عنه. ولغرض توضيح المعنى أنقل أقوال المفسرين مختصرة.

قال صاحب تفسير الميزان ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝﴾ والمعنى: هو عالم كل غيب علماً يختص به فلا يطلع على الغيب - وهو مختص به - أحداً من الناس، فالمفاد سلب كلي وإن أصر بعضهم على كونه سلباً جزئياً محصل معناه، لا يظهر على كل غيبه أحداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۝﴾ استثناء من قوله: ﴿أَحَدًا ۝﴾ و ﴿مِنْ رَسُولٍ ۝﴾ بيان لقوله ﴿مَنِ ارْتَضَىٰ ۝﴾ فيفيد أن الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختص به، فالآية إذا انضمت إلى الآيات التي تخص علم الغيب به تعالى كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۝﴾^(٢) وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝﴾^(٣) وقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۝﴾^(٤) أفاد ذلك

(١) سورة الجن، الآيات ٢٦-٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٥٩.

(٣) سورة النحل، الآية ٧٧.

(٤) سورة النمل، الآية ٦٥.

معنى الأصالة والتبعية، فهو تعالى يعلم الغيب لذاته وغيره يعلمه بتعليم من الله.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «هذه كقوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وهكذا قال ههنا إنه يعلم الغيب والشهادة، وأنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه»^(١).

وقال عنها الطبري في تفسيره: «يعني بعالم الغيب: عالم ما غاب عن أبصار خلقه، فلم يروه فلا يظهر على غيبه أحداً فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضى من رسول، فإنه يظهره على ما شاء من ذلك. عن علي، عن ابن عباس، قوله: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الرُّسُلُ مِنَ الْغَيْبِ الْوَحْيِ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَيْهِ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْبِهِ، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره. وعن قتادة: فإنه يصطفيهم، ويطلعهم على ما يشاء من الغيب. وقال ابن زيد: ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء، أنزل على رسول الله ﷺ الغيب القرآن، قال: وحدثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة»^(٢).

وقال القرطبي: «قال العلماء (رحمة الله عليهم): لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر من هنا بما يرضي الله وتعتست الشركة به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالخصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتري عليه بحدسه وتخمينه وكذبه...

(١) تفسير ابن كثير سورة الجن الآية ٢٦

(٢) الطبري، تفسير الآية ٢٦ من سورة الجن. ج ٢٣/ ص ٦٧٢

وقيل لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال: فأين قمرهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم. وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فقال له علي: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت. فقال علي: ما كان لمحمد عليه السلام منجم، ولا لنا من بعده... فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ندا أو ضدا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك. ثم قال للمتكلم: نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدك في الحبس ما بقيت وبقيت، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان. ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها، ولقي القوم فقتلهم وهي وقعة النهروان الثابتة في الصحيح لمسلم. ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا بها وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد عليه السلام منجم ولا لنا من بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان - ثم قال: يا أيها الناس؛ توكلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي ممن سواه^(١)

إن الحديث عن الغيب والمستقبل لا يأتي ليدعم رسالات الأنبياء ومهمات الأوصياء فحسب، بل يأتي كذلك لدعم وإثراء منظومة المعرفة البشرية، وفي حديثه عن الغيب

يقول الدكتور (عبد السلام التونسي): «هذه المعارف سواء توصلنا إليها بالعقل أو عن طريق الإخبار اليقيني فهي قد وجدت لإثراء الفكر الإنساني وإنارة السبيل لسلوك الإنسان بغية هدايته بما فيه مصلحته»^(١)

ثم إن من البديهي أن الله ﷻ جعل العلوم مراتباً، وما يمنحه من مرتبة للنبي أو الإمام المعصوم لا يمنحه للسلطين والأمراء والملوك وعامة الناس، يقول ابن المطهر في (البدء والتاريخ) عن القول في كمية العلوم ومراتبها: «أقول إن اسم العلم قد يطلق في الحملة على الفهم والوهم والذهن والفطنة واليقين والخطرة والمعرفة وكل ما يحصل منه إدراك شيء ظاهراً أو باطناً ببديهة عقل أو مباشرة حاسة أو استعمال آلة كالاستدلال والفكرة والبحث والتميز والقياس والاجتهاد، لأن هذه لخصال كلها آلات إدراك لعلم وطرق التوصل إليه، ومما يصاب من هذه الجهة فروع بالإضافة إلى علم البداية والحواس ألا ترى أن الإنسان العاقل المميز مضطر إلى شواهد عقله وحسه غير مضطر إلى استدلاله وبحثه أو لا ترى أن لا سبيل إلى البحث والاستدلال لمن عرى من عقله أو أصيب بحسه، فأول العلم الخطرة الصادقة وهو كالبدية مثلاً كل بقوة البدية وآخره اليقين وهو استقرار الحق وانتفاء الشك والشبهة عنه»^(٢)

يعني أن المستقبلية الإسلامية التي أسس قواعدها القرآن والنبي الأكرم ﷺ هي حقيقة واقعة لا لبس فيها، وأنا شئنا ذلك أم أبينا علينا الاعتراف بهذه الحقيقة طالما أن المدارس الإسلامية تتفق على صحة أحاديثها، ولا تعترض على إيراد البخاري ومسلم وغيرهم لرواياتها بما يدل على أن النبي كان يحدثهم جمعاً بأحاديث تخص المستقبل

(١) الإيمان بالقضاء والقدر، الدكتور عبد السلام التونسي ط ٢، ١٤٢٦، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، بنغازي، ليبيا، ص ٨.

(٢) البدء والتاريخ، المطهر بن المطهر المقدسي، كتاب الكتروني، مكتبة المصطفى، ص ٣.

أو يحدث مجموعة منهم أو حتى يحدث شخصاً بعينه، وينقل حديثه شخصاً بعينه أو مجموعة أشخاص سمعوه من شخص واحد.

ومما اتفق عليه المسلمون أن النبي حُجز الصحابة والمسلمين الأوائل في المسجد مدة زمنية طويلة ليحدثهم عن مستقبل الأمة، وقد ورد حديث هذه الواقعة التاريخية المهمة في أغلب كتب الحديث؛ منها البخاري ومسلم. وفي أغلب كتب الحديث والفتن أن رسول الله حدث المسلمين عن المستقبل مدة غير معقولة امتدت لأكثر من اثني عشر ساعة شبه متواصلة ابتداء من صلاة الصبح ولغاية وقت صلاة المغرب، وهي مدة طويلة جداً بكل المقاييس؛ لم يثبت أنه ﷺ أو أن نبياً آخر ولا حتى خطيباً مفوهاً من قبله استغرقها في حديث عن أمر عام بسيط بله عن عالم الغيب والمستقبل، وقد أورد ابن كثير جملة من أخبار هذه الواقعة تحت عنوان: (ذكر إخباره ﷺ بِالْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ بعد زماناً هَذَا) ومنها: «قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عروة عن ثابت، حدثنا عليان بن أحمد البكري، حدثنا أبو زيد الأنصاري قال: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ثم نزل فصلى العصر ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا). وقد رواه مسلم منفرداً في كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، وحجاج بن الشاعر عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عروة عن علي عن أبي يزيد وهو عمرو بن رفاعة الأنصاري»^(١)

وقد كان الحديث الذي رواه الخليفة عمر بن الخطاب وأورده البخاري في صحيحه أكثر تحديداً حيث يتضح من خلاله أنه ﷺ أخبرهم بتاريخ الكون كله من بدء الخليقة

(١) النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، كتاب الكتروني، مكتبة المصطفى الالكترونية، To

وحتى نهاية يوم الحساب، ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: «وقال البخاري في كتاب بدء الخلق من صحيحه، وروى عيسى عن رقية عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال، سمعت عمر بن الخطاب يقول: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً. فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسبه من نسبه. هكذا ذكره البخاري تعليقاً بصيغة التمريض، عن عيسى بن موسى عن عنجار، عن أبي حمزة عن رقية، فالله أعلم»^(١)

وقال أبو داود في أول كتاب الفتن من سننه: «حدثنا عثمان عن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله ﷺ قائماً؛ فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه؛ حفظه من حفظه ونسبه من نسبه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون الشيء فذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه»^(٢)

ورواه البخاري عن طريق آخر وكأنه واقعة أخرى استغرقت وقتاً أقل من الأولى، رواه من حديث سفیان الثوري، ومسلم من حديث جرير كلاهما عن الأعمش به، وقال الإمام أحمد: «حدثنا عبد الرزاق. أخبرنا معمر عن علي بن زيد عن أبي نصره عن أبي سعيد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر ذات يوم ثم قام فخطبنا إلى أن غابت الشمس فلم يدع شيئاً مما يكون إلى يوم القيامة إلا حدثنا حفظ ذلك من حفظه ونسبه ذلك من نسبه فكان مما قال: يا أيها الناس إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله استخلفكم فيها فنادي كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء إلى أن قال وقد دنت الشمس أن

(١) المصدر نفسه، النهاية في الفتن والملاحم، ص ١١

(٢) المصدر نفسه، النهاية في الفتن، ص ١١-١٠

تغرب وإنَّ ما بقي من الدنيا فيما مضى مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»^(١).

وأخرجه نعيم بن حماد عن عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن علي بن زيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري؛ وابن عيينة عن علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر نهاراً ثم خطب إلى أن غابت الشمس فلم يدع شيئاً هو كائن إلى يوم القيامة إلا حدثنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه»^(٢).

وإذا ما كانت العصبية التي أحيا السياسيون الأمويون مواتها قد فتحت لهم الأبواب واسعة لعمل كل ما يظنون أنه يقرهم من تحقيق أحلامهم المريضة؛ فإن علم أئمة أهل البيت عليهم السلام بالمستقبلية ونتائج ما كان يدور على الساحة حتى قبل أن تنجلي غبرته جعل الناس تنظر إليهم بمناظير مختلفة، وصل بعضها إلى حد منحهم درجة الربوبية، ووصل بعضها الآخر إلى حد التشكيك بقدراتهم القيادية والسلوكية، غير مدركين أن عمل الإمام المعصوم يبدو وكأنه متداخل مع أفق الجبرية التي أقرها المشروع الكوني الإلهي بعيداً عن القدرية والأمر بين أمرين، بمعنى أن الإمام لا يحتاج إلى التفكير بنتائج عمله لأنه يعرفها ويعرف ما ستؤول إليه الأمور وما ستكون عليه النتائج؛ وهو لو أعطي حرية التصرف كما هي متاحة للآخرين لكان قادراً على تغيير النتائج بكل تأكيد.

ومما يتضح من هذه المقدمة أن الإمام علياً عليه السلام لو كان حر التصرف في صفين لما رضي بالرضوخ إلى سلطة التحكيم مهما كانت الظروف المحيطة به، وكان قد قلب

(١) المصدر نفسه، النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، ص ١١

(٢) الفتن، نعيم بن حماد، حديث ١، ج ١، ص ٢٣-٢٤

عاليها على سافلها وقطع دابر أعدائه فاستقامت الأمور له. والإمام الحسن عليه السلام هو الآخر ما كان ليصالح مهما كانت النتائج، وكان قاتل وقتل الآلاف من جيش العدو وقتل الألوف من جيشه، واستقامت له الأمور فلا يحتاج الحسين عليه السلام بعد ذلك إلى الثورة لكي يقوم اعوجاج مسيرة التائهيين. والإمام الحسين عليه السلام ما كان ليخرج بثلاثة وسبعين شخصا ليتحدى إمبراطورية الشر بعظمتها، وكان أعد العدة وحقق نوعاً آخر من النصر لا ينتهي بمقتله مع عائلته وجميع أصحابه الكرام.

إن اعتراض الكثيرين على أثر وتأثير المستقبلية على حراك الأئمة المعصومين عليهم السلام، وتشكيك البعض بصحة وجودها يدفعنا للحديث عن تعامل المدارس الإسلامية مع موضوع المستقبلية. وقبل الحديث عن مستقبلات أهل البيت عليهم السلام أجد من الضرورة بمكان أن أتحدث عن بعض ما ينسبه الآخرون ولا سيما منهم من يعترض علينا عندما نتحدث عن هذا الموضوع إلى أئمتهم وقادتهم من أحاديث عن المستقبلية، وسيكون معيني في ذلك دون غيره من المصادر والكتب التي تملأ المكتبات؛ وبقصد الإيجاز كتاب (معجزات الأنبياء كرامات الأولياء من هذه الأمة) لعلي فرج العبد الله^(١) حيث أسهب الكاتب بالحديث عن الكرامات^(٢) وقال: «إن كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي؛ إلا أنه يُشترط في المعجزة إدعاء النبوة، وليس للكرامة هذا الشرط، ولا

(١) لقد وجدت الكتاب خالياً من الفهرسة الوصفية فلا اسم دار النشر ولا تاريخ النشر أو سنته مذكوراً فيه باستثناء إشارة إلى أن الكتاب من تدقيق أ. عبد الله سنه وتضيد حسن مهندس، مع ذكر المؤلفات الكاتب وهي: الدرر البهية في منهج الطريقة القادرية الدرر البهية في أعلام القادرية السهام القادرية لرد شبهات الوهابية؛ ما يدل على أن الكاتب من أتباع الطريقة الصوفية القادرية

(٢) أورد الشيخ الأميني رحمه الله أكثر من مئة منقبة وكرامة من هذا الشكل في كتاب خصه لهذه المنكرات، ينظر: قصص الخرافة في فضائل الصحابة والتابعين، عبد الحسين الأميني، كتاب الكتروني، مكتبة العقائد، مركز الأبحاث العقائدي

فرق بين المعجزة والكرامة إلا بهذا الشرط، وقد أكرم الله سبحانه وتعالى كثيراً من أولياء الأمة بكرامات قريبة من معجزات الأنبياء أو من جنسها»^(١)

وعلى سبيل المثال، وفي حديثنا عن المستقبلية نقول نحن: بأن علم الأئمة المستقبلي مأخوذ عن جدهم النبي عن علي عن الحسن عن الحسين وإلى الإمام المهدي عليه السلام وأنهم كانوا يتوارثونه واحداً عن واحد؛ فكذبنا الآخرون وشككوا بصحة أقوالنا، ولكنك تجدهم يوردون في كتبهم قصصاً ترقى إلى الخرافة في حديثهم عن أئمتهم، فالمؤلف يورد قصة عن صحابي اسمه (عبد الله بن ثوب) يعرف باسم (أبي مسلم الخولاني)^(٢) المتوفى عام ٦٢ هجرية يقول فيها: إنه كان مجاهداً وأمير مقدمة.. «وكانوا غزاة في أرض الروم فبعث الوالي سرية وحدد لهم موعد العودة فلما جاء الموعد لم تأت السرية فبينما أبو مسلم يصلي إلى رمحه الذي ركزه في الأرض إذ جاء طائر فوقع على سنان الرمح وقال: إن السرية، قد سلمت وغنمت وسترد عليكم في يوم كذا فقال، أبو مسلم للطير: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا مُذهَّب الحزن عن قلوب المؤمنين؛ فجاء أبو مسلم إلى الوالي وأخبره، فلما كان اليوم الذي ذكر أتت السرية في الوقت الذي قال»^(٣)

فلماذا يصدقون طائراً اسمه (مُذهَّب الحزن) لم يرد له ذكر لا بقرآن ولا بحديث نبوي ولا حتى بأسطورة خرافية أو قصة من قصص العجائز عدا هذه، ورد ذكره على لسان صحابي لم يذكره ابن حجر في الإصابة، ويكذبون من يأخذ عن القرآن والنبي صلى الله عليه وآله ويورد على ذلك شواهداً؟

(١) معجزات الأنبياء كرامات الأولياء، علي فرج العبد الله، ص ١٠.

(٢) بحثت عن الاسم في باب العين من إصابة ابن حجر ولم أجده ثم بحثت عنه في باب الكنى والألقاب فلم أجده أيضاً!

(٣) ينظر: معجزات الأنبياء كرامات الأولياء من هذه الأمة ص ٢٥.

ويورد قصة أخرى عن الصحابي نفسه، ولكنه ينسب كرامة العلم بالمستقبل هذه المرة إلى راهب نصراني يعلم بأوقات موت الناس، وتقول هذه القصص: «وروي عن المشايخ الشاميين أنهم مروا بصومعة لأحد الرهبان وكانوا عائدين من أرض الروم، فسألهم: هل تعرفون أبا مسلم الخولاني؟ فقالوا: نعم، فقال: إذا وجدتموه فاقرؤوه السلام وقولوا له: إنا نجده في الكتب رفيق عيسى بن مريم، أما إنكم لا تجدونه حيا!! فلما قدموا دمشق سمعوا بخبر وفاته وكان قد توفي بحمة من أرض الروم»^(١)

وفي قصة عن (محمد بن حسان أبي عبيد البصري)، قال: إنه كان جالسا بعرفة وإلى جنبه ولده فقال له: «يهنتك الفارس! فقال له ابنه: يا أبة وأبي فارس؟ فقال: وُلد لك الساعة غلام. قال ولده: فلما رجعنا إلى بسر وجدت زوجتي ولدت غلاماً في يوم عرفة»^(٢)

وفي قصة أخرى عن شيخ اسمه (إبراهيم الدسوقي)، قال: «جاء إليه سبعة من القضاة يمتحنونه فلما وصلت مراكبهم إلى البر بناحية دسوق كشف الله للشيخ قصدهم فبعث نقيبهم فدفعهم، فإذا هم خلف جبل قاف فأقاموا سنة يأكلون من حشيش الأرض حتى تغيرت أجسادهم وخلق ثيابهم، ثم تذكروا ما وقعوا فيه من أمر سيدنا إبراهيم الدسوقي فتأبوا هناك، فأرسل لهم النقيب فدفعهم، وإذا هم على ساحل دسوق»^(٣)

ومن المستقبلات المشهورة ما عرف عند المؤرخين باسم (أشج بني أمية) يقصدون بذلك الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز؛ ففي حديثه عن سيرة عمر بن عبد العزيز قال النويري: «وكان أبيض نحيفاً حسن الوجه، وهو أشج بني أمية، رحته دابة فشجته،

(١) معجزات الأنبياء، ص ٢٨ ٢٩

(٢) معجزات الأنبياء كرامات الأولياء، ص ٦٢

(٣) معجزات الأنبياء، ص ٧٠

وهو غلام، فدخل على أمه فضمته إليها ولامت أباه حيث لم يجعل معه حاضناً. فقال لها عبد العزيز: اسكتي يا أم عاصم، فطوبى له إن كان أشج بني أمية»^(١)

وأشج بني أمية خليفة أموي كانوا يعلمون أنه سيملاً الأرض عدلاً حينما يولى وكما يتبين من أقوالهم، يتبين علمهم بما يخصه حتى من كان منهم في صدر الإسلام الأول وقبل أن تبدأ دولة الأمويين بالتبلور، وحتى قبل أن ينصب معاوية والياً على الشام! قال النويري: «وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب يقول: يا ليت شعري، من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الدنيا عدلاً؛ فكان عمر بن عبد العزيز، لأن أمه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب»^(٢). وفي الكامل في التاريخ: «وقيل كان ابن عمر يقول: يا ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً؟»^(٣)

وفي هذه الأمثلة كفاية لإثبات حقيقة وجود العلم المستقبلي في فكر الجماعات الإنسانية سواء كان حقيقياً ثابتاً أم خرافياً وهمياً. ولقد استمر الإدعاء بعلم الغيب أو المستقبل عبر التاريخ، حتى أن أحد شيوخ المذهب السلفي المعاصرين تحدث عن (عودة الخلافة الإسلامية) في عام ١٤٤٦ أي بعد اثني عشر عاماً من الآن، في موضوع نشر على (اليوتيوب) تحت عنوان: (بشرى وهابية لا يتوقعها سني ولا شيعي)، وقال في قصته الخرافية: «إننا نقرب من موعد قيام الخلافة، الخلافة التي ستزل بيت المقدس، والخليفة الذي سيفتح فلسطين تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَلُوا وُجُوهَكُمْ

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ج ٢١ ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) المصدر نفسه، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢١ ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج ٥، ص ٥٩.

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١﴾ فإذا نزل هذا الخليفة الذي سيبيع في فلسطين بعد أن يفتح الجزيرة العربية وفارس، فنحن نرى والله تعالى أعلم بأنه بين أظهرنا ونراه بأعيننا وهو عبد الله الذي هو الآن يملك في الأردن، هذا الرجل سيهديه الله تعالى إلى هذا الفتح العظيم وسنرى بأعيننا إن شاء الله عام ١٤٤٦ هجرية والمسجد الأقصى قد أعيد بناؤه كأجمل ما يكون وستجتمع الجيوش التي تفتح فلسطين، ستجتمع على تولية عبد الله هذا الخلافة لتكون خلافة هاشمية، هي ليست على منهاج النبوة لأن الخلافة التي على منهاج النبوة ستأتي على يدي محمد الذي هو ابن لعبد الله هذا، أي عبد الله الثاني ملك الأردن»^(١)

صحيح أنهم صاغوا بعض قصصهم تلك على شكل أحاديث ونسبوا إلى رسول الله لكي لا يعترض عليها المعارضون، ولكن إيرادنا لروايات عن أهل البيت عليهم السلام أكثر صدقاً منها يوقف مدعاهم بالتأكيد، لأن ما نوردته أكثر قرباً للواقع، هذا إذا لم يكن هو الواقع بعينه. وأؤكد هنا أننا حينما نورد بعض أحاديث المستقبلات عن أهل البيت الكرام عليهم السلام لا يعني بأننا نعرض على حديث رسول الله صلى الله عليه وآله بالمرة، والسبب الذي دعانا إلى ذلك أن الأحاديث التي أوردناها غيرنا عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا الباب تحديداً أغلبها أحاديث ساقطة لا يعول عليها ولا يعتد بها. أما الصحيحة منها فنحن نعتقد بصحتها أكثر مما نعتقد بصحة روايات أئمتنا، بالرغم من أنهم لم يوردوا حديثاً إلا عن جدتهم الأكرم عليها السلام، ولا سيما وأن مضمون تلك الروايات تحقق بعضه في حياة الصحابة وعاشوهم ونقلوا لنا شعورهم تجاهه. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر ما أورده ابن كثير

(١) شيخ وهابي يتكلم عن عام ١٤٤٦ هجرية ونحن الآن في عام ١٤٣٣ هجرية ويدعي بأن

ملك الأردن عبد الله بن حسين هو المهدي المنتظر، يراجع الرابط:

<http://www.youtube.com/watch?v=RIGJa4CnN9s&feature=related>

في كتاب الفتن عن معلومة مستقبلية عاشها من سمعها من النبي ﷺ، فقال: «وقال أحمد، حدثنا روح، حدثنا أبو أمية هم وابن يحيى بن سعيد بن العاص، أخبرني جدي سعيد بن عمرو بن سعيد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هلكة أمتي على يدي غلظة» فقال مروان وما معنا في الحلقة أحد قبل أن يلي شيئاً: فلعنة الله عليهم غلظة. قال وأنا والله لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت. قال: فكنت أخرج مع أبي إلى بني مروان بعد ما ملكوا فإذا هم يبايعون الصبيان ومنهم من يبايع له وهو في حزامه، فقلت: هل عسى أصحابكم هؤلاء أن يكونوا الذين سمعت أبا هريرة قال لنا عنهم: إن هذه الملوك يشبه بعضها بعضاً. ورواه البخاري بنحوه عن أبي هريرة، والأحاديث في هذا كثيرة جداً»^(١)

ومما يتحقق معه صدق وقوع الحديث عن المستقبل وتكرره عشرات بل مئات المرات ما يروى عن أم المؤمنين أم سلمة أمها قالت: «كنا عند رسول الله ﷺ تسع نسوة، وكانت ليلتي ويومي من رسول الله ﷺ، فأتيت الباب فقلت أدخل يا رسول الله؟ فقال: لا. قالت: فكبوت كبوة شديدة مخافة أن يكون ردني من سخطه، أو نزل في شيء من السماء، ثم لم ألبث أن أتيت الباب ثانية فقلت: أدخل يا رسول الله فقال: لا. قالت: فكبوت كبوة أشد من الأولى، ثم لم ألبث حتى أتيت الباب الثالثة فقلت: أدخل يا رسول الله؟ فقال: ادخلي يا أم سلمة، فدخلت وعليّ ﷺ جاث بين يديه، وهو يقول: فذاك أبي و أمي يا رسول الله إذا كان.. كذا وكذا فما تأمرني. قال: أمرك بالصبر.. ثم أعاد عليه القول ثانية فأمره بالصبر.. ثم أعاد عليه القول الثالثة، فقال له: يا عليّ يا أخي إذا كان ذلك منهم فسل سيفك وضعه على عاتقك واضرب قدما قدما حتى تلقاني وسيفك شاهر يقطر من دمائهم، ثم التفت إليّ وقال: ما هذه الكأبة يا أم سلمة. قلت: للذي كان

(١) سوف يرد الحديث مثبتاً مع الشرح في مباحث قادمة

من ردّك إليّ يا رسول الله. فقال لي: والله ما رددتك إلا لشيء خير من الله ورسوله، ولكن أتيتني وجبرائيل عليه السلام يخبرني بالأحداث التي تكون بعدي، وأمرني أن أوصي بذلك عليّاً، يا أم سلمة اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب وزيري في الدنيا ووزير في الآخرة، يا أم سلمة اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب وصيي وخليفتي من بعدي وقاضي عداتي والذائد عن حوضي، اسمعي واشهدي هذا عليّ بن أبي طالب سيّد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. قلت: يا رسول الله من الناكثون؟ قال: الذين يبايعونه بالمدينة ويقاثلونه بالبصرة. قلت: من القاسطون؟ قال معاوية وأصحابه من أهل الشام. قلت: من المارقون؟ قال: أصحاب النهروان^(١).

وعن محمد بن سنان، عن الفضل بن عمر، عن أبي عبد الله الصادق، عن أبيه، عن جده عليه السلام، قال: «بلغ أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله أن مولى لها يتنقص عليّاً عليه السلام ويتناوله، فأرسلت إليه، فلما أن صار إليها قالت له: يا بني بلغني أنك تنقص عليّاً وتتناوله، قال لها: نعم يا أماء، قالت: اقعد ثكلتك أمك حتى أحدثك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله ثم اختر لنفسك: إنا كنا عند رسول الله تسع نسوة وكانت ليلتي ويومي من رسول، فدخل النبي وهو متهلل، أصابعه في أصابع علي واضعاً يده عليه، فقال: يا أم سلمة اخرجي من البيت وأخليه لنا، فخرجت وأقبلا يتناحيان أسمع الكلام وما أدري ما يقولان حتى إذا قمت فأتيت الباب فقلت: أدخل يا رسول الله؟ قال: لا، قالت: فكبوت كبوة شديدة مخافة أن يكون ردّي من سخطه أو نزل في شيء من السماء، ثم لم ألبث أن أتيت الباب الثانية، فقلت: أدخل يا رسول الله؟ فقال: لا، فكبوت كبوة

(١) أمالي الصدوق، ٢٢٨ و ٢٢٩، أمالي الطوسي ٤٢٥ / ٩٥٢ مناقب الخوارزمي: ١٤٦ -

أشد من الأولى، ثم لم ألبث حتى أتيت الباب الثالثة فقلت: أدخل يا رسول الله؟ فقال: ادخلي يا أم سلمة، فدخلت وعلي جاث بين يديه، وهو يقول: فذاك أبي وأمي يا رسول الله إذا كان كذا وكذا فما تأمرني؟ قال: آمرك بالصبر، ثم أعاد عليه القول الثانية فأمره بالصبر، فأعاد عليه القول الثالثة فقال له: يا علي يا أخي إذا كان ذاك منهم فسل سيفك وضعه على عاتقك واضرب به قدماً حتى تلقاني وسيفك شاهر يقطر من دمائهم، ثم التفت إلي فقال لي: والله ما هذه الكآبة يا أم سلمة؟ قلت: للذي كان ردك لي يا رسول الله، فقال لي: والله ما رددتك من موجدة، وإنك لعلی خير من الله ورسوله، ولكن أتيتني وجبرائيل عن يميني وعلي عن يساري، وجبرائيل يخبرني بالأحداث التي تكون من بعدي، وأمرني أن أوصي بذلك علياً، يا أم سلمة اسمعي واشهدي، هذا علي بن أبي طالب أخي في الدنيا، وأخي في الآخرة، يا أم سلمة اسمعي واشهدي، هذا علي بن أبي طالب حامل لوائي في الدنيا، وحامل لوائي غدا في القيامة. يا أم سلمة اسمعي واشهدي، هذا علي بن أبي طالب وصي وخليفتي من بعدي، وقاضي عداتي، والذائد عن حوضي، يا أم سلمة اسمعي واشهدي هذا علي بن أبي طالب سيد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، قلت: يا رسول الله من الناكثون؟ قال: الذين يبائعونه بالمدينة وينكثون بالبصرة، قلت: من القاسطون؟ قال: معاوية وأصحابه من أهل الشام، قلت: من المارقون؟ قال: أصحاب النهروان. فقال مولى أم سلمة: فرجت عني فرج الله عنك، والله لا سببت علياً أبداً^(١)

وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في أثناء خطبة خطبها بعد فتح البصرة بأيام حاكياً عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «يا عليّ إنك باقٍ بعدي ومبتلى بأمّتي، ومخاصم بين يدي الله،

(١) الاحتجاج، أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، كتاب الكتروني، المكتبة

فأعدّ للخصوم جواباً. فقلت: بأبي أنت وأمي بين لي ما هذه الفتنة التي أبتلى بها وعلى ما أجاهد بعدك، فقال لي: إنك ستقاتل بعدي الناكثة والقاسطة و المارقة.. وحلاهم وسمّاهم رجلاً رجلاً، وتجاهد من أمّتي كلّ من خالف القرآن وسنّي ممّن يعمل في الدين بالرأي، فلا رأي في الدين، إنّما هو أمر الربّ ونهيه. فقلت: يا رسول الله فأرشدني إلى الفلج عند الخصومة يوم القيامة. فقال: نعم، إذا كان ذلك فاقصر على الهدى إذا قومك عطفوا الهدى على الهوى، وعطفوا القرآن على الرأي يتأولونه برأيهم بتتبّع الحجج من القرآن بمشتبهات الأشياء الطارئة عند الطمأنينة إلى الدنيا، فاعطف أنت الرأي على القرآن إذا قومك حرّفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواء الناهية والآراء الطامحة، والقادة الناكثة، والفرقة القاسطة، والأخرى المارقة أهل الإفك المردى، والهوى المطغى، والشبهة الحالقة، فلا تنكّلن عن فضل العاقبة، فإنّ العاقبة للمتقين»^(١).

وروي عنه عليه السلام أيضاً: عن أبي عمرو الكندي قال: «كنا ذات يوم عند علي عليه السلام فوافق الناس منه طيب نفس ومزاح... فقام إليه ابن الكواء^(٢)... قال: فمن الخاسرون أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٣) قال: كفره أهل الكتاب فإن أوليهم كانوا في حق فابتدعوا في دينهم فأشركوا بربهم وهم يجتهدون في العبادة يحسبون أنهم على شيء فهم الأخسرون أعمالاً... ثم رفع صوته وقال: وما

(١) المصدر نفسه، الإحتجاج، الشيخ الطبرسي، ص ٣٠٣ ج

(٢) كان خارجياً بل كان من كبار زعمائهم وفي حديثه عن الخوارج قال الضاري: (ولذلك سميت الخوارج: حرورية/ وزعيمهم يومئذ: عبد الله بن الكواء ومعه شيث بن ربعي) ينظر: ص ٦٥، الإمام الزهري وأثره في السنة، حارث سليمان الضاري، مكتبة بسم، موصل، العراق، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م، وكان ابن الكواء كثير المسألة لعلي عليه السلام، كان يسأله تعتاً، قتل مع الخوارج في النهروان

(٣) الكهف ١٠٣

أهل النهر وان غداً منهم ببعيد!»^(١)

ومن حديث المستقبل الذي عايشه المسلمون الأوائل قول رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه في الصحيحين: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله»^(٢)

ومقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه على يد السياسيين بعد أكثر من ثلاثة عقود على ما أخبرهم به النبي ﷺ من المستقبلات التي عايشوها واستشهدوا بها، قال ابن كثير: «وكذلك الإخبار بمقتل عمار، وأما ذكر الخوارج الذين قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومقتلهم وبعث ذي الندبة منهم، فالأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً»^(٣). «وعن أم سلمة أن رسول الله قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية»^(٤)

بل حتى المتشدد ابن تيمية تحدث عن المستقبلية والإخبار بالغيب بثقة وبقين، ومما جاء عنه قوله الذي نأتي به للاستشهاد وليس لليقين بصحته، لأنه مشكوك بنواياه وصدقه: «وقد ثبت في صحيح مسلم عن أسماء عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب ومبير»^(٥) ويقصد بذلك الحجاج والمختار الثقفيين.

وضمن سياق الحديث عن الغيبيات ورد حديث لرسول الله كان فيه النبي صريحاً

(١) الغارات، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هلال المعروف بابن هلال الثقفي، تحقيق عبد الزهرة الحسيني الخطيب، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٧-١٩٨٧، ص ١٠٣-١٠٥

(٢) النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، ص ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤

(٤) تهذيب خصائص الإمام علي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي، تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م، حديث ١٥٢، ص ١٢٠

(٥) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد

الحليم ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م، ص ١٤٨، ج ٨

وواضحاً في غيبياته ومستقبلياته حتى أنه حدد الخلافة الإسلامية بثلاثين عاماً، ليس لمنحها الشرعية بما يتعارض مع النص على خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وهو أمر مفروغ منه ومن صحته، ولا مجال لمناقشته، وإنما إخبار من النبي بأن هناك في مستقبل الإسلام مرحلتان، الأولى: مرحلة الخلافة بغض النظر عن مضامينها وصدقها وشرعيتها، والثانية: مرحلة التوارث والملكية بغض النظر عن شرعيتها، فالمقام لم يكن مقام حديث عن الشرعية، وإنما عن التاريخ والمستقبل. قال ابن كثير: «وتقدم الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من طريق سعيد بن جهمان عن سفينة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً. وقد اشتملت هذه الثلاثون سنة على خلافة أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق وعثمان الشهيد، وعلي بن أبي طالب الشهيد أيضاً، وكان ختامها وتامها بستة أشهر وليها الحسن بن علي بعد أبيه»^(١)

ويعني هذا بان معاوية قاتل خليفتين شرعيين هما علي والحسن عليهما السلام لكي يستولي على الحكم وتتحقق النبوة التي أخبرت المسلمين أنه بصلح الإمام الحسن عليه السلام انتهت الخلافة إلى الأبد وحل بدلا عنها الملكية الوراثية القيصرية.^(٢)

فضلاً عن ذلك توجد هناك أحاديث مستقبلية أوردتها كتب حديث المدارس الإسلامية نوهت فعلاً عن حتمية قتال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لثلاث فئات إسلامية، تخرج عليه من بين المسلمين، وهي الوقائع التي حدثت في خلافته عليه السلام. وقد

(١) النهاية في الفتن والملاحم، ص ٤

(٢) مع كل ذلك التوضيح هناك من يعتقد أن الخلافة الإسلامية استمرت حتى مع الخلفاء الأعاجم الذين استعمروا الأمة، وأنها لم تنقطع إلا بانتهاء سلطة سلاطين بني عثمان في بداية القرن العشرين، ينظر: علي محمد الصلابي، تاريخ الدولة العثمانية

أورد النسائي عن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوساً ننظر رسول الله ﷺ فخرج إلينا قد انقطع شسع نعله؛ فرمى به إلى علي عليه السلام فقال: «إن منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فقال أبو بكر: أنا؟ قال: لا، قال عمر: أنا؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل»^(١)

إن قتال الإمام علي للخوارج خبر مفعم بالمستقبلية، والخوارج هم المارقة، وعن أبي سعيد الخدري عليه السلام أن رسول الله قال: «تمرق مارقة من الناس يلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(٢)

وفي حديث له ارتباط بهذا الحديث، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: «تكون أمتي فرقتين فيخرج من بينها مارقة يلي قتلهم أولاها بالحق»^(٣) وفي هذا الحديث إشارة مهمة للفرقتين، حيث تكون إحداها أولى بالحق من الأخرى، أي تكون الأخرى بعيدة عن الحق، أي ضالة، ولما كان من المتفق عليه أن علياً عليه السلام هو الذي قاتل تلك الخارجة، فذلك معناه أن فرقته أولى بالحق من الفرقة التي قاتلته، وهي فرقة السياسيين.

أما في الحديث الآخر، فالصورة أوضح حيث تفرق الأمة إلى فرقتين ومن بينهما تمرق طائفة يقتلهم أولى الفرقتين بالحق وهو علي عليه السلام بمعنى أن الأخرى على باطل: عن أبي سعيد: «تفرق أمتي فرقتين، تمرق مارقة تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(٤)

(١) تهذيب خصائص الإمام علي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي، حديث

١٥٠، ص ١١٨-١١٩

(٢) المصدر نفسه، حديث ١٦٠، ص ١٢٣

(٣) المصدر نفسه، حديث ١٦٢، ص ١٢٣

(٤) المصدر نفسه، ١٦٣، ص ١٢٤

والحديث الآخر عن الخدري أن رسول الله ﷺ، قال: «تمرق مارقة عند فرقة من الناس تقتلها أولى الطائفتين بالحق»^(١)

كما أن الحديث عن غربة الإسلام يأتي من بين دفتي دفتر المستقبلية، إذ ثبت في الصحيح من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ قِيلَ: وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: التَّرَائِحُ مِنَ الْقَبَائِلِ». ورواه ابن ماجه عن أنس وأبي هريرة.^(٢)

كذلك الحديث عن المهدوية مستقبلي، والأحاديث المهدوية على كثرتها من المستقبليات المؤكدة، ومنها حديث أنقله بتحفظ كبير كمثال لا أكثر: «عن قيس عن شعيب بن خالد عن أبي إسحاق قال: قال علي ونظر إلى ابنه الحسن فقال: إن ابني هذا سيد كما سماه رسول الله ﷺ وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ﷺ يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق ثم ذكر قصة يملأ الأرض عدلاً»^(٣)

كما كان الوعد بما سيصيب أهل البيت ﷺ من عسف وجور على أيدي السياسيين جزءاً من المنظومة المستقبلية التي خصهم فيها النبي ﷺ دون غيرهم.

(١) المصدر نفسه، حديث ١٦٤، ص ١٢٤

(٢) النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، ص ١٤

(٣) ابن كثير النهاية في الفتن والملاحم، ص ٢٣

إيذاء الحكام الجائرين لآل البيت عليهم السلام

في الأقل هناك فيما يخص موضوعنا بالذات أربعة وعود من رسول الله ﷺ أودعها قلوب المسلمين، تتحدث عن المستقبل الذي تنتظره أمة الإسلام ومنتظره، وقد عايشوها وتذكروا قوله بشأنها:

- الوعد الأول: كثرة الفتن التي سوف تحدث بعد موته مباشرة.

وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، منها الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وجمع كبير من أهل الحديث، والنص لابن كثير في الفتن: «ثم روى البخاري ومسلم من حديث الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد قال: أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة فقال: «هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقوع المطر».

وروي من حديث الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتقارب الزمان وينقص العلم ويبقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج. قالوا: يا رسول الله إيماناً هو؟ قال: القتل القتل». ورواه أيضاً عن الزهري، عن حميد، عن أبي هريرة، ثم رواه من حديث الأعمش، عن سفيان، عن عبد الله بن مسعود وأبي موسى^(١).

وفي فتن نعيم بن حماد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الفتنة راتعة في

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨

بلاد الله تطأ في خطامها لا يحل لأحد أن يوقظها، ويل لمن أخذ بخطامها»^(١).

إن الويل: كلمة عذاب، يقال ويله، وويلك، وويلي، وفي الندبة ويلاه، قال الأعشى:

قالت هريرة لما جئت زائرهما ويلي عليك وويلي منك يا رجل
والويل: حلول الشر. قال الراغب الأصفهاني: قال الأصمعي: ويل قبح، وقد
يستعمل على التحسر^(٢)

وقال: وردت (ويل) في القرآن في أكثر من موضع منها كأمثلة: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا
كُنَّبَتْ آيْدِيهِمْ﴾^(٣) و﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٤) و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾^(٥) و﴿فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٦) و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾^(٧) و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾^(٨)

ولقد ثبت بما لا يقبل الشك والتأويل أن معاوية أيقظ الفتنة يوم قاد جيش الشام
لمحاربة علي عليه السلام، وأيقظها مرة أخرى يوم قاد جيشه بعد أيام معدودات من مقتل علي
ليحارب الحسن عليه السلام، فاستحق الويل مرتين

• الوعد الثاني: إن أهل بيت النبوة عليه السلام سيلقون البلاء بعده.

وهو الآخر وردت بشأنه أحاديث كثيرة منها حديث ابن كثير: «وقال ابن ماجه:

(١) فتن ابن حماد، ص ٣٠

(٢) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٨٨٨

(٣) سورة البقرة: ٧٩

(٤) سورة إبراهيم: ٢

(٥) سورة الجاثية: ٧

(٦) مريم، ٣٧

(٧) المطففين: ١٠

(٨) الهمزة: ١

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا علي بن صالح، عن يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله أغرورقت عيناه وتغير لونه قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخبز (في أغلب الروايات: الخير) فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»^(١)

• الوعد الثالث: إن أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا على إطلاع مسبق بمجريات الأمور.

وبالرغم من وجود من ينكر هذه الكرامة الفريدة ولا سيما بين المثقفين والأكاديميين العلمانيين وبعض المتفقيين الذين يستكثرون على الأئمة عليهم السلام أن يتحدثوا في الغيبات، ويعدّون ذلك تطرفاً شيعياً مبعثه الغلو، فإن الوقائع تثبت أنهم عليهم السلام كانوا ملمين بأخبار مستقبلية ورثوها عن أبيهم علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تعالى، وهناك الكثير من الروايات والأحاديث التي توثق إخبار رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام بأشياء من المغيبات والغيبات إلى حد التفصيل الدقيق، حتى أنه حينما أخبره عن حرب المارقين (النهروان) وصف يد أحدهم وصفاً دقيقاً وصل إلى درجة توصيف ثلاث شعرات في طرفها، والحديث أخرجه النسائي في الخصائص، قال: «أخبرنا الحسن بن مدرك قال: حدثنا يحيى بن حماد قال: «أخبرنا أبو عوانة قال: أخبرني أبو سليمان الجهني أنه كان مع علي عليه السلام

يوم النهروان... فلما كان يوم النهروان وقتل علي الحمرورية، فخرج على قتلهم حين لم يجد ذي الثدي، فطاف حتى وجده في ساقية، فقال: صدق الله وبلغ رسول الله ﷺ وقال لي: في مسكنه ثلاث شعرات في قُبُل حلمة الثدي»^(١)

وفي حديث آخر، قال النسائي: «أخبرنا محمد بن العلاء قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد (وهو ابن وهب) عن علي بن أبي طالب ؓ، قال: لما كان يوم النهروان لقي الخوارج فلم يبرحوا حتى شجروا بالرماح (قتلوا جميعا) قال علي ؓ: أطلبوا ذا الثدي، فطلبوه فلم يجدوه، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت أطلبوه فوجدوه في وخدة من الأرض عليه ناس من القتلى فإذا رجل على يده مثل سبلات السنور، فكبر علي ؓ والناس، وأعجبهم ذلك»^(٢)

وفي الحديث آخر جاء عن علي ؓ أنه قال لجنده: «التمسوا المخدج (وذلك في يوم شات) فقالوا: ما نقدر عليه، فركب علي بغلة النبي ﷺ الشهباء، قال: هذه من الأرض، قال: التمسوا في هؤلاء، فأخرج فقال: ما كذبت ولا كذبت، اعملوا ولا تتكلموا لولا أنني أخاف أن تتكلوا لأخبرتكم بما قضى الله لكم على لسانه»^(٣)

وفي حديث آخر: «أخبرنا محمد بن عبيد قال: حدثنا أبو مالك (وهو عمرو بن قيس) عن المنهال بن عمرو عن زر بن حبیش أنه سمع عليا ؓ يقول: «أنا فقأت عين الفتنة، لولا أنا ما قُتل أهل النهروان وأهل الجمل. يقول: ولولا أخشى أن تتركوا العمل لأخبرتكم بالذي قضى الله على لسان نبيكم لمن قاتلهم مبصرا ضلالتهم عارفا بالهدى

(١) خصائص النسائي، حديث ١٧٤ ص ١٢٩

(٢) المصدر نفسه، حديث ١٧٦ ص ١٣٠-١٣١

(٣) المصدر نفسه، حديث ١٧٧ ص ١٣١

الذي نحن عليه»^(١) وقوله عليه السلام: «ولولا أخشى أن تتركوا العمل لأخبرتكم بالذي قضى الله على لسان نبيكم» يعني انه يعرف ما لا يعرفه أحد، تعلم ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله

وعن النسائي أيضاً: عن كليب الحرمي عن أبيه قال: «كنت عند علي عليه السلام جالساً، إذ دخل رجل عليه ثياب السفر، وعلي عليه السلام يكلم الناس ويكلمونه، فقال: يا أمير المؤمنين تأذن لي أن أتكلم؛ فلم يلتفت إليه وشغله ما فيه، فجلس إلى رجل، قال له: ما عندك، قال: كنت معتمراً، فلقيت عائشة، فقالت: هؤلاء القوم الذين خرجوا في أرضكم يسمون (حرورية)، قلت: خرجوا في موضع يسمى حروراء، تسمى بذلك، فقالت: طوبى لمن شهد منكم، لو شاء ابن أبي طالب لأخبركم خبرهم، فجئت أسأله عن خبرهم. فلما فرغ علي، قال: أين المستأذن، فقص عليه، كما قص علي، قال: إني دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وليس عنده أحد غير عائشة، فقال لي: كيف أنت يا علي، وقوم كذا وكذا، قلت: الله ورسوله أعلم، ثم أشار بيده، فقال: قوم يخرجون من المشرق، يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فيهم رجل نخدج، كأن يده ثدي حبشية، أنشدكم بالله أخبرتكم به؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم بالله أخبرتكم أنه فيهم، قالوا نعم، فجئتموني وأخبرتموني أنه ليس فيهم، فحلفت لكم بالله أنه فيهم، ثم أتيتموني به تسحبونه كما نعت لكم، قالوا: صدق الله ورسوله»^(٢)

وعن الأعمش عن زيد، وهو ابن وهب، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «لما كان يوم النهروان لقي الخوارج فلم يبرحوا حتى شجروا بالرماح (قتلوا جميعاً) قال علي عليه السلام: اطلبوا ذا الثدي فطلبوه، فلم يجدوه، فقال علي: ما كذبت ولا كُذبت، اطلبوه فطلبوه فوجدوه في وحة من الأرض عليه ناف من القتلى، فإذا رجل على يده مثل

(١) المصدر نفسه، حديث ١٨١ ص ١٣٣

(٢) الخصائص، النسائي ص ١٠٠ - ١٠١ النسائي

سبلات السنور، فكبر علي عليه السلام وأعجبهم ذلك».

وعن محمد بن سيرين قال: قال عبدة السلمي: «لما جئت أصيب أصحاب النهروان، قال علي عليه السلام: اتبعوا فيهم فإنهم إن كانوا من القوم الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فإن فيهم رجلاً مجذب اليد، أو مثدون اليد، أو مودون اليد، وأتينا فوجدناه، فدللناه عليه، فلما رآه قال: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، والله لولا أن تبطروا، ثم ذكر كلمة معناها، لحدثكم بما قضى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، في قتل هؤلاء، قلت: أنت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أي ورب الكعبة ثلاثاً».

وعن المنهال بن عمرو عن زر بن حبیش أنه سمع علياً عليه السلام يقول: «أنا فقأت عين الفتنة، لولا أنا ما قُتِل أهل النهروان وأهل الجمل، ولولا أخشى أن يتركوا العمل لأخبرتكم بالذي قضى الله على لسان نبيكم لمن قاتلهم مبصراً ضلالتهم عارفاً بالهدى الذي نحن عليه»^(١)

وانظر عن أخبار الخوارج ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ٢٦٥ وما بعدها، وعن رأي عائشة في زعم عمرو بن العاص أنه قتل ذا الثدية بالإسكندرية^(٢)

يعني هذا، أن العلم المستقبلي بحدوده الدنيا، ولكن الموثوق كان معروفاً لكثير من المسلمين، ولذا تناقلوا رواياته وعاشوا تحقق تلك الأخبار؛ ولما كان الإمام الحسن عليه السلام صحابياً مقرباً من النبي صلى الله عليه وآله وابناً لرسول الله ولعلي ولفاطمة (عليهم صوات الله) فيستحيل أن يكون غير مطلع على البرنامج الرباني المستقبلي، بل كان يحمل في ذاكرته وعقله قصصاً موثقة ضخت في كيانه كماً كبيراً من الحديث عن مستقبل الأيام وما

(١) تهذيب الخصائص، النسائي، ص ١٠٤ - ١٠٥

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢ / ٢٦٨

سيقع فيها بما في ذلك عقد الصلح مع معاوية، ولهذا السبب سماه بعضهم: الكاهن، أي العارف بالمستقبل، والعارف بالمستقبل لا يمكن أن يرضخ للظن أو التوقع أي: أن حراكه يكون محكوماً بعلم المستقبل الذي يملكه.

أنطلق من الروايات التي أوردتها مثلاً لا أكثر فضلاً عن الروايات التي سأوردها لأتحدث عن علاقة أئمة أهل البيت عليهم السلام بالمستقبلية، وأود بداية أن أقول: بأن مجرد إخبار رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام الحسن عليه السلام أو مجرد حديثه أمامه عن دوره في الإصلاح بين الناس كما سيمر علينا يضع الإمام عليه السلام الحسن في لب المستقبلية بعد أن ربط مصيره بها فأصبح على يقين أنه حُمل أمر المستقبل وما عليه سوى الانتظار.

ومن هذه الروايات في الكافي عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبد الصمد بن بشير، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه الحسن: أدن مني حتى أسر إليك ما أسر إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وائتمنك على ما ائتمني عليه، ففعل»^(١)

وقال ابو جعفر الطبري الشيعي: حدثنا أبو محمد سفيان، عن أبيه، عن الأعمش، قال: قال فقير بن عبد الله بن مجاهد [كذا]، عن ابن الأشعث، قال: «كنت مع الحسن بن علي حين حوصر عثمان في الدار، وأرسله أبوه ليدخل إليه الماء، فقال لي: يا بن الأشعث الساعة يدخل عليه من يقتله، وإنه لا يمسي. فكان كذلك، ما أمسى يومه ذلك» وأيضاً هناك رواية أخرى جاء فيها، قال أبو جعفر: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن الأعمش، قال: قال محمد بن صالح: «رأيت الحسن بن علي يوم الدار وهو يقول: أنا أعلم من يقتل

عثمان، فسماه قبل أن يقتله بأربعة أيام، وكان أهل الدار يسمونه الكاهن»^(١).

- الوعد الرابع: أن الأمة كانت تعرف ما يصيب أهل البيت عليهم السلام حتى قبل وقوعه وكانوا يصدقون اخباره عند وقوعه.

وهو الآخر ورد بشأنه الكثير من الأحاديث، منها قال ابن ماجة: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا علي بن صالح، عن يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله أغرورقت عيناه وتغير لونه قال: فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخبز فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»^(٢).

وقد جاء عن الإمام الحسن عليه السلام بعد عقد الصلح ودخول معاوية وعمر وبن العاص إلى الكوفة وطلب معاوية منه أن يخطب الناس، طبعاً نكاية به؛ بأنه: تشهد ثم قال: «أما بعد يا أيها الناس فإن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾» بدلالة حديثه عن مدة الأمر في قوله: (وإن لهذا الأمر مدة) فهو يؤمن ويعرف أن لكل شيء مدة هو بالغها. وكل ذلك وتلك الروايات تؤكد ذلك وتثبت أن الأئمة عليهم السلام كانوا يتعاملون مع البرنامج الإلهي بعلم مسبق ومعرفة يقينية.

(١) دلائل الإمامة/ ص ١٦٨ ج (٨٠/١١) و (٨١/١٢).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، مصدر سابق، ص ٢٥

وعليه لا نستغرب أن يبعد الإمام علي (عليه السلام) عن حقه، ويوضع الإمام الحسن (عليه السلام) في موضع لا يحسد عليه، فيضطر إلى طلب الصلح إبقاءً على الإسلام والمسلمين من الفناء، ويُقتل الحسين (عليه السلام)، وتدور مجزرة قتل وتشريد وتغيب الطالبين على مر التاريخ ولا يتحركون كما في مقدورهم أن يتحركوا، فيلين لهم الحديد وتطيعهم الأشجار والبحار والصواعق.

ولا نستغرب من أن الأئمة (عليهم السلام) كانوا يعرفون بهذه الوقائع قبل وقوعها بزمن طويل وهذا يعني أن تصرفاتهم الخاصة والعامة وسلوكياتهم وتعاملاتهم السياسية والدينية والحياتية كلها محكومة بما ألقى إليهم من قول أصبحوا ملزمين بتطبيقه حرفياً رضي الناس أم كرهوا، اعتقدوا أم اعترضوا، كفروا أم آمنوا.

ولا نستغرب أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان على علم بكل دقيقة من دقائق عمر إمامته بدءاً من ساعة توليه الخلافة وإلى ساعة موته، كان يعرف كيف سيتصرف معاوية وكيف سيتعامل معه أنصاره وجيشه، ونتائج الحشد المتهيج للقتال، وموضوع الصلح وتداعياته، كان يعلمها لا بعلم الغيب كما يتهمنا بعض الأخوة بأننا نقول أن الأئمة يعلمون الغيب؛ وإنما عن طريق التعلم، عن طريق الأخبار المستقبلية العامة والخاصة التي علمها النبي ﷺ لعلي (عليه السلام) ونقلها علي لأبنائه الأئمة (عليهم السلام)، ولذا لا يحق لأي إنسان مهما كانت منزلته أن يعترض على قول أو فعل يصدر عن الإمام المعصوم مطلقاً؛ فهو أدرى بما يصنع ويقول، وهو دائماً على صواب سواء قاتل أم صالح، ولكننا مع ذلك نجد بين المتقدمين والمتأخرين من اتخذ موقفاً سلبياً من الصلح انعكس على نظرتهم إلى قداسة ومنزلة الإمام الحسن (عليه السلام) وبشكل يدل على الجهل قبل كل شيء.

الخاتمة

لقد وجدته ضجيجاً عالياً جداً ذلك الذي أحدثه السياسيون العرب لتقويض الحسنية، وتشويه نقاء سيرة الإمام الحسن عليه السلام، ولا يزال صدها إلى الآن يتردد في عقولنا، وبقيت آثاره تتحكم بطرائق تعاملنا مع هذه القامة الباسقة، فمتى نتحرر من تلك السطوة؟ ومتى نعيد لسيرة الإمام المجاهد المعصوم الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام بريقها؟

إن ما رمت الوصول إليه مما تقدّم من البحث، ومن خلال هذا التجميع المضني لبعض النصوص التي بدأت تنتشر في الاونة الأخير على شبكة الانترنت وفي الصحف الورقية والبحوث والكتب، هو أنّ التكتيم الذي مورس تأريخياً على دور العرب المسلمين السياسي أثر كثيراً في قرارات واستنتاجات من جاء بعدهم من الكتاب والمؤرخين، فاحتاروا بين أن تكون هناك برامج سياسية عربية ناهضة، وبين أن يكون العرب من الأمم التي كانت تجهل العمل السياسي، وما تأكد لي من خلال البحث والمتابعة أنّ المجتمع الإسلامي الأول عرف السياسة بكل ألوانها وصيغها وألاعيبها ودناءتها وخياناتها ومؤامراتها، وأنه مارس العمل السياسي فعلاً، وأجاد الصنعة وأحسن الفن، بحيث نجح في تمرير طبخات عظيمة دون أن يشعر بها المخالف الساذج أو يفصح أمره، وأنه نجح في تغطية هذه المؤامرات وعصبتها برأس من لا ناقة لهم فيها ولا جمل، لكي يبرئ نفسه منها، ويظهر بمظهر الحريص على الدين والحاكم الشرعي، ومن هذه الطبخات: مقتل الخلفاء الثلاث عمر وعثمان وعلي عليهم السلام، وهو ثمن غالٍ جداً

دفعته الأمة المسلمة ودفعته العقيدة مقابل هؤلاء السياسيين إلى نيل المناصب التي كانوا يناضلون للحصول عليها.

وإذا ما كان النبي الأكرم ﷺ قد عمل بجِد للقضاء على الشحنة والأحقاد السياسية التي شخّص وجودها في المجتمع الأول، ونجح في كتبها وتحجيمها. فإنّ ما حدث بعد موته مباشرة يثبت أن مجادلة بعض أهل المدينة لعصر البعثة وجيل الصحابة لم تجوهر إيمانهم الحقيقي بالعقيدة بقدر ما جوهرت تطلعاتهم السياسية، ولذا نرى «أنّ جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي ﷺ قد كتبها بنفوذه الأدبيّ لم تلبث أن ذرت قرنهما»^(١)

ومنه نتأكد من صحة وجود الفصيل السياسي الذي مارس الضغوطات على رجال الدين وعلماء العقيدة، بعد أن أثمر جهده المتواصل وخبرته الكبيرة المكتسبة والتجارب الكثيرة التي مر بها في إزاحة القيادة الشرعية عن مكانها الرسمي بقتل الإمام علي عليه السلام والانفراد بالإمام الحسن عليه السلام.

وأن يتصدى الإمام الحسن عليه السلام لثل هذا الجهد السياسي المنظم وينتصر من خلال النجاح بالبقاء على قيد الحياة وقيادة الأمة قيماً وأخلاقياً ثم التصدي لمناهج السياسة المنحرفة والحكام المنحرفين هو أكبر دليل على عظمة الحسن عليه السلام وعلو شأنه، وأكبر دليل على أن الحسن عليه السلام الخليفة والقائد السياسي لم يكن أقل كفاءة وجدارة وتنظيماً من الحسن عليه السلام الإمام المعصوم والقائد الرباني، فهو كما نجح في الإمامة نجح في السياسة ولولا نجاحه السياسي لكانت الأمة اليوم تتعبّد بمفاهيم السياسيين التي نشرها الإسلام الأموي بين الناس ولا تعرف شيئاً عن الإسلام المحمدي.

أما السياسيون فإنهم أصيبوا بالخيبة والخذلان بعد أن تبين لهم ولمن جاء بعدهم أن

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل، ج ١، ص ٩٨

كل الدس والتحريف لم ينجح في إخفاء وهج الإمام الحسن عليه السلام، وأرى أن بقاء شعلة الفكر الحسنى منيرة مضيئة معطاء نافعة للأمة كل هذه السنين بالرغم مما تعرضت له من محاولات لإطفائها يثبت مدى انطباق قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَابَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَبَلَغَ فِي الْأَرْضِ﴾ على الحسن عليه السلام ومناوئيه؛ فالحسن عليه السلام لأنه مما ينفع الناس خلّده الله في قلوبنا وخلّد ذكره، والآخرون من أعدائه، لأنهم زبد أذهب الله وهجهم وأطفأ شعلتهم وخيب مساعيهم ومؤامراتهم، ولم تنفعهم كل تلك الجرائم والجرائر.

ولكي لا نستهن بفعلهم يجب أن نذكر بعض محاولاتهم للنيل من الإمام الحسن عليه السلام ففي ذكرها تأكيد لنجاح الإمام عليه السلام وفشلهم. وبالتأكيد تطول قائمة من يريد جمع الافتراءات التي ارتكبوها بحق الإمام الحسن عليه السلام لأنها بدأت منذ اللحظة الأولى لولادته ولم تنته لغاية هذه اللحظة، وبعيداً عن المفتريات الطائفية والأخرى التي سأمر عليها مرور الكرام، سوف أركز حديثي على بعض الافتراءات السياسية حصراً لأنها الأساس الذي قامت عليه باقي الافتراءات بأنواعها، لكي أثبت وبالدليل القاطع أن السياسة العربية التي دخلت تحت عباءة الدين، وتزيت بزي الإيمان، فضلاً عن كونها شوّهت مباني العقيدة وأغرّت الكثير من المسلمين بالابتعاد عن جوهر الإسلام؛ نجحت كذلك في التأثير على جميع مكونات العالم الإسلامي، وأثرت في أنماط سلوكهم وتفكيرهم من خلال تأثيرها على السعي الإسلامي النقي لأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين وباعتراف الجميع كانوا يريدون السير بالأمة على المحجة البيضاء، كما أخرج ابن أبي الحديد عن الخليفة عمر قوله لستة الشورى بعد أن جمعهم وغادر علي عليه السلام: «والله، إني لأعلم مكان رجل لو وليتموه أمركم لحملكم على المحجة البيضاء. قالوا: من هو؟ قال: هذا المولّي من بينكم. قالوا: فما يمنعك من ذلك؟ قال: ليس إلى ذلك من سبيل»^(١)

وفي خبر ثانٍ في الاستيعاب وطبقات ابن سعد: أنَّ عمر لما خرج أهل الشورى من عنده، قال: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق. قال عبد الله بن عمر: فما يمنعك منه، يا أمير المؤمنين؟ قال: أكره أن أحمّلها حياً وميتاً.^(١)

وفي هذا الحراك كله كان الإمام الحسن عليه السلام يدعوهم إلى الله، فلا يسمعون، وقد أبرأ ذمته أمام الله والناس أجمعين وعصب جريرة الرفض برأس من لم يسمعه ولم يأخذ منه؛ فكذبه وأنكر فضله وكرهه وأبغضه وحاربه وقاتله وحاصره وقتله مسموماً، غير آبه إلى كونه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لكل بني أب عصابة يتنمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقوا من طيني وبل للمكذبين بفضلهم، من أحبهم أحبه الله ومن ابغضهم أبغضه الله»^(٢)

هذا ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وقد صرح الكتاب العزيز بوجوب الأخذ عن النبي صلى الله عليه وآله والانتفاء عما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَمَاءَ أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخَذُّوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ﴾ فهل يصح أن تأخذوا ما ترضاه عقولكم وتتركوا ما أمركم الرسول بالأخذ به؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ألم يقل رسول الله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»؟ فأين هم من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؟ وأين هم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ألم يتفق أئمة المذاهب الأربعة على قاعدة: (كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله) فلماذا لم يأخذوا بكلام رسول الله صلى الله عليه وآله الذي نقله لهم

(١) الاستيعاب، ج ٣، ص ١١٥٤ ترجمة عمر بن الخطاب، الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٤٢

ترجمة عمر بن الخطاب

(٢) البحار/ ج ٢٣/ ص ١٠٤.

الإمام الحسن عليه السلام، فحاربوه وقتلوه؟ وما ذنب الإمام الحسن عليه السلام إذا ما كانت قوى الشر قد تكالبت عليه لتزيحه من أمامها لكي يتسنى لها السيطرة على الدنيا ومباهجها؟

وبالتالي أرى أنه لا يمكن لأحد مهما علت منزلته وعظم شأنه أن يلوم الإمام الحسن عليه السلام، لأنه عقد مع معاوية صلحا، فيتخذ ذلك ذريعة للتقليل من شأن هذا الإمام العظيم، وهذا ما سنعرفه في الجزء الثاني من الكتاب بإذن الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

(i)

- أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، مصر.
إعلام الوري بأعلام الهدى، للشيخ الطبرسي، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث.

أمالي الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، تقديم: حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٩.

أمالي الطوسي، أبي جعفر بن محمد بن الحسن الطوسي، ترجمة، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، مؤسسة الوفاء، ١٩٨١.

الاحتجاج، أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب لطبرسي، تحقيق الشيخ إبراهيم البهادري والشيخ محمد هادي به، دار الأسوة للطباعة، طهران، ١٤٢٢هـ.

أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي (٦٣٣هـ ١٢٣٥م) دراسة وتحقيق الدكتور محمد أمزون، تقديم الدكتور سامي الصفار، مراجعة الدكتور محمود محمد الطناحي، دار الغرب الإسلامي، المغرب، ١٩٩٨.

أضواء على الصحيحين دراسة وتحليل لصحيح البخاري ومسلم، تعريب يحيى كمالي البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، ١٤١٩.

الأنظمة السياسية، الدكتور حميد حنون خالد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي،

- جامعة بغداد، كلية القانون، الدار العربية للقانون، بغداد، ٢٠١٠.
- الإمامة وأهل البيت، محمد بيومي مهران، مركز الأبحاث العقائدية، المكتبة العقائدية.
- الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) تحقيق علي شيري، منشورات الشريف الرضي، (د.ت).
- الإمام الزهري وأثره في السنة، حارث سليمان الضاري، مكتبة بسام، موصل، العراق، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- الإسلام، المستشرق هنري ماسيه، ترجمة بهيج شعبان، ط٣، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٨.
- الإسلام والثورة، محمد عمارة، ط٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، دار الشروق، بيروت.
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، المطبعة المحمودية، القاهرة، (د.ت).
- أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، محمد بن عبد الهادي المصري، مكتبة الغرباء، اسطنبول، ١٩٩٢.
- الإيمان بالقضاء والقدر، الدكتور عبد السلام التونجي ط٢، ١٤٢٦، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، بنغازي، ليبيا.
- الأوائل، أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني أبو بكر بن أبي عاصم (٢٠٦ - ٢٨٧هـ ٨٢٢ - ٩٠٠م) تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، كتاب الكتروني.
- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق محمد عبد الله، دار المعارف، مصر، (د.ت).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد

الموجود، دار الكتب العلمية.

إحقاق الحق، ميرزا موسى الاحقائي الاسكوثي، ط٤، منشورات جامع الإمام الصادق (ع) العامة - الكويت، ٢٠٠٠.

الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٢٥هـ) تحقيق خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤.

إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين بذيّل نور الأبصار، الشيخ محمود بن علي الصّبان الشافعي، دار الفكر، دمشق.

الإرشاد الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ).
الاغتيالات في الإسلام، حسن عبد الله.

(ب)

- بحار الأنوار، المجلسي.

البداية والنهاية، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١-٧٧٤هـ) تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب،
١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

بلوغ المرام في أدلة الأحكام، الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ت ٨٢٥هـ) دار السلام،
الرياض، ١٩٩٧.

البدء والتاريخ، المطهر بن المطهر المقدسي (ت ٣٥٥هـ)، كتاب الكتروني، مكتبة
المصطفى.

البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي
البزار (ت ٢٩٢هـ) تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة
المنورة، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(ت)

التأريخ السياسي والحضاري للدولة العربيّة، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت).

التأريخ الإسلاميّ وفكر القرن العشرين دراسة نقدية في تفسير التأريخ، الدكتور فاروق عمر، ط ٢، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٥.

تاريخ الأمم والملوك، جعفر بن محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٥هـ) مراجعة نواف الجراح، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣.

تأريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي (ت ٢٩٢هـ) تعليق خليل المنصور، دار الاعتصام ١٤٢٥هـ.

تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) ط ٣، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، دار العلوم الحديثة، بيروت، ١٩٨٧.

تأريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، تعريب الدكتور نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣.

تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر - ابن النجار تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، سنة الطبع: ١٤٢٢ هـ - م ٢٠٠١.

تاريخ دمشق الكبير، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تحقيق الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩.

تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

تهذيب خصائص الإمام علي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي، تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.

تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة، الحافظ أبو الفرج سبط ابن الجوزي، قدم له السيد محمد صادق بحر العلوم، مكتبة نينوى، العراق، (د.ت).

تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي محمد السلامة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

التقية، نزيه محي الدين، كتاب الكتروني، شبكة الفكر.

التنبية والإشراف، المسعودي، مؤلف كتاب مروج الذهب، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

(ج)

- جزء فيه من أحاديث الإمام أيوب السخيتاني، القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهضمي (المتوفى: ٢٨٢هـ) المحقق: د سليمان بن عبد العزيز العريني، مكتبة الرشد وشركة الرياض - السعودية، ١٤١٨هـ.

الجميل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) ط ٢، تحقيق السيد علي مير شريف، مكتبة الإعلام الإسلامي، إيران، ١٤١٦هـ.

جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق عبد القادر الأرنبوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، كل جزء صدر بتاريخ مختلف، صدر الأول في ١٩٦٩.

الجفر والفتن وإشراط الساعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، إعداد عكاشة عبد المنان الطيبي، دار اليوسف، بيروت، (د.ت).

الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

(ح)

الحضارات في السياسة العالمية، وجهات نظر جمعية وتعددية، بترجي كاتزنشتاين، ترجمة فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٣٨٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

الحضارة العربية الإسلامية، علي حسني الخربوطلي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٧٥.

الحياة السياسية للإمام الحسن، السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

حاشية السندي على ابن ماجه، شرح سنن ابن ماجه، أبو الحسن الحنفي الشهير بالسندي، دار الجليل، بيروت.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).
حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

حروب الشياطين، البابا شنودة الثالث، مكتبة الكتب المسيحية، كتاب الكتروني.

(خ)

- الخلافة الإسلامية، محمد سعيد العشماوي، ط ٢، دار سينما، القاهرة، ١٩٩٢.

الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، الدكتور محمد عمارة، ط٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

الخراج، محمد بن عبد الله الأزري البصري.

(د)

- دور الأئمة في الحياة السياسية، الشيخ محمد يعقوبي، مؤسسة البديل للدراسات والنشر، دار المتقين للثقافة والعلوم، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

دور العصبية القبلية وآثارها على المجتمع العربي، الدكتورة آمال آل كاشف الغطاء، مكتبة الصدر، قم، إيران، (د.ت).

دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، د. خالد العسلي، إعداد د. عبد السلام رؤوف، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠٠٢.

دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري العامي، (ت ٣١٠ هـ، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٣.

دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ج/٤٠١ ٤٠٢. تم إصدارها على طبعتين، الأولى بين ١٩١٣ و ١٩٣٨، والثانية ما بين ١٩٥٤ و ٢٠٠٥، ويتم إصدارها من قبل شركة بريل الهولندية. وقد ظهرت هذه الموسوعة بأكثر من لغة، أما بالنسبة للعربية فقد تم تعريب بعض أجزائها وتنقيحها وصدرت في مصر في الستينات وأعيد طبعها بالشارقة عام ١٩٩٨.

(ذ)

- ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤.

الذرية الطاهرة النبوية، لأبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي، تحقيق سعد المبارك

الحسن، الدار السلفية - الكويت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(و)

- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البستي أبو حاتم، تحقيق محمد محي

الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥.

الرياض النضرة في مناقب العترة الطاهرة، أبو جعفر أحمد المحب الطبري، صححه محمد

بدر الدين النعساني الحلبي، محمد أمين الخانجي، مصر (د.ت).

الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، دار إحياء التراث، بيروت، (د.ت).

(س)

السيرة النبوية، تدوين مختصر مع تحقیقات وإثارات جديدة، سامي البدری، ط ٣ تحقيق

السيد حسين البدری والشيخ إحسان المظفر، دار طور سينين، دار الفقه، ٢٠٠٥.

السيرة النبوية، عبد الملك المعافري ابن هشام، تحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ

محمد الدالي بلطة، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢.

السياسة والأخلاق؛ مَنْ يَحْكُمُ مَنْ؟، عزيز الخزرجي، كتاب الكتروني، موسوعة نينوى.

سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، أحمد بن شعيب بن علي

بن سنان بن بجر النسائي، دار الجليل، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

*- وطبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المكتبة العصرية.

سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، المكتبة العلمية، بيروت.

سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي السمرقندي، دار الكتاب العربي، سنة

النشر: ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨ هـ) وفي ذيله الجوهر النقي، دار المعرفة، بيروت .

سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، الدكتور علي محمد الصلابي، ط٨، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.

(ش)

- الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزين، ط٢، مطبوعات مكتبة النجاح، طهران، (د.ت).

شرح نهج البلاغة، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي، دار المعرفة، دار الكاتب العربي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، (د.ت).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

شرح النووي على مسلم، يحيى بن شرف أبو زكريا النووي (٦٣١-٦٧٦ هـ)، تحقيق علي عبد الحميد أبو الخير، دار الخير، توزيع دار السلام، القاهرة، سنة النشر: ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

(ص)

صلح الحسن غدير عز ولغز جهاد، الشيخ احمد محمد إسماعيل، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

صلح الحسن، الشيخ راضي آل ياسين، شركة الأعلاميين بيروت، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م.

صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء الكتب العربية، سنة النشر: بلا.

صحيح وضعيف موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدين، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الصميعي، سنة النشر: ١٤٢٢ - ٢٠٠٢.

صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ٠١٩٤-٢٥٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، جزء واحد.

* - وطبعة دار الفكر، بيروت بغداد، ١٩٨٦، أربعة أجزاء.

(ط)

- الطبقات الكبير (الطبقات الكبرى)، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، سنة النشر: ١٤٢١ - ٢٠٠١. طبقات ابن سعد، القسم المفقود، تحقيق الدكتور محمد بن صامل.

(ع)

- علل الشرائع، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم. ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حياتهم، الدكتور محمود عرفة محمود، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، مصر، ١٩٩٥.

فجر الإسلام، أحمد أمين، ط ٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م.

العقل العربي، رفائيل باتاي، ترجمة وليد خالد أحمد حسن، مكتبة مصر، القاهرة، دار المرتضى، بغداد، ٢٠٠٩.

العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب

العلمية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، ط٢، الدار السعودية للنشر، ١٣٨٧هـ.

العقيدة والشريعة في الإسلام، أجناس جولد تسيهر، نقله إلى العربية محمد يوسف عيسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٤٦م.
عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع تعليقات شمس الدين بن قيم الجوزية، إشراف ضياء محمد جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنش، سنة النشر: ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(غ)

الغارات، أبو إسحاق بن محمد بن سعيد بن هلال المعروف بابن هلال الثقفي، تحقيق السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(ف)

- فضائل الخمسة من الصحاح الستة، السيد مرتضى الحسيني الفيروزآبادي، ط٤، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الدكتور محمد البهي، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة. طبع لأول مرة عام ١٩٥٧م.
في الاجتماع الإسلامي السياسي، الدكتور حسن الضيقة، دار الإيمان، بيروت، ١٩٩٣هـ ١٤١٤م.

فتوح البلدان، احمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (ت ٢٧٩هـ) تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، (د.ت).

الفتن، نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (ت ٢٢٩هـ) تحقيق أبو عبد

الله أيمن محمد محمد عرفة، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم، ١٤٢٤هـ.
فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، سنة النشر:
١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

فضائل الصحابة ومناقبهم وقول بعضهم في بعض صلوات الله عليهم، أبو الحسن علي
بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (ت
٣٨٥هـ ٩٩٥م) اعتنى به محمد بن خليفة الرباح، مكتبة الغرباء الأثرية، المملكة العربية
السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

فجر الإسلام، أحمد أمين، ط ٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر،
١٣٥٤هـ ١٩٣٥م.

(ك)

- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، ط ٢، دار
الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٥.

الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم
بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار
المعرفة، بيروت، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

الكتابة في درجة الصفر، رولان بارت، ترجمه عن الفرنسية الدكتور محمد نديم
خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢.

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي
البرهان فوري، تحقيق صفوت السقا وبكري الحياتي، مؤسسة الرسالة، (د.ت).

(ل)

اللائئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، عبد الرحمن السيوطي جلال الدين، ط ٢، دار المعرفة، سنة النشر: ١٣٩٥ - ١٩٧٥.

(م)

- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، صححه وشرّف على طباعته الشيخ حسين الاعلمي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧.
مطالب السؤل في مناقب آل الرسول، كمال الدين محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن القرشي العدوي النصيبي الشافعي (ت ٦٥٢هـ) مؤسسة البلاغ، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

مقاتل الطالبين، أبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ) تحقيق أحمد صقر، مؤسسة العطار الثقافية، قم، إيران، ١٤٢٨هـ.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦هـ ٩٥٧م) تحقيق أمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

المقدمة، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦١.

معالم التنزيل، تفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة.

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، كتاب الكتروني، الرابط .

<http://sonofalgeria.blogspot.com/2010/03/10.html>

المستدرك على الصحيحين، أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.

مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، دار إحياء التراث العربي،

سنة النشر: ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

موطأ مالك، ملحق به كتاب إسعاف المبطأ برجال الموطأ، مالك بن أنس بن مالك، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار إحياء العلوم العربية، بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م. من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، الدكتور إبراهيم بيضون، شهاب الدين للطباعة والنشر، قم، ٢٠٠٦.

المنهجية التاريخية في العراق، الدكتور عبد الرحمن العزاوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨.

مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق الدكتور محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.

مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

المناقب، أبو المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد البكري المكي الحنفي الخوارزمي (٤٨٤-٥٦٨هـ) تقديم محمد رضا الموسوي الخرسان، محمد كاظم الكتبي، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق الدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، سنة النشر: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

المعجم الصغير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسام الدين

- القدس، مكتبة القدس، سنة النشر: ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
- مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق.
- المغازي، محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧هـ) تحقيق الدكتور مارسدن جونس، ط٣، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- منتخب كنز العمال بهامش مسند احمد بن حنبل.
- مقدمة في تأريخ صدر الإسلام، الدكتور عبد العزيز الدوري، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٤.
- المناقب والمثالب، القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت ٣٦٣هـ) تحقيق ماجد بن احمد العطية، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- المنهجية التاريخية في العراق، د. عبد الرحمن العزاوي.
- المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري، الطبعة ٤، مطابع وزارة التربية العراقية، تقديم الدكتور عمر عبيد حسنة.
- معجزات الأنبياء كرامات الأولياء، علي فرج العبد الله، تدقيق عبد الله سنده، (د.ت).
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ) تحقيق صفوان عدنان داوودي، ذوي القربى، قم، ١٤٣١هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- المذهب السياسي في الإسلام، صدر الدين القبانجي، ط٢، دار الأضواء، بيروت،

١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني، طبعه الراشد بن علي المحلاقي الحائري سنة ١٣١٣هـ.

المصنف، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
منهاج الصالحين المعاملات، فتاوى سماحة آية الله العظمى السيد محمود الهاشمي،
الناشر دفتر آية الله محمود الهاشمي، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
الملل والنحل، الشهرستاني، تخريج محمد بن فتح الله بدران، ط ٢، مكتبة الانجلو المصرية،
القاهرة، (د.ت).

مكاتب الرسول، علي بن حسين علي الأحمدي، دار المهاجر، بيروت، (د.ت).
من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، الدكتور إبراهيم بيضون، الناشر شهاب الدين، قم،
١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

معاوية، عبد الباقي قرنه الجزائري، مطبعة مینوی، ١٤٢٦هـ.

(ن)

نظام الإسلام السياسي، باقر شريف القرشي، دار التعارف، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، الدكتور صبحي الصالح، ط ١٣، دار العلم
للملايين، بيروت، ٢٠٠١.

نشأة علم التاريخ عند العرب، الدكتور عبد العزيز الدوري، ط ٢، مركز دراسات
الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧.

النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، محمد بن عقيل.

النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، كتاب الكتروني، مكتبة المصطفى الالكترونية.
نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي

التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

(و)

وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ)، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
الوجيز في عقيدة السلف الصالح، الشيخ عبد الله بن عبد الحميد الأثري، راجعه نخبة من العلماء، ط٢، الغرباء، اسطنبول، ١٤٢٢.

الدراسات والمقالات

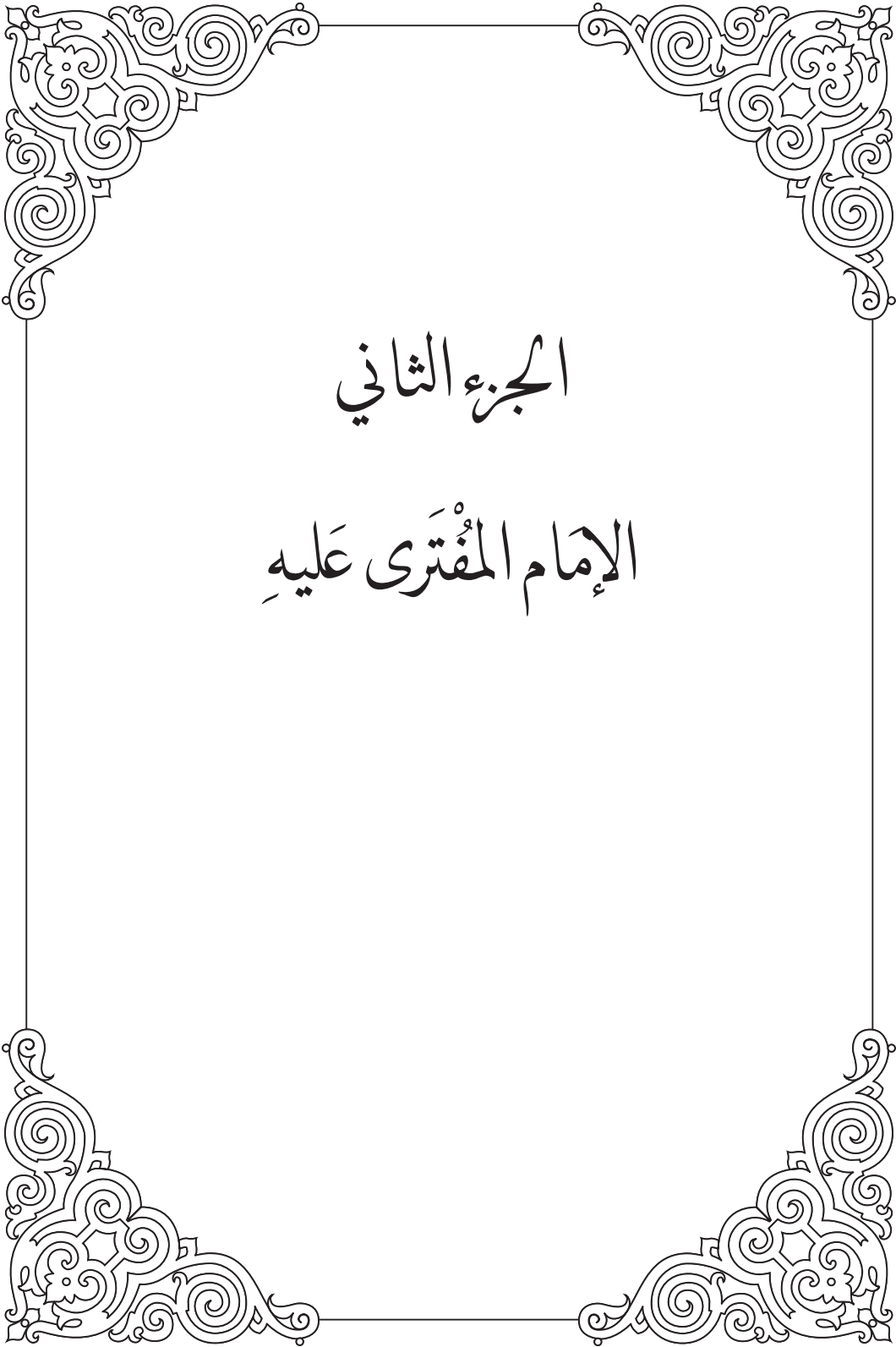
- مقال بعنوان: إشكالية في الدين والسلطة، الدين والتعصب والإسلام السياسي) نشر في موقع النور يوم ١٩/٩/٢٠١٢ .
مقال بعنوان (لكي لا يخذعنا بعضهم: هل كان تأريخنا ماضيا سعيدا؟) للكاتب المصري سيد القمني نشر في صحيفة المثقف (العدد: ١٤٠٩ الخميس ٢٠/٠٥/٢٠١٠).
نشرة المنتدى - منتدى الفكر العربي برئاسة الأمير الحسن بن طلال ولي العهد، العدد ٧٠ المجلد ٦ تموز ١٩٩١ .
مقال بعنوان (المسكوت عنه في سيرة عمر بن الخطاب في الفكر السني)، احمد صبحي منصور، نشر في موقع عرب تايمز .
بحث بعنوان (أحكام العقيقة في الفقه الإسلامي) للدكتورة مريم إبراهيم هندي، مجلة كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، العدد (٢٨) سنة ٢٠٠١ م .

مواقع الكترونية

- موقع الشيخ الكوراني.

موقع موسوعة الإمام الحسن.

- موقع موسوعة الأسئلة العقائدية، مركز الأبحاث العقائدية.
- موقع النور، مقال بعنوان: إشكالية في الدين والسلطة، الدين والتعصب والإسلام السياسي) الدكتور قاسم حسين صالح، نشر في موقع النور يوم ١٩/٩/٢٠١٢.
- موقع إيلاف.
- موقع أهل الحديث.
- موقع صحيفة المثقف.
- موقع عرب تايمز.
- الموقع الرسمي للشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز.
- موقع اليوتيوب.
- موقع ملتقى السنة.
- موقع مركز الفتوى السعودي.
- موقع فيصل نور.
- موقع العربية نت.
- .



الجزء الثاني

الإمام المُفْتَرَى عَلَيْهِ

مقدمة

يطول تعداد الافتراءات التي ارتكبتها السياسيون وأولادهم وأحفادهم بحق الإمام الحسن (عليه السلام)، وسنكتفي بالحديث عن بعض منها لكي نعرف أهمية وقوة الجهات التي كانت تدير الصراع مع الإمام الحسن (عليه السلام)، وكيف أنها شوهت غالب مفردات سيرته، وضَعَفَت ما لم تقدر على تشويهه بواسطة بعض رجال الحديث، وبعض العاملين في ميدان الجرح والتعديل، وبعض المؤرخين المأجورين، وكيف أن الإمام الحسن (عليه السلام) بما معروف عنه من علم وحلم وكياسة ومعصومية وفراصة وشجاعة استطاع تجاوز ما لم ننجح نحن في تجاوزه يوم ثبت بوجه الهجمة، فانتصر، ولكن الكثير منا لم يلحظوا عظمة هذا الانتصار وأثره في العقيدة، فنسوه أو تناسوه، أو قللوا من أهميته!

وسعيّاً وراء الاختصار سوف أتناول في بداية هذا الجزء لمحات من مواطن التحريف المعادي، لتكون شاهداً على ما وقع في باقي المواطن، وستكون قصص زواج الإمام الحسن (عليه السلام) المكذوبة بداية حديثنا عن هذه الافتراءات، لندخل بعد ذلك إلى رحاب دنيا الإمام الحسن (عليه السلام) ونعرف كيف كان يفكر ويتصرف ويتخذ القرارات وكيف أن حراكه هذا بإرادته لا بدهائهم كان مكشوفاً للآخرين، بما فيهم أعداؤه الذين استغلوا هذه الشفافية لينفذوا من خلالها ويضعوا كماً كبيراً جداً من الروايات والأحاديث والقصص السمجة التي حاولوا من خلالها تشويه صورة وسيرة هذا القائد الفريد، فشوهوا الإسلام وأساءوا إلى فكره وفقهه ومسيرته قبل أن يسيئوا إلى أحد أبرز قاداته.

الفصل الأول

قصة زوجاته التسعمائة!

قصص زوجاته التسعمائة!

تأتي أهمية الزواج من حيث كونه «واحداً من شؤون الحياة وهو كغيره من الأمور يوضح الفرق بين المؤمن وغير المؤمن»^(١) ولذا تجد المهتمين بالسنة النبوية من رجال المدرستين الفقهيّتين، والمتابعين لسنة الأئمة المعصومين عليهم السلام التي رووها عن جدهم من رجال مدرستنا يؤلون الزواج أهمية كبيرة، ويفردون له في كتبهم أبواباً فيما يطلقون عليه اسم (كتاب النكاح)، منها: باب حب النساء، باب غلبة النساء، باب أصناف النساء، باب خير النساء، باب شرار النساء، باب فضل نساء قريش، باب من وفق له الزوجة الصالحة، باب في الحض على النكاح، باب كراهة العزبة، باب إن التزويج يزيد في الرزق، باب من سعى في التزويج، باب اختيار الزوجة، باب فضل من تزوج ذات دين وكراهة من تزوج للمال، باب فضل الأبكار، وعشرات الأبواب الأخر وصولاً إلى أبواب خطب النكاح والمهر والصدّق.

ولقد استغل السياسيون موضوع الزواج فجهدوا جهدهم وكادوا كيدهم للإساءة إلى الإمام الحسن عليه السلام بما أضفوه عليه من صفات تبدو مخالفة لروح الشريعة، وهدفهم من وراء ذلك تلوّث صورته النقية وإظهاره بمظهر المزواج المطلق المذواق النزق الذي تفتته النساء وتلهيه عن مطالب الإمامة وشؤون الأمة (حاشاه) ؛ كل ذلك لكي يقولوا أنه لم يكن أهلاً للقيادة والحكم. ولا يخفى على اللبيب أن قصص تعلق الإمام

(١) الزواج الإسلامي، نظرة مختصرة على العلاقات الزوجية في الإسلام، السيد عبد الحسين

دستغيب، ترجمة لجنة الهدى، ط ٣، دار البلاغة، بيروت، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، ص ١١

الحسن عليه السلام بالنساء وبالشكل الذي يبدو غريباً كل الغرابة عنه وعن سلوكه السوي وعصمته ونسبه ومكانته العلمية والاجتماعية إنما جيء بها للطعن به وبالإمامة المعصومة وبمنهج أهل البيت وبالإمام علي عليه السلام وبالتشيع عامة؛ ولذا ترى أعداء التشيع يعلنون هذا الهدف الخفي بعد حين معتمدين على تلك القصص الخرقاء؛ ويعتبرون كثرة الزواج سنة سيئة قام بها الإمام الحسن عليه السلام (حاشاه).

ومع أن ذلك العصر كان مولعاً شغوفاً بكثرة الزواج والطلاق، وكان السياسيون منهم أشد فتكاً وشذوذاً وكثرة فيه، إلا أن السياسيين على وجه الخصوص وأتباعهم عامة حاولوا التملص من عدوانيتهم الغرائزية وشهواتهم الدونية لا بنكران وقوعها لأنهم لا يقدرّون على ذلك، وإنما عن طريق البحث عن قمم مجتمعية باسقة ليشركوهم قولاً بأفعالهم، حتى وإن كانوا فعلاً أبرياء كل البراءة من ذلك. وكان الإمام الحسن عليه السلام من القمم التي اختاروها نظراً لما شجر بينهم وبينه، فاتهموه بكثرة الزواج والطلاق، لدرجة أنهم وصفوه بالمذواق، وفي عقيدتنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن المذواقين والمذواقات، أو الذواقين والذواقات. فإذا ما كان الإمام الحسن عليه السلام من المذواقين فاللعن ينسحب عليه بالتأكيد، أو هكذا أرادوا أن يظهره.

ما أريد قوله ابتداءً بخصوص أكذوبة كثرة زوجات الإمام الحسن عليه السلام بضع مقدمات لأدخل من خلالها إلى صلب الموضوع، وهذه المقدمات هي:

- إن الزواج في الفقه الإسلامي سنة، قال النبي صلى الله عليه وآله: «النكاح سني فمن رغب عن سني فليس مني» وأهل البيت الكرام هم أول من طبق سنة جدهم بالحرف الواحد لكي يتبعهم الناس.
- إن شريعة الإسلام أقرت الزواج لإتمام الدين، قال النبي صلى الله عليه وآله: «من تزوج فقد

أحرز نصف دينه فليتيق الله في النصف الثاني» وهنا يأتي الزواج بدرجة عالية في سلم العقيدة. ومن يستهين به بالشكل الذي نسبوه إلى الإمام الحسن عليه السلام يبدو وكأنه يتعمد الإساءة للعقيدة!

- أن الزواج من أعظم أبنية الإسلام قال النبي ﷺ: «ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله من التزويج» ويستحيل أن يعث أبسط أتباع أهل البيت عليهم السلام بهذا البناء فكيف بالإمام المعصوم؟
- في تطبيقهم للسنة كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يختارون أوسط الأمور تبعاً للقاعدة الفقهية التي استنبطوها: «لا إفراط ولا تفريط، وإنما أمر بين أمرين» وهو المشهور عنهم في كل حياتهم، بما فيها الزواج.
- إن المؤمن يتزوج ليرضي الله سبحانه، ولذا تراه يبحث عن (ذات الدين) التي أوصاه النبي ﷺ بها لتترب يده، والفاسق والملحد والكافر يتزوج لإشباع رغباته وإمتاع لذاته وإسكات شهواته، وهو لا يبحث عن ذات الدين، وإنما يبحث عن ذات المال والجمال، بغض النظر عن دينها وأخلاقها.
- وضع رسول الله ﷺ اللجنة تحت أقدام الأمهات، ولم يضعها تحت أقدام اللواتي يتزوجوهن لقضاء الوطر والمتعة، ثم يطلقوهن ليتزوجن من جديد ثم لا ينلن فرصة للإنجاب.
- إن الزواج بأكثر من واحدة كان فاشياً في ذلك المجتمع على أن لا يزيد عدد الزوجات الحرائر في عصمة الرجل في المرة الواحدة على أربع، مع ملاحظة أن في فقه مدرستنا يتوجب على المتزوج بأربع إذا ما طلق واحدة أو أكثر من زوجاته أن لا يتزوج قبل انقضاء عدتهن.

• إن رسول الله ﷺ وغالب الصحابة جمعوا أكثر من أربع زوجات وتزوجوا بأضعاف هذا العدد بدءاً من الخلفاء ووصولاً إلى عامة الناس، وفي الروايات أن الإمام علي عليه السلام مع ما كان عليه، تزوج بعد موت فاطمة عليها السلام تسع حرائر، وكان له ثمانية عشر من أمهات الأولاد، وأنه يوم استشهد كان عنده أربع حرائر هن: أمامة بنت أبي العاص، وليلى بنت مسعود التميمية، وأسماء بنت عميس الخثعمية^(١)، وأم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية.

• ثبت في الروايات أن الإمام علياً عليه السلام كان يبحث عن نساء يلدن له رجالاً يقاتلون في سبيل نصرته دين الله، لا للمتعة وقضاء الوطر، كما في حديثه مع أخيه عقيل الذي كان نسابة عالماً بأخبار وأنساب العرب وقوله له: «أبغي امرأة قد ولدتها الفحول من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً. فقال له عقيل: أين أنت عن فاطمة بنت حزام الكلابية فإنه ليس في العرب أشجع من آبائها ولا أفرس»^(٢)

• إن الإمام علياً عليه السلام كان يبحث بنفسه عن زوجات لأولاده الحسين عليه السلام، ولو كانا كلاهما، أو كان أحدهما مزوجاً مطلقاً لما فعل ذلك!

فعن ماذا كان الإمام الحسن عليه السلام يبحث في زواجه بأكثر من تسعمائة امرأة لكي نصدق قولهم؟ وما الحدود التي التقى بها الذي نسبوه من قول وفعل إليه مع هذه الحقائق؟ وهل يعقل أن يخالف الحسن عليه السلام بعض أو كل هذه الحقائق بغض النظر عن

(١) كانت زوجة جعفر بن أبي طالب فبعدما استشهد تزوجها أبو بكر وأولدها محمداً؛ فمات

عنها فتزوجها الإمام علي عليه السلام

(٢) أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، طبعة دار المعارف

للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م، ج ٧، ص ٤٢٩

الأسباب؟

إن الحديث عن المشكلة التي خلقوها من العدم فظهرت إلى الوجود وكأنها واحدة من حقائق التاريخ تشعب ونزل إلى أصغر جزئياتها، فبات لعقاً على لسان كل من هب ودب، يتحدثون عنه وكأنهم كانوا شهوداً عليه أو شهوداً على عقود الزواج التي ادعوا أنه أبرمها، ويتحدثون عن أسماء الزوجات، بل يتطرقون إلى ما دار بينهن وبين الإمام من حديث بعضه لا يمكن أن يطلع عليه ثالث، لأنه جرى في مخدع النوم، هذا بالرغم من أنهم خلطوا كثيراً في حديثهم عن تاريخ ولادته وتاريخ وفاته وأشياء كثيرة أخر هي بكل تأكيد أكثر أهمية من موضوع الزواج، بما يؤكد أنهم لم يكونوا صادقين في هذا الحديث. ونحن ممكن أن نرد على التخرصات بالاسلوب نفسه الذي يرد به بعض المشنجين على حقائقنا، ولكننا سنرد تهمة كثرة الزوجات من مصادرها النقلية والعقلية كما تعودنا.^(١)

قال المؤرخون والكتّاب في عدد المرات التي تزوج بها الإمام أو عدد النساء اللواتي تزوجهن في حياته القصيرة التي قضاهما إما تلميذاً عند جده وأبيه ينهل عنهما ومنها العلم، وإما مجاهداً في سبيل الله مع أبيه في حروبه ضد الناكثين والباغين والمارقين، وإما حاجاً سيراً على الأقدام حتى بلغ عدد مرات ذهابه سيرا إلى مكة أكثر من عشرين مرة^(٢) وإما معتكفاً في داره لا يقوم من دسياسة سم حتى يقع في أختها، قالوا الكثير وغير

(١) ولقد كفانا الشيخ الدكتور نجاح الطائي في كتابه «الشائعات المشهورة ضد الإمام الحسن» الصادر عن دار الهدى لإحياء التراث في بيروت عام ٢٠١٠ جرح تلك الروايات، لأنه قام بمتابعتها وأخضعها للجرح بالرجوع إلى مصادر المدرسة التي وضعتها فأسقطها جميعاً، فجزاه الله خير جزاء المحسنين

(٢) عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: «لقد حج الحسن بن علي خمسا وعشرين حجة ماشياً، وإن النجائب لتقاد معه»، مستدرک، الحاكم، حديث ٤٧٨٩ / ٣٨٧، ص ١٨٥، ج ٣

المعقول بل والمستحيل، والظاهر أنهم لخطوا أن عمره الشريف ومهامه وطرائق تعبه وانشغاله الدائم لا يتناسب مع عدد الزوجات الذي جاؤوا به، إذ لا يمكن التوفيق بين ما تحتاجه مهامه وعبادته مع ما يحتاجه الزواج الكثير، فجاءوا بأقوال غريبة عسى أن يقتنع بها السذج والبسطاء، ومنها على سبيل المثال إدعاؤهم بأنه في ذات الوقت الذي كان يمارس فيه العلاقة مع زوجاته، كان يقرأ ويتعبد أيضاً، كما في قولهم: «وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف قبل أن ينام، يقرأها من لوح يدور معه حيث كان في بيوت نساءه، فيقرأه بعد ما يدخل في الفراش قبل أن ينام»^(١) ولذا ما خافوا من تعارض قصص كثرة الزواج مع قصص كثرة العبادة، فوفق هذا الأسلوب: لا ضير بأن كثير العبادة كثير الزواج يتكرر زواجه بالأيام والساعات وليس بالأشهر والسنين، وعليه ما الضير في أن يقول المقدسي في البدء والتاريخ إنه عليه السلام: «كان أرخى ستره على مائتي حرة»^(٢)، ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وكان منكاحاً مطلقاً تزوج نحواً من سبعين امرأة، وقلمها كان يفارقه أربع ضرائر»^(٣)، ويقول ابن عساكر إنه عليه السلام: «تزوج سبعين امرأة، وفي رواية أنه أحسن تسعين امرأة»^(٤). وهي صور ملتقطة لما كان يحدث في قصور السياسيين الباذخة عكسوها لتبدو فاشية عند غيرهم من الأتقياء كما هي عند المتهتكين، وتجاء الشبه بينها وبين ما أورده النويري عن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ /

٢٠٠٣م، ج ٨، ص: ١٩٦

تجد في هذه الرواية إجماعاً بأن الإمام الحسن ما كان يحفظ القرآن وأنه كان يلجأ إلى الألواح ليقرأه مكتوباً، وهذا افتراء كبير على الإمام الحسن عليه السلام غير مقبول بالمرّة.

(٢) البدء والتاريخ، المقدسي: ج ٥، ص ٤

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ترجمة الحسن بن علي بن أبي طالب، ج ١٣

(٤) تاريخ دمشق ينظر: ابن عساكر: ج ١٣ / ص ٢٤٩، نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، شرح، م ٤،

إذا ما قارنت نصه مع نص الذهبي ستجد تقارباً لا يمكن أن يكون قد وقع مصادفة أو تناصاً، وأن الذهبي انتقى بعض صفات السياسيين وألصقها بالإمام الحسن (عليه السلام) متعمداً؛ بما يعني أن اتهامهم للإمام الحسن (عليه السلام) كان تحريفاً لما وقع لخلفائهم من أخبار؛ ففي حديثه عن سنة ٩٩ هجرية ذكر النويري وفاة سليمان بن عبد الملك وروى شيئاً من أخباره فقال: «كانت وفاته يوم الجمعة لعشر مضي من صفر من السنة بدابق من أرض قنسرين بذات الجنب، وله خمس وأربعون سنة... وكان أكولا، نكاحاً»^(١). وهذا يعني أن الذهبي وغيره أرادوا القول بأن الإمام الحسن (عليه السلام) كان كذلك (نكاحاً) كرجالهم. ولذا لا أستغرب قول ابن كثير: «وكان كثير التزوج، وكان لا يفارقه أربع حرائر، وكان مطلقاً مصداقاً. يقال: إنه أحصن بسبعين امرأة. وذكروا أنه طلق امرأتين في يوم واحدة من بني أسد وأخرى فزارية، وبعث إلى كل واحدة منهما بعشرة آلاف، وبزقاق من عسل، وقال للغلام: اسمع ما تقول كل واحدة منهما. فأما الفزارية فقالت: جزاه الله خيراً، ودعت له. وأما الأسدية فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق. فرجع الغلام إليه بذلك، فارتجع الأسدية وترك الفزارية» ولا أدري لماذا أرسل غلاماً واحداً ليسمع من الطليقتين كليهما، فهما لم تكونا في مكان واحد ومن المستحيل أن يأتي قولاهما في ذات اللحظة وكأنهما كنَّ بانتظاره! فضلاً عن ذلك تبدو هذه الصورة لمن يُحكّم عقله مقتبسة

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ج ٢١، ص ٣٥٣.

من صور قصور الرذيلة التي كانت تدار من قبل الجواري والقيان والغلمان، من عالم الإمام الذي اشتهرت به قصورهم وباحات ملذاتهم، لا من بيوت الطهر والعفة، بيوت أهل بيت رسول الله ﷺ.

الغريب أن هذه القصة الأكذوبة تكررت بصيغ أخر يتبين من خلال إحداها أن الطليقات كن زوجاته بالزواج المنقطع (المتعة) لا الدائم، كما في قول آخر لابن كثير الذي أراد كعادته أن يتلافى التناقض الذي وقع به من سبقه من المؤرخين، فقال: «وقال عبد الرزاق، عن الثوري عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، عن الحسن بن سعد، عن أبيه قال: متع الحسن بن علي امرأتين بعشرين ألفاً وزقاق من عسل، فقالت إحداها وأراها الحنفية: متاع قليل من حبيب مفارق»^(١)، وفي هذه الرواية لا نجد أسدية ولا فزارية، بل نجد واحدة حنفية والأخرى مجهولة!

وأكثر ما يدفع إلى الشك والريبة في تلك الأقوال عن الكثرة أن أهل الحديث والمؤرخين من أتباع الفصيل السياسي هم من رواها وإليهم تنتهي، وهم من أوردها وأنفرد بذكرها كما فعل المدائني! فالمدائني هو بطل روايات الزواج، جاء بها من غير أن يسندها إلى من سبقه، وعنه اخذ المؤرخون بما فيهم ابن أبي الحديد المعتزلي الذي ضمن شرح النهج الكثير من أقواله. فمن هو المدائني، وما درجة وثاقته؟

المدائني

المدائني (١٣٥-٢٢٥هـ/ ٧٥٢-٨٤٠م) هو: علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف أبي الحسن، مولى عبد الرحمن بن سمرة القرشي، وهو بصري سكن المدائن، طيسفون من مؤرخي القرن الثاني وكانت ولادته في أوائل العصر العباسي، عاش نحو تسعين

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ص ١٩٨

عاماً، هاجر من المدائن إلى بغداد، ومات فيها. كان أحد المتكلمين؛ وتلمذ في بغداد على يد أبي محمد، إسحاق بن إبراهيم الموصلي، الذي كان أحد علماء عصره باللغة والموسيقى والغناء، وله في ذلك تصانيف كثيرة، فكان إذا زاره صاحبه المدائني أكرمه وتحفّى به وأحسن تقديره، حتى أن المدائني لما وافته المنية كان في بيت صاحبه الموصلي.^(١)

وجاء في المكتبة الشاملة: «أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ سَيْفٍ إِجَازَةً، وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الدُّورِيُّ الْوَرَّاقُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْيَزِيدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ زَهْرٍ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: كَانَ أَبِي، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَمُصْعَبُ الزُّبَيْرِيِّ يَجْلِسُونَ بِالْعَشِيَّاتِ عَلَى بَابِ مُصْعَبٍ، قَالَ: فَمَرَّ عَشِيَّةً مِنَ الْعَشِيَّاتِ رَجُلٌ عَلَى حِمَارٍ فَارِهِ، وَبِزَّةٍ حَسَنَةٍ، فَسَلَّمَ، وَخَصَّ بِمَسَائِلِهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا الْحَسَنِ؟ فَقَالَ: إِلَى هَذَا الْكَرِيمِ الَّذِي يَمْلَأُ كُمِي مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ دَنَائِرٍ وَدِرَاهِمٍ، فَقَالَ: وَمَنْ هُوَ يَا أَبَا الْحَسَنِ؟ فَقَالَ: أَبُو مُحَمَّدٍ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ، قَالَ: فَلَمَّا وَلِيَ، قَالَ: يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: ثَقَّةٌ، ثَقَّةٌ، ثَقَّةٌ. قَالَ: فَسَأَلْتُ أَبِي، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ قَالَ: الْمَدَائِنِيُّ»^(٢)

ويكفي دليلاً على واقع حال المدائني؛ وصفهم له بتلقي الأموال الطائلة من مكاسب الغناء والطرب التي جمعها الموصلي، وهي من أموال السحت الحرام، بما يمكنه من ركوب الحمير الفارهة ولبس الملابس الحسنة. بل يكفي قوله لهم: إنه ذاهب إلى من

(١) علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٨) ودوره في كتابة التاريخ، رسالة من متطلبات درجة الماجستير تقدم بها الطالب عماد عزام جوابرة إلى قسم التاريخ بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين عام ١٤٢١ هجرية ٢٠٠١ ميلادية

(٢) موقع المكتبة الشاملة، الرابط:

<http://shamela.ws/index.php/author/1893>

يملاً كمّيه بالفضة والذهب دليلاً على حبه للمال دون الاهتمام بمصدره.

يقول (أيلرنغ ليدوك بيترسن) عن أصل ومذهب المدائني: «إن المدائني كان مولى لبطن من بطون عبد شمس بن عبد مناف التي تنتمي وترجع إلى مدينة البصرة، وهي عبارة عن تفرع من الأمويين»^(١) ويقول عن منهجه في الكتابة: «ويمثل المدائني مرحلة متقدمة في صياغة وتشكيل الرواية التاريخية وإنه قد اختار مادة كتابه من الكثير من المصادر التي يصعب الحصول على أي مسح مصدري لمادته بصورة مباشرة وواضحة»^(٢) ويتحدث عن مصدر معلوماته، فيقول: «إن افتقار ونقص التجانس في مصادره يظهر من الحقيقة إنه اعتمد جنباً إلى جنب على مثل هؤلاء العلماء البصريين أمثال العثماني يزيد بن عياض بن جعدبة (المتوفى سنة ٧٧٥-٧٧٦) وأبي بكر الهذلي الذي بالكاد يكون ثقة، وجويرية بن أسماء (المتوفى ٧٨٩-٧٩٠)، وسحيم بن حفص بن اليقظان (المتوفى ٨٠٥-٨٠٦م)، وبطريقة ماثلة اعتمد الموالي للأمويين مسلمة بن محارب (المتوفى تقريباً ٧٦٥-٧٨٥م)، والموالي للأمويين أيضاً عبد الله بن مبارك (المتوفى ٧٩٧م)»^(٣)

عن حفيد السياسيين المدائني أخذ ابن عساكر والمقدسي وابن سعد والسيوطي وآخرون غيرهم قصص كثرة الزوجات بالرغم من معرفتهم بحقيقة عدد زوجات الإمام (عليه السلام)، ومعرفتهم بأن عددهن أقل كثيراً حتى من عامة الناس، لا ملوكهم وأمراءهم وتجارهم وأغنيائهم! والأغرب أن بعضهم أخذ بتلك الروايات ولم ينتبه إلى الدس والتشويه الموجود فيها! فتنوعت أقوال المؤرخين في عدد زوجاته، ولكنهم بشكل عام

(١) علي ومعاوية، في الرواية العربية المبكرة، أيلرنغ ليدوك بيترسن، ترجمة عبد الجبار الناجي،

مكتبة دار المجتبى، النجف، العراق، ٢٠٠٩، ص ١٧٦

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٧

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧-١٧٨

ساروا على وقع طبل السياسيين.

الحسن عليه السلام المبذر المتلاف

واللافت للنظر أن السياسيين لم يأتوا بقصص حب النساء وينسبونها إلى الإمام الحسن عليه السلام بالشكل الذي أوردته الروايات جزافاً، وإنما كان عملهم مقصوداً أريد من خلاله القول: إن الإمام الحسن عليه السلام باع الخلافة وباع الأمة المسلمة وتاجر بالأم المسلمين بسبب حبه للمال وجشعه وطمعه (حاشاه) وهو بالتالي لم يكن أهلاً لقيادة الأمة المسلمة، وأن معاوية كان أجدر منه بهذه المهمة الصعبة التي تحتاج أول ما تحتاج إلى التضحية الكبيرة! ويأتي حراكهم هذا مكماً لكل حركاتهم السياسية الأخرى التي أرادوا من خلالها تشويه صورته، بالإدعاء بأنه لم يكن محترماً عند نساءه، وأنه كان يستميل قلوب النساء بالمال العظيم الذي يبذله لهن؛ لا بشخصه وأخلاقه؛ بمعنى أن نساءه لم يحببته لأنه الحسن؛ بل لأنه كان كريماً معهن يجود عليهن بمال المسلمين فهو (حاشاه) بنظرهم (مبذر متلاف) ينفق على ملذاته وملاهيته من خزائن بيت المال العام الذي كان علي بن أبي طالب عليه السلام أنزه مخلوق في الكون مسؤولاً عنه.

وقد أخذ المستشرق (رونلدسن) هذه الروايات عنهم ونقلها إلى العالم، فقال: «وقد برهن (أي الحسن عليه السلام) على كثرة تبذيره بأن خص كل امرأة من نساءه بمالٍ كثير، فترى كيف بذرت أموال طائلة خلال خلافة علي عليه السلام، بالزمن الذي كانت الخلافة نفسها شديدة الافتقار»^(١) ومع أن هذا القول يخالف كل ما ورد عن تعامل الإمام علي عليه السلام مع المال إلا أن هناك من صدق بآراء المستشرقين وآمن بها!

والأشد نكاية من ذلك قولهم بأنه كان يشتري بهال المسلمين جوارى بالجملة ليهدين بالجملة أيضاً إلى عشيقاته وطليقاته وزوجاته الجدد، قال في ذلك أبو بكر الخرائطي في كتاب (مكارم الأخلاق): «حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا القواريري، حدثنا عبد الأعلى، عن هشام، عن محمد بن سيرين قال: تزوج الحسن بن علي امرأة، فبعث إليها بمائة جارية، مع كل جارية ألف درهم»^(١)

هذه الأقوال الباطلة الشاذة تدعونا للحديث قليلاً عن علاقة أئمة أهل البيت عليهم السلام بالمال العام والخاص، لأن السياسيين أرادوا من خلال تلك الروايات أن يظهروا بيت علي بن أبي طالب وبيت ابنه الحسن عليه السلام من بعده ييوتاً مليئاً بالجوارى؛ حتى أن هداياهم لا يقل عددها عن المئة في كل مرة، بالرغم من أن الشعب كان فقيراً جائعاً! فهل يُصدَّق هذا الهراء بربكم؟ هل يُصدَّق أن يتصرف صاحب الكلمة الخالدة «لو كان الفقر رجلاً لقتلته» بمثل هذا التصرف المشين؟ أليس هو علي بن أبي طالب عليه السلام صاحب الكلمات الخالدة، كما في قوله: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليهم، والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً، ولو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟» وقد أوردتُ في موضوع العصبية رواية الثقفى التي جاء فيها: إن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن تخاف خلافه من الناس وفراره؟ قال: وإنما قالوا له ذلك، للذي كان معاوية يصنع بمن أتاه، فقال لهم

(١) مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل بن شاعر السامري الخرائطي المتوفى عام ٣٢٧هـ، تحقيق ودراسة الدكتور عبد الله بن بجاش بن ثابت الحميري، طبعة مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م، والبداية والنهاية ج ١١ ص ١٩٧، تاريخ دمشق وابن عساكر: ج ١٣، ص ٢٤٩.

علي عليه السلام: «أأمروني أن أطلب النصر بالجور، والله لا أفعل ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟ قال: ثم أزم طويلاً ساكتاً ثم قال: من كان له مال فيأياه والفساد فإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف»^(١) وفي قوله الآخر: «ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله». أليس هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أعسر فخرج إلى السوق لبيع سيفه الذي حمى الإسلام ونبه، وهو ينادي: «من يشتري مني هذا السيف، فو الذي فلق الحبة، لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو كان عندي ثمن إزار لما بعته؟» أليس هو علي عليه السلام الذي امتعض كثيراً من فعلة ابن عباس الذي أخذ مال البصرة وذهب إلى مكة، حيث ينقل الشيخ علي الأحراري عن الكشي قصة أخذ عبد الله بن عباس ما في بيت مال المسلمين في البصرة وذهابه إلى مكة، فكتب علي عليه السلام إليه رسالة جاء فيها: «فوالله لو أن حسناً وحسيناً فعلاً مثل الذي فعلت لما كانت لهما عندي في ذلك هوادة ولا لواحد منهما عندي فيه رخصة حتى أخذ الحق وأزيع الجور عن مظلومها»^(٢) فلم يرد عليه ابن عباس ولو بكلمة تثبت أن الحسن عليه السلام كان يأخذ مال المسلمين ليتزوج به. أليس هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كوى يد أخيه عقيل لمجرد أنه طلب فوق استحقاقه؟ أليس هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي جاء بوصيته للإمام الحسن عليه السلام وهو يجاهد بنفسه بعد أن طعنه المجرم المرادي: «الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألستكم في سبيل الله» لا في سبيل الزواج والمتع واشتهاء الطعام، بل في سبيل الله وحده.

(١) الغارات، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ، ج ١ ص ٤٦.

(٢) كشف الالتباس في معرفة أحوال ابن عباس، الشيخ علي الأحراري، ص ٣٢.

لقد ذكر أكثر من واحد ممن عايشوا علياً عليه السلام في زمن الخلفاء الذين سبقوه وفي زمن خلافته، أنهم لم يجدوا عنده رغبة باكتناز المال أو جمعه كما فعل السياسيون وأعوانهم، قال سفيان: «إنّ علياً لم يبنِ أجرّة على أجرّة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بحبوه من المدينة في جراب»^(١) وبعد استشهاده قام الإمام الحسن عليه السلام خطيباً ومماً قاله: «والله ما ترك صفراء ولا بيضاء، إلا ثمانمائة أو سبعمائة درهم أرصدها لجارية»^(٢)

لقد كان المنهج العلوي بالتعامل مع المال منهجاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام أجمعهم، بل وللفقه، الشيعي، حيث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «المال أربعة آلاف، واثنان عشر ألف درهم كنز، ولم يجتمع عشرون ألفاً من حلال، وصاحب الثلاثين ألفاً هالك، وليس من شيعتنا من يملك مئة ألف درهم»^(٣) وبالتالي يتبين أن مقابل ثقافة التخزين والتكديس السياسية، كان حملة سياسة الشريعة مجرد فقراء معدمين لا يملكون شيئاً سواء في حياتهم العامة أم عند توليهم حكم المسلمين. ومن موجبات الحديث عن السياسيين وعن المال أنهم أرادوه داعماً للتهم التي اتهموا بها الحسن عليه السلام وهي كثيرة، منها قولهم: إن الحسن عليه السلام تنازل عن الخلافة طمعاً بهال معاوية!

من هذه الإلماحات أجد فعلاً أن السياسيين أجادوا في اختيار الروايات التي تحدثوا فيها عن علاقة الحسن عليه السلام بالمال العام في خلافة أبيه، وأجادوا توظيف تلك الأقوال ليثبتوا من خلالها أن معاوية أيضاً كان كريماً مع الحسن عليه السلام المبذر، حيث ادعت رواياتهم أن الإمام الحسن عليه السلام كان كلاً على معاوية يطمع بعطاياه لكي ينفقها ببذخ فاحش على

(١) الكامل في التاريخ، مجلد ٣، ص ٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه، الكامل

(٣) ينظر: تحف العقول

متعته، والغريب أنهم لم يفتنوا إلى التناقض في أحاديثهم؛ فقالوا في النقل السابق: أنه أرسل إلى الجارية التي تزوج بها مائة جارية مع كل واحدة منهن ألف درهم بمعنى أنه أرسل لها فضلاً عن المائة جارية مائة ألف درهم؛ ويتبين من نقول آخر أن هذه المائة ألف التي يتحدثون عنها هي كل ما كان عليه عطائه السنوي الذي كان يحصل عليه من معاوية، فهل يعقل أن يهب لجارية واحدة كل عطائه السنوي ومئة جارية يمثل امتلاكهن ثروة عظيمة لمجرد قول تافه؟ وكيف تزوج بعدها العشرات في العام نفسه؟ وكيف كان يعيش وينفق على زوجاته وأبنائه؟!

ودعماً للروايات ولتعمير الافتراءات الباطلة جاؤوا بروايات أخر أرادوا من خلالها تأكيد حاجة الحسن عليه السلام لما في يد معاوية من مال، وتأكيده واضح أن مال معاوية هو مال الله! كما في الرواية التي أخرجها البيهقي وابن عساكر عن طريق أبي المنذر هشام بن محمد عن أبيه قال: «أضاق^(١) الحسن بن علي، وكان عطاؤه في كل سنة مائة ألف فحبسها عنه معاوية في إحدى السنين، فأضاق إضاقة شديدة فقال: فدعوت بدواة لأكتب إلى معاوية لأذكره نفسي، ثم أمسكت فرأيت رسول الله في المنام فقال: كيف أنت يا حسن؟ فقلت: بخير يا أبت، وشكوت إليه تأخر المال عني، فقال: أدعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره ذلك؟ فقلت: نعم يا رسول الله، فكيف أصنع؟ فقال: قل: اللهم أقذف في قلبي رجاءك وأقطع رجائي عمن سواك. قال: فو الله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إليَّ معاوية بألف ألف وخمسمائة ألف»^(٢)

والظاهر أن ابن كثير انتبه إلى التناقض الموجود في هذه الرواية فأخرجها بأسلوب آخر يصحح ما وقع فيه صانعها من خلط، فقال: «ولما نزل لمعاوية عن الخلافة من ورعه

(١) أضاق: أعسر. نزلت به ضائقة مالية.

(٢) تاريخ السيوطي، ص ١٩٣.

صيانة لدماء المسلمين، كان له على معاوية في كل عام جائزة، وكان يفد إليه، فربما أجازته بأربعمائة ألف درهم، وراتبه في كل سنة مائة ألف، فانقطع سنة عن الذهاب، وجاء وقت الجائزة، فاحتاج الحسن إليها - وكان من أكرم الناس - فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه، فلما نام تلك الليلة رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، فقال له: يا بني، أكتب إلى مخلوق بحاجتك؟ وعلمه دعاء يدعو به، فترك الحسن ما كان همّ به من الكتابة، فذكره معاوية واقتداه، وقال: ابعثوا إليه بمائتي ألف، فلعل له ضرورة في تركه القدوم علينا. فحملت إليه من غير سؤال»^(١)

فهل كان الحسن عليه السلام غير ملتفت إلى صيانة وجهه ليطلب المال من معاوية؟ ألم يرد في الروايات أنه: جاء رجل أنصاري يسأل الحسين حاجة فقال الحسين عليه السلام: «يا أخا الأنصار صن وجهك عن بذله المسألة وأرفع حاجتك في رقعة فأني آت فيها ما سارك إن شاء الله؟ فكتب: يا أبا عبد الله إن لفلان عليّ خمسمائة دينار وقد ألح عليّ، فكلّمه ينتظرنى إلى ميسرة، فلما قرأ الحسين الرقعة دخل إلى منزله فأخرج صرة فيها ألف دينار وقال له: أما الخمسمائة فأقض بها ذمتك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك: لا ترفع حاجتك إلا إلى أحد ثلاثة: إلى ذي دين أو مروءة أو حسب»^(٢) فهل كان الحسن عليه السلام غافلاً عما يعرفه أخوه الحسين عليه السلام وهما رضعاً واكتسباً معارفهما من مصدر واحد؟ إذن كيف يطلب من معاوية ومعاوية ليس أحد الثلاثة المذكورين؟

أليس هو الحسن بن علي عليه السلام الذي قال ابن أبي الحديد المعتزلي عن علاقته عليه السلام بالمال: «روى محمد بن حبيب في أماليه أن الحسن عليه السلام حج خمس عشرة حجة ماشياً

(١) البداية والنهاية، بن كثير، ص ١٩٤، ج ١٣.

(٢) أهل البيت وبيت المال، السيد محسن النوري الموسوي، منشورات حسين التميمي، دار

المتقين، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٧١.

تقاد الجنائب معه وخرج من ماله مرتين وقاسم الله عز وجل ثلاث مرات حتى أنه كان يعطي نعلًا ويمسك نعلًا ويعطي خفًا ويمسك خفًا^(١) ثم جاء السياسيون ليقولوا: إن الحسن عليه السلام اصطاح مع معاوية على أن يأخذ ما في بيت المال الذي بالكوفة، فوفى له معاوية بذلك، فإذا فيه خمسة آلاف ألف، وقيل: سبعة آلاف ألف^(٢). وعلى أن يكون خراج البصرة (وقيل: دار أجرد) له في كل عام، فامتنع أهل تلك الناحية عن أداء الخراج إليه، فعوضه معاوية عن ذلك ستة آلاف ألف درهم في كل عام، فلم يزل يتناولها مع ما له في كل عام في وفادته من الجوائز والتحف والهدايا، إلى أن توفي^(٣).

وبناءً عليه تجد في منظومتهم الحديثية مجموعة كبيرة من الأحاديث السياسية الموضوعية التي أرادوا من خلالها إظهار الإمام الحسن عليه السلام بمظهر الطماع الجشع المحب للمال (حاشاه الله) لمجرد أنه شرط ضمن شروط الصلح شرطاً مالياً؛ ظنوه بدافع الطمع، بل وظفوه ليدل على الطمع، ولكنك إذا رجعت إلى المؤلفات التي تناولت الصلح وشروطه تعرف سبب هذا التحريف والدس الكبيرين، وتجد السبب الحقيقي الذي دفع الإمام الحسن عليه السلام إلى وضع الشرط المالي ضمن شروط الصلح، ولا سيما أنه عليه السلام يعرف أن معاوية سوف يحرم العلويين وأشياعهم من الموارد المالية إغلاً في إيدائهم، حيث يتبين لكل منصف أن الإمام عليه السلام طلب المال من خراج (دار أجرد) مثلاً تعويضاً لشيعته المتضررين من أعمال معاوية الإرهابية وليس لنفسه لكي يصرفه على ملذاته كما يدعون. وهذا يعني أن عمال معاوية هم الذين سيقومون باستحصال خراج تلك

(١) شرح نهج البلاغة، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٤.

(٢) لا أدري كيف قيص لهم معرفة مقدار عدد الملايين الموجودة في بيت مال الكوفة بهذه الدقة، ثم يعجزون عن تحديد السنة التي مات فيها الحسن عليه السلام!

(٣) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ص ٢٠٤، ج ١٣.

المنطقة ثم يخرج منه معاوية ما اتفقا عليه فيرسله إلى الإمام الحسن عليه السلام الذي كان يأمل أن يتسلمه ليوزعه على المتضررين، لا لكي يأخذه لنفسه شخصياً لكي ترفض (دارأبجرد) أن تدفع له ما طلب، كما تقول رواياتهم. فقد جاء في موسوعة الإمام الحسن عليه السلام: حكى الصدوق عن كتاب الفروق بين الأباطيل والحقوق تأليف محمد بن بحر الشيباني عن أبي بكر محمد بن الحسن بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، حدثنا أبو طالب زيد بن اجزم، حدثنا أبو داود، حدثنا القاسم بن فضيل، حدثنا يوسف بن مازن الراسبي، قال: «بايع الحسن بن علي معاوية على: أن لا يسميه أمير المؤمنين. ولا يقيم عنده شهادة. وأن لا يتعقب على شيعة علي شيئاً ويؤمنهم ولا يتعرض لأحد منهم بسوء. ويوصل إلى كل ذي حق منهم حقه. وأن يفرق في أولاد من قتل مع أبيه يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دارأبجرد من بلاد فارس»^(١)

ومن محاسن المصادفات أن تجد الله سبحانه يدفع أحياناً بعض المتعصبين ليظهروا الحقيقة بالرغم من مواقفهم الدفاعية عن السياسيين، فالصلاحي الذي شرّق وغرّب ودسّ أنواع الدسائس، وحاول تمرير طبخات السياسيين القدماء وتوهين فكر مدرسة أهل البيت عليه السلام قال: «وذكر الطبري برواية عوانة بن الحكم أن أهل البصرة حالوا بين الحسن وبين خراج دارأبجرد، وقالوا: فيئنا، والمعلوم أن جباية الخراج من مهام الدولة ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة في هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج دارأبجرد لم يكن في الأموال التي صيرت إلى الحسن.... وأما الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وكأن الحسن

(١) موسوعة الحسن الرابط:

<http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/solh.html>

باع الخلافة لمعاوية؛ فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها»^(١)

ولكن الصلابي عاد ففتق ما رتقه من قبل واتهم الحسن عليه السلام والطالبيين بأنهم مجرد سُراق لمال المسلمين ولا سيما عند تأكيده أهمية الجانب المالي الذي عده من أهم شروط الصلح، فأورده ثانياً بعد طلب الحسن عليه السلام في الشرط الأول - العمل بكتاب الله وسنة رسوله - فقال مستنداً إلى حديث البخاري المشبوه: «فالحسن يتحدث عن أموال سبق وأصابها هو وغيره من بني عبد المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم معاوية»^(٢) وكأن الحسن والطالبيين كانوا مجرد لصوص سطوا على مال المسلمين وسرقوه، وإن الحسن يحاول استغلال حاجة معاوية للصلح لكي يضغط عليه ليعفو عنهم!، فيا لفاجعة الأمة بهذا التاريخ!

وقالوا: إن الحسن عليه السلام على جليل قدره وعظيم منزلته كان يكتب إلى معاوية أو يفد عليه في الشام ليستجدي منه الأموال ليتزوج بها، وأن معاوية كان يتتهز حاجة الإمام إلى المال فيذله بالقول أو الفعل. والهدف من قولهم إن الحسن كان يأخذ المال من معاوية هو التمويه على الناس للإيجاء زوراً بأن الإمام اعترف بشرعية خلافة معاوية، وقد أوردوا حديثاً كاذباً عن أهل البيت عليهم السلام أرادوا القول من خلاله أن الحسين عليه السلام كانا يقبلان أعطيات معاوية وأن الأخير كان رؤوفاً رحيماً بهما معظماً لهما، وكأنه لم يجارهم ويقتلهم ويشردهم، والحديث أورده عن جعفر بن محمد عن أبيه: «أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية» وعليه قالوا: «وهذا دليل على تعظيم معاوية لأهل بيت النبوة

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، الصلابي، ص ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٤.

وإكرامه إياهم، وأن منافسته لهم الظاهرة كانت عن اجتهاد له فيها أجر، إن شاء الله»^(١)

بالتأكيد هناك أكثر من كاتب وباحث من أتباع الفصيل السياسي أرادوا الإيحاء للأمة بأن علاقة الحسن والحسين عليهما السلام بمعاوية كانت في متهى الود والمحبة والوئام والتفاهم بسبب المال لا غير؛ لأنهم كانوا يحبون المال ولا مصدر للحصول عليه إلا عن طريق خزائن معاوية؛ وذلك لكي تختلط الأوراق وتضيع الحقيقة، فيعتقد السذج والبسطاء بأن أخبار الخلاف التي تملأ بطون كتب التاريخ لا أصل لها على أرض الواقع؛ وإنما وضعها المتأخرون، ومن هؤلاء المدعين علي محمد الصلابي الذي قال: «وجاءت بعض الروايات بسند حسن بأن معاوية كان دائم الوصل للحسين ويسارع في تلبية مطالبه وحاجاته وكان يغدق عليه العطاء»^(٢) وقال مرة أخرى: «ويبدو أن صلات الحسين بمعاوية كانت طيبة واستمرت العلاقات بين الطرفين تتسم بكل احترام وتقدير»^(٣) وأرى أن هذا القول مخالف لكل حقائق التاريخ، جاء به السياسيون ليشوهوا سيرة الإمام الحسن عليه السلام وليدلسوا على الناس ويخدعوه. فمن غير المعقول أن يطلب الحسن عليه السلام المال من معاوية وغير معاوية من أجل متع عنده منها ألوان وأشكال لا تحصى كما يدعون، كل ذلك لأجل أن يقنع نساءه بالموافقة على الطلاق لكي يتزوج غيرهن، حتى أنهم قالوا أنه كان يتحايل عليهن ليوقع بهن؛ قال في ذلك أبو جعفر (محمد

(١) الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض: ١٤١٨-١٩٩٧، ج ١، ص ١٩٦٣ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (ت ٤١٨هـ)، ط ٤، تحقيق: د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، المجلد ٢، حديث ٢٧٨٢.

(٢) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، علي محمد الصلابي، ص ٣٥٢.

(٣) المصدر السابق، علي محمد الصلابي ص ٣٥٢.

بن حبيب): «وكان الحسن إذا أراد أن يطلق امرأة جلس إليها فقال: أيسرك أن أهب لك كذا؟ فتقول له: ما شئت، أو: نعم، فيقول: هو لك، فإذا قام أرسل إليها بالطلاق وبها سمى لها»^(١)

ومن يبحث في بطون كتب التاريخ يجد ثوابت كثيرة تمنع أن ينزل الحسنان عليهما السلام إلى هذا المستوى، وهناك الكثير من الروايات التي يدين السياسيون بها أنفسهم ويفضحون جهلهم، فهم بعد أن أوردوا عدداً لا بأس به من الروايات التي تقول أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقفان على باب معاوية يستعطفانه ليجود عليهما ببعض المال، جاء من فضح كل تلك الروايات برواية لم ترد في كتب مدرستنا ولدينا عليها مؤشرات خطيرة جداً، ولكننا سنوردها للإفادة مما جاء في أواخرها، وهو قول رسول الله ﷺ: «نعم ما لم تقم على باب سدة أو أميراً تسأله» جاءت هذه الرواية عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: «إن رسول الله دعا لأهله فذكر علياً وفاطمة وغيرهما. فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البيت؟ قال: نعم ما لم تقم على باب سدة^(٢) أو أميراً تسأله»^(٣).

وأعتقد أن مؤاخذتنا على الرواية واضحة وهي قول ثوبان: (فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البيت؟ قال: نعم) لأن هناك عشرات الأحاديث التي تحصر أهل البيت عليهم السلام بالخمسة أصحاب الكساء، دون غيرهم من الناس، ومنها على سبيل المثال ما أورده الشيخ موسى عن أم سلمة أنها قالت: «بينما رسول الله في بيتي إذ قالت الخادم:

(١) شرح النهج، المعتزلي، مجلد ٤، ج ١٦.

(٢) السدة: كالظلة التي تقام على الباب لتقي الباب المطر، وقيل هي الباب نفسه، وقيل هي الساحة بين يديه.

(٣) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت،

١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م، ص ٢٧-٢٨.

إن علياً وفاطمة بالسدة، فقال لها: قومي فتنحي لي عن أهل بيتي؟ قالت: ففقت فتنحت في البيت قريباً^(١) فكيف يكون ثوبان من أهل البيت ولا تكون أم المؤمنين أم سلمة منهم؟ ولا سيما وأن الحاكم أورد الحديث في مستدركه مع قول رسول الله الذي خص وحدد فيه أهل البيت: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(٢) وفي لفظ أبي يعلى أن النبي وضع يديه في الكساء فقال: «اللهم إن هؤلاء آل محمد»^(٣) وعن شداد بن عبد الله أبي عمار قال: «دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا علياً عليه السلام، فلما قاموا قال: ألا أخبركم بما رأيته من رسول الله؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة عليها السلام أسألهما عن علي، قالت: توجه إلى رسول الله ومعه حسن وحسين، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ومعه حسن وحسين وأخذ كل واحد منهما بيد، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو كساءه ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق»^(٤)

نعم كان الإمام الحسن عليه السلام كريماً جواداً بالحق والعدل والإنصاف دون حاجة إلى وسخ معاوية، والكتب والمؤلفات التي تحدثت عن كرمه كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر: المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي، وفيه شواهد على كرم الإمام الحسن عليه السلام، وكذلك هناك روايات عن كرمه في كتب كثيرة أخر.^(٥) وقد استغل السياسيون هذه الخلقة

(١) حليم آل البيت، حليم آل البيت الحسن بن علي، ص ٥١.

(٢) المصدر نفسه، حليم آل البيت الحسن بن علي.

(٣) المصدر نفسه، حليم آل البيت الحسن بن علي.

(٤) المصدر نفسه، حليم آل البيت الحسن بن علي، ص ٢٧.

(٥) أعيان الشيعة، تحقيق السيد حسن الأمين قدس سره ابن المصنّف، طبعة دار التعارف

الكريمة في أخلاقه وحولوها إلى منفذ للطعن فجعلوا من الكرم إسرافاً من أجل المتعة الشخصية عن طريق الزواج غير المعقول، ثم ادّعوا أن الإمام عليه السلام مع كل الإسراف والتبذير، كان لا يقيم مع المرأة التي يتزوجها أكثر من أيام معدودات، لأنه كما يدعون يعرف أن خزائن العراق العلوي والشام السفلي عامرة بالذهب والفضة وبيوتات الكوفة عامرة بجميالات النساء! ومن تحسّنُ بعينه منهم تستحق الجزاء الأوفى، فيمد لها بالمدة ويسمح لها بالبقاء معه أكثر من غيرها، وقد ذكروا: «إنه نام مع امرأته خولة بنت منظور الفزاري، وقيل: هند بنت سهيل فوق أجار^(١)، فعمدت المرأة فربطت رجله بخمارها إلى خلخالها، فلما استيقظ قال لها: ما هذا؟ فقالت: خفت أن تقوم من وسن النوم فتسقط، فأكون أشأم سخلة على العرب. فأعجبه ذلك منها، واستمر بها سبعة أيام بعد ذلك» يا للهول، سبعة أيام طوال معها، لأنها قالت بحقه كلمة كبيرة وعظيمة.. إذن كم كان يبقى مع الخرساء منهم؟!!

لقد صاغوا قصص التبذير المزعومة لتبدو وكأنها من سمات كرمه الكبير، ولذا قالوا: «وقد كان من الكرم على جانب عظيم. قال محمد بن سيرين: ربما أجاز الحسن بن علي الرجل الواحد بمائة ألف. وقال سعيد بن عبد العزيز: سمع الحسن بن علي إلى جانبه رجلاً يدعو الله أن يملكه عشرة آلاف درهم، فقام إلى منزله فبعث بها إليه. وذكروا أن الحسن رأى غلاماً أسود يأكل من رغيف لقمة، ويطعم كلباً هناك لقمة، فقال له: ما

للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م ٤ / ٩٠٨٩، تاريخ ابن كثير ٨ / ٣٨، والطبقات الكبرى للشعراني ١ / ٢٣، ودائرة المعارف للبستاني ٧ / ٣٩ وفي إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، تقديم بدوي طبانة، تصوير مكتبة كرياضه فوترا - سماراغ - إندونيسيا، كتاب الكتروني، المكتبة الوقفية، ٣ / ١٧٣، والكامل للمبرد ٢ / ١٣، وخصال الصدوق ١٣٠ / ١٣١ ومناقب ابن شهر آشوب ٢ / ٢٣ وغيرها.

(١) الأجار: السطح بدون ساتر.

حملك على هذا؟! فقال: إني أستحي منه أن أكل ولا أطعمه. فقال له الحسن: لا تبرح من مكانك حتى آتيك. فذهب إلى سيده، فاشتراه واشترى الحائط الذي هو فيه، فأعتقه وملكه الحائط، فقال الغلام: يا مولاي، قد وهبت الحائط للذي وهبني له^(١). ولكي تنظلي لعبتهم على السذج من الناس ادعوا بأن الإمام علي عليه السلام كان كثير الانزعاج من تبذير ولده الحسن.!

(١) البداية والنهاية، ص: ١٩٦، ج ١٣.

انزعاج الإمام علي عليه السلام

مصطلح أهل البيت يشمل النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، وهم الخمسة أهل الكساء، ثم يمتد ليشمل التسعة المعصومين من ذرية الحسين ﷺ، بدلالة قوله عليه السلام: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي». ولقد قامت علاقة فريدة بين أهل الكساء ولاسيما منهم الذين تجالوا بعضهم مع بعض تختلف كلياً عن أي نوع آخر من العلاقات في المجتمع الإسلامي، ولأننا نتحدث في هذا البحث عن الإمام الحسن عليه السلام سيكون حديثنا منصباً على علاقته بالمعصومين الأربعة ومنها علاقته بجده النبي ﷺ، ولقد أوردت في البحث عشرات الأحاديث التي تتكلم عن هذه العلاقة، ولكنني سأورد في هذا المبحث حديثاً أخرجه الطوسي في (الثاقب في المناقب) عن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه عليه السلام عن حذيفة بن اليمان قال: «بينا رسول الله ﷺ على جبل أحد في جماعة من المهاجرين والأنصار إذ أقبل الحسن بن علي عليه السلام يمشي على هدوء ووقار، فنظر إليه رسول الله، فرمقه من كان معه، فقال له بلال: يا رسول الله ما ترى أحداً بأحد؟ فقال: إن جبرائيل يهديه وميكائيل يسدده، وهو ولدي والظاهر من نفسي، وضلع من أضلاعي، هذا سبطي وقرّة عيني بأبي هو. وقام وقمنا معه وهو يقول: أنت تفاحتي وأنت حبسبي وبهجة قلبي، وأخذ بيده فمشى معه»^(١)

وهذا الفكرة يترجمها حديث آخر بنفس المضمون الفريد يؤكد أن الحسن عليه السلام ثمرة

(١) في رحاب الإمام الحسن المجتبي، قسم الثقافة والإعلام، الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الكاظمية المقدسة، ١٤٣٣هـ، ص ١١ عن الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي، ص ٣١٦-٣١٩.

فؤاد النبي ﷺ، عن أنس بن مالك قال: «دخل الحسن على النبي ﷺ فأردت أن أميطه عنه، فقال ﷺ: ويحك يا أنس، دع ابني، وثمرة فؤادي، فإن من آذى هذا أذاني، ومن أذاني فقد آذى الله»^(١) وحديث آخر عن ابن عباس قال: «اتحد الحسن والحسين عند رسول الله ﷺ فجعل يقول: «هي يا حسن، خذ يا حسين. فقالت فاطمة: تعين الكبير على الصغير؟ فقال: إن جبرائيل يقول خذ يا حسن»^(٢) وحديث آخر عن أبي سعيد الخدري: «إن رسول الله دخل على ابنته فاطمة وابناها إلى جانبها وعلي نائم فاستسقى الحسن فأتي ناقة لهم تحلب فحلب منها ثم جاء به فنازعه الحسين أن يشرب قبله حتى بكى، فقال: يشرب أخوك ثم تشرب، فقالت فاطمة: كأنه أثر عندك منه؟ قال: ما هو بأثر عندي منه وإنهما عندي بمنزلة واحدة، وإنك وهما وهذا المضطجع معي في مكان واحد يوم القيامة»^(٣) وحديث آخر من طريق عبد الرحمن بن مسعود عن أبي هريرة، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا فقال: من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»^(٤).

وكانت نظرة الإمام علي لولده الحسن عليه السلام من المصدر والمنبع نفسه فمن كلام له لابنه الحسن عليه السلام في وصية طويلة: «وجدتك بعضي، بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي»^(٥) بل إن الإمام علي عليه السلام كان يبجل الحسين لأنه كان يراهما أبناء رسول الله ﷺ،

(١) الصواعق المحرقة، ابن حجر، ص ١٤٢.

(٢) حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٥) في رحاب الإمام الحسن المجتبي، قسم الثقافة والإعلام، ١٤٣٣هـ، ص ١٦.

ففي صفين لما رأى جميل جهاد محمد بن الحنفية، قال: «أشهد أنك ابني حقاً، فقيل له: يا أمير المؤمنين الحسن والحسين أيضاً ابنك؟ فقال: هما ابنا رسول الله»^(١)

إن إيراد هذا الكم من الأحاديث يأتي للتقديم إلى ما نسبوه إلى الإمام علي عليه السلام بأنه كان كثير الانزعاج من ابنه الحسن عليه السلام الذي وصفه بكل تلك الأوصاف الجميلة الرائعة، غير ملتفتين إلى التعارض الكبير بين الفهمين والواقعين والحقيقتين. وأجد حقاً أنه ليس من اليسير جمع كل الافتراءات التي وجهت للإمام الحسن عليه السلام بفعل أو بقول فهي من الكثرة بمكان أنها ملأت بطون الكتب؛ فأشكل بعضها على الناس وشتت فكرهم فاعتقدوا بصحة بعضها بالرغم من بيان ووضوح بطلانها وكذبها. ولكي نعرف طرائق هذا الدس السياسي أورد في أدناه نقولاً مختلفة لتكون مدخلي إلى لب وصلب الموضوع وأترك لكم مقارنتها مع قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إن جبرائيل يهديه وميكائيل يسدده، وهو ولدي والظاهر من نفسي، وضلع من أضلاعي، هذا سبطي وقرّة عيني بأبي هو» وقول الإمام علي: «ووجدتك بعضي، بل ووجدتك كلي»

• النقل الأول: أورده ابن سعد في طبقاته: «إن علياً مرّ على قوم قد اجتمعوا على رجل، فقال: من هذا؟ قالوا: الحسن. قال: طحن إبل لم تُعوّد طحناً، إن لكل قوم صُدّاداً وإن صُدّادنا الحسن»^(٢)

ولكي نعرف معنى هذا القول الشطط المنسوب إلى سيد البلاغة الإمام علي عليه السلام، يجب أن نعرف معنى صفة (صُدّاد) التي قالوا أنه وصف بها ابنه الحسن عليه السلام الذي هو بعضه بل كله، فمعرفة معناها تبرئ علياً وحسناً عليه السلام، وتتهم من جاء بها بكل مساوئ

(١) ينظر: أبناء الزهراء أبناء الرسول، الشيخ رضا الأستاذي، مركزه، قم، إيران، ١٣٨٨هـ،

التاريخ، فالصُّداد في المعجم الرائد: دابة صغيرة من جنس الجرذان، والصداد: سام أبرص.^(١) وفي تاج العروس: الصداد: الحية، ودويبة من جنس الجرذان، أو سام أبرص، وقيل الوزغ.^(٢)

فهل يعقل أن يصف الإمام علي عليه السلام ولده وحبيب قلبه الذي سبق وأن قال له: «أنت بعضي بل كلي» بمثل هذا الوصف؟ وكيف يبيح المسلم لنفسه أن يرتكب مثل هذا الحمق والجرم الحقير فيتهم الإمام الحسن عليه السلام ويصفه بهذا الوصف على لسان الإمام علي عليه السلام؟ كم من سوء ارتكبه من أوجد هذا القول السخيف؟ وماذا سيقول الله تعالى غداً؟ وأرى والله أن مجرد وجود هذا الحديث في تاريخنا المستباح يصبغه بسواد لا يدانيه سواد الكون كله، ويؤكد أن السياسيين الذين باعوا دينهم بدنيا زائلة كانوا على استعداد لارتكاب أخس الجرائم وأحقرها لكي ينفسوا عن حقدهم الدفين على أهل البيت الكرام، ولذا تراهم يضعون مثل هذه الأقوال السخيفة ليتهموا الإمام علي عليه السلام بأنه لم يكن يثق بقدرات ابنه الحسن عليه السلام، وأنه كان يغتابه من وراء ظهره ويشنع به، وهذا مناقض ومخالف لما نعرفه عن خلق الإمام علي عليه السلام، ويتعارض بشدة مع الثقة التي أولاها الإمام علي لابنه الحسن عليه السلام في الأقل خلال الحروب التي وقعت في خلافته حيث كان الحسن عليه السلام أحد أهم قواده العسكريين، وقد كلفه أكثر من مرة ليحشد له الأمة ويحثهم على الإسهام في القتال، وكان الناطق الرسمي باسم أبيه. وفي أخبار حرب الجمل أن الإمام علي عليه السلام حينما توجه إلى ذي قار ونزلها، أرسل الحسن عليه السلام إلى الكوفة مع عمّار بن ياسر، وزيد بن صوحان، وقيس بن سعد ليستنفروا أهلها لمساعدته على طلحة

(١) الرائد معجم لغوي عصري، جبران مسعود، دار العلم للملايين، سنة النشر: ١٩٩٢.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، الناشر:

طبعة الكويت، ص ٢٠٨٦ فصل الصاد المهملة مع الدال.

والزبير. وتأتي أهمية هذا العمل من أن الإمام (عليه السلام) كان قد أرسل قبل ذلك وفداً من كبار قواده وزعماء جيشه، ففشلوا في مهمتهم، حيث اعترضهم أبو موسى الأشعري، ولم يستجيب لطلب الإمام علي (عليه السلام). لكن مع وصول الإمام الحسن (عليه السلام) استجاب الناس لندائه وخرج معه إلى البصرة اثنا عشر ألفاً.

• النقل الثاني: وروى أيضاً عن المسيّب بن نجبة قال: «سمعت علياً يقول: ألا أحدثكم عني وعن أهل بيتي؟ أمّا عبد الله بن جعفر فصاحب لهو، وأمّا الحسن بن علي فصاحب جفنة وخوان فتى من فتیان قريش، لو قد التقت حلقتا البطان لم يغن في الحرب عنكم شيئاً، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا»^(١)

وحلقتا البطان لغة، كما في معجم المعاني: والتقت حلقتا البطان: كناية عن اشتداد الأمر. وفي الموسوعة الثقافية: يضرب في الحادثة إذا بلغت النهاية. وفي العجم الوسيط: يقال: فلان عريض البطن: رَخِيّ البال. والجمع: أَبْطَنَة، وَبُطْنٌ. وفي المعجم الرائد: البطان: حزام يجعل تحت بطن الجمل أو الفرس. وفي معجم اللغة العربية المعاصر: البطان: جمع أَبْطَنَة: نطاق، حزام يُشَدُّ على البطن.

وفي كتاب الجليس الصافي: قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ: «وَأَزْدَحَمْتَ حَلَقَتَا الْبَطَانِ بِأَقْوَامٍ وَطَارَتْ نَفُوسُهُمْ جَزَعًا، وَيَقُولُونَ: التَقَّتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ وَالْحَقْبُ، وَمِنْهُ: أَشَدُّ بِمَشْنَى حَقْبٍ حَقْوَاهَا وَيُقَالُ حَقْبُ الْبَعِيرِ إِذَا صَارَ الْحَزَامُ فِي الْحَقْبِ»^(٢)

(١) ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى القسم الناقص ج ١، ص ٢٩٧، شرح نهج البلاغة - ابن

أبي حديد، م ٤، ج ١٦، ص ١١.

(٢) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى

الجريري النهرواني (ت ٣٩٠هـ)، تحقيق عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت -

ومعنى هذا أنهم أرادوا القول: إن الإمام علي عليه السلام وصف ابنه الإمام الحسن عليه السلام بأنه لا يغني في الحرب شيئاً، ولا ينفع إذا تأزمت الأمور، وهذا مخالف لإجماع المؤرخين الذين أكدوا أن الحسن عليه السلام كان حبيب علي عليه السلام، وأنه اشترك في حرب الجمل إلى جنب أبيه، وحمل رايته وانتصر بها على الناكثين، وفي صفين جمع المهمتين سوية حيث حمل الراية وخاض الحرب، فضلاً عن قيامه بتعبئة المسلمين للجهاد، وبذل جهده لإحباط مؤامرة التحكيم، والاحتجاج على المنادين به.

لقد شارك الإمام الحسن عليه السلام في جميع الحروب التي شنتها السياسيون ضد الإمام علي عليه السلام، وفي تحكيم صفين، ويوم النهروان، وكان يبرز إلى ساحة القتال كلما اقتضى الأمر، بل كان يندفع ويتسرع إلى الحرب، قاتل في معركة صفين كما قاتل من قبل في معركة الجمل، ولقد أفادت بعض الروايات أن الإمام علي كان يمنع الحسين عليه السلام من النزول إلى ساحة القتال خشية أن ينقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وآله، كما في قوله لأصحابه: «املكوا عني هذا الغلام لا يهدني، فإنني أنفسُ بهذين يعني الحسن والحسين على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله». ^(١)

• النقل الثالث: روى ابن عساكر وغيره: «إنَّ الحسين قال للحسن: أعيذك أن تكذب علياً في قبره وتصدق معاوية، فقال الحسن: والله ما أردت أمراً قط إلا حالفني إلى غيره» ^(٢)

وهي رواية مخالفة للعقل والنقل ومتعارضة مع ما نقله المؤرخون عن العلاقة المتينة

لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(١) نهج البلاغة: من كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين، وقد رأى ابنه الحسن يتسرع إلى الحرب.

باب خطب أمير المؤمنين: ٢٠٧.

(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج ١٢، ص ٢٦٧.

القائمة على الاحترام المتبادل بين الحسنين عليهما السلام.

هكذا عمل السياسيون بجد لتحطيم سياج القلعة الحسنية، وبهذا الأسلوب التفاهة والدس الرخيص حاربوا ذكره العطر، ولكن أنى لهم أن يقنعوا بهذه الأقوال الباطلة الفاشلة إلا من هو هابط إلى مستواهم الدنيء؟ فضلاً عن ذلك سترد في البحث أنموذجات أُخر من هذه الأقوال السخيفة، سوف نوردها في محلها، وهدفنا من إيرادها التوضيح أن ما أراده السياسيون من كل الافتراءات والأكاذيب السياسية هو تشويه نقاء صورة الإمام الحسن عليه السلام والإيحاء للأمة بأن الإمام علي عليه السلام كان غير راضٍ عنه، والمؤسف أنهم نجحوا في ذلك بعض النجاح، في الأقل مع قومهم، ومن يؤمن بحديثهم.

الزواج السياسي

إن السياسيين الدنيويين لم يفهموا التطاول على هذا الطود الشامخ والقمة الباسقة والمناضل الصلب؛ فادعوا زوراً وهتافاً إن سلوكه في التبذير وكثرة الزواج والطلاق أغضب علياً عليه السلام، الذي ادّعوا أنه لم تكن له سيطرة على نزوات ولده الحسن؛ فاتجه إلى أهل الكوفة مخاطباً وراجياً يطالبهم بعدم تزويج الحسن عليه السلام، كما في قول السيوطي: «وقد كان علي يقول لأهل الكوفة: لا تزوجوه فإنه مطلق. فيقولون: والله يا أمير المؤمنين لو خطب إلينا كل يوم لزوجناه منا من شاء، ابتغاء في صهر رسول الله»^(١) والمنكر أنهم يعزّون سبب انزعاج الإمام علي عليه السلام إلى دافع سياسي بحث لا علاقة له بالجانب التربوي والأخلاقي، يعزّونه إلى خوفه من انفراط عقد تحالفاته مع القبائل؛ وليس من تكرار حالات الزواج الشاذة وغير المعقولة لولده، وهذا ما أكدّه ابن سعد في روايته التي قال فيها: إن الإمام علي كان يخاف أن تثور عليه القبائل بسبب تطليق الحسن لبناتهم، بمعنى أنه كان منزعجاً من كثرة زواج الحسن خوفاً من العداء السياسي الذي ممكن أن يقع بينه وبين القبائل العربية لا أكثر؛ فروى في طبقاته رواية منسوبة إلى علي عليه السلام تدعي أنه قال: «ما زال الحسن يتزوج ويطلق حتّى خشيت أن يكون يورثنا عداوة في القبائل»^(٢)

ولأهمية الحديث عن الزواج السياسي بنظر السياسيين وحدهم أقول: لا تخفى العلاقة الوثيقة بين السياسة ومصطلح الزواج السياسي، فالمصطلح بالرغم من تأخر

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ١٩١.

(٢) الطبقات الكبرى القسم الناقص ابن سعد، ج ١/ ص ٣٠١.

صياغته نابع أساساً من عمق الفكر السياسي القديم، ودالاً عليه ومتأثراً به، وهو بالتالي احد مصاديق التلاعب السياسي التاريخي حتى في حقبة العصر الجاهلي.

ويقصد بمصطلح الزواج السياسي أو المصاهرة السياسية: تلك الزيجات التي تقف وراءها المصلحة السياسية المتبادلة (مثل محاولة أرباب السلطة حصر الامتيازات السياسية فيما بينهم، أو الرغبة في الوصول إلى تقلد المناصب الإدارية أو السياسية أو العسكرية أو محاولة الاستيلاء على السلطة أو بهدف كسب ود بعض الدول المجاورة)^(١) ولذا نجد للأسف الشديد أن هناك بعض الكتاب والباحثين والمؤرخين اتهموا النبي الأكرم ﷺ بتهمة عقد الزيجات السياسية بالرغم مما ينطوي عليه هذا السلوك الشائن من مكر وخداع واحتيال؛ ربما لأنهم عجزوا عن تفسير حالات الزواج المتكرر للنبي من بعض النساء دون غيرهن مثل زواجه بريحانة بنت عمرو بن خنافة القرظية في غزوة بني قريظة، وزواجه بجويرية بنت الحارث في غزوة بني المصطلق، وزواجه بصفية بنت حيي في غزوة خيبر، ولا أدري إن كانوا قد عدّوا زواجه بعائشة زوجاً سياسياً أيضاً بعد أن قالوا: إنه تزوجها في المدينة المنورة وهي لما تتجاوز الست سنين من عمرها بعد، بينما كان عمره الشريف أكثر من خمسة وخمسين عاماً.

وبناء عليه أرى أنه ليس غريباً على هؤلاء، وهم السياسيون المحنكون الذين يربطون كل تصرف يبدر من كبير على أنه سلوك سياسي أو أنه جاء بدوافع سياسية، أن يظهروا علياً ﷺ وكأنه من صنفهم، يتأثر مثلهم بالسياسة ويتنازل لضغوطاتها كما يفعلون، فيطعن بكبير أولاده وخليفته الحسن ﷺ بحجة أن تكرار طلاق الحسن لنساء القبائل العربية سوف يخلق خلافاً سياسياً بين أهالي المطلقات والخليفة!

(١) الزواج السياسي في عصر المهاليك ٦٤٨-٩٢٣هـ، الدكتور فاضل جابر ضاحي والدكتور ثامر نعمان مصطفى، ط٢، دار رند للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠١٠، ص ٩.

وبالتالي يتبين وبشكل واضح مما أورده ابن سعد وغيره في النصوص السابقة أن عقول أعداء الإمام الحسن (عليه السلام) كانت محصورة في إطارٍ سياسية خالصة، وإن كل سلوكهم وتفكيرهم كان محصوراً في السياسة وحدها، بما لم يدعُ مجالاً للدين أو للقيم والأخلاق والصدق والنزاهة أن تجد مكاناً في تلك العقول. وأن السياسيين نجحوا في التأثير في المؤرخين فجعلوهم يكتبون ما يريدونه. ومع أنه من المفروض بالمؤرخين الذين جاؤوا بعد هؤلاء أن يمتحنوا النصوص قبل نقلها، إلا أن امتداد أثر الدفع السياسي بدا ظاهراً حتى على المتأخرين منهم؛ حيث نجد السيوطي يأخذ بقول ابن سعد (حتى خشيت أن يكون يورثنا عداوة في القبائل) ولا يكتفي به، وإنما يضيف إليه اسم القبيلة التي ينتسب إليها من ادعوا أنه رد على الإمام علي (عليه السلام)، حيث تبين حسب السيوطي أنه من قبيلة همدان، بالرغم من أن ابن سعد لم يورد هذا الاسم، ولكن السيوطي قال بملء فيه: «وأخرج ابن سعد عن جعفر بن محمد قال: قال علي: يا أهل الكوفة لا تزوجوا الحسن فإنه رجل مطلق، فقال رجل من همدان: والله لنزوجنه، فما رضي أمسك، وما كرهه طلق»^(١)

أي أنهم ادّعوا بأن أهل الكوفة لم يسمعوا نصيحة أميرهم علي (عليه السلام)، بل وتحذوه بأنهم سيقون يزوجون الحسن (عليه السلام) بناتهم ليلهو معهن ويستأنس بجمالهن؛ (كل ذاك ابتغاء في صهر رسول الله) كما تقول الرواية، وما يستنتج من هذه الرواية الموضوعية أن الحسن (عليه السلام) كان كثير الزواج كثير الطلاق في الكوفة التي عاش فيها ثلاث سنوات مفعمة بالمؤامرات والحروب والسفر والجهاد، وهذا وحده دليلٌ كافٍ لنفي هذه التهمة وتقويض هذه الرواية من جذورها.

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٩١.

وبسبب هذه الرواية وأخواتها من الموضوعات تحولت قصص زواج الإمام الحسن عليه السلام إلى موارد شائبة ينهل منها المحب ظناً منه أنه يخدم قضية الحسن، ويلغ فيها المبعض ظناً منه أنه يسيء إليه، فلا المحب وفّاه حقه ولا الشانئ أطفأ نوره، وكلاهما أساء إليه من حيث يدري أو لا يدري، ففي تنمة القصة المختلفة عن رد الهمداني على أمير المؤمنين علي عليه السلام، ادعوا أن رد الهمداني المنق أسعد علياً فنسى أنه قسيم الجنة والنار بالنص، فارتجل قائلاً:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وفي هذا تعارض مع ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله أن علياً قسيم الجنة والنار، وأظن أن المادح أغفل ذلك فأورد بيت الشعر ظناً منه أنه يمدح علياً وحسناً عليه السلام وهمدان! أما اختيار السياسيين لرجل من همدان لينسبوا إليه اعتراضه على قول علي عليه السلام، وهو القول الذي انطلى حتى على بعض رجال مدرستنا، فإنه بكل تأكيد لم يأت جزافاً ولم يأت من فراغ، بما يؤكد للمرة الألف أن السياسيين كانوا بارعين في صنعتهم، إذ جاء اختيارهم للهمداني تبعاً لما يعرفونه عن العلاقة المتينة بين قبيلة همدان وأهل البيت عليهم السلام، فبعد أن انتشرت إشاعة مقتل قيس بن سعد في صفوف جيش الحسن الذي كان مرابطاً في المدائن؛ وخروج الخوارج والمدسوسين عليه وانتهابهم ركبه؛ بادر الإمام الحسن عليه السلام لطلب الدعم من أقرب الناس إليه، وكانت همدان إحدى العشيرتين اللتين طلبهما دون باقي الناس، فقال: «ادعوا لي ربيعة وهمدان، فدعوا له، فأطافوا به، ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم»^(١) ومن هنا أخذ السياسيون قصة معارضة همدان للإمام علي عليه السلام وتأييد الإمام الحسن عليه السلام؛ ووضعوها بهذا المضمون الفجج التافه.

(١) مقاتل الطالبين، ص ٧٠-٧٣.

فضلاً عن ذلك بيّنت قصصهم الموضوعة أن الحسن عليه السلام كان يختار من كل عشيرة عربية امرأة ليتزوجها، وكأنه يريد أن ينشئ جامعة العشائر والقبائل العربية، أو أنه يريد إفساد الود بين أبيه والقبائل العربية كلها، كما مر في حديثنا عن الزواج السياسي، فمنقرية، وكلبية، وثقفية، وعلقمية، وسبيعية وشيبانية، وتيمية، وخثعمية، وقرشية، وكندية، وقضاعية، وفزازية، وقيسية، وتيمية، وأنصارية، وبجلية، وهمدانية، وفارسية، ومن قبائل أخر نجهل أسماءها، لأن المؤرخين يجهلون لها ليس لقصور في الفهم والتذكر، وإنما لأنها لم تكن موجودة على أرض الواقع أصلاً، ولذا لم يسيروا إليها في أحاديثهم. وأسأل هنا: إذا ما كان الهمداني قد تحدى علياً عليه السلام ولم يأخذ بمنعه تزويج الحسن عليه السلام لأن همدان تحب أهل البيت، هل يعقل أن رجال جميع القبائل العربية كانوا على القول نفسه فلم يأخذوا برأي علي وزوجوا بناتهم الحسن بن علي عليه السلام بالرغم من علمهم أنه سيطلقهن بعد يوم أو أكثر، وبالرغم من أن فيهم من لم يكن يهوى أهل البيت عليهم السلام مثل قوم الأشعث والخوارج وغيرهم؟

واقعاً أنا لا أدري كيف تستقيم مثل هذه الروايات الفجّة مع روايات قوية أخر تؤكد أن الإمام علياً عليه السلام هو الذي خطب لأبنائه الحسن والحسين عليهما السلام نساءً اختارهن وزوجهن لهما ومنهن (شاهربانو) بنت كسرى التي زوجها للإمام الحسين عليه السلام كما يروي البلاذري، وبنات أمريء القيس اللواتي خطبهن للحسن والحسين عليهما السلام؛ حيث خطب علي عليه السلام بناته لولديه الحسن والحسين فقال أمريء القيس: «قد أنكحتك يا علي الحياة ابنتي وأنكحتك يا حسن سلمى، وأنكحتك يا حسين الرباب، بناقي»^(١)

والنكاية الأعظم أن تجد بعض الروايات تصفه بالمذواق والتي تعني: سريع

(١) ينظر: زوجات الأئمة المعصومين، الشيخ ماجد ناصر الزبيدي، دار المحجة البيضاء،

النكاح سريع الطلاق، وتعني لغة: الملول لما هو فيه، يريد تذوق غيره، وفي الحديث: «إن الله يبغض الذواقين والذواقات»^(١) وفي مكارم الأخلاق: «إن الله يلعن كل ذواق من الرجال، وكل ذواق من النساء»^(٢) ولذا أرى أن الذين اختاروا صفة (مذواق) ليلصقوها بالإمام الحسن عليه السلام ليسوا من الجهال ولا من قلبي العلم؛ وإنما هم من المطلعين على الحديث والسنة ولهم باع طويل في علومها وأسرارها، فالكلمة جاءت لصيقة بموضوعة الزواج والطلاق العبثي، دون غيرهما، وبات كل من يسمع بها يذهب تفكيره إلى الزواج والطلاق العبثي لأن هناك قصص كثيرة من التي تناولت الصفة بالشرح باعتبار أنها وردت في حديث نبوي ينهى عن العبث في الزواج والطلاق بهدف المتعة والتذوق. وقد ورد الحديث بصيغ عديدة منها:

«إن الله يلعن كل ذواق من الرجال، وكل ذواق من النساء»

«لَا أَحَبُّ الدَّوَاقِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَلَا الدَّوَاقَاتِ مِنَ النِّسَاءِ»

«تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات»^(٣)

وفي تفسير الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿مَتَعًا﴾ «قِيلَ: قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الدَّوَاقِينَ وَلَا الدَّوَاقَاتِ»^(٤) ومثله في البحر الزخار.^(٥)

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، باب الذال، ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) مكارم الأخلاق، رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، ص ١٩٧.

(٣) المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة، شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن

محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تفسير الآية ٢٣٦ من سورة البقرة.

(٥) المسند (المعلل الكبير)، للحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (ت

٢٩٢ ج ٨، ص ٢١-٢٢)، والطبراني في الكبير ج ٢٠، ص ١٦٧ وفي الأوسط ج ١٧، ص ١٥٠

وورد الحديث بطرق أخر في ثلاثة مواضع من كتاب الجامع الصغير وهي كالآتي:

«إن الله تعالى لا يحب الذواقين ولا الذواقات»

«تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»

«لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات».

وورد في مجمع الزوائد للهيثمي: عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «لا تُطَلِّق النساء

إلا من ريبة إن الله تبارك وتعالى لا يحب الذواقين ولا الذواقات»^(١)

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة: حدثنا أبو بكر، قال: حدثنا محمد بن فضيل، عن

ليث، عن شهر بن حوشب، قال: «تزوج رجل وامرأة على عهد النبي ﷺ فطلقها، فقال

له النبي: طلقته؟ قال: نعم! قال: من بأس؟ قال: لا يا رسول الله!

ثم تزوج أخرى، ثم طلقها، فقال له رسول الله ﷺ: طلقته؟ قال: نعم! قال: من

بأس؟ قال: لا يا رسول الله!

ثم تزوج أخرى ثم طلقها فقال له رسول الله ﷺ: أطلقتها؟ قال: نعم! قال: من

بأس؟ قال: لا يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ في الثالثة: إن الله لا يحب كل ذواق من الرجال ولا كل ذواق

من النساء»^(٢)

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ.

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار المعروف بمصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم

أبي شيبة العبسي أبو بكر (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة - مؤسسة علوم القرآن، الرياض،

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ج ٤، ص ١٧٢.

فأين هذا المعنى من أحاديث النبي عن الحسن بأنه عليه السلام كان يحب ابنه الحسن عليه السلام، وأن الحسن عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، وأنه إمام قام أو قعد وغيرها؟ هل يتساق معنى كلمة مذواق وحديث النبي عليه السلام عن المذواق مع ما يدعون أن علياً عليه السلام قاله بحق ولده؟ وأي ظلم هو ظلم ذوي القربى لتجد مثل هذه الروايات في كتبنا المعتمدة؟

وأما صفة المطلاق فلا تقل سوء عن غيرها، إذ كيف يستقيم هذا المعنى مع أقوال الرسول الأكرم في الطلاق والمطلاق، وما من كتاب حديث من كتب المدرستين إلا وتجد فيه أبواباً كثيرة لأحاديث كراهة الطلاق، وعلى سبيل المثال لا الحصر تجد البخاري قد خص الطلاق في صحيحه بكتاب ضم تسعة وتسعين حديثاً^(١) وتجد في فروع الكافي كتاب الطلاق متضمناً عشرات الأبواب التي تضم عشرات الأحاديث، على مدى الصفحات من ١٢١١ ولغاية ١٣٠٠، وهو عدد كبير من الصفحات التي تخصص لموضوع واحد.^(٢) فكيف لا يلتفت الإمام الحسن عليه السلام إلى سنة جده وهو المسؤول عن إيصالها إلى الناس، فيعمل بخلافها، فيتزوج ويطلق حباً للمتعة لا أكثر حتى قالوا أن عدد زوجاته فاق التسعمائة؟ وكيف يعقل أن لا يلتفت علماؤنا إلى هذا التناقض فيوردون مثل هذه الأحاديث التي تطعن بإمام معصوم؟

الغريب أني وجدت في البحار قصة أخرى فيها تأكيد آخر على صفة المطلاق، وفيها: «خطب الحسن بن علي إلى عبد الرحمن بن الحارث ابنته، فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه، فقال: والله ما على وجه الأرض من يمشي عليها أعز عليّ منك، ولكن تعلم أن ابنتي بضعة مني وأنت مطلق، فأخاف أن تطلقها، وإن فعلت خشيت أن يتغير

(١) ينظر: صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م، ص

(٢) ينظر: فروع الكافي، ج ٦، دار المرتضى، بيروت، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

قلبي عليك لأنك بضعة من رسول الله، فإن شرطت أن لا نطلقها زوجتك! فسكت الحسن وقام وخرج، فسمع منه يقول: ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقاً في عنقي»^(١) وفي هذه الرواية التي أوردها العلامة المجلسي اتهام صريح للإمام الحسن عليه السلام، بل وإقرار خطي بأنه مطلق! ولا أدري على من نعتب، على السياسيين الذين حاربوا الإمام الحسن عليه السلام ودسوا في سيرته كل تلك الروايات، أم على محبيه الذين فاتهم مكر السياسيين، فأخذوا بأقوالهم ورواياتهم دون امتحان!

وبسبب هذه الروايات السقيمة وغيرها وصلت الجراءة ببعض المدعين إلى أن يدعوا: إن الإمام الحسن عليه السلام كان يطلق أربع نساء دفعة واحدة ويتزوج أربع نساء دفعة واحدة، كما في كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي: «وكان الحسن ربما عقد له أربعة وربما طلق أربعة»^(٢)

إن هذه الصفة التي تدل على الرغبة في التذوق والتمتع هي من صفات السياسيين والخلفاء الدينيين، أخذها أتباعهم عنهم وألصقوها بسيرة الإمام الحسن عليه السلام تشويهاً ودساً وتدليساً وكذباً، فقصّة تطليق الأربع التي تخالف نصوص الشريعة أشتهر بها السياسيون، ومنهم المغيرة بن شعبة الذي أقر قانون سب الإمام علي عليه السلام في الكوفة، وشجع الناس عليه وعاقب من عصيه، حيث «كان للمغيرة بن شعبة أربع نساء، فأقامهن بين يديه صفان وقال: انتن حسان الأخلاق ناعمات الأرداف طويلات الأعناق، اذهبن فانتن طلاق»^(٣) أما مدرستنا الفقهية الشيعية التي أسسها علي والحسن عليه السلام من بعده فلها مبانٍ معروفة في الطلاق عامة وطلاق صاحب الزوجات الأربع خاصة، وفي

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٧١.

(٢) قوت القلوب، أبي طالب المكي، ج ١، ص ٢٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج ٣، ص ٣١.

الحديث عن جميل بن دراج، عن زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا جمع الرجل أربعاً فطلق إحداهن، فلا يتزوج الخامسة حتى تنقضي عدة المرأة التي طلق لا يجمع الرجل ماءه في خمس»^(١)

وعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن علي بن أبي حمزة، قال: «سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الرجل يكون له أربع نسوة فيطلق إحداهن أيتزوج مكانها أخرى؟ قال: لا، تنقضي عدتها»^(٢).

طيب، إذا كانت القبائل كهمدان وغيرها تهتم كل هذا الاهتمام بمصاهرة رسول الله ﷺ؛ فلماذا لم يعلنوا أسماء ذرية بناتهم اللواتي تزوجهن الإمام الحسن عليه السلام؟ لماذا بقي أمر تلك الذرية سراً دفيناً، واكتفوا بعدة أسماء لا تتناسب مطلقاً مع عدد الزوجات المزعوم؟!.

والأغرب أنهم جاءوا بهذا الزيف والبهتان وهم يعرفون قبل غيرهم أن الحسن عليه السلام أقام في الكوفة مع أبيه ثلاث سنين فقط قضاها بحروب امتدت من البصرة إلى الشام إلى النهروان، فأين وجد الوقت لمثل هذا اللهو والعبث؟ ثم أيعقل أن ينقل الإمام المعصوم علي بن الحسين أو الإمام المعصوم جعفر بن محمد عليه السلام هكذا رواية تجرح بعينهم الحسن؟

إن قصص هذه الزيجات الخرافية وأساليب الطعن السياسية وجهان مهمان لعملة واحدة؛ ولذا يجب مناقشتها بعمق وعلمية لكي تتضح الصورة الحقيقية لحياة الإمام

(١) فروع الكافي، ج ٥، ص ١٠٦٨، باب الذي عنده أربع نسوة فيطلق واحدة ويتزوج قبل انقضاء عدتها، حديث رقم ١

(٢) فروع الكافي، ج ٥، ص ١٠٦٨، باب الذي عنده أربع نسوة فيطلق واحدة ويتزوج قبل انقضاء عدتها، حديث رقم ٢.

الحسن عليه السلام المجتمعية. أما قصص الزيجات فقد جاء عنها في التعليقة الأولى من كتاب الإمام الحسن القائد والأسوة للشيخ حسين سليمان قوله: «لقد تحدث المؤرخون عن زوجات الحسن عليه السلام وأكثروا ومال أكثرهم إلى المبالغة في تعدادهن مبالغة لا تعتمد على أساس معقول، فقال بعضهم أن عددهن يتراوح بين الستين والسبعين، وقال البعض الآخر بأنه تزوج بأكثر من مائتين وخمسين امرأة وعلى قول آخر تسعمائة امرأة؛ وأن أباه علياً عليه السلام كان يتضجر من ذلك، ووقف بعضهم منه موقفاً يتسم بالاعتدال والتجرد فقال: بأن تعدد الزوجات كان شائعاً ومألوفاً بين المسلمين، ولم يكن أكثر زواجاً من غيره، وقلّ من مات من أعيان المسلمين عن أقل من أربع زوجات، أما رواية السبعين والتسعين وغيرها من الروايات التي تصفه بأنه مطلق وأن والده كان يقول: لا تزوجوا ولدي الحسن فإنه مطلق فلا مصدر لها إلا المدائني وأمثاله من الكذبة كما يبدو من أسانيدھا. والمدائني والواقدي وغيرهما من المؤرخين القدامى قد كتبوا التاريخ في ظل الحكومات التي كانت تناهض أهل البيت عليهم السلام وتعمل بكل ما لديها من الوسائل على تشويه واقعهم وانتقاماً منهم، ولم يكن حكام الدولة العباسية بأقل سوءاً وتعصباً من أسلافهم الأمويين، فقد شاركوهم في وضع الأحاديث التي تسيء إلى العلويين، وكانوا يحقدون على الحسينيين بصورة خاصة، لأن أكثر الثائرين على الظلم كانوا من أولاد الحسن وأحفاده»^(١)

إن المدائني الذي تاجر بموضوع كثرة الزواج والطلاق، والذي قال كما ينقل عنه

(١) ينظر: الإمام الحسن القائد والأسوة، للشيخ حسين سليمان، كتاب ألكتروني، مكتبة

الحسن العقائدية، قسم التعليقات، التعليقة الأولى.

<http://www.aqaed.com/ahlulbait/books/i-hassan-gh/indexs.htm>

المعتزلي في شرح نهج البلاغة: «وكان الحسن كثير التزوج»^(١) وقال مرة ثانية: «أحصي زوجات الحسن بن علي فكن سبعين امرأة»^(٢) لم يحص من هذه الكثرة المزعومة سوى (١٠) زوجات فقط، كما في قوله: «تزوج خولة بنت منظور بن ريان الفزارية.. وتزوج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله.. وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاري.. وتزوج جعدة بنت الأشعث بن قيس.. وتزوج هند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر.. وتزوج امرأة من كلب.. وتزوج امرأة من بنات عمار بن أهيم المنقري.. وامرأة من ثقيف.. وامرأة من بنات علقمة بن زرارة.. وامرأة من بني شيان»^(٣) فأين هن باقي النسوة؟ ولماذا عجز عن ذكر اسمها واحداً آخر؟

(١) شرح نهج البلاغة، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٨

(٢) شرح النهج

(٣) المصدر نفسه، شرح النهج

الأصل التاريخي لروايات الزواج الخرافي

على ما يبدو، ومن دون شك، أن الذين ألصقوا تهمة كثرة الزواج والطلاق بالإمام الحسن عليه السلام هم السياسيون كما أسلفنا، وعنهم أخذ بعض وليس كل المؤرخين قصصهم، ونقلوها دونما فحص أو تمحيص كما فعل (أبو الحسن علي بن عبد الله البصري) المعروف بالمدايني، وهو من المعاصرين للحكم العباسي، ومن المتهمين بالكذب في الحديث، وصاحب رواية السبعين زوجة. وهو مع قوله ذاك لم يحص للإمام عليه السلام سوى عشر نساء لا غير وعددهن بأسمائهن في كتابه، فأين ذهب باقي النسوة؟ ولماذا لم يذكرهن؟

فضلا عن ذلك هناك (مؤمن بن حسن بن مؤمن الشبلنجي) الشافعي المصري وهو صاحب رواية التسعين زوجة وقد أورد لها رسالة في كتابه (نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي الأطهار)^(١) ولم ينسبها لأحد، والشيخ (أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي) المكي صاحب كتاب (قوت القلوب في معاملة المحبوب)^(٢) صاحب رواية المائتين وخمسين زوجة، ورواية الثلاثمائة زوجة، وكذلك (جلال الدين السيوطي)^(٣) صاحب رواية السبعين زوجة وغيرهم. وعن هؤلاء أخذ المؤرخون والكتاب من

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار عليه السلام، الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي

الشافعي، الدار العالمية، بيروت

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، محمد بن علي بن

عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ) تحقيق الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، ط ٢، دار

الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

(٣) تاريخ الخلفاء، السيوطي

المدرستين الفقهيتين تلك القصص، فأخذها عنهم المستشرقون، وذاعت بين الناس فصدقوها!

أما المؤرخون الآخرون فقد خلت مؤلفاتهم من قصص الزواج ولم يرد فيها ذكر، فلم يردها ابن قتيبة الدينوري ٢١٣-٢٧٦ هـ، ولا محمد بن جرير الطبري ٢٢٤-٣١٠ هـ، ولا أبو الفرج الأصبهاني ٢٨٤-٣٥٦ هـ، ولا أحمد بن إسحاق اليعقوبي المتوفى سنة ٢٩٢ هـ، ولا علي بن الحسين المسعودي ٣٤٦ هـ، ولا علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير ٥٥٥-٦٣٠ هـ، ولا أحمد بن حجر الهيتمي ٨٨٩-٩٧٤ هـ. لم يرد أحد من هؤلاء المؤرخين ولو حديثاً واحداً عن خرافة الزواج، فمن أين جاءت؟ ولماذا انتشرت بهذا الشكل الواسع؟ أليس هو الحقد الأعمى الذي دفع الخلف ليخلدوا تفاهات السلف؟ ليأتي جلال الدين السيوطي المتوفى سن ٩١١ هـ ليعلن هذه الخرافة للملا ويُدعي بأن الحسن عليه السلام تزوج بعدد كبير من النساء خلال عمره القصير؟

وأما أساليب الطعن التي فضحت السر وبينت سبب وضع هذه القصص الخبيثة فقد أورد الشيخ (حسين سليمان) بعضاً منها مثل: ولما قبض المنصور على عبد الله بن الحسن والد الحسينين الثائرين^(١) على الظلم والجور خطب في حشد كبير من الناس ونال من علي بن أبي طالب عليه السلام ومن الإمام الحسن عليه السلام وجميع الطالبين، وكان ممّا قاله: «إن ولد أبي طالب تركناهم والذي لا إله غيره والخلافة، ولم نتعرض لهم لا بقليل ولا كثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فما أفلح وحكم الحكمين، فاختلفت عليه الأمة وافتترقت الكلمة، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه، وقام من بعده الحسن بن علي عليه السلام فوالله ما كان برجل، لقد عرضت عليه الأموال فقبلها، ودس إليه معاوية أبي

(١) طبعاً اولاد عبد الله هم الذين ثاروا وأخذ بجريرتهم، فهو لم يكن ثائراً.

جاعلك ولي عهدي فخلعه وانسلخ له ممّا كان فيه وسلمه إليه، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه»^(١).

المؤسف أن بعض الكتاب والمؤلفين من مدرستنا أخذوا هذه القصص على علاتها وعدّوها بقضها وقضيضها من فضائل الإمام الحسن عليه السلام ومن مفاخره وباتوا يتناقلونها حتى بدت من المسلمات التي لا شي فيها غير مدركين الأثر السيئ الذي تتركه على عقيدتنا وأئمتنا، وقد اعتبر الآخرون ذلك اعترافاً ضمناً بصحة روايات الزواج باعتبار أننا اعترفنا بها وأوردناها في مؤلفاتنا، ومن هؤلاء وهؤلاء أخذ المستشرقون تلك الروايات ووظفوها للدس للإسلام ورسالته؛ وهو ما دفع أحد المستشرقين للقول: «ويعترف الشيعة أنفسهم أنه كان للحسن ستون زوجة وعدد كبير من السرايا أو اللواتي تمتع بهن، وقد ذكر أن عددهن كان بين الثلاثمائة والتسعمائة»^(٢).

وفي ضوء ومضمون هذه الروايات وأمثالها كتب المستشرق (لامنس) عن الحسن عليه السلام قائلاً: «ويلوح أن الصفات الجوهرية التي كان يتصف بها الحسن هي الميل إلى الشهوات والافتقار إلى النشاط والذكاء... ولما تجاوز الشباب وقد أنفق خير سني شبابه في الزواج والطلاق، فأحصي له حوالي المائة زيجة عدداً، وألصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق، وأوقعت علياً في خصومات عنيفة، وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف فقد اختصّ كلاً من زوجاته بمسكن ذي خدم وحشم وهكذا نرى كيف كان يبعثر المال أيام خلافة علي التي اشتدّ عليها الفقر... ولم يكن الحسن على وفاق

(١) الإمام الحسن القائد والأسوة للشيخ حسين سليمان سليمان، كتاب ألكتروني، مكتبة الحسن

العقائدية:

<http://www.aqaed.com/ahlulbait/books/i-hassan-gh/indexs.htm>

(٢) عقيدة الشيعة، رونلدسن، مصدر سابق، ص ٩٠

مع الحسين»^(١).

ينضوي نص (لامنس) على تجنٍ كبيرٍ وتطاولٍ كثيرٍ قد يستغرب البعض صدوره عن مستشرق غربي؛ باعتبار أن المستشرقين محايدون كما هو معروف بين العامة، وقد آن للناس معرفة حقيقة المستشرقين؛ فالموضوعيون منهم قلة قليلة، أما الغالبية العظمى فهم أصحاب مشاريع تخريبية هدفها الأول محاربة الإسلام وتدمير تاريخه، ولناخذ (لامنس) هذا أنموذجاً؛ ونقرأ ما قاله عنه (عبد الرحمن بدوي) في (موسوعة المستشرقين)، قال الدكتور بدوي: «مستشرق بلجيكي، وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تاماً إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها ويعد أنموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين. ولد في مدينة خنث (Gent) وبالفرنسية (Gand) في بلجيكا في أول يوليو سنة ١٨٦٢ م. وجاء إلى بيروت في صباه، وتعلم في الكلية اليسوعية ببيروت. وبدأ حياة الرهبنة في سنة ١٨٧٨ م، فأمضى المرحلة الأولى في ديرٍ لليسوعيين في قرية غزير (في جبل لبنان)، طوال عامين. ثم قضى خمسة أعوام في دراسة الخطابة واللغات. وفي ١٨٨٦ صار معلماً في الكلية اليسوعية ببيروت. وسافر إلى إنجلترا، وإلى لوفان. ووصل إلى فيينا في ١٨٩٦ م وعاد إلى بيروت ١٨٩٧ م، حيث عيّن معلماً للتاريخ والجغرافية في كلية اليسوعيين، ولما أسس (معهد الدروس الشرقية) ضمن كلية اليسوعيين في ١٩٠٧ م، صار فيه أستاذاً للتاريخ الإسلامي. ولما توفي لويس شيخو في ١٩٢٧ م، خلفه لامنس على إدارة مجلة المشرق، وهي مجلة فصلية

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ج/ ٤٠١ ٤٠٢. تم إصدارها على طبعين، الأولى بين ١٩١٣ و ١٩٣٨، والثانية ما بين ١٩٥٤ و ٢٠٠٥، ويتم إصدارها من قبل شركة بريل الهولندية. وقد ظهرت هذه الموسوعة بأكثر من لغة، أما بالنسبة للعربية فقد تم تعريب بعض أجزائها وتنقيحها وصدرت في مصر في الستينات وأعيد طبعها بالشارقة عام ١٩٩٨. ج ١، ص ٤٠١-٤٠٢.

تصدر عن اليسوعيين في بيروت. ولهم مجلة دينية شعبية تبشيرية أخرى تدعى (البشير)، وقد تولّى لامنس إدارتها مرتين قبل ذلك بزمان طويل: مرة في ١٨٩٤م، ومرة أخرى من ١٩٠٠م إلى ١٩٠٣م. وكان لامنس يكتب في هاتين المجلتين مقالات كثيرة، يكتبها بالفرنسية، ثمّ يتولّى غيره ترجمتها إلى العربية، وتنشر باللغة العربية.

وتوفي لامنس في ٢٣ أبريل ١٩٣٧م. وإنتاج لامنس يدور حول موضوعين رئيسيين: (أ) السيرة النبوية (ب) بداية الخلافة الأموية. وله إلى جانب ذلك كتب ودراسات حول موضوعات متفرقة في العقيدة الإسلامية وتاريخ سورية وآثارها.^(١)

وجاء في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا): «هنري لامنس اليسوعي (١٨٦٢-١٩٣٧) من علماء الرهبان اليسوعيين، تخصص في تاريخ الشرق الأدنى وحضارة أهله، وأتقن اللغة العربية. ويعد من أشد المستشرقين تعصباً على الفكر العربي الإسلامي، وقد بالغ في التعصب على الإسلام حتى أعلن المنصفون شكّهم في أمانته العلمية وقالوا: إنّه لا ينسى عواطفه فيما يكتب عن النبي والإسلام، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية كما وصف بإرهاقه للنصوص وتحميلها أكثر ممّا تحتمل، فإذا وجد في الإسلام موضعاً للفضل ذهب بنسبته إلى مصدر غير إسلامي» وكفى بهذين المصدرين فضحاً لدس ودجل هذا المستشرق الذي تناول على الإمام الحسن عليه السلام بسبب كرهه للإسلام^(٢)

ونتيجة تأثره بما نقله السياسيون المسلمون عن الإمام الحسن عليه السلام من مثالب مصطنعة منحولة، فتناقلتها من بعدهم ألسن الكتّاب والمؤرخين، فضلاً عن تأثره بمن سبقه من المستشرقين ومنهم لامنس، استعار المستشرق (رونلدسن) من الأخير

(١) ينظر: موسوعة المستشرقين، لدكتور عبد الرحمن بدوي، لامنس ١٩٩٢.

(٢) الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

قوله «فإن الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والشجاعة والضبط النفسي، والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح»^(١) استعار ذلك ليؤكد من خلاله أن الحسن عليه السلام بسبب (شهوته) للنساء أهمل بناء جوانب شخصيته الأخر ومنها القيادية والعلمية! واستناداً إلى دائرة المعارف نفسها، قال: «وقد قدرت دائرة المعارف الإسلامية شخصيته مختصراً بأن الشهوات النفسية ونقص النشاط والذكاء هما الصفتان الأساسيتان لأخلاقه.... وقد قضى زهرة شبابه في الزواج والطلاق حتى بلغ عدد من تزوجهن المئة وسمي بالمطلاق»^(٢) وهو ما كان السياسيون العرب ييغونه من وراء تلك القصص الخرافية التي نشروها بين الناس، ونسبوها إلى سيرة الإمام الحسن عليه السلام العطرة.

إن مجرد نجاح السياسيين بتحويل موضوعة الزواج من أمر اعتيادي فاش بينهم يمارسونه بأعداد وأنواع وأجناس مختلفة، ومن طبع تطبع به المجتمع العربي في جاهليته أولاً ثم في عصور الفتح الإسلامي في عشرينات القرن الهجري الأول ثانياً، إنما يؤكد أن السياسيين العرب الذين تسلطوا على مقاليد حكم الأمة إنما نجحوا في مسعاهم بفضل حنكتهم السياسية، وهم في مثل هذه الحال قادرون على تلوين المعتقد الإسلامي بالألوان التي يرغبونها ويدفعون الناس إلى التصديق والعمل بها وربما لهذا السبب نجد هناك إلى اليوم من لا يرضى الانتقاص من أولئك السياسيين، أو أن يمتدح أحداً ما أعدائهم. وإلا لماذا يضخم السياسيون عدد زوجات الإمام في وقت يملك كل واحد منهم أضعاف عدد ما تزوج به الإمام؟ لماذا وافقتهم الأمة فعابت على الحسن عليه السلام كثرة زيجاته المزعومة، في الوقت الذي تمتدح فيه كثرة انتقاء الخلفاء والأمراء للإماء والجواري والقيان والغلمان، وتعدّهم فحولاً ورجالاً في غاية التميز؟

(١) عقيدة الشيعة، دوايت م. روندسن، مؤسسة المفيد، بيروت، ١٩٩٠، ص ٨٩

(٢) عقيدة الشيعة، روندسن، ص ٨٩.

وهكذا تتضح الصورة، ويعرف السبب الذي دفعهم لاتهم الحسن عليه السلام بهذه التهمة
الفرية، فمن يبحث في كتب التاريخ لا يجد مبرراً لاتهماتهم الكاذبة إلا بهدف التسقيط
السياسي بكل ما تبيحه السياسة من كذب ودجل حتى من دون أن يحسبوا للإسلام
حساباً، بما يصيبه من أذى على يد الأعداء الذين يستخدمون تلك النقول لطعنه
وتوهينه، ولا سيما إن غالبية المستشرقين الذين أخذوا تلك الروايات هم من رجال
الديانات الأخر التي يتنافس معها الإسلام؛ وقد قال نجيب عقيقي: «ظهر الاستشراق
أول ما ظهر بالربان، وقد اشتهر منهم (جربر) الراهب الفرنسي، قصد الأندلس طلباً
للعلم، ثم أرتحل إلى روما وانتخب حبراً سنة ٩٩٩»^(١)

(١) المستشرقون، بحث في الاستشراق لدى جميع الأمم، نجيب عقيقي، دار المعارف، مصر،

مع الكثرة يسوء الاختيار

يبدو مما ورد في الكتاب العزيز من آيات بينات أن هناك مفاضلة بين الثيبات والأبكار من النساء، حيث يقدم الخطاب القرآني الأبكار على الثيبات كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(١) وهي الآية التي قال صاحب تفسير (الميزان) المرحوم محمد حسين الطباطبائي في معناها: «الطمث الافتضاض والنكاح بالتدمية، والمعنى: لم يمسسهن بالنكاح إنس ولا جان قبل أزواجهن»^(٢) وقال القرطبي في معناها: «أي لم يمسسهن على ما تقدم قبل»^(٣) وقال ابن كثير: ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾: أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن»^(٤) وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لم يمسهن بنكاح فيدميهن إنس قبلهم ولا جان»^(٥).

ولغة، قال الراغب الأصفهاني في شرح معنى الطمث: «الطمث: دم الحيض والافتضاض، والطمث: الحائض، وطَمَتِ المرأة: إذا أفتضها، ومنه استعير: ما طمث هذه الروضة أحد قبلنا، وما طمث الناقة حبل»^(٦).

معنى هذا أن المؤمنين موعودون في الجنة بنساء شابات جميلات أبكار، وهو ما كانت

(١) الرحمن، الآية ٧٤.

(٢) الميزان، تفسير سورة الرحمن، الآية ٧٤.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الرحمن، الآية ٧٤.

(٤) تفسير ابن كثير، سورة الرحمن.

(٥) تفسير الطبري، سورة الرحمن.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب، ص ٥٢٤.

تشتهيه أنفسهم في الدنيا، فهم في حياتهم كانوا يفضلون الأبكار على الثيبات، ولكنهم لا يهتمون بالثيب، فإذا عز عليهم وجود البكر يلجأون إليهن. وفي البخاري وغيره تمنى النبي ﷺ على جابر عندما تزوج ثيباً لو كانت زوجته بكراً يداعبها وتداعبه، قال: «حدثنا أبو النعمان حدثنا هشيم حدثنا سيار عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال: قفلنا مع النبي ﷺ من غزوة فتعجلت على بعير لي قطوف فلحقني راكب من خلفي فنخس بعيري بعنزة كانت معه، فانطلق بعيري كأجود ما أنت راء من الإبل فإذا النبي ﷺ، فقال: ما يعجلك؟ قلت: كنت حديث عهد بعرس. قال: أبكراً أم ثيباً؟ قلت: ثيباً قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ قال: فلما ذهبنا لندخل؛ قال: أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً، أي: عشاء لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة»^(١) وفي الحاشية رقم: ١ قال ابن حجر في الشرح: «قوله (فهلا جارية) أي فهلا تزوجت؟ وفي رواية يعقوب الدورقي عن هشام بإسناد حديث الباب: (هلا بكراً) وهو معنى رواية محارب المذكورة في الباب بلفظ (العذارى) وهو جمع عذراء بالمد».^(٢)

لكن تقديم الخطاب القرآني الثيبات على الأبكار في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ عِنْدَاتٍ سَخَّحَتْ ثِيَبَاتٍ وَأَنْبَكَرَا﴾^(٣) أشكل على البعض مما دفع المفسرين للجوء إلى التعليل والتأويل، فقالوا: «هناك من قال: قدم الثيب لان خديجة وهي أولى زوجاته ﷺ كانت كذلك أو لأن الثيب أكثر نضجاً... وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الخطاب كان موجهاً لزوجات النبي ﷺ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دارالريان للتراث،

سنة النشر: ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م، باب تزويج الثيبات، حديث ٤٧٩١

(٢) فتح الباري باب تزويج الثيبات، حديث ٤٧٩١

(٣) سورة التحريم، الآية ٥

يصبح المعنى: أن يبدله أزواجاً خيراً منك، ثياب (مثلكن) وأبكاراً الخلاصة: التقديم لا يعني دائماً تفضيل المقدم على المقدم عليه^(١) وقال آخرون: «قد يقال في الآية انتقال من الأدنى إلى الأعلى، كأنه قال يبدله ثياب مثلكن وأبكاراً، وهذا كما تقول إن لم تشتره بدرهم فغيرك يشتره بدرهم وبدرهمين، وكذلك الانتقال من الأدنى إلى الأعلى مناسب في الإبدال بمن هو خير في صفة مخصوصة مذكورة كما هو ظاهر، بخلاف ما لو قدم الأعلى وختم بالأدنى المقارب للمبدل منه فهذا لا يشعر بالخيرية كسابقه. وهذا الانتقال في ختام صفاتهن مناسب لما بدأ به في أولها من انتقال فقال: مسلمات مؤمنات»^(٢) وقال الشنقيطي: «وفي تقديم الثياب على الأبكار هنا في معرض التخيير ما يشعر بأولويتهم، مع أن الحديث: «هلا بكاراً تداعبك وتداعبها»، ونساء الجنة لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان، ففيه أولوية الأبكار، وقد أجاب المفسرون بأن هذا للتنويع فقط، وأن الثياب في الدنيا والأبكار في الجنة كمریم ابنة عمران، والذي يظهر والله تعالى أعلم، أنه لما كان في مقام الانتصار لرسول الله ﷺ وتنبههن على ما يليق بمقامه عندهن ذكر من الصفات العالية ديناً وخلقاً، وقدم الثياب، ليبين أن الخيرية فيهن بحسب العشرة ومحاسن الأخلاق»^(٣) ولم يقل الطبري بشأنها أكثر من: «ثياب: وهن اللواتي قد افترعن وذهبت عذرتهن وأبكاراً وهن اللواتي لم يجامعن، ولم يفترعن»^(٤) ولم يقل القرطبي أكثر من: «أي منهن ثيب ومنهن بكر. وقيل: إنما سميت الثيب ثيباً لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام

(١) الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، الرابط:
<http://www.wata.cc/forums/showthread.php?68237->

(٢) شبكة (الربانيين) العلمية، الرابط:
<http://www.alrbanyon.com/vb/showthread.php?t=8474>

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(٤) تفسير الطبري، سورة التحريم، الآية ٥.

معها، أو إلى غيره إن فارقها. وقيل: لأنها ثابت إلى بيت أبويها. وهذا أصح، لأنه ليس كل ثيب تعود إلى زوج. وأما البكر فهي العذراء، سميت بكراً لأنها على أول حالتها التي خلقت بها. وقال الكلبي: أراد بالثيب مثل آسية امرأة فرعون، وبالبكر مثل مريم ابنة عمران. قلت: وهذا إنما يمشي على قول من قال: إن التبديل وعد من الله لنبيه لو طلقهن في الدنيا وزوجه في الآخرة خيراً منهن»^(١).

أردت مما تقدم الوصول إلى محصلتين:

الأولى: أن الكثرة التي يتهمون الإمام الحسن عليه السلام بها دفعته بالتأكيد إلى عدم التوقي في الاختيار؛ لأنه من غير المعقول أن تكون زيجاته وهي بتلك الكثرة التي يصفونها قد حدثت مع أبكار فقط، بل كان الغالب عليها الزواج بالثيبات، لأنهن أقرب منالاً وأيسر تحصيلاً، وفي مثل حال الإمام الحسن عليه السلام التي يقولون عنها أنه كان يتزوج بالساعات لا بالأيام، لا يمكن أن يحصل على البكر إلا بشق الأنفس وقد يتأخر كثيراً بسبب البحث عن بكر. وبالتالي يريدون القول أنه عليه السلام كان يتزوج لمجرد المتعة المؤقتة بحيث لا يفرق بين البكر والثيب، وهذا برأيهم مما يعيبه ويتقص منه. ومن ثم الإدعاء بأن الكثرة نفسها هي التي أوقعته في زيجات غريبة وهو ما يظهره حديث المؤرخين عن زيجات الإمام الحسن عليه السلام الذي فاق كل حديث عن كل سيرته ومنجزه الفكري والعقدي والإنساني والجهادي والإصلاحي.

الثانية: أن حب نسائه له، هذا إذا ما كان حديثهم عن الحب صحيحاً، لا يأتي من كونه الحسن بن علي عليه السلام ربيب البيت النبوي الأشرف؛ وإنما لأنه كان كريماً معهن بلا حدود. وهي نقطة جدية بالتفنيد والتكذيب لأنهم جاءوا بها ليدعموا تهمتهم له بأنه كان مبذراً كبيراً.

(١) تفسير القرطبي للآية

حب نسائه له

ولكي تصبح تلك القصص مقنعة جاءوا بقصة سائدة لها تتحدث عن تعلق نسائه به بالرغم من كونهن لا يقضين معه إلا أياماً معدودات، بل ساعات لا أكثر، ففي تاريخ السيوطي تقول رواية عجيبة: «وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن حسن قال: كان حسن رجلاً كثير نكاح النساء، وكن قلما يحظين عنده، وكان قل امرأة تزوجها إلا أحبته وصبت إليه»^(١) ونقل ابن كثير مثلها ولكن عن علي بن الحسين عليه السلام هذه المرة، قال: «قال الواقدي: حدثني علي بن عمر، عن أبيه، عن علي بن الحسين قال: كان الحسن بن علي مطلقاً للنساء، وكان لا يفارق امرأة إلا وهي تحبه»^(٢) وقال ابن كثير أيضاً: «قال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر عن عبد الله بن حسن قال: كان الحسن بن علي كثير نكاح النساء، وكان قل ما يحظين عنده، وكان قل امرأة يتزوجها إلا أحبته وصبت به»^(٣) ثم نقل السيوطي هذه الحكاية الخرافية مضيفاً إليها جملة (وأحصن تسعين امرأة) بقوله: «وأخرج ابن سعد عن علي بن الحسين، قال: كان الحسن مطلقاً للنساء وكان لا يفارق امرأة إلا وهي تحبه، وأحصن تسعين امرأة»^(٤).

ولكنهم كثيراً ما كانوا ينسون ما يخلقونه من حديث خرافة عن قصص زواج

(١) تاريخ السيوطي، ص ١٩١

(٢) البداية والنهاية، ج ٨، ابن كثير، ص ١٩٧.

(٣) البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٠٨.

(٤) تاريخ السيوطي، ص ١٩١.

الإمام عليه السلام، فيأتون بالمتناقض من دون أن يشعروا بذلك، فكم من رواية بينوا من خلالها أن مطلقات الحسن عليه السلام لم يكن يحببهن كما ادعوا من قبل، ومنها في الأقل رواية أخرجها ابن سعد في طبقاته، وأخرى أوردها المعتزلي في شرح النهج في حديثهما عن زواج الإمام الحسن عليه السلام بهند بنت سهيل بن عمرو^(١) قالوا: إنها كانت متزوجة من عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد^(٢) فطلقها، فتزوجها عبد الله بن عامر بن كريز فطلقها، وتزوجها الحسن من بعده فطلقها، وروى أبو الحسن المدائني أنها: «كانت تقول: سيدهم الحسن، وأسأخاهم ابن عامر، وأحبهم إليّ عبد الرحمن بن عتاب»^(٣)

بمعنى أنها لم تقل: إن الحسن أحبهم إلى نفسها؛ ليتأكد صحة ادعائهم؛ بل فضلت عبد الرحمن عليه في العشق، وقالت: (وأحبهم إليّ عبد الرحمن بن عتاب) فكيف تستقيم الأمور؟!

(١) سهيل بن عمرو هذا هو المفاوض القرشي الصلب القاسي يوم صلح الحديبية.

(٢) أبو عبد الرحمن هذا هو: عتاب بن أسيد الذي عينه النبي ﷺ واليا على مكة يوم أفتتحها ووصله خبر مسير هوازن لملاقاته فخرج من مكة متوجهاً إليهم.

(٣) شرح نهج البلاغة، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٥ وأخرجها ابن سعد في طبقاته، الطبقة الخامسة من الصحابة ج ١ ص ٣٠٣.

معرفة دقائق الأمور

لم يقتصر حديث السياسيين وأتباعهم عن كثرة الزواج والطلاق فحسب، بل تشعب نزولاً إلى دقائق الأحداث، ودقيق علاقته بزوجاته، فمن حديث عن خولة الفزارية التي نام معها على سطح المنزل غير المستور والتي ادعوا أنها ربطت خمارها برجله خشية أن يقوم من وسن فيسقط، إلى حديث عن هند بنت جندل بن سهيل بن عمرو التي تسابق للفوز بها مع يزيد بن معاوية بالرغم من كونها كانت متزوجة بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ثم بعبد الله بن عامر بن كريز من بعده، وهي التي طلقها الأخير بخدعة من معاوية الذي أرسل أبا هريرة ليخطبها لابنه يزيد، فزعموا أن الحسن عليه السلام لقيه على الطريق، وسأله: أين تريد؟ فقال: أخطب هنداً ليزيد بن معاوية! فقال له: فاذكرني عندها، فاختارته وتزوجت به.^(١)

(١) شرح النهج، م ٤، ج ١٦، ص ٥، هنا أود لفت نظركم الكريم إلى واحدة من القصص الخرافية التاريخية الشائعة وهي قصة أرينب بنت إسحاق، زوجة عبد الله بن سلام، وملخصها أن يزيد بن معاوية عشقها فأمره أبوه بكتمان أمره، ثم أرسل إلى زوجها، وكان قد استعمله على العراق، أن أقدم لأمر حظك فيه كامل، فقدم وطلب معاوية من أبي هريرة وأبي الدرداء أن يخبراه أنه يريد أن ينكحها ابنته، وأنه كان قد وعداها أن يجعل لها في نفسها شورى. وكان معاوية قد أوصاها أن تظهره رغبتها في هذا الأمر وأنه لا يمنعه منه إلا أن تحتة أرينب، وأنها لا تتزوجه إلا إذا فارقتها، فأخبره الرجلان بذلك ففرح واشهدهما على طلاق زوجته، ولكن أرينب رفضت الزواج به بحجة أنها وجدته غير ملائم. فلما انقضت عدة أرينب وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد، حتى قدمها، وبها يومئذ الحسين بن علي عليه السلام، فأحب أبو الدرداء أن يلقاه، فأخبره بها وجهه به معاوية، فطلب منه الحسين أن يخطب عليه وعلى يزيد، ولتختر من اختاره الله لها، وأن يعطيها من المهر مثل ما

إلى حديث عن عائشة الخثعمية التي شمتت بموت علي عليه السلام فطلقها الحسن ثم نسي شمتاتها وبكى بعد أن وصله قولها: (متاع قليل من حبيب مفارق) كما زعموا، إلى حديث عن الزواج بامرأة شيبانية من الخوارج، ثم طلقها وقال: «إني أكره أن أضم إلى نحري جمرة من جمر جهنم». إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي التي تقول الأخبار إنه كان يعلم أنها سوف تسقيه سماً يموت بسببه. إلى حديث عن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر التي تزوجها بالرغم من علمه أن المنذر بن الزبير كان يهواها، والتي طلقها بعد أن أخبره المنذر بحديث سوء ملفق عنها. وعن حفصة هذه سأورد روايتين مهمتين:

الرواية الأولى: ذكرها ابن سعد في طبقاته بخصوص حفصة بنت عبد الرحمن، لكي نفصح تلك السياسة الرعناء التي انتهجها أعداء أهل البيت عليهم السلام والتي وصل شرارها حتى إلى بعض من يحبونهم ويقدمونهم فأجج النار في ثيابهم؛ وقصة حفصة التي أوردها ابن سعد في الطبقات جاءت بأسلوب آخر أراد من خلاله القول: إن عين الحسن ما كانت تشبع من رؤية النساء الجميلات فهو مع زواجه بتسعمائة زوجة كما يدعون كان يعشق حتى مطلقاته المحصنات ذوات الأزواج، وكان يتحين الفرص ويتحایل على الناس لرؤيتهن والحديث معهن ومغازلتهن أيضاً، فيا لعارامة تستهين بابن بنت نبيها بهذا الشكل المهين، ويا لعار التاريخ الذي ينقل مثل هذه الروايات الحقيرة.

تقول رواية ابن سعد: «عن سحيم بن حفص الأنصاري، عن عيسى بن أبي هارون

بذل لها معاوية عن ابنة، ففعل أبو الدرداء ذلك. وطلب منها أن تختار، فاستشارته بذلك فاختار لها الحسين، فتزوجها، وساق إليها مهراً عظيماً. ويستحيل عقلاً أن تتطابق هذه القصص الخرافية مع قصة الإمام الحسن عليه السلام مع هند بنت جندل بما يؤكد ويثبت أنها من وضع السياسيين جاءوا بهما لتشويه سيرة الحسن والحسين عليهم السلام.

المزني، قال: تزوج الحسن بن علي حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر^(١) وكان المنذر بن الزبير هويها، فأبلغ الحسن عنها فطلقها الحسن، فخطبها المنذر فأبت أن تتزوجه، وقال: شهرني. فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب، فتزوجها، فرقى إليه المنذر أيضاً شيئاً فطلقها، ثم خطبها المنذر فقبل لها: تزوجيه فيعلم الناس أنه كان يعصمك، فتزوجته، فعلم الناس أنه كذب عليها»

وإلى هنا تبدو القصة بالرغم من غرابتها وتفاهتها مقبولة نوعاً ما كقصة من نسج الخيال الجامح؛ باعتبار أن الطلاق والزواج كان ميسوراً للجميع، وقلما تترك مطلقة فلا تخطب، ولكنهم أبوا أن يقفوا عند هذا الحد، فأوغلوا في الحقد، فجاءوا بشيء إدّ، وهو قولهم بأن طليقها الحسن اتفق مع طليقها الآخر عاصم وذهبا للتحديث معها بإذن زوجها، وأنها بادلت عاصم نظرات الإعجاب والعشق أمام زوجها، وأهملت الحسن الذي كان يهواها بالرغم من كونها متزوجة؛ فلم تحدثه، ولم تنظر إليه، فأغضبه ذلك بسبب الغيرة: يقول هذا القسم من الرواية: «فقال الحسن لعاصم بن عمر: انطلق بنا حتى نستأذن المنذر فندخل عليها، فدخلنا، فكانت إلى عاصم أكثر نظراً منها على الحسن، وكانت إليه أبسط في الحديث، فقال الحسن للمنذر: خذ بيدها فأخذ بيدها، وقام الحسن وعاصم فخرجا. وكان الحسن عليه السلام يهواها وإنما طلقها لما رقا إليه المنذر» والرواية في هذا المقطع تدعي بأن الحسن عليه السلام كان لما يزل يحبها ويعشقها بالرغم من كونها صاحبة بعل وفي عصمة رجل!

ومع كل هذا التناول والقبح لم يسكتوا ولم يتوقفوا بل جاءوا باتهام آخر أشد

(١) لاحظ هنا أن حفصة هذه هي حفيدة الخليفة أبي بكر، وعمها محمد بن أبي بكر صاحب أمير المؤمنين علي، وعمتها عائشة زوج النبي، ومع ذلك لا يتخرجون عن الحديث عنها بهذا الشكل المهين وكأنها بغية من بغايا التاريخ، كل ذلك لكي يطعنوا بالإمام الحسن عليه السلام.

وأقسى من سابقه، حيث نسبوا إلى الإمام الحسن أنه بسبب عشقه لها وميله إليها؛ ما كان يصبر على فراقها؛ فكان يصطحب ابن أخيها إلى بيتها لكي يغازلها عسى أن تلين عريكتها وتطاوله على المنكر، أو تطلب الطلاق من زوجها لتعود له! فقالوا: «فقال الحسن يوماً لابن عتيق وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، وحفصة عمته: هل لك في العقيق؟»^(١) قال: نعم، فخرجا فمرا على منزل حفصة، فدخل إليها الحسن فتحدثا طويلاً ثم خرج. ثم قال الحسن مرة أخرى لابن أبي عتيق: هل لك في العقيق؟ فقال: يا ابن أم، ألا تقول: هل لك في حفصة؟»^(٢) أي أن لعبة الحسن لم تنطلي على ابن عتيق!

الرواية الثانية: أوردها الشيخ موسى محمد علي في كتابه (حليم آل البيت الحسن بن علي) عن عائشة الخثعمية التي قالوا أن الحسن عليه السلام كان يعشقها بجنون، ولكن بسبب شمتها بموت الإمام علي طلقها ثلاثاً بجلسة واحدة وندم ندماً شديداً، لأنه لا يتمكن من إرجاعها إلا بعد أن تتزوج شخصاً غيره! وبالتأكيد هناك عشرات الأسباب التي دعتهم إلى اتهام الحسن بهذه التهمة السمجة، ولقد وجدت أن بعضهم أراد من وراء هذه التهمة فضلاً عن الإساءة إلى الإمام الحسن، تمرير قاعدة فقهية استنبطها علماءهم، واختلفوا بشأنها فيما بينهم؛ تماماً مثل القواعد الفقهية التي مرورها بواسطة حديث «ابني هذا سيد».

وكما هم مختلفون بشأن هذه القاعدة، نختلف نحن معهم كذلك بشأنها، وأقصد بها قاعدة الطلاق بالثلاث اختلافاً كلياً، فالمعروف أن المذهب الشيعي الذي أخذ قوانين وأسس تعبده من أهل البيت الأئمة المعصومين عليهم السلام لا يعمل بقاعدة (الطلاق الثلاث في جلسة واحدة أو بلفظ واحد) كأن يقول لها: طلقك ثلاثاً، أو أنت طالق

(١) العقيق أحد وديان المدينة كان بيت حفصة قريباً منه.

(٢) طبقات ابن سعد، الطبقة الخامسة من الصحابة، ج ١، ص ٣٠٧.

بالثلاث؛ وإن حدثت بعدها طليقة واحدة، ولنا في ذلك مباحث كثيرة، ولكنهم أغفلوها وجاءوا بقصة تظهر الإمام الحسن عليه السلام وكأنه لم يكن يعرف هذه القاعدة، أو أن القاعدة جاءت بعد موته؛ فهي مستحدثة مبتدعة مردودة بزعمهم! وقد قالوا في هذه القصة التي ربطوها بموضوع كثرة زواج الحسن عليه السلام: «وكانت عائشة الخثعمية عنده، فلما قتل علي، قالت له: لتهنك الخلافة، فقال: لقتل علي تظهرين السمات؟ اذهبي فأنت طالق ثلاثاً، فتلفتت بشبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها ببقية بقيت لها من صداقها وعشرة آلاف صدقة، فلما جاءها الرسول قالت: متاع قليل من حبيب مفارق، فلما بلغه قولها بكى ثم قال: لولا أنني سمعت جدي، أو قال: لولا أن أبي حدثني أنه سمع جدي يقول: أيما رجل طلق امرأته ثلاثاً عند الإقراء أو ثلاثة مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره لراجعته»^(١)

إن فقه المدرسة الشيعية مستقى ومأخوذ عن طريق أهل البيت عليهم السلام وفق قاعدة سلسلة السند الذهبية، ومن يؤمن بمثل هذه الأقوال يقطع السلسلة، وهو ما كان يسعى إليه السياسيون في حراكهم كله.

وإتماماً للفائدة أقول: إن رفض العمل بقاعدة التطليق بالثلاث لا تنفرد به مدرستنا؛ فالمدارس الإسلامية الأخر اختلفت فيما بينها بشأنه، فقال الشافعي وأبو ثور وابن حزم وجماعة من أهل الظاهر بمشروعيته وجوازه، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ باعتبار أنه لم يقيد الطلاق فيهما بعدد معين فيصح أن يكون واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً.

وقال جمهور الفقهاء: أنه غير مشروع، مستدلين بقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ أي

(١) ينظر: حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ٨٢-٨٣.

مرة بعد مرة، لا في تكرار القول، وإنما في أصل العمل وفق الشروط الشرعية، ولا من خلال التلاعب باللفظ، واستشهدوا بها رواه محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام عليه غضبان، فقال: «أيلعب بكتاب الله عز وجل وأنا بين أظهركم؟»^(١)

وقال جمهور الشيعة الإمامية وبعض أهل الظاهر وأبو عبيدة: لا يقع به شيء^(٢) وفي مسلم أن ابن عباس قال: «كان الطلاق على عهد رسول الله وأبي بكر وستين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم»^(٣)

وقال ابن قيم الجوزية: «وكل صحابي من لدن خلافة الصديق إلى ثلاث سنين من خلافة عمر كان على أن الثلاث بواحدة... ولهذا ادعى بعض أهل العلم أن هذا إجماع قديم.. بل لم يزل فيها من يفتي به قرناً بعد قرن إلى يومنا هذا»^(٤)

وروى أحمد عن ابن عباس أنه قال: «طلق ركانة بن عبد يزيد امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقته؟ قال: طلقته ثلاثاً، قال: في مجلس واحد؟ قال: نعم، قال: فإنما تلك واحدة؛ فأرجعها إن شئت، قال: فرجعته»^(٥)

فهل يعقل أن يأخذ الحسن عليه السلام بالمتدع من الأحكام والأقوال؛ ويترك سنة رسول

(١) ينظر: الفرقة بين الزوجين وما يتعلق بها من عدة ونسب، علي حسب الله، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩-٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٠.

الله ﷺ الصحيحة، أم أنه كان يجهل حدود الشريعة ولا يعرف الأحكام لكي يوقع نفسه وهما في مثل هذا الحرج؟

فضلاً عن ذلك ورد في الرواية أيضاً قولهم: «فتلفعت بثيابها وقعدت حتى انقضت عدتها) أي أنها بقيت معه في البيت، وهذا مخالف لأحكام الشريعة، لأن هناك في الفقه قواعد للمعتدة، تختلف في المعتدة من طلاق رجعي عنها في المعتدة من طلاق بائن، عن المعتدة من وفاة. والمعتدة من طلاق رجعي هي وحدها التي يجوز شرعاً أن يبقئها الرجل في بيت الزوجية، أما المعتدة من طلاق بائن، فقال بعضهم: لا سكنى لها ولا نفقة ولو كانت حاملاً. فكيف تكون زوجته بائناً، ويبقيها في بيت الزوجية؟

إن قصص الزواج التي أوجدها السياسيون كانت إحدى أدوات الحرب الإعلامية ضد الإمام الحسن (عليه السلام)، ولقد نجحت في تشويه حقائق التاريخ؛ وأظهرت وجهاً لا يمكن أن يوصف به ابن رسول الله وشبيهه وسيد شباب أهل الجنة والمعصوم، وبالرغم من سوءها وضعفها ومخالفة مضامينها لمنهج الإمامة المعصومة، مع كل تلك الدسائس نجحت للأسف بالتسلل إلى عقول الناس؛ بما فيهم بعض رجال مدرستنا حتى حازت رضاهم. ومن خلال متابعتي للكتب القديمة والحديثة التي تناولت قصص زواج الإمام الحسن (عليه السلام) لم أعثر عند أي واحد منهم على ما يثبت صحة تلك الروايات، ولا سيما وأنهم جميعاً عجزوا عن تعداد أكثر من سبع عشرة زوجة، فهل يعقل أنهم لم يتذكروا سوى أسماء هؤلاء النسوة فقط، ولماذا لم يتمكنوا من ذكر أكثر من هذا العدد حتى ولو بقليل، علماً أن هناك من أحصى تسعاً أو عشر زوجات فقط. وبالمناسبة وجدت الحديث عن سبع عشرة زوجة قد ورد ضمن كتاب من كتب مدرستنا يتحدث عن زوجات الأئمة

المعصومين عليهم السلام وليس في كتب المدارس الأخر وتلك من المفارقات الغريبة^(١)

خلاصة ما أريد قوله: يطالبنا بعضهم أحياناً بأن ننسى مصائب التاريخ وأحزانه وأوجاعه ومآسيه وننشغل بالحاضر، وتلك وربي مصيبة ما دونها مصيبة؛ لأن كل ما نعيشه اليوم في حاضرنا المفعم بالمنغصات وثقافة الكراهية والإقصاء، إنما هو وليد حقب التاريخ. ومن لا يفهم تاريخه لا يمكن أن يفهم حاضره، فالماضي ركيزة الحاضر وأساسه، خذ مثلاً العداء الفاشي بين بعض المسلمين المتطرفين والفكر الشيوعي الذي وصل إلى درجة تكفير الشيعة وإخراجهم من ملة الإسلام، وابحث عن أسبابه ستجدها جميعها أسباباً سياسية مصبوغة بصبغة دينية مليئة بإسقاطات الماضي والنزاعات التي دارت فيه، ولا تجد سبباً سياسياً أو دينياً من مواليد الأيام الحاضرة، وإن صدف عثورك على ما يبدو جديداً، فلا تنخدع به لأنك سوف تُفاجأ بروابطه الروحية والعقدية والسياسية مع الماضي.

إن دراسة الماضي بعقلية الحاضر تعدُّ بنجاح ما كان أسلافنا قادرين عليه ولا يتمكنون من الوصول إليه، ولنأخذ مثلاً تلك التهم العظيمة التي اتهموا بها الإمام الحسن عليه السلام، ولا سيما منها تهمة المزواج المطلق النزق؛ ونحللها بعقلية إنسان القرن الحادي والعشرين، ماذا سنجد فيها؟

ولد الإمام الحسن عليه السلام في السنة الثالثة للهجرة وأصبح مستعداً للزواج في سن الرابعة عشر وهي مرحلة الاحتلام، فماذا واجهه في هذه المرحلة؟ أولاً: مات جده النبي صلى الله عليه وآله فترك عنده فراغاً لا يمكن أن يشغله أحد من الناس، ثم بعد ثلاثة أشهر ماتت

(١) ينظر، كتاب زوجات الأئمة المعصومين، الشيخ ماجد ناصر الزبيدي، دار المحجة البيضاء،

بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٣٤-٩٩.

أمه الزهراء عليها السلام فجددت أحزانه، وخلالها أُعْتُصِبَ حق أبيه بالخلافة، فانعزل عن المجتمع وجلس يجمع القرآن ويكتب له الشروح، ثم لما بلغ السادسة عشر بعد سنتين وأشهر تجددت الأحزان بعد أن نص الخليفة أبو بكر على عمر ليكون خليفة من بعده، وفي هذه المرحلة كان مثل والده بعيداً عن الأحداث، حتى انه لم يثبت اشتراكه في الفتوح ولا توجد إشارة إلى ذلك. وبقيت الحال على ما هي عليه حتى بلغ الخامسة والعشرين من العمر، فإن كان قد تزوج في هذه المراحل، وهذا ما حدث بالفعل، ولا سيما وأن والده زوج أخاه الحسين عليه السلام بابنة كسرى في أواخر خلافة عمر، وبما انه الابن الأكبر فمن المؤكد انه كان متزوجاً، ولكن من غير المتوقع أن يكون زوجاً مفرطاً بالمرة، لأنه لا يتناسب مع الظرفين الزماني والمكاني للإمام ولا الحالة النفسية التي كان عليها. وفي السابعة والعشرين من عمرة أصيب بانتكاسة أخرى يوم خذل أصحاب شورى الستة والده بلعبة (سيرة الشيخين) فتجددت الأحزان على مدى عشر سنين أو أكثر مشحونة بالأحداث الجسام، بما لا يسمح له باللهو.

وبعد مقتل عثمان اختارت الأمة علياً عليه السلام للخلافة، ولكن السياسيين الذين كانوا يطمعون بالحصول على الملك اعدوا له مفاجآت لا تحصى لكي يفشلوا مشروعه؛ فكانت الهجرة من المدينة إلى الكوفة، ثم تلتها حروب الجمل وصفين والنهروان التي كان الحسن عليه السلام فيها مقاتلاً وقائداً ومفاوضاً وسفيراً بما شغله عن متابعة حياته العامة والالتفات إلى الحياة ومتاعها. وختمت هذه المرحلة بمقتل الإمام علي؛ والحسن عليه السلام حينها كان لما يزل في أواخر العقد الثالث أو بداية العقد الرابع من عمره، فأستقبلها بنفس ملؤها الألم والحسرة على ما آل إليه أمر الأمة.

وفوق هذا وذاك اختارته الأمة خليفة وقائداً فلم يمضي سوى ثمانية أيام في الحكم

حتى وصلت إليه أنباء مسير جيش الشام لاجتياح عاصمته وقتله، فانشغل بالمراسلات وتجميع الجند والتخطيط لتجنيب الأمة مصائب جديدة بعد الذي عانته على مدى أربعين عاماً، ولم تمض من الشهر السادس من خلافته إلا أيام معدودات حتى عقد الصلح مع معاوية وجلس في بيته يخطط للعودة إلى المدينة وهو ما حدث بالفعل بعد مدة يسيرة.

وكان في المدينة ملازماً لقبر جده النبي ﷺ ومسجده، فإذا صلى الغداة في مسجد النبي ﷺ جلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، فيجلس إليه سادة الناس يسألون عن أمور دينهم ويتحدثون بين يديه. وفي هذه المرحلة جاءه وفد الكوفة يطلبون منه نقض العهد والرجوع إلى الحرب بعد أن أخل معاوية بشروطه، فردهم رداً جميلاً، وقال لهم: «ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً فإن يهلك معاوية ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا وان لا يكلنا إلى أنفسنا فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»^(١) وفيها أيضاً كانت مؤامرة معاوية ويزيد وجعدة في انتظاره. فسقوه السم، وعاش عليلاً لمدة أربعين يوماً، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

هذه خلاصة حياة الإمام الحسن عليه السلام بعجالة، وإن كان قد نجح خلالها بحج بيت الله الحرام أكثر من عشرين مرة سيراً على الأقدام، وبالزواج ببعض النسوة، فتلك وربي من الأمور التي تثبت صلابته وشدة عزمته، ولكن يستحيل مع حياة مفعمة بالمشاغل والمشاكل بهذا الشكل الغريب أن ينجح الإنسان مهما كانت مقدرته الجسدية والمادية بالزواج بأكثر من الحد المعقول.

(١) ينظر: صلح الحسن، راضي آل ياسين: ص ٣٠٢.

الغريب أن بعضهم حاول تبرير تهمة كثرة الزوجات ليس بنفيها وتنزيهه منها، وإنما باعتبار أنها لا غبار عليها، لكونها من عادات تلك العصور أو كما يقول أبو علم: «أما عن تعدد الزوجات وقد صال فيها وجال بعض الجهال، وقد نسوا أن زمن الإمام غير زماننا ومعايره غير معاييرنا، فقد كان تعدد الزوجات في أيام الإمام الحسن عليه السلام مستحسنًا لربط العصبيات والإكثار من الذراري المقاتلين، ولئن كان التعدد مستحباً، لغير أهل البيت فقد كان لهم مستحباً لأن سلالة النبي صلى الله عليه وآله أمان ورحمة لأهل الأرض وزواجه الكثير دليل عظمته الروحية في الناس»^(١).

ولكن مع اعتراضه على الكثرة بدا أبو علم مثل غيره عاجزاً عن معرفة العدد الحقيقي لزوجات الإمام الحسن عليه السلام؛ فاختار رقماً قريباً من الكثرة بعيداً عن حقيقة واقع الحال، فقال في حديثه عن عدد زوجات الإمام: «وقد كان مجموع ما تزوجه خمس عشر وهو رقم لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة»^(٢) هكذا أحصى أبو علم عدد اللواتي تزوجهن الإمام الحسن عليه السلام وهو رقم حتى وإن كان مألوفاً في ذلك العصر بالنسبة لكثير من عامة الناس وفقرائهم إلا أنه غير مألوف لثائرٍ مثل الحسن عليه السلام أعد نفسه للقيام بعمل يتساق مع منزلته الدينية والاجتماعية، ولذا تجد الرواة يتخطون كالغريق في سردهم للقصص الخرافية التي تتحدث عن زواج الحسن عليه السلام. أما علي محمد الصلابي فنقل عن مصادر التاريخ: «وقد ذكر المؤرخون أن من زوجاته، خولة الفزازية، وجعدة بنت الأشعث، وعائشة الخثعمية، وأم إسحاق بنت طلحة بنت عبيد الله التميمي، وأم بشير بنت أبي مسعود الأنصاري، وهند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وأم عبد الله وهي بنت الشليل بن عبد الله أخو جرير البجلي وامرأة من بني ثقيف وامرأة من بني عمرو بن

(١) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص ٩

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٠

أهيم المنقري، وامرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة. وربما تجاوز هذا العدد بقليل، وهو كما ترى لا يمتّ إلى الكثرة المزعومة بصلة، بعرف ذلك العصر. وأما ما رواه رواية الأثر، في كونه تزوج سبعين، وفي بعض الروايات تسعين، وبعض آخر مائتين وخمسين، والبعض الآخر ثلاثمائة، وروي غير هذا، إلا أنه من الشذوذ بمكان، وهذه الكثرة المزعومة موضوعة^(١) ولهذا السبب قال الصلابي: «إن الروايات التاريخية التي تشير إلى الأعداد الخيالية في زواج الحسن بن علي عليه السلام لا تثبت من حيث الإسناد، وبالتالي لا تصلح للاعتماد عليها نظراً للشبه والطعون التي حامت حولها»^(٢) وتلحظ في هذا الاقتباس أن الصلابي استهله بالقول: (وقد ذكر المؤرخون أن من زوجاته) مستخدماً (من) التبعية ليثبت بأن الأسماء التي سيذكرها بعد هذا القول لا تمثل جميع نساء الحسن عليه السلام بل هي جزء وبعض من أسماء زوجاته الكثيرات!

وفي موضوع ذي صلة بتهمة كثرة الزوجات جاء حديثهم عن عدد أولاد الإمام الحسن عليه السلام الذين رزقه الله بهم بسبب العدد الكبير من تلك الزوجات!.

(١) سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب، الدكتور علي محمد الصلابي، ط٨، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٤٣٠ هجرية ٢٠٠٩ م، ص ٢٣-٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦

أولاد الإمام الحسن عليه السلام

من حيث تناول أخبار هذا الافتراء نجد تنوعاً في الروايات التي أوردت أخباراً عن علاقة الحسن عليه السلام بالنساء وهي روايات أزمكت الأنوف برائحها الطائفية السياسية المقيتة فقيل: إنه تزوج (٧٠) أو (٩٠) أو (١٠٠) أو (٢٠٠) أو (٣٠٠) أو (٩٠٠) امرأة حرة، وملك (١٦٠) جارية، بل كان يهدي لمطلقة التي يجلبها مائة جارية بمعنى أن عدد جواريه يفوق كثيراً العدد الذي ذكره، كل ذلك في جزء يسير من السبعة وأربعين عاماً وهو مجمل عمره الشريف. ولكنهم لم يلتفتوا إلى ناحية مهمة أخرى، لا أعرف سبب إغفالهم لها في بداية، لكنني وجدتهم ينتبهون إليها كالمسوع في حراكهم السياسي مع الإمام الكاظم عليه السلام؛ الذي أتهم هو الآخر بنفس الاتهام الباطل، وأقصد بذلك إدعاءهم بأن الإمام الحسن عليه السلام خلف (١٥) ولداً ما بين ذكر وأنثى فقط، فجعلوا للإمام الكاظم (٥٠) أو (٦٠) ولداً لكي لا يقعوا في المطب الخطر نفسه.^(١)

وأؤكد للمرة الألف إن موضوع كثرة الزوجات أدخل إلى سيرة الإمام الحسن عليه السلام بدافع سياسي بحت، بيد أنهم لم يحسنوا سباكته بشكل معقول كما فعلوا في جوانب سياستهم الأخر «وكل ابن أنثى خطأ»، وكانت نقطة ضعف هذا الإدعاء عدد الأولاد الناتج من كل تلك الزيجات بكل أنواعها، فليس من المعقول أن يرزق من يتزوج بتسعمائة أو بثلاثمائة أو حتى بمائة أو بخمسين أو بعشرين حرة وبأكثر من ضعفهن إماءً

(١) ينظر: كتابنا «خرافة كثرة زوجات الإمام الكاظم عليه السلام» الذي فندنا فيه مزاعمهم وكشفنا

بخمسة عشر ولداً وبتناً فقط! كيف وهناك من رزق من امرأة واحدة بأكثر من هذا العدد؟ صحيح أنهم اتهموه بأنه كان يعاشر زوجاته لأيام معدودات ثم يطلقهن، ولكن هل من المعقول أنه كان لا يأتيه أولاد من تلك النساء!؟

لماذا لا يكون نصف عدد المطلقات أو أكثر أو أقل قد علق بهن حمل منه؟ وأين ذهب هؤلاء الأولاد؟ هل تحلى عنهم الإمام وتركهم لمصيرهم المجهول، وهم من نسب العترة الطاهرة المطهرة؟ ولماذا لا نجد لهم ذكراً، ولم يذكرهم أحد من المؤرخين؟ ثم ألم يقولوا أن القبائل كانت تحب أن يتزوج الحسن عليه السلام من نسائهم حبا بمصاهرة أهل البيت عليهم السلام ليفخروا بذلك على باقي القبائل، فلماذا سكت هؤلاء عن التفاخر بأولاد الحسن عليه السلام من بناتهم، ولم يوردوا لهم ذكراً؟ لماذا تجد المؤرخين بكامل العجز والقصور عن الوصول إلى الحقيقة، وتجدهم بالرغم من كثرة حديثهم عن الزواج، لم ينجحوا إلا في إحصاء عدد محدود من أولاده؟، وحتى الأرقام الهزيلة التي أوردوها تختلف من قول إلى آخر، ولكنها تدور على مدار ضيق جداً بين الثمانية والستة عشر فقط، فهل يُعقل ذلك لكي يقول اليعقوبي: «وكان للحسن من الولد ثمانية ذكور» ^(١) أو ليقول أبو إسحاق السعدي الجوزجاني: «خلف الحسن بن علي بن أبي طالب حسن بن حسن وعبد الله بن حسن وعمرو بن حسن وزيد بن حسن وإبراهيم بن حسن» ^(٢).

وقد يبدو رقم (١٥) الذي اختير ليكون مدار الحديث عن ذرية الحسن تافها جداً نسبة إلى عدد ما تزوج به الإمام من النساء، ولا يمكن مقارنته بالأرقام (٦٠-٧٠-١٠٠-٢٠٠-٣٠٠-٩٠٠) التي اختاروها عدداً لزوجاته.

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٨.

(٢) الدولابي، مصدر سابق، ح ١١٥، ص ٧٢، وقال في الهامش: صحيح من قول الجوزجاني.

الملفت أن بعض علماء مدرستنا أوردوا ما يقارب تلك الأرقام، ولكنهم لم يعلقوا عليها، حيث تجد في موسوعة الحسن قولهم: «له من الأولاد ستة عشر ولداً ذكراً وأنثى»^(١) وتجد الشيخ المفيد يقول: «أولاد الحسن بن علي خمسة عشر ولداً ذكراً وأنثى وهم: زيد بن الحسن وأختاه أم الحسن وأم الحسين أمهم أم بشير بنت أبي مسعود عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجية، والحسن بن الحسن أمه خوله بنت منظور الفزارية، وعمرو وأخواه القاسم وعبد الله بن الحسن أمهم أم ولد، وعبد الرحمن بن الحسن أمه أم ولد، والحسين بن الحسن الملقب بالأثرم وأخوه طلحة بن الحسن وأختها فاطمة بنت الحسن أمهم أم اسحق بنت طلحة بن عبد الله التيمي، وأم عبد الله وفاطمة وأم سلمة ورقية بنات الحسن عليه السلام لأمهات شتى»^(٢) وكان المفروض بهم أن يبحثوا عن أسماء أمهاتهم لكي ينفوا التهمة عن الحسن.

فضلاً عن ذلك أجد السياسيين وضعوا قومهم في ورطة كبيرة حينما تكلموا عن زواج الإمام المتكرر بأعداد خيالية وأرقام قياسية من النساء، ثم سكتوا عن ذريته من هذه الأعداد، فاختلف هؤلاء في عدد أولاده واحتاروا، بحثاً عن تعليلات لعدم التوازن هذا، فقد روي: أنهم اثنا عشر، ثمانية ذكور وأربع إناث، وقيل ستة عشر الذكور أحد عشر والإناث خمسة، وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل.

ثم لما تبينوا الورطة التي أوقعوا أنفسهم فيها كان الأمر قد خرج من بين أيديهم ولم تعد لهم قدرة إجراء التصحيح، فلجأوا إلى حيلة أخرى ادعوا فيها أن جميع أولاد الإمام الحسن عليه السلام على كثرتهم كانوا مصابين بالعقم فلم يخلفوا، إلا الحسن المثنى، أو الحسن

(١) موسوعة الحسن:

<http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/awlad.html>

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج ٢ ص ٢٠.

وزيد، وهو ما فضحهم؛ لأنهم أرادوا بهذه الكذبة أن يقنعوا أتباعهم بأن قلة ذرية الحسن عليه السلام تأتي من كون أولاده على كثرتهم لم يخلفوا فانقطع ذكرهم! والظاهر أن هذا العمل السياسي انطلت؛ حيلته علينا أيضاً ففي كتاب كشف الغمة، قال الأربلي: «كان الحسن عليه السلام له من الأولاد عدد لم يكن لكلهم عقب بل كان العقب لأثنين منهم»^(١).

إن ورثة المشروع السياسي، مع الورطة الكبيرة التي وضعهم آبائهم وأشياخهم فيها؛ صاروا يبحثون عن منافذ تعينهم في إدامة روح التشتت عند الناس، لكي لا يلتفتوا إلى تلك التناقضات، فأخذوا يأتون ببدعٍ ومنكرات هدفها دفع الناس للتشكيك بالعقائد التشريعية لمدرستنا، كما في قول الكاتب فواز الفواز: «لماذا أولاد وأحفاد الإمام الحسين معصومين وأولاد وأحفاد الإمام الحسن وهو الابن البكر للخليفة الرابع والإمام غير معصومين؟ هل هنالك أفضلية للإمام الحسين على أخيه الكبير الإمام الحسن؟ هل المعصومية حصراً بأولاد وأحفاد الحسين ولماذا؟ من الذي أجاز أن تكون المعصومية بأولاد الإمام الحسين فحسب؟... كيف نرفع قيمة أولاد الابن الصغير ونقلل من قيمة أولاد الابن الأكبر؟ هل كان أولاد وأحفاد الحسن لا يستحقون هذه المعصومية، ولماذا؟ هل الفكرة كلها مرتبطة بزواج الإمام الحسين بحفيدة كسرى شهربانو أو شاه زنان؟ لو كانت حفيدة كسرى زوجة الحسن بدلاً من زواجها من الحسين هل نشهد الفكرة بالمعكوس، أي هل سيصبح أولاد الحسن معصومين وأولاد الحسين غير معصومين؟ هل لأن بعض أولاد الإمام الحسن أسمائهم عمر وأبو بكر وبهذا لا يستحقون أن يدخلوا تحت خيمة المعصومية؟ هل نتزوج من الفارسيات حتى نحتمي جلودنا من نار جهنم؟ أفتونا مأجورين»^(٢) ولا يخفى على اللبيب القصد من هذه المهاترات الكلامية الفارغة

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة، قال أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي

(٢) موقع كتابات، فواز الفواز، مقال بعنوان (لماذا أولاد الإمام الحسين معصومون وأولاد

التي ترتبط بالمشروع السياسي القديم.

كلمة أخيرة، إن كثرة عدد الأولاد كان فاشياً عند المسلمين لا في صدر الإسلام وحده، بل وحتى في العصور المتأخرة ولا زال إلى يومنا الراهن، لا فرق بين فقير وغني، ويقال: إن ذلك نابع من حث رسول الله ﷺ للمسلمين على الإنجاب، كما في قوله: «تناسلوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم» وحديث «تزوَّجوا الودودَ الولود؛ فإني مكاثِر بكم الأمم يوم القيامة». وقد بلغ عدد أولاد عمر بن الخطاب (١١) ولداً، وأولاد عثمان (١٥) ولداً، والوزير بن العوام (٢٤) ولداً، وعبدالرحمن بن عوف (١٨) ولداً، وطلحة بن عبيدالله (١٠) لديه عشرة أولاد، وعتبة بن أبي لهب (١٢) ولداً، والحارث بن نوفل (١٥) ولداً. بل إن رئيس وزراء ووزير خارجية قطر الحالي، الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني يملك (١٥) ولداً، وهو بالتأكيد لم يتزوج نساء كثيرات، وقد قال النويري عن سليمان بن عبد الملك: «وقيل: إنه كان له من الأولاد الذكور أربعة عشر»^(١) لذا لا عجب أن يكون للإمام الحسن عليه السلام خمسة عشر أو عشرين ابناً من عدد معقول من النساء، لكن العجب العجيب أن يدعي المدعون بأنه رزق هذا العدد من تسعمائة زوجة.!

إن كل ما تقدم من حديث عن الزواج والأولاد جيء به ليكون داعماً لجهدهم الحربي الأول لتقويض التجربة الحسنية من كل جوانبها، ويأتي الثبات الحسني بالشكل الذي هو عليه ليخلد ذكره وتموت ذكراهم، وليثبت بأن كل سعيهم ذهب هباء لأنه زبد لعبت به ريح الزمان.

الإمام الحسن غير معصومين؟) نشره يوم السبت، ٢٧ تشرين الأول، ٢٠١٢ في الرابط
<http://kitab.com/ar/page/27/10/2012/5300>

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ج ٢١، ص ٣٥٤.



الفصل الثاني

صدق الأئمة وكذب السياسيين

صدق الأئمة وكذب السياسيين

إن القواعد العامة للدين وللأخلاق ثابتة لا تتغير، فالكذب هو الكذب، والصدق هو الصدق، والخيانة لا يمكن لها أن تلبس لباس الطهر، والعفة لا تشبه التهتك في أي زمان ومكان، وأقرب المدارس الفقهية إلى روح العقيدة هي المدرسة التي تلتزم بالمبادئ على حقيقتها وتعرف أوجه الحكم الفقهي الثابتة التي لا تقبل التأويل، وعليه نجد مثلاً أن الكذب في الفقه الشيعي تنطبق عليه الأحكام الخمسة بحسب منظور الحكم، فهو حرام ومباح ومكروه ومستحب وواجب. وهو عندنا في الغالب من الكبائر؛ ومن القبائح العقلية التي يجب اجتنابها ابتداءً. أما في فقه المدارس الأخر فهو بعنوانه الأولي من الصغائر ويتحول إلى كبيرة بعنوانه الثانوي. وهو عند كل المسلمين واحد من ثلاث خصال تجعل المرء منافقاً؛ ذلك بقول رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وقد جمع السياسيون الدنيويون هذه الخصال ثلاثها وأجادوها؛ فحدثوا وكذبوا، ووعدوا واخلفوا، واثتمنوا فخانوا الأمانة. كذبوا في حياتهم وفي الأعم الأغلب من أقوالهم، ويجد المدقق الحصيف أن الكذب السياسي هو الذي وضع قواعد تعامل المدارس الأخر مع الكذب عامة، لدرجة أنهم أجازوه للأنبياء كما في البخاري وغيره عن كذبات النبي إبراهيم الثلاث مثلاً^(١) بمعنى أن السياسة أدخلت الكذب ضمن

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ النساء ١٢٥، حديث رقم ٣٣٥٨، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦ هـ) دار إحياء

المسوغات العامة بعد أن حولته إلى واقع؛ ومنه تسلل إلى الفقه والعقائد ولوّنها بألوان سياسية.

وفي الوقت الذي نجدهم فيه يُجوّزون الكذب والخداع في الحرب لتضليل العدو استناداً إلى حديث (الحرب خدعة) الذي رواه البخاري، إلا أنهم أوجبوا أن لا يكون الكذب أو الخداع منضوياً على نقض عهد أو إخلال بأمان. ومع ذلك ضرب معاوية بهذا الاستثناء المهم عرض الحائط ونقض عهده مع الحسن عليه السلام دون أن يعييه أحد.

ومعنى هذا إن السياسيين لم يستسيغوا الكذب السياسي فحسب، وإنما كذبوا لتزييف التاريخ ومصادرة حقوق الآخرين حتى في الأولوية والسبق الإيماني، لدرجة أنهم صاروا يتهمون الناس بالتأخر عن قافلة الإسلام وينسبون السبق إلى أنفسهم، وما هم إلا طلقاء من نسل الطلقاء، ناسين أن الناس تعرف تمام المعرفة بأنهم هم من منع الناس من دخول الدين، وفي الروايات: «دخل حويطب بن عبد العزي على مروان بن الحكم وهو على المدينة. فقال مروان: ما سنك؟ فأخبره، وكان قد بلغ المئة والعشرين، فقال له مروان: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث؟ يشير إلى أنه لم يسلم إلا بعد فتح مكة! فقال حويطب: الله المستعان. لقد هممت بالإسلام غير مرة، كل ذلك يعوقني أبوك عنه وينهاني ويقول: تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعاً؟! فسكت مروان»^(١).

ولقد عشنا في زمن أثبت لنا أن سياسة الكذب الموروثة ما زالت ناشطة عند أحفادهم فاعلة في ثقافتهم، مؤثرة في سياستهم، متحكمة في قراراتهم، لم تهن ولم

التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١، ص ٥٩٧

(١) المستطرف الجديد، حكايات من التراث، هادي العلوي، ط ٢، مركز الأبحاث والدراسات

الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، ص ١٣-١٢.

تضعف بتعاقب الدهور، وهم على نهج أسلافهم يعتقدون من الناحية الشرعية عدم جواز الانتخابات البرلمانية وعدم جواز المشاركة السياسية والعمل الحزبي في الحركات التي اندلعت في الوطن العربي بمسمى (الربيع العربي)، ومن هؤلاء التيار السلفي في مصر الذي بقي مصرّاً على أنه مجرد مدرسة يقتصر نشاطها على طلب العلم الشرعي وتصحيح العقيدة والتمسك بالكتاب والسنة والابتعاد عن العمل السياسي، ولكنهم ما إن سقطت الحكومة حتى زاحموا أصحاب الحق ومن تحمل ثقل الثورة وانتزعوا مكاسبها رغماً عن الجميع، وكأن التاريخ يعيد نفسه!

هذه المقدرة على التلون الحزبي غيّرت قناعات الأمة وعقائد الأفراد وزرعت الازدواجية في سلوك المسلمين بعد أن أفسدهم الأمراء والعلماء الفاسدون، ينسب إلى النبي ﷺ قوله: «صنفان من أمتي إذا صلحنا صلح الناس وإذا فسدنا فسد الناس: الأمراء والعلماء» فعاشوا في ظاهريهم خلاف ما في بواطنهم يسرقون ويزنون ويشربون الخمر ثم في ساعات الصحو يكون ندماً من تلك الآثام ولكنهم لا ينتهون عنها، قالت فاطمة بنت الحسين: «دخل علينا العامة الفسطاط بعد مقتل الحسين وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب فجعل رجل يفض الخلخالين من رجلي وهو يبكي. فقلت ما يبكيك يا عدو الله؟ قال: كيف لا ابكي وأنا أسلب ابنة رسول الله! فقلت: فلا تسلبني. قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه!»^(١)

إن السياسيين بعد أن تمكنوا من السيطرة على مقاليد أمور الأمة خدعوا أنفسهم وخدعوا الناس معهم، خدعوا أنفسهم يوم ظنوا أنفسهم أسياد البشر في جاهليتهم وإسلامهم تبعاً لحديث أخرجه عن أبي هريرة: «قيل للنبي: من أكرم الناس؟ قال:

(١) المستطرف الجديد، ص ١٥.

أكرمهم اتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»^(١) وخدعوا الناس بعد أن أغوتهم الدنيا بنعيمها، أخرج ابن الأثير في تاريخه عن عمار بن ياسر قوله في وصف الأمويين: «ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرواوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً». أما من لم ينخدع منهم فجعلوا السيف حكماً بينهم وبينه فأذعن بالتهديد والوعيد، ففي مجلس شامي عرض معاويةبيعة يزيد ابنه ولياً للعهد فكثر الأخذ والرد وأنقسم الناس بين مؤيد ومعارض، فقام رجل وخطب قائلاً: «أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية. فإن مات فهذا، وأشار إلى يزيد. فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: أجلس فأنت سيد الخطاء».

ومع كل حركة يأتون بها كان الكذب والتعليل الأجوف دواءً يداوون به غضب الناس الذين يستهجنون أعمالهم، روى الطبري في تاريخه أن معاوية أراد في سنة خمسين من الهجرة نقل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام ليفرغ مهبط الوحي من معناه القدسي عند الناس، «قال محمد بن عمر: وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله أن يحمل إلى الشام، فكُسِفَت الشمس حتى رُئِيََت النجوم بادية يومئذ، فأعظم الناس ذلك فقال: لم أرد حمله إنما خفت أن يكون قد أَرِضَ»^(٢) فنظرت إليه، ثم كساه يومئذ»^(٣)

(١) صحيح البخاري ص ٢٤٢ ج ٢ كتاب بدء الخلق، باب أم كتتم شهداء، دار الفكر بيروت

بغداد ١٩٨٦.

(٢) أَرِضَ: أي أصابته الأرضة.

(٣) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٩٦٩.

إن خلفاء وأمراء يسوسون الناس بهذه الأخلاق ويعلمونهم تلك القيم لا يمكن إلا أن يحرفوا المجتمع عن مسيره الإسلامي الصحيح ويدخلوه في متاهات الانحطاط الخلقي، وبالتالي ليس من المستغرب أن تصدر عنهم أسوأ أنواع ردود الفعل، وخير دليل على ذلك أن معاوية أخلف ما تعاهد عليه مع الإمام الحسن عليه السلام، واعترف بذلك صراحة بقوله: «إني منيت الحسن وأعطيته أشياء جعلتها تحت قدمي، لا أفي بشيء منها له»^(١) وكفى بذلك دليلاً على شدة الانحراف.

وخلفاء وأمراء يتهم بعضهم بعضاً بالكذب وخيانة الأمانة ثم يتهمون وكلاءهم ويتهمهم الوكلاء بالخيانة يعيشون أدنى مراحل الانحطاط الخلقي، ففي العقد الفريد: «تعقب عبد الملك بن مروان ضيعة له في الغوطة أيام معاوية فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك إني لأظنك تخونني؟ فقال الوكيل: أفتظن ذلك ولا تستيقنه؟ فقال مروان: وتفعله؟ قال الوكيل: نعم والله إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شر الثلاثة» هذه هي المعادلات الحاكمة لسلوك وسياسة وعقيدة السياسيين الدينيين الذين ما كان يهمهم قتل ابني بنت رسول الله عليه السلام ما دام ذلك يحفظ لهم عز دنياهم، ومع هؤلاء كان مقدراً للإمام الحسن عليه السلام أن يتعامل.

أما المعادلة الحاكمة في حركة أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام فتنتطلق من مزيد محاولات تقويض قدرات السياسة العربية وتأثيراتها على المجتمع وفق رؤى المنهجية الإسلامية وسياستها؛ فهم عليهم السلام لم يلتفتوا إلى مزايا وقدرات السياسة الدنيوية وما يمكن أن توفره من معطيات ومزايا حركية سريعة ومتلونة ومشحونة بالكذب والخداع والدجل والظلم؛ ولذا أحجموا عن التعامل معها وأصروا على العمل وفق رؤيتهم

(١) إرشاد الشيخ المفيد، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢ .

الدينية المحضة، وقد بدأ نشاط هذه الممارسة في خلافة الإمام علي عليه السلام، وهنا تحديداً بانتم ملامح انشقاق المجتمع الإسلامي إلى شقين: الأول عقائدي ديني بقيادة الإمام المعصوم، والثاني سياسي دنيوي بقيادة السياسيين، وهذا هو الاختلاف الحقيقي بين التنصيب الرباني وما سواه، ثم لما أيقنت الناس، أو بدأت توقن بأن هناك خطأ تقود حياة الإسلام بعضها إسلامي ثابت والآخر بعيد عن الإسلام كلياً، ولكنه يتمظهر بواقع إنساني إسلامي؛ كان لابد للسياسة دفاعاً عن نفسها أن توجد خطأ متوازية تتخذها درع حماية، ولم يكن لديها أكبر من حقيقة التنصيب الإلهي للتشكيك في صحته من خلال إسقاط مساوئها على نقائه ليبدو للناس وكأنه بنفس السوء الذي عند السياسيين بل أسوأ، فأظهروا تعلقهم بما يعرف بنظرية الحق الإلهي واستعاضوا بها عن التنصيب الرباني عسى أن ينجح ذلك في رفع بعض أطراف نظرة الناس السيئة عنهم.

نظرية الحق الإلهي

في حديثه عن الإسلام والسلطة الدينية قال محمد عمارة: «وفي فترات من تاريخ حضارتنا الإسلامية تسربت عناصر من هذه النظرية (يقصد نظرية الحق الإلهي) إلى قطاع محدود من الفكر السياسي، ودعا إليها نفر قليل من مفكري الإسلام هم أئمة الشيعة، كما تسربت عناصر من هذه النظرية إلى عقول عديد من المستبدين والحكام والسلاطين، فأعاقت تطور الأمة وأثقلت عقلها بالقيود ودفعتها دفعا إلى مرحلة الجمود والتخلف التي شملت عالم الإسلام وكبلته وأثختته بالجراح لعدة قرون»^(١).

إن التنصل الذي يريد الدكتور عمارة تمريره يعد من التداعيات الخطيرة لمناهج السياسة الدنيوية التي طالما سعت إلى التنصل من القبائح وعصب الأمر برأس أئمة الشيعة، بالرغم من كونهم لم يقيموا دولة الإسلام حتى في عصر خلافة علي عليه السلام؛ بعد أن انبرى السياسيون الدنيويون وجردوهم من صلاحياتهم سواء بشن الحروب كما حدث مع علي والحسن عليهما السلام أو بالقتل الثأري كما مع الحسين عليه السلام أو بالحجر والسجن والمطاردة والقتل كما حدث مع الثمانية الباقين، ولو كانت لهم سلطة على المهدي المنتظر عليه السلام لأحقوه بآبائه. ولقد وقع الباحث عمارة في خلط كبير فتحدث بخلاف ما قدم حينما أراد التوسع في شرح مقاصد كلامه، فأخذ ما اتصف به السياسيون الحكام الذين قادوا الأمة منذ الصلح مع الحسن عليه السلام وإلى بدايات القرن العشرين بعد سقوط الدولة

(١) الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، الدكتور محمد عمارة، ١٤٠٩-١٩٨٨، دار

الشروق، القاهرة، ص ١١٠-١١١.

الثمانية وادعاه جزافاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فقال: «ولقد كانت الدعوة إلى السلطة الدينية وصبغ نظم الحكم وسلطات الحاكم بصبغة الدين وتوحيد السلطتين: الدينية والزمنية في سلطة واحدة.. كانت الدعوة إلى هذا اللون في السلطة فكراً وتطبيقاً تنطلق أحياناً من منطلق التبرير لمظالم السلطة البشرية القائمة ومحاولة تأييد الجور وتأييده عن طريق الزعم بأن سلطان هذه السلطة وسلطاتها إنما هي ذات طبيعة دينية، فالصلة بينها وبين السماء، ووكالتهما عن الله، فحسابها أمامه وإليه، وليس للأئمة دخل أو مدخل في كل هذه الأمور»^(١)

إن تبرئة السياسيين الدنيويين من جريمة إذلال الأمة بنظرية الحق الإلهي واتهام أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنهم أصحاب هذه النظرية، واتهام التشيع بأنه موجد هذه النظرية، يدفعنا إلى الحديث عنها لكي يوضح العلم والعقل المدعين ويرى الطاهرين من محاولات تلويث نقاء سيرتهم العطرة الطاهرة. ولما كان مصطلح (نظرية الحق الإلهي) غير معروف آنذاك فإن أفعال السياسيين كانت توحى بأنهم يريدون إسباغهم على أئمة أهل البيت عليهم السلام بمعناه العام، وهو المعنى التاريخي لكل نظرية من النظريات الفكرية المعاصرة، فالمتفق عليه أن أغلب النظريات الفكرية المعاصرة كانت معروفة بشكل أو بآخر في الأزمنة القديمة، ولكنها تفتقر إلى التسمية والتقنين؛ فجاء المفكرون والعلماء المعاصرون ووضعوا لها أسماء ونسبوها إلى أنفسهم، ثم بدأ بعضهم ولاسيما أحفاد السياسيين منهم بإجراء المقارنات والمقاربات بين القديم والجديد ليثبتوا صحة منهجيتهم، أو ليخدعوا الناس.

ولذا تجد في أقوال المفكرين المعاصرين فلتات كبيرة تنحو بك إلى معرفة حقيقة

(١) المصدر نفسه، الدولة الإسلامية

مغيبة لا يريدون التصريح بها بحكم خضوعهم للولاء الطائفي، ولكنها تتفلت منهم عنوة وتعلن عن نفسها صراحة ووضوحاً مهما ألبت من ثياب لإخفاء الملامح، مثال ذلك نجد للدكتور محمد عمارة قولاً مفاده: «إن مرد الكثير من نقاط الضعف والسلبيات والمظالم التي يعاني منها المسلمون اليوم هو سلب السلطة الحقيقية والسلطان الفعلي من جماهير المسلمين سواء أكان ذلك لحساب استعمار قديم أو آخر جديد. وسيان كان المستبد دون هذه الجماهير بالسلطة والسلطان غريباً عنها أم يتزيا بزيتها ويتحدث لغتها ويؤدي مثلها شعائر دينها، أو حتى يؤمها في أداء شعائر هذا الدين الحنيف»^(١) وهي حقيقة يعرفها المسلمون كلهم ولكن الدكتور لم يصرح بل موه بإدعائه أن السلطة سلبت من الجماهير المسلمة. وإلا فمن يا ترى سلبت السلطة والسلطان الفعلي؟ ولماذا هذا التعتيم؟ هل هو حقاً كما أراد الباحث أن يقول أي أنها سلبت من (جماهير المسلمين)؟ ومتى كان للجماهير صوتاً مسموعاً عبر التاريخ البشري كله لكي يكون للجماهير المسلمين الأوائل صوتاً مسموعاً وسطوة سلطانية وهم الذين لم يتمتعوا بحرية الإسلام التي أطلقت أصواتهم عالية إلا مع رسول الله ﷺ وفي عصره؛ ثم سلب منهم هذا الحق وصودرت حريتهم لتتم قيادتهم على هوى حكام رسموا لهم خرائط طريقهم وأمروهم بالسير عليها بعد أن أجبروهم على الإيمان بأنهم يُحكمون ويقادون بموجب نظرية الحق الإلهي، إن الباحث استخدم نفس الأسلوب التمويهي الذي استخدمه السياسيون الدنيويون باستخدامه مصطلح (جماهير المسلمين) الذي هو ترجمة حرفية لما يعرف بـ (السيادة الشعبية) ويعود تاريخ هذه الفكرة إلى عهد الفيلسوف أرسطو، وتعدُّ الشعب هو صاحب السيادة. وهي إحدى نظريات النظم السياسية مثلها مثل نظرية الحق الإلهي ونظرية العقد الاجتماعي وغيرها. ولماذا لا نجد إشارات صريحة

(١) الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، الدكتور، ص ١٢.

لمن يدعون بأنهم مفوضون بقيادة الأمة على أنهم هم الحكام الشرعيون وهم من سلبت منهم السلطة لتتحول إلى هوس دنيوي لا علاقة له بالدين؟

ثم لماذا نجد السلطويين الدنيويين يهتمون كثيراً بالحق الإلهي ويعتبرون أنفسهم مخولين من الله للتحكم بمصير الأمة وهو ما لم يدعيه النبي الأكرم ﷺ ولا أحد من أئمة أهل البيت الكرام؟ هل تجد في شريعة الإسلام إشارة ولو بسيطة إلى الحق الإلهي؟ بل هل تجد في سلوك النبي والولاة الذين عينهم على الأقاليم ما ينبئك بأنهم مارسوا أو كانوا يمارسون نوعاً من أنواع هذه النظرية حتى ولو بأبسط صورها؟ نعم هناك روايات يبدو تفسير معناها قريباً من مفهوم نظرية الحق الإلهي، ولكن محورها لم يكن أكثر من اجتهد شخصي كما في قصة عبد الله بن حذافة السهمي، ففي صحيحي مسلم والبخاري من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) في عبد الله بن حذافة السهمي، بعثه رسول الله ﷺ في سرية». وفيها أيضاً من حديث الأعمش، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي عليه السلام قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال: فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار، فسكن غضبه وطفئت النار، فلما قدموا على رسول الله ذكروا ذلك له، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»^(٢)

(١) سورة النساء: ٥٩

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨، فصل في سرية عبد الله بن حذافة السهمي، ص ٣٢٥.

وأعتقد أن الدكتور محمد عمارة جاء بهذه الفرية دون دليل بعد أن خلط بينها وبين ما يعرف بنظام الحكم المدني أو الحكومة المدنية، وهي نظام تقيمه الجماعة يستند إلى قيمها ويرتكز على إرادتها ويستمر برغبتها، ويظل محافظاً على اسمه مهما كانت القوانين التي يحكم بها سواء كانت دينية بموجب نص مقدس أو فكرية.^(١) وهذا ما لم يتحقق في الأقل في جغرافيتنا العربية والإسلامية لا قديماً ولا حديثاً، وعلى كل حال أجد أن الحاكم بموجب هذا النظام حتى وإن كان يعمل بالشريعة المقدسة ويحكم بنصوصها إلا أنه غير معصوم ولا مقدس، ولذا لا يأمن من الخطأ.

ثم ألا يتفق الدكتور عمارة معنا على أن الخلافة الإسلامية بشكلها الذي عرفت به كانت خلافة بطرائق تنصيب مختلفة ومتنوعة لا تعتمد على منهج واحد بعينه، كانت خلافة بأربعة طرق في أولها، ثم ملكية وراثية بالنص في آخرها، لم تنظم بحديث أو قرآن ولا يوجد نص رباني أو نبوي فيه مجرد إشارة بسيطة إليها بأشكالها تلك؟ والنظام نفسه كان نظام حكم مدني سياسي اتخذ الجانب الديني منهجاً للقوانين في الأقل مع تسمي الخلفاء باسم (خليفة الرسول) أو (خليفة الله في أرضه) وهي مصطلحات إذا لم تكن قد جيء بها بوحى من نظرية الحق الإلهي فإنها وضعت قواعد تلك النظرية وشجعت الحكام اللاحقين على العمل بها بالرغم من حسن النوايا الذي جاء بها.

وأجد أن نظام الاستخلاف السياسي الذي بدأ العمل به بعد وفاة النبي ﷺ بكل صيغه المعروفة هو الذي زرع بذور الفتنة والفرقة في الإسلام بدءاً من زحزحة الخلافة عن علي عليه السلام في مؤتمر السقيفة مما دفعه ليكون في جانب المعارضة، وصولاً إلى كل الجبهات الأخر التي فتحتها النظام أو أسس القواعد التي تعتمد عليها في انفتاحها

(١) ينظر: الخلافة الإسلامية، محمد سعيد العشماوي، مصدر سابق، ص ١٧.

لتصبح في القرن الرابع الهجري (٣٣٤ هجرية / ٩٣٥ ميلادية) مجموعة كبيرة من الجبهات المتعارضة التي استقلت بشكل أو بآخر عن الأصل؛ فكانت فارس والري وأصبهان والجل بيد بني بويه، وكرمان بيد محمد بن إلياس، والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر بيد بني حمدان، ومصر والشام بيد محمد بن طغج الأخشيدي، والمغرب وشمال أفريقيا بيد الفاطميين، والأندلس بيد ملوك الطوائف وخراسان بيد نصر بن أحمد الساساني، والأهواز وواسط والبصرة بيد البريديين، واليامة والبحرين بيد طاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان بيد الديلم، وبغداد بيد الخليفة^(١)

ولكي نبرئ السابقين من المسلمين العقائديين من مغبة حملهم وزر إدخال نظرية الحق الإلهي إلى المجتمع المسلم، أؤكد أنها أدخلت إلى الإسلام على يد السياسي معاوية أول خليفة أموي بعد أن سلب السلطة من أهلها الفعليين بعد صلح وقاتل الإمام الحسن عليه السلام، فأذل الناس، ولذا قال عمر بن بشير الهمداني: «قلت لأبي إسحاق: متى ذلّ الناس؟ قال: حين مات الحسن وأدّعي زياد، وقُتل حجر بن عدي»^(٢) ويجد من يتابع منهجية حكم الخلفاء الأمويين أنهم أول من سلب سلطة العدل الرباني والتنصيب الرباني، وحكموا بموجب سلطة الحق الإلهي مستخدمين الدين كواجهة تخنيع للأمة؛ فمعاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق هـ ٦٠ هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠ م) كان يصرح علناً أن مال دولة الإسلام ومال الشعب المسلم هو مال الله، وهذه كلمة حق ولكن أريد بها باطل يوم حرفت عن مقصدها عندما ادعى لنفسه الحق بالتصرف في هذا المال منعاً ومنحاً حسب الرغبة، لماذا؟ لأنه حسب زعمه القاصر خليفة الله في الأرض وممثل الحق الإلهي؛ حيث قال: «الأرض لله وأنا خليفة الله فما أخذت فلي وما تركته للناس فبالفضل مني».

(١) ينظر: الخلافة الإسلامية، محمد سعيد عشاوي، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٢) مقاتل الطالبين، أبي الفرج الأصفهاني، ص ٨٣.

ويتمهى هذا القول مع قول سعيد بن العاص: «إنما السواد بستان قريش» وهذه هي الترجمة الحقيقية لنظرية الحق الإلهي. ولذا ترى أتباع العقيدة والمؤمنين حقاً بما جاء به الرسول لا يرضون بمثل هذه الآراء المتطرفة ويعترضون بشدة عليها، فقد وجد معاوية من يرد عليه ويقول: «كلا إن هذا مال الله ومال الناس ويأرادتهم يتصرفون به»^(١)

كانت نظرية الحق الإلهي معروفة قبل الإسلام، وغالباً كان معمولاً بها في الامبراطوريات الفارسية والرومانية والصينية والمصرية؛ حيث كان الملوك يستعبدون الناس باعتبار أن الله أو (الإله) يختار من يشاء لممارسة السلطة، وهو الذي اختارهم للحكم ومنه يستمدون سلطتهم، أو يزعم الملوك بأنهم من سلالة عرقية أسمى من سلالة العنصر البشري أو من سلالة (الآلهة). هذه النظرية تعد من أقدم النظريات، وتعتبر الله أو (الإله) المصدر الحقيقي للسلطة الأرضية، فيترتب على كون الحاكم يستمد سلطته من مصدر علوي إن يسمو على غيره من البشر، وتسمو إرادته على إرادة المحكومين، وغلا بعضهم فادعى الإلهية، ومن تنازل منهم ادعى أنه من نسل الآلهة. ولذا كانوا يرون أن ما تقدمه لهم الأمم والشعوب من الخدمة والولاء والخضوع المذل والتضحية ليس إلا واجباً مقدساً يقومون به تجاه العرش والسلطان.

هذه النظرية بدأت بالاندثار في العصور الأوربية الوسطى بعد أن اشتد النزاع بين الكنيسة وملوك أوروبا، وظهرت البروتستانتية على يد (مارتن لوثر) سنة ١٥٢٠م. ولكنها لم تمت؛ فالأباطرة طالما ادَّعوا أن لهم حق حكم الناس وفق مشيئتهم وهواهم، «وظلت عروش أوروبا تتوارثها سلالات وعائلات معينة لا يجرؤ أحد أن ينافسهم ولا يستسيغ إنسان أن يسأل لماذا يحكم هؤلاء؟ وبماذا يحكمون؟، فالرعاع كلهم مقتنعون تماماً بأنهم يستمدون حكمهم من الله مباشرة! وظهر فلاسفة وباحثون برروا هذا الاستبداد

(١) الفتنة الكبرى، طه حسين، طبعة القاهرة، ١٩٧٠، ج ٢، ص ٢٣٤-٢٣٥.

والعبودية وفلسفوها في قوالب متعددة؛ فجاء (هوبز) ليتملق ملوك عصره مطالباً بأن لهم الحق في سلطة مطلقة يستطيعون بها تنفيذ العقد الموهوم، وكذلك كان (جان بودان) (١٥٩٦) و(جروتس) (١٦٤٥) من المدافعين عن الحكم المطلق، ويعلل (بودان) ذلك بأن الحكم غير المطلق معرض للثورات والفتن وصراع الأحزاب، وينكر نظرية العقد المجتمع؛ لأنها تمنح الفرد الشعور بالمشاركة في تكوين الدولة. أما (جروتس) فيدافع عن الاستبدادية بذريعة أنها أفضل السبل لتطبيق القانون الطبيعي، وإن الناس إذ قد ارتضوا هذا النوع من الحكم، فليس من حقهم أبداً أن يتراجعوا عنه»^(١)

أما في المجتمع العربي الذي كانت الطبقة فيه تمثل نوعاً من نظرية الحق الإلهي الفطرية ولاسيما قبل عصر البعثة، فإن الإسلام حينما جاء أعاد الأمور إلى نصابها ورد العبودية كلها لله وحده، وفرض على الحكام تبعات ومسؤوليات تناسب مركزهم في الأمة، فرأى الناس في معظم أنحاء المعمورة ولادة المسلمين يرعون مصالحهم، وينهضون بأعباء المسؤولية كاملة في الوقت الذي لا يتميزون فيه عن الأمة بكبير فرق. وبقيت النظرية تتحكم بشعوب العالم الأخر، أما الشام التي حكمها معاوية والياً لعشرين عاماً وخليفة لعشرين عاماً جغرافياً، فبسبب قربها من أرض الروم ونظمهم في الحكم وهم أشهر من طبق نظرية الحق الإلهي، جعل السياسيين العرب الشاميين على إطلاع تام على النظرية وسبل تطبيقها، ولذا ما إن ضرب معاوية الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام عرض الحائط حتى أعلنها صراحة وبدون موارد بأنه يحكم باسم الله وله من الحق على الناس مثل ما لله سبحانه. وبذلك يكون معاوية هو مؤسس نظرية الحق الإلهي في المجتمع الإسلامي، هذه النظرية التي ألحقت بالدين ضرراً بالغاً بتمسحها به وانتسابها اللفظي إليه وادعاء طواغيتها أنهم يستمدون سلطتهم من تفويض الله لهم، إذ

(١) ينظر: علمانية الحكم، الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي، الفصل الأول

نجم عن ذلك رد فعل عنيف ضد الدين من قبل من يسمون دعاة الحرية الذين وجدوا في هذه الدعوة فرصة لمهاجمة الدين متذرعين بأنه يبارك الطغيان ويقدس الدكتاتورية. والحق الذي لا مرية فيه أن الحكام الذين مارسوا الطغيان متسترين بهذه الدعوة هم أبعد ما يكونون عن تنفيذ القانون الإلهي، أي الحكم بما أنزل الله، فوق أنهم لا يستطيعون بل يعجزون عن إقامة الدليل على أن الله منحهم الحق في التسلط على الأمم وإذلال الشعوب باسمه. وواقع التاريخ يؤكد أن العدل الرباني والطغيان البشري نقيضان لا يجتمعان، وأن الذين كانوا يحكمون بما أنزل الله فعلاً ويستندون في سلطتهم إلى الوحي الإلهي حقيقة، هم أعظم حكام البشرية عدلاً وإنصافاً وأشدّهم رحمة وتواضعاً، وأنهم بفضل ذلك حققوا في دنيا الواقع ما كان الفلاسفة يحلمون به في الخيال، وعكس ذلك تماماً كان الحكام الطغاة الذين يتبجحون بنظرية الحق الإلهي، فهم يمثلون أسوأ النماذج للجبروت والاستبداد^(١)

ومع كل ما سببته هذه النظرية من تخريب للإسلام وأهله نجد للأسف أن هناك من يحاول التقليل من تأثيرها أو اتهام الآخرين بالرضوخ لسلطتها وتبرئة أسياده منها؛ دفاعاً عن الذين جاءوا بها وحكموا الأمة المسلمة بسلطانها حيث قال الدكتور محمد عمارة بهذا الصدد: «فنحن نجد في مقابل تلك الفلسفة وتطبيقاتها وهي لم تبلغ في تاريخنا، والحمد لله، بعض ما بلغته في تاريخ غيرنا من الأمم، نجد المواقف الفكرية الشجاعة التي رفضت تلك الفلسفة»^(٢) ولكنه رفض التصريح باسم الجهة أو الأشخاص الذين عارضوها وكيف كانت معارضتهم لها؛ لأنهم بالتأكيد من أئمة الشيعة، ولذا تراه يلجأ إلى التمويه فيعود للحديث عن السلطة الدينية التي هي بكل المقاييس أفضل وأشرف

(١) ينظر: علمانية الحكم، الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي، الفصل الأول.

(٢) الدولة الإسلامية، ص ٢٠

من نظرية الحق الإلهي، ليتهم مذهب التشيع وأئمتهم بأنهم الوحيدون الذين طبقوها في الدولة الإسلامية ولو في الجانب الفكري؛ حيث قال: «لقد كان فكر السلطة الدينية وكذلك تطبيقاتها في حضارتنا العربية الإسلامية النقطة السوداء التي مثلت الشذوذ الذي يثبت قاعدة (لأفق الإسلام) لهذا الفكر وإنكار الأمة وعامة مفكرها لتطبيقاته. فظلت هذه الدعوى، في سماء حضارتنا وتاريخنا، سحابة صيف لم تتجسد في مؤسسات ولم يجتمع حولها جمهور ولم يقيم لها باستثناء الشيعة مذهب في إطار مذاهب الإسلاميين. وإنما وقفت عند هذه الشبهات»^(١).

وهو يموه هنا على نظرية الحق الإلهي بنظرية السلطة الدينية، ويخلط بينهما لغايات معروفة^(٢) أراد من خلالها القول بأن أئمة الشيعة هم أول من ادخل نظرية الحق الإلهي إلى الحضارة الإسلامية بقوله: «ونحن إذا ذهبنا نبحث عن الملابس التي صاحبت دخول فكرة (السلطة الدينية) ونظرية (الحكم بالحق الإلهي) إلى تراث الإسلام الفكري على يد الشيعة في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، وجدنا تلك الملابس»^(٣) أي انه يتهم الإمام علياً والإمام الحسن عليه السلام اللذين حكما في النصف الأول من القرن الهجري الأول بأنهما حكما بموجب هذه النظرية، مع علمه أن هذه النظرية دخلت إلى الفكر الإسلامي على يد الأمويين في أواخر النصف الأول من ذلك القرن وتحديدًا بعد

(١) الدولة الإسلامية، ص ٢١

(٢) كما في كتابه (الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية) الذي أصدرته دار الثقافة الجديدة، وهي كتب تنهاى مع ما يدور في الغرب من حديث عن السلطة الدينية، وفيه شبه من كتاب «مادلين أولبرايت» (الجبروت والجبار تأملات في السلطة والدين والشؤون الدولية) الذي كتب مقدمته الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، وترجمته إلى العربية عمر الايوبي، ونشرته الدار العربية للعلوم ناشرون، عام ٢٠٠٧.

(٣) الدولة الإسلامية، ص ٢٢.

صلح الإمام الحسن عليه السلام واستيلاء معاوية على الحكم. أما أئمة النصف الثاني من القرن الأول فهم الحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر عليه السلام الذين أبعادوا عن الحكم كلياً وكانوا تحت عسف وجور الحكام الأمويين، فمن أين لهم أن يسوسوا الناس بموجب هذه النظرية؟ وترى تحيز الدكتور عمارة واضحاً من خلال سعيه لتبرئة الذين قاموا حقاً بالحكم بموجب النظرية ولصقها بأئمة التشيع الذين لم تتح لهم فرصة الحكم، بينما نجد باحثين آخرين يعترفون بما لم يتحدث عنه، ولكنهم يقعون في الخطأ نفسه حينما يتهمون أئمة الشيعة، كما في قول الدكتور صبري محمد خليل: «في إطار الفكر السياسي الإسلامي نجد مذهب يقارب مذهب الكهنوتية، ويتمثل في مذهب الاستخلاف الخاص، والقائم على أن الحاكم ينفرد دون الجماعة بالاستخلاف عن الله في الأرض، وهو مذهب قال به بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين، وقال به الشيعة في حق ألائمه من أحفاد علي عليه السلام»^(١) لقد علل الدكتور صبري وقوع التشيع بهذا الخطأ باعتبار إن: «وجه الخطأ في هذا المذهب هو ان الاستخلاف الخاص مقصور على الأنبياء، وبختم النبوة وبوفاة الرسول عليه السلام انتهى هذا النوع من أنواع الاستخلاف، والقول بهذا المذهب يعني المساواة بين الحاكم والنبي في الدرجة»^(٢)، وهذا قصور في البحث، لأن الباحث لو تعمق في البحث لوجد أن الفقه الشيعي يثبت وجود نصوص نبوية على الاستخلاف.

إن الدكتور محمد عمارة وفي محاولته تجاوز اتهامه لأئمة التشيع ادّعى بأنها وجدت عند العلويين: «كرفض لسلطة البشر الظالمية، وتتعلق بالمطلب الرامي والداعي إلى

(١) البحث الموسوم (مفهوم السلطة الدينية في الفكر السياسي المقارن) الدكتور صبري محمد خليل أستاذ الفلسفة بجامعة الخرطوم، مدونة الكاتب، الرابط <http://drsabri.khalil.word/press.com/2011/07/23/216>

(٢) المصدر نفسه، مفهوم السلطة

استبدال هذه السلطة الإلهية العادلة بالسلطة البشرية الظالمة»^(١)، وهذا وربي منتهى التحيز البعيد عن العقلانية. وفيه دلالة على أن النهج السياسي التعليلي الأول لا زال مستخدماً بنفس القوة ونفس الأسلوب. علماً بأن هناك كثيراً من الباحثين الذين أدانوا مثل هذه التحليلات القاصرة مثل الدكتور صبري محمد خليل أستاذ الفلسفة بجامعة الخرطوم الذي قال عن هذا الرأي الذي أسماه بالمذهب الكهنوتي: «يستند إلى تصور معين لطبيعة العلاقة بين السلطتين الدينية والسياسية يجعل العلاقة بينهما علاقة تطابق وخط، ويتمثل في نظريتي الحكم بالحق الإلهي والعناية الإلهية. هذا التصور مرفوض إسلامياً، لأنه يؤدي إلى تحويل المطلق عن قيود الزمان والمكان (الدين) إلى محدود بالزمان والمكان نسبي فيهما (الدولة أو السلطة)، أو العكس أي تحويل ما هو محدود بالزمان والمكان نسبي فيهما (الدولة) إلى مطلق، أي إضفاء قدسيه الدين واطلاقيه على البشر واجتهاداتهم المحدودة بالزمان والمكان، وهو ما رفضه الإسلام حين ميز بين التشريع الذي جعله حقاً لله والاجتهاد الذي جعله حقاً للناس. ومضمون هذا المذهب هو إسناد السلطة الدينية والسياسية إلى فرد أو فئة، ينفرد أو تنفرد بها دون الجماعة (رجال الدين). وهو مذهب مرفوض في الإسلام»^(٢)

وإتماماً لما بدأه الدكتور عمارة حاول التعلل بركن الإمامة في الفقه الشيعي والانتقاص منه كما هو ديدنهم على مر التاريخ، متهماً الفكر الشيعي بأنه جاء بركن الإمامة من مخترعاته تطبيقاً لنظرية الحق، الإلهي وليس من تعاليم الإسلام ونصوص

(١) الدولة الإسلامية، ص ٢٣

(٢) البحث الموسوم (مفهوم السلطة الدينية في الفكر السياسي المقارن) الدكتور صبري محمد

خليل أستاذ الفلسفة بجامعة الخرطوم، مدونة الكاتب، الرابط <http://drsabrikhalil.wordpress.com/2011/07/23/216>

الشريعة وكما يتبين من قوله: «إن جعل النظام السياسي وقمة السلطة في المجتمع ركنا من أركان الدين وشأننا من شؤون السماء قد أدى إلى عزل البشر وإبعاد الأمة عن أن تكون هي المصدر الأصلي والأساسي للسلطة والسلطان»^(١) وهو بذلك يجتزل كل أقوال المدارس الإسلامية المختلفة بشأن الإمامة بمجرد كلمات جوفاء، بعيدة عن الواقع، وفيها امتهان للعقيدة الإسلامية.

الغريب أن أبناء وأحفاد الفصيل السياسي يبدون متفقين على منهج التشكيك هذا، وكل منهم يطرحه للنقاش من وجهة نظره الخاصة، ولكنهم جميعاً ييغون الوصول إلى هدف واحد، فقد قال الدكتور: «يعتقد الشيعة أن علي بن أبي طالب وذريته من بعده هم أصحاب الحق الشرعي في حكم الدولة الإسلامية ويرون أن بني أمية قد انتزعوا الخلافة من أصحاب الحق فيها، ولذلك لم يعترفوا بحكمهم وولوا على أنفسهم أئمة من ذرية علي وآمنوا أن الواجب يملي عليهم أن يعملوا جاهدين ليجمعوا لهؤلاء بين الخلافة التي تمثل السلطة الزمنية والإمامة التي تمثل السلطة الدينية الروحية»^(٢) وهي الآراء السقيمة التي أخذ بها المستشرقون وأعادوا صياغتها وطرحها إلى التداول فألحقت الضرر بالإسلام الحقيقي وانتصرت للسياسيين، وعلى سبيل المثال تجد في القسم الخامس من كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) للمستشرق (أجناس جولد تسيهر) -وهو قسم مخصص للحديث عن الفرق في الإسلام- قول المؤلف: «فالخليفة في الإسلام السني تعتد له البيعة لتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية لكي تركز في شخصه واجبات الجماعة الإسلامية... ومجمل القول أن الخليفة يجتمع في شخصه السلطة القضائية

(١) الدولة الإسلامية.

(٢) الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الدكتور عبد الله محمد جمال الدين، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١١هـ ١٩٩١م، ص ٣٨.

والإدارية والعسكرية في الدولة.. وليست له صفة أخرى سوى أنه خليفة لسلفه وقد تقلده بواسطة بشرية... فالخليفة عند أهل السنة ليست له سلطة روحية لها حق الهداية والإرشاد»^(١)

إن هذا القول بعيد عن الحقيقة كلياً ولا سيما فيما يخص الخلافة الأولى أو ما يعرف باسم (الخلافة الراشدة)، حيث لا ترى مدرسة الخلفاء في سنة الخلفاء الراشدين امتداداً لسنة النبي، وإنما تراها مكملة تفرض الهداية والإرشاد وهي مفعمة بالسلطة الروحية تماماً كما كانت السنة النبوية، الخلفاء أنفسهم كانوا يبحثون عن اسم له علاقة بهذه السلطة وهذه المهمة، فتسمى الخليفة الأول أبو بكر باسم (خليفة رسول الله) وأراد الخليفة الثاني عمر تسمية نفسه (خليفة رسول الله) واستخدم المصطلح مدة يسيرة ثم ألغى بسبب التعقيد لا أكثر. كذلك التسمية بحد ذاتها فيها دلالات أكيدة على هذا المنهج، أي منهج الاستمرارية التي تمنح الخليفة سلطة روحية لها حق الهداية والإرشاد، فأنظر إلى ما أخرجه ابن سعد في طبقاته: «قال صالح بن كيسان: وأخبرت عن عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر أخبرني صالح بن كيسان قال: اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا نكتب السنن، قال: وكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ قال: ثم قال: نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة! قال: قلت: إنه ليس بسنة فلا نكتبه، قال: فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعت...! كما ولهم في ذلك حديث يقول: (عليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)»^(٢)

وتجد في تاريخ بغداد: «قال أبو معاوية: دخلت على هارون -يعني (أمير المؤمنين)-

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام، للمستشرق أجناس جولد تسيهر، نقله إلى العربية محمد يوسف موسى وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٤٦، ص ١٨٢.

(٢) طبقات ابن سعد، ج ٢، ص ٣٨٨.

فقال لي: يا أبا معاوية هممت أنه من ثبت خلافة عليّ فعلت به وفعلت به، فسكتُ، فقال لي: تكلم، تكلم! قال: قلت: إن أذنت لي تكلمت. قال: تكلم. فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيمم: منا خليفة رسول الله ﷺ، وقالت عدي: منا خليفة رسول الله ﷺ، وقالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء، فأين حظكم يا بني هاشم من الخلافة، والله ما حظكم فيها إلا ابن أبي طالب! فقال: والله يا أبا معاوية، لا يبلغني أن أحداً لم يثبت خلافة علي، إلا فعلت به كذا وكذا^(١) وفي مسند أحمد: «قيل لأبي بكر يا خليفة الله، فقال: أنا خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راض به، وأنا راض به، وأنا راض^(٢)».

وفي شرح نهج البلاغة: «قال رجل لعمر يا خليفة الله، قال: خالف الله بك، قال: جعلني الله فداك! قال: إذن يهينك الله»^(٣) بل وهناك من سمى الخليفة عثمان بعد وفاته باسم خليفة الله! فقد قال شاعرهم، ونسبوه إلى ليلي الأخيلية كما في الطبراني الكبير، ومجمع الزائد:

أبعد عثمان ترجو الخير أمته قد كان أفضل من يمشي على ساق
خليفة الله أعطاهم وخولهم من كان من ذهب حلوا وأوراق^(٤)

هذه الثقافة ترجمها الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد بن عبد الله القسري ولادة بني أمية على الأقاليم، قال الجاحظ: «خطب الحجاج بالكوفة، فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ بالمدينة، فقال: تبأ لهم، إنما يطوفون بأعواد، ورمة بالية! هلاً طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟! ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله؟».

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٣٠١.

(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ١٠١ و ١١٠.

(٣) شرح نهج البلاغة ج ١٢، ص ٩٤.

(٤) الطبراني الكبير، ج ١، ص ٨٦، ومجمع الزائد، ج ٩، ص ٩٩.

وعليه قال المبرد: إن ذلك مما كفرت به الفقهاء الحجاج. وأنه إنما قال ذلك والناس يطوفون بالقبر. وهذه القضية معروفة ومشهورة. وكتب الحجاج إلى عبد الملك: إن خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين^(١). وقد ادعى الحجاج أن خبر السماء لم ينقطع عن الخليفة الأموي^(٢) وكان الحجاج يرى أن عبد الملك بن مروان معصوم!^(٣) بل كان يرى نفسه: أنه لا يعمل إلا بوحى من السماء، وذلك حينما أخبروه أن أم أيمن تبكي لانقطاع الوحي بموت رسول الله ﷺ^(٤).

وقال خالد بن عبد الله القسري، وذكر النبي ﷺ: «أيما أكرم رسول الرجل في حاجته أو خليفته في أهله! يعرض أن هشاماً خير من النبي ﷺ». ^(٥) وقال أيضاً: «والله لأمر المؤمنين أكرم على الله من أنبيائه». ^(٦) وزعم خالد أيضاً: «أن عبد الله بن صيفي سأل هشاماً، فقال: يا أمير المؤمنين أخليفتك في أهلِكَ أحب إليك وآثر عندك أم رسولك؟ قال هشام: بل خليفتي في أهلي. قال: فأنت خليفة الله في أرضه وخلقه، ومحمد رسول الله (مر) إليهم؟ فأنت أكرم على الله منه. فلم ينكر هذه المقالة من عبد الله بن صيفي وهي تضارع الكفر». ^(٧)

(١) العقد الفريد ج ٢، ص ٣٥٤ وج ٥، ص ٥١ وص ٥٢، البداية والنهاية ج ١٩، ص ١٣١، وتهذيب تاريخ دمشق ج ٤، ص ٧٢.
(٢) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٧٢.
(٣) ينظر: العقد الفريد، ج ٥، ص ٥٢.
(٤) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٧٣، والإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ١١٥.

(٥) الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني، ج ١٩، ص ٦٠.

(٦) ينظر: الأغاني، ج ١٩، ص ٦٠، وتهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٨٢.

(٧) الأخبار الطوال، الدينوري، مصدر سابق، ص ٣٤٦.

وربما لهذا السبب يرى الأستاذ إدريس الحسيني انطواء عبارة: (الخلفاء الراشدون) على معنيين اثنين: أحدهما لغوي، والثاني، اصطلاحى. أما لغوياً، فإن عبارة: (الخلفاء الراشدون): إذا فككنا تركيبها، ونظرنا لغوياً في المفردتين المكونتين لها، نجد بأن: خلفاء، خليفة من الخلافة.. وهي لغة تعني النيابة.. وخليفة الرجل، من يقوم مقامه.. وفي القرآن ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾. أما في المصطلح: فإن الخلفاء جمع خليفة مشتقة عن مصدر خلافة.. وهي النيابة، والقيام مقام الرسول ﷺ بعد وفاته، وتمثل كل مهامه، كحمل الناس على الطاعات وتنفيذ حكم الشريعة.^(١)

ومنه يتضح الخلط الذي وقع به المستشرق (تسيهر) ولا سيما أنه نسب كل ما تقدم إلى الشيعة وحدهم، كما في قوله: «وعلى نقيض ذلك إمام الشيعة، فهو بفضل الصفات الشخصية التي أودعها الله تعالى فيه، يعتبره الشيعة هادي المسلمين وفقههم ووارث رسالة النبي، فيأمر ويعلم باسم الله... وليس للإمام فحسب، صفة الرئاسة للسلطة الحاكمة المقبولة لدى الله، وإنما يرفعه فوق المستوى البشري العادي صفات هي فوق البشرية»^(٢)، ويتضح أكثر وأكثر تأثير النهج السياسي على الباحثين المعاصرين، فالذين قاموا بترجمة كتاب (تسيهر) إلى العربية وعلقوا عليه وهم كل من محمد يوسف موسى،

(١) الخلافة المغتصبة أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟) للأستاذ إدريس الحسيني، كتاب الكتروني، مركز الأبحاث العقائدية <http://www.aqaed.com/book/168/indexs.html>

(٢) العقيدة والشريعة، أجnas جولد تسيهر، ص ١٨٢-١٨٣

المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، وعبد الرزاق عبد الحق المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر وعلي حسن عبد القادر الدكتور في العلوم الإسلامية ومدير المركز الثقافي الإسلامي في لندن، قالوا في تعليقهم على قول (تسهير): «ولم ترغب الخلافة العباسية في أن تتخلف عن الشيعة في الأخذ بهذه النظرية، فكانت ترحب عن طيب خاطر بأن يطلق عليها لقب (ميراث النبوة)... ولكن هذه الأسماء والصفات لا تخرج في دلالتها على أن الخلافة ميراث شرعي للسلطة النبوية على اعتبار أن العباسيين ينتمون إلى آل البيت»^(١) وهم بقولهم هذا يريدون تبرئة الآخرين واتهام التشيع بأنه يؤمن ويعمل بنظرية الحق الإلهي، أما ما بدر من الحكام بما يبدو وكأنه تطبيق لهذه النظرية فذلك مرده إلى تأثرهم بالفكر الشيعي لا أكثر! وهذا ما يرفضه (دوايت م. رونلدسن) الذي يرى في كتابه (عقيدة الشيعة) أن الخلفاء الراشدين الثلاثة جاءوا إلى الحكم بموجب نظرية الحق الإلهي، فقال: «من المحتمل جدا أن فكرة الحق الإلهي التي تقضي بأن يعين كل إمام خلفه لم تتعد بوضوح في أول الأمر من الآراء الأخر بالخلافة. فإن عادة القبائل العربية أن يختاروا من يلي السابق في الأهمية بمجتمعهم ولا شك أن هذا المبدأ هو الذي تقرر بموجبه اختيار أو تعيين الخلفاء الثلاثة الأوّل أبي بكر وعمر وعثمان، ويمكن أيضا اعتبار أن عليا جاء إلى الخلافة في الزمن الذي قدمته الظروف إلى الصف الأول دون أن يكون لذلك أية علاقة مع الإرث أو التخصيص»^(٢) ولكنه عاد وتماهى مع سلفه فأتهم أئمة الشيعة بأنهم حكموا بموجب نظرية الحق الإلهي، فقال: «وجاءت تعاليم ابن سبأ ودعوته في أن علياً بكونه وصي النبي ﷺ انتقل إليه النور الإلهي أو الروح الإلهي التي

(١) المصدر نفسه، حواشي القسم الخامس، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) عقيدة الشيعة، الدكتور دوايت م. رونلدسن، تعريب ع.م، مؤسسة المفيد، بيروت، ١٤٤٠

يتمكن من توريثه من شاء»^(١)

إن أغلب المستشرقين بما فيهم من أسهم في تحرير (دائرة المعارف الإسلامية) عملوا بجهد لترسيخ فكرة وجود وتأصل نظرية الحق الإلهي عند الشيعة، ومنهم الذين أسهموا في كتابة هذه الموسوعة مثل: الفرنسي لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢)، الانكليزي رينولد ألين نيكلس (١٨٦٨-١٩٤٥)، دافيد صموئيل مرجليوث (١٨٥٨-١٩٤٠) إجناس كولد تسيهر (١٨٥٠-١٩٢١)، الانكليزي أ.ج. أربري، الألماني كارل بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦) الهولندي كريستيان سنوك هرجرونييه (١٨٥٧-١٩٣٦) الفرنسي جودفروا ديمومبين (١٨٦٢-١٩٥٧)، الانكليزي توماس ووكر آرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠)، رينيه باسيه (١٨٥٥-١٩٢٤) الفرنسي إيفارست ليفي بروفنسال (١٨٩٤-١٩٥٥) السويدي كارل فلهلم سترستين (١٨٦٦-١٩٥٣)، الإيطالي جورجيو ليفي دلافيدا (١٨٨٦-١٩٦٧) الألماني كارل فلرس (١٨٥٧-١٩٠٩) الدنماركي فرانتس بوهل (١٨٥٠-١٩٣٢)

ومن يتابع تواريخ ميلاد هؤلاء المستشرقين يجد تقارباً غريباً بما يؤكد أنهم أبناء جيل كتب لهم أن يُجندوا للقيام بعمل ضد الإسلام عامة وضد التشيع خاصة، فمن المستحيل أن تنحصر تواريخ ولادتهم في المدة ١٨٥٠ إلى ١٨٦٨ مصادفة. ولقد نجح بعض هؤلاء في الترويج لفكرة أن أئمة أهل البيت عليهم السلام يتم تنصيبهم بموجب نظرية الحق الإلهي، ويحكمون بموجبها بالرغم من أنهم لم يمارسوا الحكم، مع علم هؤلاء المستشرقين الأكيد بأن الحكام السياسيين هم الذين مارسوا الحكم باسم الله، وما من قرار اتخذه أو حكم أصدره إلا بوحى من هذه النظرية.

(١) عقيدة الشيعة، مصدر سابق، ص ٨٣.

التنصيب الإلهي

أقل ما يمكن أن توصف به الآراء التي تتهم أئمة الشيعة بأنهم حكموا بموجب نظرية الحق الإلهي هو السقم والخواء، أو في الأقل الخلط المتعمد المقصود؛ فنحن نعرف كما يعرف غيرنا أن هناك اختلافاً كبيراً جداً بين نظرية (التنصيب الإلهي) الشرعية ونظرية (الحق الإلهي) الشريكية، والفرق بين الاثنين كالفرق بين السماء والأرض. ووفق نظرية التنصيب الإلهي الشرعية ترى مدرستنا بأن تنصيب الإمام مكمل لتنصيب النبي، وفق قاعدة (اللطيف) التي توجب أن يبعث الخالق اللطيف بعباده رسلاً لهداية البشر وأداء الرسالة الإصلاحية، فنحن نعتقد أن النبوة لطف إلهي ونعتقد: «إن النبوة وظيفة إلهية وسفارة ربانية يجعلها الله تعالى لمن ينتجبه ويختاره من عباده الصالحين وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم»^(١) ونعتقد كذلك أن الإمامة لطف إلهي أيضاً، ونعتقد: «إنها كالنبوة لطف من الله تعالى، فلا بد أن يكون في كل عصر إمام هادٍ يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في الشأئين، وله ما للنبي من الولاية العامة على الناس لتدبير شؤونهم ومصالحهم»^(٢).

وعليه نعتقد «أن الإمامة أصل من أصول الدين، لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها

(١) عقائد الإمامية، الشيخ محمد رضا المظفر، ط٢، مركز الأبحاث العقائدية، النجف الأشرف، ١٤٢٤ هـ، ص ٤٧.

(٢) عقائد الإمامية، المظفر، ص ٧٣-٧٤.

كما يجب النظر في التوحيد والنبوة^(١) وقد أخرج محمد بن يعقوب الكليني «عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن إبراهيم بن عمر اليماني وعمر بن أذينة، عن أبان، عن سليم بن قيس الهلالي، قال: شهدت أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام وأشهد على وصيته الحسين عليه السلام ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال له: يا بني، أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك وأدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن أمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين، ثم أقبل على ابنه الحسين عليه السلام فقال: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تدفعها إلى ابنك هذا؛ ثم أخذ بيد علي بن الحسين، وقال: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تدفعها إلى ابنك محمد ابن عليّ، وقرأه من رسول الله ومني السلام».

هذا هو القانون الإسلامي الذي نص عليه القرآن والسنة، فما ذنبنا إذا ما رفض الآخرون أن يعتقدوا بما جاء به الإسلام فاخترعوا نظرياتهم الخاصة التي لم تستقر على منهج محدد، وإنما فتحت الباب للتعيين والنص والشورى والغلبة بالسيف، فهم يرون أن الخلافة والإمامة بالغلبة كما في خلافة عبد الملك بن مروان؟ وهل يتهم من يتبع منهج الإسلام ويمتدح من يشذ عنه لمجرد أن السياسة تريد ذلك؟

إن الاتهامات الفارغة الباطلة التي يتهمنا بها الآخرون من أحفاد السياسيين العرب الأوائل تأتي مكملية لمنهج الإسقاط الذي اتبعه السياسيون القدماء بإسقاط جرائمهم على الأبرياء والتبرؤ منها^(٢)، وهو قول مخالف للحقيقة ومجاف لواقع الخلفاء

(١) عقائد الإمامية، المظفر، ص ٧٣.

(٢) الإسقاط: آلية نفسية شائعة يعزو الشخص بوساطتها أو عن طريقها للآخرين أحاسيس وعواطف ومشاعر يكتبها بداخله. وهو حيلة دفاعية ينسب فيها

الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية أو الجنسية إلى الآخرين حتى يبرئ نفسه. يقول عالم النفس «سيجموند فرويد» مؤسس علم التحليل النفسي: (يشير الإسقاط أولاً إلى حيلة لا شعورية من حيل دفاع الأنا وبمقتضاها ينسب الشخص إلى غيره ميولاً وأفكاراً مستمدة من خبرته الذاتية يرفض الاعتراف بها لما تسببه من ألم وما تثيره من مشاعر الذنب، فالإسقاط بهذه المثابة وسيلة للكبت إي أسلوب لاستبعاد العناصر النفسية المؤلمة عن حيز الشعور... إن العناصر التي يتناولها الإسقاط يدركها الشخص ثانية بوصفها موضوعات خارجية منقطعة الصلة بالخبرة الذاتية الصادرة عنها أصلاً، فالإدراك الداخلي يلغى ويصل مضمونه إلى الشعور عوضاً عنه في شكل إدراك صادر عن الخارج بعد أن يكون قد لحقه بعض التشويه)

ويرى علماء النفس: أن الأفراد الذين يستخدمون الإسقاط هم أشخاص على درجة السرعة في ملاحظة وتجسيم السمات الشخصية التي يرغبونها في الآخرين ولا يعترفون بوجودها في أنفسهم، ويظن كثير من الناس أن هذه الاستراتيجية أو «الحيلة الدفاعية» تقلل من القلق الناتج من مواجهة سمات شخصية مهددة، وتظهر هنا مرة أخرى آلية القمع أو الكبت. وجد علماء النفس أن الأفراد العدوانيين الذين لا يدركون مدى شرهم الجنسي مثلاً أو عدوانيتهم يلاحظون ذلك في الآخرين.

إن آلية الإسقاط هي آلية نفسية لا شعورية بحتة وهي عملية هجوم لا شعوري يحمي الفرد بها نفسه بالصاق عيوبه ونقائصه ورغباته المحرمة أو المستهجنة بالآخرين، كما أنها عملية لوم الآخرين على ما فشل هو فيه بسبب ما يضعونه أمامه من عقبات وما يوقعونه فيه من زلات أو أخطاء، فيقول الشخص في لا شعوره: أنا اكراه شخص ما ولكني أقول هو يكرهني، هنا أريد أن اخفف من إثمي ومشاعري الدفينة تجاه ذلك الشخص ويقول علماء النفس: إذا ما قارنا الإسقاط بالتبرير، وكلاهما حيل دفاعية يلجأ إليها الفرد، فأنا نجد أن الإسقاط عملية دفاع ضد الآخرين في الخارج، أما التبرير فهو عملية كذب على النفس. ويضيف علماء النفس أن الإسقاط إذا كان قائماً على شعور عنيف بالذنب أدى إلى حالة اضطراب البرانويا أو ما يصاحبه من هذيان وهلوسة.

ويرى عالم النفس «فرويد»: (إن الإسقاط حيلة نفسية ينسب فيها الشخص سماته الذاتية وعواطفه وميوله لموضوعات بيئته من أشخاص وأشياء... فالإسقاط لا يقصر على كونه حيلة دفاعية وإنما يفهم بالمعنى الواسع للفظه).

ويرى المتخصصون بأن الإسقاط واحد من مكونات ميكانيزم الدفاع في منظومة الحيل الدفاعية، التي يستخدمها الإنسان بهدف خفض القلق والتوتر عن طريق إنكار الواقع وتشويهه وتزييفه. فعجز الفرد عن مواجهة مشكلاته بصراحة يدفعه إلى أساليب من التكيف يقصد بها تخفيف حدة التوتر

أنفسهم؛ وهم الذين ملؤوا الدنيا سلباً وسطواً وعنفاً وبغياً وفسقاً. وكم كان عمر بن عبد العزيز منصفاً في قوله الذي نقله عنه ابن الأثير في تاريخه: «استعرض عمر بن عبد العزيز الوضع في أيام الوليد بن عبد الملك فقال: الحجاج في العراق والوليد في الشام وقرّة بمصر وعثمان بالمدينة وخالد بمكة.. اللهم قد امتلأت الدنيا جوراً وظلماً»^(١).

فهل حَكَمَ السياسيون وفق نظرة الإسلام؟ وهل ينطبق عليهم ولو مجرد فصل صغير واحد من فصول نظرية التنصيب الإلهي، لكي تبرأ ساحتهم من الظلم بالرغم من كل الأقوال التاريخية التي قيلت عنهم، ويتهم من اتبع شريعة الإسلام بالشذوذ؟ ومن الذي أبعد البشر عن طريق الهداية، محمد ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام من ولده، أم السياسيون الدنيويون الذين لو ثوا فطرة الدين وحرفوا شريعته فطعن بنزاهتهم من هو من جلدتهم، واتهمهم بالظلم من استلم الحكم بعدهم؛ كما فعل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز فهو مع اعتزازه بأمويته لمجرد أن رفض سيرة الحكام الأمويين واتهمهم بالظلم وأعاد فذك إلى بني فاطمة عليها السلام قام الأمويون بسمه وقتله كما هي عادتهم في التخلص من أعدائهم، وفي حجاجه مع الخوارج قالوا له: «رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم، فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فألعنهم وابراً منهم»^(٢)، وكان هذا الخليفة الأموي المعتز بأمويته يردد دائماً: «أهلكني أمر يزيد، وخصمت فيه، فأستغفر الله». فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم وأن يخلع يزيد من ولاية العهد،

الناجم عن الإحباط. وأسباب استخدام الفرد للحيل الدفاعية (اللاشعورية) يأتي لتجنب حالات القلق وما يصاحبه من شعور بالإثم.

(١) لقد استشهد الكاتب المصري المثير للجدل سيد القمني بهذا القول في مقالته المعنونة (هل كان تاريخنا ماضياً سعيداً؟) التي نشرتها مجلة روز اليوسف الصادرة يوم الخميس ٩ حزيران ٢٠١٠.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، ج ٢١، ص ٣٦٠.

فوضعوا على عمر من سقاه سماً. فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً حتى مرض ومات.^(١)

لقد بقيت نظرية الحق الإلهي منهجاً للحكام السياسيين على مدى الدهر، وقد أثبت الخلفاء العباسيون الذين تسلقوا سلم السلطة بعنوان (الرضا من آل محمد) بعد أن حاربوا وطاردوا وسجنوا وقتلوا آل محمد (عليهم الصلاة والسلام) أنهم نسخة طبق الأصل من الأمويين وقد حكموا تحت ظلال النظرية وباسمها؛ وهذا ما صرح به المنصور العباسي (٩٥-١٥٨ هـ ٧١٤-٧٧٥ م) في واحدة من خطبه المشهورة بقوله: «أيها الناس لقد أصبحنا لكم قادة وعنكم ذادة، نحكمكم بحق الله الذي أولانا وسلطانة الذي أعطانا... وإنما أنا سلطان الله في أرضه، وحارسه في ماله... جعلني عليه قفلاً إن شاء أن يفتحنى لإعطائكم وإن شاء أن يقفلني»^(٢) فضلاً عن الألقاب التي اختاروها لأنفسهم مثل (الحاكم بأمر الله) وغيرها من الكنى المنتزعة من نظرية الحق الإلهي والتي تدل على التكبر والتجبر والعلو على البشر الآخرين. وهنا يكاد التكبر أن يكون مقرونا بنظرية الحق الإلهي وبعيداً كل البعد عن التنصيب الرباني.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ص ٣٦٣، ج ٢١.

(٢) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرزاق، بيروت، ١٩٧٢، ص ١١٥.

الكبر

لم نسمع أو نقرأ كلمة واحدة حتى من أعدى أعداء أئمة أهل البيت عليهم السلام تدّعي أن الأئمة المعصومين تكبروا على أتباعهم أو هددوهم ومنعوهم عن إبداء الرأي، والتاريخ يروي لنا قصصاً تثبت بأنهم لم يمنعوا عدوهم من إبداء رأيهم، وفي نهج البلاغة «شتم رجل من الخوارج علياً عليه السلام فهم أصحابه بمعاقبته فقال لهم: مه! إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب»

والإمام الحسن عليه السلام مر بالموقف ذاته وتصرف بالسلوك ذاته يوم تعرض للسب من رجل شامي، فتبسم في وجهه. وهي واقعة شاهدة على سلوك الإمام الحسن عليه السلام في الحياة العامة وطريقة تعامله مع الأحداث الطارئة بما ينسجم مع السلوك الإسلامي السوي في أعلى صورته، وهي درجة لا يبلغها إلا من وضع في مركزه الذي هو فيه بتنصيب رباني. القصة أخرجها الخوارزمي فقال: «قال رجل من أهل الشام: قدمت المدينة بعد صفين فرأيت رجلاً حضرنّا فسألته عنه فقيل: الحسن بن علي فحسدت علياً أن يكون له ابن مثله فقلت له: أنت ابن أبي طالب؟ قال: أنا ابنه، فقلت له: بك وبأبيك فشتمته وشتمت أباه وهو لا يرد شيئاً فلما فرغت أقبل علي، وقال: أظنك غريباً ولعل لك حاجة فلو استعنت بنا لأعناك ولو سألنا لأعطيناك ولو استرشدتنا أُرشدناك ولو استحملتنا حملناك. قال الشامي: فوليت عنه وما على الأرض أحد أحب إلي منه فما فكرت بعد ذلك فيما صنع وفيما صنعت إلا صاغرته إلى نفسي»^(١)

وأخرجها ابن شهر آشوب: «ومن حلمه ما روى المبرد، وابن عائشة أن شامياً رآه راكباً فجعل يلعنه والحسن لا يرد فلما فرغ أقبل الحسن فسلم عليه وضحك، فقال: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت؛ فلو استعبتنا أعتبنك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً. فلما سمع الرجل كلامه، بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إلي، والآن أنت أحب خلق الله إلي وحول رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم»^(١).

وأخرجها الإربلي: «روى ابن عائشة قال: دخل رجل من أهل الشام المدينة فرأى رجلاً راكباً بغلة حسنة، قال: لم أر أحسن منه، فما ل قلبي إليه فسألت عنه؟ فقيل لي: أنه الحسن ابن علي بن أبي طالب، فامتلاً قلبي غيظاً وحنقاً وحسداً أن يكون لعلي ولد مثله فقممت إليه فقلت: أنت ابن علي بن أبي طالب؟ فقال: أنا ابنه، فقلت: أنت ابن من، ومن، ومن؟ وجعلت اشتمه وأنال منه ومن أبيه، وهو ساكت حتى استحيت منه فلما انقضى كلامي، ضحك وقال: أحسبك غريباً شامياً؟ فقلت: أجل، فقال: فملم معي إن احتجت إلى منزل أنزلناك، وإلى مال أرفدناك وإلى حاجة عاوناك، فاستحييت منه وعجبت من كرم أخلاقه فانصرفت وقد صرت أحبه ما لا أحب أحداً غيره»^(٢).

فضلاً عن ذلك كان الأئمة المعصومون يحثون أتباعهم على نبذ التكبر في تعاملهم

(١) الموسوعة الإمام الحسن

(٢) موسوعة الإمام الحسن

مع الآخر صديقاً كان أم عدواً وفي عهده إلى مالك الأشتر رضي الله عنه قال الإمام علي عليه السلام: «وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين»^(١)

إن سلوك الإمام الحسن عليه السلام مع من تناول عليه جهلاً يعد ترجمة حقيقية لنظرية التنصيب الإلهي، أما نظرية الحق الإلهي فإنها طُبِّعَت الذين اتخذوها قاعدة بطباع الكبر والخيلاء، وقد نقل الطبري عن الوليد بن عبد الملك أنه خطب يوم استخلافه مهتداً: «أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه» فمن أين تنبع مثل هذه الأقوال إذا لم تكن نابعة من نظرية الحق الإلهي؟

لذا نجد إن مفهوم الإمارة في الدين وفي منهج أهل البيت عليهم السلام يختلف عن مفهومه في السياسة؛ فالسياسة تبحث عن البهجة الدنيوية وبالتالي تحتاج إلى ما يمنحها قداسة تبحث عنها فوجدوا ضالتهم في نظرية الحق الإلهي معيناً، وفي الكبر سبيلاً. أما السياسة في الدين فتبحث عن تطبيق منهاج الشريعة وتمثل الشريعة وقدسيته حينما يضع المصلح نفسه موضع من يحتاج إلى الإصلاح والنصيحة.

لقد كان الخلفاء الأمويون مدججين بالحرس المدجج بالسلاح وإذا خرجوا خرجت معهم الألوف تحرسهم أو تنتظر فتات خبزهم، وفي قصورهم الفارحة لا يمكن لأحد أن يصل إليهم؛ وقد أورد اليعقوبي نبذة عن من أسس هذا المنهج الاستعلائي في الإسلام، بقوله: «وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرط والبوابين في الإسلام وأرعى الستور واستكتب النصاري ومشي بين يديه بالحرايب وأخذ الزكاة من الأعطية وجلس على السرير والناس تحته، وبنى وشيد البناء، وسخر الناس ولم يسخر أحد قبله

(١) فلسفة الدولة في الفكر السياسي الشيعي، الدكتور الشيخ محمد شقير، مصدر سابق، ص ٨٨

واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه»^(١).

بينما يحدثنا التاريخ عن سيد سياسة الدين الإمام علي عليه السلام أنه كان قد ركب دابة لحاجة فتبعه رجل يمشي خلفه، فالتفت إليه وقال له: «ارجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للمتبع ومذلة للتابع» وعند سفر الإمام الحسن عليه السلام لأداء فريضة الحج وهي حالة تكررت أكثر من خمس وعشرين مرة، كان الحجيج يهابونه وينزلون عن رواحلهم احتراماً له ويسيرون معه على الأقدام؛ لأنه كان يحج سائراً، حتى اضطر إلى أن يجانب الطريق العام المؤدي إلى مكة لعدم إحراجهم.

أما لماذا هذا السلوك العلوي؟ فلأن كلام علي عليه السلام أوضح الهدف، فقد صح عنه قوله في إحدى حكمه العظيمة: «قلوب الرعية خزائن راعيها فما أودعها من عدل أو جور وجده فيها» وقد صح في أصول الكافي عن الصادق عليه السلام قوله: «إن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه» بمعنى: من أحب أن يمشي الرجال خلفه. وفي طريقه إلى صفين. لقي الإمام علي عليه السلام دهاقين الأنبار، فترجلوا له واشتدوا بين يديه فسألهم: «ما هذا الذي صنعتموه؟» قالوا: «خلق منا نعظم به أمراءنا. فقال: «والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم وإنكم لتشقون به على أنفسكم في دنياكم وتشقون به في آخرتكم».

وقال الامام علي عليه السلام: «اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»، وكان الإمام علي عليه السلام يرى أن (من ملك استبد) ولذا قال وكرر: «إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضَعْفَةِ الناس حتى يتسع على الفقير فقره» كذلك كان الإمام الحسن عليه السلام يفضل أن يكتب له أهل الحاجة حاجتهم في ورقة، سئل عن ذلك فأجابهم انه لا يريد للسائلين أن يريقوا ماء وجههم، ليحفظ كرامتهم.

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٦٢.

أما السياسيون أصحاب نظرية الحق الإلهي فكانوا يرون أنفسهم أغنياء؛ ولا قانون يفرض سلطته عليهم حتى ولو كان قانوناً إلهياً، وكانوا يبيحون لأنفسهم ما لا يبيحونه لغيرهم؛ لأنهم يشعرون بأنهم فوق البشر؛ ورد في (تجارب الأمم) لابن مسكويه: «وفيها - أي سنة ٣٢١ هجرية - خرج أمر (القاهر) بتحريم القيان والخمر وسائر الأنبذة، وقبض على من عرف بالغناء من الرجال والمخانيث والجواري والمغنيات فنفى بعضهم إلى البصرة وبعضهم إلى الكوفة، وكان القاهر مع ذلك مولعاً بشرب الخمر ولا يكاد يصحو من السكر ويسمع الغناء ويختار من جواري القيان من يريد»^(١).

وتجد في تراث أهل البيت عليهم السلام ما نقله الإربلي عن الإمام الحسن عليه السلام: «ومن كلامه: يا بن آدم أعف عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله سبحانه تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً، إنه كان بين أيديكم أقوام يجمعون كثيراً وبينون مشيداً ويأملون بعيداً، أصبح جمعهم بواراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً».

يا بن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فخذ مما في يديك لما بين يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع» وكان يتلو بعد هذه الموعظة «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى»^(٢).

إن السياسيين سلبوا حرية الناس وحولوهم إلى عبيد؛ لأنهم يرون أنفسهم فوق البشر، أما أئمة الحق فقد فتحوا عيون الناس وأمروهم أن لا يقدسوا الحكام الجهلة؛ لأنهم أصغر مما يبدون عليه. جاء في (بلاغات النساء): «تجرات امرأة من همدان على

(١) المستطرف الجديد، ص ١٤.

(٢) موسوعة الإمام الحسن.

معاوية فقال لها: لقد لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تפטمون»

في كتابه (الحرية في الإسلام) يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: «يقصد بالحرية المدنية في الإسلام الحالة التي تجعل الشخص أهلاً لإجراء العقود وتحمل الالتزامات وتملك العقار والمنقول والتصرف بما يملك وقد منح الإسلام هذا الحق لجميع الأفراد ما عدا الصبي والمجنون والسفيه»^(١)، هكذا بكل بساطة حصر مفهوم الحرية المدنية في الحدود الدنيا لمتطلبات العيش والحياة وكأن الحياة لا تتجاوز هذه الحدود الضيقة، مع أنه يعود ويقول: «ويسوي الإسلام كذلك في هذا الحق بين المسلمين وغير المسلمين فيقرر أن للذمين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق مدنية». وفي هذا يقول رسول الله: «من ظلم معاهداً أو انتقص حقه فأنا خصيمه يوم القيامة»^(٢) وفي كتابه (الدولة الإسلامية) يعتقد الدكتور محمد عمارة أن: «فصائل كثيرة من الصحوة الإسلامية اشتبه عليها الأمر فرددت فكراً ومارست سلوكاً (يوهم) أنها من أنصار (السلطة الدينية) و (الدولة الدينية) برغم إعلانها تميز الإسلام عن الكهانة الكنسية في هذا المقام. وكما كان الخوف والنفور من علمانية تفصل الدين عن الدولة مع الجمود والتخلف الموروث من أسباب هذه المقولات والممارسات التي أوهمت تبني هذه الفصائل لمقولة (السلطة الدينية) و (الدولة الدينية) كانت هذه الشبهات من الدوافع التي انضمت إلى (الخيار التغريبي) فدفعت (النخبة المتغربة) للاستمسك أكثر فأكثر بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة»^(٣) أما المنطق والعقل فيرى أن الأحكام من

(١) الحرية في الإسلام، الدكتور علي عبد الواحد، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨، سلسلة اقرأ

٣٠٤، ص ٩.

(٢) الحرية في الإسلام، ٣٠٤، ص ١٠.

(٣) الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، ص ٦.

أئمة الجور حكموا بقانون نظرية المؤامرة وقانون الحق الإلهي، وأئمة الحق كانوا يرون غير ذلك، يرون كما قال الإمام الصادق عليه السلام إنه: «لا دين لمن دان بولاية إمام جائر»، ومن قانون التنصيب الإلهي ولد التواضع والتأسي والتشبه بفقراء المسلمين وعامتهم، وقبلته ولد من نظرية الحق الإلهي الكبر والتعجب. وعليه ترى مدرستنا أن التكبر أحد درجات الإلحاد، فعن حكيم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى الإلحاد، فقال: «الكِبَرُ أدناه»^(١)

إن الكبر: حالة نفسية تجعل الإنسان يترفع ويتعالى على الآخرين... وهو من آثار العجب وتوابعه، والفرق بينهما أن العجب هو الإعجاب بالذات، بينما الكبر هو التعالي والتعاضم على الناس^(٢) والتكبر على عباد الله يرجع بحسب نظر أهل المعرفة إلى التكبر على الله، وأقبحه التكبر على العلماء، ويدخل في هذا التكبر أيضا رفض مجالسة الفقراء والتقدم في المجالس والمحافل وفي المشي والسلوك^(٣) بل إن مصدر الكبر هو دونية النفس وذلتها؛ فمن يجد في نفسه ذلة يعالجها بالتكبر على عباد الله سبحانه، وقد صح عن الإمام الصادق عليه السلام، قوله: «ما من رجل تكبر، أو تجبر، إلا لذلة وجدها في نفسه» وصح عنه عليه السلام، قوله: «ما من أحد يتيه، إلا من ذلة يجدها في نفسه»

إن توهم الإنسان الكمال يدفعه إلى العجب بنفسه بما يحجب كمال الآخرين، فيراهم أدنى منه منزلة فيترفع عليهم، وقد كان الخلفاء يتكبرون على كل طبقات الشعب؛ فهم يعتقدون بأنهم يحكمون باسم الله، ولقد أحيوا العصبية الجاهلية؛ لأنها تتواءم مع نظرية الحق الإلهي، أما أئمة العدل فيرون الناس سواسية، فقد جاء في أصول الكافي: «سَخِرَ

(١) الكبر، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، كربلاء المقدسة، العراق، ص ١ .

(٢) ينظر، المصدر نفسه، الكبر

(٣) ينظر المصدر نفسه

بعض الناس من نبطي بحضور الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، فردهم قائلاً: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه، والناس في آدم مستون^(١).

وفي طبقات ابن سعد: زوج علي بن الحسين ابنته من مولاه واعتق جارية له وتزوجها، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيره فلم يلتفت إليه. لأن مروان عمل بعصيته التي زرعت الكبر في نفسه بعيداً عن الدين، والإمام عمل بدينه بعيداً عن العصبية. وروى ابن شهر آشوب: عن كتاب (الفنون) عن أحمد بن المؤدب، و(نزهة الأبصار) عن ابن مهدي أنه: «مر الحسن بن علي على فقراء وقد وضعوا كسيورات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا له: هلم يا بن بنت رسول الله إلى الغداء، قال: فنزل وقال: إن الله لا يحب المستكبرين، وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم»^(١).

قال الخوارزمي: «عن مدرك بن راشد، قال: كنا في حيطان لابن عباس فجاء الحسن والحسين فطافا بالبستان فقال الحسن: أعندك غداء يا مدرك؟ فقلت له: طعام الغلمان، فجئته بخبز وملح جريش وطاقت بقل، فأكل ثم جيء بطعامه، وكان كثير الطعام طيبة فقال: يا مدرك اجمع غلمان البستان، فجمعتهم، فأكلوا ولم يأكل، فقلت له في ذلك فقال: ذاك كان عندي أشهى من هذا ثم توضأ ثم جيء له بدابته فأمسك ابن عباس له بالركاب وسوى عليه ثم مضى، فقلت لابن عباس: أنت أسن منهما أفتمسك لهما؟ قال يا لكع أما تدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله، أو ليس مما أنعم الله علي أن أمسك لهما وأسوي عليهما؟»^(٢).

(١) موسوعة الحسن <http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/tawado3.html>

(٢) الموسوعة، المصدر نفسه.

وكان الإمام علي عليه السلام يسمي قصر الإمارة في الكوفة قصر (الخبيل) فالإمارة في عقيدته: «لا تساوي شسع نعلي، ما لم أقم بها عدلاً وأدخر باطلاً» وقضى عمراً في بيت أم هاني الذي استأجره منها بعيداً عن القصر وبذخه، ومن شدة تواضع علي عليه السلام أنه كان يغضب إذا داس المسلم نملة في الطريق، ولذا قال محذراً أصحابه: «إذا رأيت نملة في الطريق فلا تدسها، وابتغ بذلك وجه الله عسى أن يرحمك كما رحمتها» وهذا هو نهج الرسالة الحق، وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ».

قال السبزواري: قال الحسن بن علي عليه السلام: «إن من أخلاق المؤمنين: قوة في دين، وكرماً في لين، وحزماً في علم، وعلماً في حلم، وتوسعة في نفقة، وقصداً في عبادة، وتحرجاً في طمع، وبراً في استقامة، لا يحيف على من يبغيض، ولا يائث فيمن يحب، ولا يدعى ما ليس له ولا يجحد حقاً هو عليه، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبغي، مُتَحَشِّعٌ في الصلاة، مُتَوَسِّعٌ في الزكاة، شكور في الرخاء، صابر عند البلاء، قانع بالذي له، لا يطمح به الغيظ ولا يجمع به الشح، يخالط الناس ليعلم ويسكت ليسلم، يصبر إن بُغِيَ عليه ليكون إلهه الذي يجزيه ينتقم له».^(١) وقال الإمام الحسن عليه السلام: «أوسع ما يكون الكريم بالمغفرة إذا ضاقت بالمذنب المعذرة».^(٢)

لقد كان الإمام الحسن عليه السلام من شدة تواضعه عفيفاً مطيعاً مؤمناً صابراً محتسباً، وكان أعبد أهل زمانه وأفضلهم، وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، وعن ابن عباس أنه قال: «ما ندمت على شيء فاتي في شبابي إلا أني لم أحج ماشياً، ولقد حج

(١) موسوعة الإمام الحسن، مصدر سابق

(٢) موسوعة الإمام الحسن

الحسن بن علي عليه السلام خمساً وعشرين حجة ماشياً^(١) ومرة أراد الإمام الانصراف من مكان كان يجلس فيه، فجاءه فقير فرحب به ولاطفه، وقال له: إنك جلست على حين قيام منا أفتأذن لي بالانصراف؟ فقال الفقير: نعم يا ابن رسول الله.

ويروى بأن الحسن عليه السلام حينما تسلم الخلافة ساوى بين الناس في العطاء وساوى بين سيدة قرشية وأمة في العطاء، فغاض القرشية، فقالت: أتساوي في العطاء بيني وبين هذه الأمة؟ فرمقها بطرفه، وأخذ بيده قبضة من التراب، وجعل يقلبها ويقول: لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعضه.

فضلا عن ذلك سن أئمة الجور قانون السب والشتيمة في الإسلام، لأنهم متكبرون يرون أنفسهم فوق البشر، فجعلوا من سب علي عليه السلام سنة يتقربون بها إلى ربهم الذي يعبدون، وفي حديثه عن بيعة عمر بن عبد العزيز قال النويري: «أول ما ابتدأ به عمر بن عبد العزيز أن ترك سب علي بن أبي طالب عليه السلام على المنابر، وكان يسب في أيام بني أمية إلى أن ولى عمر فترك ذلك، وأبدله بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فحل ذلك عند الناس محلاً حسناً، وأكثروا مدح عمر بسببه، فكان ممن مدحه كثير عزّة بقوله:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف	بريّا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما	تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدقت معروف الذي قلت بالذي	فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه	

(١) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ص ٢٢

من الأود البادي ثقاف المقوم»^(١)

يستوقفني هنا قول النويري: «فحلّ ذلك عند الناس محلاً حسناً، وأكثروا مدح عمر بسببه» فهذا معناه أن الشعب كان مسلوب الإرادة، يخالف الشريعة في سبيل رضا السلطان، وقد شعروا بعد منع الخليفة السب بنوع من الحرية التي عبروا عنها بالفرح الذي أظهروه.

وكان الخلفاء الدنيويون يأخذون البريء بذنب المجرم خير مثال على ذلك: خطب زياد بن أبيه خطبته البتراء فقال فيها: والله لأخذن البريء بالسقيم والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدبر. فنهض أبو بلال بن مرداس وقال: أيها الرجل قد سمعت قولك، ولعمري لقد خالفت ما حكم الله في كتابه إذ يقول ﴿وَلَا تُزْرُ وَأِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾. معاوية ذاته بعد أن ولغ في دماء الهاشمين كف نوعاً ما عن مطاردة الباقين منهم بعد مقتل الحسن عليه السلام ولكنه ضيق عليهم عيشهم، لكي يذلهم ويرغم أنوفهم، ولذا تراه يوم حج سنة ٤٤ هجرية آتاه جماعة من بني هاشم، وكلموه في أمورهم، فقال: «أما ترضون يا بني هاشم أن نقر عليكم دماءكم وقد قتلتم عثمان حتى تقولوا ما تقولون؟ فوالله لا أنتم أجّل دماً من كذا وكذا، وأعظم لهم في القول».^(٢)

بينما ترفع أئمة العدل عن سب أعدائهم الحقيقيين المجرمين، وفي شرح نهج البلاغة: «خرج بعض أصحاب علي عليه السلام يشتمون أهل الشام فمنعهم، وقال: كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين، تشتمون وتبرأون؛ ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم، فقلتم من سيرتهم كذا وكذا ومن أعمالهم كذا وكذا كان أصوب».

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢١، ص ٣٥٨.

(٢) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٥٥.

بين العوالم بساستها، فإذا صلحوا صلحت، وإذا فسدوا فسدت، وبالتالي لا بد من
ما تولى وحكم وتحكم في أمة الإسلام إِمعات زوايا التاريخ معاوية ويزيد وخلفاء بني
أمية وبني العباس والسلاجقة والعثمانيون، الذين تولوا ظلم الناس وسلبهم حقوقهم

ففسدوا وأفسدوا: «سأل معاوية الأحنف بن قيس عن الزمان فقال: أنت الزمان، فإن
صلحت صلح، وإن فسدت فسد»^(١)، وقد جاء في نهاية الأدب للنويري قول معاوية:

«نحن الزمان فمن رفعناه ارتفع ومن وضعناه انخفض»^(٢) ن مصداقاً لهذا الرأي. ولذا
ضعف الوازع الديني عند الناس، وهم يرون ما جاهدوا من أجله يضعهم ويرفع
الإمعات لتحكم باسم الإسلام، فالعين حينما تعذب، تعذب معها الأنهار التي تأخذ
ماءها منها، قدم علي عمر بن عبد العزيز رجل من أهل الثغور له سن وعقل فسأله:

كيف رأيت **الصلح في الجبرية والكلية**؟^(٣)

^(١) طرف الجديد، مصدر سابق، ص ١٣.

^(٢) فنون الأدب، ج ٢١، ص ٣٤٢.

بعض ملامح أخلاق الإمام الحسن عليه السلام السياسية

يقول السيد صدر الدين القبانجي: «العقيدة الإسلامية في الله، والإنسان، والكون، هي الأصول النظرية العامة التي يعتمد عليها النظام الإسلامي عموماً سواء في المجال السياسي أو غيره»^(١) بمعنى أن هذه الأركان الثلاثة هي أسس السياسة الإسلامية، ومن تمسك بها من السياسيين يبقى في دائرة الدين ومن تخلى عنها، بعضاً أو كلاً يغادر الدائرة. والحسن عليه السلام وفق ما وصلنا عنه حصر نفسه في مركز الدائرة ولم يفارقه إلا وهو محمول إلى مدفنه في البقيع، والسياسيون أثبتوا وأثبت ما جاء عنهم من قصص وأخبار وروايات أنهم فارقوا الدائرة حتى قبل أن يتسلطوا على رقاب الناس. وللتمييز بين المنهجين سوف أطلق اسم (المشرقيين) على أتباع المنهج الإسلامي الإمامي واسم (المغربيين) على السياسيين الإسلامويين الدنيويين وأتباعهم اقتباساً مما جاء في نعي الإمام علي عليه السلام لمالك الأشر عليه السلام لما وصله خبر استشهاد؛ والذي قال فيه: «ألا أن مالك بن الحرث قد قضى نحبه وأوفى عهده ولقي ربه، فرحم الله مالكا.. لو كان جبلاً لكان فنداً ولو كان حجرًا لكان صلدًا.. لله مالك، وما مالك، وهل قامت النساء عن مثل مالك، وهل موجود مثل مالك.. أما والله هلاكه قد أعز أهل المغرب وأذل أهل المشرق»^(٢).

وفي حديثي عن سياسة المشرقيين أنقل بدءاً قول الإمام الصادق عليه السلام: «ما من

(١) المذهب السياسي في الإسلام، صدر الدين القبانجي، ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥م

١٤٠٥هـ، ص ١٧.

(٢) البحار، ج ٣٣ ص ٥٩١.

شيء إلا وفيه كتاب أو سنة»^(١) لأقول: إن سياسة الدين لها أصول في الكتاب والسنة، والصلح واحد من المناهج السياسية يختلف عنه في السياسة الدينية عما هو عليه في سياسة الغربيين؛ فالصلح في منهج الإسلام والإمامة المعصومة حق مقدم على الحرب وقد اخذ الأئمة عليهم السلام ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ولذا تراهم يتأخرون عن الحرب، إلا إذا ما فرضت عليهم، ويتقدمون إلى الصلح ما دام ذلك ممكناً ومتاحاً، وفي عهده إلى مالك الأشتر عليه السلام قال سيد المتكلمين الإمام علي عليه السلام: «ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة لهمومك وأمناً لبلاك»^(٢)

وفي كتاب الله قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣) وهي الآية التي قال القرطبي في تفسيرها: «﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: عام في الدماء والأموال والأعراض، وفي كل شيء يقع التداعي والاختلاف فيه بين المسلمين، وفي كل كلام يراد به وجه الله تعالى. وفي الخبر: (كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ما كان من أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله تعالى). فأما من طلب الرياء والترؤس فلا ينال الثواب... وعن أنس بن مالك أنه قال: من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة. وقال النبي ﷺ لأبي أيوب: ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله، تصلح بين

(١) الكافي، الكليني، مج ١ ص ٩٥.

(٢) ينظر: فلسفة الدولة في الفكر السياسي الشيعي، ولاية الفقيه أنموذجاً، الدكتور الشيخ محمد

شقيق، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٨٧.

(٣) سورة النساء ١١٤.

أناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا. وقال الأوزاعي: ما خطوة أحب إلى الله عز وجل من خطوة في إصلاح ذات البين، ومن أصلح بين اثنين كتب الله له براءة من النار. وقال محمد بن المنكدر: تنازع رجلان في ناحية المسجد فملت إليهما، فلم أزل بهما حتى اصطلحا، فقال أبو هريرة وهو يراني: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد^(١).

وقال ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب حدثنا أبي حدثنا صالح بن كيسان حدثنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً. وقالت لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها. وقال الإمام أحمد: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين. قال: وفساد ذات البين هي الحالقة. عن حميد عن أنس أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: ألا أدلك على تجارة؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: تسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا. ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً^(٢).

وعلى هذا الاعتبار اتخذ الإمام الحسن عليه السلام الآية الكريمة والأحاديث النبوية الساندة لها فضلاً عما يحمله من موروث روائي عن جده وأبيه مرشداً، وجعل كل ذلك لب منهجه السياسي في الصلح خاصة والإصلاح بين الناس عامة ابتغاء مرضاة الله

(١) تفسير القرطبي، سورة النساء.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة النساء.

سبحانه وتعالى؛ لأنه كان يرى جميع الطرق الأخر مغلقة أمامه إلا الصلح، فإنه كان الخيار الأمثل والحل الأشمل الذي يضمن الحفاظ على قيم الخير بين العالمين. ولذا أرى ويرى كثير من المنصفين ولاسيما منهم من فهم الجهد الكبير الذي قام به الإمام الحسن عليه السلام أهمية الصلح وعظيم شأنه، بل إن محسن الأراكي يرى أن «صلح الإمام الحسن يعد بحق من أهم المقاطع التاريخية بعد وفاة رسول الله ﷺ»^(١).

ومن المتعارف عليه عند العقلاء أنه لا يمكن لمن لا يريد إرضاء الله تعالى، ومن يعارض الحفاظ على قيم الخير ويطمع بالرئاسة والإمرة ويسعى إليها على جبال من الجحاشم وآهات الأبرياء، أن يكون داعياً لصلح تحقق به دماء المسلمين وتصان أعراضهم، نعم ممكن له أن يُسَخَّر هذه المفردة ومضمونها لتحقيق مكاسب سياسية دنيوية وفق رؤى مكياfli في كتابه (الأمير)، حيث قال بعد حديثه عن الممالك التي يتم احتلالها بمساعدة الآخرين أو بمساعدة الحظ: «ولما كان ثمة سبيلان آخران للوصول إلى الإمارة.. فمن واجبنا أن لا نمر بهما مر الكرام.. وأحد هذين السبيلين يتلخص في وصول المرء إلى مرتبة الإمارة عن طريق وسائل النذالة والقبح»

ولقد أسهب مكياfli في حديثه عن صفات هذا النوع من الأمراء بما يبدو متطابقاً كلياً مع أخلاق معاوية الذي وصل إلى الإمارة بالمكر والخداع والنذالة والقبح، فقال: «ارتقى (أغاتو كليس) الصقلي العرش وهو من أخط الطبقات وأدناها في بلاده (كما كان معاوية من أخط الطبقات وهم الطلقاء) فقد وُلِد لأب يعمل في صناعة الخزف، ونشأ على حياة امتازت ببالغ الشر والفضاعة في جميع مراحلها، ومع ذلك فقد صاحبت فظاعته حيوية في العقل والجسم (كما كان معاوية يوصف بالعقل الداهية) فتمكن

(١) صلح الإمام الحسن وثورة الإمام الحسين من منظور السنن التاريخية في القرآن الكريم، محسن الأراكي، مجمع أهل البيت، النجف الأشرف، ١٤٣٣هـ، ص ٣٣.

بعد انضمامه إلى المتطوعة (كما تمكن معاوية بعد انضمامه إلى الإسلام في أواخر أيامه) من الارتقاء في مراتبها حتى وصل إلى درجة قاضي القضاة (كما وصل معاوية إلى درجة الولاية على الشام) وعندما عُيِّن في هذا المنصب قرر أن يصبح أميراً (تماماً كما فعل معاوية في الشام) وأن يحافظ بالعنف ودون اللجوء إلى الآخرين.. وعلى الرغم من هزيمته أمام القرطاجيين ومحاصرتهم له في مدينته (كما انهزم معاوية في صفين أمام جيش الخلافة) تمكن من الدفاع عنها (كما فعل معاوية بالدعوة إلى التحكيم) ثم ترك فيها جزءاً من قواته ليواصلوا الدفاع وغزا بالبقية ساحل أفريقية (كما فعل معاوية بغزو العراق أيام خلافة الحسن عليه السلام) وتمكن في وقت قصير من تحرير سراقوسة وإنقاذها من الحصار وأرغم القرطاجيين بعد أن ألحق بهم ضربات شديدة على مصالحته (تماماً كما فعل معاوية مع الإمام الحسن عليه السلام) والاكتفاء بسيطرتهم على أفريقيا. وكل من يدرس صفات هذا الرجل وأعماله يتبين له أن ليس فيها ما يمكن أن يعزى إلى الحظ؛ لأنه لم يصل إلى مرتبة الإمارة بتعاطف من أي إنسان، وإنما بارتقائه سلم المتطوعة معزّضاً نفسه لألوف المشاق والأخطار، وعندما وصل إليها حافظ عليها بتدابير تنطوي على المشقة والأخطار والشجاعة أيضاً. (تماماً كما فعل معاوية) ولا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة على من يقتل مواطنيه ويخون أصدقاءه ويتنكر لعهوده ويتخلى عن الرحمة والدين (وهي كلها صفات امتاز بها معاوية)... ومع ذلك فإن فظاعته البربرية وتجرده من الشعور الإنساني مضافين إلى ما لا حصر له من مظالمه لا تسمح لنا كلها باعتباره واحداً من الرجال المشهورين^(١).

أما أن يهدف المتحذلق الانتهازي إلى تحقيق روح الإسلام عن طريق الصلح،

(١) ينظر: تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، الدكتور فاروق السعد، ط ٢٤، دار الآفاق

الجديدة، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٩٦-٩٧.

فذلك بعيد ومستحيل. ولكنَّ تبدُّل الموازين والقيم ساوياً للأسف بين الاثنين (المؤمن العقائدي والديني الانتهازي)، بل وفضل الثاني (معاوية) على الأول (الحسن عليه السلام)، وهذا من عجائب ما مر على الأمة المسلمة وتاريخها. حدث هذا مع أنك تجد في أقوال الطرف الأول (الإمام الحسن عليه السلام) أدلة على هذا الشاهد لا تجد مثلها أو قريباً منها في الطرف الآخر، منها ما أخرج الدولابي: «عن جبير بن نفير عن أبيه قال: قدمت المدينة، فقال الحسن بن علي عليه السلام: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمات ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين»^(١)، فهذا الابتغاء الوارد في هذا الحديث جيد الإسناد لا تجد له مكاناً عند من حارب الحسن عليه السلام، ثم ادَّعى أتباعه من بعد: بأنه كان صاحب فكرة الصلح حقناً لدماء المسلمين وحفاظاً على الدين، كيف وهو الذي كان دائبَ البحث عن الزعامة على حساب أشلاء المسلمين، حتى أنه أمر قواده بمهاجمة حدود الدولة الإسلامية، ليزعزع حكم الإمام علي عليه السلام فهاجم قوافل الحجاج، وقتل الأبرياء، ونكّل بكل محبٍ لعلي دونما سبب، إلا لكي يضعف الخلافة فتصل إليه معمدة بالدماء وأشلاء الأبرياء؟

لقد وعى قلب الإمام الحسن عليه السلام المنهج التربوي الإسلامي ومنهج الإمامة المعصومة، بعد أن نهل العلم من جده وأبيه وأمه عليهم السلام وبعد أن أعدّه جده النبي صلى الله عليه وآله لأداء الأدوار السياسية المعقدة، وهذا ما سنتوسع فيه بعد قليل، وكان قلبه مقبلاً على الدين، لأنه أبصر الحقيقة تعلماً من أهله ونكتاً في القلب. ومن المعروف أن المنهج التربوي الإمامي أهتم كثيراً بموضوع شهوات القلب وميوله، فجاءوا من هذا الجانب تبعاً لما أخبرهم به أبوهم الإمام علي في قوله: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فاتوها

(١) الدولابي، وقال في الهامش: إسناده جيد، حديث ١١٠، ص ٧١.

من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عُمي^(١).

وهو وأخوه الحسين عليهما السلام أورثا المعصومين من أولادهم هذا الفهم، فأذاعوه بين الناس، كما في قول الإمام الرضا عليه السلام: «إن للقلوب إقبالاً وإدباراً ونشاطاً وفتوراً، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلت وملت، فخذوها عند إقبالها ونشاطها واطركوها عند إدبارها وفتورها»^(٢).

ولا يخفى أن الإمام الحسن عليه السلام كان شريكاً لأبيه الإمام علي عليه السلام في الحياة السياسية، ومنهجهما السياسي واحد مشترك قائم ومبني على مبدأ الحلال والحرام حرفياً، وهذا يختلف عن سياسة أهل الدنيا الذين ما إن يدخلوا معترك السياسة حتى يعطّلوا منظومة الحلال والحرام، وغالباً المنظومة الأخلاقية كلها. فقد أخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عائشة قال: «أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف في حجره يقرأ، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك». والرواية من طريق آخر عن ابن الأعرابي قال: «لما سلّم على عبد الملك بن مروان بالخلافة كان في حجره مصحف فأطبقه، وقال: هذا فراق بيني وبينك»^(٣)، وقال الذهبي: «أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف بين يديه، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك»^(٤)، وقال الراغب في المحاضرات: «كان عبد الملك بن مروان يُسمى حمّامة المسجد للزومه المسجد الحرام، فلما أتاه الخبر بخلافته كان المصحف في حجره فوضعه وقال: هذا فراق بيني وبينك»^(٥)، وقال الدميري: «والذي لقّب عبد الملك بحمّامة

(١) شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٦، ص ١١.

(٢) المنهج التربوي عند أهل البيت، السيد سعيد كاظم العذاري، دار الأمين للطباعة والنشر،

بيروت، ص ١٠-١١.

(٣) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ٣٨٨.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٥) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف

المسجد عبد الله بن عمر بن الخطاب، وجاءته الخلافة وهو يقرأ في المصحف فطبقه، وقال سلام عليك هذا فراق بيني وبينك». وفي السياق نفسه، وتبعاً للمنهج نفسه، يُذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يُدرّس القرآن للأطفال، وعندما التحق بركب عبد الملك بن مروان قال هو الآخر للقران: «هذا فراق بيني وبينك»!

إن سياسة الحسن عليه السلام تختلف في المنهج والمضمون عن غيرها من السياسات، وهي مبنية على مباني الإسلام نفسه، ولذا تراه عليه السلام يعبر عن رؤاه في السياسة يوم سأله بعض الناس عن رأيه فيها، فقال: «هي أن تراعي حقوق الله، وحقوق الأحياء وحقوق الأموات؛ فأما حقوق الله فأداء ما طلب والاجتناب عما نهى، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو أخوانك ولا تتأخر عن خدمة أمتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأتمته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا حاد عن الطريق السوي، وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم، فإن لهم رباً يحاسبهم»^(١) ويعبر عن رأيه في الخليفة الذي يسوس الناس ويقودهم فهو بنظر الحسن عليه السلام: «من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وعمل بطاعة الله عز وجل. وليس الخليفة من سار بالجور وعطل السنن واتخذ الدنيا أمأ وأباً، وعباد الله خولاً، وماله دولاً، ولكن ذلك أمر ملك أصاب ملكاً، فتمتع منه قليلاً، كأن قد انقطع عنه»^(٢)

ضمن هذه السياقات الحدية مارس الإمام الحسن عليه السلام السياسة العقائدية وهو مايزال

بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤٢٠ هـ، ج ١، ص ١٧٢.

(١) الحياة السياسية للإمام الحسن في عهد الرسول صلى الله عليه وآله والخلفاء الثلاثة بعده، جعفر مرتضى العاملي، ط ٤، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، لبنان، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م، ص ٥.

(٢) الاحتجاج، ج ١ ص ٤١٩ والخرائج والجرائح ص ٢١٨.

طفلاً لم يتجاوز الخامسة من عمره الشريف، مارسها على يد جده النبي الأكرم ﷺ. ومن بين كل المواقف التي أراد النبي ﷺ من خلالها إظهار قيمة وأهمية الحسن والحسين عليهما السلام في الحياة العامة للمسلمين لكي تكون دليلاً لمن في قلبه مرض على إمامتهما الشرعية هناك في أقل تقدير ثلاثة مواقف تؤكد بها لا يقبل الشك أن النبي ﷺ كان يعدّهما لدور سياسي قادم يحتاجان معه إلى هذه القوة الروحية التي لا يمكن نكرانها أو التحجج لتسقيطها وإبطال أثرها وهذه المواقف الثلاثة هي على التوالي:

• الموقف الأول: شهادتهما على كتاب ثقيف:

حيث أمر النبي ﷺ بأن يوقعا شاهدين على هذا الكتاب المهم بالرغم من صغر سنهما، مستثنيا كل الصحابة الذين كانوا يحيطون به يومها. وهذا أزعج كثيراً من الأولين والآخرين. ومن الآخرين الذين أزعجهم هذا التمايز الإلهي كان (محمد خليل هراس) الذي قال في تعليقه له على الأموال: «ولا يجوز القول بأن تلك خصوصية لهما عليه السلام إذ لا دليل عليها، ومادام الطفل مميزاً يجب أن تعتبر شهادته، فإنه قد يحتاج إليها»^(١) وكفى برد السيد العاملي إخراساً لمن يبحث عن التأويل المدعوم بكثير من الحقد والكذب، كفى به دليلاً ليثبت أن قول الهراس مجاف للحقيقة، فقد قال ردّاً عليه: «لم يجد النبي ﷺ أحداً من الصحابة يستشهد على ذلك الكتاب الخطير الذي يرتبط بمصير جماعة كثيرة سوى هذين الصبيين؟! وهل كان وحيداً فريداً حينما جاءه وفد ثقيف، وكتب لهم ذلك الكتاب حتى احتاج إلى استشهاد ولدين صغيرين لم يبلغا الخمس سنوات، إن أدنى مراجعة للنصوص التاريخية لتبعد كل البعد هذا الاحتمال الأخير، حيث إنها صريحة في أن رسول الله ﷺ قد ضرب لهم (لثقيف) قبة في المسجد ليسمعوا القرآن، ويروا الناس

(١) ينظر: الحياة السياسية للإمام الحسن، جعفر مرتضى العاملي ص ٤٣، عن الأموال، هامش

إذا صلوا وكان خالد بن سعيد بن العاص حاضراً، وكان خالد بن الوليد هو الكاتب، ومع ذلك لم يشهدا على الكتاب»^(١).

• الموقف الثاني: اصطحابهما يوم المباهلة

وهو ما قال عنه السيد العاملي: «إن إخراج الحسين عليه السلام في قضية المباهلة لم يكن بالأمر الاعتيادي، أو الاتفاقية.. وإنما كان مرتبطاً بمعانٍ ومداليل هامة، ترتبط ترتبط بشخصية الحسين عليه السلام نفسها، فقد كانا ذلك المصداق الحقيقي، والمثل الأعلى، والثمرة الفضلى التي يعنى الإسلام بالحفاظ عليها، وتقديمها على أنها النموذج الفذ لصناعته الخلّاقة، والبالغة أعلى درجات النضج والكمال»^(٢).

نعم هناك مناقشة طرحها بعض المحققين، مفادها إن: «الآية لا تدل على أكثر من أن المطلوب هو إخراج أبناء أصحاب هذه الدعوة الجديدة، كما يدل عليه قوله (أبناءنا) ولم يقل (أبنائي)، وليس في الآية ما يدل على لزوم إخراج ابني صاحب الدعوة نفسه، فكون الحسنان ابني لبعض أصحاب الدعوة كاف في الصدق». وقد أجاب السيد العاملي على هذا الرأي بقوله:

الأول: إن الإمام علياً عليه السلام قد استدل بهذه الآية يوم الشورى على أن الله سبحانه قد جعله نفس النبي صلى الله عليه وآله، وجعل ابنه ابنه، ونسائه نسائه. واحتج بها أيضاً الإمام الكاظم عليه السلام على الرشيد، واحتج بها يحيى بن يعمر، وكذلك سعيد بن جبير على الحجاج... فلم يكن استدلالهم بأمر تعبدي بحث، وإنما بظهور الآية، الذي لم يجد الخصم سبيلاً إلا التسليم به، والخضوع له.

(١) الحياة السياسية للإمام الحسن، ص ٤٣-٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠.

الثاني: لو كان المراد مطلق أبناء أصحاب الدعوة، لكان المقصود بأنفسنا مطلق الرجال الذين قبلوا بهذا الدين، وليس شخص النبي ﷺ فقط.. وعليه فقد كان الأنسب أن يقول (ورجالنا ورجالكم) بدل قوله (وأنفسنا)^(١).

• الموقف الثالث: مبايعة النبي ﷺ لهما في بيعة الرضوان.

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «بيعة رسول الله لهما، ولم يبايع صبيًا في ظاهر الحال غيرهما، ونزول القرآن بإيجاب ثواب الجنة لهما على عملهما، مع ظاهر الطفولية فيهم» وهي البيعة التي قال عنها الخليفة المأمون العباسي في ضمن احتجاجاته على أهل بيته فيما يتعلق بالإمام الجواد عليه السلام: «وبايع الحسن والحسين وهما دون الست سنين، ولم يبايع صبيًا غيرهما»^(٢) وأنا أرى أن هذه المواقف الثلاثة جاءت ضمن مخطط الإعداد الحياتي لهما لكي يتهيئا لأداء عملهما القيادي.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قدم الحسن والحسين عليهما السلام إلى الأمة بمقدمات ترفعهم وتُعرف الأمة بهم وبأثرهم المستقبلي، ومن خلال مجموعة ضخمة من الأحاديث، منها: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما» وعن أنس قال: «سُئِلَ رسول الله ﷺ: أي أهل بيتك أحب إليك؟ قال: الحسن والحسين» وقوله عليه السلام: «الحسن والحسين إمامان قاما أم قعدا» وفي مودة ذوي القربى، إنه عليه السلام قال للحسين: «أنت سيد ابن سيد أخو سيد، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام، وأنت حجة ابن حجة أخو حجة، وأنت أبو حجج تسعة، تاسعهم قائمهم»، وفي ينابيع المودة قال عليه السلام عن الإمام الحسن: «وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمري،

(١) الحياة السياسية للإمام الحسن، جعفر مرتضى العاملي، ص ٢٦٠-٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

وقوله قولي، من تبعه فإنه مني، ومن عصاه فإنه ليس مني»، وقوله: «أنا سلم لمن سالمتم، وحرب لمن حاربتم»^(١)، وفي نص عن أنس بن مالك قال: «دخل الحسن على النبي ﷺ فأردت أن أميطه عنه، فقال ﷺ: ويحك يا أنس، دع ابني، وثمرة فؤادي، فإن من آذى هذا آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»^(٢) وعن أنس قال: «بينما كان رسول الله ﷺ راقدًا إذ جاء الحسن عليه السلام يدرج حتى قعد على صدره.. فجئت أميطه عنه، قال: ويحك يا أنس دع ابني وثمرة فؤادي فإن من آذى هذا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»^(٣).

إن الوعي السياسي المبكر للإمام الحسن عليه السلام من غير تلك النقاط التي ذكرناها يترجمه موقفه من الخليفة أبي بكر، فقد جاء في الصواعق المحرقة لابن حجر: «أخرج الدارقطني أن الحسن جاء لأبي بكر وهو على منبر رسول الله ﷺ فقال: انزل عن مجلس أبي. فقال: صدقت والله إنه لمجلس أبيك، ثم أخذه وأجلسه في حجره وبكى. فقال علي عليه السلام: أما والله ما كان عن رأيي، فقال: صدقت والله ما أتهمك»^(٤)، وهذا يعني أنه عليه السلام كان واعياً بما يدور وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره الشريف بعد.

السياسيون من جانبهم استغلوا مبدئية أخلاق المعصومين عليه السلام، ونفذوا من خلالها ليشتبوا لأنفسهم بطولة زائفة قائمة على الكذب والدجل والدس والحقد وقيم

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٩٩، وسنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٢، وينابيع المودة ص ١٦٥ عنهما و ص ٢٣٠ و ٢٦١ و ٣٧٠ عن جامع الأصول وغيره وروضة الواعظين ص ١٥٨، وذخائر العقبى ص ٢٥، ومقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ٥.

(٢) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، احمد بن حجر الهيتمي المكي، مكتبة القاهرة، مصر، ص ٥.

(٣) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، مصدر سابق، ص ٣٧.

(٤) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، مصر، ص ١٧٧.

الجاهلية^(١)؛ لأنهم يفجرون ويغدرون والمؤمن لا يغدر ولا يفجر.

فضلاً عن ذلك أرادت السياسة التعامل مع كل من وقف بوجهها واعترض على مشاريعها بنفس الآلية والأسلوب والشدة المفرطة، وهم لشدة حرصهم على دنياهم اعتبروا أبسط الأعمال تحدياً مصيرياً وقفوا بوجهه بحزم وقوة مميتة، ولم يلتفتوا يوماً إلى الصلح بوصفه حلاً مقترحاً من الحلول، وقد اعتبروا تهيو الإمام الحسن عليه السلام للدفاع عن مبادئ الإسلام أكبر تحدٍ واجههم؛ لأن انتصار الإمام عليه السلام سيعني هزيمة كلية لا عودة لهم معها إلى الساحة؛ لكونها تختلف عن كل الهزائم السابقة، وأن يتقدم الحسن عليه السلام بطلب الصلح في هذا الوقت المصيري بالذات، فذلك يعني أن الموازين سوف تنقلب وسيتم ترتيب الأوضاع من جديد وهذه أكبر مفاجأة للجميع ولذا ترى السياسيين يستغلون الفرصة المتاحة ويوظفونها أجمل توظيف، ومن أجواء وتمظهرات المفاجأة تم النظر إلى الصلح آلية ومضموناً فاستحسنه بعضهم، وشكك فيه بعضهم الآخر. وفي أحسن الأحوال نظر بعضنا إليه على أنه حفظ الإمامة واستمرارية وجودها في الدنيا وحفظ الشيعة من الانقراض، وفي أسوأها نظروا إليه على أنه تخلص عن المسؤولية، وإذلال للشيعة، ولهذا السبب كثرت الأقوال والاعتراضات والتأويلات والشبهات حول الصلح آلية ومضموناً!.

لقد أراد الإمام الحسن عليه السلام من خلال الصلح أن يبدأ بترميم أمة جده عليه السلام التي أصابها الوهن مبكراً؛ بسبب الخلافات والصراعات والحروب البينية المتكررة، بعد أن عرّف بأن الحرب لا يمكن أن تبني ما تم تدميره، وإنما تزيده سوءاً ودماراً، وكان يراهن

(١) بعد أن سار الحسن إلى المدينة: قال المدائني: فقال معاوية يومئذ للوليد بن عقبة بن أبي معيط بعد شخوص الحسن عليه السلام: يا أبا وهب هل مت؟ قال: نعم وشمرت، قال المدائني: أراد معاوية قول الوليد بن عقبة يحرضه على الطلب بدم عثمان. ينظر شرح النهج، م ٤، ج ١٦، ص ٦.

على شروط الصلح، فهي بنظره سلاحٌ ذو حدين إذا التزم بها معاوية أفلسته وعرته وفضحته، وإذا لم يلتزم بها تفلسه وتعريه وتفضحه أيضاً، وهو ما حدث فعلاً، وصدق حدس الإمام (عليه السلام). وعليه تجد أبناء وأحفاد الفصيل السياسي يجاهدون لتغيير هذه الوقائع والحقائق بشتى السبل، فأحدثوا في قواعد الفقه شرحاً، وخرجوا على قواعدها العامة والخاصة، ومنها مخالفتهم لما نص عليه الإسلام من وجوب احترام العقود.

الشروط بين الفقه والفكر السياسي الإسلامي

أفردت الأعم الأغلب من كتب الحديث وكتب الفقه أبواباً للحديث عن (الشروط) ووجوب الوفاء بها، لأن الوفاء بالشروط من أسس دين الإسلام، والإخلال بها يؤدي إلى الإخلال بحقيقة ارتباط المسلم بعقيدته. ولذا كان رسول الله ﷺ يبايع كل من يأتيه ليؤمن بشروط، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»^(١) وفي حديث آخر: «فاشترط علي»^(٢) وكان شرط البيعة مقدساً حتى قيل أن معاوية جثا على ركبتيه أمام قيس بن سعد وضرب يده بيده لكي يعقد البيعة معه ويلزمه بها فلا يعد قادراً على نكثها.

وكان أهل البيت عليهم السلام يلتزمون بعهودهم مهما تغيرت الأحوال ويحثون أتباعهم على الالتزام بها، وفي الطبري: «حدثني محمد بن عمارة الأسدي قال: حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الأصبهاني، قال: حدثنا المسعودي عن ناجية عن أبيه، قال: كنا قياماً على باب القصر إذ خرج عليٌّ علينا فلما رأيناه تنحينا عن وجهه هيبة له، فلما جاز صرنا خلفه، فبينما هو كذلك إذ نادى رجل: يا غوثاً بالله، فإذا رجلان يقتتلان فلكر صدر هذا وصدر هذا، ثم قال لهما: تنحيا، فقال احدهما: يا أمير المؤمنين، إن هذا اشترى مني شاة وقد شرطت عليه ألا يعطيني مغموزاً ولا محذفاً، فأعطاني درهما مغموزاً فرددته عليه فلطمني. فقال للآخر: ما تقول؟ قال: صدق يا أمير المؤمنين، قال: فأعطه شرطه، ثم

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، حديث ٢٧١٥، ص ٤٨١.

(٢) البخاري، حديث ٢٧١٤، ص ٤٨١.

قال للاطم: اجلس وقال للمظلوم: اقتص، فقال: أو عفو يا أمير المؤمنين؟ قال: ذاك إليك، فلما جاز الرجل قال علي: يا معشر المسلمين، خذوه، قال: فأخذه فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتاب، ثم ضربه خمس عشرة درة، ثم قال: هذا نكال لِمَا انتهكت حرمة». ^(١)

وفي عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشر رحمته الله: «وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارعَ ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود» ^(٢).

فضلا عن ذلك أجمعت المدارس الإسلامية على وجوب الوفاء بالشروط الجائزة شرعاً والامتناع عن الارتباط بشروط لا تجيزها الشريعة، والشروط أنواع عدة، منها: شروط الصحة: هي التي يتوقف عليها صحة الفعل شرعاً، كشرط الطهارة للصلاة.

وشروط الوجوب: وهي التي يتوقف عليها وجوب العبادة على المكلف، كاشتراط الإسلام والحرية.

وهناك شروطاً عامة، وأخر خاصة، ويسيرة وصعبة، ومن الشروط للمسلم ولمن يريد أن يسلم قول شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وفي حديث السلسلة الذهبية: «لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور وأراد أن يرحل عنها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا: يا بن رسول الله عليه السلام، ترحل عنا ولا تحذثنا بحديث فنستفيده

(١) الطبري، م ٣، حوادث سنة أربعين للهجرة، ص ٩٤١.

(٢) فلسفة الدولة في الفكر السياسي الشيعي، الدكتور الشيخ محمد شقير، ص ٨٧-٨٨.

منك! وقد كان قعد في العمارية فأطلع رأسه وقال: سمعتُ أبي موسى بن جعفر يقول: سمعتُ أبي جعفر بن محمد يقول: سمعتُ أبي محمد بن عليّ يقول: سمعتُ أبي عليّ بن الحسين يقول: سمعتُ أبي الحسين بن عليّ يقول: سمعتُ أبي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: سمعتُ جبرئيل يقول: سمعتُ الله عزّ وجلّ يقول: لا إله إلاّ الله حصني، فمن دخل حصني أمنَ من عذابي. فلما مرّت الراحلة نادانا: بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها».

إن التعامل مع الآخر أياً كان نوعه يحتاج غالباً إلى التشارط دفعاً للإيham وتوضيحاً للحدود والاستحقاقات، سلماً وحرباً، وعلى هذا تطبّع المسلمون. وهناك شروط في البيع وفي المعاملة وعند عقد النكاح والطلاق وفي المزارعة والولاء والقرض والوقف. والشروط كما هي واجبة الوفاء في السلم والحياة العامة فهي واجبة الوفاء في الحرب كذلك، والوجوب هنا كأبي وجوب آخر يُوقع تقصيراً شرعياً على من يخل به ويضعه تحت المساءلة الشرعية والأخلاقية والقانونية، وقد أجمع المسلمون على أن رسول الله ﷺ ما أعطى شرطاً وأخل به.

وكان الإمام الحسن عليه السلام التلميذ النجيب لوالده الإمام علي عليه السلام علي تلميذ رسول الله ﷺ الأنجب وبالتالي ما كان ليخل بشرط أعطاه لغيره مهما كانت الآثار المترتبة عليه، وهذا واضح في حياة الأئمة المعصومين أجمعهم، كما أن خلافه واضح في أخلاق وسياسة من عاдахهم. ووفق هذا الاعتبار لا نستغرب إذا ما التزم الإمام الحسن عليه السلام بشروط الصلح مع معاوية ونستغرب أشد الاستغراب لو أن معاوية لم يخالف الشروط التي اتفقوا عليها.

فضلاً عن ذلك نجد الدلائل كلها تشير إلى أن من حارب الإمام الحسن عليه السلام ومن

ثم وقع على وثيقة الصلح معه كان كاذباً في دعواه، وأما الحسن في موقفه من الصلح فقد كان صادقاً والتزم حرفياً بما اتفق عليه مع معاوية، فكان مصداقاً لما جاء في البخاري: «عن صالح عن أبي شهاب أن حميد بن عبد الرحمن أخبره: أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً»^(١).

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، حديث ٢٦٩٢، ص ٤٧٦، طبعة دار إحياء التراث، ٢٠٠١.

ما اشتبه عليهم

معنى هذا أننا يجب أن نعرف بداية أن الإمام الحسن عليه السلام كان على إدراك كامل بأن المذهب والإمامة المعصومة يقفان أمام أكبر تحدٍّ ممكن أن يواجهه أي فكر في الكون، كان مدركاً أن السيف ينتظر ما بقي من شيعة أبيه ممن نجوا من محرقة الحروب ودسائس المكر والغيلة لكي يتم القضاء كلياً على فكر التحدي والثبات، ولذا قال لحجر بن عدي الذي عاتبه على الصلح: «إنما صالحت بقياً على شيعتنا خاصّة من القتل»،^(١) هكذا كان الإمام الحسن عليه السلام مدركاً لما ينتظر المذهب على وجه التحديد، والدين على وجه العموم في المنازلة العظيمة المرتقبة، فكان أمام خيارين: إما القبول بالمصالحة على مضض، أو الفناء الكلي للإمامة والمذهب وللدين الحقيقي، ولقد كان الإمام الحسن عليه السلام وري على يقين كامل بما يصنع؛ لأن الأيام أثبتت فيما بعد أن المتربصين بالمذهب والإمامة لا يريدون تحجيم دورهما في الحياة وعزلهما عن الناس فحسب، وإنما كانوا يبغون فناءهما من الوجود كلياً؛ بدلالة أنهم مع كثير جيشهم وقدرتهم على أسر الإمام الحسين عليه السلام ومن كان معه من أصحابه النجباء يوم كربلاء، لجأوا إلى القوة المفرطة وقتلوه وقتلوا كل من يعتقدون بأنه ممكن أن يترك أثراً ولو بسيطاً في الحياة.

إن مقتل الإمام الحسين عليه السلام بتلك الطريقة الشنيعة جاء ليثبت بأن الإمام الحسن عليه السلام ومن معه من شيعته بما فيهم الحسين كانوا سيتعرضون إلى نفس المصير لو لم يوافق على الصلح، مع فارق أن مقتل الحسن عليه السلام ومن معه كان سيُعرض المذهب إلى الفناء الكلي،

(١) الأخبار الطوال، الدينوري، ص ٢٢٠ .

لأن الحسين عليه السلام كان معه في تلك المنازلة وكان معرضاً للقتل أيضاً، فضحى الحسن عليه السلام بنفسه لأنه كان على يقين بأنه سوف يقتل بعد الصلح لكي يبقى على الحسين عليه السلام وعلى الشيعة وهم الذين أوكل الله لهم حفظ الإمامة المعصومة ومذهبها. أما مقتل الإمام الحسين عليه السلام فقد أسهم في تقوية وتمتين وجود المذهب الذي استودعه إياه أخوه الإمام الحسن عليه السلام.

وهنا قد يقول قائل: ولكن التشيع لم يمت بموت الحسين بل ازداد تألقاً، بمعنى أن التشيع ما كان ليموت بموت الإمام الحسن عليه السلام لو أنه قاتل ومات شهيداً في أرض المعركة؟ والجواب على ذلك بسيط جداً، والسبب: ان موت الحسن عليه السلام كان يوجب على الحسين عليه السلام إذا ما نجا من القتل أن يعلن إمامته ويتحمل أعباء المواجهة مع قوة تريد موته كما كانت تريد موت أبيه مع كل ما كان يملكه من قوة ومن مدد، وموت أخيه الذي كان أكثر منه جنداً وأنصاراً، وبالتالي سيكون مضطراً لإعلان الحرب فيموت في أوقات هرج وفتنة دون أن يترك أثراً أو يثير تساؤلاً، وبموته ينتهي وجود الإسلام والمذهب ويتلاشى أثره في الحياة ويتحول إلى فرقة لا تتمكن من قيادة نفسها بل تتحول إلى أمة ممزقة، ثم إن الحسين عليه السلام لم يعلن ثورته في زمن معاوية وانتظر عشرين سنة من سنة أربعين وحتى سنة ستين هجرية لكي يعلن ثورته في الوقت الذي أراده الله، وهذا دليل على أن زمن حراكه كان مؤجلاً إلى حين، أما لو قاتل الحسن عليه السلام وقتل ونجا الحسين عليه السلام وتولى الخلافة من بعده مباشرة، فإنه ما كان ليؤخر ثورته سنين حدثت فيها أنواع مختلفة من الابتداع والتحريف والخروج على قيم السماء، فضلاً عما آلت إليه الخلافة الأموية بعد موت معاوية، فجاءت ثورته لتصحيح ذلك الاعوجاج، ولذا خُلدت في ضمائر الناس. وقبلالة هذا الرأي أرى أنه لو قُيِّض للحسين عليه السلام أن يكون هو بطل الصلح لما كنا سنغفيه مما حملناه على عاتق الإمام الحسن عليه السلام من أقوال وما أثرناه على الصلح من

شبهات. وهي الشبهات التي يأتي بها عادة أتباع فصيل السياسيين القدماء تحديداً نصرة لمعتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم.

نعم هناك من يقول بأن صلح الحسن عليه السلام جاء لدرء الفتنة التي سببها سعي معاوية للملك، وقبلتهم هناك من يقول بأن الصلح بحد ذاته قدم الملك إلى معاوية على طبق من ذهب وبقانون شرعي يتمثل بتنازل الخليفة الشرعي عن حقه في الحكم لأحد الخارجين عليه، بمعنى أن الحسن عليه السلام بالصلح الذي عقده مع معاوية لم يمنع الأخير من الحصول على الملك بل قدمه له سهلاً يسيراً، وكان الأجدر به أن يقاتل كما قاتل أبوه وأخوه من قبل وأخوه من بعده.

إن هؤلاء لا يعرفون تدرج مهام الإمامة المعصومة تبعاً لمستجدات الأحداث، ولم يستوعبوا تاريخهم الحقيقي، وفاتهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حامل رسالة الله إلى البشر كافة وادَّعَى وصالح وحارب حسب الظروف، وما أوجبه عليه الله سبحانه، ومن يقرأ كتب السيرة النبوية يجد أنه صلى الله عليه وآله قاد غزوات عديدة إما لأجل عقد صلح مع هذا الطرف أو ذاك وإما لموادعة هذا الطرف أو ذاك، وإما لمقاتلة هذا الطرف أو ذاك. ومن أشهر موافقه السلمية كان صلح الحديبية مع مشركي قريش الذي عارضه وأعرض عليه بعض الصحابة الذين كانوا معه، وفيهم من كان حاد التصرف مع النبي صلى الله عليه وآله؛ واتهمه بالتهاون مثلما اتهموا حفيده الحسن عليه السلام فيما بعد.

إن ما دفع النبي صلى الله عليه وآله إلى عقد مثل هذا الصلح الذي أوقع فتنة بين المسلمين أنفسهم أنه صلى الله عليه وآله كان يرى في الصلح انتصاراً لا يمكن للحرب أن تحققه ولذا قبل بشروط كفار قريش لما كان يراه من مصلحة للمسلمين في هذا الوقت من زمن البعثة. ولكننا نجد في مواقف آخر لا يقبل إلا بالحرب ويرفض أي بادرة لعقد الصلح، لأنه كان يرى أن

الحرب في هذا الموقف تحديداً وليس الصلح هو ما ينتصر به الإسلام. وقد ثبت أن الإمام الحسن عليه السلام نظر إلى الأمور من حوله بنفس المنظار النبوي، وأدرك أن مصلحة الأمة والدين والمذهب تكمن في الصلح لا في الحرب. فهل يعني ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله ناقض نفسه باتخاذ قرار الصلح في موطن ما وقرار الحرب في موطن آخر، أم أن علينا السكوت عن مناقشة ما لا يمكن أن نعرف أسرارته من أي سلوك وتصرف يصدر عن المعصوم؟

لقد أراد الله سبحانه لصلح الحديبية بالذات أن يكون شاهداً على الصلح الذي سيضطر الإمام الحسن عليه السلام لعقده مع أولاد وأحفاد أولئك الذين صالحهم النبي صلى الله عليه وآله. والموقف الذي بدر من بعض الصحابة يشابه المواقف التي بدرت من بعض أصحاب الإمام الحسن عليه السلام. حتى الحرج الكبير والألم والحسرة الذي خلفه صلح الحسن عليه السلام كانت منه شواهد كثيرة في صلح الحديبية، وما أكبر من أن يرى رسول الله المسلمين المكين يأتونه ليلوذوا بجنباه فيضطر إلى إعادتهم إلى أهلهم المشركين التزاماً بشروط الصلح؟

(حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير: أنه سمع مروان والمصور بن مخزومة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه. فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأت أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً. وجاءت المؤمنات المهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله

يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسألون النبي أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها....»^(١)

لنتابع قصة أبي جندل هذا الذي كانت قريش تسومه سوء العذاب؛ لأنه أسلم فصادروا حرّيته وقيدوه بالأغلال والسلاسل، فلما جلس النبي ﷺ للصلح معهم في الحديبية أفلت من قيوده ولجأ إلى النبي ﷺ طالباً العون فردّه النبي ﷺ إليهم!، وأبو جندل هو ابن سهيل بن عمرو الذي كان يفاوض النبي ﷺ على الصلح. «أسلم قديماً بمكة، فحبسه أبوه وأوثقه في الحديد، ومنعه الهجرة، فلما نزل رسول الله الحديبية وأتاه سهيل بن عمرو فقاضاه على ما قاضاه عليه، أقبل أبو جندل يرسف في قيوده فردّه رسول الله إلى أبيه، لأن الصلح كان بينهم. ثم أفلت بعد ذلك بزمن فلحق بأبي بصير وهو بالعيص وقد اجتمعتا إليه جماعة من المسلمين وكانوا كلما مرت بهم غير قريش اعترضوها فقتلوا من قدروا عليه منهم وأخذوا ما قدروا عليه من متاعهم فلم يزل أبو جندل مع أبي بصير حتى مات أبو بصير، فقدم أبو جندل ومن كان معه من المسلمين بالمدينة على عهد رسول الله فلم يزل يغزو معه ويجهاد بعده في سبيل الله حتى مات بالشام في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة في خلافة عمر بن الخطاب»^(٢)، ولكي أثبت بأن الله تعالى أراد لصلح الحديبية أن يكون شاهداً على صلح الإمام الحسن ﷺ سوف أورد قصة الحديبية كما ترويتها الروايات وكتب التاريخ.

كانت قريش قد آلت على نفسها منذ هاجر الرسول ﷺ والمسلمون معه إلى المدينة أن يصدّوهم عن المسجد الحرام وأن يحولوا بينهم وبين سائر العرب، وقد كاد العام السادس الهجري أن ينتهي ولم ير المهاجرون مكة، وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام

(١) صحيح البخاري، ص ١١٦، ج ٢ كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعات.

(٢) ينظر: المستدرک، ص ٣١١ ت ٣١٢، ج ٣، حديث ٥٢٠٩ / ٨٠٧.

أنه وأصحابه سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمينين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون وأخبر الصحابة بتلك الرؤيا فازدادوا يقينا بأن النصر قريب وأكيد، وفضل النبي ﷺ الذهاب في ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم حتى لا تتوجس قريش منه خيفة وتصدّه عن مكة، وكان عدد المسلمين معه ألفاً وأربعمائة على أرجح الروايات خرجوا في ثياب الإحرام البيض وساقوا معهم الهدى وأحرموا بالعمرة ليعلم الناس أنه خرج زائراً للبيت معظماً له، وحتى لا تفكر قريش في صدّه عن مكة، وكانوا عزلاً من السلاح إلا ما يحمله كل مسافر وهو سيف في قرابة.

فلما بلغوا ذا الحليفة ميقات أهل المدينة قلد الرسول الهدى، لكن قريشاً بمجرد علمها أن المسلمين يقصدون مكة أخذت في الاستعداد للحرب ولم يصدقوا أن هدف الرسول الحج وعقدوا النية على صد النبي ﷺ عن مكة، وفي (عسفان) على بعد يومين من مكة لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، فقال ﷺ: «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وآخرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة - أي صفحة العنق ».

وكان أول من جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، ثم تكررت الوفود بينهما فبعثت قريش رسولاً آخر هو مكرز بن حفص، ومن بعده جاء الحليس بن علقمة، ثم عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف، فكلّمه الرسول بنحو مما كلم به أصحابه واخبره أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلقي صاداً ولا راداً. وهنا كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وفيها بايع الرسول أصحابه على أن لا

يبرحوا مكانهم حتى يقاتلوا المشركين دون أن يفروا.

وعندها سارعت قريش، فبعثت سهيل بن عمرو ليعقد صلحاً ولم يكن يعنيه في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام على أن يعودوا بعد، إذا شاءوا وذلك إبقاء على مكانة قريش في العرب فلما رأى الرسول مبعوث قريش قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» وتقدم سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فتكلما وتناقشا وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح، وقبل الرسول شروط الصلح ولم يستشرهم في هذه الشروط ولم يرق هذا الاتفاق في أعين بعض الصحابة واعتقدوا أن الرسول ﷺ سلم لقريش بكل مطالبهم، وكان أشدهم نقداً له عمر بن الخطاب فقد ذهب إلى أبي بكر، فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى. فقال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرضه [الزم أمره] فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ وأعاد عليه نفس الحوار والاعتراض. فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني».

وكان الإمام علي عليه السلام هو كاتب شروط الصلح، دعاه رسول الله ﷺ ليكتب شروط الصلح، فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله: اكتب باسمك اللهم فكتبها. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو. فاعترض سهيل وقال: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو: اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى

محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة^(١) وإنه لا إسلال ولا إغلال^(٢) وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب: السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها».

وبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب مع سهيل بن عمرو إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ويريد الالتحاق بالمسلمين. فلما رأى سهيل ابنه قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد قد لجأت (تمت) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فجعل يجذب ابنه جذباً شديداً في جفاء ليرده إلى قريش وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم علي ذلك وأعطيناهم عهد الله وإنا لا نغدر بهم»^(٣).

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب أشهد على الصلح فريقاً من الجانبين وقد جاءت قصة أبي جندل هذا فزادت آلام المسلمين وضاعفت أحزانهم، ودخل على المسلمين من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. وبعد أن انتهى الرسول ﷺ من أمر الصلح،

(١) عيبة مكفوفة أي: صدور منطوية على ما فيها.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية والإغلال: من الغل أي الخيانة.

(٣) لاحظ هنا أن الإمام الحسن رضي الله عنه التزم حرفياً بشروط الصلح، ولكن معاوية وضعها تحت

قدمه وتصل عنها كلها فغدر.

قال لأصحابه: «قوموا فانحروا واحلقوا رؤوسكم ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة»، فتباطؤوا حتى قال ذلك ثلاث مرات، فدخل خيمته وذكر لأُم سلمة ما لقي من الناس وأشارت عليه أن يخرج دون أن يكلم أحداً منهم ثم ينحر بدنه ويخلق رأسه، فلما رأى المسلمون ما صنع النبي ﷺ قاموا عَجَلِينَ ينحرون هديهم ويحلقون، حتى كاد بعضهم يقبل الآخر لفرط الغم، ثم انصرف رسول الله ﷺ وأصحابه عائدين إلى المدينة وفي طريق عودتهم نزلت سورة الفتح.

الاختلاف بين الوقعتين (الصلحين) أن الأولى كان فيها رسول الله ﷺ والوحي ينزل عليه، فيتعقل من غضب من الصحابة ويدعن لأمر الله ورسوله مرغماً، ويزداد يقيناً من آمن منهم بأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ولا يقوم بعمل إلا بأمر الله، أما الوقعة الثانية فكان فيها الإمام الحسن ﷺ المحاصر من أعدائه وأصحابه والمكبّل بهجمات السياسيين المتلاحقة، ولذا نجدهم في الأولى بعد أن نزلت عليهم سورة الفتح يذعنون كلياً لأمر رسول الله ﷺ، أما في الثانية فكانت أباطيل الأعداء ودسهم وخداعهم هي التي تنزل على جيش الإمام وأتباعه فيزدادون تباعداً عنه واختلافاً فيما بينهم.

لقد كان لنا في صلح الحديبية وشروطه المجحفة دروسٌ لم نستوعبها، ولو كنا قد استوعبناها ما كان بعضنا ليلوم الإمام الحسن ﷺ على صلحه مع معاوية، علماً أن الشروط التي شرطها الإمام الحسن ﷺ على معاوية كانت في مصلحة الإسلام، على خلاف شروط صلح الحديبية التي صبت في صالح قريش غالباً، لكن المدهش في الأمر أن قريش المشتركة وفت بشروطها حيناً من الدهر، أما معاوية المسلم فلم يفِ بشرط منها وتنصل عنها بعد سويغات من الاتفاق عليها!.

وبالرغم من كل شيء لنا في موافقة رسول الله ﷺ على الصلح بالرغم من الشروط

القاسية التي وضعها كفار قريش، درسٌ أو ضحه ما حصل بعد حين من اعتراض على قرار الحسن عليه السلام؛ لأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحاب الإمام الحسن عليه السلام والناس عامة لا يعلمون أين تكمن المصلحة الحقيقية، كما يعلمها الرسول صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم عليه السلام فأروا في الصلح إذلالاً.

وأرى أن الأسباب نفسها التي دعت الإمام علي عليه السلام إلى قبول التحكيم في صفين بعد أن رفع الشاميون المصاحف على رؤوس الرماح والأسنة فأصبح القرآن في موضع الامتحان العسير وأصبح الإمام علي عليه السلام اختبار محير^(١)، إما أن يثبت فيه شدة احترامه لقدسية كلام الله تعالى أو يظهر بمظهر غير المبالي تجاه القرآن، هي ذاتها التي دفعت الإمام الحسن عليه السلام الذي وقع في نفس الحيرة إلى قبول الصلح وهو يرى الإسلام والوجود الشيعي أمام أكبر تحدٍ، فهو إما أن يجازف بالوجودين ويعرضهما على الأغلب إلى التدمير الكبير فيقاتل إلى النهاية، أو يبقى على الاثنين، فيصلح ويحمل أوزار الصلح كما حمل أبوه أوزار التحكيم. وكم هو وزر كبير لدرجة أنه أدى إلى مقتل الإمام علي عليه السلام، ومن بعد أدى إلى سم وقتل الإمام الحسن عليه السلام!.

وإذا ما قيض لمعاوية وجود عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري يوم صفين لينقذه بمؤامرة التحكيم من ورطته الكبيرة، فإنه يوم الحسن عليه السلام كان بحماية تلك الوجوه ودعمها أيضاً؛ ومع وجودها كان يشعر بالورطة نفسها، وبما هو أكبر منها

(١) في رواية نصر بن مزاحم عن صفين أن جيش الخلافة كاد أن يهزم جيش الشام، فباتوا ليلتهم يترقبون الصباح الحاسم حتى أن معاوية قال لعمرو بن العاص: يا عمرو إنما هي الليلة حتى يغدو عليٌّ علينا بالفصل؛ فما ترى؟

وكانت خطة عمرو المحكمة هي الخديعة الكبرى والامتحان الخطير، فقال لمعاوية: إلق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا، أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم وإنني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه.

بدلالة أنه قدّم إلى الإمام الحسن عليه السلام صحيفة بيضاء ممهورة بختمه ليملي عليه شروطه التي يجب، حيث جاء في الطبري: «أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت، فهولك».^(١)

(١) تاريخ الطبري، المجلد ٣، أحداث سنة أربعين للهجرة.

الإذلال في ميزان الواقع

وفق السياق التنويري ذاته جاء صلح الإمام الحسن عليه السلام ليحقق للإسلام ما حققه صلح الحديبية؛ ولذا تراه يقول حينما لامه بعض المسلمين على بيعته لمعاوية: «ويحكم ما تدرون ما عملت، والله للذي عملت لشيعتي خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنني إمامكم ومفترض الطاعة عليكم، وأحد سيدي شباب أهل الجنة بنص من رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ؟ قالوا: بلى. قال: أما علمتم أن الخضر لما خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران عليه السلام إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان عند الله تعالى ذكره حكمةً وصواباً؟».

نبع اللوم من شعور بعض صحابته أنه أذهم بالصلح حسب ظاهر ما بدا لهم، ولذا تجد هناك روايات كثيرة تحدثت عن مفهوم الإذلال وفق رؤاها الفكرية ومقدرتها العقلية وقوة إيمانها ويقينها بالقرار الذي يتخذه الإمام المعصوم، وقد تخبطت كتب الحديث عند نقلها لواقعة الصلح والاعتراض، وحدث فيها خلط كثير عند حديثها عن ما رآه البعض إذلالاً أو وقع الحسن عليه السلام بالأمة، سواء من حيث أصحاب تلك الآراء والأقوال أو الأماكن التي قيلت فيها، ورد الإمام الحسن عليه السلام على من تفوّه بها. وانقل هنا على سبيل التوضيح بعض الروايات التاريخية التي تحدثت عن حوارات وقعت بين الإمام الحسن عليه السلام وصحابته لتكون شاهداً على ذلك، وقبل ذكر الروايات أورد رواية مستقبلية سمعها الإمام الحسن عليه السلام عن أبيه عليه السلام، وهي قوله عليه السلام لأصحابه: «أما أنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما

لا يجد، فأقتلوه ولن تقتلوه، إلا أنه سيأمركم بسبي والبراءة مني، فأما السب فسبوني، فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرؤا مني، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»^(١)، فهذه الرواية تذكر نهاية فصول قصة الحسن عليه السلام مع معاوية بما لا يحتاج إلى توضيح أكثر، ولذا رواها الإمام الحسن عليه السلام في المدينة لمن لأمه على الصلح. أما الروايات، فهي:

نقل القاري في (المشكاة) عن أبي العريف قال: «كنا في مقدمة الحسن بن علي عليه السلام اثنا عشر ألفاً مستميتين حرصاً على قتال أهل الشام، فلما جاءنا صلح الحسن عليه السلام كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ والحزن، فلما جاء الحسن عليه السلام الكوفة أتاه شيخ منا يكنى أبا عمرو سفيان بن أبي ليلى فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين. قال: لا تقل يا أبا عمرو، فإني لم أذل المؤمنين، ولكن كرهت أن أقتلهم في طلب الملك»^(٢).

أصل هذه الرواية أخرجه المعتزلي في النهج، عن المدائني، قال: «ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين! فقال الحسن: اجلس يرحمك الله إن رسول الله صلى الله عليه وآله رفع له ملك بني أمية فنظر إليهم يعلون منبره واحداً فواحد، فشق عليه فانزل الله تعالى في ذلك قرآناً، قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وسمعت أبي علياً عليه السلام يقول: سيلي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن فسألته من هو؟ فقال: معاوية. وقال لي: إن القرآن قد نطق بملك بني أمية ومدتهم قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال أبي: هذا ملك

(١) أنساب الأشراف، البلاذري، ج ٢، ص ٣٢، والغارات، الثقفي، ج ٢، ص ٨٤، والمناقب،

ابن شهر آشوب، ج ٢، ص ١٠٧، ونبابيع المودة، القندوزي، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٥.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة النشر:

١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ٣٩٧٠، حديث رقم ٦١٤٤.

بني أمية»^(١)، فكانت رواية المدائني هي الأساس الذي بنيت عليه كل الروايات المشابهة الأخر، حيث تعددت أسماء القائلين ومناسبات القول، وتبعاً لها تعددت ردود الإمام الحسن عليه السلام على كل منها، بما يؤكد أن غالب هذه الروايات إما مدسوس أو موضوع لا أصل له ولا يعتد به، أو أن أقوال اللوم القاسي أضيفت إليها وما هي من أصلها. فالرواية الأولى ذكرت اسم (سفيان بن أبي ليلى النهدي) وهناك رواية نقلها الدينوري في الأخبار الطوال ذكرت اسم حجر بن عدي، وفيها أن الإمام الحسن عليه السلام قال لحجر بن عدي الذي عاتبه على الصلح: «إنما صالحت بقيّاً على شيعتنا خاصّة من القتل»^(٢)، وهناك رواية ثالثة لا تذكر اسماً بعينه وتكتفي بالتعميم والتهويل، بما يبدو وكأن جميع أصحاب الإمام الحسن عليه السلام كانوا يعدون الصلح إذلالاً، والرواية في فتح الباري للعسقلاني: «أخرج ابن أبي خيثمة من طريق عبد الله بن شوذب قال: لما قتل علي سار الحسن بن علي في أهل العراق ومعاوية في أهل الشام فالتقوا، فكره الحسن القتال وبايع معاوية على أن يجعل العهد للحسن من بعده فكان أصحاب الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين، فيقول العار خير من النار»^(٣).

لقد أورد غير واحد من المؤرخين والرواة ما قالوا بأنه رد فعل عكسي لأصحاب الإمام الحسن عليه السلام على الصلح باعتبار أن الصلح هزيمة واضحة أمام الأعداء. وقد يكون هذا الأمر صحيحاً في بعض جوانبه، ولكن تم تهويله وتعظيمه فوق ما كان عليه، فالناس تختلف مشاربهم ومحدودية عقولهم، فضلاً عن ذلك كان جيش الإمام

(١) نهج البلاغة، م٤، ج١٦، ص ٦.

(٢) الأخبار الطوال، الدينوري، ص ٢٢٠.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث،

سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، حاشية ص ٧٠.

الحسن عليه السلام يفقد التوافق المطلوب لاجتماع الرأي بسبب تكويناته الجمعية حيث الأثر السالب لوجود الخوارج وبعض القبائل في صفوفه، ولكن رد الفعل لم يكن بالشكل الذي صورته المؤرخون ولا سيما مسألة التطاول على الإمام الحسن من قبل أصحابه. وحتى لو آمننا جدلاً بصحة موضوع التطاول، فمن المؤكد أنه لم يصدر عن أصحاب الإمام الخالص، ولم يكن بالشكل الذي وصفه السياسيون، وإنما صدر عن قلة من عامة الناس، وهم من المندسين في جيشه من أتباع عدوه، الذين كانوا من الكثرة لدرجة أنهم كانوا أحد أسباب تخنيع الناس وثنيهم عن خوض الحرب، وهو الأمر الذي تفره السياسة الدنيوية وتعمل بموجبه على مر التاريخ.

يتضح مما تقدم أن القرار الخطير الذي اتخذته الإمام الحسن عليه السلام وهو خليفة المسلمين الشرعي بعقد الصلح والهدنة مع معاوية الساعي للإمرة والمقاتل طلباً لها؛ كان محطة ومثابة أراد الإمام عليه السلام من خلالها أن يخطط للمستقبل، ليس من خلال القيام بتحريك عسكري جديد أو بشن حملة إعلامية ضد عدوه، وإنما اعتماداً على خزين المستقبلية الذي يملكه والذي صور له الوقائع بكل تفاصيلها، نزولاً إلى أصغر الجزئيات وأدق النتائج.

لقد أدرك الإمام الحسن عليه السلام أن المحيطين به ليسوا بوزن من كان يحيط بأبيه الإمام علي عليه السلام، وقواته العسكرية ليست بقوة جنود أبيه، وعدوه المترصد أقوى كثيراً مما كان عليه في زمن أبيه بعدما انضوى تحت لوائه المئات من الوجوه التي كانت تقاومه بالأمس القريب، وتأثير العقيدة في نفوس الأمة صار أضعف درجات مما كانت عليه في زمن أبيه، فضلاً عن كونه كان مطلعاً على بنود التخطيط الإلهي، ملزماً بتنفيذ ما أوكل إليه منها في حدود مسؤوليته الشرعية. ومع كل هذا التعقيد والتشابك كان قراره بالرغم من وقعه على النفوس قراراً صائباً وحلاً مناسباً لتداعيات الوضعية المعقدة التي وجد فيها

نفسه وشيعته المخلصين.

وفوق هذا وذاك كان الحسن عليه السلام مأموراً بالصلح موعوداً بالإصلاح على لسان جده، فالأحاديث الكثيرة التي وردت في هذا البحث أثبتت أنه عليه السلام سمع الوعد من جده مباشرة وبدون واسطة ولأكثر من مرة، وهذا لا يمنع أن يكون الإمام علي عليه السلام قد كرر عليه أقوال النبي صلى الله عليه وآله وأخبره بما تضرره له الأمة وما سيمر عليه من أحداث، ولذا كان دوره المقدس محدداً بهذا الواجب ينتهي مع انتهاء مهمته وليس ابعدها منها، مهما اختلفت الظروف وتعددت الأسباب، وفي هذا رد على من يرى أن الحسن عليه السلام كان يجب أن يقاتل ببقايا جنده كما سيفعل أخوه الحسين بعد حين. فمن يعرف حدود الإمامة المعصومة على أصولها يدرك عن يقين أن الأئمة المعصومين عليهم السلام يتحدثون في الهدف ويختلفون في التطبيق، ولهذا السبب أجاب الإمام أبو عبد الله عليه السلام من سألته إن كان هو الإمام المهدي المنتظر، كما في حديث أبي خديجة، بقوله: «كلنا قائم بأمر الله، واحد بعد واحد حتى يجيء صاحب السيف، فإذا جاء صاحب السيف جاء بأمر غير الذي كان»^(١).

إن شروط البيعة التي وضعها الإمام الحسن عليه السلام لمن أراد أن يبايعه على الخلافة تثبت أنه كان مكلفاً بواجبين أحدهما حربي والآخر سلمي ولكل منهما حدوده ووجباته، فقد اشترط على الذين بايعوه على كتاب الله وسنة رسوله: «إنكم مطيعون تسالمون من سالمتم وتحاربون من حاربتم»^(٢)، وفي روايات كثيرة أن أول من بايع الإمام الحسن عليه السلام كان قيس بن سعد، وقال له: «ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقاتل المحلين»، فقال الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله، فإنهما يأتيان على كل

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٥٣٦ / ٢، والإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٣٥٠-٣٥١. والطبري، ج ٣، ص ٩٤١.

شرط، فبايعه الناس»^(١) وفي الإمامة والسياسة قال الدينوري: «وذكروا أنه لما قتل علي بن أبي طالب، ثار الناس إلى الحسن بن علي بالبيعة، فلما بايعوه قال لهم: تباعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمتم»^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٣٥٠.

(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، ج ١، ص ١٨٣-١٨٤.

ما بال المعاصرين

إن كان موضوع العتب المرقد حدث فعلاً يومذاك، بالرغم من كوننا لا نؤمن بوقوعه بالشكل الذي وصل إلينا، فما بال المعاصرين يقعون في نفس الخطأ ويعيدون أحداث التاريخ المشوه مع ما حباهم الله به من تقدّم وتنوير وثورة معلومات ويسر في الوصول إلى التحليل والاستنباط؟ إن حقيقة هذا التعارض الكبير بين الموقفين موجودة اليوم على أرض الواقع، ولا يمكن إنكارها بعدما وجدت طريقها إلى النشر.

خلاصة القول: إن هناك موقفين متطرفين وقفتهما الأمة مع عمل صدر عن إمام معصوم قام أم قعد، وهما الموقفان اللذان بقيا ملازمين لكل سلوكياتنا وتعاملنا مع ذكرى مناسبات الأئمة عليهم السلام حيث ترانا منشغلين كلياً بأحداث بعينها، وناسين أو متهاونين مع أحداث أخرى، وهذا تناقض يجب التخلص منه، لأن بقاءه واستمراره يخل بمنظومة الإمامة في فكر مدرستنا ويفتح الباب أمام من يريد الطعن بعقيدتنا. وأرى أن المأخذ الوحيد الذي يأخذه على الإمام الحسن عليه السلام أنه هادن ما قاتل وصالح ما حارب، فبات الصلح بالرغم من عظيم أهميته وكبير أثره سبة تنسب إلى الإمام المعصوم، فما من باحث في سيرة الإمام الحسن عليه السلام إلا وتوسع في الحديث عن الصلح واعتنى به وبأخباره وكأنه المحطة الوحيدة في حياة السبط الشهيد، وقد قال توفيق أبو علم: «ولقد عنيت أشد العناية بموضوع صلح الإمام الحسن مع معاوية لأنه باعتقادي موضوع هام يستحق البحث والعناية»^(١) وأنا أرى أيضاً أن موضوع الصلح مهم يستحق البحث

(١) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ص ١١.

والعناية، ولكن يجب على الباحثين المخلصين أن لا يختزلوا حياة الإمام الحسن عليه السلام وجهاده ومدرسته الفكرية في الصلح وحده ويغفلوا كل تلك الجوانب المشرقة الأخرى، تماماً كما تجد الثقل الأكبر الذي ألقى على سيرة السبط الحسين عليه السلام انصب على الثورة وحدها، مع إغفال شبه كامل لمراحل حياته الأخرى بما فيها عشر سنوات من الجهاد قبل الثورة. فلماذا هذه التخصصية المستهجنة التي تحرم المتابع من علم كثير يحتاج إلى الإمام به؟ فكم من واحد منا يعرف العمل النضالي للإمام الحسين منذ مراحل طفولته ولغاية تحرّكه إلى مكة لإعلان الثورة، مع أن دوره حتى في وجود أبيه وأخيه الحسن عليه السلام كان مؤثراً وفعالاً، وبعد استشهاد أخيه الحسن عليه السلام كان أكثر أثراً وفاعلية لدرجة أن معاوية كان يخشاه وأعد العدة لقتله متى توفرت الأسباب التي لا يبيح معها الشارع الإسلامي؟.

وما من شك أن علماء مدرستنا متفقون على أن الإمام المعصوم يولد وهو مكلف بالإمامة سواء مع وجود إمام قائد أو عدم وجوده، فالإمام علي عليه السلام كان مسلماً ومؤمناً وإماماً في حياته الأولى قبل إعلان إسلامه على الملأ، وبعد إعلان إسلامه مارس الإمامة في زمن بعثة النبي صلى الله عليه وآله ومارسها في زمن الخلفاء الذين سبقوه ومارسها في عصر خلافته. والإمام الحسن عليه السلام السبط ولد في زمن إمامة جده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ووالده الإمام علي عليه السلام فكان إماماً معصوماً حتى مع وجودهما، والإمام الحسين عليه السلام ولد في زمن إمامة جده وأبيه وأخيه الحسن فكان إماماً معصوماً. ومعنى هذا أننا ملزمون بمتابعة حياة كل منهم منذ لحظات عمره الأولى وإلى تاريخ استشهادهم بنفس الأهمية والحرص والتدقيق والحماس والاندفاع؛ لأن أي تحيز مهما كان بسيطاً يلحق بالعقيدة ضرراً ليس من السهل علاجه، ويمنح الآخرين فرصة الطعن بعقيدتنا واتهامنا بما ليس فينا، والأئمة المعصومون عليهم السلام سواء في عصر إمامتهم الكلية أو فيما يسبقه من أزمان عملوا

جميعهم على شحذ وتجديد الفكر الديني وإصلاحه من عطلاته بعد أن أيقنوا أن الأحكام والسياسيين الدينين يعملون على تمييع هذا الفكر وتذويبه لإعادة ترتيبه وفق مناهجهم ومصالحهم، وهم بالرغم من مطاردتهم والتضييق عليهم نجحوا في مسعاهم وخلقوا حركة أحييت الدين ليس عند أتباعهم فحسب بل وعند معارضيهم أيضاً، لأن هؤلاء رأوا أن من واجبه التصدي لتنامي الفكر الشيوعي بفكر يستطيع الثبات أمامه، وهذا ما لم ينجح به المتأخرون بالرغم من كل الإمكانيات التي وفرت لهم. فلقد وجدت على أرضنا اعتباراً من أواخر القرن التاسع عشر مجموعات تهدف إلى الإصلاح الديني بعد أن قام الاستعمار الغربي بنشر الفساد في كل مفاصل الحياة واتخذت لها خطوطاً ومناهج، فاتجهت إحداها كما يقول الدكتور (محمد البهي) إلى التعبئة الروحية والإصلاح الديني قادتها مجلة (المنار) بعد وفاة الشيخ المعتدل محمد عبدة وتولي أحد أتباع المدرسة السلفية وهو أحمد أمين رئاستها. واتجهت الثانية إلى تعبئة الحماس القومي.^(١) وسار الاتجاهان بتوازي إلى هدف واحد ولكنهما عجزا كلياً عن تحقيق أبسط فقرات مشروعيهما بالرغم من جسامته التضحيات المادية والمعنوية والبشرية، إذ كان كافياً أن تنقلب تركيا التي كانت تقود الإسلام باسم الخلافة الإسلامية إلى دولة علمانية في عام ١٩٢٤ بمجرد سقوط الإمبراطورية التي حكمت العالم الإسلامي وسرقت خيراته باسم الإسلام لتخسر هذه المشاريع حاضنتها ومركز دعمها، وأعتقد أن الغربيين أحسوا بهذه الهزيمة التي تجعلهم في مواجهة الموقف الشيوعي المتأزم والصارم فعملوا جاهدين على خلق اتجاهات دينية جديدة مدعومة بثروة النفط عسى أن تقف أمام المد الشيوعي، وقد نجحوا في تحجيم قدرة الحراك الشيوعي بعد أن توفرت لهم وسائل الدعم المادي والفكري والإعلامي، ولكن ذلك مهما امتدت آثاره لا يمكن أن يوقف مسير قافلة التشيع أو يعرقل منهجها.

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الدكتور محمد البهي، ط ٤، مكتبة

وهبة، القاهرة. طبع لأول مرة عام ١٩٥٧م، ص ١٧٥.

وأنا أرى أن للسياسيين الإسلاميين دوراً كبيراً في هذا المخطط وهم الذين بحثوا فيه عن نصرة تعوضهم هزائمهم غير ملتفتين إلى تغيير نظرة الناس البسطاء إلى الله سبحانه!.

لقد صور السياسيون القدماء ومن ورث فكرهم من المسلمين المعاصرين (الله) سبحانه وتعالى على أنه (إله) رعب وخوف وقسوة بعد أن نشروا الرعب والخوف في قلوب المسلمين باسمه وباسم دينه من خلال أطروحتهم الغبية التي أظهرت الحرب كآلية وحيدة لحل النزاعات بين البشر، وجاء المستشرقون بعد ربح من الزمان ليحيوا موات هذه الفكرة في قلوب المسلمين لكي ينفروهم من الدين ويلجئوهم إلى الغرب يبحثون فيه عن حريتهم، يقول المستشرق (نيكلسون) بهذا الصدد: «يبدأ القرآن بفكرة ﴿اللَّهُ أَكْثَمُ﴾ الإله القادر الذي تجرد من المشاعر والميول البشرية وهو سيد عباده لا والد أبنائه والقاضي الذين ينزل بالآثمين عدلاً رادعاً ويبسط رحمته على من يتقون غضبه.. إنه إله خوف أكثر منه إله حب».^(١)

بالمقابل كان سعي الإمام المعصوم منصباً على تغيير الصورة النمطية التي رسمها السياسيون للرب سواء في زمن الإمامة المعصومة أم في العصور اللاحقة، وكان صلح الإمام الحسن عليه السلام واحدة من التجارب الناجحة في تغيير نمطية صورة (الرب المرعب العنيف) في عقول المسلمين، فالصلح جاء ليثبت لمن في قلبه مرض، أن الله الرحمن الرحيم اللطيف بعباده الذي يحبهم ويحبونه، إله حب سرمدي، وقد نشأ محبوه على هذه الصفة الرائعة فعز عليهم سفك دم إنسان حتى ولو كان هذا الإنسان متغطرساً متجبراً متكبراً طاغية، فضحوا بالخلافة وبأرواحهم من أجل ذلك الهدف، وهو هدف سام، وفي الروايات: «دخل رجل على الحسن بن علي عليه السلام بالمدينة وفي يده صحيفة فقال له

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الدكتور محمد البهي، مصدر سابق،

الرجل: ما هذا؟ قال: هذا كتاب معاوية يتوعد فيه على أمر كذا، فقال الرجل: لقد كنت على النصف، فما فعلت؟ فقال له الحسن: أجل ولكنني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً تشخب أوداجهم دماً كلهم يستعدي الله فيم أهرق دمه^(١)، فما الضير إذا ما اتخذ الإمام الحسن عليه السلام موقفاً يحقن تلك الدماء ولا سيما وأن العقيدة نصت على تحييد هذا الموقف فقهياً؟.

(١) شرح النهج، م ٤، ج ١٦، ص ٧.

الجانِبُ الفقهِي للصَلح

يبدو الصلح من حيث مباني العقيدة وفقهها صورة واضحة الملامح لقواعد فقهية إسلامية أجمعت الأمة الإسلامية على التباعد بها واختلفت في تطبيق بنودها على أرض الواقع، وهي ما تعرف بقواعد (درء الحدود بالشبهات) و (درء المفسدة) و (لا ضرر ولا ضرار).

تاريخياً لم يكن موضوع الصلح في كليته بين أي مجموعتين إسلاميتين يقع بينها نزاع دموي وقتال ليأخذ مداه الذي وصل إليه لولا ما خطط له السياسيون العرب بدءاً من معركة الجمل ووصولاً إلى قيام الجيش الأموي بغزو دار الخلافة الإسلامية بقيادة معاوية لمحاربة الإمام الحسن عليه السلام ووقوع الصلح بين الإمام ومعاوية، فهذه الأحداث الدموية المروعة هي التي أعطت الموضوع مداه الرحب. وربما لهذا السبب دون غيره تجد جميع كتب الحديث قد خصت الصلح إما بكتاب أو بباب منفرد، وخصوا صلح الحسن عليه السلام بباب لوحده باعتبار أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ابني هذا سيد». نعم وردت في القرآن الكريم آيات تأمر عقلاء المسلمين بالإصلاح بين الفئات التي تتقاتل، وهذا من عِلم الله سبحانه، ولكن تفسيرها جاء من وحي الصلح ودار حواليه وفي رحاب أجوائه دفاعاً عن موقف السياسيين أكثر منه دفاعاً عن الدين أو إطراء للحسن عليه السلام، ولناخذ على سبيل المثال آية ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَنِّلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ﴾

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(١) لنضعها على طاولة البحث وندرسها ببساطة من حيث سبب النزول، والتفسير، والتشريع وصولاً إلى حقيقة هذا الاهتمام بصلح الإمام الحسن عليه السلام بالذات.

الآية من حيث سبب النزول:

في تفسير الطبرسي: «قوله: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا﴾ نزل في الأوس والخزرج وقع بينهما قتال بالسعف والنعال، عن سعيد بن جبير. وقيل نزل في رهط عبد الله بن أبي سلول من الخزرج ورهط عبد الله بن رواحة من الأوس وسببه أن النبي صلى الله عليه وآله وقف على عبد الله بن أبي، فراث حمار رسول الله صلى الله عليه وآله فأمسك عبد الله أنفه وقال: إليك عني، فقال عبد الله بن رواحة: لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك ومن أبيك فغضب قومه وأعان ابن رواحة قومه وكان بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال»^(٢)، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: «قيل للنبي صلى الله عليه وآله: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فما انطلق إليه قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت الآية»^(٣).

إلى هنا تبدو كتب (أسباب النزول) غير مهتمة بما حدث من نزاع وما وقع من

(١) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، لسورة الحجرات، الآيات ٦-١٠.

(٣) البخاري، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، حديث ٢٦٩١، ص ٤٧٦، بخاري طبعة دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١، وأورده الواحدي النيسابوري في حديثه عن أسباب نزول سورة الحجرات، ص ٢٢٦-٢٢٧، أسباب النزول، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق عبد الله المنشاوي، دار صلاح الدين، القاهرة، ٢٠٠١.

صلح بين المتنازعين بعد عصر البعثة، ولكن وجود قاعدة (العبرة في عموم اللفظ لا في خصوص السبب) ووقوع الصلح بين طائفتين من المسلمين على أرض الواقع، فضلاً عن سعي السياسيين لاستغلال الصلح للحصول على الشرعية التي يحتاجونها ليحكموا الأمة باسم الدين، جعل المفسرين يَخْصُّون الآية بصلح الإمام الحسن (عليه السلام)، وينسون الحديث عن واقعة عصر البعثة تلك.

الآية من حيث التفسير:

قال ابن كثير في معرض تفسير هذه الآيات: «يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن (البصري) عن أبي بكر (رضي الله عنه) قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي (رضي الله عنه) فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس مرة أخرى، ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والوقعات المهولة»^(١).

ولا أدري كيف فات ابن كثير الانتباه إلى الفرق الكبير بين المؤمنين والمسلمين، ليعد ابن أبي سلول المناق الذي تقاتل أنصاره مع المؤمنين الأنصار من المؤمنين، إلا إذا ما كان يروم التأكيد على أن البغاة الذين حاربوا الإمامين علي والحسن (عليهما السلام) مؤمنون؟! وربما لهذا السبب تجد في مدرستنا قولاً مختلفاً بالكامل عن هذا القول ففي (مجمع البيان

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحجرات، الآية ٩ و ١٠

في تفسير القرآن) قال الطبرسي في تفسير: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أي فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ حتى يصطلحا ولا دلالة في هذا على أنها إذا اقتتلا بقيا على الإيمان ويطلق عليهما هذا الإسلام، ولا يمتنع أن تفسق إحدى الطائفتين أو تفسقا جميعاً ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ بأن تطلب ما لا يجوز لها وتقاتل الأخرى ظالمة لها معتدية عليها ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ لأنها هي الظالمة المعتدية دون الأخرى ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي حتى ترجع إلى طاعة الله وتترك قتال الطائفة المؤمنة ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي رجعت وتابت وأقلعت وأثبتت إلى طاعة الله... ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بينها وبين الطائفة التي هي على الإيمان ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط حتى يكونوا سواء لا يكون من إحداهما على الأخرى جور ولا شطط فيما يتعلق بالضمانات من الأروش ﴿وَأَقْسَطُوا﴾ أي اعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين الذين يعدلون فيما يكون قولاً وفعلاً^(١).

وقد يكون الشوكاني ممن انتبهوا إلى تهافت ما جاء به بن كثير، ولذا أكد في تفسيره على كلمة (المسلمين) ولم يورد ذكراً لكلمة (المؤمنين) التي تعلق بها بعض المفسرين لدوافع سياسية بحتة، حيث قال الشوكاني في تفسيره: «والمعنى أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ويدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيتها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله. ويأخذوا على يد

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، لسورة الحجرات، الآيات ١٠-٦.

الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخرى»^(١)، المهم أن تفسير الآيات بهذا الشكل كان سبباً لولادة قواعد فقهية شرعية يتعبد بها الناس إلى الآن!

الآية من حيث التشريع:

متى يصبح قتال المسلم للمسلم محرماً، ومتى يجوز؟ أسئلة أرادت الآية الشريفة عرض أجوبتها أمام المسلمين ليعرفوا أحكامها. قبالة ذلك هناك في أكثر من واقعة ومقام تحذيرات صدرت عن رسول الله للمسلمين تنهاهم أن يتقاتلوا فيما بينهم أو أن يسب أحدهم الآخر، قال عبد الله: «قال النبي ﷺ: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٢). وهذا يعني أن الآية الأولى جاءت من حيث الظاهر على سبيل الاحتمال، وجاء الحديث الشريف ليقول بأنه حتى مع هذا الاحتمال يجب على المسلم أن لا يسب المسلم الآخر ولا يقاتله لأن قتاله كفر، ولكن هناك من حول الاحتمال إلى تأكيد ثم تجاوز الحديث ومضمونه فسب وحارب!.

لقد حذر رسول الله ﷺ أمته من أن يرجعوا بعده كفاراً فيشن بعضهم الحرب الدموية على الخلافة الشرعية طمعاً في الدنيا، جاء عن واقد عن أبيه عن ابن عمر: أنه سمع النبي يقول: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٣)، وفي رواية أخرى أنه ذكرهم بهذا الحديث في حجة الوداع، «عن جرير قال: قال لي رسول الله في حجة الوداع: استنصت الناس، ثم قال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م، ٥ مجلدات.

(٢) البخاري، كتاب الفتن، باب لا ترجعوا بعدي كفاراً» دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٢٥٢، حديث ٧٠٧٦.

(٣) المصدر نفسه، حديث ٧٠٧٧.

بعض»^(١). بل ووردت عن رسول الله ﷺ نصوص تحرّم على المسلم أن يستعمل السلاح ضد المسلم حتى لو كان الآخر معتدياً. لكن في حالات ضيقة أخر جوّز النبي ﷺ قتال المسلم للمسلم في مواطن حددها وحالات بينها، منها دفاعاً عن الإسلام والمسلمين إذا ما بُغي عليهم من قبل البغاة، ومنها دفاعاً عن دمه وماله وعرضه إذا ما اعتدى عليه مسلم آخر. ولكنه ﷺ في الحالتين حذر الأمة من الفتن وأمرهم باعترضاها، قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتنة القاعدُ فيها خيرٌ من القائم والقائم خيرٌ من الماشي والماشي خيرٌ من الساعي، قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط إليّ يده ليقتلني؟ فقال: كُنْ كابن آدم. وتلا ﴿لَنْ يَبْسُطَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾». وجاء في حديث آخر عن أبي ذر: إن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا ذر أ رأيت إن قتلَ الناسُ بعضهم بعضاً، يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أقعد في بيتك وأغلق عليك بابك. قال: فإن لم يردعك شعاعُ السيف؛ فآلقِ طَرَفَ رِداءك على وجهك كي يبوء بإثمته وإثمك».

لقد وعد رسول الله ﷺ المسلمين بالفتن التي تتربص بهم من خلال بيوتهم «عن الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: أشرف النبي على أطم من أطام المدينة، فقال: أترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»^(٢)، وكان رسول الله ﷺ يعلم بالفتن التي تنتظر المسلمين والحروب التي تصل إلى درجة تعريض الأمة للهلاك على يد القردة الذين سينزون على منبره الشريف، ومع ذلك أمر المسلمين في الفتنة أن يقطعوا أوتار قُسيهم، وأن يضرّبوا حدّ سيفهم بالحجارة، فتعطيل أسلحتهم خير من أن يستعملوها لقتال بعضهم. لكن فهم هذه المصنوفة الأخلاقية

(١) المصدر نفسه، حديث ٧٠٨٠.

(٢) البخاري، ص ١٢٥٠، حديث ٧٠٦٠.

الفقهية الدقيقة يحتاج إلى عقل معصوم كعقل الإمام الحسن بن علي عليه السلام الذي شاءت الإرادة الإلهية أن تضعه كما وضعت أباه في قلب عصر الفتن. وقد أثبت الإمام الحسن عليه السلام بأنه الراعي المسؤول عن تطبيق المنهج الرباني في الحرب والسلم، فأثبت للأمة مشروعية قتال الإمام والخليفة الشرعي لمن يبغى على المسلمين حتى ولو كان الأخير مسلماً، ثم اثبت لهم مشروعية الصلح حفظاً لبيضة الإسلام وحفاظاً على العقيدة.

مشروعية الصلح والحرب في الإسلام

في منظومة الفقه الإسلامي هناك تشريع يأمر بالحرب بدون اعتداء ﴿وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمُ وَلَا تَعْتَدُوا﴾^(١) وقد اختلفت أقوال المفسرين في هذه الآية ولا سيما في حديثهم عن الطرف الآخر من معادلة القتال؛ فقال الطبري في تفسير الآية: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية، فقال بعضهم: هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك. وقالوا: أمر فيها المسلمين بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت بـ ﴿بِرَاءةٍ﴾. وقال آخرون: بل ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار لم ينسخ، وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه هو نهي عن قتل النساء والذراري. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابت حكمه اليوم. قالوا: فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية. فتأويل الآية: وقاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله... وأمرهم (تعالى ذكره) بقتال من كان منه قتال، من مقاتلة أهل الكفر دون من لم يكن منه قتال من نسائهم وذرائعهم»^(٢).

وقال ابن كثير: «قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى:

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٢) ينظر: تفسير الطبري.

قال هذه منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(١).

إلا أن ذلك لا يمنع أن يكون قتال المسلم الذي يتأمر على الإسلام ويكيد له قتالاً في سبيل الله، كما قاتل علي عليه السلام المسلمين الذي قاتلوه من الناكثين والبغاة القاسطين والمارقين، وكما قاتل الإمام الحسن عليه السلام البغاة. وأقف هنا لأذكر بواقعة تاريخية حدثت بعد موت رسول الله ﷺ مباشرة وهي أن المؤرخين والباحثين أطلقوا على من اعترض على بيعته أبي بكر اسم (المرتدين) سواء كانوا من المرتدين حقاً، أم من مانعي الزكاة بسبب عدم اقتناعهم بالبيعة، أم من الذين كانوا يرون بأن النبي ﷺ نص على خليفته وعينه، بينما نجدهم يسمون من خرج على علي والحسن عليهما السلام بالمسلمين المؤمنين، وهذه مفارقة سياسية أكثر منها عقائدية!

وفي المنظومة الفقهية تشريع آخر يأمر بالصلح، مرة في حال جنوح المعتدي إلى السلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٢) ولهذا السبب نجد هناك من يجاهد ليظهر معاوية وكأنه المبادر إلى الصلح جنوحاً منه إلى السلم كما سيمر علينا لاحقاً، وليس من أجل توظيف الصلح لتحقيق مكاسب سياسية! ومرة أخرى باعتبار الصلح خيراً من الحرب، ولا سيما بين المسلمين أنفسهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٣) والقائد المسلم ملزم بتطبيق رؤية الشريعة ليعرف متى تجب الحرب ومتى يجب الصلح، فإن كانت الحرب هي التي تحقق الأفضل باعتبار أن الصلح مستحيل وجب خوض الحرب حتى النهاية، فإما نصر وإما شهادة، أما إذا كان بالإمكان أن يتحقق بالصلح فيجب عدم خوض الحرب، بل السعي وراء الصلح بكل السبل المتاحة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير.

(٢) الأنفال: ٦١.

(٣) النساء: ١٢٨.

والطرق المتيسرة.

ووفق هذه القاعدة خاض الإمام الحسن عليه السلام حربه ضد أهل البغي كما وصفهم رسول الله ﷺ لأن قتال الباغي واجب على الكفاية كقتال الكفار كما يرى الشهيد الثاني^(١) وكما يقول المحقق الحلي: «والفرار في حربهم كالفرار في حرب المشركين»، كما يرى المحقق الحلي^(٢) ومع ذلك يرى المحقق الحلي أن الصلح والمهادنة وما يعرف بالمعاهدة على ترك الحرب: «جائز إذا تضمن مصلحة للمسلمين إما لقلتهم عن المقاومة، ولما يحصل به الاستظهار، أو لرجاء الدخول في الإسلام مع التبرص»^(٣)، وفي السياق نفسه يرى الشهيد الثاني أيضاً أن المعاهدة جائزة: «وقد تجب مع حاجة المسلمين إليها وقد تباح لمجرد المصلحة التي لا تبلغ حد الحاجة، ولو انتفت (المصلحة) انتفت الصحة»^(٤). ومنه تتضح الصورة الحقيقية والأسباب الحقيقية التي دفعت الإمام الحسن عليه السلام للاستعداد للحرب ابتداء ثم طلب الصلح أو الموافقة عليه فيما بعد، ولا سيما بعد أن دخلت الأمة في أولى مراحل (حكم الصبيان) التي وعدهم رسول الله ﷺ بأنهم بالغوها، ولا محيص عنها لأنها من مراحل المشروع الإلهي العظيم.

في هذه المرحلة كان في ذاكرة الإمام الحسن عليه السلام أكثر من حديث يصف المرحلة وصفاً بالغ الدقة والتحديد، سواء من حيث الحديث عن واسع البلعوم الذي سيلي حكم الأمة أو الحديث عن الأغيلمة الذين سينزولون على منبر رسول الله ﷺ كما القردة تنزول، أو الحديث عن الشجرة الملعونة في القرآن التي ستمد أغصانها المحملة بقرون الشياطين لتظلل الأمة بسوئها، فضلاً عن تخميناته الخاصة للمرحلة والأنصار.

(١) الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، دار الهادي، الشهيد الثاني: ج ٣ ص ٦٦٨.

(٢) شرائع الإسلام، المحقق الحلي، ج ٢ دار الزهراء ص ٣٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٧٩.

(٤) الروضة البهية، الشهيد الثاني، ص ٦٥٤.



الفصل الرابع

الأغذية

والشجرة الخبيثة والبغاة

حديث الأغيلة

لو قيض للنفر القليل من أتباع الإمام الحسن عليه السلام الذين لاموه على الصلح، ولمن جاء بعدهم من الأتباع والأعداء، والباحثين والمؤرخين والمهتمين، لو قيض لهم جميعاً معرفة المعنى الحقيقي لحديث الأغيلة القرشيين الذين حتماً ويجب ولا بد أن ينزوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يمكن أن يردعهم رادع، أو يمنعهم مانع، أو يقف بوجههم سد، أو يحول بينهم وبينه شيء ما كانوا ليلوموا الإمام الحسن عليه السلام على ما فعل أو يغفلوا عن ذكره وتمجيد سيرته وعمله وجهاده، فسيطرة الأغيلة على رقاب الأمة وعد إلهي جعله الله فتنة للناس واختباراً، ولم تكن للحسن عليه السلام أو أي شخص آخر قدرة تغيير هذه الحتمية؛ لأنها من مراحل تدرج المشروع الإلهي الكوني.

ولطالما استوقفني هذا الحديث الذي تتفق المدارس الإسلامية جميعها على صحته والذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله ليكون الميزان المعيارى بين الحق والباطل، بين من يفهم أصول العقيدة ومن لا يفقه منها شيئاً، بين المخلصين المنتجبين الطاهرين المعصومين الذي أطلعهم الله سبحانه على بعض أسرار الكون وبين أعدائهم الذين لم يكونوا يفقهون في الحياة سوى أمر واحد هو الحصول على مركز الصدارة حتى ولو على أنقاض الإسلام؛ للترفيه بمتع الحياة الزائلة، ولو كان هؤلاء يفقهون قيد أنملة من الفقه، ولو كانت تربطهم بالعقيدة مجرد قطعة واهنة واهية من خيط عنكبوت لكانوا عرفوا أهمية الوعد المستقبلي الذي أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله في حديثه، فامتنعوا عن محاربة أهل الحق وأهل الذكر واكتفوا بما هم عليه، ولكن طمعهم وجهلهم وحبهم للدنيا أعمى عيونهم

وقلوبهم عن فهم معنى الحديث الكريم فدفعتهم رغباتهم الجاحمة وشهواتهم الراححة ليحققوا للأمة ما تخوف منه الرسول ﷺ وأنزعج، من خلال السير في درب تملؤه الدماء والآلام والأوجاع والمؤامرات والخداع، وهذا وحده يكفي دليلاً على سقوط مشاريعهم الدينية والسياسية والحياتية مهما كان عدد المؤمنين بها، ويكفي دليلاً على خسران من يتبعهم في نهجهم ويتخلى عن منهج رسول الله ﷺ.

أما الإمام الحسن عليه السلام المؤتمن على المشروع الرسالي فكان على يقين كامل وتام بأن وعد الله نافذ لا راد له، وأن الفتنة التي أثارها معاوية مكملة لفتنته الأولى التي سبق وأن أثارها مع الإمام علي عليه السلام، وفيها هلاك الأمة شاء أم أبى؛ فقد سمع من جده عليه السلام وأبيه عليه السلام أنهم (الأغيلة) الذين سيهلكون الأمة، وهو الحديث الذي أخرجه البخاري «حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: أخبرني جدي قال: كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي بالمدينة ومعنا مروان، قال أبو هريرة: سمعت الصادق الصدوق يقول: هلكة أمتي على يدي أغيلة من قريش فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة. فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول: بني فلان وبني فلان لفعلت، فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، قلنا: أنت اعلم»^(١).

ويعني هذا أن الإمام الحسن عليه السلام كان مدركاً تمام الإدراك أن معاوية يجب أن يتنصر ويحكم ويمهد الطريق لغللمان أمية لينزوا على منبر رسول الله ﷺ، وهو كخليفة لرسول الله وإمام معصوم مأمور بأن يسير وفق سنن المشروع الإلهي التي سبق وأن اطلع على كامل تفاصيلها وخطواتها عن طريق جده عليه السلام وأبيه عليه السلام، فمن غير المعقول، بل من

(١) البخاري، كتاب الفتن، في باب «هلاك أمتي على يدي أغيلة سفهاء»، حديث ٧٠٥٨.

المستبعد كلياً أن يكون الإمام الحسن (عليه السلام) بعيداً عما كان يرويه والده لهم بشكل خاص وللأمة بشكل عام عن الأحداث المستقبلية وما ينتظرهم في قادم الزمان، وهي مرويات شغل بها علي (عليه السلام) الناس، وأقام الدنيا ولم يقعدھا؛ لأنه قرأ لهم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وفي الاختصاص عن الأصبع بن نباتة قال: «لما جلس أمير المؤمنين في الخلافة وبايعه الناس، خرج إلى المسجد متعمماً بعمامة رسول الله لابساً بردة رسول الله متعللاً نعل رسول الله متقلداً سيف رسول الله، فصعد المنبر، فجلس عليه متكئاً، ثم شبك بين أصابعه فوضعها أسفل بطنه، ثم قال: يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سبط العلم، هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله، فاسألوني فإن عندي علم الأولين والآخرين... فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟ لولا آية في كتاب الله عز وجل لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي آية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»^(١).

ولم يكن الإمام الحسن (عليه السلام) وحده مطلعاً على هذا السر، فالأمة كلها بما فيها السياسيون كانوا على علم بتدرج الأحداث وتصاعدها ولو بشكل عام بعيداً عن الخصوصيات والتخصيص، إذ لم يكن في الأمة من يجرؤ على تكذيب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديثه عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وقد أثبتت لهم التجارب أن كل ما قاله عن تاريخهم القريب تحقق بما في ذلك مقتل علي (عليه السلام) على يد أشقى الأشقياء، وعليه لابد من تحقق نزو الغلمان على منبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقيادة الأمة باسمه، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق إلا باستيلاء معاوية على الحكم؛ لأن الغلمان هم أبناء وأحفاد معاوية. ولهذا السبب وغيره تشعبت طرق حديث (الأغيلمة) وتنوع رواته وتلونت صيغته بما يدل

(١) الاختصاص، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ

المفيد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م، ص ٢٠٥.

دلالة أكيدة على كبير تأثير السياسيين على السنة النبوية ولا سيما منها ما يخص أخبارهم وأعمالهم، فقد أعادوا ترتيبه وتبويبه مرات عديدة لهدف واحد وهو الدفاع عن أنفسهم وتبيان أحقيتهم بالخلافة والملك بالرغم مما وصفهم النبي ﷺ به من سيء العمل والخلق، وتعني هذه الأحقية برأيهم القاصر خطل رأي من حاربهم وقتلهم سواء أكان من حاربهم سيد الناس علياً عليه السلام، أم ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، ما دامت هذه الأحاديث تدعي أن النبي ﷺ أمتدحهم ووصف أيام حكمهم بأيام (رحمة) كما سيرد في طرق الحديث بعد تحريفه.

والغريب أن كثيراً من المؤلفات التاريخية والمهتمة بالسنة والحديث نقلت هذه الروايات ووثقت روايتها ومدحتهم، ففي كتاب (النهاية في الفتن والملاحم) لابن كثير أحاديث تصب في المعنى نفسه أو قريباً منه، انقلها لا لاعتماد صحتها وواقعيتها وصدقها بسبب المغالطات الموجودة فيها، وإنما بوصفها مثلاً على تمكن السياسيين من تشويه السنة النبوية، وبعض تلك الروايات لا يمكن تصديقه أو الأخذ به بسبب معارضته للروايات الصحيحة المتواترة المتفق عليها.

وأول تلك الروايات وأكثرها أهمية هو الحديث الصحيح الذي نوه عن (الأغيلة) الذين يكون هلاك الأمة على أيديهم والذي تعرض للتحريف الكبير. وقد ورد هذا الحديث في الأعم الأغلب من كتب الحديث، وأنا أورده هنا عن ابن كثير الذي أورد الروايات المحرّفة معه، قال: «قال أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو أمية هم وابن يحيى بن سعيد بن العاص، أخبرني جدي سعيد بن عمرو بن سعيد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هلكة أمتي على يدي غلّة» فقال مروان: وما معنا في الحلقة أحد قبل أن يلي شيئاً: فلعنة الله عليهم غلّة. قال: وأنا والله لو شئت أن أقول بني فلان وبني

فلان لفعلت. قال: فكنت أخرج مع أبي إلى بني مروان بعد ما ملكوا فإذا هم يبايعون الصبيان ومنهم من يبايع له وهو في حزامه، فقلت: هل عسى أصحابكم هؤلاء أن يكونوا الذين سمعت أبا هريرة قال لنا عنهم: إن هذه الملوك يشبه بعضها بعضاً»^(١).

وقد جاهد السياسيون في إعادة رسم هذه الصورة التي رسمها الحديث بالرغم من وضوحها الكبير الذي لا يخفى على لبيب، أعادوا رسمها من خلال أحاديث نبوية أخفوا معالمها وأحاديث موضوعة نسبوها إلى النبي ﷺ تضع حقبة حكمهم في خانة الرحمة الإلهية، بل وجعلوها في مصاف حقبة البعثة المشرفة، وما منعهم مانع من أن يجعلوها قبالة حكم الخلفاء من بعد رسول الله، كل ذلك ليقولوا للأمة أنهم ليسوا معنيين بهذا الحديث، والمعني به من يأتي بعدهم! ولقد أورد ابن الأثير رواياتهم في مصاف ذلك الحديث الصحيح، وللأسف، ومنها:

قال أبو داود الطيالسي: «حدثنا جرير بن حازم، عن ليث، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي ثعلبة الخشني، عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وسيكون خلافة ورحمة وسيكون عزاً وحرمة وسيكون ملكاً عضوضاً وفساداً في الأمة يستحلون به الفروج والخمر والحريز وينصرون على ذلك ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل»^(٢). وكأن الرواة وابن الأثير ومن لف لفهم يريدون القول أن مدة حكم السياسيين الذين حاربوا علياً وحسناً وحسيناً ﷺ كانت (عزاً وحرمة) ثم نسبوا الملك العضوض والإفساد في الأمة إلى من جاء بعدهم أي العباسيين وكأنهم مبرئون من هذه الأعمال الخسيسة!.

(١) كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، كتاب الكتروني، ص ٧.

(٢) المصدر نفسه.

ومثله عن معاذ بن جبل؛ قال: «قال رسول الله ﷺ: ثلاثون نبوة، وثلاثون ملك وجبروت، وما وراء ذلك لا خير فيه. رواه الطبراني في الأوسط. قال الهيثمي: وفيه مطر بن العلاء الرملي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».^(١) وأقف هنا لأجري عملية حسابية بسيطة عن الأرقام التي وردت في هذا الحديث. يقول الحديث: «ثلاثون نبوة» بينما المعروف بأن النبوة في طورها المكّي والمدني كانت ثلاثة وعشرون عاماً فقط، ومعنى هذا أنهم أضافوا كامل خلافة أبي بكر وجزءاً من خلافة عمر إلى عصر النبوة وهذا شيء غريب جداً. ويقول الحديث: «وثلاثون ملك وجبروت» وهذا يشمل باقي حقبة خلافة عمر وكامل خلافة عثمان وخلافة الإمام علي ثم خلافة الإمام الحسن عليه السلام وكامل خلافة معاوية الذي توفي في دمشق عن ٧٨ سنة وكانت وفاته في رجب سنة ٦٠ هجرية وهي تمام مجموع الحقتين اللتين نوه عنهما الحديث! فهل يعقل ذلك؟ هل يعقل أن تكون حقبة حكم ما بعد البعثة بمستوى حقبة حكم البعثة، وهل يعقل أن تكون حقبة حكم معاوية بموازاة حقبة حكم علي عليه السلام؟.

وروى البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث بن محمد بن حاطب الجمحي، عن سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: يكون بعد الأنبياء خلفاء يعملون بكتاب الله ويعملون في عباد الله، ثم يكون من بعد الخلفاء ملوك يأخذون بالثأر ويقتلون الرجال ويصطفون الأموال فمغير بيده ومغير بلسانه ومغير بقلبه وليس وراء ذلك من الإيمان شيء».^(٢) وفي صحيح مسلم من حديث أبي رافع، «عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ما كان نبي إلا كان له حواريون يهدون

(١) إتخاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرط الساعة، الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، الرياض، ١٣٩٤، باب ما جاء في الخلافة والملك العضوض والجبرية، ج ١ - ص ٢١٢

(٢) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، ص ٧.

بهدية ويستنون بسنته. ثم يكون من بعدهم خلف يقولون ما لا يفعلون ويعملون ما ينكرون»^(١).

وحتى مع منظومة التشويش السياسي وضعوا قوانين غاية في الدقة وادخلوها إلى منظومة الفقه تأمر من ينتبه من عقلاء المسلمين إلى التزوير الحاصل بالكف والامتناع عن قتالهم بل ووجوب الطاعة لهم والوفاء ببيعتهم باعتبار أن الله هو من سيحاسبهم على أفعالهم، وفي صحيح البخاري من حديث شعبة عن فرات الفرار عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ «قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وإنه سيكون خلفاء كثيرون. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»^(٢).

كما أن هناك كتباً سلفية تناولت هذه الأحاديث بالرواية والشرح والتوسع في البحث بغية ترسيخ القناعات السياسية القديمة نفسها، ومنها كتاب (إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرار الساعة) باب ما جاء في الخلافة والملك العضوض والجبرية، والكتاب للشيخ السلفي حمود بن عبد الله التويجري.

جاء أول هذه الأحاديث لتخنيع الناس ومنعهم عن الاعتراض أو الثورة، وفيه: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: سيكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، وسيكون من بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر برئ، ومن أمسك سلم، ولكن من رضي وتابع. رواه ابن حبان في صحيحه»^(٣).

(١) المصدر نفسه، النهاية، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٣) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرار الساعة، باب ما جاء في الخلافة والملك

ثم جاء الحديث الآخر الذي يلزم الناس بطاعة الملوك المتجبرين: «عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: أنه قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وإنه سيكون خلفاء فيكثرون. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم. رواه: الإمام أحمد، والشيخان، وابن ماجه»^(١).

وهناك أحاديث أخر أخذت جانب الحياد النسبي مع ما فيها من خلاف لما هو مشهور عند المسلمين، وهي تروي تاريخاً عاماً بتسلسل الأحداث من النبوة إلى الخلافة إلى الملكية، الحديث الأول يروي تفصيلاً محايداً للنظرة النبوية المستقبلية وفيه: «عن حبيب بن سالم، قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: كنا قعوداً في المسجد، وكان بشير رجلاً يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه فقال: يا بشير ابن سعد! أتخفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ وكان حذيفة رضي الله عنه قاعداً مع بشير، فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله:

تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاصياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت. قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه، فقلت: إني لأرجو أن يكون أمير المؤمنين (يعني: عمر) بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن

العضوض والجبرية، الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، ج ١، ص ٢١٤.

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرار الساعة، ج ١، ص ٢١٤.

عبد العزيز، فسر به وأعجبه. رواه: الإمام أحمد، وأبو داود الطيالسي، والبزار، والطبراني في الأوسط^(١).

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه، قال: «لقيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! ادفعني إلى رجل حسن التعليم. فدفعني إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم قال: قد دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك، فأتيت أبا عبيدة، وهو وبشير بن سعد أبو النعمان بن بشير يتحدثان، فلما رأياني سكتا، فقلت: يا أبا عبيدة! والله ما هكذا أوصاك رسول الله ﷺ! فقال: إنك جئت ونحن نتحدث حديثاً سمعناه من رسول الله ﷺ، فاجلس حتى نحدثك. فقال: قال رسول الله ﷺ: إن فيكم النبوة، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم تكون ملكاً وجبرية. رواه أبو نعيم في المعرفة^(٢).

ومع هذا وذاك فلتت أحاديث نصت صراحة على نوع وصفة الحكم الذي سيقود الأمة المسلمة بعد صلح الإمام الحسن رضي الله عنه، وهي أحاديث حددت صراحة نوع الانحراف الذي سيقع بعد الصلح، ووسمته بأنه حكم (أعفر) أي ترابي أو معفر بالتراب دلالة على الانحطاط الكامل، وهي أحاديث جيء بها للإشارة إلى حكم العباسيين تحديداً باعتبار أن حكم الأمويين المنحرف، وكما قالوا في رواياتهم، يدخل في باب (ملك ورحمة) الذي يجيء بعد باب (نبوة ورحمة) ومنها، «عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قال رسول الله ﷺ: أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك أعفر، ثم ملك وجبروت يستحل فيها الخمر والحريز. رواه الدارمي في سننه». ولكنهم في فصلهم عصر الخلافة عن عصر النبوة وعصر حكم الأمويين أضاعوا على أنفسهم فرصة الإفادة من هذا الحديث فوقعوا في بثرهم الذي

(١) المصدر نفسه، إتحاف الجماعة، ج ١، ص ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٠.

حفره. ومثله حديث آخر «عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي قال: إن الله عز وجل بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائناً خلافة ورحمة، وكائناً ملكاً عضوّاً، وكائناً عتوّاً وجبرية وفساداً في الأرض، يستحلون الفروج والخمور والحريز، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله. رواه: أبو داود الطيالسي، والطبراني. قال الهيثمي: «وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس، وبقية رجاله ثقات»^(١) وقريباً منه، «عن أبي الطفيل: أنه سمع حذيفة رضي الله عنه يقول: يا أيها الناس! ألا تسألوني؛ فإن الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر؟ أفلا تسألون عن ميت الأحياء؟ فقال: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحيي بالحق من كان ميتاً، ومات بالباطل من كان حياً، ثم ذهبت النبوة، فكانت الخلافة على منهاج النبوة، ثم يكون ملكاً عضوّاً، فمن الناس من ينكر بقلبه ويده ولسانه، والحق استكمل، ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه كافاً يده، وشعبة من الحق ترك، ومنهم من ينكر بقلبه كافاً يده ولسانه، وشعبتين من الحق ترك، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه؛ فذلك ميت الأحياء»^(٢). رواه أبو نعيم في (الحلية).

هذا التخبط الكبير كان الدافع وراء منظومة الحديث المتحيز التي أوجدوها فيما بعد، والتي نمت أكبر مع سقوط الدولة الأموية وقيام حكومة بني العباس التي تزيدها سوءاً وظلماً، والملاحظ أن الأحاديث من هذا النوع تنسب عادة إلى كبار الصحابة ومن هو معروف ومشهور منهم، ومنها «عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يكون إمارة ورحمة، ثم يتكادمون عليها تكادم الحمير، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرط الساعة، ج ١، ص ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٣.

الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان. رواه الطبراني. قال الهيثمي: رجاله ثقات»^(١).
ومنها «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يكون بعد الأنبياء خلفاء يعملون
بكتاب الله ويعملون في عباد الله، ثم يكون من بعد الخلفاء ملوك يأخذون بالثأر
ويقتلون الرجال ويصطفون الأموال؛ فمغير بيده، ومغير بلسانه، ومغير بقلبه، وليس
وراء ذلك من الإيمان شيء. رواه البيهقي»^(٢).

وفي حديث آخر يساوي بين الخلفاء والأمراء والملوك: «عن قيس بن جابر الصديقي
عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: سيكون من بعدي خلفاء، ومن بعد الخلفاء
أمراء، ومن بعد الأمراء ملوك، ومن بعد الملوك جبابرة، ثم يخرج من أهل بيتي يملأ
الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ثم يؤمر القحطاني، فوالذي بعثني بالحق ما هو
دونه»^(٣).

ومثله «عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يقول: إن
الله بدأ هذا الأمر حين بدأ نبوة ورحة، ثم يعود إلى خلافة ورحة، ثم يعود إلى سلطان
ورحة، ثم يعود ملكاً ورحة، ثم يعود جبرية يتكادمون تكادم الحمير. أيها الناس! عليكم
بالغزو والجهاد ما كان حلواً خضراً قبل أن يكون مرأً عسراً، ويكون ثاماً قبل أن يكون
رماماً أو يكون حطاماً؛ فإذا شاطت المغازي، وأكلت الغنائم، واستحل الحرام، فعليكم
بالرباط، فإنه خير جهادكم. رواه: نعيم بن حماد في الفتن، والحاكم في مستدركه»^(٤).
وعن عمر أيضاً: «أنه قال: أول هذه الأمة نبوة، ثم خلافة ورحة، ثم ملك ورحة، ثم
ملك وجبرية، فإذا كان ذلك فبطن الأرض يومئذ خير من ظهرها. رواه نعيم بن حماد

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرط الساعة ص ٢١٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٢.

(٤) المصدر نفسه، إتحاف الجماعة.

في الفتن»^(١).

ولذا ترى الإمام الحسن عليه السلام الذي كان مؤمناً تمام الإيمان بصحة حديث الأغيلة ووجوب نزوهم على منبر رسول الله باليوم والساعة والدقيقة يستغل الفرص ليبين للأمة أنه لم يفعل ما فعل بأمر منه؛ وإنما فعله بأمر الله تعالى، وقد قيص الله لواحد من أكبر المدعين على أهل البيت عليهم السلام ليخرج حديثاً يثبت ذلك، وهو أبو الحسن المدائني، الذي قال عن الحسن عليه السلام: «ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين! فقال الحسن: أجلس يرحمك الله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع له ملك بني أمية فنظر إليهم يعلون منبره واحداً فواحداً، فشق عليه ذلك فأنزل الله تعالى في ذلك قرآنا قال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّئَايَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وسمعت أبي علياً عليه السلام يقول: سيلي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن، فسألته من هو؟ فقال: معاوية، وقال لي: إن القرآن قد نطق بملك بني أمية ومدتهم، قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، قال أبي: هذه ملك بني أمية، قال المدائني: فلما كان عام الصلح أقام الحسن بالكوفة أياماً ثم تجهز للشخوص إلى المدينة فدخل عليه المسيب بن نجية الفزاري وظبيان بن عمارة التيمي ليودعاه، فقال الحسن: الحمد لله الغالب على أمره لو أجمع الخلق جميعاً على أن يكون ما هو كائن ما استطاعوا^(٢). وهو أوجز وأوضح تشخيص للحالة بما لا يحتاج إلى مزيد شرح، ولكن دعماً للموضوع لا بأس من الحديث عن ركن آخر من أركان هذه المستقبلية وأقصد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشجرة الملعونة في القرآن.

(١) المصدر نفسه، إتحاف الجماعة.

(٢) شرح نهج البلاغة، مجلد ٤، ج ١٦، ص ٦

الشجرة الملعونة في القرآن

يجزنا الحديث عن حكم غلمان بني أمية إلى الحديث عن الشجرة الملعونة في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١) ومعرفة رأي المفسرين، فيها، وهو رأي مقارب ومطابق لكل ما قلناه في الجزء الأول من الكتاب عن المحاولات المستميتة لحرف الحقائق وإخفاء الدور التخريبي للسياسيين العرب، وهي محاولات اشترك بتنفيذها مجموعة كبيرة من السياسيين والإفتائيين والمؤرخين والمفسرين. فال معروف والثابت أن (الشجرة الملعونة) جاءت إشارة إلى شجرة النسب الأموي، ولعن القرآن لها يثبت بما لا يقبل التأويل أو الشك أنهم كانوا محاربين للخط الإسلامي العام، وما تفریطهم بعلي بن أبي طالب ثم بالحسن بن علي ثم بالحسين عليه السلام وباقي العلويين والطالبين إلا دليلاً على ذلك، ولكن الجهد السياسي والجهد الداعم له غطيا على هذه الحقائق في تفسيرهم للشجرة الملعونة التي كانت من أسباب قبول الإمام الحسن عليه السلام الصلح مدعين أنها شجرة الزقوم التي في نار جهنم وغيرها من الأقوال، نستمع إلى أقوالهم التي سنفندها بقول السيد الطباطبائي رحمته الله في تفسير الميزان، فهو قول فصل قوض كل تلك الأقوال.

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(٢) اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هو رؤيا عين، وهي ما رأى النبي صلى الله عليه وآله لما أسري به من

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٠.

مكة إلى بيت المقدس. وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة. وأما قوله: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيها. فقال بعضهم: هي شجرة الزقوم. وقال آخرون: هي الكشوث. عن مولى بني هاشم حدثه، أن عبد الله بن الحارث بن نوفل، أرسله إلى ابن عباس، يسأله عن الشجرة الملعونة في القرآن؟ قال: هي هذه الشجرة التي تلوي على الشجرة، وتجعل في الماء، يعني الكشوثي^(١)، ولم يتطرق الطبري لا من قريب ولا من بعيد إلى علاقة الأمويين بالآية، وسكت سكوتاً مطبقاً فلم ينبس ببنت شفة!.

وقال السعدي في تفسيره: «وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ التي ذكرت في القرآن وهي: شجرة الزقوم، التي تنبت في أصل الجحيم»^(٢).

وقال السيوطي في كتابه (مفحات الأقران في مبهمات القرآن): «﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال ابن عباس: هي شجرة الزقوم»^(٣).

وقال القرطبي: «في قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ ثلاثة أقوال:

الأول: هي شجرة الزقوم والثاني: عن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحديبية، فرد فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية، فلما كان العام المقبل دخلها، وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾^(٤). وفي هذا التأويل ضعف، لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة.

(١) تفسير الطبري، الآية ٦٠، سورة الإسراء.

(٢) تفسير السعدي للآية ٦٠ من سورة الإسراء.

(٣) مفحات الأقران في مبهمات القرآن، جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١ هـ، علق عليه محمد

إبراهيم سليم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧.

(٤) سورة الفتح، الآية ٢٧.

والثالث: إنه ﷺ رأى في المنام بني مروان ينزون على منبره نزو القردة، فسأه ذلك فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها، فصري عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة. وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل بن سعد رضي الله عنه. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات. فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنه للناس وامتحاناً. وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: «وإن أدري لعله فتنه لكم ومتاع إلى حين»^(١) قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية.^(٢)

وفضلاً عما تقدم أورد القرطبي قول ابن عباس: «(هذه الشجرة بنو أمية، وأن النبي ﷺ نفى الحكم). ولكنه لم يقتنع لا بهذا ولا بما سبقه، فقال: (وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية، فيبعد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه، فأنت بعض من لعنة الله. ثم قال: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ ولم يجر في القرآن لعن هذه الشجرة، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها. ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون». ولكي يثبت صحة رأيه قال ثانية: «وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتله، يعني الكشوثة»^(٣) غير أنه إلى ما تضمنه قول ابن عباس من تمثيل وتشبيه لبني أمية والتفافهم على الأصل كما تلتف الشجرة المتطفلة على الشجر الأصيل.

(١) سورة الأنبياء: ١١١.

(٢) ينظر: القرطبي، تفسير الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

(٣) المصدر نفسه، تفسير القرطبي.

واشترك ابن كثير مع القرطبي في الرأي فقال: «وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك» وقال أيضاً: «وقيل المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية، وهو غريب ضعيف. وقال ابن جرير حدثت عن محمد بن الحسن بن زباله حدثنا عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعيد حدثني أبي عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القروء فسأه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات قال وأنزل الله في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ وهذا السند ضعيف جدا، فإن محمد بن الحسن بن زباله متروك وشيخه أيضا ضعيف بالكلية، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة وقوله (ونخوفهم) أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم^(١).

أما السيد الطباطبائي فقال في الميزان رداً على تلك الأقوال: «ولا يدرى ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن التي جعلها فتنة للناس، ولا توجد في القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعنها، نعم ذكر سبحانه شجرة الزقوم ووصفها بأنها فتنة كما في قوله ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾^(٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ^(٢) لكنه سبحانه لم يلعنها في شيء من المواضع التي ذكرها، ولو كان مجرد كونها شجرة تخرج في أصل الجحيم وسبباً من أسباب عذاب الظالمين موجباً للعنها لكانت النار وكل ما أعد الله فيها للعذاب ملعونة ولكانت ملائكة العذاب وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَشْجَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَكًا وَمَا جَعَلْنَا

(١) تفسير ابن كثير، الآية ٦٠، سورة الإسراء.

(٢) الصافات - ٦٣.

عَذَّبَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ ملعونين، وقد أثنى الله عليهم ذاك الثناء البالغ في قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُتُكَ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٢﴾ وقد عد سبحانه أيدي المؤمنين من أسباب عذاب الكفار؛ إذ قال: ﴿فَتَلَوَّهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ﴿٣﴾ وليست بملعونة. وبهذا يتأيد أنه لم يكن المراد بالآية الكشف عن قناع الفقرتين وإيضاح قصة الرؤيا والشجرة الملعونة في القرآن المجعولتين فتنة للناس؛ بل إنما أرادت الإشارة إلى إجهالهما والتذكير بما يقتضيانه بحكم السياق.

نعم ربما يلوح السياق إلى بعض شأن الأمرين: الرؤيا والشجرة الملعونة فإن الآيات السابقة كانت تصف الناس أن أخراهم كأولاهم وذيلهم كصدرهم في عدم الاعتناء بآيات الله سبحانه وتكذيبها، وأن المجتمعات الإنسانية ذائقون عذاب الله قرية بعد قرية وجيلاً بعد جيل بإهلاك أو بعذاب مخوف دون ذلك.

وبذلك يظهر أن الرؤيا والشجرة المشار إليهما في الآية أمران سيظهران على الناس أو هما ظاهران يفتتن بهما الناس فيشيع بهما فيهم الفساد ويتعرق فيهم الطغيان والاستكبار وذيل الآية: ﴿وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يشير إلى ذلك.

أضف إلى ذلك أنه تعالى وصف هذه الشجرة التي ذكرها بأنها ملعونة في القرآن، وبذلك يظهر أن القرآن مشتمل على لعنها وأن لعنها بين اللعنات الموجودة في القرآن كما هو ظاهر قوله: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ ﴿١﴾ وقد لعن في القرآن إبليس ولعن فيه اليهود ولعن فيه المشركون ولعن فيه المنافقون ولعن فيه أناس بعناوين أخر كالذين يموتون وهم كفار والذين يكتُمون ما أنزل الله والذين يؤذون الله ورسوله إلى غير

(١) المدثر: ٣١.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) التوبة: ١٤.

ذلك. وقد جعل الموصوف بهذه اللعنة شجرة، و الشجرة كما تطلق على ذي الساق من النبات كذلك تستعمل في الأصل الذي تطلع منه وتنشأ عليه فروع بالنسب أو بالاتباع على أصل اعتقادي، قال في لسان العرب: ويقال: فلان من شجرة مباركة أي من أصل مبارك. وقد ورد ذلك في لسانه ﷺ كثيراً كقوله: «أنا وعلي من شجرة واحدة»، ومن هذا الباب قوله في حديث العباس: عم الرجل صنو أبيه.

وبالتأمل في ذلك يتضح للباحث المتدبر أن هذه الشجرة الملعونة قوم من هؤلاء الملعونين في كلامه لهم صفة الشجرة في النشوء والنمو وتفرع الفروع على أصل له حظ من البقاء والإثمار وهم فتنة تفتتن بها هذه الأمة، وليس يصلح لهذه الصفة إلا طوائف ثلاث من المعدودين وهم أهل الكتاب والمشركون والمنافقون ولبثهم في الناس وبقاؤهم على الولاء إما بالتناسل والتوالد وإما بطلوع عقيدة فاسدة ثم اتباعها على الولاء من خلف بعد سلف. ولم يظهر من المشركين وأهل الكتاب في زمن الرسول قبل الهجرة وبعدها قوم بهذا النعت، وقد آمن الله الناس من شرهم مستقلين بذلك بمثل قوله النازل في أواخر عهد النبي ﷺ: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾^(١).

فالذي يهدي إليه الإمامان في البحث أن المراد بالشجرة الملعونة قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرقون بين المسلمين إما بالنسل وإما بالعقيدة والمسلك هم فتنة للناس، ولا ينبغي أن يرتاب في أن في سياق الآية تلويحاً بالارتباط بين الفئتين أعني قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّعْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ وخاصة بعد الإمامان في تقدم قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وتذييل الفقرات جميعاً

بقوله: ﴿وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر في أن الآية بصدد الإشارة إلى أمر واحد هو سبحانه محيط به ولا ينفع فيه عظة وتخويف إلا زيادة في الطغيان. ويستفاد من ذلك أن الشأن هو أن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في الرؤيا هذه الشجرة الملعونة وبعض أعمالهم في الإسلام ثم بين لرسوله أن ذلك فتنة.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ محصل معناه على ما تقدم أنه لم نجعل الشجرة الملعونة في القرآن التي تعرفها بتعريفنا، وما أريناك في المنام من أمرهم إلا فتنة للناس وامتحاناً وبلاء نمتحنهم ونبلوهم به وقد أحطنا بهم. والمراد بالتخويف إما التخويف بالموعظة والبيان أو بالآيات المخوفة التي هي دون الآيات المهلكة المبيدة.

ويؤيد جميع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنة واتفقت عليه أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بالرؤيا في الآية هي رؤيا رآها النبي ﷺ في بني أمية والشجرة شجرتهم. وقد ذكر جمع من المفسرين استنادا إلى ما نقل عن ابن عباس أن المراد بالرؤيا التي أراها الله نبيه هو الإسراء، والمراد بالشجرة الملعونة في القرآن شجرة الزقوم. ثم لما ورد عليهم أن الرؤيا على ما صرح به أهل اللغة: هي ما يراه النائم في منامه والإسراء كان في اليقظة اعتذروا عنه تارة بأن الرؤيا كالرؤية مصدر رأى ولا اختصاص لها بالنام، وتارة بأن الرؤيا ما يراه الإنسان بالليل سواء فيه النوم واليقظة، وتارة بأنها مشاكلة لتسمية المشركين له رؤيا، وتارة بأنه جار على زعمهم كما سموا أصنامهم آلهة فقد روي أن بعضهم قال للنبي ﷺ لما قص عليهم إسراء لعله شيء رأيته في منامك فسماه الله رؤيا على زعمهم كما قال في الأصنام (آلهتهم)، وتارة بأنه سمي رؤيا تشبيها له بالنام لما فيها

من العجائب أو لوقوعه ليلاً أو لسرعته. وقد أجاب عن ذلك بعضهم، أن الإسراء كان في المنام كما روي عن عائشة ومعاوية. ولما ورد عليهم أيضاً أن لا معنى لتسمية الزقوم شجرة ملعونة ولا ذنب للشجرة اعتذروا عنه تارة بأن المراد من لعنها لعن طاعميها على نحو المجاز في الإسناد للدلالة على المبالغة في لعنهم كما قيل وتارة بأن اللعنة بمعنى البعد وهي في أبعد مكان من الرحمة لكونها تنبت في أصل الجحيم، وتارة بأنها جعلت ملعونة، لأن طلوعها يشبه رؤوس الشياطين والشياطين ملعونون؛ وتارة بأن العرب تسمي كل غداء مكروه ضار ملعوناً.

أما ما ذكره في معنى الرؤيا فما قيل: إن الرؤيا مصدر مرادف للرؤية أو إنها بمعنى الرؤية ليلاً يرده عدم الثبوت لغةً ولم يستندوا في ذلك إلى شيء من كلامهم من نظم أو نثر إلا إلى مجرد الدعوى. وأما قولهم: إن ذلك مشاكلة لتسمية المشركين الإسراء رؤيا أو جرى على زعمهم أنه رؤيا، فيجب تنزيه كلامه سبحانه من ذلك البتة فما هي القرينة الدالة على هذه العناية وأنه ليس فيه اعتراف بكونها رؤيا حقيقة؟ ولم يطلق تعالى على أصنامهم (آلهة) و(شركاء) وإنما أطلق (آلهتهم) و(شركائهم) فأضافها إليهم والإضافة نعمت القرينة على عدم التسليم، ونظير الكلام جار في اعتذارهم بأنه من تشبيه الإسراء بالرؤيا فالاستعارة كسائر المجازات لا تصح إلا مع قرينة، ولو كانت هناك قرينة لم يستدل كل من قال بكون الإسراء منامياً بوقوع لفظة الرؤيا في الآية بناءً على كون الآية ناظرة إلى الإسراء.

و أما قول القائل: «إن الإسراء كان في المنام فقد اتضح بطلانه في أول السورة في تفسير آية الإسراء».^(١)

(١) الميزان في تفسير القرآن.

قتال الحسن عليه السلام للبغيمة مكمل لقتال علي عليه السلام لهم

إن بغي معاوية لم ينقطع فهو فضلاً عن خروجه على الخليفة الشرعي علي عليه السلام ومحاربه في صفين، خرج على الخليفة الشرعي الحسن بن علي عليه السلام وقاد جيوشه ليحاربه، ومعروف أن الأمة بايعت الحسن خليفة، واعترف جميع المسلمين المنصفين بهذه البيعة، أما معاوية فكان مجرد والٍ أبى عاصٍ، وهو بخروجه على الخليفة الشرعي في الحالتين خالف كل القواعد حتى تلك التي وضعها علماء مدرسته حيث جاء عن ابن تيمية قوله: «المشهور في مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم... لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى، ولا نكاد نعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا كان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته»^(١).

ولكن السياسيين أرادوا لمنظومة الحديث الموضوع أن تعمل عوضاً عن منظومة السنة النبوية وأن تقوم بشرعنة كثير من الأحداث والأعمال المخالفة للإسلام التي وقعت منذ اللحظات الأولى لوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فصاعداً، ومع أنها اصطدمت بمنظومة أخرى أجمع المسلمون على صحتها ولم يختلفوا في مضمونها، إلا أن ذلك لم يشفع للحق عند غالبية المؤرخين ليأخذ مجراه، ولم يُلن قلوبهم فأوغلوا في الدس والتشويه وضمنوا تاريخنا كثيراً من التحريف والتحيز الذي شوه صورته.

(١) منهاج السنة النبوية، عبد الحليم بن تيمية، ج ٢، ص ٧٨.

ونجد في منظومة الأحاديث الصحيحة روايات تتحدث عن قتال الإمام علي عليه السلام للبغاة، ثم نجد في التاريخ قصصاً عن هذا القتال الذي كان الضلع الثاني من أضلاع المثلث العدواني: (الناكثون) و (الباغون) و (المارقون) ولما كان الذين يحملون صفة (الباغون) هم أنفسهم الذين قاتلوا الإمام الحسن عليه السلام للأسباب نفسها التي قاتلوا من أجلها علياً عليه السلام، فإن صفة البغي بقيت لصيقة بهم لم تفارقهم ولم يفارقوها. وقد أورد السيوطي في تاريخه قولاً فيه دلالة عظيمة على بغي معاوية وخروجه على الخلفاء الشرعيين بالرغم مما فيه من دس، جاء فيه: «خرج معاوية على علي كما تقدم، وتسمى بالخلافة، ثم خرج على الحسن»^(١)، أما الدس الموجود في الحديث فهو قوله: «وتسمى بالخلافة» إذ المشهور بين المؤرخين أن معاوية بويع من قبل الشاميين بعد الصلح وليس قبله.

وقد كان في مخطط الإمام الحسن عليه السلام أن يرد على خطر معاوية بعد أن يكمل بناء إدارة دولته، ولكن معاوية استبق الأمور فهو ما إن سمع بمقتل الإمام علي عليه السلام حتى جمع جيشه وسار نحو الكوفة ليفرض عليها سيطرته، وهو ما اتفق عليه المؤرخون ومنهم اليعقوبي، الذي قال في تاريخه: «وأقبل معاوية لما انتهى إليه الخبر بقتل علي، فسار إلى الموصل بعد قتل علي بثمانية عشر يوماً»^(٢) وذلك ليفاجئ الإمام الحسن عليه السلام قبل أن يكمل استعداداته؛ لأنه كان على يقين بأن الحسن عليه السلام يحمل مشروع علي عليه السلام الذي يرفض أن يكون معاوية مجرد والٍ على إقليم بل خليفة للمسلمين. وقد لعبت السياسة لعبتها ابتداءً من هذه المرحلة بالتحديد حيث كثرت الأفاويل والدسائس والتحريف.

(١) تاريخ السيوطي، ص ١٩٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤٩، ج ٢.

إن رسول الله ﷺ وصف معاوية وجنده بالفئة الباغية^(١)، في مجموعة من الأحاديث سواء منها تلك التي أخبر بها الإمام علي عليه السلام بمن سيفاتله في قابل الأيام أو تلك التي أخبر بها أن عماراً تقتله الفئة الباغية، فقتل عمار في حرب صفين، وعلي عليه السلام هو الخليفة الشرعي المنتخب من قبل جماهير المسلمين بما يعني أن من قاتله هم الموصفون بالبغي. ولكن أحفاد الفصيل السياسي لم يأبهوا للحديث الصحيح واستندوا إلى أحاديث موضوعة لكي ينفون صفة البغي عن أجدادهم، ولأنهم كانوا على يقين أن كل ما جاءوا به من تصحيف وتحريف وتدليس لا يمكن أن يُقنع العقلاء؛ فتراهم بعد التأويل يخرجون بمحصلة لا أصل لها في الشريعة، قالوا من خلالها: «إن البغي كما أنه لا ينافي وصف الإيمان، فكذا قد يكون الباغى صاحب حق»، وأنقل لكم نص قولهم: «كذلك يجب ألا ينسى المستدل بحديث عمار أن يستدل بحديث: «إن ابني سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين»، وهذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ حيث أخبر عما سيكون على يدي الحسن بن علي عليه السلام من الإصلاح بين المؤمنين وهذا قد تحقق وشهد عليه التاريخ عندما اصطالح الحسن عليه السلام ومعاوية وتنازل الحسن عليه السلام طواعية عن الخلافة لمعاوية... وما كان الحسن عليه السلام ليتنازل لمعاوية لو ظن أن معاوية خالٍ من وصف الإيمان كما تدعي الرافضة وأذناهم؛ لأن تسليم أمور المسلمين للدعاة إلى النار والمنافقين الكفار

(١) بالمناسبة هناك من يرى في لفظة (البغي) مدحاً أكثر منه ذمّاً باعتبار أن البغي لا يُجرّج من الإيمان ولذا يقولون: (فإن ذكرت البغي فلا تنس الإيمان، والبغي لم يكن صفة معاوية وحده بل صفة عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم من أكابر الصحابة وهي أيضاً صفة زيد بن علي بن الحسين في خروجه على هشام، وهذه من زلات الأكابر المغفورة لما لها من تأويل، فهذه فرقة مؤمنة باغية على إمامها يغفر الله لها لسابقتها وحسن بلائها في الإسلام، وأما معادة معاوية وحده من بين سائر هؤلاء فلا المنطق يؤيدها ولا قواعد الشريعة. ينظر الرابط <http://ahlalsonnah.word-press.com>

الفجار من أعظم الذنوب بل من الكفر، ومن المحال أن يستحق الحسن المدح والثناء والسيادة من أجل كفر، ومن المحال أن يتنازل عن ولاية أمور المسلمين لعدو داعية إلى النار، فإن من يولي دعاة النار يكون هو أيضاً داعية إلى النار بالتسبب كما لا يخفى... أن البغي كما أنه لا ينافي وصف الإيمان فكذلك قد يكون الباغي صاحب حق»^(١).

وهذا الرأي المتحيز بعيد عن الحقيقة ومخالف للمنقول؛ لأن معنى البغي في فقه مدرستنا والمدارس الأخر واضح وجلي ولا يحتاج إلى كثير جهد لكي يفهم؛ فقد فسر السيد الطباطبائي في الميزان البغي على أنه: «الظلم والتعدي بغير حق. والفيء الرجوع، والمراد بأمر الله ما أمر به الله، والمعنى: فإن تعدت إحدى الطائفتين على الأخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه»^(٢).

ونقل القرطبي في تفسيره عن القاضي أبي بكر بن العربي قوله: «فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن علياً عليه السلام كان إماماً، وأن كل من خرج عليه باغٍ وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح»^(٣).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي عن هذه الآية بالذات: «هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «تقتل عماراً الفئة الباغية». وقوله عليه السلام في شأن الخوارج: «يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة»، والرواية الأولى أصح؛ لقوله عليه السلام: «تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق». وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب

(١) أهل السنة، الرابط <http://ahlalsonnah.wordpress.com>

(٢) تفسير الميزان، الحجرات ٩.

(٣) تفسير القرطبي الآية ٩ سورة الحجرات.

ومن كان معه»^(١).

وقد أجمعت المذاهب على شرعية قتال الخليفة الشرعي للبغاة، بل وقصر بعضهم هذا الحق على الخليفة الشرعي دون سواه، وفي تفسيرهم لسورة الحجرات أوضحوا أبعاد هذا الحكم بشكل دقيق؛ فبعد أن قال الطبري في تفسير الآية التاسعة من سورة الحجرات: «يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل» عاد ليقول: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل عن علي، عن ابن عباس: فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدكم ويقاتلهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقرروا بحكم الله. وفي حديث آخر: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ولا يقاتل الفئة الباغية إلا الإمام»^(٢).

أما القرطبي فإنه قدّم للموضوع بقوله: «قال العلماء: لا تخلو الفتتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً أو لا. فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافاة والموادة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتها. وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداها باغية على الأخرى، فالواجب أن تُقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل. فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكتلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مرشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملّا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من

(١) تفسير القرطبي الآية ٩ سورة الحجرات.

(٢) تفسير الطبري، سورة الحجرات، الآية ٩.

اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفتنيتين الباغيتين. والله أعلم»^(١).

والقرطبي بهذه المقدمة جعل المسؤولية مفتوحة لا يتحملها شخص ما بعينه، من خلال قوله: «وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَغِيٍّ﴾ أمر بالقتال. وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين... وفي هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيتها على الإمام أو على أحد من المسلمين»، ثم عاد وقال: «إذا خرجت على الإمام العدل خارجة باغية ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة أو من فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا»، وهدف القرطبي من المقدمة وما تلاها القول: إن معاوية ليس باغٍ وغير مشمولٍ بقول «إذا خرجت على الإمام العدل خارجة باغية ولا حجة لها؛ لأنه كان صاحب حجة شرعية وهي المطالبة بالثأر لعثمان!».

بل حتى أتباع المذهب الإباضي وهم الخوارج يرون جواز مقاتلة البغاة، فهم كما يقول (قشار بالحاج): «لا يستحلون دماء المسلمين ولا أخذ شيء من أموالهم... فمال المسلم ودمه حرام إلا من استثناه الشرع في إباحة دمه وهم البغاة في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا آلَ بَغِيٍّ حَتَّىٰ تَفِئَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهم من خرج على الإمام العدل الذي اختاره المسلمون عن شوري»^(٢).

ومع هذا وذاك تجد السياسيين العرب يتفننون في طمس كل الحقائق ويتجاهلون أمر الله بقتال الفئة الباغية لمجرد أنهم يريدون أن يخذلوا الإمام علياً عليه السلام في حربه للبغاة. ثم يتحدثون بأن الإمام الحسن عليه السلام هو الذي سار إلى قتال معاوية؛ وبالتالي لم يكن معاوية

(١) تفسير القرطبي، سورة الحجرات، الآية ٩.

(٢) اللمعة المضئية في تاريخ الإباضية، بالحاج بن عدون قشار، ط ٢، مكتبة الضامري، السيب،

سلطنة عمان، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م، ص ١٤.

باغياً على الإمام الحسن (عليه السلام)؛ لأنه بمسيره كان يريد الدفاع عن نفسه! ومن يسير إلى قتال الآخر هو الباغي بشرعهم.

لقد وظّف السياسيون مقتل الخليفة عثمان على يد الثوار واستثمروه لتحويله من حدث سياسي ديني إلى ثأر عشائري ديني، عشائري بالنسبة لهم وللقبائل التي ترتبط معهم بولاء وعهد، وديني لمن تابعهم من القبائل والعشائر الأخر والمسلمين الآخرين، فاخترن عريبتهم وأعجميهم هذا الثأر في ذاكرته ليشعر أن له ثأراً ينبغي المطالبة به ويجب سداده. ثم لما جاءت صفين التي أشعل نارها البغاة كما وصفهم رسول الله ﷺ وبسبب الأعداد الكبيرة من القتل والجرحى فيها تجدد الثأر، فأضافت صفين حقوقاً آخر للثأر؛ فصار الثأر ثأرين مسيطر عليهما، يستثيرهما السياسيون متى شاءوا ويخمدونهما متى رغبوا، ولذا ترى مفردة الثأر تخدم قليلاً بعد التحكيم دون أن تنطفئ فإذا ما قتل الإمام علي (عليه السلام) بيد أشقائها أو كما يصفه معاوية في رسالته إلى عماله: (رجلاً من عباده) ونُصب الحسن خليفة للمسلمين من بعده استفزها السياسيون وأوقدوا نارها من جديد فاستعرت وتأججت وذو الشيطان قرنه ليوقد بنارها فتنة في عالم المسلمين لخوض المعركة التي تقرر المصير.

كان حكم وحكومة الإمام الحسن (عليه السلام) في مرحلة التأجيج والتصعيد هذه لما يزل عوداً طرياً غضاً ليناً غير متكامل البناء ولا ملموم الأطراف ولا متناسق الصورة، لا يملك مقومات مجابهة البغي والغيلة والغدر والمكر، وكانت حكومة وحكم السياسيين الغربيين كياناً متكاملاً مترابطاً مبنياً على مبدأ المعاملة والمتاجرة ليس بالقيم وحدها، بل حتى بالنفس الإنساني والوجودي، فانشغل الامام الحسن (عليه السلام) في ترميم بيت الخلافة وأنشغل البغاة في تجميع قواهم لينقضوا على آخر معاقل قوى الإسلام المحمدي، ولم

يأخذ الأمر من معاوية أكثر من رسالة بخط واحد ونمط واحد، وكأنها كتاب رسمي من الكتب التي تصدرها الدوائر الحكومية اليوم بعدة نسخ، أو ما يعرف بالإعمام، وتعطي منها (نسخة إلى /....) تذهب كل منها إلى جهة ما لتوصل الكتاب إلى جميع المعنيين بمحتواه، وكانت رسالة معاوية:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية أمير المؤمنين إلى..... وذكر أسماءهم

ومن قبله من المسلمين

سلام عليكم

فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو.

أما بعد:

فالحمد لله الذي كفاكم مئونة عدوكم وقتلة خليفتم، إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده، فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرفهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبلوا إلّي حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان»^(١).

وتلاحظ هنا أن معاوية يتّهم الإمام علياً وخليفته الإمام الحسن عليه السلام بأنهما باغيان، ويصف نفسه بالنقي المؤمن المؤتمن، ورسائله إلى عماله ليست أقل الأدلة على ذلك. لكن قبالة رسالة معاوية هذه هناك رسالة أخر هي عبارة عن خطبة ألقاها الحسن عليه السلام

(١) شرح نهج البلاغة، م٤، ج١٦، ص ١٤٠١٣.

بأتباعه دليلها لا يصمد بالوقوف أمامه أي دليل في الكون، فرسالة معاوية أثارت نخوة الجاهلية ودعت إلى الثأر القبلي الموروث، أما رسالة الإمام الحسن عليه السلام فقد جاء فيها: «بعد الحمد والثناء

أما بعد:

فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١﴾ فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، إنه بلغني أن معاوية بلغه أننا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك. فأخرجوا (رحمكم الله) إلى معسكركم بالنخيلة، حتى ننظر وننظروا ونرى وترى ﴿١﴾. ومنه يتضح من هو مؤمن ومن هو باغ.

إن المؤرخين في حديثهم عن مسير الحسن عليه السلام إلى قتال معاوية أسهبوا في القول وأكثروا في التأويل، ولم يرسوا على قرار واحد، واجد أن هذا التلون والتنوع لم يقع مصادفة، بل كان مقصوداً وموظفاً ومستثمراً.

(١) شرح نهج البلاغة، م ٤، ج ١٦، ص ١٤.



جيش الإمام الحسن

إذا ما كان معاوية قد نجا بحياته في تجربة صفيين بخدعة سياسية، فإنه فضلاً عن عقدة الخوف التي خرج بها^(١) لم يكن واثقاً من انطواء خدعة أخرى مثل خدعة رفع المصاحف مرة ثانية، ولا سيما وأنه كان يرى من خلال المراسلات مع الحسن أنه يجابه فتى صارماً حازماً مصراً على تقويم الاعوجاج، فأراد أن يتخلص من الورطة الجديدة بعيداً عن ساحات الحرب فعمل في ثلاثة محاور:

المحور الأول: قام بجمع آلاف مؤلفة من الجند يرهب بهم قلوباً يريد خداعها واستمالتها إلى جانبه لكي يبدو أمام الناس وكأن جيشه لا يقهر ومن الأجدى لهم والأجدر بهم أن ينجوا بأرواحهم ويهربوا إلى جانبه أو يتركوا القتال، وبعد أن تحقق له بعض ذلك بدأ بالخدعة الأخرى.

(١) قال المسعودي في مروج الذهب: «وذكر أن معاوية بن أبي سفيان تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسماء بن زيد مولى رسول الله ﷺ، في أرض، فقال عمرو لأسماء: كأنك تنكرني، فقال أسماء: ما يسرنى نسبك بولائي، فقام مروان بن الحكم فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان، وقام الحسن فجلس إلى جانب أسماء، فقام سعيد بن العاص فجلس إلى جانب مروان، فقام الحسين فجلس إلى جانب الحسن، وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب سعيد، فقام عبد الله بن جعفر فجلس إلى جانب الحسين، وقام عبد الرحمن بن الحكم فجلس إلى جانب ابن عامر، فقام عبد الله بن العباس فجلس إلى جانب ابن جعفر، فلما رأى ذلك معاوية قال: لا تعجلوا، أنا كنت شاهداً إذا أقطعها رسول الله ﷺ أسماء، فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين، وأقبل الأمويون عليه فقالوا: ألا كنت أصلحت بيننا قال: دعوني فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس على عقلي وهي صورة تنبئك بالرعب العظيم الذي زرعه صفيين في قلب معاوية».

المحور الثاني: قرر إفراغ بيت المال الشامي بكل ما فيه وهو أكثر من كثير؛ من أجل أن يستميل إليه قلوب الطماعين من جانب ويحدث الضجة المفتعلة في معسكر الحسن عليه السلام من جانب آخر، ولقد نجح في المشروعين؛ نجح في إمالة قلوب العشرات من شيوخ القبائل والقادة والمتنفذين والوجهاء الغربيين ممن كانوا مع الحسن عليه السلام إلى جانبه فاعتزلوا الحرب تباعاً وتخلوا عن المسير ويمم بعضهم صوب الشام يعلن البيعة ويستلم الثمن، فضلاً عما كان موجوداً في العسكر من المغرضين والجهلاء والمصلحين والسياسيين؛ موعوداً بالمال الوفير إن هو نجح في قتل الحسن عليه السلام أو في إثارة الفتنة في معسكره أو تحريض الجند على قتله، وثالثة الأثافي كان وجود الخوارج ضمن قوات الحسن عليه السلام وهم الذين يضمرون الحقد له ولمعاوية وكانوا يعتقدون أن مقاتلة معاوية من خلال جيش الحسن عليه السلام تضعفها سوية، فما إن رأوا الكفة تميل إلى جانب معاوية حتى غادر بعضهم ليجد له مكاناً في صفوف جند الشام؛ لكي يضعف كفة جيش الحسن، وعسى أن يهدم ما يقدر على هدمه هناك عند معاوية، وبقي القسم الآخر في معسكر الحسن عليه السلام ينتظر الفرصة للفتك به كما فتكوا بابيه من قبل، فمن غادر منهم أضعف معنويات جيش الحسن، ومن بقي شاغب ونافق فأحدث فتنة في صفوف الجيش.

المحور الثالث: دفع الحرب قدر المستطاع وإجبار الحسن عليه السلام على قبول الصلح؛ لكي لا يتورط بقتل ابني رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام، فتثور عليه الأمة وترفض منحه الشرعية، وهي لما تزل حانقة عليه بسبب قتاله لعلي عليه السلام.

إن المدة التي قضاها معاوية في إعداد الغربيين (جيشه وشعبه) لمثل هذه المنازلة كانت كافية جداً لتنظيمهم وترتيبهم، على خلاف الشرقيين الذين فرض جذب

العاصمة والقها عليهم أن يعيشوا مع أصناف وأجناس وطبائع وأفكار حتى وإن بدت متعايشة، فإنها بالتأكيد لم تكن متجانسة ولا متفاهمة. وقد أعد معاوية جيشه الجرار من ذاك الشعب المترف المستقر، وكان على الحسن عليه السلام أن يعد جيشاً من هذا الشعب القلق المضطرب غير المتجانس، وهو الذي ابتلي بشعب متنوع متنافر متكاره غير متجانس، كان فيه المخلص الشريف، واللص الشريد، والحاقد، والكاره، والمصلحي، والنفعي والجاسوس، ومن باع دينه بدنابير قليلة، ومن يسعى إلى متع الحياة وبهجتها بعيداً عن رقابة أهل البيت عليهم السلام، ولقد نقل الشيخ آل ياسين وصف صعصعة بن صوحان العبدي للكوفة وذكره للأجلاف الذين كانوا فيها في عصر الإمام الحسن عليه السلام، بقوله: «قبة الإسلام وذروة الكلام، ومضان ذوي الأعلام، إلا أن بها أجلافاً تمنع ذوي الطاعة وتخرجهم عن الجماعة، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقاعة».^(١)

وحقا كان المجتمع الكوفي خليطاً غير متجانس من الناس الذين تختلف مشاربهم ورؤاهم وحتى عقائدهم، فهناك:

- الشيعة المخلصون الذين كانوا قد نذروا أرواحهم للموت في سبيل إمامهم الحسن عليه السلام وعقيدتهم الحققة.

وهناك المسلمون الحقيقيون، وأهل البصائر يُلهبون حماس الشعب ويخرضونهم لقتال أهل البغي بشتى أساليب الاستنهاض.

- وهناك الأمويون وهم من أبناء الأسر البارزة كعمر بن سعد وقيس بن الأشعث وعمر بن حريث وأبو بردة بن موسى الأشعري وحجار بن ابجر

(١) صلح الحسن، الشيخ آل ياسين، ص ٦١، عن البلاذري في فتوح البلدان والبرقي في تاريخ الكوفة والحموي في المعجم.

وعمر بن الحجاج وإسماعيل وإسحاق ابني طلحة بن عبيد الله وغيرهم، وهم الذين وعدوا معاوية باغتيال الإمام أو تسليمه له أسيراً؛ وكتبوا إليه واستحثوه على المسير نحوهم^(١).

وفضلاً عن هؤلاء كان فيها «الأشعث بن قيس والمندر بن الزبير وإسحاق بن طلحة وحجر بن عمرو ويزيد بن الحارث بن رويم وشبث بن ربعي وعروة بن قيس ومحمد بن عمير وعبد الله بن مسلم بن سعيد وأسماء بن خارجة والقعقاع بن الشور الذهلي وشمر بن ذي الجوشن الضبابي»^(٢)، وكلهم كانوا متعاونين مع معاوية داعمين له، موهنين أتباع الحسن عليه السلام؛ لأنهم إما كانوا ينتمون إلى المشروع السياسي، أو يكرهون البيت العلوي، أو يطمعون بهبات معاوية بعد أن وعدهم بالمال الوفير، أخرج الشيخ الصدوق (رحمته الله): «وبعث معاوية لكل من عمر بن حريث، والأشعث بن قيس، وحجار بن ابجر عينا من عيونه يمني كل واحد منهم بقيادة جند من جنوده، أو تزويج إحدى بناته، أو بمائة ألف درهم إن هم قتلوا الإمام الحسن عليه السلام»^(٣).

- وهناك من أنصار معاوية الآخرين من هم من أهل الكوفة وباقي الأمصار الذين أفسدتهم هداياه ووعدوه.
- وهناك الهمج الرعاع الذين ينعقون خلف كل ناعق، تتقاذفهم الأهواء وتحركهم الأقوال، وتقعدهم الأفعال.
- وهناك الخوارج القشريون والحرورية، الذين كانوا يكيدون للحسن عليه السلام.

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ص ١٧٠.

(٢) ينظر: صلح الحسن، آل ياسين، ص ٨٨.

(٣) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ص ٨٤.

ويعيقون مشروعه النهضوي، وهم حزب له تأثير كبير على الشارع، وقادة كبار متفانون في سبيل عقيدتهم منهم عبد الله بن وهب الراسبي، شبت بن ربيعي، عبد الله بن الكواء، الأشعث بن قيس، شمر بن ذي الجوشن. ويكفي دليلاً على وحشية هؤلاء وبغضهم لآل البيت عليهم السلام أن أغلبهم اشتركوا في قتل الحسين عليه السلام في معركة الطف الخالدة.

- وهناك مَنْ يثبُط الناس عن الجهاد، وهم الجبناء الرعايد.
- وهناك جواسيس معاوية يثبون الدعايات ويشوشون الأفكار.
- وهناك الحمراء وهم مجموعة أعجمية متقلبة الولاء ضعيفة الدين.

وهؤلاء جميعاً لم يكن انخراطهم في جيش الإمام عليه السلام بأقل خطراً من بقائهم في الكوفة، ولذا تراه حينما خرج بجيشه من الكوفة متجهاً إلى المدائن كانت عينه ترنو إليها وتنظر إليهم وهو ينتظر منهم الغدر والفجرة، بعد أن تمكنوا من التأثير على الناس ومنعوهم من الالتحاق بالجيش.

فضلاً عن ذلك ابتلي الإمام الحسن عليه السلام بجيش لا يقل تلوناً عن شعبه الملون المهجين، فقد قسّم المؤرخون جيشه إلى أقسام وأغفلوا أقساماً آخر لم ينتبهوا لوجودها، ومجموع ما ذكره، وما أضفته أنا إلى إحصائهم بلغ تسعة أقسام، هي:

- الأول: الهاشميون الطالبيون من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيهم الحسين والعباس عليهما السلام.

- الثاني: الشيعة المخلصون الذين اتبعوه لأداء واجبهم الديني وإنجاز مهمتهم الإنسانية، وهم قلة قليلة ممن بقي من أنصار علي عليه السلام.

- الثالث: مسلمون يرون أن القتال مع الخليفة الشرعي واجب ديني لا يجوز التأخر عنه، حتى ولو لم يكونوا من المؤيدين لمنهج الخليفة الشرعي.
- الرابع: سرايا ومجاميع الخوارج الذين كانوا يريدون محاربة معاوية عن طريق الحسن عليه السلام، ومحاربة الحسن عليه السلام عن طريق معاوية.
- الخامس: أصحاب الفتن والمطامع، الذين يبتغون من الحرب مَغْنَمًا لدينهم، تماماً كما كان بعض الأعراب يخرجون في غزوات عصر البعثة طلباً للمغنم.
- السادس: شكّاكون لم يعرفوا حقيقة الأمر من هذه الحرب، فجاءوا إليه يلتمسون الحُجَّةَ ويطلبون البينة.
- السابع: أصحاب العصبية، الذين اتبعوا رؤساء قبائلهم عصبية لا أكثر مع أن الرؤساء لم يكونوا أكيس منهم. ولذا وصفهم الشيخ المفيد بأنهم (لا يرجعون إلى دين).
- الثامن: الخلايا النائمة التي زرعها معاوية في الكوفة أبان حكم الإمام علي عليه السلام على أن يتحركوا ساعة يشاء لأداء ما يشاء مقابل مغريات دنيوية كثيرة، وهؤلاء ليسو من الوجوه المعروفة والبارزة في المجتمع، ولكنهم يمتازون بالدهاء ويحملون روحاً إجرامية لا يردعها رادع.
- التاسع: الحمراء، وهم من الأعاجم وقيل أنهم من الفرس تحديداً، ومن أبناء السبايا الفارسيات اللائي أُخذن في عين التمر وجلولاء، زاد عددهم على عشرين ألفاً، وكانوا أجناد من غَلَب، اشتركوا على رأس ثلاثة عقود في ثلاث وقعات كبيرة، اشتركوا في بداية العقد الرابع سنة (٤١) هجرية إلى جانب

معاوية ضد الإمام الحسن عليه السلام مع أنهم كانوا ظاهراً من أنصاره أو في الأقل من أبناء شعبه، وفي بداية العقد الخامس سنة (٥١) هجرية أصبحوا شرطة زياد ابن أبيه ويده الضاربة، وفي بداية العقد السادس سنة (٦١) هجرية كانوا من المرجفين بالحسين عليه السلام، ولقد ثبت تاريخياً أنهم كانوا أقسى على التشيع من كل أعدائه العرب.

ولقد أوجز الشيخ المفيد (رحمته الله) حالة جيش الإمام بعدة كلمات قال فيها: «صُف معه أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه عليه السلام، وبعضهم محكمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكاك، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا قبائلهم لا يرجعون إلى دين»^(١)، كما ويرى السيد محمد علي الحلو أن الإمام الحسن عليه السلام كان: «أمام جيش مثقل ممزق.. مثقل بتبعات الماضي الذي خلقه أمر التحكيم ليؤسس فكرة الخوارج بكل ضجيجها وعجيجها... ومحكوم بما للقبائلية شأن من الانصياع على نخوة العصبية»^(٢).

أما السياسيون وأتباعهم التاريخيون فقد عملوا جاهدين على إخفاء هذه الحقائق وجاءوا بما يخالف الواقع لمجرد أن البخاري أورد حديثاً عن كثرة جيش الحسن عليه السلام، ولذا تجد الدكتور الصلابي مثلاً يتعلل بحجج واهية لتأويل رواية البخاري عن خوف معاوية من الدماء البريئة التي ستسفك إذا تحارب جيشه مع جيش الحسن عليه السلام، الذي وصفوه من حيث الكثرة بالجلال كما في قول: «إن ما ورد في رواية البخاري من وصف لجيش الحسن يفيد قوة جيش الحسن وتماسكه، مما يعني أن جيش العراق قابل لجيش

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج ٢، ص ١٠.

(٢) الحسن بن علي رجل الحرب والسلام، السيد محمد علي الحلو، مؤسسة السبطين العالمية،

الشام وهو في أحسن حالاته المادية والمعنوية»^(١)، وهذا يخالف لكل الأقوال والغاية منه معروفة.

وبهذه المواصفات الشعبية والعسكرية كان مطلوباً من الحسن عليه السلام مقاتلة واحد من أقوى الجيوش في عصره من حيث التنظيم والتدريب والإعداد والإنفاق والاعتقاد الأيديولوجي أيضاً. ونخلص منه بنتيجة واضحة وهي أن ذروة وقمة التكتل الشرقي كانت مؤمنة مخلصه وفية قادرة متمكنة مندفعة بعقل لتمارس دورها الإلهي المرسوم، ولكنها كانت تشكو ضعف القاعدة، فالقاعدة كانت ضعيفة متهاونة مفككة منكفئة رخوة، وأجمل وصف وجدته لحال الذروة والقاعدة هو قول السيد محمد باقر الصدر رحمته الله: «لم يكن الشك في الكبرى، بل العيب في الصغرى»^(٢)، وهؤلاء هم الذين كتب عنهم التاريخ أنهم شعب الإمام الحسن عليه السلام وجيش الذي أراد أن يواجه به طغيان معاوية! وما أدراك ما التاريخ ومن كتب التاريخ.

فما لا ريب فيه أن التاريخ صنعة الأقوياء، وكثير من تناقضه صنعة السياسيين، وما وصل إلينا بعضاً من هذا ومن ذاك، مضافاً إليه ما ابتدعته الأقلام المأجورة أو المدفوعة بطائفية وولاء، ولذا نجد فيه تهاقناً وتبايناً وخلطاً غريباً. وأنا من خلال بحثي عن أقوال وآراء المؤرخين في الصلح وجدتهم عرضاً يتحدثون عن أرقام جيش الإمام الحسن عليه السلام بشكل غريب ففهم من قال: إنه اثنا عشر ألفاً، وهناك من قال: هو أربعون ألفاً وقد تحدث بعضهم عن مئة ألف، وبات حجم الجيش محصوراً بين رقمي اثنا عشر ألفاً ومئة ألف، هذا التباين الرقمي يبدو مقصوداً من عدة جوانب، مع أن هناك من

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص ٢٩٧.

(٢) أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية، الإمام الشهيد السيد محمد باقر

الصدر، العارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٢٢٩.

يرى أن «جيش الإمام الحسن عليه السلام بأبجمعه ربما لم يكن يزيد على العشرين ألفاً»^(١)، وقد استند السياسيون إلى التباين الرقمي ليدّعوا أن الحسن عليه السلام جمع جيشاً أسطورياً قبالة جيش الشام الأسطوري فخاف معاوية هلاك الأمة وسعى إلى الصلح بكل الوسائل بما فيها رشوة الإمام الحسن عليه السلام بملايين الدنانير ليقبل! وقد فات هؤلاء أن معاوية كان مدركاً لأهمية الجيش القوي والكثير، وكان يعده عصب دولته المرتقبة، يقول الدكتور عبدالله جمال الدين في كتابه الدولة الفاطمية: «الجيش عصب الأمم، وساعدها المتين وأداتها القوية بها تحقق الدول غاياتها وتصل إلى أهدافها ومقاصدها وتؤكد وجودها وتحمي كيانها، وبدون جيش قوي تعتبر الدولة بنياناً متداعياً وكياناً هزلياً متهاوياً، وبمقدار ما تملك من قوى عسكرية وما توفره لنفسها من عدد وعتاد حربي، بمقدار ما تفرض هيبتها على الآخرين»^(٢) فعمل منذ الأيام الأولى التي تسلّم بها إدارة الشام بعد موت واليها يزيد بن أبي سفيان على بناء جيش جرار وتسليحه بأحدث الأسلحة المتاحة وتقويته وتغذيته وتدريبه بحجة أن هذا الجيش يقف قبالة جيش الإمبراطورية الرومانية، وكان الصرف على هذا الجيش المدلل يتم من الخزينة المركزية بهذا العذر بالذات، فضلاً عن كامل واردات الشام التي تبرعت بها الحكومة المركزية إليه بحجة انه يربط في وجه جيش الروم، حتى تحول قائده إلى كسرى العرب وتحول جيشه إلى جيش إمبراطوري جرار!.

فما موقف الإمام الحسن عليه السلام من الجيش وكيف تعاملت السياسة الدنيوية مع قصة

(١) عاشوراء بين الصلح الحسنّي والكيد السفينّي، السيد جعفر مرتضى العاملي، كتاب الإلكتروني، مكتبة العقائد، مركز الأبحاث العقائدية، عن أغاليط المؤرخين، لمحمد أبو اليسر عابدين، ط سنة ١٣٩١ هـ. دمشق، سوريا.

(٢) الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الدكتور عبد الله محمد جمال الدين، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م، ص ٣.

جيش الحسن عليه السلام؟ قبل الإجابة على هذا السؤال أود أن أبين أن الإمام الحسن عليه السلام ورث جيشاً متعباً منهكاً خاض بعض أفراد حروب الإسلام كلها منذ أوائل طور البعثة المدني وإلى استشهاد الإمام علي عليه السلام، وخاض جله تحت راية الإمام علي عليه السلام ثلاث حروب مريرة كلها مع مسلمين، وليس مع أعداء مشركين أو كفار أو غزاة أجنبي، فخلق ذلك كله نوعاً من النكوص والروح العبيثة الطاغية على الروح الجهادية، فضلاً عن خزينة أنهكتها الحروب، ومدينة تصطرع في باحاتها الأفكار والولاءات وتتحكم بسلوكها الخزازات والحساسيات، وعدوّ خبر السياسة وخبرته حتى قيل إنه أدهى العرب في المكر والحيلة والكذب والخداع، وكان بالتالي من الصعب على الحسن عليه السلام أن يخلق جيشاً بنفس مستوى جيش الشام المنظم أو حتى قريباً منه، فضلاً عن نجاح معاوية وأجرائه وجواسيسه وأعداء الخط العلوي في تشييط عزائم الناس ومنعهم من الخروج مع الحسن عليه السلام، حيث كان مقدراً للحسن عليه السلام وفق الإحصاءات أن يحشد أكثر من ثلثمائة ألف مقاتل، وكان الجيش المقدّر على الكوفة وحدها تسعين ألفاً أو مائة ألف، والجيش المقدّر على البصرة ثمانين ألفاً، وهؤلاء هم أهل العطاء في المصريين، أعني الجنود الذين يتقاضون الرواتب من خزينة الدولة. وفي المصريين العسكريين الكوفة والبصرة مثل هؤلاء عدد من أتباعهم ومواليهم ومن متطوعة الجهاد غالباً. فهؤلاء زهاء ثلثمائة وخمسين ألفاً وهي مقاتلة العراق عدا جيوش فارس واليمن والحجاز^(١)، ولكنه لم ينجح في حشد ولو جزءاً صغيراً من هذه المجاميع المهجينة زيادة عما كان معه، فخذلوا الإمام عليه السلام الذي دعاهم إلى الجهاد مما أغضب عدي بن حاتم الطائي فخطبهم: «أنا ابن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام لا تحيون إمامكم وابن بنت نبيكم، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب أما تخافون

(١) ينظر: صلح الحسن، آل ياسين، ص ٩٠ وتاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٦٢.

مقت الله؟^(١).

هنا أود أن أبين أن كثيراً من المصادر التاريخية أشارت إلى أن الإمام علي عليه السلام كان في أواخر أيامه يعد العدة لغزو معاوية، وأنه جمع جيشاً يتراوح عدده بين الأربعين والخمسين ألفاً، ولكنه قُتل قبل أن يحركه، فأنحل وتفرق الجند ولم يبق منهم سوى اثني عشر ألفاً دفعهم الإمام الحسن عليه السلام للتصدي وعرقلة جيش الشام الذي وصل بقيادة معاوية إلى (مسكن) وسار الإمام بمن معه زائداً أربعة آلاف من أهل الكوفة قد يكونون من الذين تفرقوا عن الجيش الذي أعاده الإمام علي عليه السلام، فعادوا مع الإمام الحسن عليه السلام. ولقد خلق تخلف الجند وتخلى بعضهم عن البيعة إشكالاً كبيراً لم يلتفت إليه المؤرخون بالرغم من تكرره أكثر من مرة، فلطالما تخلف بعضهم عن غزوات النبي صلى الله عليه وآله، وكثيراً ما تخلفوا عن علي عليه السلام، ومن المؤكد أنهم تخلفوا عن نصرته الحسن عليه السلام؛ لأنهم تخلفوا بعد ذلك عن أخيه الحسين وسفيره مسلم بن عقيل عليه السلام، وحتى بعد هذا التاريخ حينما ثار سليمان بن صرد الخزاعي وأصحابه سنة خمس وستين للهجرة كان قد بايعه ثمانية عشر ألف مقاتل، ثم لم يحضر منهم إلا ثلاثة آلاف وتخلف الباقيون.

المهم أن السياسيين استغلوا الإحصائيات الأولى واغفلوا هذه ليبينوا على تلك نتائج توهم الناس بكبر عدد جيش الإمام الحسن عليه السلام لغايات سوف تتبين لاحقاً، وتبعاً لهم وعنهم أخذ المؤرخون والرواة روايات وقصصاً تتحدث عن أرقام خيالية، قالوا بأن الحسن جمعهم ليقاتلوا معه، ومن أقوالهم في جيش الأربعين ألفاً الذي تفرق عند موت الإمام علي عليه السلام: قول القاري: «وكان الحسن عليه السلام يومئذ أحق الناس بهذا الأمر فدعاه ورعه وشفقته على أمة جده إلى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله، ولم يكن ذلك لقلّة

(١) شرح النهج، م ٤، ج ١٦، ص ١٤.

ولا ذلة، فقد بايعه على الموت أربعون ألفاً»^(١)، ومثله في ذخائر العقبى: «قال أبو عمرو: لما قتل علي بن أبي طالب بايع الحسن أكثر من أربعين ألفاً، كلهم قد بايع أباه قبله على الموت». بل أن ابن الأثير أنكر كلياً أن يكون قد تخلف أحد عن الجيش الذي جمعه الإمام علي عليه السلام وقال إنهم بمجموعهم بايعوا الإمام الحسن عليه السلام وساروا معه، كما في قوله: «كان أمير المؤمنين علي قد بايعه أربعون ألفاً... فلما قتل وبايع الناس ولده الحسن بلغه مسير معاوية في أهل الشام فتجهز هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً وسار عن الكوفة»^(٢).

بل حتى ابن أبي الحديد قال في شرح النهج: «وسار الحسن في عسكر عظيم وعدة حسنة حتى نزل دير عبد الرحمن... ثم دعا عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب فقال له: يا بن عم إني باعث إليك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء مضر»^(٣)، وأرى أن ابن أبي الحديد بالغ كثيراً؛ لأن جيش الحسن عليه السلام حتى مع الاثني عشر ألفاً الذين أرسلهم مع عبيد الله بن عباس وقيس بن سعد لم يكن جيشاً عظيماً.

وأورد اليعقوبي رد زياد بن عبيد عامل علي عليه السلام على فارس، على تهديد معاوية ليستشهد به على الكثرة، قائلاً: «وكان زياد بن عبيد عامل علي بن أبي طالب على فارس، فلما صار الأمر إلى معاوية كتب إليه يتوعده ويتهدده، فقام زياد خطيباً، فقال: إن ابن أكلة الأكباد وكهف النفاق وبقية الأحزاب كتب يتوعدني ويتهددني، وبينه وبينه ابنا بنت رسول الله في تسعين ألفاً»^(٤)، وكما يتبين من الرواية أن زياداً كان حينها في فارس

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة النشر:

١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م تسعة أجزاء، ص ٣٩٧٠، حديث رقم ٦١٤٤.

(٢) الكامل في التاريخ، ص ٣٥٣، ج ٣، أحداث سنة إحدى وأربعين

(٣) شرح نهج البلاغة، م ٤، ج ١٦، ص ١٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٢.

بعيداً عن الإمام الحسن عليه السلام، وقد يكون الرقم الذي وصله خاطئاً أو مبالغاً فيه، أو أنه استخدم أسلوب المبالغة للتحويل والتخويف.

وفي الإمامة والسياسة بالغ ابن قتيبة الدينوري أكثر عند نقله المحادثة التي تمت في مجلس ضم الإمام الحسن عليه السلام وسليمان بن صُرد الخزاعي، بقوله: «فجلس سليمان فقال: أما بعد فإن تعجبنا لا ينقضي من بيعتك معاوية ومعك مئة ألف من أهل العراق»^(١)، مع أن هناك أكثر من مصدر يذكر أن ابن صرد كان يومها بعيداً عن الإمام الحسن عليه السلام لأكثر من عامين، والرواية نفسها تبين أن هذا الحديث وقع بعد الصلح بزمن غير معروف، وليس قبله.

من المهم أيضاً للحقيقة والتاريخ أن نعرف أن جيش الإمام الحسن عليه السلام قادة وجنداً تعرضوا خلال مدة التمهيد إلى ضغوطات مادية ونفسية أجبرت بعضهم، حتى الموتور منهم مثل عبيد الله بن عباس الذي قتل الأمويون ولديه، أجبرتهم على التخلي عن الامام الحسن عليه السلام وخذلانه والالتحاق بمعاوية، فأنكشف ظهر الإمام وبانت ملامح هزيمة كان يمكن أن تؤدي إلى مجزرة حقيقية لا تهلك المسلمين وحدهم بل وتهلك الإسلام فكراً وعقيدة، وتحول الإسلام المحمدي إلى إسلام أموي يؤمن به الناس كافة. وكما اختلفوا في عدد جيش الإمام لغايات معروفة اختلفوا كذلك، وللغايات نفسها في من بدأ المسير أولاً لمقاتلة الآخر.

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج ١، ص ١٨٥ ت ١٨٦.



من البادئ بالمسير إلى الحرب؟

ما أريد التنويه عنه أنه بين الردة والاعتراض بعد موت رسول الله ﷺ ولدت مناطق الخرق الكبرى التي أوهنت جانب الإسلام وأضعفت قدرات المسلمين، ولا سيما بعد أن سُل السيف المسلم لمقابلة ومقاتلة السيف المسلم في ميادين الوغى بعد أن كان السيفان متحدان دفاعاً عن الإسلام، ثم لما جاءت (الجملة) رسخت فكرة السيفين المسلمين المتناحرين في عقول المسلمين، وظهور شعور بأن الإسلام الواحد صار إسلامين اثنين؛ واحد عقدياً والآخر سياسياً دينياً، ثم هبطت (صفين) من أوكار الشر لتعلن انتهاء مرحلة الإسلام الواحد كلياً وتثبت وجوهاً جديدة للإسلام تبدو في ظاهرها متصلة وفي حقيقتها منفصلة كلياً، فأصبح الإسلامان ثلاثة إسلامات: إسلام عقدي، وإسلام سياسي ديني، وإسلام سياسي بحت.

في هذه المرحلة كان همّ الدينين الأكبر رتق الخرق الخطير وترميم ما انهار وما آل إلى السقوط، وكان هم السياسيين استغلال ظاهر التوافق لتقوية جانبهم وتوهين الجانب الآخر، ولا سيما وأنهم يحملون في خزائهم من متع الحياة ومباهج الدنيا ما لا يوجد مثله عند الجانب الآخر، فضلاً عن شوق النفوس حتى المسلمة منها إلى سماع رنين الذهب وتحسس ملمسه والتمتع بالنظر إليه. ولقد فعل المال فعله حتى طغى صوته على صوت العقيدة، فتحول كثير من المسلمين إلى مجرد دُمى تسير باتجاه مصدر رنينه أماً بالحصول على حصة بدل أن يسيروا نحو صوت المؤذن عسى أن يحصلوا على مغفرة، أو صوت وقع السيوف عسى أن يحصلوا على كرم الشهادة، وجراء ذلك وقع التحكيم، وطُبر

رأس الإمام علي عليه السلام فاستشهد. وقد أعدت هذه المؤامرة لتقتل الإمام عليه السلام من ساعته فلا تتاح له فرصة تعيين خليفة، ولكن بقاءه حياً وتبليغه الوصية لأبنائه وتعيينه خليفة رسمياً شرعياً من بعده هو الإمام الحسن عليه السلام؛ خلط الأوراق عليهم وصاروا أمام وضع جديد يجب أن يعدّوا له عدته ولا يستهينوا به.

وحينها عرف السياسيون بأنهم حققوا نجاحاً مرحلياً مما يعني أن أمامهم مهمة أخرى يجب إنجازها للوصول إلى الهدف، ولإتمام المرحلة الأهم، بادروا إلى المساجد والبيوت يوزعون الهبات الجزيلة بدل أن ينتظروا قدوم الآخرين لطلبها منهم. ووصلت هذه الهبات إلى أقرب أصحاب قادة الإمام الحسن عليه السلام فلوّث فطرتهم وهبّط همهم، فمن لم يخرج ليسيء منهم تقاعس عن النصر أو عن اعتراض المسيئين الذين أصبحوا يصولون ويجولون دون أن يردعهم رادع، باستثناء محاولات خرج فيها أنصار الخلافة بمجاميع صغيرة غير نظامية وإنما تطوعية لمطاردتهم كان ضررها أكثر من نفعها، لأن المسيئين أثاروا الفوضى بتخطيط سليم جداً، بحيث أنها لم تكن فوضى عبثية بل كانت فوضى خلاقة مدروسة لا يجيد فعلها غير الأذكاء من السياسيين، ولا سيما وأن حركة مُفسدة جديدة كانت تخرج مباشرة في مكان آخر بعد تلك التي هربت مما يضطر المجاهدين للمسير إليهم حتى وصلوا إلى درجة الانهالك قبل أن يخوضوا حربهم المقدسة، في وقت كانت فيه قوات الجانب الآخر مرتاحة وجبهتهم الداخلية متماسكة، وبناء عليه كانوا على استعداد لخوض الحرب، بينما كان جند الخلافة يتعللون بالأعذار لكي لا يشتركوا في الجهاد.

ومنه يتضح أن جيش الإمام الحسن عليه السلام حتى لو كان مكوناً من مليون جندي فإنه لم يكن مستعداً للقتال بالمرة، ثم إن ما تقدم ثبت بما لا يقبل الشك أن تعداد جيشه لم يزد

على العشرين ألفاً في أحسن الأحوال، بل ربما كان معه في المدائن بضعة آلاف فضلاً عن أقل من اثني عشر ألفاً ساروا مع عبيد الله بن عباس وقيس بن سعد.

إن معاوية بحنكته السياسية وكثير حيلته وتجربته السياسية أراد مباغته الإمام الحسن عليه السلام قبل أن تستقيم له الأمور ويقوى؛ فتحرك بجيشه نحو العراق بعد أيام معدودات من بيعة الناس للحسن عليه السلام خليفة، وكان قد دس قبل ذلك من بيث الإشاعات والأكاذيب في عاصمة الإسلام الكوفة وباقي الديار التي بايعت الحسن عليه السلام مثل البصرة والحجاز واليمن وفارس وسائر المناطق التي كانت تدين لأبيه بالولاء والبيعة، لترهيب الناس وتخويفهم وإبعادهم عن الإمام وتخليهم عنه، وقد تنبه الإمام الحسن عليه السلام إلى هذا الأمر وألقى القبض على بعض المندسين، فأرسل إلى معاوية رسالة جاء فيها: «أما بعد. فإنك دمست إلي الرجال كأنك تحب اللقاء؛ لا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله».^(١)

الإمام عليه السلام من جانبه كان يرى نفسه وارثاً للمشروع العلوي في محاربة البغاة وإحقاق الحق وتوحيد أمة الإسلام التي شقها معاوية بطمعه وجشعه، وكان على يقين كامل أن معاوية لن يستجيب لطلبه ويدخل في طاعته، ولكنه كان يريد ترتيب أوضاعه أولاً قبل أن يتوجه إلى حرب مصيرية تحدد معالم الإسلام كله، ومعاوية أدرك ذلك، بل وأدرك أن الحسن عليه السلام إذا ما قامت له الأمور واستقامت الرعية ولاسيما منهم من يغلي قلبه ودمه حقداً عليه، لأنه كان المخطط والداعم لقتل الإمام علي عليه السلام فمن المحتمل أن ينتصر وتذبح أحلامه إلى الأبد، ولذا استعجل الأمور وحشد الحشود وقادها نحو الكوفة؛ ولاسيما وأنه كان يرى نفسه أصلح من الحسن عليه السلام في قيادة الأمة، كما جاء في

(١) مقاتل الطالبين. ص ٣٣.

جوابه على واحدة من الرسائل التي بعثها الحسن عليه السلام إليه ^(١) وفيها يخاطب الحسن بقوله: «فلو علمت أنك اضبط مني للرعية وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال وأكد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ورأيتك لذلك أهلاً؛ ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سنأ فأنت أحق أن تجيئني إلى هذه المنزلة التي سألتني؛ فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي» ^(٢).

ولذا أقول: إننا حينما نناقش مسألة من الأسبق في المسير إلى الحرب: الحسن عليه السلام أم معاوية؛ لا نريد أن نتهم معاوية بأنه البادئ في الحرب رجماً في الغيب؛ لأن حرب معاوية لم تنطفئ نارها منذ أن بايعت الأمة علياً عليه السلام خليفة للمسلمين إلى أن مات سنة ستين وقبر في الشام، وقد أبقى جنده على أهبة الاستعداد وكامل العدة تحسباً لما قد يحدث فيباغته. نحن نناقش ذلك لنثبت أن السياسيين نجحوا في التأثير على مخطط الإمام الحسن عليه السلام ولم يتركوا له فرصة ترتيب الأوضاع فدفعوه إلى الموافقة على الصلح. أما الخلط الذي بثوه في بطون كتب التاريخ، فالغاية منه التهويل والتشويش، ويدخل هدفاً في باب الفعل السياسي المقصود، ويأتي غاية في التقليل من قيمة الإمام الحسن عليه السلام وإظهاره بمظهر من لا يجيد التخطيط فيسير بعدد محدود من الجند المنهكين لقتال جيش عرمرم يفوق عديده المائة وثلاثين ألفاً!.

وبعد أن أحدث السياسيون الخلط والفوضى الخلاقة التي كانوا يأملون أن تفعل فعلها جاء المؤرخون فأفاضوا في حديثهم عمن بدا المسير أولاً للملاقاة الآخر؛ لأن لبدء

(١) يؤكد معاوية هنا على نقاط مهمة جداً منها مسألة السن التي تكلمنا عنها في حديثنا عن تلاعبهم بتواريخ ولادة الإمام، ومنها الإشارة إلى أحد بنود الصلح التي وضعها الحسن عليه السلام وهي أن يخلفه على قيادة الأمة.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، م٤، ج١٦.

المسير بزعمهم علاقة بالبغي، أي أنهم كانوا يوحون بأن من يبدأ المسير أولاً لقتال صاحبه يبغي عليه، ويكون هو الباغي، وفئته هم الفئة الباغية بعرفهم وحدود فهمهم. وأراهم في غفلة تامة عن إدراك فقه السيرة النبوية ومسير الرسول ﷺ لقتال الكفار بما فيهم أجدادهم، ولكنه ﷺ لم يكن يباغت أعداءه كما لم يكن يبدأهم بقتال، وفي كتاب الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَفِيلٍ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١) ومع ذلك كان آل البيت ﷺ لا يبدؤون أحداً بقتال حتى وإن خرجوا للحرب واستعدوا لها؛ فعل ذلك علي عليه السلام مع أهل الجمل وصفين والخوارج والقصة معروفة، وفعله الحسن عليه السلام مع جند معاوية في وصيته إلى عبيد الله بن عباس وفعله الحسين عليه السلام في الطف.

فضلاً عن ذلك نجد في تاريخنا خلافاً حول البادئ في الحرب، وهي واحدة من مجموعة إشكاليات تتحدث عن الحرب بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، ومن كان البادئ فيها. ومنطقياً أجد أن الإمام الحسن عليه السلام كان يرى أن واجبه الشرعي تجاه الدين والأمة يدعوه إلى قتال الفئة الباغية التي شقت الأمة، وأنه كان في طور الإعداد لهذا العمل بعد أن قدم له بمجموعة رسائل ليلقي من خلالها الحجة، بعثها إلى معاوية يطالبه فيها بالدخول في طاعته سواء قبل تحركه نحو العراق أو أثناء وجوده في معسكر مسكن، ومعاوية بحنكته السياسية وشدة مكره ودهائه بادر إلى التحرك نحو العراق في الأيام الأولى لبعة الحسن عليه السلام؛ لكي يقطع عليه طريق التهيؤ للحرب ويحصره في زاوية ضيقة، ولكن أحفاد الفصيل السياسي لا يعترفون بهذه الحقيقة ويضعون اللوم على الحسن عليه السلام معتبرين أنه البادئ في التحرك والدعوة إلى الحرب كما في قول الصلابي: «خرج معاوية من الشام وتوجه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه»، معتمداً على ما جاء في طبقات ابن سعد وفيها: «وقد تأخر خروج معاوية

(١) سورة الحجرات، الآية ٩.

وكان ذلك بعد سماعه لخروج الحسن بجيوشه^(١)، وهذا منافٍ لما أجمع عليه المؤرخون. والملاحظ أن هؤلاء المؤرخين هم الذين نشروا الخلاف حول حقيقة التقاء الجيشين.

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص ٢٩٢.

إلتقاء الجيشين

ومثل اختلافهم في من بدأ المسير أولاً، اختلفوا في موضوع التقاء الجيشين، وهناك في الأقل أربعة آراء حول هذا الموضوع:

فمنهم من قال: إن الطرفين لم يلتقيا مطلقاً ولم تكن هناك نية حقيقية للحرب، ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي، قال في الإمامة والسياسة في حديثه عن الحسن عليه السلام: «فلما تمت البيعة له، واخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، كاتب معاوية، فأتاه فخلاً به، فأصطلح معه على أن لمعاوية الإمامة ما كان حياً فإذا مات فالأمر للحسن»^(١)، هكذا بعيداً عن تجييش الجيوش والمسير إلى الحرب، وبعيداً عن كل تلك الروايات التي أتعبت أعصاب وعقول المسلمين على مر التاريخ، وعلى منهج (العواصم من القواصم) أنكر ابن قتيبة كل الأخبار ليعلم بأن الحسن عليه السلام وغريمه معاوية حلا الإشكال بينهما سلماً ودون حرب! ولا أدري لماذا قبل الحسن عليه السلام بداية البيعة إذا ما كان راغباً بالتخلي عنها لا للحسين مثلاً أو لأخيه محمد بن الحنفية أو لأي واحد من أصحاب أبيه؛ وإنما لأشد أعدائه وأعداء البيت الهاشمي معاوية بن أبي سفيان! كذلك قال القاري: «فلما التقى الجمعان بمنزل من أرض الكوفة وأرسل إليه معاوية في الصلح أجاب على شروط منها أن يكون له الأمر بعده»^(٢).

(١) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٤.

(٢) عون المعبود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ص ٣٢٨، حديث ٤٦٦٢، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة.

ومنهم فريق ثانٍ نقل أخباراً مموهَةً لم يحدد من خلالها طرفاً بعينه لينسب إليه البدء بالمسير. فمنهم من ادعى بأن الإمام الحسن (عليه السلام) هو البادئ بالمسير، ومنهم من قال أن معاوية هو البادئ بالمسير، ومنهم من قال إنها سارا معا وسوية! والهدف من القول إن الطرفين سارا سوية لملاقاة أحدهما الآخر، أريد منه رفع تهمة البغي عن معاوية، مع إدعائهم أن الإمام الحسن (عليه السلام) هو البادئ بالعدوان طالما أنهم قدموه على معاوية في حديثهم عن المسير. ففي الإصابة: «قال ابن أبي خيثمة: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، عن ابن شؤذب قال: لما قتل علي سار الحسن في أهل العراق ومعاوية في أهل الشام»^(١)، وفي الطبري: «بايع الناس الحسن بن علي (عليه السلام) بالخلافة، ثم خرج بالناس حتى نزل المدائن... وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل سكن»^(٢)، ومثله قول العظيم آبادي: «فإنه لما قتل علي (عليه السلام) عنه بايعه أكثر من أربعين ألفاً فبقي خليفة بالعراق وما وراءها من خراسان ستة أشهر وأياماً ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز وسار إليه معاوية في أهل الشام»، وكذلك قول القاري: «ثم سار إلى معاوية وسار معاوية إليه»^(٣)، وقول العسقلاني في فتح الباري: «وقال ابن بطل: ذكر أهل العلم بالأخبار أن علياً لما قتل سار معاوية يريد العراق وسار الحسن يريد الشام»^(٤).

ومنهم فريق ثالث قال: إن الحسن هو البادئ، ومن هؤلاء العسقلاني بقوله: «وأخرج ابن سعد من طريق مجالد، عن الشعبي وغيره، قال: بايع أهل العراق بعد

(١) الإصابة، ابن حجر، المجلد الأول، ترجمة الحسن بن علي، ص ٣٧٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٤١.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، ص ٣٩٧٠، حديث

رقم ٦١٤٤، دار الفكر، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م تسعة أجزاء

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث،

سنة النشر: ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ثلاثة عشر جزء

علي الحسن بن علي، فسار إلى أهل الشام وفي مقدمته قيس بن سعد^(١)، وكأن الرجل يجهل أن قوات معاوية كانت حينها على مشارف العراق فخرج الإمام للتصدي لها! واليعقوبي بقوله: «وأقام الحسن بن علي بعد أبيه شهرين، وقيل أربعة أشهر، ووجه بعبيد الله بن عباس في اثني عشر ألفاً لقتال معاوية»^(٢).

والعسقلاني في الفتح بقوله: «لما سار الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية بالكتائب قال عمرو بن العاص لمعاوية أرى كتيبة لا تولى حتى تدبر أخرها»^(٣)

إن الذين ادعوا بأن الإمام الحسن عليه السلام هو البادئ في المسير لا تقل غايتهم (عتناً) عن سابقتها، وهدفها معروف، لأنها أرادت إظهار معاوية بمظهر المدافع.

بل وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام أيضاً هناك من يرى بأن الحسن عليه السلام هو الذي سار أولاً لقتال معاوية، مع أنه مثل غيره يعلم تمام العلم بأن مبايعة الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة في الكوفة هي التي أزعجت معاوية، فبادر إلى وضع الخطط لمواجهة الموقف وجمع الجيش وسار به إلى الحرب، ولم يكن الحسن عليه السلام مستعداً بعد للمواجهة. ومن أقوالهم في ذلك: «لما عزم الإمام الحسن بن علي عليه السلام على حرب معاوية خرج من الكوفة إلى معسكر النخيلة وخلف مكانه المغيرة بن نوفل بن حارث بن عبد المطلب، وأمره أن يحث الناس على الخروج والالتحاق به في المعسكر. فخرج الناس أفواجاً إليه عليه السلام وسار من النخيلة إلى دير عبد الرحمن فمكث هناك ثلاثة أيام كي يتم الجيش، فصاروا أربعين ألفاً بين فارس وراجل فبعث عبيد الله بن عباس وقيس بن سعد في اثني

(١) الإصابة، ترجمة الحسن بن علي، ص ٣٧٦، المجلد الأول.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ص ١٤٩.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث،

سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ج ١٣، ص ٦٦-٦٧.

عشر ألف رجل من دير عبد الرحمن إلى حرب معاوية، فقال ﷺ: عبيد الله أميركم فإن أصيب فقيس بن سعد على الناس، وأمر عبيد الله أن يشاور قيساً وسعيداً. وخرج ﷺ من هناك وتوجه إلى السباباط في المدائن، فأراد امتحان واختبار أصحابه وإنجاء كفرهم ونفاقهم وعدم وفائهم، فجمع الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإنني والله لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومثله وأنا أنصح خلق الله لخلقته، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له بسوء ولا غائلة، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة. ألا وإنني ناظرٌ لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري ولا تردّوا عليّ رأيي، غفر الله لي ولكم وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا»^(١)، ولا أدري كيف يهتمون الحسن ﷺ بذلك مع أنه كان في موقف يتوجب معه أن يستميل قلوب جنده بما فيهم من يشك بولائه له وإخلاصه في الجهاد، ولم يكن بحاجة لاختبارهم.

ومنهم فريق رابع أكد أن معاوية هو الذي كان البادئ بالمسير، وهؤلاء أصناف الأول: ناقل للحقيقة، والثاني: شامت متفاخر مدفوع بالعصبية، والثالث: سمع فنقل دون بحث، كما في قول السيوطي: «ولي الحسن ﷺ الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة فأقام فيها ستة أشهر وأياماً، ثم سار إليه معاوية»^(٢).

وفي مقاتل الطالبين قال أبو الفرج الأصبهاني: «فاجتمعت العساكر إلى معاوية بن أبي سفيان، وسار قاصداً إلى العراق وبلغ الحسن خبر سيره، وأنه بلغ جسر منبج فتحرك لذلك»^(٣).

(١) موقع الشيرازي <http://alshirazi.net/monasabat/monasabat/113.htm>

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ١٩١.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٦٩.

وفي شرح النهج قال المعتزلي متحدثاً عن معاوية: «وأقبل إلى العراق في ستين ألفاً واستخلف على الشام الضحاك بن قيس الفهري، والحسن مقيم بالكوفة لم يشخص حتى بلغه أن معاوية قد عبر جسر منبج فوجه حजर بن عدي يأمر العمال بالاحتراس ويذب الناس، فسارعوا فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثني عشر ألفاً فنزل دير عبد الرحمن واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحرث»^(١)، ومعنى هذا أن الإمام الحسن عليه السلام لم يتحرك إلا بعد أن أصبح في مرمى نيران جيش الشام الذي جاءه غازياً محارباً.

كذلك تجد في مدرستنا أن هناك من يرى بأن معاوية هو الذي بدأ المسير، كما في قول الشيخ فلاح العابدي: «فلما سمع الإمام الحسن عليه السلام بأن معاوية بلغ بجيشه إلى جسر منبج وهو بلد قديم بينه وبين حلب يومان»^(٢) أمر الإمام بعض أصحابه أن ينادوا للصلاة الجامعة، وبعد أن احتشد الناس خرج وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: انه بلغني أن معاوية بلغه إنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك، اخرجوا رحمكم الله معسكركم في النخيلة»^(٣).

ومنهم فريق خامس تحبط فجاء بقولين أحدهما يذكر فيه أن الحسن هو الذي سار إلى معاوية أولاً، والثاني يقول فيه أن معاوية هو الذي سار إلى الإمام الحسن عليه السلام، ومن أقوالهم: أن الحسن سار إلى معاوية بجيش عظيم فخاف معاوية على الإسلام وطلب الصلح مقابل دفع المال الكثير جداً فوافق الحسن عليه السلام! بينما نجد في بطون كتب التاريخ المعتبرة أن معاوية هو الذي سار بجيش له أول وليس له آخر لمقابلة جيش الخلافة.

(١) شرح نهج البلاغة، م٤٦ ج١٦ ص ١٠.

(٢) معجم البلدان، ج ٨، ص ١٦٩.

(٣) مجلة الفرات <http://www.alkadhum.org/alfurat/portal/content/view/72/49>

والغريب أن البخاري نفسه روج لهذا التنوع في حديثين أخرجهما عن الصلح؛ قال في أحدهما: «لما سار الحسن» أي أن الحسن هو الذي سار إلى قتال معاوية، وفي الثاني: «استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب» بمعنى أن معاوية سار إليه فأستقبله ولم يكن هو البادئ بالمسير^(١).

وتجد في هذا الخبر فذلّة سياسية تخبّط فيها العسقلاني في هوامشه على البخاري وخالف حتى نفسه وهي كثيرة جداً منها إدعائه بأن الإمام عليه السلام عزل قيس بن سعد بن عباد وعين ابن عباس الذي اشترط لنفسه مثلما اشترط الحسن عليه السلام، فقد أخرج^(٢) الحاشية رقم: ١ حاشية العسقلاني على الحديث: قوله: «لما سار الحسن بن علي إلى معاوية بالكتائب»، في رواية عبد الله بن محمد عن سفيان في كتاب الصلح: «استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال. وقوله «أمثال الجبال» أي لا يرى لها طرف لكثرتها كما لا يرى من قابل الجبل طرفه» ولكنه أراد أن يبعد تهمة التحيز والكذب عن نفسه، لأنه يعرف كما يعرف غيره أن جيش الإمام الحسن عليه السلام لم يكن بالعدد الذي يتحدث عنه، فأضطر إلى أن يستثني ويقول معللاً: «ويحتمل أن يريد شدة البأس» أي ليس الكثرة العددية، بل القوة والشكيمة، وهو حتى في هذه جافى الحقيقة، لأن جيش الحسن عليه السلام كان أضعف بعشرات المرات من جيش الإمام علي عليه السلام، ومن جيش معاوية.

ثم أكمل العسقلاني حديثه بالقول: وأخرج الطبري بسند صحيح عن يونس بن يزيد عن الزهري قال: «جعل علي على مقدمة أهل العراق قيس بن سعد بن عباد وكانوا أربعين ألفاً بايعوه على الموت، فقتل علي فبايعوا الحسن بن علي بالخلافة، وكان لا

(١) ينظر: البخاري حديث ٢٧٠٤، ص ٤٧٨ وحديث ٧١٠٩ ص ١٢٥٦

(٢) البخاري، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي «إن ابني هذا لسيد ولعل الله أن يصلح به بين

فئتين من المسلمين» حديث ٦٦٩٢

يجب القتال، ولكن كان يريد أن يشترط على معاوية لنفسه، فعرف أن قيس بن سعد لا يطاوعه على الصلح فنزعه وأمر عبد الله بن عباس فاشترط لنفسه كما اشترط الحسن^(١).
حيث نجد في هذا القول كذباً كثيراً، منه:

- الأول: تحدث فيه عن عظمة جيش الإمام الحسن عليه السلام للتهويل والمبالغة في قوله: «استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال»
- الثاني: قوله أن الحسن كان لا يجب القتال: «فبايعوا الحسن بن علي بالخلافة، وكان لا يجب القتال» حتى ولو كان في سبيل إعلاء كلمة الله.
- الثالث: أن الإمام عليه السلام كان يريد من معاوية أن يرحمه ويمنحه الأمان، ولكنه كان يراوغ للحصول على مزيد من المنافع (حاشاه)، بقوله: «ولكن كان يريد أن يشترط على معاوية لنفسه».
- الرابع: أنه عزل قيس بن سعد عن الإمرة، فقال: «عرف أن قيس بن سعد لا يطاوعه على الصلح فنزعه وأمر عبد الله بن عباس فاشترط لنفسه كما اشترط الحسن^(٢)»، بينما المعروف أن قيس رحمته الله بقي مقاتلاً ومجاهداً إلى جنب إمامه وقائده الأعلى حتى اللحظات الأخيرة، والمعروف كذلك أن عبد الله بن عباس لم يشترك في الحرب، وقد خلط العسقلاني بينه وبين أخيه عبيد الله. ولنا مع هذا الحديث وقفة أخرى.

(١) حاشية ص ٦٨، فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ثلاثة عشر جزء

(٢) حاشية ص ٦٨، فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ثلاثة عشر جزء

أما المؤكد تاريخياً فإن معاوية هو الذي جمع أكثر من ستين وقيل ثمانين وقيل مئة ألف وقيل مائة وثلاثين ألف مقاتل على اختلاف الروايات وسار بهم نحو الكوفة لمحاربة الإمام الحسن عليه السلام خليفة المسلمين الشرعي، بعد أن علم بمقتل علي عليه السلام ومبايعة الناس للحسن عليه السلام، ولقد كانت أنباء جيش الشام الجرار القادم إلى الحرب تداع في الكوفة والبصرة وسائر البلاد، مع كثير من المبالغة والتهويل، وكان الجميع يعلم أن حرباً وشيكة تنتظرهم. وهو ما دفع الإمام الحسن عليه السلام للكتابة إلى معاوية يطالبه بالدخول في بيعته، فأرسل إليه كتاباً، جاء فيه: «وإنما حملني إلى الكتابة إليك، الأعذار فيما بيني وبين الله عزّ وجلّ في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظّ الجسيم، والصالح للمسلمين، فدع التماذي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أنني أحقُّ بهذا الأمر منك عند الله، وعند كلّ أوّاب حفيظ، ومَن له قلب منيب، واتّق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين. فوالله ما لك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر ممّا أنت لاقية به، وادخل في السلم والطاعة، ولا تُنازع الأمر أهله ومَن هو أحقّ به منك، ليطفى الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التماذي في غيِّك، سرتُ إليك بالمسلمين فحاكمتك، حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»^(١)، ثم بعد عدة مراسلات وتأكد مسير معاوية نحو الكوفة بعث الإمام الحسن عليه السلام بأول سرية لتشكّل مقدّمة جيش في طور البناء عسى أن تنجح في مشاغلة العدو إلى أن يتهياً باقي الجيش، وهذا بحد ذاته يؤكد أن معاوية باغت الحسن عليه السلام، وكانت السرية تحت أمره عبيد الله بن عباس وكتب إليه الحسن: «يا بن العم، إنّي باعث إليك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء مضر، الرجل منهم يريد الكتيبة، فسر بهم، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك،

(١) مركز آل البيت للمعلومات، محمد أمين نجف، عن شرح نهج البلاغة ١٦ / ٣٤.

وأدّٰنهم من مجالسك، فإنّهم بقيّة ثقات أمير المؤمنين. وسر بهم على شطّ الفرات، ثمّ امضِ حتّى تسير بمسكن، ثمّ امضِ حتّى تستقبل بهم معاوية، فإن أنت لقيته فاحبسه حتّى آتيك، فإنّي على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كلّ يوم، وشاور هذين - يعني قيس بن سعد، وسعيد بن قيس -، فإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتّى يقاتلك، فإن فعل فقاتله، وإن أُصبت فقيس بن سعد، فإن أُصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس»^(١)، ثمّ سار بنفسه بعد أيّام حتّى بلغ مظلّم ساباط التي كانت قرية من المدائن حتّى قبل أن يكمل إعداد قواته وتهيئتها وتنظيمها، وما كان ذاك إلّا لكي لا يفسحوا له مجال تنظيم صفوف جيشه وأوليات منهجه السياسي.

نعم نجد في النقول المعتمدة كثيراً من النصوص التي تبين أن أصحاب الإمام الحسن عليه السلام الخلف ومن بايعه من الهاشميين كانوا يريدونه أن يبدأ بالمسير لمقاتلة البغاة ساعة توليه الخلافة، ولكنه كان يريد ترتيب أولياته قبل كل شيء ولا سيما وأنه يعلم بنتائج هذا النزاع وما ستؤول إليه الأمور، كما كان يعرف قوة جيشه ومدى إخلاصهم له، وفي الأخبار أن جارية بن قدامة السعدي وعبد الله بن عباس طلبا من الإمام المسير لقتال معاوية، أما جارية فقال عنه الثقفى: «وأقبل جارية حتّى دخل على الحسن بن علي فضرب على يده فبايعه وعزاه وقال: ما يجلسك؟ (سر يرحمك الله) سر بنا إلى عدوك قبل أن يسار إليك؟ فقال: لو كان الناس كلهم مثلك سرت بهم ولم يحمل على الرأي شطّهم أو عشرهم»^(٢).

وأما ابن عباس، فقال عنه ابن أعثم: «وإذا بكتاب عبد الله بن عباس قد ورد عليه

(١) الغدير، الأمينى، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) الغارات، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال المعروف بابن هلال الثقفى، تحقيق عبد

الزهرة الحسينى، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص ٤٤٣.

من البصرة وإذا فيه: لعبد الله الحسن أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس. أما بعد يا ابن رسول الله فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد أبيك ﷺ، وقد أنكروا أمر قعودك عن معاوية وطلبك لحقك، فشمّر للحرب وجاهد عدوك، ودار أصحابك وول أهل البيوتات والشرف ما تريد من الأعمال، فإنك تشتري بذلك قلوبهم، واقتد بما جاء عن أئمة العدل من تأليف القلوب والإصلاح بين الناس، واعلم أن الحرب خدعة ولك في ذلك سعة ما كنت محارباً ما لم تنتقص مسلماً حقاً هو له، وقد علمت أن أباك علياً إنما رغب الناس عنه وصاروا إلى معاوية، لأنه واسى بينهم في الفياء وسوى بينهم في العطاء، فثقل ذلك عليهم، واعلم بأنك إنما تحارب من قد حارب الله ورسوله حتى أظهره الله أمره، فلما أسلموا ووجدوا الرب، ومحق الله الشرك وأعز الدين، أظهروا الإيمان وقرأوا القرآن وهم بآياته مستهزؤن وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى، وأدوا الفرائض وهم لها- كارهون، فلما رأوا أنه لا يغزو في هذا الدين إلا الأنبياء الأبرار والعلماء الأخيار وسموا أنفسهم لاسيما الصالحين، ليظن بهم المسلمون خيراً، وهم عن آيات الله معرضون. وقد منيت أبا محمد بأولئك القوم وأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلا غياء، ولا زادهم في ذلك لأهل الدين إلا غشاء فجاهدتهم رحمك الله، ولا ترض منهم بالدينية، فإن أباك علياً لم يجب إلى الحكومة في حقه حتى غلب على أمره فأجاب وهو يعلم أنه أولى بالأمر، إن حكم القوم بالعدل، فلما حكم بالهوى رجع إلى ما كان عليه، وعزم على حرب القوم حتى وافاه أجله، فمضى إلى ربه (ﷺ)، فانظر رحمك الله أبا محمد ولا تخرجن من حق أنت أولى به من غيرك وإن أتاك دون ذلك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»^(١)

ومثله رأي جندب الذي قال عنه ابن أبي الحديد: «قال جندب: فلما أتيت الحسن

بكتاب معاوية قلت له: إن الرجل سائر إليك فابدأ بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله، فأما أن تقدر أنه ينقاد لك فلا والله حتى يرى منا أعظم من يوم صفين، فقال: أفعل، ثم قعد عن مشورتي»^(١).

هل التقى الجيشان فعلاً؟

ومثلما اختلفوا في قوة وعديد جيش الإمام الحسن عليه السلام وفي من بدأ المسير أولاً إلى الحرب، اختلفوا كذلك فيما إذا التقى الجيشان أم لم يلتقيا. ولقد كافح معاوية منذ البداية بمرارة لكي لا يلتقي جيشه بجيش يقوده الحسن عليه السلام، فلقد كان مرعوباً من اللقاء، ولذا سخر كل ملكته في المكيدة والخداع والمكر والترغيب والترهيب، لكي يوقف الحسن عليه السلام في مكانه في المدائن ويعمل على تخطيط آتته الحربية وقواته العسكرية هناك من غير مواجهة فعلية، كان يرى فيها إذا ما تحققت هزيمة ما دونها وقوف ونهاية إلى أبد الأبد.

ومع أن الوقائع التاريخية أثبتت أن جيش الخلافة بقيادة الإمام الحسن عليه السلام لم يلتق بجيش معاوية مطلقاً، وأن قوات تابعة للحسن عليه السلام كانت بقيادة قيس بن سعد هي التي تناوشت مع جيش معاوية في (مسكن)، إلا أن غالب المؤرخين ولاسيما أتباع الفصيل السياسي يأبون الاعتراف بهذه الحقيقة ويؤكدون دائماً على أنهما التقيا، بل إن أغلب من شرح حديث (ابني هذا سيد) أكد حدوث اللقاء بين الجيشين، ويأتي هذا دليلاً دامغاً على أن السياسيين نجحوا في زرع الفوضى في تاريخنا، وأن المؤرخين نقلوا تلك الفوضى بعضاً عن بعض دونما فحص أو تمحيص أو دراسة وتحليل، فأصبحت مرجعاً يرجع إليه من يأتي بعدهم ظناً منه أنها الحقيقة!

(١) شرح نهج البلاغة، م٤/ ج١٦/ ص١٣.

ومن الذين أكدوا لقاء الإمام مع معاوية في أرض المعركة، كان القاري بقوله: «ثم سار إلى معاوية وسار معاوية إليه، فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له (يسكن) بناحية الأنبار من أرض السواد»^(١) حيث لم يكتف القاري بتصحيح اسم المنطقة من (مسكن) إلى (يسكن) بل أكد أن الحسن عليه السلام هو الذي بدأ المسير، وأنه لقي معاوية فيها!.

ومثله قول العظيم آبادي: «فإنه لما قتل علي عليه السلام بايعه أكثر من أربعين ألفاً فبقي خليفة بالعراق وما وراءها من خراسان ستة أشهر وأياماً، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز وسار إليه معاوية في أهل الشام، فلما التقى الجمعان بمنزل من أرض الكوفة»^(٢). وقول العسقلاني: «لما سار الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية بالكتائب قال عمرو بن العاص لمعاوية أرى كتيبة لا تولي حتى تدبر أخراها»^(٣)، وفي فتح الباري أيضاً: «وقال ابن بطل: ذكر أهل العلم بالأخبار أن علياً لما قتل سار معاوية يريد العراق وسار الحسن يريد الشام فالتقيا بمنزل من أرض الكوفة، فنظر الحسن إلى كثرة من معه فنادى: يا معاوية إنني اخترت ما عند الله» فرد العسقلاني على هذا الخبر بقوله: «إن الحسن ومعاوية لم يتلاقيا بالعسكريين حتى يمكن أن يتخاطبا وإنما تراسلا، فيحمل قوله: فنادى يا معاوية على المراسلة، ويجمع بأن الحسن راسل معاوية بذلك سراً فراسله معاوية جهراً»^(٤)، لاحظ هنا أن العسقلاني الذي أنكر أن يكون الحسن عليه السلام قد لقي معاوية يحاول الدس من طرف خفي لكي يبدو الإمام الحسن هو (الجبان) الذي يكتب (سراً) يتوسل الصلح بينما لا يخاف معاوية شيئاً ويكتبه جهراً!.

ولكنه عاد وقال: «وأخرج ابن أبي خيثمة من طريق عبد الله بن شاذب قال: لما قتل

(١) مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ص ٣٩٧٠، حديث رقم ٦١٤٤

(٢) عون المعبود، ص ٣٢٨، حديث ٤٦٦٢، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٦٦-٦٧.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٢٠٥.

علي سار الحسن بن علي في أهل العراق ومعاوية في أهل الشام فالتقوا»^(١).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: «حدثنا العباس بن هشام، عن أبيه قال: لما قتل علي بايع الناس الحسن بن علي فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يوماً. وقال غير عباس: بايع الحسن أهل الكوفة، وبايع أهل الشام معاوية بإيلياء بعد قتل علي، وبُويَع بيعة العامة ببيت المقدس يوم الجمعة من آخر سنة أربعين، ثم لقي الحسن معاوية بمسكن - من سواد الكوفة - في سنة إحدى وأربعين، فاصطلحا وبايع الحسن معاوية»^(٢).

وبناءً على هذه المعلومات المتباينة المتضاربة، قال الصلابي مؤكداً حدوث اللقاء: «تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية ووقوع الصلح بينهما (رضوان الله عليهما) فقد سجل الإمام البخاري في صحيحه تلك اللحظات الحرجة من تاريخ الأمة المسلمة حين التقى الجمعان، جمع أهل الشام وجمع أهل العراق»^(٣).

غاية هذا التخطيط المشبوه تبدو سياسية الصنع كلياً، وقد خلقوها ليشيعوا من خلالها وهماً آخر مبنياً على مبدأ تشويش فكر المتلقي بالإدعاء مرةً أن الإمام هو الذي طلب الصلح ومرةً أن معاوية هو الذي طلب الصلح حرصاً منه على الأمة والدين! وهؤلاء هم الذين صوروا مبادرة الصلح على أنها ولدت في ميدان المعركة شهباً بمؤامرة رفع المصاحف في صفين؛ ليقولوا لأتباعهم أنهم نجحوا في استغفالننا مرات ومرات! وفعلاً يقودنا هذا التخطيط إلى البحث عن كان المبادر إلى الصلح لأنه من المستحيل أن ينحصر التلاعب في جوانب محددة دون غيرها ولا بد وان يمتد ليغطي كافة متعلقات الحدث لكي تتكامل اللعبة السياسية بتكاثر الحديث الموهوم عنها.

(١) فتح الباري شرح البخاري، ج ١٣، ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، الصلابي، ص ٢٩٣.



مَنْ بَادِرَ إِلَى الصُّلْحِ أَوَّلًا؟

سؤال في غاية الأهمية، لا تقل أهمية الجواب عنه عن الصلح ذاته ولا سيما وأن هناك من تلاعب بهذه المعلومة المهمة بالرغم من وجود إشارات نبوية إلى أن الإمام الحسن عليه السلام هو الذي سوف يبادر إلى صنع الصلح متى ما وجد الصلح أنفع للدين والدنيا وأهلها لأنه مطلع على سير الأحداث بدقائقها، وهو أدري الناس بمصلحة الناس. وليس من قبيل المصادفة أن يتفق العنوان الذي اخترته لهذا المبحث مع عنوان اختاره الصلابي لنفس الموضوع كنت قد عثرت عليه وأنا أجمع مادة هذا المبحث بعد أن اخترت هذا العنوان، فتأكد لي أن الحديث عن هذا الموضوع طالما شغل الفكر نظراً لعلاقته بمجمل الحراك السياسي والديني لتلك الحقبة، ولكن الصلابي وعلى منهج ابن العربي في العواصم من القواصم حسم الأمر وادعى: «إن الرغبة في الصلح كانت موجودة لدى الطرفين، فقد سعى الحسن إلى الصلح وخطط له منذ اللحظات الأولى لمبايعته، ثم جاء معاوية فأكمل ما بدأه الحسن فكان عمل كل واحد منهما مكملًا للآخر (رضوان الله عليهم أجمعين)»^(١).

وما من كاتب في سيرة الإمام الحسن ولا سيما من كتب في موضوع الصلح إلا وأكد عن يقين بأن معاوية هو صاحب فكرة الصلح والبادئ به^(٢)، وهذا إن كان صحيحاً من

(١) سيرة أمير المؤمنين وخامس الخلفاء الراشدين، ص ٢٩٥.

(٢) حتى الشيخ مرتضى آل ياسين ذهب إلى هذا المذهب وقال: «وما كان بدعا من محاولات معاوية فيما يهدف إليه أن يبتدر هو إلى طلب الصلح فيعطي الحسن كل شرط ليأخذ عليه شرطا واحدا

حيث التطبيق فإنه مجاف للحقيقة من حيث التنظير، وبمعنى أوضح إن كان صحيحاً بوصفه واقعة فإنه ليس صحيحاً بوصفه فكراً ومبدأً وعقيدةً، فالصلح لم يكن في أي يوم آخر ضمن أولويات معاوية الذي كان يقدم الحرب خياراً أو حداً، فإذا مالت الرياح عليه وانهمز في حربه، يقدم الصلح مشروعاً بديلاً أو خطة للإنقاذ والطوارئ كما فعل يوم رفع المصاحف في صفين. ومعاوية هو معاوية سواء في صفين أو في مواجهة الإمام الحسن عليه السلام التي كان يرى فيها صفيناً أخرى قد لا ينجو منها.

ولأن السياسيين كانوا قد شخّصوا ميزة الحرص على الدين والعقيدة في منظومة تفكير الحسن عليه السلام، فالظاهر أنهم كانوا قد دفعوه عنوة إلى الصلح ليس حبا في بقائه حيا وإنما لكي لا يتحملوا أعباء حرب قد تطول فيتذكر الناس صفين ولا سيما أن ذكرها لما تزل طرية في فكرهم، ولكي لا تغضب الأمة عليهم؛ لأن قتل الحسن عليه السلام في ساحة الحرب ممكن أن يقلب الموازين ويثير حماسة الناس كما حدث بعد ذلك مع الحسين عليه السلام يوم ثار التوابون وغيرهم انتقاماً لمقتله، أما قتله غيلة فلا يمكن إثباته للجميع ويمكن أن يمر دون أن ينتبه إليه أحد من الناس. ولذا بادر معاوية إلى ترغيب الإمام عليه السلام بالصلح في وقت كان الإمام يرى الصلح مع معاوية في تلك المرحلة بالذات أمراً لا عز فيه ولا منفعة ولا إنصاف كما جاء في خطبته التي ألقاها على جنده في المدائن وقال فيها بصريح العبارة: «ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة» قال هذا بعد أن وصله كتاب معاوية مهديداً ومتوعداً: «وان أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت وأجريت لك ما شرطت... ثم الخلافة لك من بعدي»^(١).

عمل السياسيين هذا ينم عن مقدرة سياسية هائلة، حيث بدا معاوية بالترويج

هو الملك» ينظر: صلح الحسن، ص ٢٢٣.

(١) شرح نهج البلاغة، م ٤، ج ١٦، ص ١٣

لموضوعة الصلح حتى قبل أن تشتد الأزمة بين الحسن عليه السلام وبينه بدليل أنه بعث برسالة إلى عبيد الله بن عباس قائد مقدمة جيش الحسن عليه السلام الذي كان مرابطاً في (مسكن) يخبره فيها أن الحسن عليه السلام وقع الصلح معه وفيها: «إن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مسلم الأمر لي فإن دخلت في طاعتي كنت متبوعاً وإلا دخلت وأنت تابع، وجعل فيها ألف ألف درهم»^(١) مما دفع عبيد الله إلى الهرب ليلاً إلى جانب معاوية فأوهمى ذلك عزيمة جند الإمام عليه السلام.

إن نجاح السياسيين في كسب عبيد الله فتح لهم الباب واسعاً لكسب الآخرين من قادة جند الإمام بنفس الطريقة والأسلوب فتزعزع نظام جند الإمام وبات بين خيارين إما القتال إلى النهاية والتسبب بقتل الآلاف من الشيعة وغيرهم من المسلمين وإما القبول بالصلح وحقن الدماء حتى ولو نهب تراثه. وعجيب كيف يتسنى للتاريخ أن يعيد نفسه، فبالأمس القريب وقف علي بن أبي طالب عليه السلام الموقف ذاته تتنازعه القوى ذاتها، فصورها لنا بقوله: «فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَطَفِقْتُ أَرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَاءً أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءَ، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤَمِّنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْبَجَى، فَصَبَرْتُ، وَفِي الْعَيْنِ قَدْ دَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى ثُرَاتِي نَهْباً»^(٢).

إن عبيد الله بن عباس وجد من يدافع عنه ليس لأنه رفض خوض الحرب، بل لأنه خان الإمام الحسن عليه السلام وهرب إلى جانب معاوية، ومنهم الطبري الذي ادعى مرة أن ابن عباس إنما كان هو البادئ بالكتابة إلى معاوية بعد أن علم أن الحسن عليه السلام يريد الصلح، وأن معاوية أرسل له عامر في خيل عظيمة فخرج إليهم عبد الله ليلاً حتى لحق بهم ونزل

(١) المصدر نفسه، م، ٤٦، ج ١٦، ص ٤٢

(٢) المصدر نفسه.

وترك جنده^(١) وأدعى مرة ثانية أن ابن عباس كان هو المبادر بطلب الصلح، فقال: «فلما علم عبيد الله بن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذه لنفسه كتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها فشرط له معاوية ذلك»^(٢).

بل وهناك من أوغل في دفاعه عن عبيد الله لدرجة انه نفى أن يكون عبيد الله مع جيش الحسن عليه السلام، كما في قول الصلابي: «والحقيقة التاريخية تقول: أن قائد الجيش كان الحسن بن علي عليه السلام، وإن قائد مقدمته كان قيس بن سعد ولا ذكر لعبد الله بن عباس أو أخيه عبيد الله في هذا الجانب إلا في الروايات الضعيفة والتي لا يقوم لها دليل»^(٣) وهذا استغلال للعقل المسلم وتشويه لتاريخ يحمل جينات التشوه في كيانه لكي تضع الحقائق فلا يعرفها الناس، وإلا فإن الكثير من المؤرخين ذكروا اشتراك عبيد الله في قيادة الجيش، ويأتي قول الصلابي ليؤكد من خلاله صحة إلتقاء القائدين في الحرب.

أما المخلص التقي قيس بن سعد فلأنه بقي ثابتاً إلى جانب الإمام عليه السلام لذا تحدثوا عن خلاف وهمي وقع بين الإمام الحسن عليه السلام وبينه لكي ينالوا منه، وعن هذه القصة يقول الطبري: «وكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة. وعرف الحسن عليه السلام أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه فنزعه وأمر عبيد الله بن عباس»^(٤) متجاهلاً أن قيس هو الذي جمع الجند الذين فرقهم هزيمة عبيد الله، فقاتل بهم.

إن من يعرف الإمام الحسن عليه السلام على حقيقته يدرك أنه كان يمثل خط الرسالة

(١) ينظر: الطبري، المجلد ٣، ص ٩٤٣.

(٢) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٩٤١.

(٣) سيرة امير المؤمنين، الصلابي، مصدر سابق، ص ٣٢٤.

(٤) تاريخ الطبري، المجلد ٣، ص ٩٤١.

ومنهجها، ومن مبادئ الرسالة حقن الدماء البريئة والسعي للحفاظ على وحدة الأمة، وبالتالي تمكن السياسيون من تشخيص هذه الميزات في منظومة أخلاقه فسعوا إلى الاستفادة منها لإنقاذ أنفسهم وتحقيق أطماعهم من خلال التأكيد على وجوب وقوع الصلح بين الطرفين، والسياسيون هم الذين ضخموا دور معاوية فيها وأظهروه وكأنه هو الذي حث الإمام الحسن عليه السلام على الصلح حقنا لدماء الأمة.



قصة البخاري الملفقة

لهذا الإدعاء الغريب قصة يوردها البخاري يؤكد فيها أن معاوية هو صاحب الحق وهو الذي عرض الصلح على الإمام حقناً لدماء المسلمين باعتبار انه المسؤول عن مصلحة المسلمين بحكم كونه (ال خليفة الشرعي) بالرغم من كونه باغياً على الحسن عليه السلام وعلى أبيه وخارج على الخليفة الشرعي. حيث جاء في البخاري: «حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن أبي موسى قال: سمعت الحسن (البصري) يقول: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال معاوية: (وكان والله خير الرجلين): إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس، من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سمرة^(١) وعبد الله بن عامر بن كريز^(٢) فقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فأعرضا عليه، وقولا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه فتكلما، وقالوا له، فطلبا إليه، فقال الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالوا: فإنه يعرض عليك كذا

(١) أحد الطلقاء، ينظر الإصابة ص ١١٦٣ ج ٢ رقم ٥١٣٥.

(٢) قالوا: وُلد على عهد النبي ﷺ بمكة بعد الهجرة بأربع سنين، فلما كان عام القضاء سنة سبع وقدم رسول الله مكة معتمراً هُل إلى ابن عامر وهو ابن ثلاث سنين، فحنكه فتلَمَط وتثاءب، فتَقَلَّ رسول الله في فيه فجعل يبتلع ريقَ النبي وقال النبي: «هذا ابن السَّلمية؟» قالوا: نعم، قال: «هذا ابنا وهو أشبهكم بنا..! ولا أدري إذا ما كان ذلك الشبه المزعوم هو الذي جعله من أصحاب معاوية الخلف المنحرفين عن أهل البيت عليهم السلام!.

وكذا، ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا؟ قالوا: نحن لك به، فما سألها شيئاً إلا قالوا: نحن لك به، فصالحه»^(١).

وفي هذا الحديث صور البخاري والعسقلاني جيش الإمام الحسن عليه السلام بأنه كتائب أمثال الجبال جاهزة للحرب، لكن معاوية (الحريص) فكر في حفظ دماء المسلمين (لتقواه وتدينه وحرصه على الإسلام)، فأرسل زعيمين من طلقاء بني أمية إلى الإمام الحسن عليه السلام يعطياه ما يريد قبالة الصلح، فوجداه يريد المال ولا شيء غير المال، فأعطياه الملايين وتم الصلح! هكذا وبكل بساطة!.

لقد سوق البخاري في هذا الحديث الصورة التي أراد بها الأمويون إظهار الحسن عليه السلام بصورة الرجل المهزوز المستعد لبيع عقيدته وقيمه ودينه مقابل المال الذي قالوا أنه كان يحتاج إليه ليدفعه مهراً للنساء اللواتي يريد الزواج بهن!، وهي الصورة التي قال عنها العسقلاني: «فقال معاوية: اذهب إلى هذا الرجل فاعرضاً عليه (أي ما شاء من المال) وقولاً له: (أي في حقن دماء المسلمين بالصلح) واطلباً إليه (أي أطلباً منه خلع نفسه من الخلافة وتسليم الأمر لمعاوية) وابدلاً له في مقابل ذلك ما شاء»^(٢).

وبعيداً عن أي تبريرات أخرى أقول: إن ما أورده الطبري يتعارض كلياً مع هذا القول، فالطبري يقول إن الحسن عليه السلام هو الذي طلب من معاوية أن يصطلحاً، كما في قوله: «فلما رأى الحسن عليه السلام تفرق الأمر عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح»^(٣) وأما ما أورده العظيم آبادي فجاء مؤيداً لرأي العسقلاني، حيث قال: «فلما التقى الجمعان

(١) البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي للحسن بن علي ابني هذا سيد، حديث رقم ٤٧٨-٤٧٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ج ١٣، ص ٥٥.

(٣) تاريخ الطبري، المجلد ٣، ص ٩٤٢.

بمنزل من أرض الكوفة وأرسل إليه معاوية في الصلح أجاب على شروط منها أن يكون له الأمر بعده، وأن يكون له من المال ما يكفيه في كل عام»^(١).

كما صور البخاري معاوية من أحرص الناس على الدين وأهله، ولو كان وجود مثل هذا الموقف محتملاً مجرد احتمال في منظومة أخلاق معاوية لكان الأجدر به أن لا يقود جند الشام لمحاربة الخلفية الشرعي المنتخب مع كل ما كان يمثل ذلك التحرك العسكري الكبير من خطر على الأمة والدين. كما أثبتت الروايات التاريخية أن جيش الإمام علي في صفين كان أضعاف جيش الإمام الحسن عليه السلام بل وحتى قادة جيش الامام اضعاف، وباقي الجند بما فيهم الصحابة الأبرار يختلفون كثيراً عن وشل وثمانية الجيش الباقي مع الحسن وبالتالي كانت الأخطار المترتبة على نشوب الحرب بين الجيشين؛ جيش الخلافة العلوية والجيش الأموي أشد خطراً بمئات المرات من خطر وقوع الحرب بين معاوية والحسن عليه السلام؛ فلماذا قام بفعلته تلك ابتداءً؟ ولماذا لم يسلم الأمر إلى الإمام علي عليه السلام الخليفة الشرعي بعد أن رأى عظم جيش الخلافة، وكثير جيشه الذي جاء به من الشام، لو كان حقاً يملك مثل هذا الحرص المزعوم؟ أين كان في حرب صفين التي جمع فيها أكثر من (١٣٠) ألف مقاتل ووضعهم أمام جيش الخلافة البالغ تعداده أكثر من (١٣٥) ألف مقاتل كما تقول الروايات، وفي رواية: «وكان علي عليه السلام يوم صفين على بغلة رسول الله المسماة بدلدل، فحمل بها في تسعين ألفاً وقليل مائة وعشرين ألفاً وعشرة آلاف»^(٢) وفي رواية غيرها: «عن زكريا بن عيسى عن ابن شهاب أن محمد بن عمرو بن

(١) عون المعبود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، أربعة عشر جزء، ص ٣٢٨، حديث ٤٦٦٢، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة.

(٢) أعلام النصر الميين ص ٩٤.

العاص شهد القتال يوم صفين في خمسة وثلاثين ومائة ألف»^(١).

أين كان في هذه الحرب التي دامت أشهراً متواصلة وأشهرأً أخرى متفرقة حيث بدأت في الأول من صفر ٣٧ هجرية، وسقط فيها على ما روي بين (٧٠-١١٠) ألف قتيل وتركت من الجرحى والمعوقين ما يفوق هذا العدد بكثير؟ لماذا يغفل هذا العدد العظيم من قتلى المسلمين ويلتفت إلى ما يمكن أن يقع منهم صريعاً بحربه مع الحسن (ع)؟ وفي حديثه عن أيام صفين قال الكلبي: «قال ابن ديزيل: وقتل في ثلاثة أيام من أيام البيض: ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ثلاثة وسبعون ألفاً من الفريقين»^(٢) وفي قول آخر: «فقتل فيها من أصحاب الإمام علي (ع) خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً على اختلاف في ذلك»^(٣)

وفي رواية شامية: «كان أهل الشام ستين ألفاً فقتل منهم عشرون ألفاً وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً فقتل منهم أربعون ألفاً»^(٤).

أقف هنا لأورد حديثاً للصلاحي أراد من خلاله التدليس على أخبار صفين لكي يثبت صحة وصدق حرص معاوية على الأمة ودماء المسلمين، وذلك لكي يدعم الأقوال التي تدعي أن حرصه هو الذي دفعه إلى طلب الصلح مع الحسن (ع)، قال الدكتور الصلاحي: «تضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى فذكر ابن أبي خيثمة أن القتلى في صفين بلغ عددهم سبعين ألفاً، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل. كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى في صفين بلغ سبعون ألفاً

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٢) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص ٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦١.

أو أكثر، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقي والصدام الجماعي استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال نحو ثلاثين ساعة، ومهما كان القتال عنيفاً، فلن يفوق شدة القادسية التي كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة وبالتالي يصعب التصديق عقلاً أن نقبل تلك الروايات»^(١).

وأول تدليس لهذا الرجل، إدعاؤه أن معركة صفين دامت ثلاثة أيام فقط، حيث أخذ أقوال بعض المؤرخين عن أيامها الثلاثة الأخيرة وأوهم الناس أنها كل أيام المعركة وأهمل باقي أيامها، ففي هذه الأيام الثلاثة وحدها دون غيرها اشتدت الحرب، كما ذكر ابن سعد والبلاذري وغيرهم، حيث قال ابن سعد: «وكان القتال الشديد ثلاثة أيام ولياليهن، آخرهن ليلة الهير»^(٢) وقال البلاذري: «وقال الواقدي في إسناده: كان القتال الشديد بصفين ثلاثة أيام ولياليهن، آخرهن ليلة الهير»^(٣) وربما كان هذا التدليس هو الدافع وراء تضخيم بعض الباحثين لعدد أيام صفين كرد فعل، كما في قول الشيخ محمد اليعقوبي: «إن معركة صفين التي استمرت حوالي سنة ونصف كانت تشهد فترات هدنة وإيقاف للقتال»^(٤).

والتدليس الثاني أن الدكتور الصلابي خالف أقوال علمائهم ومؤرخيهم الذين اتفقوا على أن قتلى صفين كانوا أكثر من سبعين ألفاً: خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام

(١) ينظر: معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره، الدولة السفيلية، ص ١٢٧.

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٦١.

(٣) ينظر: أنساب الأشراف ص ٣١٨.

(٤) موقع الشيخ محمد اليعقوبي، الرابط /http://www.yaqoobi.com/arabic/artc/2445/news/index.html

وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، فقد قدر محمد بن سيرين عدد القتلى في هذه المعركة بنحو سبعين ألف رجل. كان منهم خمسٌ وأربعين ألف شخص من جيش الشام، أي كان نصف الجيش قد فني، فما استطاعوا عدّهم إلا بالقصب، وضعوا على كل إنسان قصبة، ثم عدّوا القصب.^(١) وفي فتح الباري عن ليلة الهير وهي آخر ليالي صفين قبل التحكيم، قال العسقلاني: «وقتل بين الفريقين تلك الليلة عدة آلاف وأصبحوا وقد أشرف عليّ وأصحابه على النصر»^(٢).

وذكر بعض الرواة أن مدّة إقامة الجيشين في صفين مئة وعشرة أيام، وأن الوقائع كانت تسعين وقعة، ولكن الشيخ علي الكوراني عد ذلك مبالغة فقال: «ذلك مبالغة، فهو لا يستقيم إلا بأن يقصدوا مجموع سفرهم من أول مقدمة الجيش التي أرسلها علي عليه السلام. والظاهر أن الحرب استمرت اثني عشر يوماً فقط، من يوم الأربعاء أول شهر صفر سنة ٣٧، إلى ليلة الهير ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر، وفي صبيحتها رفع معاوية المصاحف داعياً إلى وقف القتال وتحكيم حكيمين»^(٣). وأجد أن الشيخ الكوراني هوّن من أمر صفين كثيراً، فهناك عشرات النقول التي أثبتت طول مدتها، وكثرة القتلى فيها، وقد أوردنا من قبل قصة بناء معاوية قصراً في الميدان، وبناء الإمام علي مسجداً طينياً لأداء الصلاة، كما أن ابن الجوزي قال في منتظمه: «إن علياً عليه السلام طلب أثناء الحرب هدنة

(١) الذهبي في تاريخ الإسلام - عهد الخلفاء الراشدين (ص ٥٤٥)، و معجم البلدان (٣/ ٤١٤-٤١٥)، و مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٥/ ١٥) بإسناد حسن من مرسل ابن سيرين، و هو من أصح المراسيل. و تاريخ خليفة (ص ١٩٤) مختصراً.

(٢) ينظر: فتح الباري، العسقلاني، ج ١١، ص ١٠٤.

(٣) ينظر: موقع الشيخ الكوراني، الرابط <http://www.alameli.net/books/index.php?id=2476>

لمدة شهر بعد أن رأى كثرة القتل»^(١).

وفي العودة إلى أصل موضوعنا أقول: إن من كان مع علي في جيشه أعظم أن يهابوا من غيرهم وهم الصحابة الكرام من البدرين وأصحاب بيعة الشجرة وباقي الصحابة والتابعين بما لم يكن مع الحسن عليه السلام مثلهم أو قريباً منهم، فلماذا لم يتهيب معاوية من هؤلاء وتهيب ممن كانوا مع الحسن عليه السلام؟ «قال ذو النسيين: وقتل من أصحاب علي عليه السلام خمسة وعشرون بدرياً... من أهل بدر سبعون رجلاً، وشهد معه ممن بايع تحت الشجرة سبع مائة رجل فيمن لا يحصى من أصحاب رسول الله ومن خيار التابعين، ومع علي رايات كانت مع رسول الله يقاتل بها أعداء الله»^(٢).

ثم هل يعقل أن معاوية كان يبحث عن حقن الدماء وهو الذي قال في خطبته في الكوفة بعد أن دخلها: «يا أهل الكوفة أترون أني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم تصلّون وتزكّون وتحجّون» وأين ذهب الحرص لما أمر قواده الذين أرسلهم يجوبون الأقاليم بأمر مفاده: «فاقتل كل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك...»^(٣).

واقعا يستحق حديث البخاري وشرح العسقلاني وقفة طويلة بسبب التناقضات الواردة فيه، ولأنه تناول أكثر من جانب من جوانب الصراع والصلح بدءاً من حديثهم عن عظم جيش الحسن عليه السلام، ووصفه بأنه جيش له أول وليس له آخر، وهي الأرقام المدعومة بشهادات الزور ومنها قول صالح بن أحمد: «سمعت أبي يقول: بايع الحسن

(١) ينظر: منتظم لابن الجوزي، ج ٥، ص ١١٧-١١٨.

(٢) المصدر نفسه، المنتظم، ص ٦٧-٦٨.

(٣) المصدر نفسه، أعلام النصر المبين.

تسعون ألفاً، فزهد في الخلافة وصالح معاوية، ولم يسفك في أيامه محجمة من دم»^(١).
 وصولاً إلى التحدث عن التقاء الجيشين، وثمان الصلح؛ قال ابن أبي خيثمة: «حدثنا
 هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، عن ابن شاذب قال: لما قُتل علي سار الحسن في أهل
 العراق، وسار معاوية في أهل الشام فالتقوا، فكره الحسن القتال، وباع معاوية على أن
 يجعل العهد للحسن عليه السلام من بعده. قال: فكان أصحاب الحسن يقولون: يا عار المؤمنين.
 قال: فيقول لهم: العار خير من النار. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا العباس بن
 هشام، عن أبيه قال: لما قُتل علي بايع الناس الحسن بن علي فوليها سبعة أشهر وأحد
 عشر يوماً. وقال غير عباس: بايع الحسن أهل الكوفة، وباع أهل الشام معاوية بإيلياء
 بعد قتل علي، وبويع بيعة العامة ببيت المقدس يوم الجمعة من آخر سنة أربعين، ثم لقي
 الحسن معاوية بمسكن - من سواد الكوفة - في سنة إحدى وأربعين، فاصطلحا وباع
 الحسن عليه السلام معاوية. وقال غيره: كان صلحهما ودخول معاوية الكوفة في ربيع الأول من
 سنة إحدى وأربعين»^(٢).

في الفقرة الثانية من الحديث قالوا عن الحسن عليه السلام: بأنه كان مسلماً يكره الحرب ولا
 يميل إلى القتال وسفك الدم، وهذا مخالف لما أورده عنه بأنه شارك في الفتوح، ومخالف
 لما ثبت عنه عليه السلام أنه اشترك في جميع حروب أبيه وأبلى فيها بلاءً حسناً. فالحسن عليه السلام لم
 يصلح لأنه يكره كل أنواع الحروب بما فيها الحروب العقائدية بطبيعته، وإنما صالح بقياً
 على الدين والمذهب. والفهم الخاطئ فضلاً عن الدس السياسي والتحريف الممجوج
 هو الذي دفعهم إلى الحديث عن حب الحسن عليه السلام لنفسه وتفضيلها على جميع أصحابه
 وشعبه، بدليل أن شروط وثيقة الصلح نصت على: «إن الناس آمنون حيث كانوا من

(١) الفتح للعسقلاني، ج ١٣، ص: ٢٠٤.

(٢) فتح الباري، العسقلاني، ص ٢٠٥.

أرض الله تعالى في شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه وعلى أن لا يبغى للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من بيت رسول الله غائلة سوء سراً وجهرًا ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق شهد عليه بذلك فلان وفلان وكفى بالله شهيداً»^(١).

وفي الفقرة الثالثة ادعوا أن الحسن عليه السلام الذي وصفوه بالأثاني كان يريد أن يكتب معاوية ليعطيه الأمان لنفسه دون أصحابه، وهذا ما تكذبه وثيقة الصلح التي طلب فيها عدم مطاردة الشيعة.

وتحدثوا في الفقرة الرابعة عن خلاف بين الحسن عليه السلام وقيس بن سعد، وهذا كذب محض حيث أجمع المؤرخون على أن قيس بن سعد بن عباد (رحمهما الله) كان يقاتل بجملة حدها له الإمام الحسن عليه السلام، وأن معاوية حاول الواقعة بينه وبين الإمام بالإدعاء في جيش الحسن بأن قيس سالم معاوية والإدعاء عند قيس بأن الإمام صالح معاوية كما في قول اليعقوبي: «وكان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار إليه! ويوجه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه»^(٢) بالمناسبة أنواع دس معاوية كثيرة لا تحصى منها ما قال عنه الشيخ المفيد: «فلما بلغ معاوية بن أبي سفيان وفاة أمير المؤمنين وبيعة الناس ابنه الحسن دس رجلاً من حمير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار، ويفسدا على الحسن عليه السلام الأمور. فعرف ذلك الحسن فأمر باستخراج الحميري من عند

(١) موسوعة الحسن الرابط

<http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/solh.html> .

(٢) تاريخ اليعقوبي، جزء ٢ ص ٢١٤.

لحام بالكوفة فأخرج وأمر بضرب عنقه وكتب إلى البصرة، باستخراج القيني من بني سليم، فأخرج وضربت عنقه، وكتب الحسن إلى معاوية: أما بعد، فإنك دسست الرجال للاحتيال والاعتقال وأرصدت العيون كأنك تحب اللقاء وما أوشك ذلك، فتوقعه إن شاء الله، وبلغني أنك شمت بما لا يشمت به ذو حجى^(١).

أما تكملة الشرح فالمهم فيه أن العسقلاني نفسه عاد ليشكك بمضمون الحديث وليوقع نفسه في تناقض كبير، فقال: وأخرج الطبري والطبراني من طريق إسماعيل بن راشد قال: «بعث الحسن قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفاً، يعني من الأربعين^(٢) فسار قيس إلى جهة الشام وكان معاوية لما بلغه قتل علي خرج في عساكر من الشام^(٣) وخرج الحسن بن علي مدافعاً حتى نزل المدائن، فوصل معاوية إلى مسكن. وقال ابن بطل: ذكر أهل العلم بالأخبار أن علياً لما قُتل سار معاوية يريد العراق وسار الحسن يريد الشام فالتقيا بمنزل من أرض الكوفة، فنظر الحسن إلى كثرة من معه فنادى: «يا معاوية إنني اخترت ما عند الله، فإن يكن هذا الأمر لك فلا ينبغي لي أن أنازعك فيه وإن يكن لي فقد تركته لك فكبر» أصحاب معاوية. وقال المغيرة عند ذلك: أشهد أني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن ابني هذا سيد»، الحديث وقال في آخره: فجزاك الله عن المسلمين خيراً. وبالرغم من التهافت الذي جاء به ابن بطل الذي نقل عن (أهل العلم) الذين لا نعرفهم بأن الحسن رضي الله عنه التقى بمعاوية في ساحة الحرب في الكوفة،

(١) موسوعة الحسن <http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/dasisa.html>

(٢) أنظر كيف وقع في حرج بسبب اختلاف أرقام جيش قيس الذي قال انه أربعون ألفاً ثم أصبح بقدرة قادر اثنا عشر ألفاً مدعياً أن هؤلاء من الأربعين ألفاً، أما أين ذهب الثمانية وعشرون ألفاً فلا يلتفت إليه.

(٣) وفي هذا تأكيد تام بأن معاوية يريد الحرب ويريد الخلافة ولذا جهز أو حرك جيشه الجاهز المجهز ليستغل فرصة غياب الخليفة الشرعي عن الساحة.

وبأن الحسن عليه السلام نادى معاوية يطلب الصلح، وبأن الحسن عليه السلام لم يكن يعرف إن كان أمر الخلافة قد خصه الله به بصفته الخليفة الشرعي الذي بايعه المسلمون أم أن الأمر لمعاوية وهو الخليفة الشرعي الذي لا يجب على الإمام الحسن مقاتلته ومنازعته، وبأن الحسن عليه السلام تنازل عن طيب خاطر عن حقه في الخلافة إلى معاوية دون شروط وبأن الحسن عليه السلام دعا لمعاوية بالخير بالرغم ما بينهما من خلاف تاريخي. بالرغم من كل ذلك لم تنجح مساعيهم وخابت آمالهم.

مؤامرة الخطبة

أشار العسقلاني في مجرى شرحه لحديث البخاري إلى حادثة مهمة جداً وقعت في الكوفة بعد أن دخلها معاوية الذي وقف عند (النخيلة) قبل أن يدخل الكوفة ليضع شروط الصلح تحت قدمه، فمعاوية اعترف بتوجهه السياسي الصرف حتى قبل أن يجف حبر وثيقة الصلح وقبل أن يدخل الكوفة، لكنه في النخيلة أفصح عما في مكنونه يوم خطب الناس، وقال: «إني ما قاتلتكم لتصوموا أو لتحجوا وإنما قاتلتكم لأن تأمر عليكم وقد أعطيت الحسن شروطاً كلها تحت قدمي»^(١) فاستفز بذلك الإمام الحسن عليه السلام وأغضبه، ثم حاول مع صنوه عمرو بن العاص استغلال غضب الإمام بإجباره على التكلم أمام الناس، فمعاوية وبَحَثَّ ودَسَّ من عمرو بن العاص طلب من الحسن عليه السلام أن يتكلم أمام الناس ليخرجه، فالمُسَلَّم بصحته أن بطل التحكيم السياسي العتيد عمرو بن العاص كان قد أعد للصلح مفاجأته، كما أعد للهزيمة في صفين مفاجأة التحكيم، قال الطبري: «وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة قد كلم معاوية وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس فكره ذلك معاوية، وقال: ما تريد إلى أن يخطب الناس؟ فقال عمرو: لكنني أريد أن يبدو عيّه للناس، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه، فخرج معاوية فخطب الناس، ثم أمر رجلاً فنادى الحسن بن علي فقال: قم يا حسن فكلم الناس، فتشهد في بديهة أمر لم يُرَوَّ فيه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول، وإن الله تعالى

(١) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ص ١٢ .

قال لنبيه: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾. فلما قالها قال معاوية: إجلس فلم يزل ضاماً على عمرو، وقال: هذا من رأيك^(١) لقد أراد معاوية برفضه لشروط الصلح استفزاز الإمام وإغضابه، وأراد عمرو بن العاص إجباره على صعود المنبر وإلقاء خطبة في الخاصة والعامة وهو بحالة الغضب تلك عسى أن يتفوه بما يغضب معاوية فيستحل قتله دون أن يلومه احد باعتبار أن الحسن عليه السلام هدده أو تطاول عليه أمام الجماهير الغفيرة التي كانت حاضرة، وهو ليس بلام بقتله!.

أما العسقلاني فإنه كعادته حرف الكلام عن مواضعه فقال في الشرح أن معاوية هو الذي طلب من الحسن أن يخطب، وأن الحسن امتدح معاوية في خطابه، فقال: «والمحفوظ أن كلام الحسن الأخير إنما وقع بعد الصلح والاجتماع كما أخرجه سعيد بن منصور والبيهقي في (الدلائل) من طريقه ومن طريق غيره بسندهما إلى الشعبي قال: لما صالح الحسن بن علي معاوية، قال له معاوية قم فتكلم، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد؛ فإن أكيس الكيس التقي وإن أعجز العجز الفجور، ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حق لا مرئ كان أحق به مني، أو حق لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. ثم استغفر ونزل».

هنا تعاون ابن كثير والعسقلاني لتشويه هذه الواقعة، فابن كثير عجز عن إنكار دور عمرو الذي تحدث عنه الطبري، ولكنه أخفى اسم المحرض، فقال: «قال محمد بن سعد، عن هوزة بن خليفة، عن عوف، عن محمد بن سيرين قال: لما دخل معاوية الكوفة وبايعه الحسن بن علي عليه السلام، قال أصحاب معاوية لمعاوية: مر الحسن بن علي أن يخطب، فإنه حديث السن عبي، فلعله يتلعثم فيتضع في قلوب الناس. فأمره، فقام فاخطب،

في خطبته: أيها الناس، والله لو ابتغيتم بين جابلق وجابر س رجلا جده نبي ^{صلى الله عليه وسلم} خير من إهراقها، والله ما أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. وأشار إلى معاوية، فغضب من ذلك وقال: ما أردت من هذه؟ قال: أردت منها ما أراد الله منها. فصعد معاوية وخطب بعده. وقد رواه غير واحد، وقد منا أن معاوية عتب على أصحابه^(١).

أما أحفاد الفصيل الشيعي ^{عليهم السلام} **الفصل الخامس**، حاولوا طمس الحقائق كليا والتغطية على فعل السياسيين وكيدهم، وتبرئة عمرو بن العاص من الدسيسة والكيد والتآمر، فضلا عن تبييض صورة معاوية وإظهاره بمظهر الرحيم بالحسن ^{عليه السلام}، فقال الشيخ مدلساً: «ثم التمس معاوية من الحسن ^{عليه السلام} أن يتكلم في جموع الناس ويعلمهم انه قد سلم الأمر وبايع ^{عليه السلام} **المدارس الفقهية** حمرهم وأهله حرضوه بل هو تقدم إلى الحسن ^{عليه السلام} بكل أدب ولطف وألتمس منه أن يخطب! هكذا أراد الشيخ للممة تلك المؤامرة، فيا عجباً لشدة مكرهم وعظيم كذبهم!.

ولم يكتف العسقلاني وأحفاد السياسيين من بعده بهذا التضييل فلجأ العسقلاني إلى شروط الصلح ليمسئها، حيث أورد شروط الصلح منجمة متفرقة لكي لا يفتضح أمره، فقال مرة: «ومن طريق عوانة بن الحكم نحوه، وزاد وكان الحسن صالح معاوية على أن يجعل له ما في بيت مال الكوفة، وأن يكون له خراج دار أبجد».

وقال ثانية: «وذكر محمد بن قدامة في «كتاب الخراج» بسند قوي إلى أبي بصرة أن سمع الحسن بن علي يقول في خطبته عند معاوية: إني اشترطت على معاوية لنفسي

الخلافة بعده».

وقال الثالثة: «وأخرج يعقوب بن سفيان بسند صحيح إلى الزهري قال: كاتب الحسن بن علي معاوية واشترط لنفسه فوصلت الصحيفة لمعاوية وقد أرسل إلى الحسن يسأله الصلح ومع الرسول صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها وكتب إليه أن اشترط ما شئت فهو لك، فاشترط الحسن أضعاف ما كان سأل أولا، فلما التقيا وبايعه الحسن سأله أن يعطيه ما اشترط في السجل الذي ختم معاوية في أسفلها؛ فتمسك معاوية إلا ما كان الحسن سأل أولا، واحتج بأنه أجاب سؤاله أول ما وقف عليه فاختلفا في ذلك فلم ينفذ للحسن من الشرطين شيء». وستكلم عن الشروط لاحقا.



المدارس الفقهية وموضوع الصلح

تباينت الآراء والرؤى حول الصلح بكليته وجزئيته ليس في المدرسة الفقهية الواحدة، بل في كل مدارس الفقه، فمقابل العمومية وشبه الانغلاق الشيعي نجد في الجانب الآخر انفتاحاً على الصلح بكليته وتوسعاً في جزئياته وبناء قواعد فقهية قائمة على نتائج ما وصلهم عن الصلح من أحاديث أسست لمشروع فقهي غاية في التعقيد والتنوع، ومن الجزئيات التي أشبعوها بحثاً وشيدوا على نتائج بحوثهم التي استخلصوها منها قواعد فقهية كان حديث (ابني هذا سيد) وهو حديث قلق غير مستقر، مشكوك في صحته، ومع ذلك تكاد لا تجد كتاب حديث من الصحاح إلى السنن إلى المسانيد إلا وقد خصه بالشرح والتعليل والتحليل والتأويل وبشكل مطول موسع، تبعاً للصيغ المختلفة له ولا سيما نهاياته التي ورد في بعضها (فئتين عظيمتين) وفي بعضها (فئتين مسلمتين) وفي بعضها الآخر (فئتين مسلمتين عظيمتين) بل وفي بعضها (فئتين مؤمنتين)، ومن صيغته:

• «إن ابني هذا سيد يصلح الله على يديه فئتين عظيمتين»

أورده بهذه الصيغة الترمذي في سننه عن الحسن (البصري) عن أبي بكره قال: «صعد رسول الله ﷺ المنبر فقال: وأورد الحديث ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.^(١)

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، حديث

كما أورده الأحمدي في التحفة: حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا الأشعث هو ابن عبد الملك عن الحسن عن أبي بكرة وأورد الحديث^(١)

• حديث «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين».

أورده بهذه الصيغة كل من النسائي عن أبي موسى إسرائيل بن موسى قال: «سمعت الحسن يقول: سمعت أبا بكرة يقول: لقد رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن معه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول» ثم أكمل الحديث^(٢).

• حديث «إن ابني هذا سيد وإنني أرجو أن يصلح الله به بين فئتين من أمتي».

أورده أبو داود في سننه، بنفس السند، وقال: «في حديث حماد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»^(٣)

• حديث «إن ابني هذا لسيد إن يعيش يصلح بين طائفتين من المسلمين»

أورده الإمام أحمد في مسنده وكرره خمس مرات حديث رقم ١٩٩٦٠ حدثنا: عبد الرزاق، أخبرنا: معمر، أخبرني: من سمع الحسن يحدث عن أبي بكرة، قال: «كان النبي ﷺ يحدثنا يوما والحسن بن علي في حجره فيقبل على أصحابه فيحدثهم ثم يقبل على الحسن فيقبله، ثم قال: إن ابني هذا لسيد إن يعيش يصلح بين طائفتين من المسلمين».

(١) تحفة الأحوذى، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، ص ١٨٩، حديث ٣٧٧٣.

(٢) سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بجر النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، سنة النشر: ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م حديث رقم ١٤١٠.

(٣) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المكتبة العصرية، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة حديث ٤٦٦٢.

وحديث رقم ١٩٩٣٥ حدثنا: هاشم حدثنا: المبارك حدثنا: الحسن حدثنا: أبو بكرة قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس وكان الحسن بن علي ؑ يثب على ظهره إذا سجد، ففعل ذلك غير مرة، فقالوا له: والله إنك لتفعل بهذا شيئاً ما رأيـناك تفعله بأحد؟ قال المبارك: فذكر شيئاً ثم قال: إن ابني هذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين، فقال الحسن فوالله والله بعد أن ولي لم يهرق في خلافته ملء محجمة من دم». وحديث رقم ١٩٩٨٦ حدثنا مؤمل، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا علي بن زيد، عن الحسن، عن أبي بكرة قال: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم يخطب إذ جاء الحسن بن علي فصعد إليه المنبر فضمه النبي ﷺ إليه ومسح على رأسه وقال: ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح على يديه بين فئتين عظيمتين من المسلمين». وحديث رقم ١٩٩٩٤ حدثنا عفان، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن أخبرني أبو بكرة: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه فيرفع رسول الله ﷺ رفعا رفيقا لئلا يصرع قال: فعل ذلك غير مرة، فلما قضى صلاته قالوا: يا رسول الله رأيـناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيـناك صنعته؟ قال: إنه ريحانتي من الدنيا وإن ابني هذا سيد وعسى الله تبارك وتعالى أن يصلح به بين فئتين من المسلمين». وحديث رقم ١٩٨٧٩ حدثنا سفيان، عن أبي موسى ويقال له إسرائيل، قال: «سمعت الحسن قال: سمعت أبا بكرة، وقال: سفيان مرة عن أبي بكرة رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وحسن ؑ معه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله تبارك وتعالى أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(١).

وورد في مصنف عبد الرزاق عن أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال: «أخبرني من

(١) المسند، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، دار إحياء التراث العربي، سنة النشر:

سمع الحسن يحدث عن أبي بكرة قال: كان النبي ﷺ يحدثنا يوما والحسن بن علي في حجره، فيقبل على أصحابه، فيحدثهم ثم يقبل على الحسن فيقبله ثم قال: ابني هذا سيد، إن يعيش يصلح بين طائفتين من المسلمين»^(١).

وورد في عون المعبود، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة: حدثنا مسدد ومسلم بن إبراهيم قال: حدثنا حماد عن علي بن زيد عن الحسن عن أبي بكرة، وحدثنا محمد بن المثنى عن محمد بن عبد الله الأنصاري قال: حدثني الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة قال: «قال رسول الله ﷺ للحسن بن علي: إن ابني هذا سيد وإنني أرجو أن يصلح الله به بين فئتين من أمتي. وقال في حديث حماد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين».

وورد في شرح السيوطي لسنن النسائي أخبرنا: محمد بن منصور قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا أبو موسى إسرائيل بن موسى قال: سمعت الحسن يقول: سمعت أبا بكرة يقول: «لقد رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن معه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»^(٢).

• حديث «إن ابني هذا سيد، وإن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين»

ورد في البحر الزخار: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، قال: حدثنا أبو داود، عن أبي فضالة، وهو مبارك بن فضالة، عن الحسن، قال حدثني أبو بكرة رضي الله عنه أن رسول

(١) مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، سنة النشر:

١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، حديث رقم ٢٠٩٨١

(٢) شرح السيوطي لسنن النسائي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار البشائر

الإسلامية، سنة النشر: ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، حديث رقم ١٤١٠.

الله ﷺ، قال في الحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، وإن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين»^(١).

• حديث «إن ابني هذا سيد عسى أن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين».

ورد في البحر الزخار: حدثنا أحمد بن منصور، قال: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن، قال: حدثني أبو بكرة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يصلي بنا فكان الحسن بن علي يجيء وهو صغير كلما سجد النبي ﷺ وثب على رقبته وظهره فيرفع النبي رأسه رفعا رفيقا حتى يضعه قالوا: يا رسول الله، إنك لتصنع بهذا الصبي شيئا ما رأييناك تصنعه، قال: إنه ريحانتي من الدنيا إن ابني هذا سيد عسى أن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين»^(٢).

وورد في مرقاة المفاتيح عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة، ويقول: إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣).

وورد في المعجم الصغير للطبراني حدثنا لؤلؤ الرومي مولى أحمد بن طولون البغدادي، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا عبد الرحمن بن شيبه الجدي، حدثنا هشيم عن يونس بن عبيد، ومنصور بن زاذان، عن الحسن، عن أبي بكرة قال: «رأيت رسول

(١) البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار، ص ١١٠، الجزء التاسع، حديث رقم ٣٦٥٦.

(٢) البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار، ص ١١٠، الجزء التاسع، حديث رقم ٣٦٥٧.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ٣٩٧٠، حديث رقم ٦١٤٤.

الله ﷺ على المنبر ومعه الحسن بن علي وهو يقول: إن ابني هذا سيد، وإن الله عز وجل سيصلح على يديه بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١).

كما ورد في المعجم الأوسط: حدثنا أحمد قال: حدثنا الفيض بن وثيق الثقفي قال: حدثنا أبو زهير عبد الرحمن بن مغراء عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: «قال رسول الله ﷺ في الحسن بن علي: إن ابني هذا سيد، وليصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»^(٢).

وفي البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه «إن النبي ﷺ قال: إن ابني هذا سيد، وإن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣).

وورد في حلية أبي نعيم: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا يوسف القاضي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا مبارك بن فضالة، حدثنا الحسن، حدثني أبو بكرة، قال: «كان النبي ﷺ يصلي بنا فيجاء الحسن وهو ساجد، صبي صغير، حتى يصير على ظهره أو رقبته فيرفعه رفعا رفيقا، فلما صلى صلاته، قالوا: يا رسول الله إنك لتصنع بهذا الصبي شيئا لا تصنعه بأحد، فقال: إن هذا ريحانتي، وإن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٤).

(١) المعجم الصغير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م، ص ٢٧١، حديث ٧٣٤، باب اللام.

(٢) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد المعروف (الطبراني)، مكتبة المعارف، سنة النشر: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ج ٢، ص ٤٨٢، حديث ١٨٣١.

(٣) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م، ج ٨، ص ١٤٤-١٤٥.

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، ص ٣٥، حديث ١٣٢.

وورد في فتح الباري للعسقلاني في باب مناقب الحسن والحسين: حدثنا صدقة حدثنا ابن عيينة حدثنا أبو موسى عن الحسن سمع أبا بكرة، قال: «سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(١).

كما ورد في فتح الباري في (باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)، حديث ٦٦٩٢، ﷺ «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٢).

وورد في البخاري بصيغة «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٣) كما ورد في كتاب الصلح من البخاري بصيغة «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٤) حيث وردت الصفة (عظيمتين) في واحد منهما ولم ترد في الثاني. وأخيراً وليس آخراً أورده ابن تيمية في منهاج السنة النبوية.

وفي كل هذه الأحاديث هناك لازمة تصف الفئتين المتحاربتين مرة بالعظيمتين وأخرى بالمسلمتين وثالثة بالمؤمنتين، واللازمة الثالثة ترد عرضياً في حديثهم وجدلهم وحجاجهم ومنها ما نشره موقع عقيدة أهل السنة: «وإن ذكرت حديث عمار فلا تنس حديث يصلح الله به بين فئتين من المؤمنين»^(٥).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، حديث ٣٥٣٦، ص ١٢٠، وفي طبعة دار إحياء التراث العربي برقم ٣٧٤٦، ص ٦٦٤ باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ج ١٣، ص ٦٦-٦٧.

(٣) البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي برقم ٧١٠٩، ص ١٢٥٦.

(٤) البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي برقم ٢٧٠٤، ص ٤٧٨.

(٥) موقع (عقيدة أهل السنة والجماعة عبر العصور من السلف والخلف الصالح) تحت عنوان:

أما مضمون الحديث فمرة يبدو برجاء وأمل التحقق مع استخدام كلمة (عسى) أو (لعل)، ومرة يبدو جازماً قاطعاً، ومرة يبدو احتمالياً، وهكذا تنوعت صيغته فكانت خلاصتها: يصلح الله على يديه / ولعل الله أن يصلح به / وإن الله يصلح به بين فئتين / وإني أرجو أن يصلح الله به / إن يعيش يصلح بين طائفتين / وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين / سيصلح به بين فئتين / ولعل الله أن يصلح على يديه / وعسى الله تبارك وتعالى أن يصلح به / ولعل الله تبارك وتعالى أن يصلح به / وليصلح الله به بين فئتين وهكذا تجد مئات الروايات التي تذكر الحديث بما يبدو وكأنه تكرر أكثر من مرة في أكثر من مكان، في إحداها كان النبي ﷺ يخطب فجاءه الحسن رضي الله عنه، وفي الثانية كان يصلي وفي الثالثة كان جالسا مع أصحابه، وهكذا، وكلها بالرغم من اختلافها وتباينها وتعدد أماكنها موقوفة على (أبي بكر) وحده من دون مائة وأربعة وعشرين ألف صحابي مات عنهم رسول الله ﷺ. لكن التكرار والتنوع لم يشفع لهذا الحديث بالثبات أمام الجرح والتعديل الذي أثبت ضعفه ووضعه، أو يصمد أمام هجمات السياسيين الذين لم يلتفتوا إلى توهين العلماء له، فأرادوا سلخ هذه الكرامة من الحسن وإلباسها لمعاوية بعد أن وضعوا للحديث صيغ مختلفة تنوعت وتلونت، وتلاعبوا به فشوهوه وأفرغوه من محتواه بالرغم من ضعفه، ولا سيما حينما حاولوا أن يضيفوا على معاوية مبادرة سبق بطلب الصلح حقناً لدماء المسلمين لكونه بزعمهم أرحم بهم من الحسن رضي الله عنه بالأمة.

ضمن سياقات التحريف كانت لهم منظومة من الوقائع تجدها متطابقة كلياً مع منهجهم القديم. وقد كان الحديث النبوي أحد ميادينهم التي خاضوها دون التفات لما يحدثه تحريف الحديث النبوي من اثر كبير على الإسلام أولاً وعلى المحرف نفسه

الذي يبوء بغضب الله تبعاً لحديث: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار» وهو حديث متفق عليه. وكان حديث «وأن الله يصلح به بين فئتين» خير مثال على تلاعبهم بالسنة، فالحديث جاء بصيغ وطرق مختلفة وكثيرة اتفقت غالباً على نوع الفئتين اللتين سوف يصلح بينهما الإمام الحسن عليه السلام وهما: «فئتين من المسلمين مؤمنتين عظيمتين» ولا شيء أكثر، وفي مثل هذه الحال قد تكون الفئتان العظيمتان مؤمنتان كلتاهما وقد تكون واحدة مؤمنة والأخرى باغية معتدية، وقد تكون إحداها على حق والأخرى على باطل، وتبقى كل الاحتمالات مفتوحة على هذا النص. أما إذا ما تم تغيير كلمة واحدة منه فإن المعنى ينقلب رأساً على عقب ويتغير كامل مضمون الحديث، بمعنى أنك لو وضعت كلمة (مؤمنتين) بدل كلمة (عظيمتين) فمعناه أنك حكمت بالإيمان لكلا الطرفين، وهو الأمر المستحيل خروجه من فم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه يعرف أن إحدى الفئتين ستكون مؤمنة والأخرى مسلمة باغية، وفرق كبير بين الإيمان والإسلام ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾^(١). أما القلق وفقدان الاستقرار اللذان وصفت بهما الحديث بالرغم من وروده في أغلب كتب الحديث والتاريخ فهو ناشئ من كونه كثير التلون، وينتهي سنده إلى شخص واحد هناك شك بصدقه، وإيمان أكيد بصحة ولائه الأموي القرابي وهو (أبو بكر) وعليه مدار هذا الحديث.

وكما غامر أبو بكر في روايته لهذا الحديث غامر العسقلاني كثيراً عند شرحه له، كما ونقل مغامرات قومه وصحبه مع الحديث، فهم الذين أضافوا له جملاً وكلمات لم يفتن إليها من وضعه، لها من الدلالات ما يوهن مركزية الحديث ومقصده الأول، فكلمات مثل: (ولعل الله أن يصلح به) و (وإني لأرجو أن يصلح الله به) و (سيد يصلح الله به) و (يصلح الله على يديه) و (أرجو أن يصلح الله به) و (إن يعيش يصلح بين

طائفتين) و(وسيلص الله تبارك وتعالى به بين فئتين) و(وعسى الله تبارك وتعالى أن يصلح به بين فئتين) إنما جيء بها للتأثير على عقلية المتلقي فلا يكاد يركز على جوهر الموضوع بقدر انشغاله بفرعيات لا تسمن ولا تغني من جوع. وعن قولهم (لعل الله) قال العسقلاني: «قوله: (ولعل الله أن يصلح به) كذا استعمل (لعل) استعمال عسى لا اشتراكهما في الرجاء»^(١) إذن هي مجرد أمنية تمنّاها النبي ﷺ لولده الحسن رضي الله عنه لا أكثر، فهل يعقل ذلك؟

ومن هذا الحديث وشرح العسقلاني لمحتواه كَوْنُوا منظومة فقهية طويلة عريضة بما يؤكد بأن السياسيين العرب كانوا متمكنين من صنعتهم السياسية وهو ما جعلهم يؤثرّون بشكل مباشر على عقل الأمة وعقل أتباعهم ومريدهم وأعوانهم لدرجة أنهم حرّفوا مقاصد رسول الله ﷺ الذي امتدح بالصلح الإمام الحسن رضي الله عنه فجعلوا من موضوع الصلح كرامة لمعاوية وهزيمة للإمام الحسن رضي الله عنه الذي يدّعون بأنه باع الخلافة الشرعية مقابل مال قليل، لا يسمن ولا يغني من جوع. ثم قاموا باستنباط الأحكام الفقهية من تفرعات هذا الحديث وجعلوا الأمة تتعبد بمحتواها! وهي أحكام شرعية وقواعد فقهية جاءت لترسيخ ما أرادته السياسة وما حققته على أرض الواقع، ومنها:

• القاعدة الأولى: (المفضول والفاضل) في الخلافة:

حيث استنتجوا من خلال الحديث: أن الخلافة تصح للمفضول مع وجود الفاضل، ليس للتأكيد طبعاً على أن الإمام الحسن الذي تنازل عن الخلافة كان هو (الفاضل) ولا معاوية الذي توج حاكماً كان (مفضولاً)، بل لأن هناك بين المسلمين من هو أفضل من الحسن رضي الله عنه ومن معاوية وأجدر بالخلافة منهما حسب زعمهم مثل سعد بن أبي وقاص

(١) فتح الباري، الجزء ١٣، ص ٧١.

وسعيد بن زيد باعتبار أنها اشتركا في معركة بدر!، حيث قال العسقلاني: «وفيه ولاية المفضول بالخلافة مع وجود الأفضل لأن الحسن ومعاوية ولي كل منهما الخلافة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد في الحياة وهما بدريان»^(١).

وهي القاعدة التي عللها الباقلاني بقوله: «وأما ما يدل على جواز العقد للمفضول وترك الأفضل لخوف الفتنة والتهاجر فهو أن الإمام إنما ينصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل وإقامة الحدود واستخراج الحقوق فإذا خيف بإقامة أفضلهم الهرج والفساد والتغالب وترك الطاعة واختلاف السيوف وتعطيل الأحكام والحقوق وطمع عدو المسلمين في اهتضامهم وتوهين أمرهم صار ذلك عذراً واضحاً في العدول عن الفاضل إلى المفضول»^(٢) أما ما كانوا يبالغون به من مجمل هذه الأقوال ومن القاعدة الفقهية نفسها فمعروفة أصوله ودوافعه.

• القاعدة الثانية: جواز تنازل الخليفة لمن يتمرد عليه ويحاربه حقناً للدماء:

حيث قال: «الحسن بن علي ترك الملك لا لقلّة ولا لذلة ولا لعلّة بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة»^(٣).

• القاعدة الثالثة: رأفة الشخص ترشحه للخلافة:

ومعاوية بزعمهم أحق من الحسن عليه السلام بالخلافة لأنه رؤوف بالناس أكثر من الحسن عليه السلام، حيث قال الباقلاني: «وفيه فضيلة الإصلاح بين الناس ولاسيما في حقن

(١) المصدر نفسه، العسقلاني، ص ٧٢.

(٢) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، القاضي أبو بكر محمد بن طيب الباقلاني، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتاب الثقافية، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص ٤٧٥.

(٣) العسقلاني، المصدر نفسه، ص ٧٢.

دماء المسلمين، ودلالة على رأفة معاوية بالرعية، وشفقته على المسلمين، وقوة نظره في تدبير الملك، ونظره في العواقب» وليس الباقلاني وحده من يرى في معاوية كل تلك الرأفة والرحمة والحنان، فهم جميعاً يشتركون في هذا القول، فالدكتور علي محمد الصلابي يقول في مقدمة كتابه: «وَوَضَّحْتُ صفات معاوية والتي من أهمها: العلم والفقه والحلم والعفو والدهاء والحيلة وعقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب وتواضعه وورعه وبكاؤه من خشية الله»^(١).

• القاعدة الرابعة: جواز تنازل الخليفة مقابل الحصول على المال الكثير، أي بيع الخلافة:

حيث قال: «قاله ابن التين، وفيه جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى في ذلك صلاحاً للمسلمين والنزول عن الوظائف الدينية والدنيوية بالمال وجواز أخذ المال على ذلك وإعطائه بعد استيفاء شرائطه» ويعني هذا حسب رأي العسقلاني أن الإمام الحسن عليه السلام تنازل عن الإمامتين الدينية والدنيوية إلى معاوية مقابل المال فحسب، وهذا بالضبط ما كان معاوية يبحث عنه وهو أن يعده الناس إماماً دينياً وهو شيء كبير في كل المقاييس. وربما لهذا السبب ولكي يبينوا قيمة الخلافة التي تنازل عنها الحسن عليه السلام قالوا أن معاوية وهبه خمسمائة مليون درهم، كما في قول سفيان: «فصالح الحسن على شروط ووثائق، وحمل معاوية إلى الحسن مالاً عظيماً يقال خمس مائة ألف ألف درهم»^(٢).

بالمناسبة رأيناهم كيف تحدثوا عن أزمة بين الإمام الحسن عليه السلام وقيس بن سعد،

(١) معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره، علي محمد الصلابي، ط ٦، دار المعرفة، بيروت،

١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ٨.

(٢) المستدرک، ج ٣ ص ١٩١.

ثم جاءوا بما يبدو وكأنهم يفضلون قيس على الحسن لأن قيس لم يطلب المال كما فعل الحسن، والرواية لابن الأثير يتحدث فيها عن صلح قيس بن سعد مع معاوية بعد أن صالح الحسن: «فلما بعث إليه معاوية ذلك السجل اشترط قيس له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل في سجله ذلك مالا»^(١) وكم هم واهمون أولئك الذين وضعوا هذه القاعدة وأدخلوها إلى أصل عقيدتهم، دون أن ينتبهوا إلى أنها تتعارض مع القواعد التي سبقتها، فقد يكون المتنازل له (المنزول له) غير رؤوف ولا رحيم فيظلم الناس، وقد يكون سبباً في الفتنة والتهارج لأنه لا فاضل ولا مفضول، وقد يكون عاجزاً عن حماية أرض الإسلام!.

- القاعدة الخامسة: وجوب أن يكون لكل من البازل والمبذول له سبب في الولاية يستند إليه:

حيث قال: «وجواز أخذ المال على ذلك وإعطائه بعد استيفاء شرائطه بأن يكون المنزل له أولى من النازل وأن يكون المبذول من مال البازل. فإن كان في ولاية عامة وكان المبذول من بيت المال اشترط أن تكون المصلحة في ذلك عامة، أشار إلى ذلك ابن بطال، قال: يشترط أن يكون لكل من البازل والمبذول له سبب في الولاية يستند إليه، وعقد من الأمور يعول عليه».

- القاعدة السادسة: في دلالات معنى (سيد): وهي قاعدة تستحق التوسع في الحديث عنها.

نحن نعرف أن السياسيين ومدرسة الإسلام الأموي نجحوا سوية في تغيير معنى ألفاظ الكثير من المصطلحات الإسلامية وحملوا الكلمات أكثر من طاقتها ليفرغوها من

معناها القدسي ويلبسوها معنا دنيويا باهت الملامح بفعل التدليس كما فعلوا مع كلمة (مولى) مثلاً في حديث (من كنت مولاه) وهو حديث متواتر، ولقد أعملوا فكرهم مع كلمة أخرى وردت في حديث مشكوك بصحته سنداً وامتناً، موقوف على (أبي بكرة) هو حديث (ابني هذا سيد)، والكلمة المقصودة هي كلمة (سيد). وقبل الحديث عن دلالة كلمة (سيد) التي تعرضت إلى التلاعب الكبير تماماً مثل كلمة (مولى) أبغي الحديث أولاً عن سيرة شخص وجدنا أن الحديث الذي وردت فيه هذه الكلمة موقوفاً عليه، وعنه أخذ الرواة ونقلوا، وكتب المدونون ونشروا، وهو الصحابي أبو بكرة.

أبو بكرة رجل منحرف عن خط الإمامة المعصومة. ويكفي دليلاً على انحرافه أنه كان يخنع الناس ويمنعهم من نصرة الإمام علي عليه السلام: «وكان أبو بكرة لما قدم علي عليه السلام البصرة لقي الحسن بن أبي الحسن (البصري) وهو متوجه نحو علي فقال: إلى أين؟ قال: إلى علي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون بعدي فتنة النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم. فلزمت بيتي... فلما كان بعد ذلك لقيت جارية بن عبد الله وأبا سعيد فقالا: أين كنت أمس؟ فحدثتهما بما قال أبو بكرة، فقالا: لعن الله أبا بكرة، أساء سمعاً فأساء إجابة، إنما قال النبي ﷺ لأبي موسى: تكون بعدي فتنة أنت فيها نائم خير منك قاعد، وأنت فيها قاعد خير منك ساع»^(١)، بمعنى أن النبي ﷺ شخّص ضلوع أبي موسى بالفتن التي ستقع، فحذره ونصحه عسى أن يردعه، والحديث موجه إليه تحديداً لا إلى غيره، كحالة فردية بحثة لأن النبي ﷺ عرف أنه سيخوض في الفتنة. صحيح أن هناك قاعدة فقهية معروفة تقول: (العبرة في عموم اللفظ لا في خصوص السبب) ولكنها لا تنطبق على هذه الحالة الخاصة بأبي موسى الأشعري بدلالة أن جارية بن عبيد الله وأبا سعيد لعنا أبا بكرة الذي خلط في الحديث وعممه.

البخاري بطريقته المعهودة في التلاعب بالأحاديث لأسباب سياسية أخرج هذا الحديث عن الحسن البصري، قال: «خرجت بسلاحي ليالي الفتنة فاستقبلني أبو بكره فقال: أين تريد؟ قلت: أريد نصرة ابن عم رسول الله، قال: قال رسول الله: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار، قيل فهذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه»^(١).

وأبو بكره بطل هذه الرواية هو: نفيع بن الحارث بن كلدة. قال المزي في تهذيب الكمال: «نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة، واسمه عبد العزى، ويقال: ابن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قسى، وهو ثقيف، أبو بكره الثقفي، وقيل: اسمه مسروح، وقيل: نفيع بن مسروح. وقيل: كان أبوه عبدا للحارث بن كلدة الثقفي فاستلحقه الحارث، وهو أخو زياد لأمه، وكانت أمهما سمية أمة للحارث بن كلدة، وإنما قيل له أبو بكره لأنه تدلى إلى النبي ﷺ ببكرة من حصن الطائف، فكنى أبا بكره وأعتقه رسول الله يومئذ، وكان نادى منادى رسول الله يومئذ: أن من نزل إليه من عبيد أهل الطائف فهو حر. وقال يعقوب بن سفيان: أبو بكره نفيع بن الحارث، ونفيع، نافع، وزياد هم بنو سمية وهم إخوة»^(٢).

وفي سير أعلام النبلاء: «أبو بكره الثقفي الطائفي مولى النبي ﷺ. اسمه نفيع بن الحارث، وقيل: نفيع بن مسروح. تدلى في حصار الطائف ببكرة، وفر إلى النبي وأسلم على يده، وأعلمه أنه عبد، فأعتقه. ووفد على معاوية، وأمّه سمية، فهو أخو زياد بن أبيه

(١) البخاري، كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما، ص ١٢٥٢-١٢٥٣، حديث

(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

لامه». (١)

وقال ابن عساكر: «أبو بكرة بن الحارث بن كلدة بن عمرو. وقيل: كان عبداً للحارث بن كلدة، فاستلحقه، وسمية: هي مولاة الحارث، وكان أبو بكرة ينكر أنه ولد الحارث ويقول: أنا أبو بكرة مولى رسول الله، فإن أبى الناس إلا أن ينسبوني، فأنا نفع بن مسروح.. وقال ابن سعد: مات أبو بكرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان بالبصرة»^(٢).
وتتفق مصادر التاريخ على أنه الأخ غير الشقيق لزياد بن أبيه من أمه، وفضلاً عما أوردناه نجد هناك في استيعاب ابن عبد البر قوله: «أبو بكرة أخو زياد لأمه... سكن البصرة ومات بها سنة إحدى وخمسين»^(٣).

وقال الثقفى في الغارات: لما بلغ زياداً قدوم عبد الله بن عامر أميراً (على فارس) أقبل إلى قلعة بفارس فنزلها وهي اليوم تدعى قلعة زياد، ووثب بسر على بني زياد، عبد الله، وسالم، ومحمد، فأوقفهم، فخرج عنهم أبو بكرة من البصرة حتى قدم على معاوية، فقال معاوية: ما جاء بأبي بكرة إلا أمر أخيه زياد وبعد حديث طويل مع معاوية رضي الأخير وسامحه فطلب منه أبو بكرة الكتابة لبسر بن أرطاة ليطلق سراح أبناء زياد، قال لمعاوية: «فأكتب إلى بسر فليخل سبيل بني أخي فإنه قد حبسهم، فكتب إليه: أما بعد فإن أبا بكرة أتاني وألتمس لأخيه الأمان على ما أحدث والصلح على ما في يديه، فخل سبيل بني أخيه حين يقدم عليك، والسلام»^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج ٣، ص ٥ - ١٠.

(٢) ينظر: دراسة لمستبصر إماراتي بعنوان «نقض الحديث الموضوع ابني هذا سيد» نشرها في

موقع شبكة الكافي العقائدية، الرابط، <http://alkafi.net/vb/showthread.php?p=1687>

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٣، ص ٥٦٨.

(٤) الغارات، ص ٤٤٥-٤٤٧.

وفي عودة إلى نقاش كلمة (سيد) في حديث (ابني هذا سيد) أقول: إن تلك الكلمة تسببت في إحداث لغط وجدل كبيرين، ولا سيما وأنها بدت ميزاناً معيارياً فضائلياً بين طرفي النزاع التاريخي أهل البيت عليه السلام من جانب والسياسيين ورجلهم من جانب آخر، وأخذت هذه الكلمة مديات لا تقل عن المدى الذي وصلته كلمة (مولي) في تفسيراتهم وتعليلاتهم وحججهم، وتلاحظ أيضاً أنهم بالرغم من ذلك وكما فعلوا مع شقيقتها كلمة مولى اعترفوا ضمناً بالمعنى الحقيقي لها بعد أن أغلقت أمامهم الأبواب كلها ولم يشفع لهم التأويل.

المعنى اللغوي لكلمة: (سيد) في المعجم الوسيط: «السَّيِّدُ: المالكُ. والسَّيِّدُ المَلِكُ. والسَّيِّدُ المَوْلَى ذو العبيد والخدم. والسَّيِّدُ المُتَوَلَّى للجماعة الكثيرة. والسَّيِّدُ كُلٌّ من افْتَرَضَتْ طاعته. والسَّيِّدُ لقبٌ تشریف يخاطب به الأشراف من نسل الرسول. وسَيِّدٌ كل شيء: أشرفه وأرفعُه. يقال: القرآن سَيِّدُ الكلام. والجمع: سادة، وسيائد»^(١).

وفي لسان العرب، «سيد: الكلام نتلوه وقيل في قوله عز وجل وسيداً وحصوراً. السيد الذي يفوق في الخير قال ابن الأنباري: إن قال قائل: كيف سمى الله عز وجل يحيى سيداً وحصوراً والسيد هو الله إذ كان مالك الخلق أجمعين ولا مالك لهم سواه؟ قيل له لم يُرد بالسيد ههنا المالك وإنما أراد الرئيس والإمام في الخير كما تقول العرب فلان سيدنا أي رئيسنا والذي نعظمه. وسادَ قومَه يسودُهم سيادةً وسودداً وسيدودةً فهو سيِّدٌ. وتقول سَوَدَ قومَه وهو أسودٌ من فلان أي أجلُّ منه قال الفراء يقال هذا سيِّدٌ قومَه اليوم فإذا أخبرت أنه عن قليل يكون سيدهم قلت هو سائدٌ قومَه عن قليل وسيد. وأسَادَ الرجلُ وأسودَ بمعنى أي وَلَدَ غلاماً سيِّداً»^(٢).

(١) المعجم الوسيط.

(٢) ينظر: لسان العرب، حرف السين، مادة سود.

وفي مفردات الراغب: «والسيد: المتولي للسواد، أي: الجماعة الكثيرة، وينسب إلى ذلك فيقال: سيد القوم.. ويقال: ساد القوم يسودهم، ولما كان من شرط المتولي للجماعة أن يكون مهذب النفس قيل لكل من كان فاضلاً في نفسه: سيد، وعمل ذلك قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾^(١) وقوله: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا﴾^(٢) فسمى الزوج سيداً للسياسة زوجته، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أِطْعَمْنَا سَادَتَنَا﴾^(٣) أي ولاتنا وسائسنا»^(٤).

ومع ذلك، ولكي يمسخوا معنى الكلمة ويربطوا معناها بالصلح وبحراكمهم السياسي، قالوا: «والسؤدد يدل على رئاسة مع انتفاع فإذا فقد الانتفاع فقدت السيادة»^(٥) ومعنى هذا أن الحسن عليه السلام بتنازله فقد هذا المركز وفقد السيادة معه! وقالوا: «وفيه أن السيادة لا تختص بالأفضل، بل هو الرئيس على القوم والجمع سادة، وهو مشتق من السؤدد وقيل من السواد لكونه يرأس على السواد العظيم من الناس أي الأشخاص الكثيرة. وقال المهلب: الحديث دال على أن السيادة إنما يستحقها من ينتفع به الناس، لكونه علق السيادة بالإصلاح»^(٦).

ولمثل هذا ذهب القاري في مرقاة المفاتيح بقوله: «أصله سيود قلبت الواو ياء وأدغمت. قيل: وهو من لا يغلبه غضبه، وقيل: الذي يفوق في الخير، والأول أليق بما بعده الآتي، والأظهر الثاني لأنه إنما يطلق حقيقة على من جمع السيادة نسباً وحسباً وعلماً

(١) آل عمران ٣٩.

(٢) يوسف ٢٥.

(٣) الأحزاب ٦٧.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٣٢ مادة سود.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٩٨٦ م باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

وعملاً (ولعل الله): أتى بصيغة الرجاء إيماء إلى عدم وجوب شيء على المولى، فالمعنى أرجو منه سبحانه (أن يصلح به)، أي: بسببه (بين فئتين عظيمتين من المسلمين). قال التوربشتي: كفى به شرفاً وفضلاً فلا أسود ممن سماه رسول الله سيداً^(١)

وعليه خرجوا بنتيجة وقاعدة فقهية مفادها: (إن السيادة لا تختص بالأفضل، بل هو الرئيس على القوم) ليقولوا من خلالها: وبما أن الحسن عليه السلام تنازل واعتزل الرئاسة فلم يعد قادراً على نفع الناس ولم يعد رئيساً وخليفة؛ فإن معاوية الرئيس والخليفة هو السيد لأنه من ينفع الناس والقادر على الإصلاح! وفعلاً جاءوا بحديث يثبت هذا المعنى الهزيل في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) فضلوا فيه معاوية على عمر وقالوا إنه كان أسود من عمر كما في حديثهم: «حدثنا عبيد الله بن أحمد قال: حدثنا أحمد بن علي بن العلاء قال: زياد بن أيوب، قال: حدثنا أبو سفيان الحميدي قال: حدثنا العوام بن حوشب، عن جبلة بن سحيم قال: قال ابن عمر: ما رأيت رجلاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أسود من معاوية. فقال له رجل: ولا عمر؟ فقال: عمر كان خيراً منه، وكان هو أسود منه»^(٢) أي أن عمر كان خيراً من معاوية، ولكن معاوية كان أسود من عمر، واترك لكم حل الإشكال!.

ومع أنهم يعدون عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين بعد أن تجاوزوا الإمام الحسن عليه السلام، إلا أنهم مع ذلك يُسودون عليه معاوية بل ويعتبرون تراب حافر فرس معاوية أفضل منه، كما في قولهم: «سئل عبد الله بن المبارك: عمر بن عبد العزيز

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، ص ٣٩٧٠، حديث

رقم ٦١٤٤.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، الجزء الثامن، ص ١٥٢٩ - ١٥٣٠، حديث رقم

٢٧٨١.

أفضل أم معاوية؟ فقال غبارٌ دخل في أنف فرس معاوية حين قاتل مع رسول الله ﷺ أفضل من كذا عمر بن عبد العزيز^(١) وبالمحصلة والتعويض يكون معاوية أسود من عمر!.

ومن هذه القاعدة استنتجوا صفات الخليفة المفترض التي يمنع فقدانها ترشيحه للمنصب إلا بأسباب، والتي بزعمهم لم تكن موجودة عند الإمام الحسن (عليه السلام)، غير مدركين أن الإمام الحسن (عليه السلام) أرفع وأجل قدرا من أن تكون فيه بعض تلك الصفات التي أوردتها والتي تدل على القسوة والظلم، حيث يقول الباقلاني: «فإن قال قائل: فخرنا ما صفة الإمام المعقود له عندكم؟ قيل لهم: يجب أن يكون على أوصاف: منها أن يكون قرشيا من الصميم ومنها أن يكون من العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين ومنها أن يكون ذا بصيرة بأمر الحرب وتدبير الجيوش والسرايا وسد الثغور وحماية البيضة وحفظ الأمن والانتقام من ظالمها والأخذ لمظلومها وما يتعلق به من مصالحها ومنها أن يكون ممن لا تلحقه رقة أو هواده في إقامة الحدود ولا جزع لضرب الرقاب والأبشار ومنها أن يكون من أمثلهم في العلم وسائر هذه البواب التي يمكن التفاضل فيها إلا أن يمنع عارض من إقامة الأفضل فيسوغ نصب المفضول وليس من صفاته أن يكون معصوماً ولا عالماً بالغيب ولا أفرس الأمة وأشجعهن ولا أن يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قبائل قريش»^(٢).

ولكي لا نجانب الحقيقة نلزم الباقلاني بما ألزم به نفسه، فهو يقول: «فإن قالوا: فما تقولون إذا كانت الأمة مفرقة على مذاهب مختلفة وآراء متضادة... قيل لهم فكلهم ولاية هذا الأمر فأيهم سبق بالعقد لرجل تمت بيعته ولزمت طاعته وصار المخالف عليه باغياً،

(١) موقع حقيقة الأخوان المسلمين <http://www.anti-ikhwan.com/?p=75>

(٢) تمهيد الأوائل، الباقلاني، ص ٤٧١

يجب حربه»^(١) بمعنى أن نظرية المفضول والفاضل لا يمكن تطبيقها مع وجود بيعة شرعية لخليفة مسلم بايعته الأمة ورضيت به، ومن لا يرضى ويعترض على هذه البيعة ويخرج على الخليفة يجب على الأمة مقاتلته لا أن تصنع له الأعذار لكي تشرعن حكمه.

وأنا حينما قلت: أن الإمام الحسن عليه السلام أرفع وأجل قدراً من أن تكون فيه بعض تلك الصفات، إنما عني أن ما وضعته مدرستنا للخليفة الشرعي من شروط يختلف بعضها كلياً عن شروط مدرسة الخلفاء ويختلف القسم الآخر جزئياً، ولتقي معهم في أقسام أخرى، والحقيقة أن أول ما يجب معرفته في هذا الباب أن المصطلح المستخدم في مدرستنا هو (الإمامة) وليس (الخلافة) الشائع في المدارس الأخرى، ومن الممكن توضيح بعض الاختلافات باختصار مثل:

وجوب العدل بمعناه الأوسع بينما تعتقد مدرسة الخلفاء بأن أقل ما يجب في الخليفة من هذه الخصلة أن يكون ممن يجوز قبول شهادته.

والنسب المعول عليه عندنا أن يكون الإمام هاشمياً قرشياً من آل الرسول صلّى الله عليه وآله تحديداً، وعندهم مختلف بشأنه.

والعصمة بمعنى استحالة ارتكاب الإمام لأي من الرذائل صغيرها وكبيرها، وما ظهر منها وما بطن، وهم لا يشترطون ذلك.

والعلم والأعلمية حيث ترى مدرستنا أن الإمام ليس مجرد رجل سياسة وحرب، بل هو الحافظ للشرع بعد النبي صلّى الله عليه وآله والمبين للناس أحكام الدين والكاشف لأسراره، ولذا ينبغي أن يكون علمه منسجماً مع هذه المهمة العظيمة. وعندهم أقل ما يكفيه منه أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين بالحلل والحرام.

ونعتقد أن الإمام ينبغي أن يكون أفضل أهل زمانه في صفات الكمال من شجاعة، وكرم، وعفة، وصدق، وعدل، وتدبير، وعقل، وحكمة، وخلق. ولا يشترطون هم في الخليفة أو الإمام أن يكون أفضل أهل زمانه.

والبلوغ الذي ترى مدرستنا انه ليس شرطاً ما دام الإمام مسدداً بالعلم المكتسب والعلم اللدني، بينما يوجبونه هم مع أنهم خالفوه غالباً. ولقد أجاد الشيخ آل ياسين وصف هذا الاختلاف بيننا وبين الآخرين بقوله: «وخفي عليهم أن الإمامة في الإسلام دين كالنبوة نفسها، ويجوز فيها ما يجوز في النبوة، ولا يجوز عليها ما لا يجوز على النبوة في عظمتها. فما شأن الاجتهاد بالسن في مقابل النص على التعيين.. وما شأن الملاحظات السياسية في مقابل كلمات الله وتصريحات نبيه ﷺ. وكانت سن علي يوم وفاة الرسول ﷺ سن عيسى بن مريم يوم رفعه الله، أفيجوز لعيسى أن ينتهي بقصارى نبوته في الأرض إلى هذه السن ولا يجوز لعلي أن يبتدئ خلافته في ثلاث وثلاثين»^(١)

ومما نلتقي فيه معهم: الذكورة، والعقل، والشجاعة، والحرية، العدالة، سلامة الحواس والاغضاء والإسلام، وهذه المؤهلات تخص الأئمة الاثني عشر من أهل البيت ﷺ المنصوص على خلافتهم، وأما في عصر غيبة الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر ﷺ، فلا يشترط توفر العصمة فيمن ينوب عنه وهم الفقهاء العدول.

أقف هنا قليلاً لأقول من أجل التوضيح لا أكثر: إن قولنا بالإمامة وقول غيرنا بالخلافة مبني على حقيقة إسلامية عرفناها وجهلناها غيرنا من المسلمين؛ وذلك أننا نرى الدين ليس عقيدة يتعبد بها الإنسان فتحسب وإنما هو نظام سياسي شامل مبني على أسس من ترابط الجانبين العبادي والحياقي ترابطاً مصيرياً شاملاً كاملاً، مثله أحسن تمثيل قول

(١) صلح الحسن، الشيخ آل ياسين، ص ٤٠-٤١.

الإمام علي عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» بينما رأى الآخرون بسبب ما تعرضوا له من حيرة منبعها طرائق التعيين المختلفة الأولى التي لم تتطابق، أن الدين شيء والسياسة شيء آخر، الدين للتعبد والسياسة لقيادة الحياة المدنية ولذا يمكن للخليفة أن يكون بمستوى يزيد الفاسق مثلاً أو خلفاء بني العباس المشهورين بالتحلل الأخلاقي.

والغريب أن المفكرين الغربيين انتبهوا إلى هذا الترابط بما لم ينتبه إليه المسلمون وقد نقل الشيخ باقر شريف القرشي رحمه الله بعض أقوالهم الدالة على هذا الفهم مثل قول الدكتور (شاخ): «إن الإسلام يعني أكثر من دين، إنه يمثل نظريات قانونية وسياسية وجملة القول إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً» وقول العلامة (جيب): «إن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وله قوانينه وأنظمته الخاصة» وقول (لورافيتشا فاليري): «إن الناس لتلهف إلى دين يتفق وحاجاتهم الدنيوية ولا يكون قاصراً على إرضاء مشاعرهم وإحساساتهم ويريدون أن يكون هذا الدين وسيلة لأمنهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وليس هناك من دين تتوفر فيه هذه المزايا كلها بشكل رائع سوى دين الإسلام، إنه ليس مجرد دين فحسب بل إن فيه حياة للناس لأنه يعلمهم كيف يحسنون التفكير والكلام ويحضهم على فعل الخير وصالح الأعمال»^(١).

والخلاصة: يتبين ظاهراً أن فهم المسلمين الأوائل لكلمة (سيد) يختلف جذرياً عما أراد السياسيون للناس أن يفهموه من معناها، والحديث الذي أورده الحاكم في المستدرك يفضح مقدار التلاعب الذي قام به الإفتائيون من وعاظ السلاطين لأجل

أن يشوهوا الحقائق أمام الناس ويصرفوا أذهانهم عن معانيها الحقيقية. فالسيادة التي قصدتها رسول الله ﷺ في مواضع أخرى ليس من بينها حديث «ابني هذا سيد»، سيادة ثابتة غير قابلة للنزع تبعاً لمستجدات الأحداث وغير قابلة للتغيير أو للتنازل أو الهبة للغير وهذا لا يأتي من دواخل الفكر الشيعي فقط، وإنما هناك دلائل كثيرة عليه في مدرسة الخلفاء ومنها حديث أبي هريرة: «عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: كنا مع أبي هريرة فجاء الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام علينا فسلم فرددنا عليه السلام ولم يعلم أبو هريرة فقلنا له: يا أبا هريرة هذا الحسن بن علي قد سلم علينا، فلحقه وقال: وعليك السلام يا سيدي. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيد»^(١)، ليس لأن النبي ﷺ قال: ابني هذا سيد وإنما لأنه عليه السلام وصف الحسن بصفة (سيد) في أكثر من حديث نبوي منها «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» أي هي مرتبة خاصة بالحسن بأمر النبي عليه السلام.

إن معنى السيادة في معتقدينا يجيء موازياً لمعنى الولاية والإمامة، أي أنها ركن من أركان الدين، ونحن نرى أن كلمة (سيد) لا تطلق جزافاً، وليست كلمة عابرة لا أهمية لها. وعندما تطلق على أحد ما يستحقها يراد بها أنه جامع للشرائط ولصفات كريمة في ذاته وصفاته وأفعاله وبره وخيره وأخلاقه وشمائله وسيرته وسلوكه وفعله، وفيه كل صفات الكمال وما يبين أنه يسود على غيره ويعلو عليه بعلمه وحلمه وبره وصبره وشجاعته. ولا سيما من كان حميد الخصال كريم الفضائل، ولا تطلق على كل رئيس إلا مجازاً، فضلاً عن أن رسول الله ﷺ حدد السيادة باثني عشر قرشياً وسماهم بالاسم.

• القاعدة السابعة: وفيه إطلاق الابن على ابن البنت.

(وقد انعقد الإجماع على أن امرأة الجد والد الأم محرمة على ابن بنته، وأن امرأة ابن البنت محرمة على جده، وإن اختلفوا في التوارث) ولكن السياسيين غيروا هذا المفهوم وأوحوا للناس سواء في زمن الأمويين أو العباسيين بأن موروثهم القبلي الجاهلي لا يسمى ابن البنت ابناً ولا يعترف ببنته! ولذا قالوا في أمثالهم: (ابن أبئك؛ ابنك وابن ابنتك لا).

• القاعدة الثامنة: صحة رأي من قعد عن القتال مع معاوية وعلي عليه السلام شرعاً:

إذ قال: «واستدل به على تصويب رأي من قعد عن القتال مع معاوية وعلي وإن كان علي أحق بالخلافة وأقرب إلى الحق، وهو قول سعد بن أبي وقاص وابن عمر ومحمد بن مسلمة وسائر من اعتزل تلك الحروب» وهي القاعدة التي أخذ بها ابن تيمية في فقهه وقال: «وسائر الأحاديث الصحيحة تدل على أن القعود عن القتال والإمساك عن الفتنة كان أحب إلى الله ورسوله. وهذا قول أئمة السنة وأكثر أئمة الإسلام. وهذا ظاهر في الاعتبار، فإن محبة الله ورسوله للعمل بظهور ثمرته، فما كان أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم كان أحب إلى الله ورسوله. وقد دل الواقع على أن رأي الحسن كان أنفع للمسلمين؛ لما ظهر من العاقبة في هذا وفي هذا»^(١).

وتدل هذه القاعدة على نوع الحراك السياسي وكيف غير المفاهيم والقيم والشرائع.

• القاعدة التاسعة: تصويب من قاتل مع علي عليه السلام. ولكن الفريقين مأجورون وفق قاعدة: (اجتهد فأخطأ):

قال: «وذهب جمهور أهل السنة إلى تصويب من قاتل مع علي لامثال قوله تعالى: ﴿وَلِنْ طَافِئَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية، ففيها الأمر بقتال الفئة الباغية، وقد ثبت أن

(١) منهاج السنة، ج ٨، ص ١٤٥-١٤٦.

من قاتل علياً عليه السلام كانوا بغاة، وهؤلاء مع هذا التصويب متفقون على أنه لا يذم واحداً من هؤلاء بل يقولون اجتهدوا فأخطأوا، وذهبت طائفة قليلة من أهل السنة - وهو قول كثير من المعتزلة - إلى أن كُلاً من الطائفتين مصيب، و طائفة أخرى إلى أن المصيب طائفة لا بعينها^(١). وتجدهم في هذه القاعدة البائسة يتخبطون فلا هم يعترفون بالحقيقة ويقرون بأن من كان مع علي عليه السلام كان على صواب، ولا هم يقرون بخطأ من حارب علياً وقاتله، وقتل آلاف المسلمين ظلماً وبهتاناً.

• القاعدة العاشرة: عدم خروج الفريقين المتقاتلين من الملة:

قال: «في الحديث دليل على أن واحدا من الفريقين لم يخرج بما كان منه في تلك الفتنة من قول أو فعل عن ملة الإسلام، لأن النبي صلى الله عليه وآله جعلهم كلهم مسلمين مع كون إحدى الطائفتين مصيبة والأخرى مخطئة، وهكذا سبيل كل متأول فيما يتعاطاه من رأي ومذهب إذا كان له فيما تناوله شبهة، وإن كان مخطئاً في ذلك، ومن هذا اتفقوا على قبول شهادة أهل البغي ونفوذ قضاء قاضيه، واختار السلف ترك الكلام في الفتنة الأولى، وقالوا: تلك دماء طهر الله عنها أيدينا فلا نلوث به ألسنتنا»^(٢) وهذا جزء من ثقافة التأويل التي بثها السياسيون.

• القاعدة الحادية عشرة: ما فعله الحسن عليه السلام أفضل عند الله مما فعله الحسين عليه السلام:

قال: «وكان ما فعله الحسن عليه السلام أفضل عند الله مما فعله الحسين، فإنه وأخاه سيدا شباب أهل الجنة، فقتل الحسين شهيداً مظلوماً، وصار الناس في قتله ثلاثة أحزاب: حزب يرون أنه قتل بحق، ويحتجون بما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: من جاءكم

(١) ينظر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٦٦-٦٨.

(٢) مرقاة المفاتيح، ص ٣٩٧٠، حديث رقم ٦١٤٤.

وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق بين جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان.. قالوا: وهو جاء والناس على رجل واحد، فأراد أن يفرق جماعتهم. وحزب يرون أن الذين قاتلوه كفار، بل يرون أن من لم يعتقد إمامته كافر. والحزب الثالث - وهم أهل السنة والجماعة - يرون أنه قتل مظلوماً شهيداً^(١)

ولك أن تندesh من مقدرة السياسيين في التأثير على الشارع الإسلامي بهذه الدرجة العالية لدرجة أنهم تمكنوا من استغلال العقل المسلم وإحداث شغب كلامي حول كلمة وردت في حديث مشكوك بصحته واقنعوا الناس، بل وشغلوهم بهذه الفوضى عن متابعة أمور الدين والدنيا الأكبر شأنًا. وهم ييغون من وراء هذه القاعدة تسقيط المشروع الحسيني بعد أن اعتقدوا أنهم سقطوا المشروع الحسني!.

وفي العودة إلى أصل الموضوع، أقول: إن السياسيين العرب نجحوا بالتأثير على جيش الإمام الحسن عليه السلام.

سواء بمباغتته بالمسير والوصول إلى جسر منبيج أو بالشائعات التي نشرها بين الناس أو بالترغيب والرشا العظيمة التي دفعوها إلى وجوه جيشه أو بالتهديد الذي أرسلوه وأوصلوه إلى من لم يطعمهم أو يتنازل لهم. كل ذلك والحسن عليه السلام كان لما يزل مشغولاً بترتيب بيت حكومته الجديدة وهو لا يملك سوى بعض الأصحاب المخلصين الذين يعينونه على ترتيب الأوضاع الداخلية، فلما فاجأه معاوية بجيشه العظيم الجرّار أصبح أمام خيارين: إما الاستسلام المهين، أو خوض حرب خاسرة وغير متكافئة، وبالرغم من صعوبة التحديد اختار أن يقاتل الباغين والتصدي لهم، ولكنه بعد أن نزل بقواته المدائن وبعد أن طعنه أحد أتباع معاوية المدسوسين بين جنده، ولاذ بعض

(١) منهاج السنة، ج ٨، ص ١٤٧.

من كان في صفوف جيشه بمعاوية طمعاً بالدنيا، وجد ظهره مكشوفاً فوبخ المتخاذلين لأنهم لم يعينوه في حربه ووافق على الصلح، قال ابن أبي الحديد: «وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب... إلى معاوية يسأله المسألة واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيه وأن لا يبايع لأحد من بعده»^(١).

(١) شرح نهج البلاغة، م ٤ ج ١٦ ص ٨.

ترابط منهج الإمامة المعصومة وفهم الحسن عليه السلام للصّح

مما لا شك فيه أن الإمامة المعصومة التي هي من لطف الله بعباده حلقات مترابطة ذات هدف واحد ومهام مختلفة ولا يمكن التقليل من مهمة أحد الأئمة حبا بمهمة الآخر، يعني لا يجوز تفضيل احدهم عليهم نتيجة فعل كبير قام به. وجل ما مأمور به الإنسان هو أن يعرف إمام زمانه ويتمسك به، فقد صح عن أبي جعفر عليه السلام قوله: «من مات وليس له إمام فميته ميتة جاهلية، ومن مات وهو عارف لإمامه لم يضره، تقدم هذا الأمر أو تأخر، ومن مات وهو عارف لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه»^(١) ومن يتمسك بإمام زمانه عليه أن يتمسك بصحة إمامته وصحة إمامة المعصومين السابقين واللاحقين، عن محمد بن سليم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «رجل قال لي: اعرف الآخر من الأئمة ولا يضرك أن تعرف الأول، فقال: لعن الله هذا؛ فإنني أبغضه ولا أعرفه، وهل عُرِفَ الآخر إلا بالأول»^(٢).

وعن صفوان عن ابن مُسكان قال: «سألت الشيخ عن الأئمة، قال: من أنكر واحدا من الأحياء فقد أنكر الأموات»^(٣)، وعن ابن أبي يعفور قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم: من ادعى إمامة

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٧٨، حديث رقم ٥، باب أنه من عرف إمامه لم يضره تقدم هذا الأمر أو تأخر.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٩، حديث ٧، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٠، حديث ٨.

من الله ليست له، ومن جحد إماماً من الله، ومن زعم أن لهما في الإسلام نصيباً»^(١).

والذي أريده من هذه المقدمة الإشارة والتأكيد على عظم تقصير من ينسى إمامة الحسن عليه السلام أو يتهاون بحقوقها وحقوقها فلا يكاد يذكره إلا نادراً بحجة انه صالح معاوية وتنازل عن الخلافة، خلافا لما قام به الحسين عليه السلام الذي حارب واستشهد، فلولا رسول الله ﷺ ما عرف علي عليه السلام، ولولا علي ما عرف الحسن عليه السلام، ولولا الحسن ما عرف الحسين عليه السلام.

وعلى الأمة أن تفهم عظمة الصلح الذي عقده الإمام الحسن عليه السلام على وجهه لا كما يتصورونه، فقد كان الإمام الحسن عليه السلام مدركا وجوب الصلح فضلا عما يملكه من معلومات عن هذا الوجوب الذي تجوزه الشريعة ولذا تراه يحتج بهذا الفهم فيما احتج به على صاحبه أبي سعيد الذي سأله: «يا ابن رسول الله لم هادنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وأن معاوية ضال باغ؟ فأجابه: يا أبا سعيد أأستحجة الله تعالى على خلقه وإماماً عليهم بعد أبي؟ قال: بلى قال: أأست الذي قال رسول الله لي ولأخي الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ قال: بلى قال: فأنا إمام لو قمت وأنا إمام لو قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل»^(٢).

هنا أذكر بأن رسول الله في أكثر من مناسبة وعد عليا بأنه سيقاقل على تأويل القرآن كما قاتل هو على تنزيله؛ ولعدم وجود فاصل زمني أو نوعي بين مشروع قتال الإمام

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٠، حديث ١٢.

(٢) صلح الحسن، ص ٢٠٠.

علي عليه السلام للبغاة ومشروع قتال الإمام الحسن عليه السلام لهم دفاعاً عن القرآن فمن اليقين أن الإمام الحسن عليه السلام مشمول بهذه النبوءة الصادقة، على أن قتاله لهم هو استمرار لقتال أبيه لهم وأنه يقاتل أيضاً على التأويل كما قاتل جده على التنزيل.

لقد أدرك الحسن عليه السلام كل تلك الأقوال التي قالها جده النبي عن الصلح^(١)، وللرواة أحاديث كثيرة عن نبوغ الإمام الحسن عليه السلام الباكر، «فقد ملك بمقتضى ميراثه من الذكاء وسمو الإدراك ما لا يملكه غيره، فكان لا يمر عليه شيء إلا حفظه، وكان يحضر مجلس جده عليه السلام فيحفظ الوحي فينطلق إلى أمه فيلقيه عليها فتحدث به الإمام علياً فيتعجب ويقول: من أين لك هذا؟ فتقول: من ولدك الحسن»^(٢)

كما ورد في الأخبار أن أمه فاطمة عليها السلام كانت تعلمه ما تتلقاه من أبيها وأن الإمام علي عليه السلام كان ينصح الحسن إذا حضر ويكتب له إذا غاب، وبذلك تكاملت شخصيته على يد أعظم المعلمين في الكون.

وقد حفظ الإمام الحسن عليه السلام عن جده الكثير من الأحاديث التي أخرجها أهل كتب الحديث عنه مع أنه لم يتجاوز الثامنة من عمره الشريف حينما مات جده النبي عليه السلام. بمعنى أن الإمام الحسن عليه السلام لم يكن قليل علم لكي يتخبط بتصرفاته فيأتي بما يندم عليه حاضراً أو مستقبلاً، أو يخالف الشريعة وقوانين الدين، فلقد كان ملماً بكل تلك العلوم

(١) هناك الكثير من الدلائل على أن الحسن سمع من جده كما لا بأس به من الأحاديث، وفي المستدرک: (عن أبي الحوراء، عن الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات في الوتر: اللهم اهدنا فيمن أهديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت) حديث المستدرک ج ٣، ص ١٨٨، ٣٩٩/١، ٤٨٠.

(٢) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ص ٤٠.

وعلمه هو الذي دفعه إلى عقد الصلح، فكان صلحه في تأثيره وأثره كحرب الإمام الحسين عليه السلام في تأثيرها.

والذين إدَّعوا أن معاوية هو صاحب فكرة الصلح وأن الإمام الحسن عليه السلام كان يريد المغامرة بالإسلام وبالتشيع بخوض حرب خاسرة، إنما أرادوا تبيان فضيلة مصنوعة لمعاوية، كما في مرقاة المفاتيح: «عَلِمَ (الحسن) أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على أن يشترط عليه أن لا يطلب أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه فأجابه معاوية إلا أنه قال: عشرة أنفس فلا أئمنهم، فراجع الحسن عليه السلام فيهم، فكتب إليه يقول: إني قد آليت إنني متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده، فراجع الحسن إنني لا أبايحك أبدا وأنت تطلب قيسا أو غيره بتبعة قلت أو كثرت، فبعث إليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال: اكتب ما شئت فيه، فأنا ألتزمه فاصطلحا على ذلك، واشترط عليه الحسن أن يكون الأمر له من بعده، فالتزم ذلك كله معاوية، واصطلحا على ذلك»^(١).

فالقاري سرق كرامة الإمام الحسن عليه السلام في قوله دفاعاً عن الصلح مع معاوية التي مثلها قوله الشريف: «ولكنني خشيت أن تأتي يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً تشخب أوداجهم دما كلهم تستعدي الله فيم هريق دمه» ونسبها إلى معاوية الذي كان البادئ في حرب صفين والبادئ في حرب الإمام الحسن، والذي كان مستعداً لخوض عشرات الحروب الأخرى وسفك دم ألوف أخرى من المسلمين في سبيل الحكم.

وقال ابن بطلان: «وبأن الحسن نادى معاوية يطلب الصلح» وهذا لم يعجب العسقلاني؛ ليس لكونه مجرد تهافت لأن الإمام ومعاوية لم يلتقيا قبل توقيع الصلح؛

(١) مرقاة المفاتيح، ص ٣٩٧٠، حديث رقم ٦١٤٤.

وإنما لأنه لا يتفق مع ما روج له السياسيون، فقال: «وفي صحة هذا نظر من أوجه: الأول: أن المحفوظ أن معاوية هو الذي بدأ بطلب الصلح». إذن برأي العسقلاني أن معاوية طلب الصلح وليس الحسن عليه السلام. ولكنه لم يأت بهذا القول من أجل الحقيقة وإنما جاء به دفاعاً عن معاوية، وترسيخ فكرة أنه مصلح.

ولتأكيد قصة (المصلح ورجل السلام المزعوم) معاوية الذي كان حسب زعمهم بطل الصلح مع الحسن عليه السلام أوردوا قصة ثانية تقول: إن معاوية طلب الصلح مع قيس بن سعد أيضاً، حيث قال العسقلاني: وأخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر بن الزهري قال: «وكان قيس بن سعد بن عبادة على مقدمة الحسن بن علي، فأرسل إليه معاوية سجلاً قد ختم في أسفله فقال: اكتب فيه ما تريد فهو لك، فقال له عمرو بن العاص: بل نقاتله، فقال معاوية وكان خير الرجلين -: على رسلك يا أبا عبد الله، لا تخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتل عددهم من أهل الشام، فما خير الحياة بعد ذلك؟ وإني والله لا أقاتل حتى لا أجد من القتال بدءاً»^(١)، وللتأكيد على أن هذا الحديث مجرد هراء وجدت فيه صوراً مقتبسة حرفياً من قصة أخرى، منها:

- إن الحوار بين معاوية وعمرو بن العاص جاء متطابقاً في الحديثين، وهذا محال.
- إن معاوية هو الذي بادر إلى الصلح في الحديثين وهذا محال أيضاً.
- وصفهم لمعاوية بأنه (وكان خير الرجلين) في الحديثين والناس تعرف أن (كِلَا الأخوين.... ولكن).
- تخرج معاوية من قتل المسلمين في الحديثين لدرجة أنه كان يرى الموت أطيّب من الحياة إذا أسهم في قتلهم، كما في قولهم: (فما خير الحياة بعد ذلك) وهذا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٦٨.

مخالف لما عرف عنه من رغبة ملحة في القضاء على العلويين والخط العلوي بعد أن أمر قواده بتعقبهم في الآفاق.

• إرسال معاوية صحيفة فارغة ليكتب فيها قيس شروطه كما هي الصحيفة التي أرسلها إلى الإمام الحسن عليه السلام. وقيس ليس الحسن عليه السلام، لا من حيث المنزلة ولا من حيث القوة والأتباع.

• قولهم: إن معاوية قال: «وإني والله لا أقاتل حتى لا أجد من القتال بداً» وهذا خلاف الواقع لأن معاوية الذي لم يقاتل في سبيل نصرة الإسلام أبداً لأنه لم يكن يرى فيه بداً، قاتل من لم يقاتله، قاتل عليا وتسبب بموت أكثر من مئة ألف مسلم فيهم عدد كبير من الصحابة، وقاتل الحسن عليه السلام!.

أما تكملة شرح العسقلاني لحديث البخاري فتأتي لتأكيد جوانب مهمة من سياسة التحريف التي اتبعت في معالجة سياقات الصلح، حيث قال العسقلاني: «فقال عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة: نلقاه فنقول له الصلح (أي نشير عليه بالصلح)، وهذا ظاهره أنها بدءاً بذلك، والذي تقدم في كتاب الصلح أن معاوية هو الذي بعثها فيمكن الجمع بأنهما عرضا أنفسهما فوافقهما ولفظه هناك «فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس، وهو الذي ولاه معاوية البصرة بعد الصلح»، فقال معاوية: «اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه» أي ما شاء من المال (وقولا له) أي في حقن دماء المسلمين بالصلح (واطلبا إليه) أي اطلبا منه خلعه نفسه من الخلافة وتسليم الأمر لمعاوية وابتدأ له في مقابلة ذلك ما شاء «قال فقال لهما الحسن بن علي عليه السلام: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالاً فإنه يعرض عليك كذا وكذا

ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا؟ قالاً: نحن لك به فما سألها شيئاً إلا قالاً نحن لك به، فصالحه»^(١).

ثم يأتي ابن بطل يستخلص من هذا الحديث الموضوع المصنوع ما يثبت بان معاوية هو الذي أصلح بين الفئتين العظيمتين وليس الحسن عليه السلام، وأن مطالبة الحسن عليه السلام بالمال الكثير إنما لكي يوزعه على من يرفض الصلح من جنده، فقال: «هذا يدل على أن معاوية كان هو الراغب في الصلح وأنه عرض على الحسن عليه السلام المال ورغبه فيه وحثه على رفع السيف وذكره ما وعده به جده عليه السلام من سيادته في الإصلاح به، فقال له الحسن: إنا بنو عبد المطلب أصبنا من هذا المال، أي إنا جبلنا على الكرم والتوسعة على أتباعنا من الأهل والموالي وكنا نتمكن من ذلك بالخلافة حتى صار ذلك لنا عادة»^(٢) وقوله إن هذه الأمة أي العسكريين الشامي والعراقي (قد عاثت) أي قتل بعضها بعضاً فلا يكفون عن ذلك إلا بالصفح عما مضى منهم والتآلف بالمال. وأراد الحسن عليه السلام بذلك كله تسكين الفتنة وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال، فوافقاه على ما شرط من جميع ذلك والتزما له من المال في كل عام والثياب والأقوات ما يحتاج إليه لكل من ذكر.

وقوله: من لي بهذا، أي: من يضمن لي الوفاء من معاوية؟ فقالوا: نحن نضمن لأن معاوية كان فوض لهما ذلك، ويحتمل أن يكون قوله: أصبنا من هذا المال، أي فرقنا منه في حياة علي وبعده ما رأينا في ذلك صلاحاً فنبه على ذلك خشية أن يرجع عليه بما تصرف فيه».

أسأل: إذا ما كان هذا الأمر صحيحاً، فلماذا لم يلتزم الرجلان بتعهداتهما والتزاماتهما

(١) فتح الباري - ج ١٣، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه - ج ١٣، ص ٧٠.

وهما اللذان ضمنا للحسن عليه السلام أنها قادران على دفع معاوية ليفي بشروط الصلح ولهما القدرة على ذلك؟ .

ويُستثمر التخطيط المقصود والمتعمد ليصل إلى مديات تؤكد بأن السياسة لا تستحي من عمل القبيح^(١)، ففي كتاب (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) لأبي القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري تأكيد آخر على أن معاوية هو من طلب الصلح، كما في قولهم: «عن حاتم بن أبي صغيرة، عن عمرو بن دينار قال: عَلِمَ معاوية أن الحسن بن علي كان أكره الناس للفتنة، فلما توفي علي بعث، فأصلح الذي بينه وبينه سرا، وأعطاه معاوية عهدا إن حَدَّثَ به حَدَّثٌ والحسن حي ليجعلن الأمر إليه. فلما توثق منه قال عبد الله بن جعفر: إني لجالس عند الحسن إذ ذهبت لأقوم، فقال: يا هناه اجلس. فجلست، فقال: إني قد رأيت رأيا، وإني أحب أن تتابعني عليه. قلت: وما هو؟ قال: قد رأيت أن أغدو إلى المدينة فأنزلهما، وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء وقطعت الأرحام وعطلت الحدود والفروج وقطعت السبل. ثم قال: ادعوا لي الحسين. فأتيت به، فأعاد مثل قوله لأبي جعفر، فقال الحسين: أعيذك بالله أن تكذب علياً في قبره وتصدق معاوية. فقال الحسن: والله ما أردت أمراً قط إلا خالفتني إلى غيره، ولقد هممت أن أقذفك في بيت وأطينه عليك حتى أقضي من أمري. فلما رأى الحسين غضبه، قال: أنت أكبر ولد علي وخليفته، فرأينا لرأيك تبع، فافعل ما بدا لك. فقام الحسن فخطب فقال: أيها الناس إني كنت أكره الناس لأول هذا الأمر، وإني أصبحت لذي حق أديت إليه حقه أحق مني، أو حق حدث في صلاح أمة محمد، وإن الله قد ولاك يا معاوية هذا الحدث، فخير يعلمه عندك أو شر يعلمه فيك،

(١) قال علي عليه السلام: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر، لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفر، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة».

وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين، ثم نزل»^(١) ولا أدري متى كان معاوية صاحب حق لكي يعترف له الحسن عليه السلام بحقه، ومتى كان الطليق أحق من ابن رسول الله بالخلافة! إن هذا الاتجاه المنحرف قام على أسس منحرفة ولكنها دقيقة التخطيط، ويستشف من تتابع الأحداث أن الإمام الحسن عليه السلام كان قد كلم أصحابه بالصلح بعد أن وصله خبر مسير معاوية بأهل الشام، وبعد أن رأى تنازل همتهم وضعف روحهم القتالية وتحطم معنوياتهم، فقام جواسيس معاوية المتواجدين ضمن صفوف جيش الإمام عليه السلام بالكتابة إلى معاوية بما دار وحدث، فاستغل معاوية السياسي الداهية الذي لا يردعه رادع ما اعتبره ثغرة قاتلة في منظومة قوة الحسن عليه السلام العسكرية وقرر إرسال رسالتين لهذا الجيش شبه المفكك:

الأولى: تفيد بأنه حريص كذلك على الصلح وطالب له كما هو الحسن عليه السلام، وأراد أن يوهم جيش الحسن بأن ما قاله الحسن عن الصلح صحيح كلياً وها هو يصلح حتى من دون أن يستشيرهم، وضمن التوجه الإعلامي المضاد نفسه «وجه معاوية وفداً إلى الحسن بن عليّ يتكوّن من المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أم الحكم»^(٢)، وأتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من عنده وهم يقولون ويُسْمِعُونَ الناس (يوهمونهم): «إنّ الله حقن بآبِنا رسول الله الدماء، وسكن به الفتنة، وأجاب إلى الصلح فاضطرب العسكر ولم يشكك الناس في صدقهم فوثبوا بالحسن فانتهبوا مضاربه وما فيها، فركب الحسن فرساً ومضى في مظلم ساباط، وقد كمن

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ٨، ص: ١٥٣٩، حديث ٢٧٩٩، سياق ما روي من إمارة معاوية وتسليم الحسن بن علي الأمر إليه.

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي، ينسب إلى أمه أم الحكم أخت معاوية.

الجراح بن سنان الأسدي^(١) فجرحه بمعول في فخذه وقبض على لحية الجراح ثم لواها فـدق عنقه»^(٢)

والثانية: جاء بها الطبري في قوله: «بايع الناس الحسن بن علي^{عليه السلام} بالخلافة، ثم خرج بالناس حتى نزل المدائن... فبينما الحسن^{عليه السلام} في المدائن إذ نادى مناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا، فانفروا، ونهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطاً كان تحته»^(٣).

فهل يعقل أن ينتهب متاع الإمام^{عليه السلام} مرتين في وقعتين متشابهتين متطابقتين كلياً خلال أيام معدودات من قبل بعض جنده أم أن الخلط والتخبط هو الذي تلاعب بوقائع التاريخ فتنوعت الروايات وتعارضت فيما بينها؟ .

إن الذين يدعون أن معاوية هو صاحب فكرة الصلح تأثروا كثيراً بمضمون هذه الروايات، فهم في قولهم (وأجاب إلى الصلح) أرادوا إخبار الناس بأن معاوية طلب من الإمام الحسن^{عليه السلام} عقد الصلح والإمام رضي به وأجابه!، وما يؤكد رغبة معاوية بأن يكون هو بطل الصلح لاعتبارات كثيرة جداً يترجمه مضمون هذه الرواية حرفياً،

(١) كل ما وجدته عن هذا الرجل أنه كان يرى رأي الخوارج، وله قبل هذا التاريخ وقائع ذات نفس خارجي منها ما جاء في قول ابن الأثير: ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وكانت وقعة نهاوند: (وثار أهل الكوفة على سعد في غضون هذا الحال، فشكوه في كل شيء حتى قالوا: لا يحسن يصلي؛ كان الذي نهض بهذه الشكوى رجل يقال له: الجراح بن سنان الأسدي في نفر معه، فلما ذهبوا إلى عمر فشكوه، قال لهم عمر: إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الحال عليه، وهو مستعد لقتال أعداء الله، وقد جمعوا لكم، ومع هذا لا يمنعني أن أنظر في أمركم. الكامل لابن الأثير، ص ٥، ج ٣، وقعة نهاوند

(٢) ينظر: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤٩ .

(٣) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٤٢ .

فالرواية أشارت إلى أمور غريبة عجيبة تدل كلها على أن السياسيين العرب أجادوا الصنعة ونجحوا في سلب إرادة المسلمين وجردوهم من عقولهم وحولوهم إلى قطع يقودونه كيفما يشاءون، فمن غير المعقول أن تتمكن كلمة كاذبة خرجت من أفواه الطلقاء من زعزعة جيش كامل ليتحول من النظام إلى الغوغاء لو لم تكن هناك مقدمات كثيرة بعضها مادي والآخر معنوي والثالث إعلامي. فالناس الذين كانوا يبحثون عن السلم بعد كل تلك الحروب هم الذين كانوا ينادون من كل جانب: (البقية البقية) فهل يعقل أن يتمردوا على قيادتهم المعصومة عند سماعهم خبر موافقة الإمام على الصلح؟.

وما ذاك إلا لكون السياسيين ومن خلال الحروب المتكررة التي شنوها على دولة الإسلام وخلفائها الشرعيين جعلوا الناس يحنون ويتطلعون إلى السلم ويكرهون الحرب وذكرها، فمن غير المعقول أن تدخل أمة في أربعة حروب متتالية خلال مدة لا تزيد على الأربع سنوات كما هي حروب الجمل وصفين والنهروان ثم الحرب المرتقبة بين جيش الخلافة وجيش الخارجين على القانون، ولا تحن إلى السلم والراحة والتمتع بالحياة. ولقد مررنا في تاريخنا الحديث بالحالة نفسها يوم قاد السياسيون شعبنا العراقي لمحاربة الأكراد في شمالي العراق ثم الاشتراك بحربين في العامين ١٩٦٧ و١٩٧٣ مع الصهاينة ثم العودة إلى حرب الشمال مع الأكراد ثم الحرب مع إيران وبعدها غزو الكويت وختامها بأمر المعارك، وبالتالي أصبح الشعب العراقي بقضه وقضيضه يتطلع إلى سلام دائم ويأمل بأن تنتهي حقبة الحروب. وبالتالي كانت رغبة أصحاب الحسن عليه السلام بالسلم وعدم خوض حرب جديدة أمنية يتمنون تحقيقها ولكنها لا يمكن أن تؤثر فيهم بالشكل الذي تصوره الروايات التاريخية.

وفوق هذا وذاك كان الحسن عليه السلام موعوداً بالإصلاح كما في الحديث الذي أخرجه

الكثير من المشتغلين بالحديث النبوي ومنهم الدولابي: «عن أبي ضمرة بن عبد الله بن المستورد حدثني محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة مولى بني هاشم أن رسول الله أبصر الحسن بن علي مقبلاً، فقال: أَللّهم سلمه وسلم منه»^(١) ولا يوجد ما يثبت ولو من بعيد أن الرسول دعا لمعاوية بمثل هذه الدعوة.

فصلح الإمام الحسن عليه السلام وعد رباني كان الحسن عليه السلام أول العارفين به والمنوّهين عنه فهو من ضمن خزينه الفكري عن المستقبلات التي بثها والده في عقله وقد كان الإمام عليه السلام على يقين تام بأنه ينفذ إرادة الله سبحانه وتعالى تطبيقاً للنهج الإلهي بتسيير الكون وإدارته وهو في الصلح كجده عليه السلام في مكة غير مأمور بحرب ومأمور بتأليف القلوب وتوحيد كلمة المسلمين حفاظاً على الإسلام. نعم كان الإمام مأموراً بالحرب وفق البرنامج الإلهي أيضاً فلما انتهى مشروع المواجهة الذي أبانت فشله نوعية جيش الإمام عليه السلام والذي مع كل تلك المعوقات أن أدى دوره الكبير- في الأقل بعدما أبان بان هناك كثيرين كانوا من ضمن المشروع الحسنّي، لما انتهى ذلك المشروع حل بدلا منه مشروع المسالمة والصلح فصار لزاماً عليه أن يركن إلى السلم ويوقف المظاهر الحربية إيذاناً ببداية مشروع جديد يهيئ لمرحلة جديدة من الصراع بين الحق والباطل.

أشير هنا إلى أن الإمام علي عليه السلام قاتل أصحاب الجمل في البصرة، ومعاوية في صفين والخوارج في النهروان بقوات موازية لقواتهم بل وتتفوق عليها كثيراً كما في معركة الخوارج، والإمام الحسن عليه السلام قاد جيشاً لا بأس به لمواجهة معاوية الذي سار بقواته وجيشه الجرار لغزو عاصمة الخلافة، فهل يعقل أن يخرج الإمام الحسين عليه السلام بثلاثة وسبعين شخصاً فقط لمواجهة قوات الوالي الأموي في الكوفة، وحتى لو فرضنا جدلاً أنه

كان يمكن أن ينتصر على قوات الوالي بسبب تأييد أهل الكوفة له، فهل يتمكن من جمع قوة يمكنها التصدي لقوات الشام التي ستزحف عليه لتنتقم منه؟ ألا يدلنا هذا على أن الأئمة المعصومين عليهم السلام مأمورون بأداء أدوارهم التي يعرفون نتائجها وكل تفرعاتهم دون التفات للحسابات الدنيوية؟.

أما السياسيون العرب الذين تحدثنا مطولاً عن منهجهم التحريفي وإخلالهم بالشروط وتصلبهم عن تحمل المسؤولية والبحث عن يعصبون أعمالهم برأسه فقد تعاملوا مع الصلح وفق رؤاهم السياسية وعملوا جاهدين على تحسين صورتهم وتشويه صورة الإمام في إطار الصلح من خلال تحريف الروايات بالقطع والإضافة ولذا تجد في الأحاديث النبوية عن الصلح تبايناً غريباً لا يتساق مع ما عرف عن النبي صلى الله عليه وآله من دقة في اختيار الكلمات وهي من الصفات التي أجمع المسلمون على تمسك النبي صلى الله عليه وآله بها طوال بعثتهز



لماذا صالح الحسن ؟

سؤال لا يقل في أهميته عن كل تلك الأسئلة التي وردت من قبل، وتأتي أهميته من كون الأسباب الموجبة للصالح تعرضت إلى تلاعب كبير ومشين من قبل السياسيين وأتباعهم بغية القول أن الإمام الحسن عليه السلام لم يكن واثقاً من أحقيته بالإمامة والخلافة؛ وانه كان يرى معاوية أحق منه بالخلافة وأجدر، ولقد أسهب القوم في شرح أقوال السياسيين التي وردت بشأن هذه النقطة بالذات كالصلاحي الذي تتبع بعض أقوال السياسيين المحرفة ليجعل منها دواعم لهذا التجني والكذب الكبيرين، فنقل عن الشعبي، بعد أن قال عنه في الهامش: أنه ثقة، قال: «شهدت الحسن بن علي عليه السلام بالنخيلة حين صالحه معاوية فقال معاوية: إذا كان ذا فقم فكلم الناس أنك قد سلمت الأمر لي، وربما قال معاوية: أخبر الناس بهذا الأمر الذي تركته لي، فقام فخطب على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، قال الشعبي: وأنا أسمع، ثم قال (أي الحسن): فإن أكيس الكيس التقى، وإن أحق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية، إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم... أو يكون حقاً كان لأمري كان أحق به مني ففعلت ذلك» وهي الرواية الموقوفة على الشعبي ^(١) أ

(١) عامر بن شرحبيل الشعبي: أشرت في حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مع قراء الكوفة والبصرة، ثم هرب مع من بقي من أتباع ابن الأشعث بعد فشل الحركة، فأمر الحجاج أن يؤتى به فجيء به. فأعتذر للحجاج، فقبل، وقال: أنت يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي. جاء هذا في وقت أمر فيه الحجاج بقتل أكثر من مائة ألف مسلم ممن اشتركوا بالحركة ومنهم سعيد بن جبير رضي الله عنه، وهذا يؤكد ولاء الشعبي

خرجها عنه ابن سعد في الطبقات وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في دلائل النبوة وابن عبد البر في الاستيعاب.

كما نقل الصلابي عن ابن سعد رواية مشابهة لهذه الرواية، جاء فيها: «فقال الحسن: أيها الناس إنني كنت أكره الناس لأول هذا الحديث، وأنا أصلحت آخره لذي حق أدت إليه حقه أحق به مني، أو حق جدت به لصالح أمة محمد، وإن الله قد ولاك يا معاوية هذا الحديث لخير يعلمه عندك أو لشر يعلمه فيك»^(١).

إن الإمام الحسن عليه السلام صاحب حق شرعي وعرفي، وكان قادراً على القتال ومقتدراً على الفوز بالمنازلة، لو شاء ذلك بما يملكه من قوى غيبية خفية، وأن يميل إلى الصلح مع ما لديه من المزايا فذلك ما لم يستوعبه المسلمون، وقد استغل السياسيون جهل الناس ببواطن الأمور فخلقوا قصصاً تنتقص من مكانة عدوهم الإمام الحسن عليه السلام وتوهم الناس وتلهيهم عن البحث عن الحقيقة المغيبة. والسياسيون في سعيهم العدواني التخريبي أوجدوا للصلح مخارج وقصصاً ورواياتاً تجرده من قيمته الأخلاقية والدينية وتضعه في موضع الجدل السياسي الذي يبغى خداع الأمة ويدفعها لأن تشك في رأي من يدعي بأن خلافة معاوية لم تكن خلافة شرعية، والتي كما يقولون كانت قد حصلت على دعم نبوي بوجوب عدم كرهها، كما في حديثهم: «حدثنا القاسم بن جعفر قال: حدثنا علي بن إسحاق بن محمد قال: حدثنا علي بن حرب قال: حدثنا ابن أبي سفيان قال: حدثنا هشيم، عن أبي عامر الشعبي قال: قلت للحارث بن حجر: ما حمل الحسن بن علي أن يبايع لمعاوية ويسلم له الأمر؟ قال: إنه سمع من يقول: لا تكرهوا إمرة

للخط السياسي وبعده عن الخط العلوي.

(١) سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين، الصلابي، ص ٣٠١.

(١) معاوية.

فإذا ما كان الحسن  قد سمع هذا الحديث، فلماذا قبل البيعة أول مرة وكره بيعة معاوية، بينما المفروض به لو كان ما نقلوه صحيحاً أن لا يكره إمرة معاوية ويبايعه ويتنازل له عن الإمامتين باعتبار أنه يحمل توصية نبوية بوجوب عدم كراهة إمرته؟!.

علماً أن الذين اعتمدوا هذا الحديث المكذوب الموضوع جاءوا بحديث آخر يدعي بأن الحسن ترك الخلافة تهرباً لأنه لم يكن يرغب بأن يتلى بها، كما في قولهم: «حدثنا علي بن عمر، حدثنا إسماعيل بن محمد قال: حدثنا عباس الدوري قال: حدثنا داود الطيالسي قال: حدثنا شعبة: أنه أخبرهم عن يزيد بن خمير عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: قلت للحسن بن علي: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالم، ويحاربون من حاربت، فتركتها التماس رحمة الله، ثم ابتلي بها ناس...» (٢)

وبعدها جاءوا بحديث ثالث تختلف أسبابه عما سبق، قالوا فيه: «حدثنا عبد الله بن محمد بن أحمد، حدثنا عبد الله بن أحمد بن غياث القاضي، قال: حدثنا يحيى بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي، قال: حدثنا صدقة بن المثنى، عن رياح بن الحارث قال: قام الحسن بن علي بعد وفاة علي ، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن كل ما هو آت قريب، وإن أمر الله واقع وإن كرهه الناس، وإني والله ما أحببت

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري، ص: ١٥٣٩، حديث ٢٨٠٠ الجزء ٨، حديث ٢٧٩٩، سياق ما روي من إمارة معاوية وتسليم الحسن بن علي الأمر إليه.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، الطبري، ص: ١٥٣٩، حديث ٢٧٩٧ الجزء ٨، حديث ٢٧٩٩، سياق ما روي من إمارة معاوية وتسليم الحسن بن علي الأمر إليه.

أن أليّ من أمر أمة محمد ﷺ مثقال حبة من خردل، تهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعني مما يضرني، فالحقوا بمطيككم»^(١) ويدفعنا هذا التخبط غير المحمود للبحث عن الأسباب الحقيقية التي جعلت الإمام الحسن (عليه السلام) يفضل الصلح.

لقد قدّر الإمام الحسن (عليه السلام) وأجاد، فقد نظر أولاً إلى جنده ومكونات عسكره فوجدهم ليسوا كما كانوا في زمن أبيه (عليه السلام) وجده (عليه السلام)، فلم يخفي مشاعره تجاههم وأعلنها صريحة واضحة فاستغل السياسيون هذه الصراحة، وأخذوا نتفاً من أقواله وأضافوا إليها من عندهم دسا ومكراً ونسبوا كل ذلك له على أنه قائله. قال الديلمي: من كلام الحسن بن علي لأصحابه بعد وفاة أبيه: «أما والله ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلة ولا قلة ولكن كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيتت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم تتوجهون معنا ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم، فكنا لكم وكنتم لنا، وقد صرتم اليوم علينا، ثم أصبحتم تعدّون قتيلين: قتيلا بصفين تبكون عليه، وقتيلا بالنهروان تطلبون بثأره، فأما الباكي فخاذل، وأما الطالب فثائر».

إلى هنا يبدو الأمر منطقياً بالرغم من أن هناك روايات أخرى نقلت خطبة الحسن (عليه السلام) الحقيقية وفيها إختلاف واضح، ومن أن أحداث الرواية التي إعتمدوها غير مترابطة؛ لأن الرواية تجمع عشوائياً بين بداية خلافة الحسن (عليه السلام) بعد موت أبيه مباشرة وتنقل حديثاً عن جنود خاضوا حرباً لم يحسنوا الصنيع فيها مع أن الجيش الذي كان بقيادة الإمام الحسن (عليه السلام) لم يلتق بجيش معاوية ولم يخض الحرب، وتنقل حديثاً آخر عن ساعات ما بعد الصلح وترك القتال! لكن ما جاء بعد ذلك في الرواية لا يقبله منطق ولا عقل لأن الرواية تعود إلى الحديث عن مقترح تقدم به معاوية لعقد الصلح، ووقوف

(١) المصدر نفسه، ص: ١٥٣٨، حديث ٢٧٩٧ الجزء ٨، حديث ٢٧٩٨.

الحسن عليه السلام لا استشارة جنده في الأمر ! إذ نسب الديلمي إلى الإمام قوله : « وإن معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفه ، فإن أردتم الحياة قبلناه منه ، وأغضضنا على القذى ، وإن أردتم الموت بذلناه في ذات الله وحاكمناه إلى الله . فنادى القوم بأجمعهم : بل البقية والحياة » .

ويرى كل منصف أن في ذاكرة الإمام الحسن عليه السلام ومنذ سويغات بيعته الأولى كانت تتردد مقولات رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا سيما بعد أن رأى تخاذل القوم عن نصرة أبيه ، فنوى الصلح إبقاءً على الدين وفضحاً للمخالفين ، وهذا خلاف ما زعمه الآخرون بأن معاوية هو صاحب الصلح وكأنهم يريدون القول أن بمعاوية حَقَّ الله دماء الأمة . ودليلنا في ذلك خطبة الإمام الحسن عليه السلام التي قالها في ساباط مظلم قرب المدائن ، ومواقف أصحابه في الصلح . روى أبو الفرج : « وأخذ الحسن على حمّام عمر ، حتى أتى دير كعب ثم بكر فنزل ساباط دون القنطرة فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، وصعد المنبر ، فخطبهم ، فحمد الله ، فقال : الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله أرسله بالحق ، وائتمنه على الوحي . أما بعد ، فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له سوءاً ولا غائلة ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردّوا علي رأيي ، غفر الله لي ولكم وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا .

قال : فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بها قال ؟ قالوا : نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر إليه ، فقالوا : كفر والله الرجل ثم شدّوا على

فسطاطه فإنتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي وهو خارجي، فنزع مطرفه عن عاتقه، فبقى جالسا متقلدا السيف بغير رداء، ثم دعا بفروسه فركبه، وأحرق به طوائف من خاصته وشيعته، ومنعوا منه من أرادته ولاموه وضعفوه لما تكلم به.

فقال: ادعوا لي ربيعة وهمدان، فدعوا له، فأطافوا به، ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم، فقام إليه رجل من بني أسد من بني نصر بن قعين يقال له الجراح بن سنان وهو الآخر خارجي، فلما مر في مظلم سباط قام إليه فأخذ بلجام بغلته ويده معول، فقال: الله أكبر يا حسن، أشركت كما أشرك أبوك من قبل، ثم طعنه فوقعت الطعنة في فخذه فشقتة حتى بلغت أربيته فسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه، وخرّا جميعاً إلى الأرض، فوثب عبد الله بن الخطل ففزع المعول من يد جراح بن سنان فخضضه به، وأكبّ ظبيان ابن عمارة عليه، فقطع أنفه ثم أخذوا الأجر فشدخوا وجهه ورأسه، حتى قتلوه»^(١) ولهذا السبب ورد توضيح الإمام الصادق عليه السلام كما في وصيته لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول المعروف بمؤمن الطاق: «إعلم أنّ الحسن بن علي عليه السلام لما طعن وإختلف الناس عليه سلّم الأمر لمعاوية، فسلمت عليه الشيعة: عليك السلام يا مذل المؤمنين، فقال عليه السلام: ما أنا بمذل المؤمنين ولكني معز المؤمنين، إني لما رأيتمكم ليس بكم عليهم قوة سلّمتم الأمر لأبقي أنا وأنتم بين أظهرهم، كما عاب العالم السفينة لتبقى لأصحابها، وكذلك نفسي وأنتم لنبقى بينهم»^(٢).

وما دفع الحسن عليه السلام إلى الصلح فضلاً عما تقدم توضحه المحاوراة التي دارت

(١) مقاتل الطالبين، ص ٧٠-٧٣.

(٢) تحف العقول، الحسن بن شعبة الحراني، الأعلمي، ص ٢٢٤.

وبين سفيان بن ليل الذي قال للإمام: «أنت والله بأبي أنت وأمي أذلتني»^(١) وعطيت هذا الطاغية البيعة وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن اللعين ابن آكلة الأكابر ومعك مائة ألف كلهم دونك، وقد جمع الله لك أمر الناس!.

فقال: يا سفيان، إنا أهل بيتٍ إذا علمنا الحق تمسكنا به، وإنني سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تذهب المبالي والأيلام حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السُرم، ضخم الجسم، لا يمشي ولا يسير ولا يمشي ولا يسير، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض عاذر، وإنني عرفت أن الله بالغ أمره»^(٢).

وتوضحه كذلك المعلومة التالية التي تؤكد بأن معاوية كان يعرفها أيضاً ويستغلها للوصول إلى مبتغاه، فمعاوية نفسه كان يعرف السبب تماماً ويعلم أن في نزاعه مع الخلفاء الشرعيين تكمن مصلحته وتتحقق حلمه تبعاً للحديث صحيح
الصلح والعواقد الفقهية
النبي ﷺ: «ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها»^(٣). ولقد أزل الله لسان معاوية فاعترف صراحة بذلك، ثم ندم عليه وعدل عنه كما في مقاتل الطالبين حيث خطب معاوية حين بويع له فقال: «ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها، ثم إنه انتبه، فندم، فقال: إلا هذه الأمة فإنها، وإنها»^(٤)

(١) مقاتل الطالبين، ص ٧٦.

(٢) ورد هذا الحديث في كتب الفريقين: مجمع الزوائد ج: ١ ص: ١٥٧ كتاب العلم: باب في الاختلاف. المعجم الأوسط للطبراني، ج: ٧ ص: ٣٧٠، حديث رقم ٧٩٥٧. فيض القدير ج: ٤ ص: ٤١٥. حلية الأولياء لأبي نعيم، ج: ٤ ص: ٣١٣، رقم الحديث: ٢٢. تذكرة الحفاظ ج: ١ ص: ١٠٠. حجة الشعب. سير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ٤ ص: ٣١١ في ترجمة الشعبي. ذكر من اسمه ج: ١ ص: ١٨١. كنز العمال للمتقي الهندي، ج: ١ ص: ١٨٣ حديث: ٩٢٩. الجامع الصغير للسيوطي، ج: ١ ص: ٧٧٩. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، ج: ٥ ص: ١٨١. حجة الشعب، ص ٧٧.



الصلح والقواعد الفقهية

يلتقي الصلح مع كثير من القواعد الفقهية التي تبين أن الإمام الحسن عليه السلام وهو الخليفة المنتخب من قبل الأمة والمنصب من قبل الله تعالى رحمةً للناس وهو أولى من غيره في أن يتمسك بها ويطبقها مهما كانت النتائج والمواقف، وفي الفقه الإسلامي هناك مجموعة قواعد فقهية يلتقي معها الصلح منها:

درء الحدود بالشبهات

تم استنباط قاعدة (درء الحدود بالشبهات) من مجموعة أحاديث نبوية، منها:

قول رسول الله ﷺ: «إدروا الحدود بالشبهات، ولا شفاعة ولا كفالة ولا يمين في الحد». والحديث الآخر: «إدروا الحدود بالشبهات وأقلوا الكرام عثراتهم إلا في حد من حدود الله»^(١)

وقال العلامة محمد تقي المجلسي رحمته الله في شرح كلمة (الشبهات): «بكل ما اشتبه عليكم حتى في المسألة إذا كانت مشتبهة لتعارض الأدلة أو لعدمها ظاهراً»^(٢)، وقال عبد القادر عودة: «الشبهة هي ما يشبه الثابت وليس بثابت، أو هي وجود المبيح صورة مع انعدام حكمه أو حقيقته»^(٣).

(١) ينظر: فقه الحدود والتعزيرات، السيد عبد الكريم الازديلي، ج ١، ص ٨٦ و ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩١.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩١.

لقد سعى الإمام الحسن عليه السلام إلى درء شبهة العدوان بالسعي إلى الصلح، فلقد أُتهم هو وأبوه وأخوه الحسين عليه السلام بأنهم يسعون إلى فض نزاعاتهم مع المسلم الآخر بالسيف لا بالحِجاج؛ فأراد الحسن عليه السلام أن يستعمل هذه القاعدة الفقهية ليبعد عنه وعنهم تهماً ما أنزل الله بها من سلطان. ومما لا خلاف عليه أن الإمام الحسن عليه السلام رأى في الحرب مع رجل عنيد متغطرس لا يردعه رادع عن تحقيق مآربه الدنيوية مثل معاوية مفسدةً كبيرةً لأن الحرب مع هذا العناد سوف تطحن المسلمين طحناً وقد يُقتل ويعوق فيها أضعاف ما قتل وعوق في صفين لأنها كانت تمثل الفرصة الأخيرة لمعاوية؛ يخسر بخسارتها كل ما حلم به وقام ببنائه على مدى أكثر من عشرين عاماً بمساعدة كل السياسيين، ومعنى ذلك أن الإسلام سوف يخسر خيرة شبابه ويصبح عرضة لهجمات الأعداء من دون أن يملك فرصة الدفاع عن نفسه.

نعم كان في الحرب منفعة لو ضمن الحسن عليه السلام النصر ولو وثق بجنده والمحيطين به على كثرتهم. وهؤلاء كانوا تحت ضغط شديد فمن جهة كانوا يرون أنفسهم ملزمين بإطاعة ولي الأمر الخليفة المنتخب والإمام المعصوم، ومن جهة أخرى لم يكونوا قادرين على استيعاب سياسة الحسن عليه السلام المبدئية التي تبدو بنظرهم عقيمة قبالة سياسة معاوية التي كانت تتحرك في كافة الاتجاهات. ومن جهة ثالثة كانت أموال معاوية تلمع أمام أعين الطماعين منهم، فضلاً عن ذلك كان رؤساء القبائل الذين يشتركون في الحروب عادة لتحقيق المكاسب لقبائلهم يرون ما عند الإمام الحسن عليه السلام وما يمكن أن يحققه لهم أقل كثيراً مما يعدهم به معاوية. وفي مثل هذه الحال العصية كان درء المفسدة يتصارع مع تحقيق المنفعة، وكان الحسن عليه السلام بين خيارين إما أن يختار المنفعة للدين والأمة من خلال محاولة إزالة معاوية ومشاكله المستمرة من طريقهم بواسطة الحرب مهما كانت نتائجها وتضحياتها، وإما أن يروّض معاوية بالصلح لكي يكف شره عن الطيين،

فإختار الصلح درء للمفسدة.

أرى عقلاً أن تقديم درء المفسدة على جلب المنفعة منحوت أصلاً من قاعدتين فقهيتين الأولى: (لا ضرر ولا ضرار) والثانية: (الأصل في الأشياء الحلية/الإباحة) وسيكون هذا مدار حديثنا عن الموضوع. كما أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولا خلاف في ذلك بين المدارس الفقهية الإسلامية.

أما لجنة تأليف القواعد الفقهية والأصولية التابعة لمجمع فقه أهل البيت عليه السلام فقد كانت واضحة في تعاملها مع القاعدة ابتداءً من النص الذي قالوا عنه: «نص القاعدة: دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة» وصولاً إلى تطرقهم إلى الألفاظ الأخرى للقاعدة، مثل: «إذا دار الأمر بين دفع المفسدة وجلب المنفعة كان دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة».

ولتوضيح القاعدة قالت اللجنة: «إذا وقع التزاحم بين واجب وحرام بأن يكون في فعل مصلحة ملزمة وفي فعل آخر مفسدة ملزمة، ولم يتمكن المكلف من امتثالهما فإنه يقال بترجيح جانب الحرام على جانب الواجب لأن دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة». وتستند مدرستنا في إقرارها لهذه القاعدة على «إن الظاهر من كلمات من تعرض لهذه القاعدة هو وضوحها عند العقل ولذا لم يتعرضوا لمستندها»^(١).

أما الشيخ باقر الإيرواني فيرى: «إن قاعدة (دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة) هي تامة في بعض الموارد وليس دائماً، فإن المناسب ملاحظة درجة المصلحة ودرجة

(١) كافة الاقتباسات أعلاه مستقاة من كتاب قواعد أصول الفقه على مذهب الإمامية، إعداد لجنة تأليف القواعد الفقهية والأصولية التابعة لمجمع فقه أهل البيت، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، المجمع العالمي لأهل البيت، طهران، ١٤٢٣ هـ، ص ١٧٤-١٧٥.

المفسدة، فربما تكون المصلحة أكبر بكثير من المفسدة، كما لو فرض أن فعل الجهاد أو الصلاة توقف على فعل محرم صغير كاجتياز المغصوب بمقدار شبر، فيلزم فعل الواجب وترجيح المصلحة لا ترك الواجب والتضحية به لأجل عدم ارتكاب المحرم الصغير، هذا بلحاظ الأمثلة الشرعية. وأما بلحاظ الأمثلة العرفية فمن الواضح أن العاقل يذهب إلى المكان الذي يتضرر فيه بمقدار قليل ما دام يستفيد من ذهابه إليه فوائد كبيرة معنوية ومادية»^(١).

ويرى الشيخ الإيرواني: «إن القاعدة المذكورة تنفع لو حصل قطع بالأولوية دون ما إذا حصل ظن بها، فإنه ليس بحجة ومن الواضح أن غاية ما يحصل عادة هو الظن بالأولوية دون القطع»^(٢).

كذلك يرى المحقق الخوئي رحمته الله بأنه: «على القول بالامتناع ووحدة المجمع وجودا وماهية، فهو إما مشتمل على المصلحة دون المفسدة أو المفسدة دون المصلحة، فليس في مورد الاجتماع مفسدة ومصلحة ليدور الأمر بين دفع المفسدة وجلب المنفعة حتى يقال بأن دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة»^(٣).

وقد أورد الشيخ الكليني رحمته الله عن عبد الله بن بكير عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن سمرة بن جندب كان له عذق^(٤) في حائط لرجل من الأنصار، وكان منزل الأنصاري بباب البستان، وكان يمرّ به إلى نخلته ولا يستأذن، فكلّمه الأنصاري أن

(١) كفاية الأصول في أسلوبها الثاني، الشيخ باقر الإيرواني، مؤسسة إحياء التراث الشيعي، رقم الإصدار ١٩، النجف الأشرف، ١٤٢٩ هجرية، ج ٣، ص ٥٩.

(٢) كفاية الأصول، ص ٦٠.

(٣) قواعد أصول الفقه على مذهب الإمامية، مصدر سابق، ص ١٧٦.

(٤) العذق: هو النخلة بحملها.

يستأذن إذا جاء، فأبى سمرة، فلما تأبى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه وخبره الخبر، فأرسل إليه رسول الله ﷺ وخبره بقول الأنصاري وما شكا، وقال: إن أردت الدخول فاستأذن. فأبى، فلما أبى ساومه حتى بلغ به من الثمن ما شاء الله، فأبى أن يبيع ذلك، فقال: لك بها عذق يمد لك في الجنة، فأبى أن يقبل، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلعها وإرم بها إليه، فإنه لا ضرر ولا ضرار^(١).

وفق هذا الفهم للقاعدة وأصول اشتقاقها نجد أن كل من اعترض على صلح الحسن ﷺ كان جاهلاً لمعنى هذه القاعدة، إذ لو كانوا على علم بمضمونها لما كانوا قد إعترضوا عليه، ولا إعتبروا الصلح ذلاً، فالإمام المعصوم ﷺ أدرى بمكمن المفسدة والمصلحة من جميع الناس، وهو أولى من غيره بتطبيق قواعد الإسلام شاء الناس أم أبوا.

أما بعض أتباع مدرسة الخلفاء من الذين تعللوا بحجج واهية ووصفوا الإمام الحسن ﷺ بأوصاف دنيوية قالوا بأنها دفعته إلى طلب الصلح؛ فإنهم أكثر جهلاً من أتباع مدرستنا الذين عدوا الصلح ذلاً، والدليل أن فقه مدرسة الخلفاء هو الآخر أولى قاعدة درء المفسدة أهمية كبيرة ولهم في ذلك قول نصه: «إن قاعدة: درء المفاصد مقدم على جلب المصالح، من القواعد الفقهية التي حام حولها كثير من كلام أهل العلم في كتب الأحكام والقواعد الفقهية والمقاصد، مما يؤكد على أهمية هذه القاعدة ومكانتها بين القواعد الفقهية»^(٢).

ولهم رأي يقول بأن هذه القاعدة ثابتة من الكتاب والسنة: «لقد نهى الإسلام عن مضرّة الآخرين، وأصل في ذلك قاعدة تدرج تحتها كثير من المسائل العلمية، وهي: درء

(١) فروع الكافي، ج ٥، ص ٩٧١، حديث رقم ٢، باب الضرار، طبعة دار المرتضى.

(٢) ملتقى أهل الحديث، موضوع بعنوان: قاعدة: درء المفاصد مقدم على جلب المصالح // <http://www.ahlal-hdeeth.com/vb/showthread.php?t=212504>

المفاسد مقدم على جلب المصالح، والأدلة على هذه القاعدة ثابتة بالكتاب والسنة، ولها صور من الواقع الذي نعيشه»^(١).

ويرون كذلك إن: «من المسلمات المعروفة في الشريعة الإسلامية أن درء المفسدة عن الناس وجلب المصلحة لهم، بكفالة ضرورياتهم وتوفير حاجياتهم وتحسيناتهم من أهم مقاصدها العامة. ولو استقرأنا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وآراء المذاهب الفقهية وجدنا أن تحقيق مصالح الجماهير الواسعة يأتي في مقدمة تلك المصالح، حتى غدت هذه القضية لوضوحها في النصوص وتواترها في النقل عن السلف الصالح تشكل قاعدة فقهية عامة، تحسم مسألة تعارض المصالح الخاصة مع المصالح العامة، لصالح العامة دائماً».

وهناك فيهم من يرى الأمر أوسع مما تقدم، ولا سيما في حديثه عن معنى القاعدة: «تدل القاعدة على أن المفاسد متى ما كانت أكبر من المصالح فإن الواجب دفعها قدر الإمكان، ولا ينظر في تحقيق المصلحة لكونها مغمورة في المفسدة، أما إذا كانت المصلحة أعظم من المفسدة فالقول الراجح هو الإتيان بتلك المصلحة لكون المفسدة مغمورة في تلك المصلحة، وإن تساوت المفاسد والمصالح وهو أمر يكاد يكون متعذراً فقد اختلف فيه العلماء على ثلاثة أقوال:

القول الأول: دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة.

القول الثاني: إن جلب المصلحة أولى من دفع المفسدة.

(١) موقع إسلام ويب، <http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=Full>

القول الثالث: التوقف أو بالتخير في كل حالة بحسبها وما يلابسها^(١)

ومن أقوالهم في هذا المعنى: «فإن القاعدة الفقهية تقول: درء المفسد مقدم على جلب المصالح. والمفسدة: هي التي تلحق بمن وقعت عليه الضرر، وهي مرتبطة بقول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». والمصلحة: هي التي تجلب المنفعة لمن كانت له هذه المصلحة.

والمعنى العام للقاعدة: أنه إذا تعارضت مفسدة مع مصلحة فالأولى أن لا ننشغل بالمصلحة، بل الأولى إزالة المفسدة؛ لأن إزالة الضرر أولى من جلب المنفعة؛ لأن إزالة المفسدة أو درءها فيها منفعتان: المنفعة الأولى: عدم وقوع المفسدة. المنفعة الثانية: ترك المرء سالماً؛ لأن الضرر إذا وقع على الإنسان فإنه يعيقه عن كثير من المصالح التي لا بد أن يتقدم لها. ففيها منفعتان: قطع هذه المفسدة التي كانت ستقع، وأيضاً قطع أبواب مفسد أخرى يمكن أن تجربها هذه المفسدة^(٢).

إن مدرسة الخلفاء تعد هذه القاعدة «من القواعد الكبرى التي يعتمد عليها الفقهاء في تقرير الأحكام الشرعية للحوادث والمسائل المستجدة، وأغلب كتب القواعد الفقهية عبرت عنها بقول: «الضرر يزال»، وعبر عنها الشيخ عبد الرحمن السعدي، والدكتور البورنو، والأستاذ الزرقاء بـ «لا ضرر ولا ضرار» وهو ما جعله الآخرون أصلاً لها^(٣).

(١) ملتي أهل الحديث، موضوع بعنوان قاعدة: درء المفسد مقدم على جلب المصالح.

<http://www.ahlalndeeth.com/vb/showthread.php?t=212504>

(٢) ينظر، موقع إسلام ويب = [http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=](http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=179956)

FullContent&audioid=179956

(٣) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، الدكتور محمد صدقي بن أحمد البورنو، ط ٥، مؤسسة

وهم يرون إن «هذه القاعدة من أركان الشريعة، وتشهد لها نصوص كثيرة من الكتاب والسنة وهي أساس لمنع الفعل الضار وترتيب نتائجه في التعويض المالي والعقوبة، وهي أيضاً سند لمبدأ الاستصلاح في جلب المصالح ودرء المفاسد، وهي عدة الفقهاء وعمدتهم وميزانهم في تقرير الأحكام الشرعية للحوادث»^(١)، ويؤمنون بأن أصلها قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» وهو حديث أخرجه مالك في الموطأ عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلًا. وأخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي، والدارقطني من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وعبادة بن الصامت رضي الله عنه^(٢).

ويبني فقهاء مدرسة الخلفاء على هذه القاعدة كثيراً من أبواب الفقه ولاسيما فقه البيوع، منها: الرد بالعيب، وجميع أنواع الخيارات من اختلاف الوصف المشروط والتعزير وإفلاس المشتري والحجر بأنواعه، والشفعة؛ لأنها شرعت لدفع ضرر القسمة، والقصاص والحدود والكفارات، وضمان المتلف والقسمة، ونصب الأئمة والقضاة، ودفع الصائل وقتال المشركين والبغاة، وفسخ النكاح بالعيوب أو الإفساد أو غير ذلك^(٣) ويعتقدون بأن (هذه القاعدة مستفادة من استثناء القرآن الكريم في حالات

الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٧٧ وينظر: ج ٢ ص ٧٧٩، المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع السلسلة: الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، ٢٠٠٤. (١) ينظر: المدخل الفقهي العام، الأستاذ أحمد الزرقا ج ٢ ص ٨٧٩. الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية د. محمد صدقي بن أحمد البورنو، ص ٨٧.

(٢) الأشباه والنظائر، الشيخ زين العابدين ابن إبراهيم، شرح: أحمد بن محمد الحنفي الحموي ابن نجيم المصري الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٥٨.

(٣) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، جلال الدين عبد الرحمان السيوطي ٩١١ هـ، ط ٢، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة - الرياض، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م، ص ٤٨.

الاضطرار الطارئة في ظروف استثنائية بقوله تعالى: إلا ما اضطررتم إليه^(١).

وهم يرون بأن الضرر لا يُزال بمثله أو بالضرر، ويقولون: «هذه القاعدة تعتبر قيداً لقاعدة: (الضرر يزال) التي أوجبت إزالة الضرر قبل وقوعه ودفعه بعد وقوعه، وإزالة الضرر لا يجوز أن تكون بإحداث ضرر مثله؛ لأن هذا ليس إزالة، ومن باب أولى أن لا يزال الضرر بضرر أعظم منه، فالشرط أن يزال الضرر بلا إضرار بالغير، فإن أمكن وإلا فبأخف منه. وعلى ذلك لا يجوز لإنسان محتاج إلى دفع الهلاك عن نفسه جوعاً أن يأخذ مال محتاج مثله، كما لا يجوز لمن أكره على القتل أن يقتل إذا كان المراد قتله مسلماً بغير وجه حق. وإذا ظهر في المبيع عيب قديم وحدث عند المشتري عيب جديد إمتنع رد المبيع بالعيب القديم لتضرر البائع بالعيب القديم إلا أن يرضى»^(٢).

كما يرون أن الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف باختيار أهون الشرين أو أخف الضررين تبعاً لقاعدة: «إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما»^(٣) أي أن الأمر إذا دار بين ضررين أحدهما أشد من الآخر فيتحمل الأخف ولا يرتكب الأشد». والأصل في هذه القواعد قولهم: «إن من أثبت ببلتين وهما متساويتان يأخذ بأبيتهما شاء، وإن اختلفتا يختار أهونهما؛ لأن مباشرة الحرام لا تجوز إلا للضرورة، ولا ضرورة في حق الزيادة»^(٤).

وكلما سرنا مع قواعدهم الفقهية نصل إلى حقيقة صلح الحسن عليه السلام بالرغم مما

(١) غمز عيون البصائر وشرح كتاب الأشباه والنظائر، أحمد بن محمد الحنفى الحموي، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٦٧٢، والمدخل الفقهي العام: الزرقاء ص ٥٩٩.

(٢) ينظر: الوجيز للدكتور البورنو، ص ٢٨.

(٣) أشباه ابن نجيم ص ٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.

تعرض له، فهم بعد تلك القواعد أجازوا قاعدة أخرى تقول: «يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» باعتبار أن هذه القاعدة مبنية على المقاصد الشرعية في مصالح العباد. ولكنهم ذهبوا في تفسيرها بعيداً، فقالوا بـ«جواز رمي كفار تترسوا بالأسرى من المسلمين أو صبيانهم أو نسائهم لدفع ضرر زحفهم عن العموم»^(١) وهو ما يعرف اليوم في الفقه السلفي الذي ينتهجه تنظيم (القاعدة) بقاعدة (الترس) التي استخدمها الإرهابيون في العراق بقيامهم بتفجيرات أدت إلى قتل عشرات المسلمين بهدف قتل شخص كانوا يترصدونه!.

وفق هذه المفاهيم بمستواها الأسمى قرر الإمام الحسن عليه السلام درء المفسدة الكبيرة وتفضيل ذلك على المصلحة التي كان يراها صغيرة ويراهم الآخرون أكبر من أن يتم التنازل عنها. ولكن ألا يعتبر تنازله عن الحرب قعوداً عن الجهاد؟.

إن الحسن عليه السلام بوصفه الإمام المعصوم لا بد أن يكون عارفاً بفضل الجهاد على القعود في الإسلام، وكم جعل الله للمجاهد في سبيله من فضل وحسنات ودرجات، وقد اخذ الحسن والحسين عن أبيهما أحاديث الجهاد^(٢)، ونقلوها إلى أبنائهم الذين ما تركوا الجهاد في يوم ما، ولذا صبغت دماؤهم وجه التاريخ الإسلامي كله، وبالتالي لا يمكن للإمام الحسن عليه السلام أن يترك جهاد معاوية بالبساطة التي يتحدث عنها التاريخ المحرف، وقد ثبت أن الإمام الحسن عليه السلام رأى في السلم والموادعة جهاداً أكبر يفوق جهاد السيف فركن

(١) الوجيز للدكتور البورنو، ص ٥٨. وابن نجيم ص ٧٨، المدخل الفقهي العام للزرقا، ص

٤٨٩.

(٢) في فروع الكافي الجزء الخامس كتاب كامل عن الجهاد يقع في اثنين وثلاثين باباً من ص ٧٧٣ ولغاية ص ٨١٢ ما ترك حديثاً ورد عن أهل البيت بشأن الجهاد إلا وذكره، فهل يعقل أن الإمام الحسن لم يلتفت إلى هذا الكم الكبير من الأحاديث؟.

إلى السلم ليحفظ بيضة الإسلام.

ومن لب قواعد الإسلام الفقهية انطلق الإمام الحسن عليه السلام ليتنازل مؤقتاً عن الخلافة الدنيوية دون الإمامة الربانية درءاً للمفاسد الكثيرة التي تترتب على إصراره على القتال، ولكن لم يتم التعمق في فهم هذا المقصد السامي النبيل فأثيرت الشبهات حول الصلح بعد أن قام بعض الإفتائيين ببناء قواعد فقهية كثيرة على أصل الصلح وعلى الأحاديث التي ورد فيها ذكره ولا سيما منها الأحاديث التي وضعها الطرف المنتصر ليشرعن من خلالها مقاتلته للخليفة الشرعي وجلوسه على كرسي حكم الأمة المسلمة.

ويكاد حديث «ابني هذا سيد» أن يكون المثال الأكثر وضوحاً على هذا التلاعب.

بل هل من تحريف أكبر مما جاء في خطبة معاوية يوم دخل (النخيلة) منتصراً والذي جاء في كتب التاريخ عنه، ومنهم الشيخ المفيد (رحمته الله): «فلما تم الصلح سار معاوية حتى نزل النخيلة وهي معسكر الكوفة وكان ذلك يوم جمعة فصلى بالناس وخطبهم. وقال أبو الفرج: انه جمع الناس بالنخيلة فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة وجاءت مقطعة فنذكر ما انتهى إلينا منها، فقال: ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ثم إنته فإستدرك وقال إلا هذه الأمة فإنها وإنها. قال المفيد وأبو الفرج وقال في خطبته إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون، إلا واني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها. وفي رواية أبي الفرج أنه قال إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به قال أبو الفرج قال شريك في حديثه هذا: هو التهتك. وقال المدائني: خطب معاوية أهل الكوفة فقال: أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة

والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكّون وتحجّون ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول وكل شرط شرطته فتحت قدّمي هاتين»^(١).

(١) موسوعة الحسن، الرابط <http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/solh.html>

الإمام والوحدة الإسلامية

كان مقدراً للنزاع معاوية مع الإمام الحسن (عليه السلام) أن يقسم الأمة إلى قسمين متناحرين؛ سواء انتصر معاوية في النزاع، أم بقي الأمر كما هو عليه، بما يشبه انقسام الأمة إلى رعايا يحكمهم منهجان مختلفان في دولتين واحدة في الكوفة والثانية في الشام. أقول هذا لأن فرص انتصار الحسن (عليه السلام) عسكرياً في هذه المنازلة كانت منطقياً شبه معدومة، بل معدومة كلياً والأسباب واضحة معروفة، فما تأثير عشرين أو ثلاثين ألف مقاتل كوفي غير متجانسين فكرياً ولا متوافقين عقدياً ولا منهجياً قبالة مئة وثلاثين ألف مقاتل شامي تم إعدادهم إعداداً فكرياً وعقدياً وعسكرياً لمثل هذه المواقف وهذه المنازلة على مدى أكثر من عشرين عاماً فأصبحوا وحدة متجانسة وأهدافها محددة واضحة.

ولما كان الأئمة المعصومون (عليهم السلام) يرون أن وحدة المجتمع من أهم أسس وركائز المجتمع المسلم الإنموزجي، فإنهم لا يمكن أن يخالفوا قاعدتهم هذه لأي سبب كان، نعم كان المفروض بالأئمة أن تعرف وتدرّك أن أسس الوحدة التي يقوم عليها نظام المجتمع المسلم لا تتحقق إلا من خلال التطبيق الحرفي لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وتعرف أن حبل الله واضح جلي دلّاهم عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأرشدهم إلى معناه بما لا يقبل التأويل إطلاقاً في قوله: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» ولكن هذا قد لا يكفي أمة غاب عنها الدفاع عن الحق منذ مؤتمر السقيفة وإلى يوم شورى الستة، فأراد الله للأئمة أن تمر بامتحان نزاع معاوية مع الإمام الحسن (عليه السلام)، وأراد للإمام الحسن (عليه السلام) أن يتحمل وزر هذا الامتحان، ومع ثقل ما حمله أن يدعو إلى الوحدة كرها للفرقة وحفظاً للدين.

إن الدعوة للوحدة الإسلامية كانت منهج الإمامة المعصومة المقدم على كثير من المناهج الأخرى، وقد تحمل أئمة أهل البيت عليهم السلام من أجل هذه القضية وهذا المبدأ لوماً كثيراً، ولؤماً أكثر، وظلماً بلا حدود! ومع ذلك أصروا على متابعة العمل والسير نحو الهدف المنشود حتى وهم يرون تراثهم نهباً، ومع هذا وذاك يبقى علمهم بالمستقبلية الأكثر تأثيراً في قراراتهم وذلك أنهم يعرفون الدرب الذي يسرون عليه وإلى أين سيوصلهم وما نتيجة ذلك؛ فتراهم يقاتلون ويصالحون، ويسكتون ويثورون تبعاً لهذه القواعد المقدسة، وخير دليل على ذلك ما أورده الشيخ محمد اليعقوبي عن كتاب الإمام الحسين عليه السلام إلى رؤساء أخماس البصرة الذي جاء فيه: «أما بعد فإن الله إصطفى محمداً عليه السلام من خلقه وأكرمه بنبوته وإخثاره لرسالته، ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به، وكُنَّا أهله وأولياءه وأوصيائه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية ونحن نعلم أننا أحق بذلك الحق المستحق علينا من تولاه»^(١).

إن الإنسان العاقل الذي يسعى إلى تحقيق ما ينشدُ إليه سلماً أفضل بكثير مما لو حققه من خلال الحرب، فالحرب كالنار يجب أن تُستخدم كآخر علاج بعد أن تعجز العلاجات الأخرى عن الحل، بل قد يتم التنازل عن بعض المطالب المهمة في سبيل عدم خوض الحرب حفاظاً على الأمة والدين؛ وذلك هو منهج الإمامة الذي رسمه الإمام علي عليه السلام بتخليه عن محاربة من أغتصب حقه، وقمين بالحسن وهو الابن البار لعلي عليه السلام أن يكون أكثر الناس تطبيقاً لسياسة والده، وإن كان علي عليه السلام قد أوقف مطالبته بحق التنصيب الإلهي على طريق السلم والحجاج والقتال، فإن الحسن عليه السلام أوقف مطالبته بذلك الحق على وثيقة الصلح التي وقعها مع معاوية.

(١) دور الأئمة في الحياة السياسية، الشيخ محمد اليعقوبي، مؤسسة البديل، دار المتقين، بيروت،

وثيقة الصلح

من الغريب واللافت للنظر أنهم مع كل تلك الضوضاء التي أثاروها حول الصلح لم يلتفتوا كثيراً إلى ثمره الصلح وإلى مضمون وثيقة الصلح أو شروطه، ولذا تجدهم يتجاوزونها، أو يذكرون بعضها منها ويسكتون عن الآخر، أو يوزعونها على مجمل أقوالهم عن الصلح، وغالباً ما يبترون بعضها أو يبدلون كلمة محل أخرى أو يغيرون الصياغة حتى كادت أن تضيع علينا ويتلاشى أثرها، وبدل ذلك أكدوا على الصحيفة البيضاء التي أرسلها معاوية إلى الإمام الحسن عليه السلام بعد أن وافق على الصلح بيغون من وراء ذلك إظهار معاوية بمظهر الخريص المتسامح المستعد لتقديم كل ما يخطر ولا يخطر على البال من أجل حقن دماء المسلمين ونزع فتيل الحرب، وقد كانت الصحيفة البيضاء أكثر أهمية عندهم من محتواها الذي سطره الإمام الحسن عليه السلام بيده الشريفة.

إنَّ مجرد قول الطبري: «وكان الحسن لا يرى القتال، ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية»^(١) يظهر الحسن عليه السلام بمظهر الطمّاع الجشع الذي أراد أن يستغل الفرص لتحقيق المكاسب الشخصية وعليه يجب أن تتساوق مطالبه وشروطه مع هذا الجشع الذي وصفوه به، فيضع من الشروط ما يضمن له الكسب المادي في كافة المجالات المتاحة، فلماذا يمتنع عن ذلك ويكتفي بعدّة شروط فحسب؟ ولماذا يتجاهلون تلك الشروط؟.

(١) تاريخ الطبري، المجلد ٣، ص ٩٤١.

ومجرد قوله: «وقد أرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه: أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك»^(١) يعني أن الفرصة كانت متاحة أمام الحسن عليه السلام ليتعمق في الطلب، ويتنوع في الرغبة، ويتفنن في الكسب، وهذه كلها لا يمكن أن تجمعها خمسة أو ستة شروط بل تحتاج إلى الكثير من التفصيل والتخصيص في الأقل لكي يحمي نفسه ويضمن حصوله على تلك المكاسب، فلماذا يتجاهلونها؟.

بل إن الطبري نفسه جاء بما يثبت أن الحسن عليه السلام طمع في ساحة معاوية وتجاوز على سقف المطالب التي طالب بها أولاً، فأضاف إليها أشياء أخرى، حيث قال عن الصحيفة: «فلما أتت الحسن اشترط أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك»^(٢). ومن حقنا أن نسأل الطبري: إذن لماذا لم تذكرها، لماذا أغفلتها وهي بهذه الكثرة التي تصنفها بها؟.

وأكثر ما تعرضت له الشروط من دسّ وتشويه جاء من السياسيين أنفسهم ومن أحفادهم بما فيهم المعاصرون، فالدكتور الصلابي ذكر بعضاً منها، وليس كل شروط الصلح، ولكنه فنّد كل فقرة أوردتها، وكذب الروايات بشأنها.

فعن الشرط الأول الخاص بوجوب عمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله، أضاف الصلابي مقتبساً من الصواعق المحرقة جملة (وسيرة الخلفاء) وهي ليست موجودة في النص الأصلي، ثم قال بعد ذلك: «وهذا دليل على توقيع الحسن بن علي لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى حد جعل من إحدى الشروط على معاوية بن أبي سفيان انه يعمل

(١) الطبري، المجلد ٣، ص ٩٤٢-٩٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ٣، ص ٩٤٣.

ويحكم في الناس بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين»^(١).

والملاحظ أن هناك توجهاً واسعاً نحو هذا الاعتقاد الغريب إذ ليس الصلابي وحده من تحدث عن فقرة (سيرة الخلفاء) فهناك كثيرون ومنهم الشيخ موسى صاحب كتاب (حليم أهل البيت) الذي أورد هو الآخر هذه الزيادة الغريبة في الشرط الأول للصلح، فأورده بنص: «على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله وسيرة الخلفاء الصالحين». والزيادة في النص هي قوله: (وسيرة الخلفاء الصالحين) وفي رواية أخرى أوردتها تجد الزيادة تنص حرفياً على (سيرة الخلفاء الراشدين) التي رفض الإمام علي عليه السلام العمل بها، حيث يقول النص الزائد: «على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين»^(٢).

إن مجرد إعطاء معاوية صحيفة بيضاء للحسن ليكتب ما يشاء من الشروط يثبت أن الحسن ما كان ليحكم نفسه بما رفض أبوه أن يحكم به نفسه من قبل، وأن معاوية ما كان ليطلب من الحسن عليه السلام إضافة هذه الجملة لأنه كان متلهفا لعقد الصلح أكثر مما هو مهتماً بشروطه ولاسيما وأنه بيّنت في خاطره أن يتنكر للشروط متى ما تمكن. إن موافقة معاوية على كتابة الحسن عليه السلام لهذه الجملة تضعه أمام مسؤولية ما كان ليوافق أن يضع نفسه تحتها، وبالتالي أرى أن معاوية لم يكن مستعداً ليربط نفسه بهذا القيد حتى ولو أصر الإمام الحسن عليه السلام على تضمينه لشروط الصلح.

أما الشرط الثاني المتضمن (أن يكون الحسن خليفة من بعد معاوية) فقد فنده الصلابي باقتباس عن فتوح ابن أعثم الذي روى عن الحسن أنه قال: «أما ولاية الأمر

(١) الصلابي، مصدر سابق، ص ٣٢٠.

(٢) حليم أهل البيت الحسن، الشيخ موسى محمد علي، ص ١٨٦.

من بعده فما أنا بالراغب في ذلك ولو أردت هذا الأمر لم أسأله». ثم أقتبس من صواعق ابن حجر الهيتمي مدعياً أن الحسن طلب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ولم يخص نفسه، ونص ابن حجر المقتبس هو: «بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين» ووصل إلى محصلة مفادها: «طلب الخلافة بعد معاوية نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين ثم يوافق على أن يكون تابعاً وتشرئب عنقه للخلافة» وختم تأويله بالقول: «ومن الملاحظ أن أحداً من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلالبيعة يزيد شيئاً من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن عليه السلام بعد معاوية لأخذها الحسين ابن علي عليه السلام حجة.. ولو كان الحسن عليه السلام أسند إليه منصب ولاية العهد في الشروط لكان قريباً بعد معاوية من إدارة الدولة أو تولى إحدى الأقاليم الكبرى لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شؤون الحكم».

أما الشيخ موسى فقد أورد هذا الشرط بصيغتين:

الصيغة الأولى: «ليس لمعاوية أن يعهد لأحد عهداً، بل تكون الخلافة للحسن من بعده، أو يكون الأمر شورى بين المسلمين».

الصيغة الثانية: «وليس إلى معاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين»^(١).

وتجد اختلافاً مخزياً في صياغة هذا الشرط المحرف كما في نقل الدكتور والشيخ عن ما هو في الشرط الحقيقي، فالمعروف أن الحسن عليه السلام طلب في شرطه أن تكون الخلافة له من بعد معاوية، فإن أصابه مكروه تكون للحسين عليه السلام؛ ولم يرد موضوع الشورى

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٨٦

في صيغة الشروط، ولا في صيغة الوثيقة كلها. والمضحك أن الشيخ موسى نسي هذا القول وأورد في شروط معاوية التي تقابل شروط الحسن والتي سنوردها في ختام المبحث اعترافاً في الشرطين الأول والعاشر منها يخالف ما جاء به من قبل، نص معاوية في الشرط الأول الذي أورده الشيخ، على: «لك الخلافة من بعدي فأنت أولى الناس بها، ولك بذلك عهد الله وميثاقه» ونص في الشرط العاشر منها على: «الولاية للحسين إن حدث بنا حدث» وهذه الصيغة تأتي لتأكيد شرط الإمام الحسن عليه السلام ورداً عليه واعترافاً صريحاً من معاوية بموافقة على ما جاء في الشرط، فكيف يلزم معاوية نفسه بشرط يقيد ويلزمه وهو غير موجود في شروط الحسن عليه السلام؛ ويترك الشرط الذي ذكره والذي يتيح له تعيين من يشاء للخلافة، لو كان الحسن عليه السلام لم يتطرق في شروطه إلى الخلافة؟

أما عن شرط التوقف عن سب الإمام علي عليه السلام فينقل الصلابي عن شيخه الدكتور محمد بطاينة قوله الاحتمالي الذي يبدأ به (قد): «فقد لا تكون هذه القضية بحث بين الحسن ومعاوية وقد أتهم الشيعة معاوية على سب علي ولعنه فوق المنابر، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة... ولم يثبت قط في رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري واليعقوبي وأبي الفرج الأصفهاني، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء من إحترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته، فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ولا طبيعة المتخاصمين»^(١).

وقد أورد الشيخ موسى هذا الشرط بتسلسل (٤) ونصه: «أن يترك سب علي وأن لا يذكره إلا بخير» ولم يعلق عليه، بما يؤكد وجود الشرط ضمن الشروط.^(٢)

(١) ينظر: الصلابي، مصدر سابق، ص ٣١٩-٣٢٨.

(٢) سبق وأن تحدثنا باختصار عن موضوع السنة التي أبدعها معاوية بسب الإمام علي عليه السلام.

ونظراً لأهمية الشروط التي ذكرها الشيخ موسى ولاسيما وأنه أورد لائحة أخرى للشروط تحت عنوان (شروط معاوية للصلح) وضعها قبالة لائحة شروط الحسن عليه السلام، سوف أنقل النص حرفياً إتماماً للفائدة.

قال الشيخ موسى: «كتب الإمام الحسن عليه السلام، وكان ذلك بمسكن» وهذا أول الوهم فالحسن عليه السلام لم يكن بمسكن، ولم يصل إليها، لأنه كان حينها في المدائن، والصلح تم عن طريق المراسلة وليس المفاوضات المباشرة. المهم أن الشيخ ذكر لائحة الصلح وشروطه، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلم إليه ولاية المسلمين

١. على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢. ليس لمعاوية أن يعهد لأحد عهداً، بل تكون الخلافة للحسن من بعده، أو يكون الأمر شورى بين المسلمين. وفي رواية أخرى: «وليس إلى معاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين».

٣. الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم.

٤. أن يترك سب علي وأن لا يذكره إلا بخير.

٥. أصحاب علي آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا فلا يتعرض لأحد منهم بسوء.

٦. أن لا يبتغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة سرّاً ولا جهراً ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

٧. أن يوصل لكل ذي حق حقه.

٨. أن يوفر للحسن حقاً قدره خمسون مليون درهم (٥٠ ألف ألف) في كل سنة.

٩. أن يقضى له جميع ديونه.

١٠. أن لا يطالب أهل الحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه.

١١. أن يعطيه ما غني بيت مال الكوفة وهو خمسة ملايين درهم (خمس ألف ألف).

١٢. أن يكون له خراج دارأبجرد بفارس أو كورين من كور البصرة.

وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه، وشهد عليها عبد الله بن الحارث وعمرو بن سلمة وغيرهما، وكفى بالله شهيداً^(١).

أما لائحة شروط معاوية المقابلة لشروط الإمام الحسن (عليه السلام)، فقد نصت على:

١. لك الخلافة من بعدي فأنت أولى الناس بها، ولك بذلك عهد الله وميثاقه.

٢. لك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ، تحمله إلى حيث شئت.

٣. لك خراج أي كور العراق شئت، معونة على نفقتك يجيئها أمينك ويحملها

(١) حلیم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ص ١٨٣-١٨٤.

إليك كل سنة.

٤. أن لا يستولى عليك بالإساءة ولا أبغيك غائلة او مكروها.

٥. لا تقضي ديونك الأمور.

٦. لا تعصى في أمر أردت فيه طاعة الله.

٧. أن لا يتبع أحد بما مضى بالسب أو القذف.

٨. لا ينال أحداً من أتباع علي بمكروه.

٩. لا يذكر علي إلا بخير.

١٠. الولاية للحسين إن حدث بنا حدث.

١١. لك خراج دار الحرب من أرض فارس وخراج أبجرد أيضاً.

١٢. ولك في كل سنة خمسون مليون درهم^(١).

إن التلاعب بشروط الصلح وإعادة صياغتها بعيداً عن أصولها يأتي مكماً لتخريب عمل السياسيين الأوائل ومتساوقاً معه وداعماً لخطه بما يعني أن الحراك السياسي الأول لا زال فاعلاً ومتحكماً في علاقة المسلمين مع بعضهم، ولا زالت تأثيراته بادية على سلوكهم وتعاملهم مع الآخر، ويعني هذا أن المشاكل والإشكالات التي أثارها الفعل السياسي قديماً تثار اليوم بشكل وأسلوب آخر قريباً في جوهره من الأصل، وهي التي تتسبب في مشاكل المسلمين فيما بينهم وبين الآخر وأتباع الديانات الأخرى والحضارة العالمية القائمة، وتوقع الفوضى في مجتمعاتنا وتنشر ثقافة الكراهية والحد.

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٥-١٨٦

معاوية و الصلح

هذا هو معاوية الذي يصفه اليعقوبي بأنه: «جهم الوجه، جاحظ العين، وافر اللحية، عريض الصدر، عظيم الإليتين، قصير الساقين والفخذين»^(١) تحول بعد الصلح إلى إنسان آخر، لا تحده حدود، ولا توقفه سدود، يبتدع فتخاف الناس أن ترد عليه إبتداعه، ويأتي من يضع الأحاديث على لسان الصحابة ليشرعنوا تلك البدع؛ ففي حاشيته على حديث ابن أبي مليكة قال العسقلاني: «أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس فأتى ابن عباس، فقال: دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ قال العسقلاني: «قوله: (باب ذكر معاوية) أي ابن أبي سفيان واسمه صخر ويكنى أيضاً أبا حنظلة بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أسلم قبل الفتح، وأسلم أبواه بعده، وصحب النبي ﷺ وكتب له، وولي إمرة دمشق عن عمر بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان سنة تسع عشرة وإستمر عليها بعد ذلك إلى خلافة عثمان، ثم زمان محاربه لعلي وللحسن، ثم إجتمع عليه الناس في سنة إحدى وأربعين إلى أن مات سنة ستين، فكانت ولايته بين إمارة ومحاربة ومملكة أكثر من أربعين سنة متوالية»^(٢).

أما كيف تعامل معاوية مع شروط الصلح، فذلك يحتاج إلى فيلق من علماء النفس والأطباء النفسيين لتحليل هذه الشخصية المركبة المعقدة ولاسيما وأنه مهّد لضرب

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مصدر سابق، ص:

شروط الصلح بعرض الحائط وعدم الوفاء بها حتى في لحظة إرساله الصحيفة البيضاء إلى الحسن عليه السلام، ولقد حاول المؤرخون الدفاع عنه بحجج واهية ولكنهم لم ينجحوا في إخفاء تنصله عن تلك الشروط، فقالوا في دفاعهم أن الحسن عليه السلام بعد أن اشترط أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك في الصحيفة المختومة (امسكها عنده) أي لم يرسلها إلى معاوية ليعرف ما فيها فيوافق أو يرفض، وبالمقابل: «امسك معاوية صحيفة الحسن التي كتب إليه يسأله ما فيها، فلما التقى معاوية الحسن سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم معاوية في أسفله، فأبى معاوية أن يعطيه ذلك، فقال: لك ما كنت كتبت إلي أو لا تسألني أن أعطيكه، فإني قد أعطيتك حين جاءني كتابك. فقال الحسن: وأنا قد اشترطت حين جاءني كتابك وأعطيتني العهد على الوفاء بما فيه، فاختلفا في ذلك، فلم ينفذ للحسن من الشروط شيئاً»^(١)، ومع كل هذه الصراحة التي لا يمكن تأويلها أكثر مما جاء فيها يأتي أحد أحفاد السياسيين ليدعي كذباً بعيداً عن كل أصول البحث العلمي والمنطق والأخلاق.

أن هذا الأمر لم يقع، وإن معاوية: «التزم العمل ببندوه»^(٢)، وهذا كذب مفضوح ودس رخيص كان ولا زال يتحكم في مناهج بحث بعض المدارس الإسلامية.

لم يكن هذا الاختلاف هذا إذاً آخذنا بأقوالهم على علاقتها مجرد سوء فهم أو اختلاف على بعض ما جاء في الصحيفة؛ لأن مجرد موافقة معاوية على إرسال صحيفة بيضاء موهورة بختمه، حتى لو صدقنا قولهم أن الحسن عليه السلام وقعها ولم يرسلها إلى معاوية ليطلع عليها؛ يعني أنه أعطى الحسن عليه السلام صكاً موقعا على بياض جاهزاً للصرف بعد كتابة المبلغ أي كان مقداره فيه، وليس من حقه أن يعترض على المبلغ تحت أي ذريعة وأي عذر

(١) تاريخ الطبري، المجلد ٣، ص ٤٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

فالقانون لا يحمي المغفلين! فكيف وعشرات كتب التاريخ تثبت أن تبادل وثائق الصلح تم بين الطرفين بعد دمجها من قبل الشهود، وبموجب هذا التبادل تم وقف إطلاق النار وإتمام ما اتفقوا عليه؟

إن تخطبهم يذكرني بما أورده ابن قتيبة عن الحديث الذي دار بين الإمام الحسن عليه السلام وسليمان بن صرد الخزاعي بعد الصلح والذي ادعوا فيه أن سليمان حينما دخل على الإمام قال: «السلام عليك يا مذل المؤمنين!» ثم تخطبوا في حقيقة من قال هذه الجملة فقالوا مرة أنه سفيان بن أبي ليلى، وقالوا مرة أخرى أنه أبو عامر سعيد، وغير ذلك، المهم أن ابن قتيبة يروي من خلال هذا الحوار المزعوم أن سليمان أو أي من الأسماء التي ذكروها قال للحسن عليه السلام معاتباً: «ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العهد، ولا حظاً من القضية، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق كنت كتبت عليه كتاباً بذلك وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب أن هذا الأمر لك من بعده كان الأمر علينا أيسر»^(١)، أي أن ابن قتيبة ينكر أن تكون هناك صحائف قد تبودلت بين الجانبين، ويقتصر على كلام شفهي دار بينهما، والسبب أن ابن قتيبة من الجماعة الذين توهّموا أن الحسن عليه السلام ومعاوية التقياً في أرض المعركة كما يتضح من قوله عن الإمام الحسن عليه السلام: «فلما تمت البيعة له واخذ عهودهم وموآثيقهم على ذلك كاتب معاوية فأتاه فخلا به فإصطاح معه على أن لمعاوية الإمامة ما كان حياً، فإذا مات فالأمر للحسن»^(٢).

أما الحقيقة التي أحجم الرواة والمؤرخون عن التحدث عنها فهي أن السياسيين كانوا يعتبرون الصلح الذي اعتبره الإمام الحسن عليه السلام مرحلة لحفظ الدين؛ كانوا يعتبرونه من جانبهم مرحلة مؤقتة لامتناع الغضب الشعبي، فإذا نجحوا في ذلك؛ وهم قد

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، ج ١، ص ١٨٦

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٤

نجحوا فعلاً، فإن توظيف الصلح نفسه لقتل الإمام الحسن (عليه السلام) كان مرحلة أخرى من مراحل مشروعهم الذرائعي، وقد جاء رفضهم للشروط المدرجة في الصحيفة لاستفزاز الإمام الحسن (عليه السلام) عسى أن يرفض الصلح أو أن يخرج منه قول أو بيدر منه فعل فيه تهديد أو وعيد لهم، فيتخذوه ذريعة لقتله، وقد تقدم حديثنا عن مؤامرة عمرو بن العاص يوم طلب من معاوية أن يجبر الحسن (عليه السلام) لإلقاء خطبة في شعبه وأمتة بكل ما يمثله ذلك من حرج لقائد قد يعتقد شعبه إنه إنهمزم في المنازلة!

إن هذا الحراك غير العقلاني يأتي للدفاع عن السياسيين الذين لم يلتزموا بالشروط التي أوجب الإسلام على المسلم أن يلتزم بها، فالإسلام كان صريحاً دقيقاً واضحاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(١)، ذلك لأن الصلح قيمة عليا وهو من المفردات المهمة التي أولاها الخطاب القرآني عنايته فكثير تداولها به، وأستخدمها بمعان جاءت مشتقة من جذرها، وفي الكتاب العزيز الكثير من الكلمات المرتبطة بالصلح، مثل: صالح، صالحا، الصالحات، الصالحون، صالحين، الصالحين.

وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني: الصلاح ضد الفساد.. وقوبل في القرآن تارة بالفساد؛ وتارة بالسيئة، والصلح يختص بإزالة النفاق بين الناس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحو^(٢).

وفي معجم المصطلحات الفقهية: صلح: هو إنهاء الخصومة والاتفاق بعد النزاع. واصطلاحاً: عقد الصلح هو عقد للتسالم والتراضي بين شخصين ويكون العمل على طبق ما اتفقا عليه، وهو لازم على الطرفين.

(١) سورة المائدة، الآية ١.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ط ٦، ذوي القربى، قم، ١٤٣١هـ، ص

وفي اللغة صلحٌ، (ص ل ح): عَقَدَ صلحاً بَيْنَهُمَا، وَفَاقاً بَعْدَ خِصَامٍ. إِنهاءُ حَالَةِ الحُرْبِ، وفي مسند أبي داود والترمذي: (الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً).

والصلح معاهدة يتوصل بها إلى الإصلاح بين المختلفين ويتنوع أنواعاً: صلح بين المسلمين وأهل الحرب، وصلح بين أهل العدل وأهل البغي وصلح بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما. وأجمعت الأمة على جواز الصلح في هذه الأنواع التي ذكرناها ولكل واحد منها باب يفرد له، يذكر فيه أحكامه.^(١)

والمعاهدة تعهد وعهود، ولا يوجد من ينكر أن شروط الصلح كانت عهوداً واجبة الوفاء بكل ما للكلمة عهد من معنى في فكر وعقيدة الإسلام وقد وضع الإسلام قواعد للوفاء بالعهود وحدوداً لمن يخلفها، علماً إنه حتى في الجاهلية كانت هناك آداب توجب عليهم حفظ العهود حيث كانت عهود الجوار سائدة في قريش ومثلها عقود السقاية والحجاجة وغيرها وكانوا يراعونها حق رعايتها وحينما جاء الإسلام إمتدح فيهم حسن صنعهم مع العهود أما أن يأتي مسلم يُطلق عليه لقب (أمير المؤمنين) وينقض عهوده بل ويضعها تحت قدمه فذلك نزول إلى ما دون مستوى الجاهلية. ويرى عدنان النجوي: «أن كل عهد يبرمه المؤمن في حياته يجب أن يكون عهداً نابعاً من عهده مع الله، مرتبطاً به، ماضياً معه»^(٢).

ولما كان معاوية قد تخلى عن عهده للحسن عليه السلام فإنه بذلك يثبت عدم إرتباطه بعهد

(١) المغني، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي الحنبلي، الجزء الثاني عشر، كتاب الصلح.

(٢) العهد والبيعة وواقعنا المعاصر، الدكتور عدنان علي رضا النجوي، دار الهدى للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م، ص ٥٩.

الله سبحانه لأن «نقض العهود واتخاذ الأيمان بها دخلاً وغدراً هو صورة من صور السقوط وزلة القدم، وصورة كذلك من الصد عن سبيل الله»^(١) ولذا أرى أن المدارس الإسلامية التي تجيز قتل الآخر بالرغم من وجود عهود عقدية بينهما يفرضها الاشتراك بالعقيدة إنما وضع أسسه الفقهية عمل معاوية تجاه صلحه مع الحسن عليه السلام وهو لوحده يحمل كل الأوزار التي تترتب على ذلك تبعاً لقوله عليه السلام: «من سن سنة حسنة....» لكننا نسأل: وماذا بعد أن رفض معاوية الشروط، وتآمر لقتل الإمام؟

كان من المفروض، بل من الطبيعي تبعاً للأعراف الدينية والمجتمعية المتداولة أن يقوم الإمام الحسن عليه السلام هو الآخر بالتخلي عن تلك الشروط ما دام الطرف الثاني قد أدخل بها وهذا متداول حتى في عصرنا الراهن في الاتفاقيات الدولية بل وحتى في الأعراف العشائرية، ولكن الإمام عليه السلام بقى مصراً على التمسك بها لأنه يعرف أن أعمال معاوية كانت بهدف استفزازه ودفعه عنوة لكي يعلن عن رفضه الصلح فيقوم بأمر قواته بقتله والتخلص منه، وينفذ ما منعه الحسن عليه السلام عن تنفيذه في المرة الأولى.

أما بعيداً عن الروايات المسيسة فإن الوقائع كلها تثبت أن معاوية حرق الشروط كلها دفعة واحدة، فلم يعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (سيرة الخلفاء الصالحين) كما نصت المادة الأولى المحورة. ولم يلتزم بشرط أن يكون الأمر من بعده للحسن ثم للحسين عليهما السلام فجعل الولاية لابنه يزيد من بعده. ولم يتوقف عن سب الإمام علي عليه السلام تبعاً للشرط الثالث بل أصر على سب علي وإبنة الحسن عليه السلام. ولم يعط الحسن عليه السلام خراج أبجد كما نص البند الرابع مدعياً أن أهلها منعوه وهو لا يمكن أن يضغط عليهم. ولم يلتزم بخامس الشروط الخاص بأمان شيعة علي عليه السلام ومحبيه فبدأ بمطاردتهم والقصاص

منهم وقَتْلُ حجر بن عدي وجماعته خير شاهد على ذلك.

بل إن المؤرخين يجمعون على أن معاوية ألقى في النخيلة قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة، كما في رواية المعتزلي: «وسار معاوية حتى نزل النخيلة وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة وجاءت متقطعة في الحديث وسنذكر ما إنتهى منها إلينا»^(١)، فلماذا لم يذكروا منها سوى مقاطع صغيرة؟ ولماذا تم إخفاء غالبها؟ ألا يأتي ذلك لأسباب لا تحتاج إلى كثير عناء لكي تُعرف وأنها بطولها كانت على غرار ما رواه الاعمش بن عمرو بن مرة عن سعيد بن سويد قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة ثم خطبنا فقال: «والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجّجوا ولا لتزكّوا، إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»، وعلى غرار: «ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين، لا أفني به»^(٢).

(١) شرح النهج، م ٤، ج ١٦، ص ١٦

(٢) المصدر نفسه.



الحسن عليه السلام بعد الصلح

منذ (٤١) هجرية ولغاية ٤٩ أو ٥٠ أو ٥١ هجرية على اختلاف الروايات يقبع في الظل والعتمة عقد زمني من الصراع المرير، عقد عاشه الإمام الحسن عليه السلام بين نارين مستعرتين، نار الحزن على دين جده عليه السلام الذي يراه يتهاوى تحت ضربات السياسيين، ونار الحزن وهو يرى نظاماً ودولة تمر في مرحلة التأسيس المضطربة الحساسة فتسحق في طريقها آثار البناء النبوي العلوي، وفضلاً عن هذه وتلك كانت قيود الصلح وأوامر الوفاء بالعهد تُحجّم حراكه وتجعله يحسب للكلمة ألف حساب قبل أن يتفوه بها، ولذا وجد الإمام الحسن عليه السلام نفسه في وضع خطير، إما أن يتحمل ما يوجه إليه من نقد لاذع وكلام جارح من قبل الأصدقاء والأعداء ويسكت، وإما أن يجاهد دون أن يخرج على تعهداته وإلتزاماته، فإختار المواجهة الناعمة لتكون طريقه لرد هجماتهم والتصدي لتخريبهم. في هذه المرحلة الحساسة الحاسمة التي يصفها بعض أحفاد الفصيل السياسي بأنها كانت مرحلة وذّ ووثام بين الحسن عليه السلام والسياسيين الدنيويين. في وقت يعرف القاصي والداني أن سهام الحقد كانت تنطلق باتجاه الحسن عليه السلام من كل جانب. وفي الحالتين كان عليه أن يوضح منهجه والأسباب التي دفعته إلى الصلح والعودة إلى مدينة جده عليه السلام.

كانت كتب معاوية تأتيه بالتهديد والوعيد فيتصدى لها ولمن يلومه على موقفه من معاوية، روى المدائني عن إبراهيم بن محمد عن زيد بن أسلم قال: «دخل رجل على الحسن بالمدينة وفي يده صحيفة فقال له الرجل: ما هذا؟ قال: هذا كتاب معاوية يتوعد فيه على أمر كذا، فقال الرجل: لقد كنت على النصف فما فعلت؟ فقال له الحسن: أجل

ولكنني خشيت أن تأتي يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً تشخب أوداجهم دماً كلهم تستعدي الله فيم هريق دمه»^(١).

وكان أتباع معاوية يسبون الإمام علي عليه السلام علناً وعلى مسمع منه لإغاظته، فكان يتصدى لهم بيباء كبير، قال المدائني: وروى أبو الطفيل، قال: «قال الحسن لمولى له أتعرف معاوية بن خديج؟ قال: نعم، قال: إذا رأيته فأعلمني، فرآه خارجاً من دار عمرو بن حريث، فقال: هو هذا، فدعاه، فقال له: أنت الشاتم علياً عند ابن آكلة الأكباد دائماً، والله لئن وردت الحوض، ولن ترده، لترينه مشمراً عن ساقيه، حاسراً عن ذراعيه يذود عنه المنافقين»^(٢).

وكان يفضح ممارساتهم ويوضح لهم خاتمة أمرهم بسبب توليهم معاوية وخذلانهم الدين، قال أبو الحسن (المدائني): «حدثنا سليمان بن أيوب عن الأسود بن قيس العبدي أن الحسن عليه السلام قال لقي يوماً حبيب بن مسلمة فقال له: يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله! فقال: أما مسيري إلى أبيك فليس من ذلك؟ قال: بلى والله ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة، فلئن قام بك في دنياك؛ لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنت إذ فعلت شراً وقلت خيراً كان ذلك كما قال الله عز وجل: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾، ولكنك كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(٣).

وكان يتابع شيعته ويدافع عنهم ويحميهم من بطش السياسيين وأعدائهم، قال أبو الحسن (المدائني): «طلب زياد رجلاً من أصحاب الحسن ممن كان في كتاب الأمان، فكتب إليه الحسن: من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد، فقد علمت ما كنا أخذنا من

(١) المصدر نفسه، م، ٤، ح، ١٦، ص ٧

(٢) المصدر نفسه، المعتزلي.

(٣) المصدر نفسه، م، ٤، ح، ١٦، ص ٧.

الأمان لأصحابنا، وقد ذكر لي فلان أنك تعرضت له فأحب أن لا تعرض له إلا بخير، والسلام^(١) وهذا مغاير لما ادعاه الصلابي الذي يرى أن الهاشميين كانوا في المدينة محل إجلال وتكريم واحترام من معاوية^(٢).

وكان عليه أن يتصدى ويُقوِّم ويرشد وعاظ السلاطين، والمتفقيهن، ومن نصبوا أنفسهم في موضع الإفتاء والتفسير، ومن سمع من الرسول عليه السلام فوعى كُلاً أو جزءاً، ومن لم يبع شيئاً، وكِلا الأنموذجين كانا يكلمان الناس ويعلمانهم الدين ولا سيما الدين المخلوط بآراء السياسيين، ويستنبطون الأحكام الفقهية من هذا الخلط. فالمدينة يوم عاد إليها الإمام الحسن عليه السلام كانت تعج بخليط هجين من الناس بما فيهم صحابة رسول الله عليه السلام والتابعين، حيث كان فيها عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو هريرة وكثيرون غيرهم، وكان لكل منهم طريقته في التعامل مع الأحداث ومعطياتها حتى كثرت الرؤى والآراء، وكان الفكر الحسني هو بيضة القبان المطلوب منها أن توازن بين الأطروحات.

أذكر هنا أن كل ما وقع في معسكر الإمام الحسن عليه السلام في المدائن بما فيه الطعنة التي وجهها له الخارجي جراح بن سنان كان من تدبير وتخطيط معاوية، وفي حديثه عن المراسلات قبل الصلح بين الإمام ومعاوية ذكر ابن أبي الحديد أن معاوية كتب للحسن مهدداً: «أما بعد فإن الله يفعل في عباده ما يشاء لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب فأحذر أن تكون منيتك على أيدي رعا من الناس»^(٣). ومعاوية لا يعلم الغيب ولا يملك شيئاً من العلم الدني وليس بالمتنبئ أو العالم بالأبراج والنجوم وحساب الفلك

(١) المصدر نفسه، م، ٤، ج ١٦، ص ٧.

(٢) ينظر سيرة أمير المؤمنين، الصلابي، ص ٣٥٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، م، ٤، ج ١٦، ص ١٣.

ليعرف أن هناك رعاغاً سوف يحاولون قتل الحسن عليه السلام لو لم يكن هو من دبر تلك المكائد، وهو بعد سلسلة الجرائم الوحشية التي إرتكبها والتي صبر عليها الإمام الحسن عليه السلام قرر التخلص منه؛ فدرس له السم وقتله بنفس الطريقة والخديعة التي إستعملها مع مالك الأشر (رضوان الله تعالى عليه) لتصدق مقولته القميئة: «إن لله جنوداً من عسل» فقال الإمام الحسن عليه السلام وقد حضرته الوفاة: «لقد حاقت شربته، وبلغ أمنيته، والله ما وفّى بما وعد، ولا صدّق فيما قال»^(١).

وسواء كان معاوية قد طلب الصلح خدعة أو أن الإمام الحسن عليه السلام قد طلبه تنفيذاً لوصية جده في الإصلاح بين الفئتين فإن الأمة هي الملامة أولاً وأخراً لأنها لم ترعى أهل بيت النبوة بما أمر به جدهم عليه السلام، ولم يتمسكوا بهم، وإنما تمسكوا بالسياسيين الدينيين الذي أخرجوهم من الدين وأدخلوهم الدنيا، «عن عبد الله بن الحسن المثنى عن أبيه الحسن السبط عليه السلام قال: خطبنا جدي المصطفى عليه السلام يوماً فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: معاشر الناس إني أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن تمسكتم بهما لن تضلوا وإنيهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فتعلموا منهم ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ولا تخلوا الأرض ولو خلت لساخت أو لإنساخت بأهلها، ثم قال: اللهم إنك لا تُخلي الأرض من حجةٍ على خلقك لئلا تبطل حجتك ولا تضل أولياءك بعد إذ هديتهم، أولئك الأقلون عدداً والأعظمون قدراً عند الله عز وجل، ولقد دعوت الله تبارك وتعالى أن يجعل العلم والحكمة في عقبي وعقب عقبي وفي زرعي وزرع زرعي إلى يوم القيامة فاستجب لي»^(٢).

(١) تذكرة الخواص: ٢٣، وتاريخ ابن عساكر: ٤ / ٢٢٦، وحلية الأولياء: ٢ / ٣٨، وصفوة

الصفوة: ١ / ٣٢٠.

(٢) أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ط٣، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص ١٤.

لقد كان رسول الله ﷺ يكرر على أسماع الأمة: «اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» «أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم» «اللهم أحب من أحبهم وابغض من ابغضهم ووال من والاهم وعاد من عاداهم وأعن من أعانهم وأجعلهم مطهرين من دنس معصومين من كل ذنب» فكم واحد من الأمة تمسك بهذه الوصايا؟ وكم واحد أخلص لرسول الله وأتبع أمره؟ أنا لا أريد الإدعاء بأن لا أحد تمسك بهذه الدعوات لأن هناك من خلص الصحابة والتابعين من تمسك حرفياً بكل قول تلقاه من رسول الله ﷺ ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة لأن السياسيين حرفوا الناس عن الطريق القويم وأثروا على عقولهم، وربما لهذا السبب كان رسول الله ﷺ إذا ما استقبل الحسن أو الحسين عليهما السلام يبكي لكي ترسخ الوقائع في قلوب المسلمين ولا يعلوا عليها في قلوبهم رنين الدنانير.

لقد أقبل الحسن عليه السلام على جده ﷺ فناده: «إلي إلي يا بني فأدناه وأجلسه على فخذه وبدأ يذكر الأمة بما سيمر عليه فقال: أما الحسن فإنه إبني وولدي مني وقرة عيني وضيء قلبي وثمره فؤادي وهو سيد شباب أهل الجنة وحجة الله على الأمة، أمره أمري وقوله قولي، فمن تبعه فإنه مني ومن عصاه فليس مني وإني لما نظرت إليه تذكرت ما يجري عليه من الذل بعدي» وأنا واقعاً متى ما قرأت هذا النص الغريب أفف عند جمل منه بعينها ومنها قوله ﷺ: «وهو سيد شباب أهل الجنة» «وحجة الله على الأمة» فهي تأكيد دامغ لا يقبل التأويل على أن من رفض حجة الحسن عليه السلام إنما رفض حجة رسول الله ﷺ وعصاه وخرج عن طوعه وخالف أمره. وقوله: «أمره أمري وقوله قولي» التي تعني أن من وضع أمره قبالة أمر الحسن عليه السلام إنما جاء بتحد للنبوّة بقدسيّتها ووضع أمره قبالتها تحدياً لها. وقوله: «فمن تبعه فإنه مني ومن عصاه فليس مني» التي تعني أن الذين تبعوا السياسيين وأطاعوهم وخالفوا الحسن عليه السلام وعصوه فإنهم أخرجوا أنفسهم من طاعة رسول الله ﷺ ودخلوا في طاعة الشيطان، فماذا بعد ذلك؟ ماذا يحتاج المعارض أكثر من

هذه الحقائق لكي يعرف موضع قدمه قبل أن تزل به إلى الهاوية؟

وجاء عن عائشة أن النبي ﷺ كان يأخذ حسناً فيضمه إليه ثم يقول: «اللهم إن هذا ابني وأنا أحبه وأحب من يحبه»^(١)، فهل أن من حاربه وظلمه وآذاه وسلبه حقه يحبه ويجب فيه رسول الله ﷺ؟ وهل أن من قاتله ووضع شروط الصلح تحت قدمه وآذاه ينجو بفعلته اللئيمة هذه، وهو الذي آذى رسول الله ﷺ وآذى الله سبحانه؟ بل هل أن من نسي الدور الريادي الكبير للإمام الحسن (عليه السلام) فإتهمه بأنه أخلد بصلحه إلى الدعة وآثر العافية والراحة، وفاه حقه؟

رحم الله سماحة السيد المجاهد عبد الحسين شرف الدين الذي قال في مقدمته لكتاب صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين: «ومن الغريب بقاء الناس في عشواء غمء من هذا الصلح إلى يومهم هذا»^(٢).

لقد أدرك الإمام الحسن (عليه السلام) أن وضع الكوفة والأمصار التي بايعته لا يقوى على تجهيز جيش له قدرة الوقوف بوجه الجيش الشامي الجرار، وشعر بالخطر مع تضائل المسافة بين جيش الشام والكوفة ولذا لجأ إلى خطة محكمة أراد من خلالها تأخير هجوم معاوية إلى أن يتمكن من تجميع قواته فلجأ إلى المراسلات التي تنوعت معانيها ومضامينها بين التهديد والوعيد إلى الدعوة للإصلاح وحقن الدماء وتوحيد السيوف الإسلامية باتجاه واحد، أي أنه استدرج معاوية من خلال تلك الرسائل ليتمهّل بالهجوم على الكوفة، فلما اعترضت جهده مواقف الخذلان التي بدا عليها جنده وشعبه المثخن بالجراح وذكريات المعارك الدموية آلى على نفسه أن لا يكون السبب في سفك دماء ليس

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٢) صلح الحسن، الشيخ راضي آل ياسين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٣١ هـ.

من ورائها طائل، فوافق على الصلح الذي عرضه عليه معاوية، فصان بذلك الدين ودماء المؤمنين.

أما الوجه الذي تجرأ وقاتل حبيب الله ورسوله، وهو معاوية بن أبي سفيان بن حرب فقد حاول في سعيه لشرعنة وجوده على رأس هرم السلطة أن يخلق منظومة حديثة وينسبها لرسول الله صلوات الله عليه وآله تمتدحه وتطعن بالآخر، فأوجد جيشا من الوضاعين الذين باعوا آخرتهم بدنياههم؛ رضوا أن يضعوا له مئات الأحاديث التي وصل الأمر ببعضها أنها طعنت بصحابة آخرين مثل أبي بكر وعمر كما في حديثهم «حدثنا محمد بن الحسين الفارسي قال: حدثنا محمد بن بكار السكسكي قال: حدثنا أبو القاسم يزيد بن محمد بن عبد الصمد قال: حدثنا محمد بن شعيب بن شابور قال: حدثنا مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حلبس الحبلائي، عن عبد الله بن بشر: أن رسول الله صلوات الله عليه وآله استشار أبا بكر وعمر في شيء، فقالا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله: ادع لي معاوية. قال: فغضب أبو بكر وعمر فقالا: أما كان في رسول الله ورجلين من قريش ما يجدون أمر رسول الله؟ فقال رسول الله: ادع لي معاوية. فلما جاءه وقف بين يديه، فقال: حملوه أمركم؛ فإنه قوي أمين»^(١).

ويأتي هذا بعد أن دعا له النبي صلوات الله عليه وآله كما يزعمون بالعلم والوقاية من النار، ففي المصدر نفسه: «حدثنا الحسين بن عمر، حدثنا إسماعيل بن محمد، حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا قتيبة بن سعيد، عن ليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن يونس بن سيف، عن الحارث بن زياد صاحب رسول الله صلوات الله عليه وآله: دعا لمعاوية، فقال: اللهم علمه

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، مصدر سابق، ج ٨، ص: ١٥٢٥، حديث رقم

الكتاب والحساب، وقه العذاب»^(١).

وفي حديث آخر قالوا أن النبي دعا له ليَجعله الله هادياً للأمة: «حدثنا علي بن عمر، حدثنا إسماعيل بن محمد، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا أبو مسهر، حدثنا سعيد، عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني قال سعيد: وكان من أصحاب النبي، عن النبي، قال في معاوية: اللهم اجعله هادياً مهتدياً، وأهده وأهد به»^(٢).

وفي حديث آخر يبشره بأنه من أهل الجنة بعد أن تعذر إدخال اسمه ضمن قائمة (العشرة المبشرين) لأسباب خاصة! بل وإنه يتزاحم مع رسول الله ﷺ على باب الدخول إلى الجنة كفرسي رهان أو كالسبابة والوسطى، وقد يسبق الرسول ﷺ لأن الحديث لم يذكر من سبق منهما! «حدثنا علي بن عمر قال: حدثنا إسماعيل بن محمد قال: حدثنا عباس بن محمد قال: حدثنا عبد العزيز بن يحيى المروزي، سكن الدجيل قال: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة، فدخل معاوية، ثم قال من الغد، ودخل معاوية، ثم قال من الغد مثل ذلك فدخل معاوية، فقال رجل: يا رسول الله هذا هو؟ قال: هذا هو. ثم قال رسول الله: أنت مني يا معاوية وأنا منك، أنت تزاحمني على باب الجنة كهاتين السبابة والوسطى قال: وجمعهما»^(٣).

بل وجاءوا بحديث ادعوا فيه أن النبي ﷺ وعده بالخلافة وقال له إذا وليت فأتق الله وأعدل! «حدثنا محمد بن أحمد بن سهل قال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن قال: حدثنا بشر بن موسى قال: حدثنا أحمد بن محمد الأزرق قال: حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٢٧، حديث ٢٧٧٧،

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢٧، حديث ٢٧٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢٧، حديث ٢٧٧٩.

قال: كانت إدواة^(١) يحملها أبو هريرة يوضئ بها رسول الله فأخذ معاوية إدواة مثلها، وكان يتبع بها رسول الله فنظر إليه النبي، وقال: إن وليت أمراً فاتق الله واعدل^(٢).

ونسبوا إلى معاوية حديثاً يدعي فيه بأنه لن يخرج من الدنيا إلا بعد أن يبتلى بالخلافة، كما في قوله الذي أخرجه له جماعة شرح أصول اعتقاد أهل السنة: «قال معاوية: قد عرفت أني لا أفارق الدنيا حتى أبتلى؛ لقول رسول الله: إن وليت أمراً فاتق الله واعدل^(٣)».

ولا أدري من ضربه على يده لكي يبتلى نفسه بالخلافة؟ أليس هو الذي حارب علياً عليه السلام ودس له من يقتله غدراً كل ذلك طمعاً بها؟ أليس هو من حارب الحسن عليه السلام ودس له من يسقيه السم ختلاً طمعاً بها؟ أليس هو من أوصى ولده يزيد بقتل كل من لا يبايعه على الخلافة حتى ولو كان الحسين ابن النبي صلى الله عليه وآله؟ أليس هو من قال لأهل الكوفة: بل قاتلكم لأتأمر عليكم؟ أليس هو الداهية الماكر الذي إستخدم كل إنحطاط السياسة وغدرها لكي يستولي على خلافة المسلمين؟

ومع إنتهاء حقبة وضع الحديث جاءت حقبة وضع المقال ونشره، وكما كان الحديث مدفوع الثمن بالدينار الذهب أصبح المقال مدفوع الثمن بدولار البترول، وإذا ما كان هناك من يصدق بالأقوال التافهة المكذوبة المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويأخذ بها ويعتمدها مصدراً للتوثيق لا يصعب عليه أن يأخذ بما يأتي في المقالات التافهة.

أليسوا هم من أرادوا تلميع الصورة المشوهة للدهاء الذي وصف به معاوية، والذي قلنا من قبل أنه مصطلح استخدم بدلاً عن مصطلح السياسة، حيث حاول وعاظ

(١) هكذا بالأصل والصحيح إدواة: وهي إناء صغير من جلد يتخذ إناء.

(٢) المصدر نفسه، شرح أصول الاعتقاد، ص ١٥٢٥ حديث ٢٧٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٥٢٥، حديث ٢٧٧٤.

السلاطين إضفاء لمسة من الشرف على سياسة الدهاء والمكر فحولوها من (الخديعة والتآمر) إلى (الأناة والحلم) حيث جاء عنهم قولهم: «حدثنا عبد الرحمن بن عمر، حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن الصلت قال: حدثنا النضر بن إسماعيل البجلي، عن مجالد، عن الشعبي قال: الدهاة أربعة: معاوية للأناة والحلم، وعمر و للدهاية والحرب، والمغيرة للمعضلات الشدائد، وزياذ على الصغير والكبير»^(١).

وإلى الذين يعتقدون بأن الله تعالى يحب معاوية ولذا فقهه في الدين ووفقه للفوز بالخلافة وأعانه للانتصار على أعظم شخصيتين في التاريخ؛ الإمام علي وولده الحسن عليهما السلام أكتفى بإيراد رأي المرحوم سيد قطب^(٢) بمعاوية وانتصاره المزعوم، قال سيد قطب: «إن معاوية وزميله عمرو بن العاص لم يغلبا علياً لأنها أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنها طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مُقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع. وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل. فلا عجب إذ ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح. على أن غلبة معاوية على علي، كانت لأسباب أكبر من الرجلين: كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، وإتجاه على إتجاه. كان مدُّ الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر. وإرتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار. من هنا كانت هزيمته، وهي

(١) المصدر نفسه، ص: ١٥٣٤، الجزء ٨، حديث رقم ٢٧٩٠.

(٢) سيد قطب رجل دين مصري هو الذي أسس تنظيم الإخوان المسلمين في مصر في خمسينات

هزيمة أشرف من كل انتصار»^(١).

لقد ذكر سيد قطب جزء صغيراً من الحقيقة الكبيرة، فماذا كان مصيره، وكيف جوبه؟ وكيف نظر إليه المعاصرون من أحفاد السياسيين القدماء؟ ولماذا وصل بهم الأمر إلى تكفيره؟ إن من ينبغي التجديد والتصحيح يجابه بهجمات شرسة لإجباره إما على الرجوع عن آرائه، أو السكوت وعدم التكلم، ولذا كانت الهجمة التي جوبه بها سيد قطب شديدة لدرجة أنهم اتهموه بأنه يسب الصحابة ويتناول على الجيل الأول، بل ويسب الأنبياء، وأول من تبنى تكفيره هم الإفتائيون من أبناء الفصيل السياسي بالذات، ومن هؤلاء (عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ) المفتي العام للمملكة العربية السعودية يرد على كلام سيد قطب في (الصحابين) معاوية وعمرو بن العاص بقوله: «هذا كلام باطني خبيث أو يهودي لعين ما يتكلم بهذا مسلم. عمرو بن العاص شهد له النبي بالجنة ومعاوية من فضلاء الصحابة وهم رضي الله لهم الدين وأهل وتقوى وصلاح لا يشك مسلم فيهم ولا فعلوا شيئاً يعاب عليهم وكل ما قاله أولئك فمجرد فرية وكذب وتضليل وعباداً بالله عنوان نفاق ممن قاله» وبعد هذه الهجمات الشديدة سكت سيد قطب وسبح مع التيار لا ضده.

وفي مناسبة أخرى كتب محمد حامد الأحمري موضوعاً عن ما سمي بالربيع العربي قال فيه: «وهذه الثورات هي تحرير من العبودية للحاكم المستبد، وإنقاذ للإنسان العربي الذي تردى في ظلمات الاستبداد عقوداً طويلة، حتى كاد ينسى كرامته وحرية، إن هذا التحرر استعادة لقيم الحرية والاختيار في الإسلام، تلك التي غابت منذ أن أجبر معاوية العرب على حكم يزيد، فحرموا بعدها قروناً متطاولة من المشاركة في اختيار

(١) كتب وشخصيات، سيد قطب، طبعة دار الشروق، القاهرة، صفحة ٢٤٢-٢٤٣.

الحاكم» فثارت ثائرتهم وجن جنونهم، فكفروه وفسقوه وأباحوا دمه، ونعتوه بواطيء النعوت مثل: قزم، زائع، ضال، الدعي، الصعلوك، المرتزق، الخبيث، ولقد وردت هذه النعوت كلها في مقال واحد كتب ضده، ولك أن تتخيل النعوت الأخرى التي نعت بها الرجل لمجرد أنه قال: «منذ أن أجبر معاوية العرب على حكم يزيد» وهي حقيقة تاريخية يعرفونها قبل غيرهم!

إن المقال المذكور نشر في جريدة العرب القطرية وجاء فيه: «كيف لقزم يتهجم على الجبل الأشم والطود العظيم الذي ضرب به المثل فقال المسلمون عنه: وفاء بغدر خير من غدر بغدر، يا للعجب أن يأتي زائع ضال ليرمي نجم العوالي معاوية، الذي استنارت بحلمه الأرض وتعطرت المجالس بذكره الجميل. يا لمهزلة الدعي الأحمرري، صعلوك مرتزق يرفع عقيرته ويتبجح ليطول السحاب أو يزحزح الجبال. يا من تتناول بين الفينة والفينة في أطروحاتك وتلميحاتك الخبيثة عظيم من عظماء التاريخ ألا وهو سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه معاوية وما أدراك ما معاوية؟ أحد دهاة العرب وسادتها في الجاهلية والإسلام، فاتح عظيم وقائد سياسي محنك فصيح اللسان شجاع كريم شهم حليم من أعظم خلفاء المسلمين في التاريخ»^(١). ولك أن تتخيل الحالة النفسية التي يمر بها الكاتب وهو يقرأ مثل هذا التهديد والوعيد، ولا سيما في زمن الكواتم والمفخخات.

القضية التاريخية بكل تأكيد ليست كما يريد تدليسها أحفاد السياسيين الأولين، ولا إجهاد فيها، ولا أجر لمن خرج عن طاعة الشرعية والشرعية، بل كانت ثأرا سياسيا تعود بداياته إلى أيام البعثة الأولى، يوم نزع الإسلام هيبة العرب الجاهليين ومرغ أنوف العصاة منهم بالتراب، وإستمرت تتجدد مع كل واقعة في ذلك التاريخ فكانت كل

(١) جريدة العرب القطرية، الأحد ١٢ / ٦ / ١٤٣٢ هـ، ١٥ / ٥ / ٢٠١١ م، الدوحة عبدالله

حروبهم التي شنت ضد الإسلام بسببها وطلباً للثأر البدوي القديم وذحل الجاهلية اللئيم، ثم جاءت حروبهم مع علي عليه السلام طلباً للثأر ذاته، وبعدها جاءت حروبهم مع الحسن عليه السلام فلما صالحهم فرحوا لأنهم أخذوا بثأرهم من أهل البيت عليهم السلام.

ولقد اعترف السياسيون أنفسهم بأنها معركة ثأر لا معركة عقيدة أو جهاد، وأن فوزهم الظاهري فيها هو الذي أعاد لهم أمجاد جاهليتهم التي جردهم الإسلام منها، فأسمع إلى قول السياسي ابن كريز عن هذا الثأر، كما نقل الثقفى في الغارات: «فلما بايعه الحسن تفرغ معاوية لاستعمال العمال، فبعث المغيرة بن شعبة على الكوفة... وبعث عتبة بن أبي سفيان على البصرة، فقام إليه عبد الله بن عامر^(١) وقال: يا أمير المؤمنين إن عثمان هلك وأنا عامل البصرة عزلني علي فجعلت مالي ودائع عند الناس، فإن أنت لم تولني البصرة ذهب مالي الذي في أيدي الناس، فولاه عند ذلك البصرة، فخرج إليها، وشرح معه معاوية بسر بن أرطاة في جيش؛ فأقبل حتى دخل البصرة فصعد المنبر فقال: الحمد لله الذي أصلح أمر الأمة وجمع الكلمة وأدرك لنا بثأرنا وكفانا مؤنة عدونا... ثم إن بسراً صعد درجتين من المنبر ثم نادى بأعلى صوته: ألا إن ذمة الله بريئة ممن لم يخرج فيبايع، ألا إن الله طلب بدم عثمان؛ فقتل قاتليه ورد الأمر إلى أهله»^(٢).

فهل أن أمر الإسلام يعود إلى الطلقاء فنزعه أهل البيت عليهم السلام منهم تحديداً لأمر الله

(١) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس يكنى أبا عبد الرحمن ابن خال عثمان بن عفان، ولله البصرة بعد عزله لأبي موسى الأشعري وضم إليه بلاد فارس وهو ابن خمس وعشرين سنة وبقي عليها إلى أن قتل عثمان فسار بها عنده من الأموال إلى مكة فوافى طلحة والزبير ورجع بهم فشهد معهم وقعة الجمل ولم يحضر صفين ثم انضم إلى معاوية فولاه البصرة وبقي عليها ثلاث سنين ثم عزله فنزل المدينة ومات سنة سبع أو ثمان وخمسين. ينظر: الإصابة، ابن حجر، حرف العين.

(٢) الغارات، الثقفى، ص ٤٤٤-٤٤٥.

فأعاده الله إليهم، لكي يدعي بسر مثل هذا الإدعاء الأجوف، أم ماذا؟ وهل أن علياً عليه السلام هو من قتل عثمان لكي يطلبوا ثأرهم لعثمان منه ومن بنيه؟ وبأي حق يطلبون ثأراً من خليفتين شرعيين اختارتها الأمة؟ ولماذا كرهوا علياً عليه السلام كل هذا الكره؛ فكفروه؛ وهو أول القوم إسلاماً، وأعظمهم إيماناً، وأقربهم إلى رسول الله ﷺ؟

فضلاً عما تكشفه هذه الرواية التي وضعت النقاط على الحروف يتبين أن طلب ثأرهم الجاهلي كان عميقاً في كرهه لعلي عليه السلام ولكل ما يمت لعلي عليه السلام بصلة، ويكفي دليلاً أن أحد قواد معاوية المقربون منه وهو بسر بن أرطأة الذي دخل البصرة مع ابن كريز بعد مقتل علي عليه السلام قام على المنبر فذكر علياً عليه السلام فقال: «أنشدكم بالله أتعلمون أن علياً كان كافراً منافقاً؟ فسكت الناس. فرد عليهم القول؛ وقال: ألا ترون أناشدكم؟»^(١).

ولم يكتف بسر بن أرطأة بتوجيه هذا الاتهام إلى رجل الإسلام الخالد وإنما قام بأفعال شنيعة مروعة ضد أتباع علي عليه السلام ومحبيه وشيعته والسائرين على نهجه: «قال: وأقبل بسر يتتبع كل من كان له بلاء مع علي عليه السلام أو كان من أصحابه وكل من أبطأ عن البيعة، فأقبل يحرق دورهم ويحربها، وينهب أموالهم»^(٢).

إن الترضي والترحم على معاوية جاء من تمسك بعض المدارس الإسلامية بحديث منسوب إلى رسول الله ﷺ عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله يقول ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»^(٣) وتجد المنافذ التي فتحها لهم هذا

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٧-٤٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ص ٢٦٨، ج ٤، دار الفكر بيروت بغداد.

الحديث واسعة يمر من خلالها الجمل والفيل والزرافة والحصان وحتى البغل والحمار وما هو أصغر أو أكبر.

وبناءً عليه عدّوا معاوية في صفين مجتهداً أخطأ وله أجر لأن الله عادل لا يمكن أن يجرمه من الأجر حتى ولو تسبب بمقتل أكثر من مئة ألف مسلم موحد. ولكنك تجدهم يعدون الحسن بن علي عليه السلام الخليفة الشرعي الذي كان يدافع عن الشرعية والعقيدة قبالة تلك الهجمة مجتهداً أخطأ وله أجر واحد تماماً مثل أجر معاوية في صفين. وبين هذا وذاك لا يعدون الحسين عليه السلام مجتهداً سواء أكان مخطئاً أم مصيباً؛ فلا أجر له، لأنه خرج على خليفة لا يملك ذرة من الشرعية، فأبي تحيز كبير هذا؟

إن هذا التمايز الغريب جعلهم يعدون من أمتنع عن دفع الزكاة لحكومة الخليفة أبي بكر مرتداً كافراً، بينما يعدون من خرج على الخليفة علي عليه السلام وحاربه طمعاً في الدنيا، صحابياً عدلاً ومن المبشرين بالجنة. وجعلهم يعدون من سب أحداً من الصحابة مهما كانت منزلته كافراً زنديقاً متآمراً على الإسلام يستوجب التعزير فإن لم يمتنع يقتل، أما من يمتنع عن سب صحابي جليل كما فعل حجر بن عدي (رضي الله عنه) الذي امتنع عن سب الإمام علي عليه السلام فمصيره الذبح؛ لأنه بنظرهم متأول عاص مخالف للجماعة يستحق القتل صبراً.

هذا التمايز المتحيز إستمر إلى اليوم بما يؤكد أن المنهج السياسي القديم لا زال فاعلاً ومؤثراً ومتحكماً بعقول عدد كبير من المسلمين، فعندما دخلت المعارضة العراقية إلى البلد أثناء وبعد الاحتلال الأمريكي حكم عليهم أحفاد السياسيين بالكفر وكفروا تبعاً لذلك جميع الشيعة، وإعتبروهم من الخارجين من الملة باعتبار أنهم استعانوا بالأجنبي الكافر للخلاص من الطاغية، ولكنهم لا بأس أن يستعينوا بالكافر الأجنبي نفسه

لتحرير الكويت من الغزو الصدامي، ولا بأس أن تمر بوارج أمريكا الحربية من قناة السويس وتنطلق طائراتها الحربية من القواعد الخليجية لقصف العراق بتبريك من الأخوان المسلمين، ولا بأس أن تتخذ القيادة المركزية الأمريكية للحرب على العراق من قاعدة (السيلية) القطرية مقراً متقدماً لها، ولا بأس أن يستعينوا بعد ذلك التاريخ بالأجنبي الكافر نفسه لقتل الرئيس الليبي معمر القذافي وتخريب ليبيا، ولا بأس أن يستعينوا به لقتل الرئيس السوري بشار الأسد. ولا بأس أن يستعينوا به لتدمير حزب الله في لبنان. ومع ذلك يتهمون العراقيين الشرفاء بأنهم عملاء وأذئاب للمحتل الأمريكي ويجب قتلهم وقتلهم بكل الطرق الممكنة فاستقدموا الإنتحاريين المجانين من فلسطين والأردن وليبيا وسوريا والسعودية ومصر والمغرب وإريتريا وموريتانيا واليشان وأوكلوا لهم ذبح الإسلام والمسلمين.

وقد ذهب الشيخ يوسف القرضاوي إلى مصر أثناء ما عرف باسم (ثورة الربيع العربي) وصلى بالناس جماعة في ساحة التحرير بالقاهرة يجرضهم على القتل والهمجية، ولكنه بعد عودته إلى الخليج أصدر فتوى تكفر الثوار البحرينيين وتعددهم من الخارجين على ولي الأمر!

واليوم تجد السعوديين والقطريين يدافعون بقوة وشراسة عن الشعب السوري وحقه بالحصول على نظام ديمقراطي وإنتخابات حرة نزيهة وهم أنفسهم لا يسمحون بمجرد التظاهر السلمي؛ ويعدون الديمقراطية والانتخابات والمظاهرات بدعا مخالفة للإسلام ولا إجتهد فيها!

وأنا هنا لا أجتري على أحد ولا أتهم أحداً من عباد الله ظملاً حينما أورد الحقيقة التاريخية التي عجزت مصادر المخالفين عن تكذيبها أو تضعيفها، ولا أتناول على

صحابة رسول الله ﷺ حينما أنقل ما شجر بين السياسيين منهم وبين أهل البيت الكرام ﷺ؛ كيف وكل ما يشجر بيننا اليوم من نزاع وصراع ومواجهة أصله ومنبعه من تلك المصائب التي أحدثها السياسيون؟

أما ما يسمونه ظلماً باسم (حسن الظن) فلا حسن فيه، لا والله، فمن المستحيل أن أكذب عقلي وأبطل المنطق وأضعف المنهج العلمي وأخالف المنقول الصادق وكل الحقائق لكي لا أتهم بسوء الظن لمجرد أنني أقول الحقيقة، لا، فذلك يعني الخداع بعينه والدجل بأعلى صوره والتدليس والكذب والمراوغة وكل العادات السيئة في الكون، كيف أسكت عن حقائق واضحة وضوح الشمس لكي أحسن الظن بمن تسبب في تدمير الإسلام وتقسيمة وإضعافه وقتل جماله وسماحته وبساطته؟ كيف أسكت عمن تسبب بمقتل آلاف الصحابة الكرام في الجمل وصفين والنهروان وغيرها؟ كيف أسكت وهل من المعقول أن أصدق بالصفة التي وضعها دكتور خالد بن محمد الغيث عضو هيئة التدريس في جامعة أم القرى قسم التاريخ الإسلامي لسلامة القلب بقوله المرعب: «فإن سلامة القلب تجاه صحابة رسول الله ﷺ، والتأدب معهم، وإحسان الظن بهم هي من صميم اعتقاد أهل السنة والجماعة، وعن ذلك يقول ابن الصلاح رحمه الله: ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لا بس الفتن منهم فذلك، بإجماع العلماء الذين يُعتد بهم في الإجماع؛ إحساناً للظن بهم، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكأن الله سبحانه أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة، والله أعلم»^(١).

ومع انه لا يوجد عاقل في الكون كله ممكن أن يصدق فكرة أننا نتناول على الصحابة الكرام؛ ذلك الجيل المثالي الرائع لمجرد ذكرنا لبعض حقائق التاريخ ولبعض ما

(١) المقدمة، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، دراسة نقدية مقارنة، دكتور خالد بن

محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، ١٤٢٠-٢٠٠٠.

أحدثته سياسة بعضهم من نفور وتباعد، إلا أن السياسيين المعاصرين أحفاد السياسيين الأوائل وبعد أن أيقنوا بصحة معتقدنا صُعبَ عليهم أن يكتشف العالم حقيقة ما يدور فأرادوا منعنا من بيان مثالب معاوية وباقي السياسيين بإعتبار أن ذلك هو المنفذ للتطاول على الصحابة، أو كما يقول الدكتور خالد بن محمد: «هذا ويشكّل من لابس الفتنة من الصحابة مثل معاوية مدخلاً لأعداء هذا الدين للنيل من صحابة رسول الله ﷺ، وعن ذلك يقول عبد الله بن المبارك (رحمته): معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، إتهمناه على القوم (يعني الصحابة) وقال الربيع بن نافع الحلبي (رحمته): معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر، إجتراً على ما وراءه»^(١).

إن هذا التخطئ الأعمى هو الذي دفع المدعو فيصل نور إلى خبط الحابل بالنابل وتوجيه السب واللعن إلى جميع من وقفوا موقفاً تصحيحياً من معاوية، فقال في موقعه: «ما زال مسلسل الشيعة الإمامية عليهم من الله ما يستحقون في النيل من الصحابة الكرام وأعراضهم مستمراً ومن ضمن هؤلاء الصحابة معاوية بن أبي سفيان الذي قاتل علياً عليه السلام وهذا القتال جرى بقدر الله تعالى ليبلي المؤمنين به هل يمسون ألسنتهم ويسلمون أم يخوضون فيه ويأثمون. لكن الشيعة هداهم الله أصروا على موقفهم من معاوية، انه ضال كافر فأوردنا عليهم دليلاً قاصماً لا يمكن رده وهو مبايعة الحسن لمعاوية بعد مقتل أبيه علي عليه السلام.... فنحن نقول: ها هو الحسن عليه السلام إمامكم المعصوم قد بايع معاوية ورضي بمبايعته... فكيف يبايعه ويأمر بمبايعته إذا كان يعتقد أنه ضال كافر؟ ثم إن فعل الإنسان أي إنسان لا يخلو أن يكون: إما صحيح محض، أو خطأ محض، أو صحيح يحتمل الخطأ، أو خطأ يحتمل الصحة. فمن أي هذه الأنواع كان

فعل الحسن^(١).

فانظروا إلى من خدعهم هراء التاريخ الكاذب كيف تعلقوا بماضي تافه جامد حجب الرؤية عنهم وباعد بينهم وبين الحياة الطبيعية. أنظروا إليهم كيف تعلقوا بموارث الكذب والدجل والخديعة والغش والدماء، وكيف أثّر هذا التعلق على طرائق تفكيرهم وسلوكهم فجمدهم في مساحات مغلقة لا علاقة لها من التاريخ المعاصر والحياة القائمة فباتوا في سلوكهم وكلامهم وكأنهم أقوام غزتنا من عمق التاريخ ومجاهل الصحراء التي لم تصل الحضارة إليها ولم يطرق التمدن بابها، فأضافوا إلى هموم البشرية هموماً أخرى في وقت يبدو فيه المشهد العالمي المعاصر مأساوياً بكل ما للكلمة من معنى حيث ثلث العالم في حالة حرب، وثلاثون مليون شخص مصابون بمرض نقص المناعة المكتسبة (الايدز) في أفريقيا وحدها، وكل بقرة في الاتحاد الأوروبي تستهلك نحو ٢,٥ دولار في اليوم وهذا أكثر مما يقتات به ٧٥٪ من سكان أفريقيا، وتصرف أمريكا أكثر من ١٠ مليارات دولار سنوياً على الأفلام والمجلات الإباحية، وفي مدينة آفون البرازيلية هناك ٧٠٠٠٠٠ امرأة تعمل في مجالات الجنس والدعارة بينما يبلغ مجموع عناصر القوات المسلحة البرازيلية ٤٥٤٠٠٠ عنصر فقط، وتبلغ تجارة العالم بالمخدرات نحو ٤٠٠ مليار دولار، وتعرض نحو ١٢٠٠٠٠ فتاة للاتجار في أوروبا الغربية كل عام^(٢)

ونحن وإن كنا أقل من ذلك إحصاء إلا أننا لسنا معصومين من الوصول إلى هذه النتيجة سواء طوعاً نتيجة التأثير بما يحدث في العالم الذي تحول اليوم على قرية صغيرة يسمع من هو في القطب الشمالي آهة من هو في القطب الجنوبي ساعة وقوعها، أو قسراً

(١) موقع فيصل نور، <http://www.fnoor.com/fn0364.htm>

(٢) ينظر: حقيقة ينبغي أن تغير العالم، جيسيك ويليامز، ترجمة مركز التعريب والبرجمة، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٥.

نتيجة الغزو الثقافي الممنهج والمدعوم بالإمكانات العظيمة التي يمتلكها الغرب.

وعليه يجب أن نأخذ حذرنا وننمي حيطتنا ونعمل جاهدين للم شمل امتنا بالتوافق على بعض نقاط الخلاف بيننا ولا سيما منها تلك التي أبان العلم المعاصر زيفها وأبطل تأثيرها وفعلها، وما من متعة أكبر من أن نمجد ديننا الحق ورسولنا الأمين ﷺ وأهل البيت الكرام ﷺ ونمحو آثار الظلم الذي أصابهم وعدم التصديق بما روي عنهم من مهازل ومخالفات لا يرتكها أقل المسلمين علماً بحدود الشريعة وتعاليمها. وما روي من فضائل وتبجيل عن أعدائهم ومبغضهم، وما أحوجنا اليوم للاتفاق على نزاهة وعلو شأن وكبير منزلة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، وانحطاط درجة من أراد به السوء قولاً أو فعلاً، فنظرية من أخطأ فقتل ألوف المسلمين نتيجة النزق والطمع بالإمرة والملك لا يمكن أن يتقبلها عاقل، وما هي إلا وليداً سفاحاً للسياسة التي صادرت الدين ومحت آثاره.

فما الضير لو اتفقنا على حب علي وأهل بيته (عليه السلام) مادام حبهم من الإيمان وقد قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا». وأنا لا أقصد بقولي هذا فئة بعينها لأنني أجد الجميع مقصرين بحق الإمام الحسن بن علي ﷺ بدرجات متفاوتة، والله در الشهيد مطهري الذي قال عن الإمام الحسين ﷺ: «استشهد الإمام الحسين ثلاث مرات:

الأولى: على يد اليزيديين بفقدانه لجسده.

والثانية: على يد أعدائه الذين شوّهوا سمعته وأساءوا لمقامه.

أما الثالثة: فعندما إستشهدت أهدافه على يد بعض المؤلفين. وكان هذا هو الاستشهاد الأعظم». ولم يسعني الإطلاع على ما قاله بحق أخيه الإمام الحسن ﷺ،

ولكنني على يقين تام أنه لو كان قد قال بحق الحسن (عليه السلام) قولاً مشابهاً، ربما كان قد أضاف إليه لوعة رابعة وحتى خامسة وسادسة، لعمق ما أرتكب بحق الحسن (عليه السلام).

وآخر ما أريد قوله: ذلك هو الحسن (عليه السلام)، وهؤلاء هم أعداؤه، ولا ميزان في الكون كله ممكن أن تجمع كفتاه طوداً شامخاً كالحسن (عليه السلام) مع قعر لا قرار له ك معاوية. وأن الحسن (عليه السلام) بجهاده ووجوده أكمل ما بدأه أبوه في مراحل بناء الفكر الشيعي فكان بحق المؤسس الحقيقي للتشيع، وهو الذي سلمَ بناءه العامر إلى أخيه الحسين (عليه السلام) ليكمل مراحل البناء، فوصل إلينا وعمرَ قلوبنا وضمائرنا، ولولا الحسن (عليه السلام) ودوره العظيم ما كان لنا أن نعرف التشيع ونعتنقه ونخلص له، فعليه سلام الله.



مراجع ومصادر الجزء الثاني

(i)

- أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، طبعة دارالتعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
- أهل البيت، الحسن بن علي، توفيق أبو علم، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- أهل البيت وبيت المال، السيد محسن النوري الموسوي، منشورات حسين التميمي، دار المتقين، بيروت، ٢٠٠٩.
- الأنوار النعمانية، ج ٤، ص ١٥٢ كتاب الكتروني .
- الإمام الحسن عليه السلام القائد والأسوة للشيخ حسين سليمان سليمان، كتاب ألكتروني، مكتبة الحسن عليه السلام العقائدية.
- أبناء الزهراء أبناء الرسول، الشيخ رضا الأستاذي، مركزه، قم، إيران، ١٣٨٨ هـ.
- أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية، الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، العارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- الإرشاد الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المفيد (٣٣٦-٤١٣ هـ).
- الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرزاق، بيروت، ١٩٧٢.
- الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأصبهاني أو الأصفهاني (٢٨٤ هـ-)

٣٥٦هـ / ٨٩٧م) تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تصحيح فلاديمير جرجاس، طبعه ليدن سنه ١٨٨٨، كتاب الكتروني، مكتبة المصطفى.

الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) تحقيق علي شيري، منشورات الشريف الرضي، (د.ت).

أسباب النزول، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق عبد الله المنشاوي، دار صلاح الدين، القاهرة، ٢٠٠١.

الاختصاص، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراف الساعة، الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، الرياض، ١٣٩٤.

أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر، صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الأعلام، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

الأشباه والنظائر، الشيخ زين العابدين ابن إبراهيم، شرح: أحمد بن محمد الحنفلي الحموي ابن نجيم المصري الحنفلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٤٠هـ ١٩٨٠م.

الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، جلال الدين عبد الرحمان السيوطي ٩١١هـ، ٢، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكتبة نزار مصطفى

الباز مكة المكرمة - الرياض، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، تحقيق خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تقديم بدوي طبانة، تصوير مكتبه كرياضه فوترا - سماراغ - إندونيسيا، كتاب الكتروني، المكتبة الوقفية.

(ب)

البداية والنهاية، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١-٧٧٤هـ) تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

بحار الأنوار، المجلسي.

البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار.

(ت)

تاريخ دمشق الكبير، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تحقيق الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩.

تهذيب تاريخ دمشق الكبير، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تهذيب وترتيب الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

تاريخ الأمم والملوك، جعفر بن محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٥هـ) مراجعة نواف الجراح، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣.

تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر - ابن النجار تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، سنة الطبع: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، القاضي أبو بكر محمد بن طيب الباقلائي، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتاب الثقافية، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

تأريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي (ت ٢٩٢ هـ) تعليق خليل المنصور، دار الاعتصام ١٤٢٥ هـ.

تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط ٣، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، دار العلوم الحديثة، بيروت، ١٩٨٧.

تحف العقول، الحسن بن شعبة الحراني، الأعلمي.

تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج جمال الدين المزي (٦٥٤-٧٤٢ هـ)، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠ م-١٤٠٠ هـ.

تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي محمد السلامة، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (تفسير السعدي)، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل والشيخ محمد الصالح العثيمين، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، الدكتور فاروق السعد، ط ٢٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ٢٠٠٢.

تحفة الأحوذى، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية.

تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة، الحافظ أبو الفرج سبط ابن الجوزي، قدم له السيد محمد صادق بحر العلوم، مكتبة نينوى، العراق، (د.ت).

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، الناشر: طبعة الكويت.

(ج)

الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

الجلس الصالح الكافي والأئیس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهروانى (ت ٣٩٠هـ)، تحقيق عبد الكريم سامى الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(ح)

الحرية في الإسلام، الدكتور علي عبد الواحد، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨، سلسلة اقرأ ٣٠٤.

الحياة السياسية للإمام الحسن في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الثلاثة بعده، جعفر مرتضى العاملي، ط ٤، المركز الإسلامى للدراسات، بيروت، لبنان، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م.

الحسن بن علي رجل الحرب والسلام، السيد محمد علي الحلو، مؤسسة السبطين العالمية، ١٤٢٦ هـ.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني.

الحياة السياسية للإمام الحسن، السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامى للدراسات، بيروت، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م.

حياة الإمام الحسن، الشيخ باقر شريف القرشي.

حليم آل البيت الحسن بن علي، الشيخ موسى محمد علي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م.

حقيقة ينبغي أن تغير العالم، جيسكا ويليامز، ترجمة مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٥.

(خ)

- الخلافة المغتصبة أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟) للأستاذ إدريس الحسيني، كتاب الكتروني، مركز الأبحاث العقائدية.

الخلافة الإسلامية، محمد سعيد العشماوي، ط ٢، دار سينما، القاهرة، ١٩٩٢.

الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، الدكتور محمد عمارة، ط ٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ)، مؤسسة الإمام المهدي، بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، قم، إيران، ١٤٠٩ هـ، كتاب الكتروني.

(د)

- دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ج ٤٠١ / ٤٠٢. تم إصدارها على طبعتين، الأولى بين ١٩١٣ و ١٩٣٨، والثانية ما بين ١٩٥٤ و ٢٠٠٥، ويتم إصدارها من قبل شركة بريل الهولندية. وقد ظهرت هذه الموسوعة بأكثر من لغة، أما بالنسبة للعربية فقد تم تعريب بعض أجزائها وتنقيحها وصدرت في مصر في الستينات وأعيد طبعها بالشارقة عام ١٩٩٨. ج ١، ص ٤٠١-٤٠٢.

الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، الدكتور محمد عمارة، ١٤٠٩-١٩٨٨، دار الشروق، القاهرة.

الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الدكتور عبد الله محمد جمال الدين، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الدكتور عبد الله محمد جمال الدين، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

دور الأئمة في الحياة السياسية، الشيخ محمد اليعقوبي، مؤسسة البديل، دار المتقين، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

(ر)

- الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، الشهيد الثاني، دار الهادي.
الرائد معجم لغوي عصري، جبران مسعود، دار العلم للملايين، سنة النشر: ١٩٩٢.

(ز)

- الزواج الإسلامي، نظرة مختصرة على العلاقات الزوجية في الإسلام، السيد عبد الحسين دستغيب، ترجمة لجنة الهدى، ط٣، دار البلاغة، بيروت، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
زوجات الأئمة المعصومين، الشيخ ماجد ناصر الزبيدي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

الزواج السياسي في عصر المهاليك ٦٤٨-٩٢٣هـ، الدكتور فاضل جابر ضاحي والدكتور ثامر نعمان مصطفى، ط٢، دار رند للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠١٠.
زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤١٨هـ / ١٩٩٨.

(س)

- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ هجرية.

سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، الدكتور علي محمد الصلابي، ط٨، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.

سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بجر النسائي، دار الجليل، بيروت، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المكتبة العصرية.

سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، المكتبة العلمية، بيروت.

(ش)

- شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، المحقق الحلي، ط٢، تعليق السيد صادق الشيرازي، منشورات استقلال، طهران، مطبعة أمير.

الشائعات المشهورة ضد الإمام الحسن، الشيخ الدكتور نجاح الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، بيروت، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م.

شرح نهج البلاغة، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي، دار المعرفة، دار الكاتب العربي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، (د.ت).

الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨-١٩٩٧.

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين

من بعدهم، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (ت ٤١٨هـ)،
ط ٤، تحقيق: د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض، ١٤١٦ هـ -
١٩٩٥ م.

(ص)

- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، أحمد بن حجر الهيتمي المكي، مكتبة
القاهرة، مصر.

صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ١٩٤-٢٥٦هـ) دار إحياء
التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، جزء واحد.

* - وطبعة دار الفكر، بيروت بغداد، ١٩٨٦، أربعة أجزاء.

صفة الصفوة، أبو الفرج ابن الجوزي، ط ٣، تحقيق محمود فاخوري، خرج أحاديثه محمد
رواس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

صلح الإمام الحسن وثورة الإمام الحسين من منظور السنن التاريخية في القرآن
الكريم، محسن الأراكي، مجمع أهل البيت، النجف الأشرف، ١٤٣٣ هـ.

صلح الحسن، الشيخ راضي آل ياسين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٣١ هـ
٢٠١٠ م.

(ط)

- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق علي محمد عمر،
مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، سنة النشر: ١٤٢١ - ٢٠٠١.

طبقات ابن سعد، القسم المفقود، تحقيق الدكتور محمد بن صامل.

(ع)

- علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٨) ودوره في كتابة التاريخ، رسالة من متطلبات درجة

الماجستير تقدم بها الطالب عماد عزام جوايزة إلى قسم التاريخ بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين عام ١٤٢١ هجرية ٢٠٠١ ميلادية.

علي ومعاوية، في الرواية العربية المبكرة، أيلرلنغ ليدوك بيترسن، ترجمة عبد الجبار الناجي، مكتبة دار المجتبى، النجف، العراق.

عقائد الإمامية، الشيخ محمد رضا المظفر، ط٢، مركز الأبحاث العقائدية، النجف الأشرف، ١٤٢٤ هجرية.

عقيدة الشيعة، دوايت م. رونلدسن، مؤسسة المفيد، بيروت، ١٩٩٠.

العقيدة والشريعة في الإسلام، للمستشرق أجناس جولد تسيهر، نقله إلى العربية محمد يوسف موسى وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٤٦.

علمانية الحكم، الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م.

علل الشرائع، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفيفاني، السيد جعفر مرتضى العاملي، كتاب الإلكتروني، مكتبة العقائد، مركز الأبحاث العقائدية.

عون المعبود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، أربعة عشر جزء.

العهد والبيعة وواقعنا المعاصر، الدكتور عدنان علي رضا النجوي، دار الهدى للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

(غ)

الغارات، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال المعروف بابن هلال الثقفي، تحقيق عبد الزهرة الحسيني، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

غمز عيون البصائر وشرح كتاب الأشباه والنظائر، احمد بن محمد الحنفي الحموي، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(ف)

- في رحاب الإمام الحسن المجتبي، قسم الثقافة والإعلام، الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الكاظمية المقدسة، ١٤٣٣هـ.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دارالريان للتراث، سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

الفتنة الكبرى، طه حسين، طبعة القاهرة، ١٩٧٠.

الفرقة بين الزوجين وما يتعلق بها من عدة ونسب، علي حسب الله، دار الفكر العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

فلسفة الدولة في الفكر السياسي الشيعي، ولاية الفقيه أنموذجا، الدكتور الشيخ محمد شقير، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢.

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الدكتور محمد البهيّ، ط ٤، مكتبة وهبة، القاهرة. طبع لأول مرة عام ١٩٥٧م.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

فقه الحدود والتعزيرات، السيد عبد الكريم الاردبيلي، مؤسسة النشر لجامعة المفيد، قم، طهران، ١٤٢٧ هجرية.

(ق)

قواعد أصول الفقه على مذهب الإمامية، إعداد لجنة تأليف القواعد الفقهية والأصولية التابعة لمجمع فقه أهل البيت، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، المجمع العالمي لأهل البيت، طهران، ١٤٢٣ هـ.

قاعدة لا ضرر ولا ضرار، محمد عبد العزيز السويلم. الرياض: دار عالم الكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» سماحة السيد صادق الحسيني الشيرازي. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦ هـ) تحقيق الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(ك)

- كفاية الأصول في أسلوبها الثاني، الشيخ باقر الإيرواني، مؤسسة إحياء التراث الشيعي، رقم الإصدار ١٩، النجف الأشرف، ١٤٢٩ هـ جرية.

الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨-٣٢٩)، دار المرتضى، بيروت، ٢٠٠٥.

الكبر، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، كربلاء المقدسة، العراق.

كشف الالتباس في معرفة أحوال ابن عباس، الشيخ علي الأحراري، بدون بيانات نشر.

كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، ط ٢، دار

الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٥.

الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم

بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠ هـ) تحقيق الشيخ خليل مأمون شيخا، دار

المعرفة، بيروت، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

كتب وشخصيات، سيّد قطب، طبعة دار الشروق، القاهرة، (د.ت).

(ج)

لامنس - موسوعة المستشرقين، الدكتور عبد الرحمن بدوي.
اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية، بالحاج بن عدون قشار، ط ٢، مكتبة الضامري،
السيب، سلطنة عمان، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م - ٧١١ هـ / ١٣١١ م).

(م)

- المستدرك على الصحيحين، أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق
مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.
المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى أحمد الزيات حامد عبد القادر محمد النجار، تحقيق
مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.
المسند، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، دار إحياء التراث العربي، سنة النشر:
١٤١٤هـ ١٩٩٣م.
مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل بن شاعر
السامري الخرائطي المتوفى عام ٣٢٧هـ، تحقيق ودراسة الدكتور عبد الله بن بجاش بن
ثابت الحميري، طبعة مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م.
مقاتل الطالبين، أبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ) تحقيق أحمد صقر، مؤسسة
العتار الثقافية، قم، إيران، ١٤٢٨هـ.
مكارم الأخلاق، رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي.
المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن

محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

المسند (المعلل الكبير)، للحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (ت ٢٩٢).

المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق الدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

المعجم الصغير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

مجمع البيان في تفسير القرآن، تفسير الطبرسي، الطبرسي، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هجرية.

المصنف في الأحاديث والآثار المعروف بمصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم أبي شيبة العبسي أبو بكر (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة - مؤسسة علوم القرآن، الرياض، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني، طبعه الراشد بن علي المحلاتي الحائري سنة ١٣١٣ هـ.

المستشرقون، بحث في الاستشراق لدى جميع الأمم، نجيب عقيقي، دار المعارف، مصر، (د.ت).

مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ) تحقيق صفوان عدنان داوودي، ذوي القربى، قم، ١٤٣١هـ.

المغني، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعلي الدمشقي الصالحى الحنبلى (٥٤١-٦٢٠هـ)، ط ٣، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، صححه واشرف على طباعته الشيخ حسين الاعلمي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧.

المستطرف الجديد، حكايات من التراث، هادي العلوي، ط ٢، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق.

المذهب السياسي في الإسلام، صدر الدين القبانجي، ط ٢، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥م ١٤٠٥هـ.

المنهج التربوي عند أهل البيت، السيد سعيد كاظم العذاري، دار الأمين للطباعة والنشر، بيروت.

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤٢٠هـ.

مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

مفحات الأقران في مبهمات القرآن، جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ، علق عليه محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧.

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، سنة النشر: ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٩٣.

المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع السلسلة: الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، ٢٠٠٤.

المقدمة، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، دراسة نقدية مقارنة، دكتور خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، ١٤٢٠-٢٠٠٠.

معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره، الدولة السفيلية، الدكتور علي محمد الصلابي، ط٦، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠١١م.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دار صادر - بيروت.

(ن)

- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، كتاب الكتروني.

نظام الإسلام السياسي، باقر شريف القرشي، ط٢، دار التعارف، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ﷺ، الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي الشسافعي، الدار العالمية، بيروت.

(و)

- الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، الدكتور محمد صدقي بن أحمد البورنو، ط ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.

(ي)

- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم الحسيني البلخي القندوزي (١٢٢٠ هـ / ١٢٩٤ هـ)، طبعه دار الخلافة العلمية سنة ١٣٢٠ هـ، كتاب الكتروني، مكتبة المصطفى.

الدراسات

جريدة العرب القطرية، الأحد ١٢ / ٦ / ١٤٣٢ هـ / ١٥ / ٥ / ٢٠١١ م، الدوحة عبدالله العذبة إياد الدليمي.

مقال بعنوان (هل كان تاريخنا ماضياً سعيداً؟) الكاتب المصري سيد القمني، نشرته مجلة روز اليوسف الصادرة يوم الخميس ٩ حزيران ٢٠١٠.

موضوع عنوان: (الأجوبة الأزهرية على الشبه الشيعة) موقع (عقيدة أهل السنة والجماعة عبر العصور من السلف والخلف الصالح).

مقال بعنوان (لماذا أولاد الإمام الحسين معصومون وأولاد الإمام الحسن غير معصومين؟) نشره يوم السبت، ٢٧ تشرين الأول، ٢٠١٢، موقع كتابات، فواز الفواز.

موضوع بعنوان: قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح، ملتقى أهل الحديث.

<http://www.ahlalhdeth.com/vb/showthread.php?t=212504>

دراسة لمستبصر إماراتي بعنوان «نقض الحديث الموضوع ابني هذا سيد» نشرها في موقع شبكة الكافي العقائدية، الرابط،.

<http://alkafi.net/vb/showthread.php?p=1687>

مقال (هل كان تاريخنا ماضيا سعيدا؟) سيد القمني التي نشرتها مجلة روز اليوسف
الصادرة يوم الخميس ٩ حزيران ٢٠١٠.

المواقع الالكترونية

موقع المكتبة الشاملة، الرابط:..

<http://shamela.ws/index.php/author/1893>

موسوعة الحسن الرابط:..

<http://www.mezan.net/mawsouat/hassan/solh.html>

الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، الرابط.

<http://www.wata.cc/forums/showthread.php?68237->

شبكة الربانيون العلمية، الرابط:..

<http://www.alrbanyon.com/vb/showthread.php?t=8474>

موقع أهل السنة، الرابط:..

<http://ahlalsonnah.wordpress.com/>

موقع الشيرازي.

<http://alshirazi.net/monasabat/monasabat/113.htm>

موقع شبكة الدفاع عن السنة..

<http://www.dd-sunnah.net/forum/showthread.php?t=80121>

مجلة الفرات:..

<http://www.alkadhum.org/alfurat/portal/content/view/72/49/>

مركز آل البيت للمعلومات، محمد أمين نجف.

موقع إسلام ويب،.

<http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=179956>

المحتويات

٣	موقع حقيقة الإخوان المسلمين . مقدمة الناشر
http://www.anti-ikhwan.com/?p=75	
٧	المقدمة
١٩	موقع فيصل نور، الفصل الأول السياسة الدنيوية
http://www.fnoor.com/fn0364.htm	
٢١	السياسة الدنيوية
٢١	تقديم
٢٣	السياسة العرب
٢٨	الصراع الديني السياسي
٣١	العصبية
٤٩	الفصل الثاني الحياة السياسية قبل وبعد عصر البعثة
٥١	الحياة السياسية قبل وبعد عصر البعثة
٥١	سياسة العرب قبل عصر البعثة
٥٦	السياسة في عصر البعثة
٦٠	التخطيط السياسي لقتل النبي ﷺ
٦٥	نشاط السياسيين في عصر البعثة
٦٥	المرحلة الأولى:

- ٦٨ المرحلة الثانية:
- ٦٩ المرحلة الثالثة:
- ٧٠ المرحلة الرابعة:
- ٧٠ المرحلة الخامسة:
- ٧١ السياسة والدولة
- ٧٥ التنقل عبر الخطوط
- ٧٨ التكتّم على دور العرب السياسي
- ٧٩ الأنساق السياسية
- ٨٥ الذين كتبوا التاريخ أخفوا حقائقه
- ٩١ قلب المعادلة
- ٩٥ السياسة بعد عصر البعثة
- ٩٥ ترشيح وتنصيب ودعم وقتل الخلفاء
- ١٠٠ قتل الخليفة عثمان
- ١٠٤ اتهام علي بالتآمر والتواطؤ مع المتآمرين!
- ١١٣ الفصل الثالث النزاع السياسي مع الخط العلوي
- ١١٥ النزاع السياسي مع الخط العلوي
- ١١٧ المرحلة الأولى: المواجهة الناعمة
- أولاً: إتمام مشروعهم الذي بدأ في زمن البعثة وكانت غايته
- ١١٧ زرع الفُرقة بين النبي ﷺ وبين علي عليه السلام.
- ١٢٠ • ثانياً: استباق الأحداث وانتهاز الفرص ختلاً.

- ثالثاً: إنكار حقه في الخلافة وأهليته للخلافة
- ١٢١ والعمل على تنحيته عنها مرتين.
- ١٢٢ علي وسنة الشيخين
- ١٢٦ وهل قتل حجر بن عدي من السنة أم من الجماعة؟
- رابعاً: التخلف عن بيعته
- ١٣٤
- سادساً: تخريب اقتصاد دولته.
- ١٤٠
- ١٤٣ محاولات الإصلاح الاقتصادي العلوية
- ١٤٥ المرحلة الثانية: المواجهة الخشنة
- ١٤٥ قتال الناكثين والقاسطين والمارقين
- ١٥١ الحرب هي الحل
- ١٥٥ الجمل، الحرب الغادرة الأولى
- ١٦١ صفين، معركة الخداع والمكر السياسي
- ١٦٢ جمر الصحابة بالفتوح للتخلص منهم
- ١٦٦ فصول صفين
- ١٦٩ النهروان، معركة المغفلين المخدوعين
- ١٧٧ المرحلة الثالثة: تكميم الأفواه وتغيير الموروث
- ١٧٧ سب الإمام علي
- ١٨١ فصل الرابع أنموذجات سياسية في تاريخ العرب
- ١٨٣ أنموذجات سياسية في تاريخ العرب
- ١٨٣ المغيرة بن شعبة

١٨٤	قتل الخليفة عمر
١٨٩	مروان بن الحكم
٢٠١	الأشعث بن قيس
٢٠٢	أبو سفيان ومشايخ قريش
٢١٣	المؤرخون والسياسة
٢٢١	الفصل الخامس النزاع السياسي مع الخط الحسني
٢٢٣	النزاع السياسي مع الخط الحسني
٢٢٣	سياسة التشكيك
٢٢٥	تشكيكهم بتاريخ مولده
٢٢٨	تشكيكهم في أصل تسميته
٢٣٢	تشكيكهم أن النبي ﷺ عقى عنه
٢٤٢	تشكيكهم في صحبته
٢٤٣	إسهامه في الفتوح
٢٤٥	الخلط بين مهام إمامته وخلافته
٢٥٣	التلاعب بتاريخ وفاته
٢٦٣	تشكيكهم بطريقة موته
٢٨١	اعتراضهم على دفنه مع جده
٢٩١	هدم القبر الشريف
٢٩٣	الإمام الحسن في ميزان النبوة
٣٠٣	فرح السياسيين بموته

٣٠٧	عدم احترام منزلته
٣٠٩	لم يشفع له شبهه بالنبي ﷺ
٣١٢	حجبهم الراشدية عنه
٣١٩	وتمكنت السياسة من خلط الأوراق بشأن خلق الإمام
٣٢١	الفصل السادس السياسة الدينية
٣٢٣	السياسة الدينية
٣٢٩	المستقبلية
٣٥٥	ايداء الحكام الجائرين لآل البيت عليه السلام
٣٦٥	الخاتمة
٣٧١	المراجع

الجزء الثاني

الإمام المفترى عليه

٣٩١	مقدمة
٣٩٣	الفصل الأول قصص زوجاته التسعمائة!
٣٩٥	قصص زوجاته التسعمائة!
٤٠٢	المدائني
٤٠٥	الحسن عليه السلام المبذر المتلاف
٤١٩	انزعاج الإمام علي عليه السلام
٤٢٧	الزواج السياسي
٤٣٩	الأصل التاريخي لروايات الزواج الخرافي

- ٤٤٧ مع الكثرة يسوء الاختيار
- ٤٥١ حب نسائه له
- ٤٥٣ معرفة دقائق الأمور
- ٤٦٥ أولاد الإمام الحسن عليه السلام
- ٤٧١ الفصل الثاني صدق الأئمة وكذب السياسيين
- ٤٧٣ صدق الأئمة وكذب السياسيين
- ٤٧٩ نظرية الحق الإلهي
- ٤٩٩ التنصيب الإلهي
- ٥٠٥ الكبر
- ٥١٧ الفصل الثالث الصلح في الجزئية والكلية
- ٥١٩ بعض ملامح أخلاق الإمام الحسن عليه السلام السياسية
- ٥٣٣ الشروط بين الفقه والفكر السياسي الإسلامي
- ٥٣٧ ما اشتبه عليهم
- ٥٤٩ الإذلال في ميزان الواقع
- ٥٥٥ ما بال المعاصرين
- ٥٦١ الجانب الفقهي للصلح
- ٥٦٢ الآية من حيث سبب النزول:
- ٥٦٣ الآية من حيث التفسير:
- ٥٦٥ الآية من حيث التشريع:
- ٥٦٩ مشروعية الصلح والحرب في الإسلام

٥٧٣ الفصل الرابع الأغيلة والشجرة الخبيثة

٥٧٥ حديث الأغيلة

٥٨٧ الشجرة الملعونة في القرآن

٥٩٥ قتال الحسن عليه السلام للبيعة مكمل لقتال علي عليه السلام لهم

٦٠٥ جيش الإمام الحسن عليه السلام

٦١٩ من البادئ بالمسير إلى الحرب؟

٦٢٥ إلتقاء الجيشين

٦٣٥ هل التقى الجيشان فعلاً؟

٦٣٩ مَنْ بادر إلى الصلح أولاً؟

٦٤٥ قصة البخاري الملفقة

٦٥٧ مؤامرة الخطبة

٦٦١ الفصل الخامس المدارس الفقهية وموضوع الصلح

٦٦٣ المدارس الفقهية وموضوع الصلح

٦٩١ ترابط منهج الإمامة المعصومة وفهم الحسن عليه السلام للصلح

٧٠٥ لماذا صالح الحسن عليه السلام؟

٧١٣ الفصل السادس الصلح والقواعد الفقهية

٧١٥ الصلح والقواعد الفقهية

٧١٥ درء الحدود بالشبهات

٧٢٧ الإمام والوحدة الإسلامية

٧٢٩ وثيقة الصلح

معاوية والصُّلح

٧٣٧

الحسن عليه السلام بعد الصُّلح

٧٤٥

مراجع ومصادر الجزء الثاني

٧٦٧

